

النظام التقديري المعمولي

١٢٥٥ - ١٤٠٧ هـ / ١٩٣٣ - ١٩٨٥ م
دراسة تاريخية حضارية

المؤلف

عبد بن محمد بن علي النجدي

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية العلوم الاجتماعية
قسم التاريخ والحضارة



الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص ب ٦٦٧٢ الرمز ١١٤٥٢

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس ٤٦٥٠١٢٩

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي ..
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية العلوم الاجتماعية
قسم التاريخ والحضارة

النظام النقدي المملوكي

٦٤٨ - ٩٢٢ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م
دراسة تاريخية حضارية

دكتور
حمود بن محمد بن علي الفجيدى

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية العلوم الاجتماعية
قسم التاريخ والحضارة

الناشر
مكتبة العبيكان
الرياض - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة
ص.ب ٦٦٧٢ الرمز ١١٤٥٢
هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس ٤٦٥٠١٢٩

حقوق الطبع محفوظة
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الاقتصاد ومن خلاله النظام النقدي ، له من التأثير المباشر على الأفراد والمجتمعات بحيث أصبحت مكانته ذات تأثير كبير فى توجيه الأحداث فى نواحي الحياة المختلفة ، وأصبحت اقتصاديات الدول ، وعلاقاتها التجارية تأخذ الأهمية القصوى فى اهتمامات الدول بمختلف اتجاهاتها ، ولا نهالغ اذا جعلنا للظروف الاقتصادية أثرها المباشر على الأوضاع المحلية والعالمية .

وإذا كان منشأ هذه النظرة ما للاقتصاد فى عصرنا الحاضر من أهمية وتأثير . فإنه لا شك فى أن الأوضاع الاقتصادية قد اكتسبت النظرة نفسها فى مختلف العصور التاريخية ، ومنها الفترة موضوع الدراسة .

وإذا لم تلحظ تلك النظرة بشكل بارز فإن مرد ذلك يعود الى طابع العصر نفسه ، فالى جانب عدم استقلالية الاقتصاد علماً قائماً بذاته ، فإن ارتباطه بمجموعة النظم القائمة فى الدولة من دينية وسياسية واجتماعية وغيرها ، قد أدى الى اختفاء وظيفته فى التأثير على الاوضاع والاحداث ، فارتبطت اقتصاديات الدول والشعوب بتلك النظم ، واصبحت النظرة الى النظم الاقتصادية من خلال المعاملات الشرعية ، او التوجهات السياسية للدولة ، او بما يقوم به الافراد من مهن وحرف ، او بما يربطهم من علاقات اجتماعية . ونرى هذا الواقع واضحاً جلياً من خلال كتابات المؤرخين ، خصوصاً مؤرخى العصر المملوكى ، حيث ربطوا ما يوردونه من معلومات اقتصادية بأحداث سياسية او اجتماعية او معاملات شرعية ونحو ذلك .

وعلى هذا فليس الاقتصاد ^(١) - من وجهة نظرى - ظاهرة حياتية حديثة ،

(١) لعلم الاقتصاد تعاريف كثيرة باختلاف وجهات نظر الاقتصاديين ومبولوجهم واتجاهاتهم . واكثر التعاريف قبولاً هو القائل : إن علم الاقتصاد هو العلم الذى يبحث فى مشاكل ..

بل إنه علم وجد مع وجود الانسان ، وحاجته إلى التعامل فى سبيل الحصول على ضروريات حياته اليومية ، ومرار الزمن ، ومع تطور العقل البشرى ، ثم تشعب سبل الاتصالات والعلاقات البشرية كان من الضرورى تنظيم وتسهيل التعقيدات الناشئة عن هذا التطور وتلك العلاقات ، ومن جوانب ذلك التنظيم ظهرت التنظيمات والنظريات الاقتصادية الحديثة للدلالة على الاهمية التى يستحقها الاقتصاد ، او تستحقها النظم الاقتصادية ، ليصبح من هذا المنظور علماً قائماً بذاته له دوره المؤثر على حياة الافراد والمجتمعات .

ومن هنا لاهد لنا ونحن بصدد الحديث عن جانب هام من النظم الاقتصادية وهو (النظام النقدى) من ان نلقى الضوء على المفاهيم الاساسية للجوانب المرتبطة بذلك بذلك النظام من حيث اصلها وتعريفها ، ومدى ترابطها او استقلالها ، وتأثيرها بالنظام النقدى او تأثيرها فيه .

ـ التوفيق بين الموارد المحدودة وحاجات الانسان غير المحدودة والمتفاوتة فى الاهمية ، كما انه يبحث فى مسائل الانتاج والاستثمار والانتفاع والخدمات ، وهو يبحث المشكلة الاقتصادية التى تتكون من ظروف اساسية للانسان هى :

أ - تعدد غاياته .

ب - اختلاف اهمية كل من هذه الغايات .

ج - قلة الوسائل للوصول اليها .

د - إمكانية استعمالها فى اغراض اقتصادية .

لمزيد من التفاصيل عن ذلك فضلاً أنظر : معجم العلوم الاجتماعية ، اعداد نخبة من الاساتذة المتخصصين ، حرف العين ، ص ٤٠٦ - ٤١٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ . أحمد الشهاصى ، المعجم الاقتصادى الاسلامى ، ص ٣٦ ، الطبعة الاولى ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م . دار الجبل ، بيروت ، مصطفى الهمشرى ، النشاط الاقتصادى فى الاسلام ، ص ٢٤ ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م . دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض .

ومن الافضل ان نوضح تلك المفاهيم بشكلها الواسع ، ثم نترج الى الخاصة منها لنصل الى الحديث عن ماهية النظام النقدي ، وما يرتبط به من جزئيات .

فالنظم جمع نظام ، وهذا اللفظ يطلق على مجموعة من الإجراءات والتدابير تكون على هيئة قواعد ، او ثوابت يتم من خلالها تسيير العمل فى أمر من الأمور ، أو جانب من الجوانب .

وعندما يقترن لفظ النظم بالاقتصاد فإنه دلالة على مجموعة القواعد والأسس التى يعمل بها فى مختلف المجالات الاقتصادية .

وعند البحث عن المعنى اللغوى للفظ نظام نجد ما يلى :

ورد فى اللسان ^(١) عن مادة (نظم) : «النظم التأليف نظمته ينظمه نظاماً ونظاماً ، ونظمه فانتظم وتنظم ، ونظمت اللؤلؤ أى جمعته فى السلك ، والتنظيم مثله ، ومنه نظمت الشعر ونظمته ، ونظم الأمر على المثل ، وكل شئ قرنته بآخر ، أو ضمت بعضه الى بعض فقد نظمته . والنظم المنظوم وصف بالمصدر ، والنظم ما نظمته من لؤلؤ وخرز وغيرها واحده نظمته ، ونظم الحنظل حبه فى صيصاته . والنظام ما نظمت فيه الشئ من خيط وغيره ، وكل شعبة منه وأصل نظام ، ونظام كل أمر ملاكه والجمع أنظمة وأناظيم .

وجاء فيه أيضاً : «وليس لأمرهم نظام أى ليس له هدى ولا متعلق ولا استقامة ، وتناظمت الصخور أى تلاصقت» .

(١) لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الانصارى - مادة نظم - ج ١٦ ، ص ٥٦ - ٥٧ . المؤسسة المصرية للتأليف والنشر . عن طبعة بولاق سنة ١٣٠٨ هـ .

ورود فى مختار الصحاح ^(١) ، وفى القاموس المحيط ^(٢) ما يفيد ذلك ،
والخلاصة ان النظام ما يطلق على الاستقامة ، او المنهج المتسق الذى لا اختلاف
فيه ، او الضم والتأليف مع الاتساق والتوافق .

وعن لفظ اقتصاد فقد ورد فى اللسان ما يلى ^(٣) :

«القصد استقامة الطريق ، قصد قصداً فهو قاصد . قال تعالى : "وعلى الله
قصد السبيل" أى على الله تبين الطريق المستقيم ، والدعاء اليه بالحجج
والبراهين الواضحة ، ومنها جائز أى ومنها طريق غير قاصد ، وطريق قاصد سهل
مستقيم ، وفى الحديث : "القصد القصد تبلغوا" أى عليكم بالقصد من الأمور
فى القول والفعل وهو الوسط بين الطرفين ... ، والقصد فى الشئ خلاف
الإفراط ، وهو ما بين الإسراف والتقتير ، والقصد فى المعيشة أن لا يسرف ولا
يقتر ، يقال فلان مقتصد فى النفقة وقد اقتصد ، واقتصد فلان فى امره أى
استقام ، وقوله منهم مقتصد بين الظالم والسابق وفى الحديث ما عال مقتصد
ولا يعبل أى ما افتقر من لا يسرف فى الاتفاق ولا يقتر .. الخ . وجاء فى
القاموس ^(٤) ، ومختار الصحاح ^(٥) ما يفيد ذلك .

والخلاصة ان مادة اقتصاد تفيد الاستقامة والسهولة . واتباع اليسر

(١) لمحمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى ، ص ٦٦٧ . - مادة نظم - . الطبعة الأولى

١٩٦٧ م . دار الكتاب العربى ، بيروت لبنان .

(٢) لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى ، ج ٤ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ - مادة نظم -

دار الجليل ، بيروت ، لبنان عن طبعة مصطفى الباقى الحلبي سنة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .

(٣) ابن منظور ، ج ٤ ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٧ . - مادة قصد - .

(٤) ج ١ ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠ . مادة قصد .

(٥) ص ٩٢٦ ، مادة قصد .

والسهولة والتوسط بين الاسراف والتقتير .

وعن المعنى الاصطلاحي للاقتصاد ، فقد تعددت التعاريف والتصورات نظراً لتعدد وجهات نظر الباحثين والمهتمين حول الأهداف المقصودة منه ^(١) ، ومن مجموع تلك التعاريف يمكن القول ان الاقتصاد ما هو الا اسلوب العمل ، او الطريقة المتبعة لتسيير الإنتاج والتوزيع والاستهلاك فى المجتمع ، ويندرج تحت هذا نشاط الانسان وتوفير احتياجاته ، وكيفية تعامله مع تلك الاحتياجات ليتحقق منها الغرض المقصود .

وعلى هذا يمكن توضيح النظم الاقتصادية على انها مجموعة القواعد والأسس ، والتنظيمات المحدودة لطرق استغلال مجالات الإنتاج ، واستخدامها لتحقيق وإشباع حاجات المجتمع ، بتنظيم وصولها اليه وفق ثوابت معينة ^(٢) .

وعند إلقاء الضوء على مدلولات هذا المعنى نجد أنه يتضمن جوانب اقتصادية متعددة تشمل مختلف مجالات الإنتاج من زراعة وصناعة وغيرها ،

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه التعريفات والتصورات . فضلاً أنظر :

- الموسوعة العربية الميسرة ، حرف الألف ، ص ١٨٤ . طبعة ١٩٦٥ م ، دار الشعب ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر القاهرة .

- أحمد عطية الله ، القاموس السياسى ، ص ١١٨ . الطبعة الرابعة ١٩٨٥ م ، دار النهضة العربية ، القاهرة .

- نخبة من الأساتذة المتخصصين ، معجم العلوم الاجتماعية ، حرف العين ، ص ٤١٦ - ٤١٧ .

- مصطفى الهمشرى ، النظام الاقتصادى فى الاسلام . ص ٢١ ، ٢٧ .

- محمود ابو السعود ، خطوط رئيسية فى الاقتصاد الاسلامى ، ص ٥ ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، نشر الاتحاد الاسلامى للمنظمات الطلابية الكويت .

(٢) معجم العلوم الاجتماعية ، حرف التاء ، ص ١٨٦ ، حرف النون ، ص ٦٠٥ .

كما تشمل مجالات التوزيع من بيع وتصدير وغيرها ، وتشمل أيضاً مجالات الإستهلاك من شراء أو استيراد وغيرها ، ولا شك فى أن هذه المجالات ترتبط ببعضها فى عدد من الجوانب الاقتصاية كالمعاملات المالية التى يحكمها او يديرها النظام المالى ، وأداة التبادل أو وسيلة الدفع ويمثلها النظام النقدى ، وما يحتاجه من عمليات إستبدال النقود ، وصرفها ويمثلها النظام المصرفى فى الدولة .

وعلى هذا يكون الاقتصاد قد ضم بين جنباته مجموعة من النظم المحركة والموجهة للنشاط الاقتصادى ، ومن المستحسن بناء على ذلك أن نطلق مصطلح (النظم الاقتصادية) بدلاً من مصطلح (النظام الاقتصادى) ليوافق المسمى ما يحتويه المضمون ، وما يشتمله من نظم فى دائرته الواسعة التى تحتاج منا الى التعريف بجوانبها ، للوصول الى توضيح النظام النقدى بجزئياته المختلفة .

وعن المقصود بالنظام المالى نقول أنه مجموعة القواعد والتنظيمات التى تقوم بها الدولة لتدبير وتسيير نفقاتها وإيراداتها ، وأثر ذلك على مجمل الأوضاع الاقتصادية فى الدولة ومن أهمها مستويات الإنتاج والإستهلاك فيها ، لذا تفرص الدول بشكل دائم على توافق وتوازن مصروفاتها مع إيراداتها ، وأن يكون هناك تنشيط لأوضاعها الاقتصادية بما تقرره من مصروفات ونفقات مالية دون إحداث أى عجز فى خزانة الدولة لا يتوافق مع مدخولاتها ^(١) .

أما عن كلمة مال فأصلها (مول) بوزن فرق وحذر ، ثم انقلبت الوار ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فصارت مالاً ، وقد ورد فى المعاجم اللغوية

(١) لمزيد من التفاصيل فضلاً أنظر : معجم العلوم الاجتماعية ، حرف الميم ، ص ٥٠٧ -

ما يلى : "مول : المال معروف ما ملكته من جميع الأشياء .. والجمع أموال .. قال ابن الأثير المال فى الأصل ما يملك من الذهب والفضة ، ثم أطلق على كل ما يقتنى ويملك من الأعيان ... وملت وقموت كله كثر مالك ، ويقال قمول فلان مالا : اذا اتخذ قبنة ، ومنه قول النبی - صلى الله عليه وسلم - فليأكل منه غير متمول مالا وغير متائل مالا ، ، ومال الرجل يمول ويمال مولا ومؤلا اذا صار ذا مال ، وتصغيره مويل^(١) ..."

ولفظ مال يطلق على مسميات كثيرة ، ويفرق بينها بالقرائن المصاحبة لمعرفة المعنى ، وهو يطلق على جميع الأشياء التى يملكها الانسان ، وكان فى الأصل قد أطلق على النقدين الذهب والفضة ، ثم أصبح عاماً لما يقتنى ويملك^(٢) وهذا هو محور جميع التعاريف التى أوردها عدد من الفقهاء والعلماء عند تعريفهم للمال ، ويمكن استخلاص تعريف مبسط للمال وهو (أنه لفظ يطلق على كل ماله قيمة) سواء كان نقداً أم عيناً .

وما يهمنا فى هذا المجال هو النقد أى الذهب والفضة ، وما يلحق بهما كالفلوس النحاسية ، وهى ما يطلق عليه مصطلح المعاملة أو الأثمان^(٣) . يقول النيسابورى : «والما كان الذهب والفضة محبرين لأنهما جعلتا ثمن

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٤ ، ص ١٥٨ - ١٥٩ - مادة مول - ، وكذلك ورد فى كل من الفيروز ابادى ، القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٥٤ ، مادة - مال - ، والرازى مختار الصحاح ، ص ٦٣٩ ، مادة - مول - .

(٢) أبو بكر الصديق عمر متولى ، شوقى أسماعيل شحاته ، اقتصاديات النقود فى إطار الفكر الاسلامى ، ص ١٣ ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م . القاهرة .

(٣) المعاملة : مصدر عامله أى سامه يحمل ، وعاملت الرجل أعامله معاملة ، وهى التصرف بالبيع ، وهى عند الفقهاء العقد على العمل ، وقد استعملت للدلالة على دورها فى المعاملات كالبيع والشراء والأجرة والعقود وغيرها من الأمور المالية ، كما يقصد بها النقود المضروبة حسب قوانين الدولة القائمة المتداولة بين الناس بقيمتها الرسمية ، وقد أطلق الفقهاء =

جميع الأشياء . فمالكها كالمالك لجميع الأشياء .

ويقول الامام النسفي : « الله . والفضة قانون التمول . وأثمان الأشياء . »
ويقول السرخسي : « الذهب والفضة خاتما جوهرين للأثمان لمنفعة المتقلب
والتصرف . »

ويقول الموصلي : « الذهب والفضة أعدهما الله تعالى للنماء . حيث خلقهما
ثمناً للأشياء في الأصل . »

ويقول ابن قدامة : « الأثمان هي الذهب والفضة . والأثمان هي قيم الأموال .
ورأس مال التجارات . وبهذا تحصل المضاربة والشركة وهي مخلوقة لذلك .
فكانت بأصل خلقها كمال التجارة (١) . »

عليها ذلك ويقصدون بها المبادلة أو ما يصلح ثمناً . وكثرة الملازمة دعت الى أن تكون
المعاملة بمعنى النقود أو الثمن الملازم لها (الذهب والفضة) .
وهذا اللفظ لا يمكن تعيين استعماله . ولكن لا شك في ان استعماله قديم . ولا يستبعد أن
ذلك حدث قبل الإسلام .

(ابن منظور . اللسان . ج ١٣ . ص ٥٠٢ - ٥٠٥ . - مادة عمل - . محمد مصطفى
زبادة . جمال الدين الشيال . كتاب اغاثة الأمة : ص ١٤ . هامش (٣) . انتاس الكرمل
النقود العربية وعلم النميات . ص ٦٣ . هامش (٢) الناشر محمد أمين دمج ١٩٣٩ .
بيروت) .

- أما الأثمان فهي جميع ثمن . وهو من الأجزاء كجزء من ثمانية . وثمانهم يثمانهم ثمناً لهم .
وثننت الشيء إذا جمعته . والثن ما تستحق به الشيء . وهو ثمن البيع وثن كل شيء قيمته .
وشئ ثمين أي مرتفع الثمن . ويقال ثمنت الرجل في المبيع . أثنانه إذا ناولته في ثمنه
وساومته على بيعه . ولا يكون الثمين وهو التقوم والتقدير الا بالنقدين ولا يكون
عروضاً .

(ابن منظور . اللسان . ج ١٦ . ص ٢٣٠ . ٢٣٣ . - مادة ثمن - الفيروز آبادي القاموس
ج ٤ . ص ٢٠٨ - ٢٠٩ - مادة ثمن -) .

(١) مجموعة هذه الأقوال . وردت في كتاب اقتصاديات النقود في إطار الفكر الإسلامي .
ص ١٩ - ٢٠ .

ويقول ابن عابدين عن الفلوس النحاسية : "الفلوس إن رائحة فكشمن ، والا كسلع ، والفلوس النحاسية تلحق الآن بالنقود باعتبار أن التعامل بها إنما هو بجعلها أثماناً للمتقومات لا بجعلها سلع تجارية (١) ."

وبهذا نكون قد دخلنا الى ما هية النظام النقدي الذي يمكن تعريفه : بأنه مجموعة التنظيمات المسيرة لأمر النقد في الدولة ، بتحديد أنواع النقود المتداولة ، والقاعدة النقدية المتبعة ، وتنظيم إصدار النقود ، وتحديد أسعار تداولها ، وما يرتبط بذلك من أمور (٢) .

وعند تحليلنا لكلمة نقد نجد أن المعاجم اللغوية ورد فيها ما يلي :

"النقد والتنقاد تمييز الدراهم ، وإخراج الزيف منها ، وقد نقدها بنقدها نقداً وانتقدها وتنقدها ونقدها إياها نقداً أعطاء فانتقدها أى قبضها .

والنقد مصدر نقدته دراهمه ، ونقدته الدراهم ونقدت له الدراهم أى أعطيته فانتقدها أى قبضها ، ونقدت الدراهم إذا أخرجت منها الزيف ، والدرهم نقد : ، أى وازن جيداً (٣) .

والنقد : المسكوك من الذهب والفضة ، ويطلق على قطعة المعدن المضروبة للتعامل بها ، وروى أن السبب في تسمية قطع العملات بالنقد أن الأولين كانوا يصورون على الدراهم رأس (النقد) ، وهو نوع من الفنم لطيف الجسم نحيفه ، ثم عرفت هذه الدراهم بهذه الصورة ، وأخذت اسمها ، ثم أطلقت على النقود

(١) مجموعة رسائل ابن عابدين ، الرسالة الثامنة (تنبيه الرقود على مسائل النقود) ج ٢ ، ٥٧ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (ب - ت) ، ص ٥٦ ، ٦٥ .

(٢) معجم العلوم الاجتماعية ، حرف النون ، ص ٦٠٨ ، عهد القدم زلوم ، الأموال في دولة الخلافة ، ص ٢١٣ ، الطبعة الأولى ١٩٨٣ م ، دار العلم للملايين ، بيروت .

(٣) آهادي ، القاموس ، ج ١ ، ص ٣٥٤ ، - مادة نقد - ، الرازي ، مختار الصحاح ، ص ٦٧٥ ، - مادة نقد - .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية ^(١) عن هذا :

"وأما الدرهم والدينار فما يعرف له حد طبيعي ولا شرعى بل مرجعه الى المادة والاصطلاح ، وذلك لأنه فى الأصل لا يتعلق المقصود به بل الغرض أن يكون معياراً لما يتعاملون به ، والدراهم والدنانير لا تقصد لنفسها بل هى وسيلة الى التعامل بها ، ولهذا كانت أثماناً بخلاف سائر الأموال فإن المقصود الإنتفاع بها لنفسها ، فلهذا كانت مقدرة بالأموال الطبيعية أو الشرعية . والوسيلة المحضة التى لا يتعلق بها غرض لا يبادتها ، ولا بصورتها يحصل بها المقصود كيفاً كانت" .

وينفس هذا المعنى قال ابن قيم الجوزية ^(٢) :

فالأثمان لا تقصد لأعيانها بل يقصد بها التوصل الى السلع ، فإذا صارت فى نفسها سلعة تقصد لأعيانها ، فسد أمر الناس ، وهذا المعنى معقول يختص بالنقود لا يتعدى الى سائر الموزونات" .

ويوضح ابن خلدون هذا المعنى أكثر تفصيلاً حيث يقول فى مقدمته ^(٣) :

"ثم إن الله تعالى خلق الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة قيمة لكل متحول ، وهما الذخيرة والقنية لأهل العالم فى الغالب ، وإن اقتنى سواهما فى

(١) الفتاوى ، ج ١٩ ، ص ٢٥ - ٢٥١ ، مكتبة النهضة الحديثة ، مكة المكرمة ، ١٤٠٤ هـ .

هـ ، تحت إشراف الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين .

(٢) أعلام الموقعين عن رب العالمين ، ج ٢ ص ١٥٧ ، تحقيق طه عبد الرووف سعد ، دار الجليل ، بيروت .

(٣) ص ٣٤٤ ، فصل فى المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع ، طبعة دار الشعب ، (ب -

ت) .

بعض الأحيان فإنما هو القصد تحصيلهما بما يقع فى غيرهما من حوالة الأسواق التى هما عنها بمعزل ، فهما أصل المكاسب والتقنية واللاخيرة .

ويتفق ما أورده علماء الاقتصاد المحدثون مع ما أورده علماء المسلمين فى تعريف النقود ، وبيان ماهيتها والمقصود منها ^(١) ، وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على أسبقيتهم وأفضليتهم فى هذا المجال ^(٢) .

وما سبق يتبين لنا الأهمية الكبرى للنقود فى الحياة الاقتصادية ، بوصفها المؤشر للعمليات الاقتصادية المختلفة ، فالإنتاج يعبر عنه بالوحدات النقدية ، ودخول الأفراد وإيرادات الدولة ومؤسساتها ، والمصروفات ، إنما تقاس بالنقود ، وهى الوسيلة التى يحقق من خلالها الانسان احتياجاته وضرورياته ، فأصبحت بهذا ضرورة من ضروريات أى مجتمع ^(٣) .

والنقود هى الوحدات النقدية التى يتكون منها أى نظام نقدى ، فهى ركيزة

(١) عوف محمود الكفراوى ، النقود والمصارف فى النظام الإسلامى ، ص ٣ ، ٥ ، حسن محمود شافعى ، العملة وتاريخها ، ص ١١ ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠ م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .

(٢) أشار الى هذا كثير من علماء المسلمين الذين ذكروا تعاريف مناسبة للنقود تتضمن وظيفتها وشروط قبولها وسيلة للتبادل . لمزيد من التفاصيل فضلاً أنظر :

- الماوردى ، أبو الحسن على بن محمد ، كتاب الأحكام السلطانية ، ص ١١٩ ، ١٤٨ ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م ، مطبعة مصطفى البابى الحلبي ، القاهرة .

- ابن عابدين ، تنبيه الرقود على مسائل النقود ، ج ٢ ، ص ٥٦ ، ٦٥ .

- أبو بكر الصديق عمر متولى ، شوقى اسماعيل شحانه ، اقتصاديات النقود ، ص ١٩ ، ٢٢ .

- مصطفى الهمشرى ، النظام الاقتصادى فى الاسلام ، ص ٢١ ، ٢٨ .

(٣) محمود أبو السعود ، خطوط رئيسية فى الاقتصاد الإسلامى ، ص ٢١ .

من ركانزه لا يأخذ استقلاليته عن النظم الاقتصادية الأخرى إلا بها ، ولا بد لهذه الوحدات النقدية من أن تكون على الوزن والمعيار الشرعى لتقوم بمهمتها على أكمل وجه ، وليتم قبولها فى عمليات التداول وفق نظام نقدى سليم ، ويتم إصدارها من واقع القاعدة النقدية التى تعتمد عليها الدولة لإصدار وحدات نظامها النقدى التى يعبر عنها بـ (السكة) ^(١) .

هذا ولم يعرف النظام النقدى فى التاريخ الإسلامى بهذا الاسم ، فهو مصطلح حديث ارتبط بالتطورات الحديثة التى أدخلت على النظم الاقتصادية ، ولكن نيابة عن هذا المصطلح ، استعمل فى التاريخ الإسلامى مصطلح (السكة) للدلالة على النقود وما يرتبط بها من تنظيمات .

والنقود كما هو معلوم ثلاثة أنواع : معدنية وورقية ومصرفية ، والمعدنية هى : المصنوعة من المعادن كالذهب والفضة والنحاس والقصدير ، وغيرها من المعادن المستخدمة فى سك العملات ، وقد ساد هذا النوع من النقود منذ اختراعها حتى قبيل الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م حين أوقف التعامل بالنقود المعدنية ، واستبدلت بالنقود الورقية التى ربطت بالذهب والفضة لتغطية قيمتها كسندات قابلة للصرف ^(٢) ، ومع التطور الذى شهدته مختلف النظم الاقتصادية ، ومنها النظام النقدى ظهرت نقود الودائع ، وهى النقود المصرفية التى يتم تداولها عن طريق الصكوك المعتمدة الشيكات ^(٣) .

(١) عن السكة وما يتصل بها فضلاً أنظر الفصل الأول (دار الضرب) ، ص ٤٩ .

(٢) عهد القديم زلوم ، الأموال فى دولة الخلافة ، ص ٢١٣ .

(٣) د. صبحى تادرس قريصة ، النقود والبنوك ، ص ٢٣ ، ٣١ ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤ م ، دار النهضة العربية ، بيروت .

وعلى هذا فإن النقود المعدنية كانت هي السائدة فى الفترة موضوع الدراسة ، وأن الوحدات هى عملات معدنية اتخذت من الذهب والفضة قاعدة لها ، يتم الاعتماد عليها فى إصدار العملات الرئيسية للدولة مع الاستفادة من معدن النحاس فى إصدار عملات مساعدة لتسهيل العملية التجارية .

إن أى نظام نقدي لابد له من قاعدة نقدية يقوم عليها ، وهى إما أن تكون قائمة على معدن واحد أو على معدنين ، ويعبر عن ذلك بنظام المعدن الواحد أو بنظام المعدنين ، ونظام المعدن الواحد إما أن يتمثل بمعدن الذهب ، أو بمعدن الفضة لاستخدام أحدهما فى إصدار العملات أو الوحدات النقدية ، أما نظام المعدنين فيتمثل بهما معاً ، وهذا النظام هو ما كان سائداً فى الدولة الإسلامية ، ثم فى دولة المماليك التى هى موضوع الدراسة .

إن نظام المعدنين الذى كان سائداً فى تلك الفترة قد استخدم معدنى الذهب والفضة فى إصدار الوحدات النقدية ، وإحداث عملية التوازن بينهما ، أوجدت نسبة ثابتة فى الوزن والقياس بين وحدة الذهب ووحدة الفضة ليتمكن من خلال ذلك تحديد قيمة كل منهما فى مقابل الأخرى ، ولتحديد القيمة النقدية لكل وحدة^(١) .

ولا مانع من أن تكون القاعدة النقدية للدولة على نظام المعدن الواحد مع استخدام معدن الفضة كنقود مساعدة الى جانب النقود الرئيسية أو القانونية من معدن الذهب ، وقد تلجأ كثير من الدول لهذا الأسلوب أو هذه السياسة عند حدوث أزمات نقدية فيها مرجعها عدم توفر الكميات اللازمة من المعدن الذى تصدر به النقود القانونية ، وعند ذلك تصبح هذه النقود بمثابة غطاء هام لميزانية

(١) عهد القديم زلوم ، الأموال ، ص ٢١٧ ، صبحى قريضة ، النقود ، ص ٣٥ - ٣٦ .

الدولة تلاحقاً لحدوث أى عجز فى خزنتها ^(١) ، ويتيح ذلك أيضاً زيادة حجم القاعدة النقدية عندما يصبح العرض الكلى للنقد أكبر فيمكن الدولة والمتعاملين من الحصول على احتياجاتهم من النقد ببسر وسهولة ، فيكون من نتائج مرونه العمليات التجارية والمالية ، واستقرار وثبات أسعار صرف العملات ^(٢) .

لقد بين عدد من العلماء المسلمين أهمية الذهب والفضة ووظائفها ، وقد لخص بعض الباحثين ^(٣) ذلك بما يلى :

أولاً : الثمنية لمنفعة التقلب والتصرف ، فهى مقياس القيمة ، أو وحدة الحساب .

ثانياً : المعاملة أولاً فى جميع الأشياء ، فهى أدلة التبادل ، ووسيط المبادلة ، والوسيلة الى المقصود .

ثالثاً : مالكمها كالمالك لجميع الأشياء ، وهى وسيلة للاحتفاظ بالثروة ، وأداة للادخار .

رابعاً : النقود فى المالية العامة فى الاسلام احدى وسائل سداد الحقوق الواجبة فى المال كالزكاة والخراج ، وسدادها نقداً أو عيناً جائز فى إطار أيسرية الأداء والمنفعة .

(١) أحمد عطية الله ، القاموس السياسى ، حرف القاف ، ص ١١٣٢ - ١١٣٣ .

(٢) عبد القديم زلرم ، المرجع السابق ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٣) أبو بكر الصديق عمر متولى ، شوقى اسماعيل شحاته ، اقتصاديات النقود ، ص ٤٣

خامساً : تضطلع النقود فى النظام الاقتصادى والاجتماعى الاسلامى بوظيفة أساسية وضرورية فى المجتمع بأصل الخلقة ، وقد أعد الله سبحانه وتعالى النقيدين من الذهب والفضة وخلقهما لأداء الوظائف الأساسية للنقود فى الأرض .

إن النظام النقدى الذى أقره الاسلام ، والقائم على المعدنين (الذهب والفضة) يلزم الدولة أن تسك الدينانير الذهبية والدرهم الفضية ، وأن يكون وزنهما ثابتاً وعبارهما خالصاً ، وموافقاً للوزن الشرعى ، فيكون وزن الدينار الواحد هو وزن المثقال ، ويكون وزن الدرهم هو وزن الدرهم الشرعى ، وتكون النسبة بين الوزنين سبعة الى عشرة أى أن كل سبعة مثاقيل من الذهب تزن عشرة دراهم من الفضة ، وكذلك العكس .

وإذا كانت الدولة الاسلامية فى عهدها الأولى قد حرصت على أن تكون نقودها موافقة للوزن الشرعى فإن الدول الاسلامية قد حرصت على أن تكون نقودها موافقة للوزن الشرعى فإن الدول الاسلامية المتأخرة لم تحافظ على هذا الوزن بشكل دقيق الأمر الذى أدى الى إفساد النقود ، وبالتالي فساد النظام الاسلامى مما كان له عواقب وخيمة على الأوضاع الاقتصادية عامة والنقدية بشكل خاص .

إن نظام المعدنين الذى سارت عليه الدولة المملوكية يحتاج الى نظام مصرفى مرن يتيح للمتعاملين شراء الذهب والفضة ، وبيعهما واستيرادهما وتصديرهما دون أى تقييد ، كما يتيح لهم امكانية تحويل العملات ، واستبدالها لتسهيل العملية التجارية وبشكل خاص الخارجية منها ^(١) .

(١) لمزيد من التفاصيل عن التطور التاريخى والاقتصادى للصيرفة والصيارف فى الدولة =

تعنى كلمة صرف بالإضافة إلى معان أخرى : تحويل النقود الى فئات أو أنواع .

جاء فى اللسان ^(١) : "والصرف فضل الدرهم على الدرهم ، والدينار على الدينار ، لأن كل واحد منهما يصرف عن قيمة صاحبه ، والصرف بيع الذهب والفضة ، وهو من ذلك ينصرف به من جواهر الى جواهر ، والتصرف فى جميع البياعات اتفاقات الدراهم ، والصراف والصيرف والصيرفى النقاد من المصارفة ، وهو من التصرف والجمع صيارف وصيارفة" .

وهذا المعنى هو المراد منها فى الأمور المتصلة بالنقود . جاء فى دائرة المعارف الاسلامية ^(٢) : "الصرف عقد بيع تكون فيه السلع المتبادلة من معدن نفيس ، وكلمة صرف فى الأصل تعنى تغيير النقد ، كما تعنى استبدال الذهب والفضة ، وهذا الاسم (صرف) يحمل معنى المصدرية ، وهو مأخوذ من صيرف أو صراف" .

وجاء فى معجم العلوم الاجتماعية عن تاريخ الصيرفة وتطورها ^(٣) :

= الاسلامية . فضلاً أنظر : مصطفى عيد الله الهمشرى . الأعمال المصرفية والاسلام . رسالة ماجستير منشورة . من مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية فى الأزهر الشريف ، القاهرة ١٩٧٣ م .

عوف محمود الكفراوى . النقود والمصارف فى النظام الاسلامى . محمود المرسى لاشين ، التنظيم المحاسبى للأموال العامة فى الدولة الاسلامية ، رسالة ماجستير منشورة ، الطبعة الأولى ١٩٧٧ م ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة .
(١) لابن منظور ، ج ١١ ، ص ٩٠ ، ٩٥ . - مادة صرف . - وكذلك ورد فى مختار الصحاح ، ص ٣٦١ ، - مادة صرف . - والقاموس المحيط ، ج ٣ ، ص ١٦٦ - ١٦٧ . - مادة صرف . -

(٢) ج ١٤ ، مادة صرف ، ص ١٩٨ ، ٢٠٠ . القاهرة ١٩٣٣ م .

(٣) حرف الصاد ، ص ٣٥٢ .

كانت الصيرفة فى بداية تاريخها عبارة عن إبدال وحدات نقدية من نفس العملة أو من عملة أخرى ، ولما كانت النقود حينئذ معدنية (سكة ذهبية أو فضية) فإن الصيرفى كان فى الوقت نفسه صانفاً يتاجر فى السبائك والمصنوعات من المعادن الثمينة ، وحين زادت كميات النقود المسكوكة ظهرت الحاجة إلى إبداعها فى مكان أمين ، وقد ائتمن المودعون الصاغة الصيارفة على نقودهم اذ كانت بآمن فى خزائن الصيرفى ، وكان المودعون يأخذون مقابل نقودهم المودعة شهادات إبداع يبرزونها متى ما رغبوا استعادة أموالهم .

وهذا لم يرد فى المصادر التاريخية - للفترة موضوع الدراسة - شئ عن النظام المصرفى ، أو الطرق المحاسبية ونحوها مما يرتبط بالنظام النقدى ، وما ورد عن ذلك مجرد إشارات لا يمكن الاعتماد عليها فى تكوين دراسة عن النظام المصرفى المملوكى ، ولتأكدى من عدم الاتيان بجديد فى هذا الجانب ، فضلت عدم تكرار ما سبقنى به بعض الباحثين فى دراسة النظام المصرفى فى الاسلام والدولة الاسلامية ^(١) .

وعلى أى حال فإن النظام المصرفى الاسلامى يدعو الدولة الى أن تتحرك نسبة الصرف بين الذهب والفضة دون تحديد ، فيصرف الذهب بالفضة والفضة بالذهب بالسعر الدارج حسب قانون حسب قانون العرض والطلب ^(٢) . وهذا ما كانت عليه الدولة الاسلامية فى عهد الرسول - ص - وخلفائه الراشدين ، أما فى عهد سلاطين المماليك فإننا كثيراً ما نجدهم يتدخلون لتحديد أسعار صرف العملات

(١) فضلاً أنظر : محمود المرسى لاشين ، التنظيم المحاسبى للأموال العامة فى الدولة

الاسلامية ، مصطفى عبد الله الهمشرى ، الأعمال المصرفية والاسلام .

(٢) عهد القديم زلوم ، الأموال فى الخلافة ، ص ٢٢٦ .

وفق أهوائهم الشخصية ومطامعهم المادية . فكان ذلك وبالأعلى على الوضع الاقتصادي في الدولة ، فزاد من فسادة وتدهوره .

هذا بإيجاز بعض الايضاحات المتصلة بالنظم الاقتصادية ، وبالذات النظام النقدي وما يرتبط به من دلالات لغوية ومفاهيم اقتصادية .

ومن المناسب في هذا التمهيد أن نتحدث - بإيجاز أيضاً - عن اهتمام الدولة الإسلامية بالنظام النقدي ، وما تعرض له من تطورات خلال تعاقب الدول الإسلامية حتى قيام دولة المماليك .

* * * * *

اهتمت الشريعة الإسلامية بالنقود لما لها من أهمية كبيرة في المجتمع ، ولارتباطها بالمعاملات الشرعية والفقهية كالحراج أو الزكاة والصدقات والعقود والأوقاف والديات وبعض العقوبات والحدود ، ولا شك في أن عمليات البيع والشراء تتم عن طريق النقود ، لذا أولتها الشريعة الإسلامية اهتماماً خاصاً تمثل بتحديد أوزان النقود ، وضبط عيارها ، وتنظيم التعامل بها ومبادلاتها ، وما يرتبط بها من واجبات وحقوق شرعية ^(١) .

جاء الإسلام فأقر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التعامل بالدينار والدرهم على الوزن الذي كانا عليه قبل مجيء الإسلام ^(٢) ، فمن المعروف أن

(١) محمد ضياء الدين الرئيس ، الحراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، ص ٢٣٨ ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٧ ، دار الأنصار ، القاهرة .

سيدة اسماعيل كاشف ، دراسات في النقود الإسلامية ، ص ٦٣ ، ٧٨ ، مقالة في المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٢ ، ١٩٦٤ - ١٩٦٥ م ، ص ٥٩ ، ١١٠ .

(٢) وزن الدينار كما أجمعت عليه المصادر لم يختلف جاهلية ولا إسلاماً ، أما وزن الدرهم

العرب فى جاهليتهم كانوا يتعاملون بالدينار الرومى والدرهم الفارسى . بالإضافة الى بعض الدراهم الحميرية فكانت تلك النقود ترد مع رجال القوافل التجارية من سوريا والعراق واليمن الى المراكز التجارية فى شبه جزيرة العرب ^(١) ، ولم يكن يرد أى نقود معدنية بغير معدنى الذهب والفضة ، فكانت الدنانير الذهبية من قبل الروم ، والدراهم الفضية من قبل الفرس ، وقليل منها من قبل حمير . وكانت الفارسية على نوعين سوداء وافية ، وطهرية عتق ، ولا يتم التعامل بهذه النقود الا وزناً بحساب المئاقيل لأن ذلك أكثر دقة وضبطاً فى الأمور الحسابية ، فكانوا يطلقون على النقود الذهبية مصطلح (العين) ،

فقد اختلف فى وزنه أكان معلوماً أم لا ؟ لبعض المصادر تذكر أنه كان مجهولاً ، وبعضها يذكر أنه فى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه - حدد مقدار الدرهم الشرعى ، والبعض الآخر منها يرى أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان هو الذى عمل على تحديد أوزان الدراهم ضمن اصلاحاته النقدية ، وقد ذهب معظم العلماء الى رأى القائل أنه معروف وتم تحديده بقرار الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبناء عليه أخذت بهذا رأى . يقول ابن خلدون فى مقدمته ، ص ٢٣٤ :

"والحق أنهما - الدينار والدرهم - معلوما المقدار فى ذلك العصر - عصر الرسول صلى الله عليه وسلم - لجرىان الأحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق" .
ولزيد من التفاصيل عن هذه الجزئية فضلاً أنظر :

المقريزى ، نقى الدين أحمد بن على ، الأوزان والأكيال الشرعية ، ص ٥ ، ١٩ نشره باللغة اللاتينية أولايوس جير هاردوس تاخيسن عام ١٨٠٠ م فى المجلة العلمية المختصة بالروايق العربية ، رضى الدين القزوينى ، ميزان المقادير فى تبيان التقادير ، ص ٦٨٣ ، ٦٩٢ تحقيق محمود شكرى الألوسى ، مجلة المقتبس ، المجلد ٥ ، الجزء ١١ ، ص ٦٨٦ ، ٦٩٨ ، الجزء ١٢ ، ص ٧٥٠ ، ٧٦٥ ، المنارى محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن على ، النقود والمكاييل والموازين ص ٦٢ ، ٦٤ تحقيق رجاء محمود السامرائى ، دار الرشيد للنشر بغداد ١٩٨٨ م الرئيس ، الخراج ص ٣٤٠ ، ٣٤٨ على هاشا مبارك ، الميزان فى الأقيسة والأوزان ، ص ٣٧ ، ٤٦ ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٣٠٩ هـ / ١٩٨٢ م .
(١) المقريزى ، الأوزان ، ص ١٩ .

وعلى النقود الفضية مصطلح (الورق) ^(١) . وكما أسلفنا - فقد كانت نسبة وزن الدراهم الى الدينانير سبعة الى عشرة ، أى كل عشرة دراهم فضية موزونة تعادل سبعة دينانير ذهبية ، وقد اتفق على هذه النسبة قاعدة أساسية ، لأن الذهب أوزن من الفضة وأنفس قيمة ، فكأنهم وزنوا حبة من اللضة وحبة من الذهب ، فوجدوا أن حبة الذهب زائدة عن حبة الفضة بتلك النسبة لذا جعلت أساساً قاعدة لهما ^(٢) . كما أن كثافة الذهب أعلى منها فى الفضة ، فهى فى الذهب تسعة عشر جراماً وستة وعشرين فى المائة من الجرام (١٩,٢٦ جم) بينما كثافة الفضة عشرة جرامات ونصف الجرام (١٠,٥ جم) فقط ^(٣) .

هذا ويعادل وزن المثقال كوحدة قياس نقدى للنقود الذهبية : أربعة جرامات وخمسة وعشرين فى المائة من الجرام (٤,٢٥ جم) ، وهو وزن الدينار الشرعى ، أما الدرهم فيعادل وزنه على أساس كونه وحدة قياس للنقود الفضية جرامين وسبعة وتسعين فى المائة من الجرام (٢,٩٧ جم) ^(٤) . وقد استعملت (حبة الشعير) فى تحديد الوزن الدقيق لكل من المثقال والدينار والدرهم . وقد أشار

(١) المقرئى ، امانة الأمة بكشف الغمة ، ص ٤٨ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، جمال الدين الشيال ، مطبعة لجنة التأليف ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ . ناصر النقشبندى ، الدينار الاسلامى فى المتحف العراقى ، ج ١ ، ص ١٠ ، المجمع العلمى العراقى ، بغداد ، ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م .

(٢) البلاذرى ، أحمد بن يحيى البغدادي ، كتاب النقود ، ص ٩ - ١٠ ، المقرئى ، النقود القديمة الاسلامية ، ص ٣٠ ، نشرها انستاس الكرملى فى كتاب النقود العربية وعلم النميات ، بيروت ١٩٣٩ م ، ابن الرقعة أهر العباس نجم الدين الانتصارى ، (ت ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م) الايضاح والتبيان فى معرفة المكيال والميزان ، ص ٥٢ ، تحقيق محمد أحمد اسماعيل الحاروف ، من مطبوعات مركز البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى بجامعة أم القرى ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، المناوى ، النقود ، ص ٥١ ، ٥٣ .

(٣) محمد اسماعيل الحاروف ، هامش رقم (١) ص ٥٨ ، من كتاب الايضاح .

(٤) المقرئى ، الأوزان ، ص ١٩٥ ، ابن خلدون المقدمة ، ص ٢٣٤ ، على مبارك ، الميزان =

القزويني ^(١) الى العلة في اختيارها تعود الى قلة الاختلاف عليها ، وسهولة الحصول عليها ، والى شيوعها في الأمكنة والأوقات فوزنها بين الأوزان كالواحد بين الأعداد .

كما استعملت حبة الخردل ^(٢) ، وهي أقل من حبة الشعير وزناً ليكون الوزن أكثر دقة وضبطاً ، ويشير ابن الرقعة ^(٣) في علة الاختيار الى قلة التفاوت في حجمها .

ويرى بعض الباحثين المحدثين ^(٤) أن عيد الملك بن مروان قد جعل الدينار اثنين وعشرين قيراطاً (٢٢) ، والدرهم خمسة عشر قيراطاً (١٥) ، كما يرى أن متوسط وزن الدرهم في عصور الخلافة الاسلامية هو جرامان وثمانمائة وتسعة وعشرون بالآلف من الجرام (٢.٨٢٩ جم) ، وأعلى وزن بلغه هو جرامان وتسعون بالمائة من الجرام (٢.٩٠ جم) ، ومعظم الدراهم التي تم تحديد أوزانها كانت بين جرامين وواحد وثمانين بالمائة من الجرام (٢.٨١ جم) وجرامين وسبعة وثمانين بالمائة من الجرام (٢.٨٧ جم) . هذا ويرى بعض آخر من

= ص ٣٦ ، الرئيس ، الخراج ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ . محمد اسماعيل الخاروف ، هامش رقم

(٧) ص ٥٠ ، كتاب الايضاح ، فالتر هنتس ، المكاييل والأوزان الاسلامية ، ص ٩ - ١٠ .

ترجمة كامل العسلي ، منشورات الجامعة الأردنية ، ١٩٧٠ م .

(١) ميزان المقادير ، ص ٦٨٧ .

(٢) الخردل نبات برى له بلود صغيرة مستديرة الحجم ، يعرف في مصر بحشيشة السلطان ويشتهر فيها الخردل الفارسي عريض الورق بكثير بصفة خاصة بهساتين القاهرة والاسكندرية . د. فاروق على الغمراوي ، مشافهة ، محمد اسماعيل الخاروف ، هامش (٦) ، ص ٥٠ من كتاب الايضاح .

(٣) الايضاح والتبيين ، ص ٥٩ .

(٤) على مبارك ، ص ٢٨ ، ص ٣٤ .

الباحثين^(١) أن نسبة الذهب الى الفضة في صدر الاسلام كانت واحداً الى عشرة (١ : ١٠) أى أن مثقال الذهب يساوى عشرة مثاقيل من الفضة ، ثم تغيرت النسبة الى اثني عشر مثقالاً من الفضة ، ثم الى اربعة عشر مثقالاً من الفضة لكل مثقال من الذهب ، وهو ما كان عليه الدرهم زمن عبد الملك بن مروان ، ثم تغيرت النسبة في العصر العباسي بسبب كثرة توافر الفضة وقلة الذهب .

خلاصة القول ان النظام النقدي في الدولة الاسلامية بدأ خطواته الأولى ، واستمر في عهود الخلفاء الراشدين - رضى الله عنهم^(٢) - حتى اذا كان عهد الخليفة الأموي عبد الملك ابن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥ م) .

(١) ناصر النقشبندى ، مهاب البكرى ، الدرهم الأموي المعرب ، ص ١٦ ، دار الحرية ، بغداد ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .

(٢) تذكر المصادر التاريخية أنه في سنة ثمانى عشرة للهجرة ضرب بن الخطاب - رضى الله عنه - دراهم فضية على النمط الفارسي ، لكنه أدخل فيها عبارات اسلامية كـ (الحمد لله) و (محمد رسول الله) و (لا اله الا الله وحده) ، كما تذكر تلك المصادر أنه قام بتعديل وزن الدرهم بإنقاص وزنه في مقابل الدينار ، فجعل كل عشرة دراهم تعادل ستة دنانير ، وتضيف تلك المصادر أن الخليفة عثمان بن عفان - رضى الله عنه - قد ضرب دراهم فضية تحمل عبارة (الله أكبر) ، كما قام أول خلفاء بني أمية معاوية بن أبي سفيان - رضى الله عنه - بضرب دراهم جديدة على الوزن الذى كان عليه في خلافة عمر بن الخطاب .

ولا شك في أن ما قام به الخلفاء الراشدون ، ومن أتى بعدهم ما هو الا هدايات وتوجيهات تستهدف إعطاء النظام النقدي طابعاً اسلامياً ، وتمهيداً للصلاح الكبير الذى قام به الخليفة عبد الملك بن مروان .

لمزيد من التفاصيل عن ذلك فضلاً أنظر : المقرئى ، النقود القديمة الاسلامية ، ص ٣١ ، ٣٢ ، الأوزان والمكاييل ، ص ٣٥ ، ٣٨ ، المناوى ، النقود ، ص ٦٢ ، سيدة كاشف دراسات في النقود الاسلامية ، ص ٧١ - ٧٢ ، حمدان عبد المجيد الكبسى ، العهد القومى لتعريب النقود ، ص ٦٠ - ٦١ ، مجلة سيرتا ، العدد ٧/٦ ، ص ١١٠ ، ١٣١ ، جامعة قسنطينة الجزائر ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

وبالتحديد سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣ م ، بدأت خطوات الاستقلال للنظام النقدي الاسلامى ، والتي تمثلت فى إصدار عملات نقدية خاصة بالدولة الاسلامية لحمل شعارها ، ونقشت عليها آيات من القرآن الكريم بدلاً عن العملات البيزنطية والفارسية ^(١) .

إن ما قام به الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان يعد من الأعمال الهامة والعظيمة فى استقلالية النظام النقدي الاسلامى ، وعدم تبعيته للنظم القائمة فى تلك الفترة أو التى قبلها ، ولا شك فى أن الخليفة عبد الملك استفاد من تلك النظم كما استفاد منها من سبقه من الخلفاء الأمر الذى الى ارتباط الاقتصاد العالمى والتجارة الدولية فى تلك الفترة باقتصاديات الدولة الاسلامية وقوة عملاتها النقدية ، ولا أدل على ذلك الارتباط وتلك القوة من اكتشاف كميات كبيرة من العملات الاسلامية فى مناطق بعيدة عن الدولة كفلندا والبلاد الاسكندنافية ^(٢) . لقد تشدد عبد الملك بن مروان فى العناية بالعملة من حيث وزنها وعيارها وجودة سكها ، وجعل إصدارها مقتصرأ على دور الضرب الرسمية التابعة للدولة ، واتخذ مسلكاً متشدداً مع من يعبثون بالنقد ويسعون الى افسادها ، بمعاقبتهم بصرامة وقسوة تأديباً لهم ورادعاً

(١) النادى ، النقود ، ص ٦٢ ، ٦٤ ، ان خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر المعروف بتاريخ ابن خلدون ، ج ٣ ، ص ٤٤ ، دار الفكر ، بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٣٩ م ، ناصر النقشبندى ، الدينامى الاسلامى ص ١١ ، ١٣ .

(٢) عزيز سوربال عطية العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٥٦ - ١٥٧ ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٢ م ، موريس لومبار ، الأسس الاقتصادية للسيادة النقدية ، ص ٥١ ، ص ٦٥ ، ترجمة توفيق اسكندر فى كتاب دراسات وبحوث فى التاريخ الاقتصادى ، دار النشر للجامعات المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١ م ، ص ٥١ ، ٧٨ .

لغيرهم^(١) .

ويكفى أن أشير الى أنه بتلك الخطوات الإصلاحية التى قام بها عهد الملك بن مروان قد بدأت السيادة النقدية للعملات الإسلامية ، والتى أصبحت أداة التداول فى مختلف العمليات الاقتصادية فى المراكز التجارية العالمية فى تلك الفترة .

هذا وتكاد المصادر والمراجع التاريخية تتفق على السبب الذى جعل الخليفة الأموى يقوم بتلك الخطوات ، حيث تعد النزاع بين المسلمين والبيزنطيين^(٢) ، وما ارتبط به من أوضاع مستولاً عن ذلك التوجه الذى أخذ به عهد الملك بن مروان^(٣) ، وعيئاً حاول الامبراطور البيزنطى جستنيان الثانى مقاومة هذه الخطوات ، فقد خسر الحرب الاقتصادية التى أعلنها على الدولة الاسلامية سنة ٧٥ هـ / ٦٩٣ م^(٤) .

وأقول إن استقلالية النقد الإسلامى أمر ضرورى وهام لاستقامة وازدهار

(١) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١٤٩ . ط الأولى ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ، مطبعة مصطفى البابى الحلبي ، القاهرة ، البلاذرى ، كتاب النقود ، ص ١٦ ، المناوى ، المصدر السابق ، ص ٦٧ .

(٢) تنوع ذلك النزاع ليشمل الجانب الدنى والسياسى (الحربى) ، وقد أجمعت المصادر والمراجع على هذين الجانبين ، وكونهما السبب فى الرصلاحات التى قام بها عهد الملك بن مروان .

(٣) ابن خلدون ، تاريخه ، ج ٣ ، ص ٤٤ ، الرئيس ، الحراج ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، عهد الرحمن فهى ، النقود العربية ماضيها وحاضرها ، ص ٢٢ ، ٤٨ ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .

(٤) أرشيبالد ديبوس ، القوى البحرية والتجارة فى حوض البحر المتوسط ، ص ١٣٤ - ١٣٥ ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

الأوضاع الاقتصادية فى الدولة ، فهو مطلب هام ، وعلى ولى الأمر أن يقوم بكافة الجهود التى تحقق ذلك حتى ولو لم يكن هناك أى نزاعات ، إذ أن المصلحة العليا للدولة تقتضى عدم ربط نظامها النقدى أو أى من نظمها الاقتصادية بنظم دولة أخرى ، لما فى ذلك من تهديد مستمر لقوتها الاقتصادية .

وبناء على هذا القول فإن مقام به عبد الملك ما هو إلا من منطلق الحرص على اقتصاديات الدولة ونظامها النقدى مدعوماً بالتوجه الإسلامى لبناء تلك الاقتصاديات ، واستقلال نظمها المختلفة عن أية دولة لا تقوم دعائمها على الشريعة الإسلامية ، وتعاليم الدين الإسلامى الحنيف ، كما أن ذلك جزء من السياسة التى انتهجها عبد الملك فى تعريب مختلف مؤسسات الدولة بوصفه مظهراً من مظاهر سيادتها واستقلالها .

ومهما كانت الأسباب والدوافع وراء هذا التحول البارز ، فإن عبد الملك بن مروان قد اتخذ فى وزن الدراهم الفضية ما يتوافق وتنوعها بين كبيرة وصغيرة حيث اتخذ أمراً وسطاً بينهما ^(١) ، وقد جعل حق إصدار تلك النقود مقتصراً على دور سك العملات فى الدولة دون السماح لأى جهة كانت بضرب أى عملات خارج تلك الدور ^(٢) ، كما حرص على نشر التعامل بالنقود الإسلامية ، ومنع ماعداها من عملات بيزنطية وفارسية فى جميع أنحاء الدولة ، وتشدد مع الولاة لبذل جهودهم فى هذا السبيل حتى تتحقق الأهداف المرجوة ^(٣) .

(١) المقرئى ، النقود ، ص ٣٧ ، القزوينى ، ميزان المقادير ، ص ٦٨٩ ، سيدة كاشف دراسات ، ص ٧٨ .

(٢) أبلادزى ، النقود ، ص ١٥ - ١٦ ، الرئيس ، الحراج ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٣) ابن خلدون ، تاريخه ، ج ٣ ، ص ٤٤ - ٤٥ .

ولقد سار بقية خلفاء بنى أمية على نفس السياسة التى وضع قواعدها الخليفة عبد الملك ابن مروان ، فتشددوا فى أوزان النقود ، وضبط عيارها ، ودرجة نقاء معدنها حتى تقوم بمهمتها على أكمل وجه ^(١) ، فمن هؤلاء يذكر لنا البلاذرى ^(٢) تشدد مروان بن الحكم فى أمر النقود فقد قطع يد أحدهم كان يعمل على قطع الدراهم وإنقاصها ، ومنهم عمر بن عبد العزيز الذى عاقب رجلاً يضرب على غير سكة المسلمين فسجنه وصادر أدواته .

هذا ولصيانة الوزن من التلاعب أو النقص فقد استعملت الصنّج الزجاجية ^(٣) لحفظ أوزان النقود الذهبية والفضية دون أن يحدث بها أى تغيير أو نحو ذلك ، وأول من استخدم تلك الصنّج هو الخليفة عبد الملك بن مروان خلال إصلاحاته النقدية ، فأصبحت سنة حسنة لمن جاء بعده من الخلفاء ^(٤) ، وقد أدى ذلك إلى زيادة الثقة بالنقود الاسلامية فراج التعامل بها وتداولها فى مختلف أقاليم الدولة اضافة الى مراكز التجارة الدولية ^(٥) .

* * * * *

وفى العصر العباسى الذى شهد ازدهاراً اقتصادياً كبيراً ، ونهضة شاملة كان لا بدّ معهما من الاهتمام بالنظام النقدى وتطويره ، وإدخال مزيد من التنظيمات

(١) المقرئى ، المصدر السابق ص ٤٤ - ٤٥ . إغاثة ، ص ٥٨ ، محمد أبو الفرج العشى ، مصر ، القاهرة على النقود العربية الاسلامية ، ص ٩٢٦ . ٩٢٨ من أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ج ٢ ، ص ٩٠٧ . ٩٩٥ .

(٢) كتاب النقود ، ص ١٦ .

(٣) عن الصنّج الزجاجية فضلاً أنظر الفصل الثانى ص ١٨١ .

(٤) سيدة كاشف ، دراسات ، ص ٧٩ .

النقدية ، وهذا ما حدث خلال العصر العباسي حيث أدخل العباسيون كثيراً من التعديلات والتغييرات فى النظام النقدي الاسلامى ، شملت أوزان النقود الفضية ، وتنوع فئات العملات الصادرة ، وقد اشتهر عن الخليفة هارون الرشيد كونه أول خليفة ينقش اسمه على الدينار الاسلامى ^(١) . ورغم أنه أول خليفة لم يباشر بنفسه أوزان النقود وعيارها ، فإنه كان من أشد الناس حرصاً على أن يكون ذلك على درجة من الدقة والضبط ، لذا أوكل مهمة الإشراف على أوزان النقود وعيارها لأحد رجال الدولة ممن عرفوا بالأمانة والثقة والإخلاص ^(٢) ، فلقبت دنائره ودراهمه التى أصدرها رواجاً وإقبالاً من الناس بسبب احتوائها على نسبة كبيرة من المعدن ، بلغت فى النقود الذهبية حوالى ٩٨٪ ^(٣) من الذهب ، أما بعد أن ضعفت سيطرة الخلفاء على الدولة ، وأصبحت خلافتهم صورية وإسمية بتغلب العناصر التركىة أصيب النظام النقدي الاسلامى بالضعف نتيجة ما داخل العملات الاسلامىة من غش وتلاعب ، وفى ذلك يقول المقرئى ^(٤) :

« فلما قتل المتوكل ، وتغلبت الموالى من الأتراك ، وتناثر سلك الخلافة ، وبقيت الدولة العباسية فى الترف ، وقوى عامل كل جهة على ما يليه ، وكثرت

(١) يذكر الدكتور عبد الرحمن فهمى فى كتابه النقود العربية ، ص ٤٦ وجود فلس نحاسى فى المتحف البريطانى كتب عليه اسم الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان كما وجدت نقود برونزية حملت أسماء بعض ولاة أعمال أقاليم الدولة .

(٢) المقرئى ، النقود ، ص ٤٨ ، المتاوى ، النقود ، ص ٨٥ ، سيدة كاشف ، دراسات فى النقود ص ٨٣ - ٨٤ .

(٣) عطية القوصى ، تجارة مصر ، ص ٢٤٣ محمد أبو الفرج ، مصر القاهرة على النقود العربية ، ص ٩٣٨ - ٩٣٩ .

(٤) النقود ، ص ٥٠ .

النفقات ، وقلت المجابى بتغلب الولاة على الأطراف ، حدثت بدع كثيرة من حينئذ ، ومن جعلتها غش الدراهم .

ويرجع أحد الباحثين المحدثين ^(١) حرص العباسيين على جودة عيار نقودهم وضبطها فى العصر الإسلامى الأول الى رغبتهم إظهار تفوقهم على أسلافهم الأمويين وحرصهم على عيار النقود وأوزانها لزيادة الثقة بها .

. وظهر خلال العصر العباسى الثانى عوامل ضعف الدولة العباسية فقامت عدة دريلات داخلها أخذت بسك عملات خاصة بها ، فتعددت العملات وكثرت أنواعها مما أضعف السيطرة عليها عن طريق مركز الدولة ، فزاد ذلك من فرص فسادها والتلاعب بها ^(٢) ، وإن حدث أن اشتهرت بعض تلك العملات بجودة عيارها وحسن سبكها كالدينانير (الأحمدية) ، التى ضربها فى مصر أحمد بن طولون ونسبت اليه ، والتى نافست الدينانير الصادرة من مركز الخلافة فى بغداد ^(٣) ، وظل الدينار الأحمدي أداة التعامل النقدي طوال المهدين الطولونى والأخشيدى رغم أن الأخشيديين كغيرهم عملوا على سك عملات خاصة بهم تماثل الدينانير الأحمدية فى أوزانها وعيارها ^(٤) .

والواقع أن تولى الخليفة العباسى هارون الرشيدى عن بعض حقوق الخليفة فى انفراد اسمه على السكة قد جعل ذلك أمراً متاحاً لولى العهد والوزراء

(١) عبد العزيز حميد ، المسكوكات المزيفة فى العصر العباسى ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد ٢٢ ، سنة ١٩٧٨ م ، ص ٣٠٥ ، ٣٤٩ .

(٢) عبد الرحمن فهمى ، فجر السكة العربية (موسوعة النقود العربية وعلم النميات) ، ج ١ ، ص ٩١ ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .

(٣) المقرئى ، النقود ، ص ٥٤ ، ص ٥٧ ، سيدة كاشف ، دراسات ، ص ٨٨ ، محمد أبو الفرج ، مصر ، القاهرة على النقود العربية ، ص ٩٣٦ .

(٤) عطية القوصى ، مجارة مصر ، ص ٢٤٣ .

والولاة المشرفين على دور الضرب بنقش أسمائهم على العملات . الأمر الذى أدى الى أن أصبح من حق الولاة وعمال الأقاليم ضرب نقود ضرب نقود لى أقاليمهم تحمل أسمائهم ^(١) . وطالما أن ذلك حدث خلال خضوع تلك الأقاليم لمركز الخلافة . فمن باب أولى أن يحدث خلال استقلالها . ومن هنا تنوعت النقود . واختلفت أوزانها ونسب عيارها مما سهل إمكانية التلاعب بها وإفسادها . وقد حدث فعلاً أن نقصت أوزان النقود العباسية . وبالذات الدراهم الفضية نتيجة لذلك . وخصوصاً فى العصر العباسى الثانى كما حدث تغيرات فيما يتصل بالأمور الفنية المرتبطة بسك العملات كالنقوش والكتابات ونحوها ^(٢) . وأهم تلك التغيرات انقطاع أسماء الخلفاء بدءاً من سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) حتى سنة (٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) حيث عاد الى النقود العباسية استقلالها بذكر أسماء الخلفاء عليها دون غيرهم . وأصبحت تضرب فى بغداد وحدها الا فى حالات استثنائية ^(٣) .

هذا وقد حدث خلال العصر العباسى أن قام بعض الخلفاء بإصدار عملات تذكارية بأوزان مختلفة تم توزيعها فى المناسبات على المحتاجين والفقراء إعانة لهم وتسهلاً عليهم . كما ضربوا نقوداً خاصاً بالإتعامات التى يهبها الخلفاء للقادمين عليهم من الشعراء والأدباء ونحوهم ^(٤) .

(١) عبد الرحمن فهى . النقود العربية . ص ٥٠ . عباس العزواى . تاريخ النقود العراقية ص ٢٢ . ط الأولى . ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م . شركة التجارة والطباعة . بغداد .

(٢) المناوى . النقود . ص ٨٦ - ٨٧ . ناصر النقشبندى . الدينار الاسلامى . ص ٤١ .

(٣) عباس العزواى . المرجع السابق . ص ١٧ . محمد أبو الفرج . مصر القاهرة . ص ٩٣٦ .

(٤) المقرئى . إعانة . ص ٥٩ . ٦١ . عبد الرحمن فهى . النقود العربية . ص ٦٧ .

لقد حافظت النقود الاسلامية على قوتها ومركزها العالمى ، واستمرت سيادتها النقدية على العملات الأخرى ، فكانت العملة الدولية التى يتم الاعتماد عليها فى تحديد قيم السلع والمتاجر فى مراكز التجارة الدولية ، كما استخدمت أداة الدفع فى العمليات المالية المختلفة فى أثناء التبادلات التجارية ، وأثرت تأثيراً كبيراً على اقتصاديات القوى التجارية المعاصرة لها كـهينزلة وأوروبا ، ولجودتها قلدها الأوروبيون عند إصدار عملاتهم طمعاً فى رفع قيمة تلك العملات الى المركز والقوة التى تتمتع بها العملة الاسلامية وبالذات الدينار الاسلامى ^(١) .

* * * * *

وقبل سقوط الدولة العباسية بفترة طويلة كان الفاطميون فى مصر قد أصدروا الدينار (المعزى) - نسبة الى المعز لدين الله الفاطمى أول حكامهم فى مصر - ومنعوا تداول الدينار العباسى ^(٢) ، الذى تأثر بذلك فقل الطلب عليه وانخفض سعر صرفه أكثر من ربع دينار ، كما ضرب الفاطميون دراهم فضية لم يستقم أمرها الا بعد إحداث إصلاح نقدى بسبب عدم جودة سكها وضبط

(١) عطية القوصى ، مجارة مصر ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، أمين تولى الطيبي ، النقود العربية انتشارها وأثرها فى أوروبا فى القرون الوسطى ، ص ٣٢٠ ، ضمن كتاب دراسات وبحوث فى تاريخ المغرب والأندلس ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٨٤ م ، ارشيباليس ، القوى البحرية ، صص ٢٦١ .

(٢) كانت هذه السياسة مظهراً من مظاهر النزاع الفاطمى العباسى ، وقد سار الفاطميون على سياسة التشدد فى فرض نقودهم ، ومنع تداول العملات العباسية أملاً فى الوصول الى المركز الذى وصل اليه الدينار العباسى ، بالإضافة الى محاولة القضاء على أى مظهر من مظاهر الخلافة العباسية .

عيارها بالإضافة الى الإكثار من اعدادها ، فكثرت أيدى الناس مما تسبب فى حدوث اضطراب نقدى وأزمة اقتصادية فى الدولة نتج عنها ذلك الإصلاح ، فاستبدلت تلك الدراهم بدراهم فضية جديدة أحسن سكها ، وضبط عيارها ووزنها ^(١) .

لقد أصدر الحكام الفاطميون عملات تحمل أسماهم وألقابهم ، ولكن حدث تفاوت فى أوزان تلك العملات ونسب عيارها مما أدى الى استمرار الدينار المعزى كأساس فى عملية التبادل النقدى والعمليات التجارية فى مصر نظراً لارتفاع قيمته النقدية وقوته الشرائية ، ثم قام الفاطميون بسك دينار صغير يساوى ربع الدينار المعزى ^(٢) .

كان من التطورات النقدية فى العصر الفاطمى أن أكثر الفاطميون من دور الضرب فأنشأوا فى كل من القاهرة والفسطاط والاسكندرية وتونس وقوص ، وفى صور وعسقلان وطبرية ودمشق دوراً لضرب النقود بأنواعها ، ويعمل أحد الباحثين المحدثين ^(٣) ذلك بمواكبة النشاط التجارى المتزايد ، والحاجة الى أعداد

(١) المناوى ، النقود ، ص ٩٩ ، المعزى ، النقود ، ص ٥٨ - ٥٩ ، سيدة كاشف ، دراسات ، ص ٩١ .

(٢) يذكر د. عطية القوصى ، تجارة مصر ، ص ٢٤٥ ، أن هذا الدينار الصغير قد انتشر فى أوروبا ، تحمل اسم تارين ، والحقيقة أن هذا الاسم أطلق على العملة التى أصدرها الملك النورمانى (روجر الثانى) ملك صقلية وجنوب إيطاليا عام ١١٤٠ م ، والتى تعد أول محاولة أوروبية فى العصور الوسطى لسك عملة ذهبية ، والاحتمال كبير فى اعتماد الملك النورمانى على تقليد الدينار الفاطمى أو أى دينار اسلامى آخر فى إصدار عملته الذهبية . فضلاً أنظر عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ٤٨ ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، دار دمشق للطباعة والنشر ، دمشق ، أمين الطيبى ، النقود العربية ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٩ .

(٣) عطية القوصى ، تجارة مصر ، ص ٢٤٦ ، فضلاً أنظر ، أرشيبالد ، القرى التجارية ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

كبيرة من العملات الذهبية والفضية للقيام بالعمليات المالية للمبادلات التجارية المتنامية ، والتي هبها الموقع الهام لمصر بوصفها طريقاً تجارياً ، وحلقة وصل فى التجارة الدولية مما جعلها مركزاً تجارياً هاماً ، وسوقاً نقدية يتم فيها تداول عدد كبير من العملات الأجنبية .

لقد أصدر حكام الدولة الفاطمية عدداً من النقود التذكارية من الذهب والفضة والنحاس بأحجام مختلفة للإتعام بها على رجال الدولة فى بعض الأعياد والمناسبات ، فمن هذه النقود ما أطلق عليه (دنانير خميس العدى) التى يتم تحويلها الى خرايب (جمع خروبة) ، وهى نقود ذهبية صغيرة تزن (١٩٤ . ٠) من الجرام كانت توزع فى أحد أعياد النصارى ، وهناك أيضاً نقود (الغرة) ، وهى دنانير تضرب فى العشر الأواخر من شهر ذى الحجة بأمر من الخليفة الفاطمى ، ويتم توزيعها مع بداية العام الجديد خصيصاً لكبار رجال الدولة ، كالوزير وأرباب الرتب ، وأصحاب السيوف والأقلام ، ومن هم على نحوهم ^(١) .

لم تكن الأوضاع النقدية حسنة عند سقوط الدولة الفاطمية ، وزاد من سوءها الظروف السياسية التى كانت تخيم على منطقة الشرق الاسلامى ، والمتمثلة بالاستيلاء الصليبي على أجزاء منها ، فحتمت تلك الظروف ضغطاً اقتصادياً ، ونفقات باهظة لتمويل العمليات الحربية ضد الصليبيين ، ففقدت الدولة نتيجة ذلك كثيراً من احتياطاتها النقدية من الذهب والفضة ، وزاد من ذلك انخفاض الكميات الواصلة من تلك المعادن بسبب ظروف الحرب أولاً ، وثانياً لانخفاض

(١) المقرئى ، المخطوط ، ج ١ ، ص ٤٥٠ ، ص ٤٩٠ - ٤٩١ . دار صادر . بيروت ، (ب)

- (ث) . عهد الرحمن لهنس ، النقود العربية ، ص ٦٦ . ٦٨ . عطية القوصى . تجارة مصر

ص ٢٤٦ .

مناجم الذهب فى وادى العلاقى فى الصحراء الشرقية ^(١) . وهو المصدر الرئيسى لمعدن الذهب الأمر الذى اضطر الدولة الى ترك عملية استغلال تلك المناجم لعدم الاستفادة منها .

يقول المقرئى ^(٢) نقلاً عن القاضى الفاضل عن الوضع عند سقوط دولة الفاطميين وقيام دولة الأيوبيين سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م :

«وفيهما عمت بلوى المصارف بأهل مصر لأن الذهب والفضة خرجا منها وما

(١) يطلق على هذه المنطقة بلاد الهجة أو الهجة بضم الهاء . وفتح الجيم) وتقع بين الهشة وبلاد التوبة . ويسكنها طائفة يقال أنهم من البربر كانت أول بلادهم قرية تعرف بالخرية . وآخر بلادهم بلاد الهشة . ويقال أنهم قبيلة من الحبش . ويسكنون بين عيلاب وسواكن . وبين البحر الأحمر ونهر النيل . سود الألوان . لباسهم الملاحف الصفر . ويشدون على رؤوسهم عصائب حمراء . وهم أهل لمجدة وشجاعة .

أما عن وادى العلاقى يفتح العين وتشديد اللام وكسر القاف . فهى بين عيلاب ثمان مراحل . وأقرب البلاد المعمورة لها أسوان وجزيرة سواكن . وهو جنوب بلاد الهجة يطلق عليها (أرض سفالة الذهب) .

(محمد بن ابراهيم بن يحيى الكتبى (الوطواط) مهاج الفكر ومناهج العبر . ص ٩٩ دراسة وتحقيق عبد العال عبد المنعم الشامى . الطبعة الأولى . ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م الكويت . ابن الوردى . خريدة العجائب . ص ٦٥ . مطبعة محمد شاهين . القاهرة . ١٢٨٠ هـ . ابن بطوطة . الرحلة . ج ٢ . ص ٢٦٩ . الطبعة الثالثة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م مؤسسة الرسالة . دمشق . الفلقشندي . صبح الأعشى . ج ٣ . ص ٢٨٤ . ج ٤ . ص ٢٤٧ . مطبعة بولاق . القاهرة . ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م . المقرئى . الخطط ج ١ . ص ١٩٤ - ١٩٥ . مصطفى محمد مسعد . الهجة والعرب فى العصور الوسطى . ص ٣٢ . مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة . المجلد ٢١ الجزء الثانى ديسمبر ١٩٥٩ م . ص ١ . ٥٩ .

(٢) النقره . ص ٥٩ . السلوك لمعرفة دول الملوك . ج ١ . ص ٦٧ - ٦٨ . حقق محمد مصطفى زيادة . الجزئين ١ . ٢ . وحقق سعيد عاشور الجزئين ٣ . ٤ . الطبعة الثانية ١٩٥٧ م . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة (ب - ت) .

رجعا ، وعدماً فلم يوجدنا ، ولهج الناس بما غمهم من ذلك ، وصاروا اذا قيل دينار أحمر فكأنما ذكرت حرمة له ، وإن حصل فى يده فكأنما جاءت بشاراة الجنة له ، ومقدارها حدث أنه خرج من القصر ما بين درهم ودينار وصاع ، وجوهر ونحاس وفلوس وأثاث وقماش وسلاح ما لا يلقى به ملك الأكاسرة ، ولا تتصوره الخواطر ، ولا تشتمل على مثله الممالك ، ولا يقدر على حسابه الا من يقدر على حساب الخلق فى الآخرة .

لقد أثرت تلك الأوضاع بالعملة الاسلامية ، وأدت الى تلهذب قيمتها النقدية ومركزها العالمى ، فعمل صلاح الدين الأيوبي فى سبيل معالجة سوء الأوضاع النقدية على إجراء إصلاح سريع بدأه بضرب دنانير ذهبية جديدة ورفع من قيمتها النقدية ، ثم ضرب دراهم فضية نحاسية مناصفة ، وأطلق عليها الدراهم (الناصرية) ، وأمر بإبطال التعامل بالدراهم الفاطمية المعروفة بالدراهم السود - لاحتوائها على كمية كبيرة من النحاس - ومع أن الإصلاح النقدى الذى قام به صلاح الدين لم يقض على الأزمة النقدية فى البلاد لفساد حال الدراهم الفضية ، وارتفاع قيمتها النقدية مقابل الذهب ^(١) لذا استمرت تلك الإصلاحات مع إجراء بعض التعديلات عليها من قبل خلفاء صلاح الدين ، حتى اذا كانت سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م قام الكامل محمد بن العادل الأيوبي بإصلاحاته النقدية الشهيرة ، فسك ديناراً ذهبياً نقياً بنسبة ١٠٠ ٪ ، كما سك دراهم فضية دقيقة الوزن والعبارة احتوت على ثلثى وزنها فضة والثلث الباقي من النحاس ، وقد أطلق على هذه الدراهم (الكاملية) نسبة اليه ، كما أطلق عليها

(1) RABIE, H. M. The Financial System of Egypt A.H, (565 - 471) A.D. (1169 - 1341). London, 1972. pp. 173 - 177.

(الدرهم النقرة) نسبة الى دقتها وضبطها فى الوزن والعيار والسك ^(١) . وقد أدت تلك الإصلاحات الى استتار الأراضاع النقدية ، حيث استمر العمل بها حتى السنوات الأولى من قيام الدول الحديثة . ويقول المقرئى ^(٢) عن ذلك :

« راجت هذه الدراهم فى بقية دولة بنى أبوب ، ثم فى أيام مواليتهم الأتراك بمصر والشام رواجاً قل الذهب بالنسبة اليها ، وصارت المبيعات الجليلة تنحاج وتقوم بها واليها تنسب أثمان المبيعات وقيم الأعمال ، وبها يؤخذ خراج الأرضين ، وأجرة المساكن وغير ذلك » .

لقد إهتمت الدولة الاسلامية فى مختلف عصورها بدار ضرب النقود ، وجعلت الإشراف عليها يتم مباشرة من قبل الخليفة أو من ينوبه ، أو من يقوم مقامه ، وذلك بهدف ضبط مهمتها ومراقبة أعمالها بكل دقة والإشراف على أوزان النقود وعبارها وسبكها ، وما يتصل بذلك من أمور ^(٣) .

وقد كانت دور الضرب محل اهتمام الخلفاء وإشرافهم حتى اذا ضعفت الخلافة - وخصوصاً فى العصر العباسى الثانى - أصبحت دور الضرب تحت إشراف أشخاص من رجال الدولة الأمر الذى تسبب فى كثير من الأحيان فى عدم

(١) المقرئى ، النقود ، ص ٥٩ - ٦٠ ، المناوى ، النقود ، ص ١٠٣ ، عطية القوصى ، تمهارة مصر ، ص ٢٥٠ ، عبد الرحمن لمسى ، النقود العربية ، ص ٦٩ ، ٧٧ ، حستين محمد ربيع ، النظم المالية فى مصر زمن الایوبیین ، ص ٩٤ ، ١٠١ ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٤ م .

(٢) إبن خلدون ، ص ٦٦ .

(٣) ناصر النقشبندى ، الدينار الاسلامى ، ص ١٦ ، عباس المزوى ، تاريخ النقود العراقية ، ص ١٥ - ١٦ ، سيدة كاشف ، دراسات ، ص ٩٦ .

ضبط عيار النقود ، وعدم اتقان سكها ، وتطرق الفساد اليها ^(١) .

لقد انتشرت دور ضرب النقود فى مختلف أقاليم الدولة الاسلامية ، وأكثر ما تعددت وانتشرت خلال العصر العباسى بحيث قاربت أعدادها المائة والخمسين داراً لسك النقود ، وقد شهدت تلك الدور تقدماً فى أداء أعمالها سواء ما يتصل بتنظيمها أو بأعمالها الفنية المرتبطة بسك العملات ^(٢) .

كانت دور الضرب تحت تنظيم ادارى يقوم عليه موظفون اداريون وفنيون أطلق عليهم اسم المعدلين الذين يختصون بتعديل أوزان النقود وعيارها ، وأطلق على آخرين اسم السباكين أو الطباعين الذين يقومون بختم النقود بالسكة الرسمية للدولة ، وهناك آخرون أيضاً يقومون بأعمال الحراسة والخدمة ، وجميع هؤلاء تحت إشراف متولى دار الضرب الذى يتلقى التعليمات مباشرة من الخليفة ، أو ولى الأمر أو من ينوبه فى الإشراف عليها ^(٣) .

هذا وكانت دور الضرب تأخذ رسماً مالياً لقاء ما تقوم به من إصدار العملات للتجار وأصحاب الأموال بواقع درهم واحد عن كل مائة درهم يتم ضربها ، وهذه تعد أجرة لأدوات التصنيع وأجرة الفنيين ^(٤) ، وكثيراً ما قام الصيارفة بدور الوسيط بين دور الضرب والمتعاملين ، حيث يقومون بتمويل دار الضرب

(١) عهد العزيز حميد ، المسكوكات المزيفة ، ص ٣٠٠ .

(٢) ناصر النقشبندى ، المرجع السابق ، ص ١٦ ، ١٧ ، عباس العزوى ، المرجع السابق ، ص ١٩ ، سيدة كاشف ، دراسات ، ص ٩٦ .

(٣) عباس العزوى ، تاريخ النقود ، ص ٢٢ ، عبد الرحمن لهسى ، صنع السكة فى فجر الاسلام ، ص ٧ ، ١٢ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ط الأولى ، ١٩٥٧ م .

ولزيد من التفاصيل عن دار الضرب وإدارتها فضلاً أنظر الفصل الأول ص ٧٠ وما بعدها .

(٤) المقرئى ، النقود ، ٣٦ ، ناصر النقشبندى ، الدينار الاسلامى ، ص ١٦ .

بالمعادن المستخدمة ، ثم يقومون بتوزيعها للتداول ، ولا شك أنهم كانوا يحصلون على أرباح مالية لقاء هذه العملية ، وتحقيقاً لوظيفتهم الرئيسية قاموا بعمليات الصرف النقدي ، واستبدال العملات من خلال حوائثهم التي اتخذوها تحقيقاً لهذا الغرض ، وهي موزعة في الأسواق والمراكز التجارية المختلفة .

وعن أسعار الصرف التي يتعامل بها هؤلاء الصيارفة ، فالمعروف أن أسعار صرف العملة خاضعة لعدة عوامل وظروف لا يمكن معها الثبات ، كما أن تلك القيمة تختلف من مكان لآخر بالنظر الى الأوزان والعيارات وجودة السك ونحو ذلك ، وظروف الضرب في كل اقليم أو ناحية وما تملكه من امكانات ^(١) .

أما الأساليب المصرفية فقد تطورت خلال العصور الاسلامية المختلفة ، وانتشرت بين أقاليم الدولة الاسلامية ، فشاع استعمال نظام الفاتح ^(٢) أو (الحوالات) في مختلف عمليات التحويل بين المناطق والأقاليم الاسلامية ، استعملت في تسديد ديون التجار وتصفية حساباتهم ، وكذلك في التسليف المالي ، أو الاقتراض ، كما استعملت الصكوك في العمليات الحسابية من اقراض أو تسديد أو تحويل ، وقد جاء استخدامها في وقت مبكر على زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه ^(٣) - ، واستعملت أيضاً طريقة

(١) عطية القوصى ، تجارة مصر ، ص ٢٤٦ ، سيدة كاشف ، دراسات ، ص ١٠١ .

(٢) السطاح جمع سفتح بفتح السين وسكون الفاء وفتح التاء ، وهي كتاب أو رقعة أو قصاصة يكتبها المستقرض للمقرض الى نائه ببلد آخر ليعطيه ما أقرضه في ذلك البلد وغبة في عدم حمل المال لاعتبارات أمنية .

عوف محمود الكفراوى ، النقود والمصارف في النظام الاسلامى ، ص ٥١ - ٥٢ ، أحمد الشرباصى ، المعجم الاقتصادى الاسلامى ، ص ٢٢١ .

(٣) عوف الكفراوى ، المرجع السابق ، ص ٥١ ، سيدة كاشف ، دراسات ، ص ١٠٦ .

الرقاع وهى أن يرسل شخص ما الى أحد المتاجرين بالبضائع ورقة يعلمه فيها برغبته فى الحصول على سلعة أو بضاعة ، وتحمل هذه الورقة توقيعها أو ختمه ، فيرسل له التاجر السلعة التى طلبها بعد تسجيل السعر على الورقة التى يحتفظ بها الى حين تسديدها من قبل المستفيد ، وقد وجد من هذه الرقاع أعداد كبيرة تدل على استعمالها بكثرة وانتشار التعامل بها ^(١) .

هذه بإيجاز بعض المفاهيم المرتبطة بالنظام النقدي ، والتطورات التى مر بها النظام النقدي الاسلامى ، وما ارتبط به من جوانب ، ولا شك فى أن تلك التنظيمات النقدية ، وما تعرضت له من تطورات ما هى الا القاعدة التى بنى عليها النظام النقدي المملوكى وما مر به من تطورات نقدية نلقى عليها الضوء فى دراستنا هذه عن النظام النقدي المملوكى .

(١) عطية القوصى ، مجارة مصر ، ٢٥٣ .

الفصل الأول

دور سك العملة في دولة المماليك

- ١ - أهميتها . مراكزها ، وفلاها بحاجة الدولة من العملات .
- ٢ - الإشراف والإدارة على دور الضرب .
- ٣ - المعادن المستخدمة لسك العملات ومصادر ها .
- ٤ - مراحل سك النقود .

أهمية دار سك النقود

دار ضرب النقود أو سك العملات من الجهات الرئيسية فى الدولة ، ومن أهم المؤسسات فى حياة المجتمعات ، فهى الجهة الوحيدة التى تملك حق إصدار مختلف أنواع العملات سواء كانت ذهبية أو فضية أو نحاسية ، وما عداها لا يحمل أى صفة قانونية بل يدخل فى نطاق عمليات التزييف التى تخارها الدولة .

كانت دار الضرب تودى خدمات جليلة لا تقل شأنًا وأهمية عن الخدمات التى تزودها المصارف المركزية لمختلف الدول فى عصرنا الحاضر ، فهى الجهة المسئولة عن تجهيز النقود وتصنيعها لسد احتياجات الدولة وبالأخص الحكومية منها ، كما أنها تودى مهمة أساسية فى عملية استبدال النقود وتجديدها ، حيث تقوم باستبدال النقود القديمة والمستهلكة ، أو التى ألغيت وبطل استعمالها وتداولها بالنقود الجديدة ، وتأمين البديل لها من الإصدارات الجديدة ، وهى أيضاً تعد مخزنًا لكميات المعادن الثمينة (الذهب والفضة والنحاس) التى تحتفظ بها الدولة احتياطياً لها ، كما كانت تقوم بوظيفة رئيسية فى النمو الاقتصادى شأنها فى ذلك شأن المؤسسات المالية والمصرفية^(١) ، وتتأثر التنمية الاقتصادية فى كل دولة بمدى النشاط الذى تقوم به مثل هذه الجهات ، ومشاركتها الفعالة والأساسية فى الحركة الاقتصادية التى تعيشها الدولة ، وذلك بإيجاد الأداة المحركة للاقتصاد ، وهى النقد أو العملات .

(١) زادت وتضخمت الخدمات التى تقوم بها المؤسسات والمصارف المالية عما كان موجوداً فى تلك الفترة من نظم ومعاملات مالية ، وهذه الزيادة فى الخدمات ما هى الا وليدة التطور الكبير الذى مرت به المصارف ، ومختلف أنواع المعاملات المالية عبر التطورات الاقتصادية المختلفة .

فأهمية دار الضرب تتمثل فى سك الكميات اللازمة من العملات التى يتم تداولها فى أثناء حركة التعامل المالى والاقتصادى ، واللازمة لتنشيط الحركة الاقتصادية بفهمها العام فى الدولة بجميع مناطقها وأقاليمها ، كما أن دار سك العملات تقوم فى الوقت نفسه بموازنة حاجة السوق والمتعاملين للعملات ، فكلما كانت الحاجة تتطلب مزيداً من الإصدارات زادت دار الضرب من ذلك ، وعندما تدعو الحاجة الى تخفيض هذه الإصدارات نظراً لكثرتها وتوافر أعدادها ، تقوم الدولة بتقليص تلك الأعداد محافظة على استقرار الأوضاع النقدية فى المقام الأول والأوضاع الاقتصادية فى المقام الثانى ، فوفرة تلك الأعداد تؤدى الى نتيجة سلبية على اقتصاديات الدولة ، حيث تنشأ خلال ذلك ظاهرة التضخم المالى ، واضعاف القيمة النقدية والقوة الشرائية للعملة مما ينتج عنه الكثير من الأزمات الاقتصادية ، وفى مقدمتها ارتفاع أسعار السلع والتقلبات الحادة فى أسعار تبادل العملات .

إن الحديث عن دار الضرب وأهميتها يضطرنا للحديث عن السكة ذلك المصطلح الذى يدل عند إطلاقه على الوظيفة الأساسية لدار الضرب ، وهى تصنيع العملات وما يتصل به من جوانب .

إن للفظ السكة معان متعددة تدور كلها حول العملة ، فيعبر عنها بالنقود التى يتم التعامل بها بمختلف أنواعها من دنانير ودراهم وغيرها ، ويعبر عنها أيضاً بالنقوش التى تزين تلك النقود ، كما يعبر عنها بالأختام التى تختم بها النقود ، وأخيراً يعبر عنها بالمهنة أو الوظيفة التى تقوم بها دار الضرب ^(١) .

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، فصل فى شارات الملك والسلطان الخاصة به ، ص ٢٣٢ ، ناصر النقشبندى ، مهاب الهكرى ، الدرهم الاموى العربى ، ص ١٩ ، عبد الرحمن فهمى ، فجر السكة العربية ، ص ٢٨ ، سيدة كاشف ، دراسات فى النقود الاسلامية ، ص ٦٢ .

وسأكتفى بإيراد ما ذكره ابن خلدون ^(١) عن السكة بوصفها وظيفة هامة فى الدولة حيث يقول :

«وهى وظيفة ضرورية للملك اذ بها يميز الخالص من المغشوش بين الناس فى النقود ، وعند المعاملات ، ويتقون فى سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة» .
ويقول أيضاً ^(٢) :

«وأما السكة فهى النظر فى النقود المتعامل بها بين الناس ، وحفظها بما بداخلها من الغش أو النقص إن كان يتعامل بها عدداً ، أو ما يتعلق بذلك ، ويوصل اليه من جميع الاعتبارات ، ثم وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاستجادة والخلوص (من التزييف والغش) يرسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك ، ونقش فيه نقوش خاصة به ، فيوضع على الدينار بعد أن يقدر ويضرب عليه بالمطرقة حتى ترسم فيه تلك النقوش ، وتكون علامة على جودته بحسب الغاية التى وقف عندها السبك والتخليص فى متعارف أهل القطر ومذاهب الدولة الحاكمة» .

وما قاله ابن خلدون هو ما قاله عدد من العلماء والفقهاء وغيرهم ^(٣) عن السكة ، ومهامها ووظيفتها ، وجميع ما ذكر لا يختلف عن التعبيرات التى يراد بها لفظ السكة عند إطلاقها .

(١) المقدمة ، فصل (فى شارات الملك والسلطان الخاصة به) ص ٢٣٢ .

(٢) المقدمة ، فصل (فى الخطط الدينية الخلاقية) ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٣) البلاذرى ، النقود ، ص ١٦ - ١٨ ، الأحكام السلطانية ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .
المقرئى ، الأوزان ، ص ٣٨ - ٣٩ .

مراكزها

لقد تعددت مراكز دور الضرب فى الدولة المملوكية ، فشملت عدداً من أقاليم الدولة ومدنها المختلفة ، فقد وجد فى القاهرة والاسكندرية وقوص ^(١) دور لسك النقود ، وذلك فى الديار المصرية ^(٢) ، إضافة الى عدد آخر فى بقية أقاليم الدولة التابعة لها الواقعة تحت نفوذها كالديار الشامية والحجازية وغيرها .

وما ذكر عن أماكن دور الضرب هو ما كان قائماً عند قيام الدولة المملوكية ، وهل استمرت تلك الدور فى وظيفتها طوال العصر المملوكى أم توقفت بعضها ؟ هذا هو ما تتوقف عنده المصادر التاريخية ، ولا يرد فيها ما يفيد ذلك ، ويورد بعض الباحثين المحدثين ^(٣) ، أنه لم يكن فى الديار المصرية خلال عهد المماليك الجراكسة سوى دارين لسك النقود فى القاهرة والاسكندرية ، ولم يذكر الباحث المصادر التى اعتمدها فى هذه المعلومة .

وفى أحد النصوص التى أوردها المقرئى فى كتابه (السلوك) ^(٤) ضمن حوادث سنة ٨٣٧ هـ / ١٣٣٧ م يشير الى عدد من دور الضرب فى بعض مدن

(١) قوص : مدينة كبيرة واسعة ذات تجارة وأسواق ، تعد المركز الإدارى لهلال الصعيد ويتبعها ٣٩ ناحية ، وتقع شرقى النيل ، بينها وبين القاهرة اثنا عشر يوماً وتعد محطة القادمين الى القاهرة من الهند وعدن ، فيها كثير من الفنادق والمدارس .

(ياقوت : شهاب الدين ياقوت عبد الله الحموى ، معجم البلدان ، مج ٤ ، ص ٤١٣ ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٣٦٧ هـ / ١٩٥٧ م ، الوطواط ، مهاج الفكر ، ص ٩٦ .

(٢) ابن عماتى : أسعد بن المهذب ، قوانين الدواوين ، ص ٣٣١ ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٤٣ م .

(٣) رأفت النبراوى ، مسكوكات المماليك الجراكسة وقيمتها النقدية ، ص ٢ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، رقم ٣٥٧٤ .

(٤) ج ٢ ، ص ٤٤٤ .

مصر كـ (تروجة ، فوة ، بلاد الصعيد) ^(١) ، ولم يرد أى ذكر لهذه المراكز فى المؤلفات الأخرى للمقرزى التى تحدثت عن هذا الموضوع . كما لم يرد فى المصادر الأخرى ما يفيد بوجود أعداد أخرى من تلك الدور فى بعض المدن المصرية . والمرجع أن هذه الدور التى يقصدها المقرزى إنما هى مخصصة فقط لضرب أو سك العملات النحاسية (الفلوس) بدليل خصوصية النص فى الحديث عن قيام الدولة بطرح فلوس نحاسية تم ضربها فى الدور الأتفة الـ ذكر . وإن صح هذا الترجيح فإن هذا يعنى قيام الدولة بتخصيص عدد من الدور تكون وظيفتها الوحيدة اصدار العملة النحاسية (الفلوس) ، وهى عملات ليست رئيسية فى الدولة - خلال الفترة التى يتحدث عنها المقرزى - ولم تكتسب

(١) تروجة بالفتح للأول والضم والتشديد للثانى مدينة برية ليست على النيل من بلاد البحيرة من أعمال الاسكندرية ، لها قرى وضياح تسكنها بعض القبائل العربية ، (ياقوت ، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموى ، معجم البلدان ، مج ٢ ، ص ٢٧ ، الطوطا ، مباحج الفكر ، ص ١٣١ .

ولوة ، بليدة على شاطئ النيل قرب رشيد ذات أسواق ونخل كثير ، بينها وبين البحر خمسة الى ستة فراسخ ، (ياقوت ، معجم ، مج ٤ ، ص ٢٨٠) .

والصعيد له معان كثيرة ، وهو بلاد واسعة بمصر فيها مدن وقرى وبلدان أولها أسوان من ناحية الجنوب ثم قوص واخميم والبهنسا وغيرها ، وتنقسم الى ثلاثة السام صعيد أعلى وأدنى وأوسط .

وأهم مدنه : مدينة أسوان والنس كان لمركزها التجارى أثر كبير فى نموها وتطورها ، فهى محطة القادمين من الهند واليمن الى مصر ، فتنقلت بالأسواق العامة والتجارات والصناعات والقياس وغيرها من المنشآت التجارية . شديدة الحرارة لقرها من خط الاستواء ، بينها وبين القاهرة مسيرة ١٢ يوماً ، وبينها وبين عيذاب على البحر الأحمر مسيرة خمسة أيام .

(أبو عبيد البكرى ، جغرافية مصر ، من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق ونشر عبد الله يوسف الغنيم ، ص ٨٢ - ٨٣ ، الكويت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ ، ياقوت ، معجم مج ٣ ، ص ٤٠٨ ، مج ٤ ، ص ٤١٣ ، الطوطا ، مباحج الفكر ، ص ٩٦) .

لصفة الشرعية (القانونية) .

وبما يعزز وجهة النظر هذه نصاب آخران للمقرضى ذكر فى أحدهما ^(١) قيام الدولة فى عهد السلطان الظاهر برقوق أول - سلاطين المماليك الجراكسة بافتتاح دار ضرب جديدة لعمل الفلوس النحاسية ، وذلك بمدينة الاسكندرية والنص الآخر ^(٢) ضمن حوادث سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م ، ويشير فيه المقرضى الى أن الدور الخاصة بضرب الدنانير هى إما القاهرة أو الاسكندرية أو دمشق ، حيث أسندت مهمة إصدار أنواع معينة من النقود الى عدد من دور السك ، كما أسندت أنواع أخرى الى دور سك أخرى ^(٣) ، كما يفهم مما أورده المقرضى قيام عدد من دور السك بإصدار الفلوس النحاسية فقط فى كل من (تروجة ، وفوة ، وبلاد الصعيد) ، وقد يملل هذا التطور الذى حدث فى اختصاصات دور سك العملات فى الدولة لمحرصها على حصر إصدار كل نوع من العملات النقدية بدار ضرب معينة منعاً لحدوث أى تلاعب وفساد فى النقود ، وقضاء على أى محاولة فى هذا الاتجاه ، ولكى تتحمل كل دار أى تلاعب أو فساد يحدث فى النقود الصادرة منها .

ومن المرجح أن هذا التطور قد حدث خلال عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الذى شهد عهده تطورات عديدة فى مجالات عدة إدارية واقتصادية وغيرهما ، فى الوقت نفسه حدث فى عهده عدة أزمات نقدية أحدثها الفساد المتكرر للفلوس النحاسية ، وقد يكون ذلك سبباً فى تخصيص عدد من دور

(١) إغانة ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٢) السلوك ، ج ٣ ، ص ٣٠٥ .

(٣) الحالى ، بهاء الدين محمد بن لطف الله ، مخطوط القصد الربيع المنشأ الحارثى الى صناعة الانتشاء ، ورقة ١٣٣ أ ، نسخة مصورة بجامعة القاهرة ، رقم ٢٤٠٤٥ .

الضرب لإصدار الفلوس النحاسية فقط . ويلحظ على هذا التوزيع أن الدولة هدفت من ورائه الى استخلاص عدد من النتائج هي :

أولاً : تعدد المدن الكبيرة في الدولة سوقاً اقتصادية هامة . نظراً لكثافة المعاملات والمبادلات المالية ، والنشاط التجارى فيها مما يحتاج معه الى أعداد كافية من العملات كي تقوم بوظيفتها على أكمل وجه ، وبما يزيد من حسن الأداء ، وارتفاع الإنتاج وجودته تخصيص الدار بنوع معين من النقود .

ثانياً : عندما برزت الحاجة الى الفلوس النحاسية لزيادة أهميتها في المعاملات والنشاط الاقتصادى على مستوى الدولة . ومنافستها للعملات الرئيسية في التبادل النقدى ، اضطرت الدولة الى تأمين احتياجات الأسواق والمعاملات من تلك الفلوس بإنشاء عدد من دور السك في بعض جهات الدولة تخصص إصداراتها من العملات النحاسية فقط .

ثالثاً : تعد هذه الخطوة من الخطوات التطورية للنظام النقدى فى دولة المالك حيث لم تذكر المصادر التاريخية السابقة للتاريخ المملوكى قيام أى دولة بالعمل بهذا التوزيع ، وهذه الخطوة دلالة على ما أدخله المالك من تنظيمات على نواح مختلفة فى الدولة .

لا نحددنا المصادر التاريخية عن استمرارية العمل بدور الضرب أو استمرارها فى أداء مهمتها خلال العصر المملوكى ، وهل هذا الاستمرار انحصر بدور ضرب معينة كالقاهرة مثلاً ؟ حيث نتحدث بعض المصادر التاريخية المتأخرة عن وجود أكثر من دار ضرب فيها ، فيذكر الصيرفى^(١) ضمن حوادث سنة ٨٣٩ هـ /

(١) على بن داود ، نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ، ج ٣ ، ص ٣٤٤ ، تحقيق -

١٤٣٥ م أن الأمير غرس الدين خليل بن شاهين^(١) قد استقر في نظر آدر^(٢)
- جمع دار - الضرب في القاهرة ، ولا شك أن ما أورده الصيرفي فيه دلالة على

= حسن حبشى ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، فضلاً أنظر أيضاً محمد أبو الفرج
العش ، مصر ، القاهرة ، على النقد العربية الاسلامية ، ص ٩١٤ .

(١) هو خليل بن شاهين الشيخى الصفوى الأشرفى ، ولد في شعبان سنة ٨١٣ هـ ببيت
المقدس ، قدم الى القاهرة صغيراً ، وحفظ القرآن ، واشتغل على جماعة من العلماء ، له ما
يقارب ثلاثين مصنفاً ، تولى عدداً من المناصب في الدولة كالوزارة ونيابة الكرك ، ونيابة
المقدس ، ونيابة الاسكندرية وغيرها ، فأصبح من أعيان الدولة ومن كبار رجالها ، ولم يسلم
من السجن والتعذيب والنفي ، مات مريضاً في طرابلس سنة ٨٧٣ هـ ودفن بها ، (السخاوى
: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، مج ٢ ، ج ٣ ،
ص ١٩٥ - ١٩٦ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (ب - ت) ، ابن اياس ، محمد بن
أحمد الحنفى ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج ٣ ، ص ٢٥ ، تحقيق محمد مصطفى ،
الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م) .

(٢) الناظر مأخوذ من النظر الذى هو رأى العين ، أو من النظر بمعنى الفكر ، وهو من ينظر
في الأموال ، ويشرف عليها ، ويراقب ما يرفع اليه من حسابات ونحو ذلك من الإيرادات
والمصروفات في الدولة حسب ما يضاف اليه من جهات ، فهناك ناظر دار الضرب ، وناظر
الحااص السلطانى ، وناظر الأحباس ، وناظر الجيش ، وناظر بيت المال ، وهكذا .

فلصاحب هذه الوظيفة الإشراف العام على ما يلميه من جهات ، وخصوصاً النواحي المالية
فيها . إذ لا بد من توقيعه الرسمى على جميع الأوراق الخارجة من جهته والداخلية اليها . أما
عن موضوع نظر دار الضرب ، فهو الإشراف على ضرب النقود من ذهب وفضة ونحاس ومنع
ما يداخلها من القش . ويكون مسئولاً عن إجازة أوزانها وعيارها وجودة سكها ، ولا يتم
الحتم عليها الا بحضوره ، ويكون له الإشراف العام على موظفيها وعمالها .

(ابن عماتى قوانين الدواوين ، ص ٢٩٨ ، التنويرى : شهاب الدين أحمد عبد الرهاب ، نهاية
الأرب في فنون الأدب ، ج ٣ ، ص ٢٩٩ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة (ب - ت)
، حسن الباشا ، الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ج ٣ ، ص ١١٧٧ ، دار
النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٥ ، محمد قنديل البقلى ، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى
، ص ٢٤١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤ م) .

ما قام به المالك من توزيع اختصاصات دور الضرب ، وما أن القاهرة مركز الدولة فى جميع النواحي السياسية والادارية والاقتصادية فلا شك فى أنهم أوجدوا فيها أكثر من دار لسك النقود حسب اختصاصات كل دار فى ضرب النقود الذهبية أو الفضية ، أو النحاسية .

ولا شك فى أن دور ضرب القاهرة - التى تحولت فى أواخر عهد الدولة الى دار واحدة - قد استمرت فى أداء مهامها لضرورة وجود دار رسمية لضرب النقود فى الدولة يكون مقرها العاصمة ، ويشير أحد الباحثين ^(١) الى أن دار ضرب الاسكندرية قد توقف العمل بها بعد موت السلطان المؤيد شيخ سنة ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م . وقد اعتمد الباحث فى ذلك على أحد المراجع الأجنبية ، مستدلاً بعدم وجود مسكوكات تم إصدارها من دار ضرب الاسكندرية بعد التاريخ المشار اليه . ولا اعتقد أن هذا دليل كاف لتقرير مثل تلك الحقيقة ، فمع عدم ذكر المصادر التاريخية لذلك ، فإنه لا يمكننا الاعتماد على ما صدر من نقود لتحديد فترة عمل دار الضرب - سواء فى الاسكندرية أو غيرها - لأن الاحتمال قائم بالعثور على إصدارات تحمل تواريخ لاحقة للتاريخ المذكور ، وعندها يتأكد خطأ ذلك التقرير .

كما أن الظروف الاقتصادية للدولة لا تؤيد هذا الرأى - خاصة ما يتعلق بهدار ضرب الاسكندرية - إذ المعروف أن الاسكندرية مركز تجارى هام ليس للدولة فقط بل للتجارة الدولية ، حيث تعد سوقاً نقدية دولية يتم تداول أنواع عديدة من العملات فى أسواقها ، ولذلك ولضخامة حجم التبادل التجارى والمعاملات المالية فيها ، فلا بد من وجود دار لضرب النقود تقوم بتلبية تلك الحاجات .

(١) رأفت النبراوى ، مسكوكات المالك المراكسة ، ص ٢ .

أما عن دور سك النقود فى الأقاليم الأخرى للدولة ، فمع عدم إشارة المصادر التاريخية لتلك الدور وإنتاجها ، فمن المرجح استمرار عمل دور الضرب على الأقل فى المراكز الادارية التى ترى الدولة أهميتها من حيث الموقع والمساحة وتعداد السكان ، والمسافة بينها وبين مركز الدولة ، إذ أن ذلك سيسهل على الدولة ، وفى بحاجة تلك الأقاليم من العملات ، ويزيد من نشاط الحركة التجارية .

يحدثنا المقرئى^(١) عن موقع دار ضرب القاهرة بقوله :

« وكان بجوار خزانة الدرق التى هى اليوم خان مسرور الكبير دار الضرب ، وموضعها حينئذ بالقشاشين ، التى تعرف اليوم بالخراطين ، وصار مكان الضرب اليوم درب يعرف بدرب الشمسى فى وسط سوق السقطيين المهامزين ، وباب هذا الدرب تجاه قيسارية العصر ، فإذا دخلت هذا الدرب فما كان على يسارك من الدور فهو موضع دار الضرب » .

هذا ولم تستمر دار الضرب بموقعها الذى يحدده المقرئى بل حدث ان انتقلت فى عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى تاريخ مجهول الى قصره - المعروف به - حيث جعل دار الضرب فى وسطه^(٢) ، ثم انتقلت - بصفة مؤقتة - وذلك سنة ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م فى عهد السلطان الظاهر بروق الى الاصطبل السلطانى^(٣) ، ويفهم من هذا النص الذى أورده ابن

(١) الخطط ، ج ١ ، ص ٤٤٥ .

(٢) البلى ، التعريف ، ص ١٢٩ .

(٣) الاصطبل السلطانى هو المكان المخصص لخيول السلطان ، وكان يشرف عليه موظفون يقومون بشونه ورعايته دوابه وما يتصل بذلك ، وعددهم ستة عشر نفرًا ، كما يتبعه عدد من البيطرة الذين يقومون بالاشراف الصحى على الخيول السلطانية .

الفرات ^(١) . أن هذا الانتقال كان بهدف ضرب دراهم فضية جديدة أمر بإصدارها السلطان المملوكي بعد الأزمة النقدية التي تعرضت لها الدولة بسبب ندرة الدراهم الفضية وفسادها في الفترة المشار إليها ، وحرصاً من الظاهر برقوق على ضرب دراهم فضية ذات وزن وعيار دقيقين وجودة في السبك أم بإحضار رجال الضرب وآلاتهم لهذا الغرض ، ليكونوا تحت إشرافه ومتابعته .

وفي وقت متأخر انتقلت دار ضرب القاهرة إلى الحوش السلطاني بقلعة صلاح الدين (قلعة الجبل) ^(٢) ، ويحدد ابن تغري بردي في تاريخ ذلك سنة ٨٦١ هـ / ١٤٥٦ م ، يوضح أن سبب ذلك يعود لرغبة الدولة في الإشراف على عملية

= (القلعشندي : أبو العباس أحمد بن علي . صبح الأعشى في صناعة الانشاء . ج ٣ . ص ٤٧٤ - ٤٧٥ ، ابن شاهين : غرس الدين خليل بن شاهين ، زبدة كشف المالك وبيان الطرق والممالك . ص ١٢٥ - ١٢٦ ، تحقيق بولس راويس ، الطبعة الأولى ١٨٩٢ م مطبعة المثنى - بغداد ، الهفلى ، العتريف ، ص ٣١ .

(١) ناصر الدين محمد عبد الرحيم ، تاريخ الدول والملوك ، (تاريخ ابن الفرات) مج ٩ ، ج ١ ، ص ٦ ، ٨ ، تحقيق قسطنطين زريق ، المطبعة الأمريكية ، بيروت ١٩٣٦ م .
(٢) الحوش السلطاني وقلعة صلاح الدين .

قلعة الجبل ، أو قلعة صلاح الدين هي دار الملك لسلطين المالك ومكان إقامتهم على جانب كبير من الاتساع والحصانة والحماية تشتمل على سور وخندق وأبراج وعدة أبواب من حديد كما تشتمل على عدد من القصور والمباني والقاعات والأرواب والمجالس والأحواش والطباق والغرف والمباني والاصطبلات والجوامع والمدارس والأسواق والحمامات على مساحة كبيرة جداً على هيئة مدينة متكاملة الخدمات والمرافق .

أما الحوش السلطاني (الحوش الشريف) ، فهو متسع جداً به بستان عظيم بداخله بحيرة مائية يمكن استراحة للسلطان . ويشتمل على بعض اهتمامات السلطان الترفيهية ونحو ذلك .

(المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٠١ ، ابن شاهين زبدة كشف المالك ، ص ٢٦ - ٢٧ ، ص ١٢٨) .

سك النقود ، وحرصاً منها على أن يتم ذلك وفق الأوزان والعبارات المحددة ، يقول ابن تغرى بردى ^(١) عن ذلك خلال حوادث شهر ربيع الأول سنة ٨٦١ هـ :

«ونودى بطلوع جميع أهل دار الضرب الى القلعة لعمل مصلحة الفضة المضروبة فاضطرب الناس لذلك».

هذا وقد استمرت دار الضرب فى الموقع المذكور حتى نهاية عصر الدولة ، ويتضح ذلك من النص الذى أورده ابن ايماس ^(٢) ضمن حوادث سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م حيث يقول :

«وفى يوم الاثنين عاشره - شهر صفر - أشيع بأن فى تلك الليلة سرق من دار الضرب التى هى بالقلعة داخل الحوض السلطانى ثمانية آلاف دينار وكسور من الذهب الجديد الذى ضربه السلطان بسبب النفقة .

وفلاؤها بحاجة الدولة من العملات

كانت دور الضرب محل اهتمام الدولة ورعايتها ، وذلك حرصاً على القيام بمهمتها كاملة فى تنمية اقتصاديات الدولة ، وتطوير أوضاعها النقدية ، وكان هذا الاهتمام من قبل سلاطين الدولة قد أدى الى تلبية دور الضرب فى مختلف أقاليم الدولة لحاجة العمليات الاقتصادية من النقود خصوصاً فى عهد سلاطين المماليك البحرية ، حيث حافظت دور سك العملات فى أثنائها على أداء مهمتها بكل دقة وأمانة ومسئولية .

(١) أبو المحاسن يوسف ، حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

نشره ولهم پير ، كاليغورنيا ، ١٩٣٠ م .

(٢) بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٤٤٣ .

يقول المقرئى^(١) عن ذلك :

« ولا يتولى عيار دار الضرب الا قاضى القضاة أو من يستخلفه ، ثم رذلت فى زماننا ، حتى صار يلبسها مسالمة فسقة اليهود المصرين على الفسق مع ادعائهم الاسلام ، وكان يجتهد فى خلاص الذهب وتحرير عياره الى أن أفسد الناصر فرج ذلك بعمل الدنانير الناصرية فجاءت غير خالصة » .

فالمقرئى (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ) يتحدث عن فساد الأوضاع بدار الضرب خلال الفترة التى عاش فيها فى أثناء حكم المماليك الجراكسة ، ويقارن ذلك بما كانت عليه قبل حكمهم ، كما يتحدث عن ولاية دار الضرب ، وضرورة أن تكون بأيد أمينة ومخلصة كى تقوم بعملها المطلوب فى تصنيع العملات وعدم تزيفها أو إنقاص أوزانها ، أو عدم ضبط عيارها مما يترتب عليه فساد فى الأوضاع النقدية والاقتصادية فى الدولة ، ولا شك فى أن سياسة السلاطين تجاه دور الضرب لها تأثيرها الكبير والفاعل فى إنتاجيتها لا من حيث الكم فقط بل من حيث النوعية والجودة ، وما تحدث عنه المقرئى يوضح لنا نوعية تلك السياسة لسلاطين المماليك ، ولكى نرى تطبيق تلك السياسة التى أشار اليها المقرئى أسوق حادثتين وقعتا فى الدولة بعهديهما - أمثلة فقط - لتوضيح سياسة الدولة ، ولتأكيد ما ذهب اليه المقرئى من أن أوضاع دار الضرب خلال دولة المماليك البحرية كانت أكثر استقراراً وأدأماً لوظيفتها مما كانت عليه خلال دولة المماليك الجراكسة .

ففى سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م حدث أن اختل عيار الذهب الذى أصدرته احدى دور الضرب فى الدولة مما أدى الى تضرر الناس فى أموالهم ، فكان

(١) المخطوط ج ١ ، ص ١١٠ ، الأوزان والأكبال الشرعية ، ص ٤٧ - ٤٨ .

موقف الدولة شديداً تجاه موظفى وعمال دار الطرب ، فتحت معاقبتهم وتغريمهم مبلغ خمسمائة ألف درهم نتيجة إهمالهم وتهاونهم فى ضبط عيار الدنانير الذهبية الى أصدرتها الدار ^(١) .

وفى سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م كانت دار الضرب بالقاهرة من السوء بحيث أصبح خلط الذهب والفضة بالمعادن الأخرى كالرصاص والحديد شيئاً مألوفاً وطبيعياً ، ويضيف ابن اياس ^(٢) الذى أورد قائلاً :

« وقد سلم - السلطان - دار الضرب الى شخص يسمى جمال الدين ، فلعب فى أموال المسلمين وأتلف المعاملة .. فلما شق جمال الدين قرر فى دار الضرب المعلم يعقوب اليهودى ، فمشى على طريقة جمال الدين ، وقد استباح أموال المسلمين » .

فمن خلال هذين الحديثين يتبين لنا تأثير سياسة الدولة على الوظيفة التى تقوم بها دار الضرب ، وقدرتها على الوفاء بها ، ولا شك فى أنها وظيفة هامة وخطيرة فى اقتصاديات الدولة ، وفى أوضاعها بصفة خاصة .

لقد زاد عدد دور الضرب خلال العهد المملوكى البحرى وزيادة ملحوظة عما كانت عليه قبل ذلك ، وهذه الزيادة لها دلالتها على ضخامة المهمة التى اضطلعت بها دور الضرب ، كما ان التوسع فى اعداد تلك الدور ما حدث الا رغبة فى مجاراة النشاط الاقتصادى بصفة عامة ، وحركة التجارة الدولية بصفة

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ .

(٢) بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٧٩ . فضلاً أنظر ابن طولون شمس الدين محمد ، مفاكهة الخللان فى حوادث الزمان ، أنظر أيضاً القسم الأول ، ص ٣٦٩ ، نتائج دراسة القيم النقدية ، تحقيق محمد مصطفى ، دار احيا - الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م .

خاصة ، ولا شك فى أنه بتلك الزيادة تكون دور الضرب فى الدولة قد أدت وظيفتها ومهامها كاملة فى إنتاج مختلف أنواع العملات الذهبية والفضية والنحاسية ، فإنتاج دار الضرب يتأثر كثيراً بالأوضاع الاقتصادية والسياسية ، وبالعلاقات التجارية بين الدولة والقوى التجارية الأخرى ، حيث يزداد أو يضعف - حسب نوعية تلك الأوضاع أو العلاقات - تمويل دار الضرب باحتياجاتها من المعادن وبالتالي يقل أو يزداد إنتاجها من النقود .

وفى العهد المملوكى المجرى ، وبالأذات فى الفترة الأخيرة منه لم تكن دور ضرب النقود بنفس المستوى ، فإلى جانب انخفاض عددها كانت أيضاً شبه عاجزة عن القيام بالوظيفة المطلوبة منها إما بسبب سوء السياسة النقدية للدولة وكثرة الفساد والتلاعب الذى داخل النقود ، أو بسبب نقص إمدادات دار الضرب من المعادن المستخدمة فى تصنيع العملات ، وعدم انتظام وصول الكميات اللازمة منها الأمر الذى يزدى الى تعطيل دور الضرب ، وتوقفها عن العمل^(١) ، ويحدد الدولة مدة هذا التوقف حسب مقتضى الحال ، والظروف التى تمر بها مثل ما حدث لدار ضرب الاسكندرية التى توقفت عن العمل فى تاريخ مجهول . ثم أعيد العمل بها سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٩١ م لتقوم بإصدار العملات النحاسية فقط^(٢) . وكذلك نرى هذين العاملين وقد أثرا فى إنتاجية دار الضرب سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦ م الأمر الذى أدى الى اقفالها . يقول السخاوى^(٣) الذى أورد ذلك :

(١) فضلاً أنظر ملحق رقم (٤) .

(٢) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، مج ٩ ، ج ٢ ، ص ٢١٣ ، الفلقشندى ، صبح ج ٧ ، ص ٢١٣ ، المقرئى ، النقود ، ص ٦٩ ، محمد الصغير عبد اللطيف ، العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا الجنوبية ، ص ٤٩ ، ص ٥٥ - ٥٦ رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة الأزهر ، كلية أصول الدين رقم ١٤٢ .

(٣) الذهل التام على دول الاسلام ، ص ٣٥٢ ، تحقيق أحمد عبد الله الحسرو رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، رقم ١٣٤١٦ .

« فى أحد الربيعين أقفلت دار الضرب بعد انتشار البلاء بارتفاع الأسعار فى كل شئ من أجل ما حدث على الفلوس كل يوم ، وكثرت جداً بحيث عز وجود الفضة ، وقل الصرف منها للمستضعفين ، وارتقى الدينار لأزيد من نصفه ، وكان ما يطول شرحه » .

ويشير المقرئ إلى انخفاض إنتاج دار الضرب فى زمانه أثناء حكم الماليك الجراكسة - فيقول (١) :

« كانت دار الضرب يتحصل منها للسلطان بأحوال كثيرة قلت زماننا لقلّة الأموال » .

ومن هنا نجد أن مهمة أو وظيفة دار ضرب النقود فى العصر المملوكى تأثرت كثيراً بأموال الدولة الداخلية من سياسية وإدارية واقتصادية كما تأثرت بالعلاقات الاقتصادية للدولة مع القوى التجارية الأخرى ، وعند النظر فى تلك الأحوال والعلاقات نجد أنها خلال العهد المملوكى البحرى كانت أكثر استقراراً ووفاء لاحتياجات الدولة والمتعاملين عما كانت عليه فى العهد المملوكى الجركسى .

أما عن إنتاجية دار الضرب من العملات سواء كانت ذهبية أم فضية أم نحاسية فلا تسعفنا المصادر التاريخية بإحصاءات - ولو لم تكن دقيقة - عن أعداد العملات التى تنتجها دار الضرب ، أو أى دار للضرب فى الدولة ، ولعلنا أمام ذلك نوضح بعض الاتجاهات التى كانت عليها دار الضرب فى الدولة فيما يتصل بإصداراتها من العملات .

(١) الأوزان ، ص ٤٨ .

ففى العهد المملوكى البحرى كانت إصدارات دور الضرب من الدراهم الفضية أكثر من الدنانير الذهبية أو الفلوس النحاسية لأنها كانت العملات التى تتم بها عمليات الدفع المختلفة ، والعملات التى يتم تداولها بكثرة بين المتعاملين ، فى الوقت نفسه كانت الدنانير الذهبية تمثل احتياطياً للدولة يتم بها أو عن طريقها تقويم المبيعات وتقدير المرتبات ونحو ذلك ^(١) ، أما الفلوس النحاسية فلم يكن لها وجود واسع ومنتشر فى الدولة بل فى نطاق ضيق تمثل فى استخدامها لتسهيل العمليات التجارية ، وأداة دفع فى الصفقات التجارية البسيطة التى لا يصل مبلغها الى قيمة الدرهم الفضى .

وكان إنتاج الدنانير الذهبية متوازنا مع احتياجات الدولة وكونها غطاء واحتياطياً لميزان مدفوعاتها ، الأمر الذى يؤدى بالدولة الى تقدير الأعداد الصادرة من تلك الدنانير بكل دقة ، حسب ظروفها وأوضاعها الاقتصادية والنقدية .

أما الفلوس النحاسية فلم تكن نقوداً رئيسية فى الدولة ومن هنا ، كان إنتاجها متوقفاً على مدى الحاجة اليها ، ويمكن القول أنه فى بداية عهد الدولة لم يكن للفلوس النحاسية أى ذكر يدل على أهميتها ، وبمرور الزمن أخذت الحاجة لها تزداد ، فكثير الحديث عنها خلال حكم الناصر محمد بن قلاوون واستمرت أهميتها فى تصاعد مضطرد حتى أخذت مكانة رئيسية وصفة شرعية مع بداية حكم المماليك الجراكسة ، حيث أصبحت أداة الدفع والتقويم فى النظام النقدى المملوكى .

(١) سامع عبد الرحمن فهمى ، الوحدات النقدية المملوكية ، ص ٢٧ ، ٣٠ ، الطبعة الأولى ، نهامة للنشر والتوزيع ، جدة ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

أما فى العصر المملوكى الجركسى فاذا عكسنا ما قيل عن المالك البحرية وجدناه ينطبق على إنتاج دور الضرب المملوكية من العملات .

فقد قل إنتاج دور الضرب من الدراهم الفضية بل توقف فى كثير من الأحيان ، وكثر انتاج الفلوس النحاسية بشكل أفسد النظام النقدي ، وأذن بتدهوره وانهيائه ، هذا ما يتعلق بإنتاج الدراهم الفضية والفلوس النحاسية .

أما الدنانير الذهبية ففي بداية عهد المراكسة حافظت على نفس مستوى الإنتاج الذى كانت عليه ، ولكن يلحظ على هذا المستوى الانخفاض التدريجى الذى يعود بالدرجة الأولى الى انخفاض الكميات الواصلة الى الدولة من معدن الذهب ، الأمر الذى أدى الى حدوث أزمات نقدية نتيجة لذلك .

هذا ويظهر لنا فى دراسة القيم النقدية والقوة الشرائية مزيد من الوضوح لمجمل الأوضاع التى مرت بها الإصدارات المملوكية من العملات .

وقبل أن أختتم الحديث عن هذه الجزئية أحب الإشارة الى استفادة الدولة المملوكية من دور الضرب التى تعد جهة من جهات الإيراد المالى لخزينة الدولة (١) .

فالمصادر التاريخية الخاصة بدولة المالك لا تمدنا بمعلومات كافية عن

(١) ابن عبد الظاهر : محى الدين أبو الفضل عبد الله ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، ص ٢٧٨ . تحقيق عبد العزيز الحويطر (ط الأولى ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م الرياض ، ابن ابيك : أبو بكر عبد الله بن أبيك الدوادار . كنز الدرر وجامع الغرر ج ٨ ، الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية ، ص ١٢٢ ، تحقيق أولرخ هارمان ، القاهرة ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ ، ابن شاهين ، زبدة كشف المالك ، ص ١٠٨ .

ايرادات دار الضرب فى الدولة ، ، أو الطريقة التى اتبعت لتحصيل تلك الابرادات ، ومقدار الضريبة أو الرسم المقرر ، وقد ورد فى بعض المصادر السابقة لدولة الممالك بعض الايضاحات التى يمكن الاعتماد عليها بهذا الشأن نظراً للتشابه الكبير فى الظروف بين الدولتين الأيوبية والمملوكية ، ولعدم وجود خلاف كبير فى النظم التى عمل بها فى الدولتين ، خصوصاً وأن دولة الممالك تعد امتداداً للدولة الأيوبية من الناحيتين الزمانية والمكانية .

لقد أورد كل من المخزومى ^(١) وابن ممتى ^(٢) مقدار الرسم المأخوذ عن سك النقود وأوضحا أن الرسم لم يكن ثابتاً بمبلغ محدد بل يختلف من فترة لأخرى ، فكان قبل سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م عن كل ألف دينار تسعة وثلاثين ديناراً يدخل فيها أجرة الصنّاع والإشراف وأجرة الحطب والحراسة ، أما الدراهم الفضية ، فعن كل ألف درهم نصف دينار (أى حوالى ١٣ - ١٥ درهم) .

أما فى سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م فكان الرسم على الدنانير الذهبية حوالى خمسة وثلاثين ديناراً عن كل ألف دينار ، والدراهم عشرة دراهم عن كل ألف درهم ^(٣) .

وفى أواخر سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩١ م كان الرسم المحدد على الدنانير الذهبية أربعة وثلاثين ديناراً وربع الدينار عن كل ألف دينار يتم تصنيعها بدار الضرب

(١) أبى الحسن على بن عثمان ، كتاب المنهاج فى علم خراج مصر ، ص ٣٠ - ٣١ ، تحقيق كلود كاهن من مطبوعات المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٨٦ م .
Cahen, cl. Makhzumit al-Eiudes sur L'histoire Economique et Financie L'Egypte Medievale. Brill. Leiden, 1977 .

(٢) ابن ممتى ، قوانين ، ص ٣٣١ ، ٣٣٣ .

(٣) المخزومى ، المنهاج ، ص ٣٠ - ٣١ .

، أما الدراهم الفضية فمقدار رسم إصدار ألف منها حددت بأربعة عشر درهماً ونصف الدرهم داخل فيها رسم الإشراف وأجرة العمال وغير ذلك ^(١) .

أما بعد ذلك التاريخ ، فيذكر ابن ممانى ^(٢) أنه تم تخفيض تلك النسبة المحددة لكل من الدينارين والدراهم لتصل تقريباً الى ثلاثة دنانير عن كل مائة دينار ، ودرهم واحد عن كل مائة درهم .

وعن مقدار تلك الرسوم على عهد المماليك فالمرجح أنها لم تزد كثيراً عما كانت عليه زمن الأيوبيين هذا فى حالة الزيادة أما فى حالة النقص فهذا أمر ضعيف نظراً لحرص المماليك على زيادة موارد دولتهم المالية ، وزيادة متحصلات جهات الإيراد ، ولو أنه حدث مثل هذا للذكره المؤرخون ، خصوصاً المقرئى الذى تعرض لهذه الجزئية بقوله ^(٣) :

« فلما انقضىوا - الأيوبيين - وقامت دولة الأتراك من بعدهم أبقوا سائر شعائهم ، واقتدوا بهم فى جميع أحوالهم » .

وكان المقرئى يتحدث عن دور الضرب وأحوال النقود فى مصر أثناء حكم المماليك البحرية ، ولكن ما لم يذكره المقرئى هو التطور الذى حدث فى الطريقة التى يتم بها جمع متحصلات هذه الجهة المالية ، وهو من المتغيرات التى حدثت عليها ، حيث استخدم المماليك نظام التضمين ^(٤) ، حرصاً على الإيرادات ، وعدم التلاعب بها ونحو ذلك ، ويبدو أن نظام التضمين قد استخدم قبل قيام

(١) ابن ممانى ، قوانين ، ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٢) نفسه ، ص ٣٣٣ .

(٣) النقود ، ص ١٥ .

(٤) التضمين - هو الالتزام بأداء ما ضمن .

دولة الماليك البحرية حيث تذكر المصادر التاريخية ذلك فى وقت مبكر من قيام الدولة ، فقد أوردت بعض المصادر التاريخية أنه فى سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م كانت دار الضرب مضمّنة لعدة أشخاص بمبلغ مائتين وخمسين ألف درهم يدفعونها للدولة ، ويبدو أن هؤلاء قد استكثروا المبلغ ، فرفعوا الى الملك الظاهر بيبرس الذى خفض المبلغ الى مائتى ألف درهم فى العام الواحد ^(١) ، كما أوقف جزء من متحصلات دار الضرب لبعض جهات البر فى الدولة للصرف عليها من تلك الإيرادات بصفة دائمة ^(٢) .

وخلال العهد المملوكى الجركسى أخذ عدد من رجال الدولة المعروفين ضمان دور الضرب نظراً لما يتحقق لهم عن طريقها من المكاسب والأرباح المادية ، وكان ذلك من أوجه الفساد التى عانى منها النظام النقدي المملوكى ^(٣) ، وقد بلغ ضمانها سنة ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م فى اليوم الواحد مائة دينار ^(٤) ، أى ثلاثة آلاف دينار فى الشهر الواحد وهو مبلغ كبير بمقاييس تلك الفترة .

والضامن ، جمعه ضمن أو ضمناً . أو ضمان . وهم الملتزمون الذين يتولون لحسابهم جمع ضريبة من الضرائب ، أو رسماً مقررأ مالياً أو جهة من جهات الإيراد ، ويضمنون مقابل ذلك مهلةً معينةً للدولة يتم الاتفاق عليه ، ويدفع الى الجهة المختصة فى أوقات منتظمة كل عام .

(محمد مصطفى زيادة ، هامش (١) من كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٩٥٣) .

(١) محى الدين عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ١٩٠ ، المقرئى ، المخطوط ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ .

(٢) ابن عبد الظاهر ، نفسه ، ص ٢٧٨ ، ابن أبيك ، كنز الدرر ، ج ٨ ، (الدرة الزكية) ص ١٢٢ .

(٣) القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٤٠ ، المقرئى ، إغاثة ، ص ٧١ .

(٤) السخاوى ، الأدل للنام ، ص ٣٣٦ .

٢- الإشراف والإدارة على دور الضرب

أولاً: الإشراف

لقد سبق القول بأن دور الضرب قد تمتعت خلال عهود معظم سلاطين دولة المماليك البحرية وعدد من سلاطين دولة المماليك الجراكسة بالاهتمام والرعاية ، ونلمس ذلك الاهتمام وتلك الرعاية من السياسة التي انتهجوها ، والتي كانت تقوم في بعض الأحيان بالإشراف المباشر على تلك الدور ، والنظر في أمورها المختلفة كي تزدي مهمتها على أكمل وجه ^(١) ، وفي أحيان أخرى تقوم على تكليف أحد أمراء الدولة من نواب الأقاليم في القيام بمهمة الإشراف والمراقبة ^(٢).

ومن ضمن اهتمام الدولة بذار الضرب وتقديرها لأهمية وظيفتها إسنادها مهمة الإشراف على أعمالها ، وعلى العاملين بها إلى شخصية هامة في الدولة ذات منصب ديني كبير هو قاضى القضاة ^(٣) . وتعد توليته نظر دار الضرب

(١) ابن عبد الطاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٩٠ ، المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠٨ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ .

(٣) القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ ، المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١١٠ ، طاهر راعب حسين ، دار السكة الأيوبية والمرينية لمؤذجان لدور السكة المصرية والمغربية ، ص ٣٣٢ ندوة التاريخ الاسلامي ، المجلد الثالث ، القاهرة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٢٨٩ ، ٣٦٤ .

وقاضى القضاة وظيفة ذات مركز كبير تعد أكبر الوظائف الدينية في الدولة مشتقة من وظيفة القاضى ، وتعنى رئيس القضاة وكبيرهم ، الذى يقوم بتعيينهم في سائر الأقاليم ، وله حق الإشراف عليهم ومراقبتهم ، وكان لصاحبها حق الجلوس مع السلطان بذار العدل ، وكان يسند اليه الى جانب مهامه الاعتيادية الفصل بين الخصوم وتعيين النواب ، والنظر في مال الأيتام وأموال الأوقاف والتحدث فيها ، والنظر في جهات مالية هامة مثل دار الضرب وغيرها (القلقشندي ، ضوء الصبح ، ج ٣ ، ص ٢٤٩ ، ج ٣٤ ، ٣٦ ، ج ١١ ، ص ١٣٤ - ١٧٥ ، حسن الهاش ، الفنون الاسلامية والوظائف ، ج ٢ ، ص ٨٣٣) .

استمراراً لما كان عليه الوضع قبل دولة الماليك بزمان طويل ^(١) .

والواقع أن اختيار قاضى القضاة لتولى أمر دار الضرب ما هو الا بيان لمدى الأهمية التى كانت تتمتع بها دار الضرب بوصفها جهة رئيسية وهامة من جهات الدولة . وتكمن هذه الأهمية فى وظيفتها السياسية والاقتصادية فى الدولة ، وارتباطها المباشر بمعاش الناس ، ومعاملاتهم المالية المختلفة ، وما أن تلك الوظيفة تتصل بمعاملات الناس وكذلك بمعاملات الدولة المالية ، فإن هذا يعنى اتصالها بأمور شرعية ، وهذه الأمور ترتبط بأوزان النقود ، أو العملات التى تصدرها ، ومدى موافقة أوزان النقود وضبط عيارها ، ونسب المعادن التى تشكلها مع ما تدعو اليه الشريعة الاسلامية ، والقيام بذلك بكل أمانة ونزاهة وصدق .

ويعد مركز قاضى القضاة ، والمكانة الدينية التى يتمتع بها خير ما يؤهله لتولى هذا المنصب الهام ، وما من شك فى أن قاضى القضاة سيقوم بمهمة الإشراف على أعمال دار الضرب ، وعلى القائمين عليها على أكمل وجه ، فهو خير من يقوم بهذه المهمة مقارنة بمن عداه من أصحاب المناصب الأخرى ، ولكن نظراً لكثرة التزامات قاضى القضاة ، وما يعهد اليه من مهام أخرى ، فإنه عادة ما كان ينوب أحد رجاله ليقوم بالإشراف على دار الضرب أو الإشراف على جانب من الجوانب التى تضطلع بها ^(٢) .

(١) المقرئى ، المخطوط ، ج ١ ، ص ٤٤٥ ، عبد الرحمن فهمى ، مقدمة كتاب كشف الأسرار العلمية ، ص ٣٣ .

(٢) التلقشندى ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ ، طاهر راجب حسين ، دار السكة الأهرمية والمرئى ، ص ٣٣١ .

هذا ولم تحدد المصادر التاريخية متى انتهى دور قاضى القضاة النسبة للإشراف على دار الضرب ، ولكن المرجح أن ذلك حدث مصاحباً للتطورات الادارية التى أحدثها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ومن تلك التطورات إحداث وظيفة ناظر الخاص ^(١) الذى أصبح مشرفاً على دار الضرب لتضاف الى اختصاصاته ومهامه المتعددة ، وفى ذلك يقول القلقشندى ^(٢) :

«أما فى زماننا فنظرها (أى النظر فى دار الضرب) موكل لناظر الخاص الذى استحدثه الملك الناصر محمد بن قلاوون عند تعطيله الوزارة» .

ومن المؤكد أن تولى ناظر الخاص الإشراف على دار الضرب لم يستمر إذ حدث فى تاريخ لاحق مجهول أن أسندت مهمة نظر دار الضرب الى المحتسب بدلاً من ناظر الخاص ^(٣) ، والمرجح أن حدوث ذلك كان مرافقاً لضعف ناظر

(١) عن الناظر فضلاً أنظر هامش (٢) ، ص ٥٦ ، أما الخاص فهو ما يتصل بالسلطان من جهات مالية ومتحصلات وما يتصل بأموال السلطان وخزائنه ونحو ذلك ، وناظر الخاص من الوظائف الديوانية الهامة أنشأها السلطان الناصر محمد بن قلاوون عند إبطاله الوزارة ووزع مهامها على ثلاث وظائف (ناظر الخاص ، ناظر المال ، كاتب السر) ، وناظر الخاص أهمها وأرفعها مكانة ومركز فى الدولة . كان لناظر الخاص حق تدبير الشئون المالية فى الدولة وتعيين المباشرين ، وهو من خراس السلطان ومن المقرين اليه ، هذا ومع بداية عهد المالكة الجراكسة ضعف مركز ناظر الخاص بسبب بروز وظيفة الاستادار وعلو مكانتها ، وأصبح متوليها مديراً لشئون الدولة وأمورها ، وأصبحت وظيفة ناظر الخاص من الوظائف الديوانية المرتبطة بالاستادار .

(العمرى : شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله ، التعريف بالمصطلح الشريف ص ٧٥ ، مطبعة العاصمة بمصر ١٣١٢ هـ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٨ ، ص ٤٥ ، حسن الباشا ، الفنون الاسلامية والوظائف ، ج ٣ ، ص ١٢٠٧ .

(٢) صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ .

(٣) القلقشندى ، نفسه ، ج ١١ ، ص ٢١٤ ، ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٢٦ .

الخاص مع بداية عهد الماليك الجراكسة ، وتدنى مركزه الاجتماعى والسياسى فى الدولة ، وقد عاد ناظر الخاص الى تولى مهمة الإشراف على دار الضرب سنة ٨٤٤ هـ / ١٤٤٠ م حيث يقول المقرئى ^(١) :

« وفيه أضيف نظر دار الضرب الى ناظر الخاص كما هى العادة القديمة » .

أما عن تولى المحتسب وظيفة الإشراف على دار الضرب فقد ذكر ذلك القلقشندى ^(٢) حيث أشار الى أن محتسب الاسكندرية قد اختص بما كان يختص به قاضيهما وهو النظر بأمر دار الضرب ، وكانت وظيفته عرض النقود المضروبة على المحك ليظهر المزيف منها ، ويراقب ما يسبك من الذهب المكسور ، وعليه أن يعين مراقبين من جهته .

ومهما كانت المسميات لتولى دار الضرب والمشرى عليها ، فإن المهام التى يقوم بها من توكل اليه مهمة الإشراف واحدة لا تختلف باختلاف الأشخاص أو المسميات ، وقد أجمل على بن يوسف الحكيم ^(٣) هذه المهام بما يلى :

١ - الإشراف على وزن المعادن الواصلة الى دار الضرب ، ووزنها فى مراحلها التى تمر بها من تصفية وضبط عيار وسك عملات ونحوها .

٢ - اختبار المعادن ومدى نقائها ، وجوازها للسك بتحرير عيارها وضبط ذلك .

(١) السلوك ، ج ٤ ، ص ١٢١٩ . .

(٢) صبح ، ج ١١ ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٣) أبو الحسن على بن يوسف الحكيم من علماء المغرب فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، الدوحة المشتبكة بضوابط دار السكة ، تحقيق حسين مؤنس ، منشورات معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .

٣ - التدقيق فى النسب المختلفة من المعادن الداخلة فى تصنيع العملات ،
ومراقبة خلط تلك المعادن ومراقبة دقيقة حسب النسب المحددة .

٤ - مراقبة سك العملات ومراجعتها ، والتأكد من دقة الأختام عليها ، وعدم
انحراف تلك الأختام ، ومدى وضوح الكتابات والنقوش التى تحملها .

٥ - اختبار العمال والموظفين العاملين بدار الضرب ، واختبار قدراتهم على أداء
الأعمال بكل مهارة ودقة ، وتحليلهم بالأمانة والنزاهة .

وبشكل عام فإنه يمكن القول إن مهام القائم على دار الضرب ، سواء أكان
قاضياً أم ناظراً أم خلاف ذلك ، تقوم على الإشراف العام ومراقبة مراحل العمل
التى تمر بها العملات حتى تكون جاهزة للتداول .

وقد ذكر على بن يوسف الحكيم^(١) فصلاً عن الشروط والأوصاف المطلوبة
فى ناظر الضرب ، وما يجب أن يكون عليه من أمانة ونزاهة وصدق وإخلاص
ومعرفة بأصول الصناعة ، كما أن لديه القدرة على التمييز بين النقود بمعادنها
المختلفة جيدها وروديتها ، وطرق التزييف والغش التى كثيراً ما تحدث فى
صناعة العملات ، فضلاً عن معرفته بأنواع الخطوط والكتابات وغيرها من
النواحي الفنية المتصلة بالعملة .

ثانياً: الإدارة

تضم دور ضرب النقود فى الدولة عدداً من الإداريين (الموظفين) الذين
يديرهم المهام والأعمال المختلفة بدار الضرب ، ويتم اختيارهم من قبل المشرف
على دار الضرب ، وتكون مهمتهم إدارة ومباشرة الأعمال فى مختلف

(١) الدوحة المشتبكة ، ص ٥٠ .

أقسامها ، كل موظف لقسم من الأقسام يكون مسئولاً مباشراً عن ذلك القسم بعماله التابعين له ، وأعماله التى يقوم بها ^(١) .

وقد ذكرت المصادر التاريخية وبصفة خاصة ما ذكره كل من منصور بن بكرة الذهبى ^(٢) وعلى بن يوسف الحكيم ^(٣) معلومات قيمة عن اختصاصات أولئك الموظفين ، والمهام المنوطة بهم ، وما يضطلعون به من أعمال إدارية ، وهذه الوظائف هى :

النائب فى الحكم

وهو من ينوب عن المشرف أو متولى الإشراف بدار الضرب والمتحدث عنها فى أثناء غياب المشرف عليها ، فينوب عنه بمهمة الإشراف والمراقبة ^(٤) ، ويذكر ابن ممتى ^(٥) أن النائب فى الحكم هو الذى يجيز أوزان النقود ، ويشرف عليها وعلى ضبطها ، والأصل فى هذه الوظيفة النيابة عن القاضى فى إصدار الأحكام بين المتخاصمين ، وما أن قاضى القضاة ، كان بمن أولكت اليه مهمة الإشراف على دار الضرب ، فقد أطلق على من ينوب عن القاضى (نائب الحكم) بحكم

(١) عهد الرحمن فهمى ، مقدمة كتاب كشف الأسرار العلمية ، ص ٣٣ .

(٢) منصور بن بكرة الذهبى الكاملى ، نسبة الى السلطان الكامل الأيوبى (٦٢٥ / ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٨ م) يبدو أنه كان من موظفى دار السكة الأيوبية فى مصر فى عهد الكامل . نظراً لمعرفته واطلاعه بصناعة سك النقود وما يتصل بدار الضرب من شئون . كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، ص ٩٠ ، ٩٣ حققه عهد الرحمن فهمى محمد ، لجنة احياء التراث الاسلامى ، الكتاب الثامن ، القاهرة ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م .

(٣) الدوحة المشبكة ، ص ١٣٤ ، ١٣٧ .

(٤) ابن ممتى ، قوانين ، ص ٣٠٤ ، حسن الياشما ، الفنون ، ج ٣ ، ص ١١١٩ ، ١١٢١ .

(٥) قوانين ، ص ٣٣٢ .

طبيعة عمله .

المتولى ، متولى دار الضرب

وقد أطلق عليه عدة مسميات كالمشارف أو الناظر ، أو المتحدث ^(١) ، وهو المسئول عن إعداد البيانات المتصلة بدار الضرب من أعمال وإنتاج وإيراد ونحو ذلك ، كما كان من مهامه حفظ الخواصل من الفضة والذهب وآلات وصنوج وعدد وغير ذلك ^(٢) .

ولمى بعض الأحيان يقوم بتعيين مساعد له يتولى بعض الأعمال والمهام المناطة به ^(٣) .

الشاهد أو المعدل

ووظيفته مراقبة محتويات دار الضرب ، وما يدخل إليها ، وما يخرج منها ، ومراقبة جميع العاملين بدار الضرب ^(٤) ، ومن مهامه أيضاً إعداد كشوف أو تقارير تتضمن سير العمل من إنتاج ونحو ذلك ^(٥) ، كما كان من مهامه حفظ

(١) ابن عماتى ، قوانين ، ص ٩٨ ، ابن قاضى ، شهبة ، تقي الدين أبو بكر أحمد الأسدى الدمشقى ، تاريخ ابن قاضى شهبة ، ص ٦٥٩ ، تحقيق عدنان درويش ، دمشق ١٩٧٧ ، ابن الفرات و تاريخه ، مج ٩ ، ج ٢ ، ص ٤١٠ ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ ، ابن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ١٥ ، ص ٨٣ تحقيق ابراهيم طرخان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م ، السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٣٦٨ ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، (ب - ت) .

(٢) ابن بكرة ، كشف الأسرار العلمية ، ص ٩٠ ، ابن عماتى ، المصدر السابق ، ص ٢٩٨ ، النورى ، نهاية الأرب ، ج ٨ ، ص ٣٠٤ ، البقلى ، التعريف ، ص ٣١٧ .

(٣) الصيرفى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٣٣ .

(٤) ابن الفرات ، المصدر السابق مج ٩ ج ٢ ، ص ٤٤٩ ، المقرئى والسلوك ، ج ٣ ، ص ٨٣٩ ، الصيرفى ، نفسه ، ج ١ ، ص ٤١٢ .

(٥) ابن بكرة ، المصدر السابق ص ٩٠ ، على بن يوسف ، الدوحة المشبكة ، ص ٥١ .

المفاتيح الخاصة بمخازن أدوات تصنيع العملات وأدوات ضبط العيار وأوزان النقود من صنع ونحوها ، كما يقوم بمراجعة ما يطبعه السكاكون على الدنانير والدراهم من كتابات ونقوش ، لضمان جودتها وإتقانها ^(١) .

وقد جرت العادة على أن يكون هناك شاهدان اثنان يعملان معاً بدار الضرب ، لأهمية الأعمال التي يقومان بها ، ويفضل تغييرهما شهرياً حتى لا يكون هناك مجال للتلاعب وما شابهه ، بل يكون ذلك من دواعي الحيلة والحذر ، وحرصاً على دقة الأعمال وضبطها ^(٢) .

وتعد شهادة دار الضرب من الوظائف الديوانية ^(٣) ، ويجب على من يتولاها أن يكون متصبفاً بالأمانة والعدل والنزاهة ، وتتم توليتها بمرسوم سلطاني ^(٤) .

هذا وقد أوردت بعض المصادر التاريخية بعضاً من الوظائف الادارية المتصلة بدار الضرب ، وذلك عند ذكر أشخاص تولوا هذه الوظائف .

(١) ابن ممتي ، المصدر السابق ص ٣٠٤ ، القلقشندي ، صبح ، ج ١٢ ، ص ٤٧٨ ، طاهر حسين ، السكة ، ص ٣٢٤ .

(٢) على بن يوسف الحكيم ، الدوحة ، ص ٥١ ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٣) كان من تولي شهادة دار الضرب الحسن بن عمر بن حبيب مؤلف كتابي تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، ودرة الأسلاك في دولة الاتراك ، وذلك سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م ، وقد قال عند توليه شعراً :

| | |
|------------------------|---------------------------|
| يا أهل دار الضرب سبحان | من أشقاكم في هذه السدار |
| ما أتعب الأهدان منكم م | وما أصبركم فيها على النار |

(٤) القلقشندي ، صبح ، ج ١٢ ، ص ٤٧٨ ، البقلي ، التعريف ، ص ٢٠٦ (فضلاً أنظر الملحق رقم (٣) .

فيذكر كل من المقرئى^(١) وابن حجر العسقلانى^(٢) . وظيفة مدولب دار الضرب ، ولم تذكر المصادر شيئاً عن هذه الوظيفة بوضع طبيعتها ومهام توليتها ، وقد أطلقت هذه الوظيفة نسبة الى الدولار أو العجلة المستخدمة فى بعض الآلات ، ويطلق عليها أحياناً لفظ (الدولية) .

ويذكر خليل بن شاهين^(٣) وظيفة الشد^(٤) بأن يكون لدار الضرب شاد ، ولا يتولاها الا أحد أمراء الممالك ممن يحملون رتبة أمير عشيرة^(٥) ، وعلى من يتولاها أن يكون عالماً بقوانين المعاملة والسكة والنقوش ، كما يكون عالماً

(١) السلوك ، ج ٣ ، ص ٨٣٤ .

(٢) شهاب الدين أحمد بن على بن حجر ، إنباء الغمر بأنباء العمر ، ج ١ ، ص ٥٢٠ ، تحقيق د. حسن حمشى ، مطابع الأهرام ، القاهرة ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

(٣) زبدة كشف الممالك ، ص ١١٥ .

(٤) الشد أو المشد أو الشاد هو المفتش أو المساعد على جهاية المقررات المالية فى العادة . ولكن يمكن إطلاقها على من يقوم بأعمال المراقبة والتوجيه ، أو الرشراف على ناحية وتدهير أمورها . وكثيراً ما أضيف لفظ الشد على الجهة التى تتبعها كشاد دور الضرب أو شاد الأوقاف أو شاد الأسواق .

(القلقشندي ، صبح ، ج ٤ ، ص ٢٢ ، ج ١١ ، ص ٤٨ ، ج ١٢ ، ص ٤٥٦ - ٤٥٧ ، حسن الباشا ، الفنون الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٦٠٤) .

(٥) أمير عشرة : من مراتب أرباب السبوف فى الدولة ، ويقوم بخدم الأمير فى هذه المرتبة عشرة ممالك . وأحياناً يزيدون فى عددهم ليصلوا الى عشرين مملوكاً ، فيقال له أمير عشرين ، ولا تتغير مرتبته فى هذه الحالة بل كما هى أمير عشرة ، ويتولون ما يسند اليهم من وظائف ومناصب بمرسوم سلطانى ، وأكثر ما يوكل اليهم من أعمال تتصل بالمراقبة والتفتيش أو تلك التى تتطلب سرعة فى إنجازها .

(ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ١١٣ ، ابراهيم طرخان ، والنظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، ص ١٦١ - ١٦٢ ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، ١٣٨ هـ / ١٩٦٨ م .

بالحسبة والعيار مانعاً للغش وإفساد النقود ^(١) .

كما يلزم دار الضرب تعيين حراس يتناوبون العمل بها ليلاً ونهاراً للقيام بمهمة حراسة دار الضرب ، ومحتوياتها من أموال وأدوات وغير ذلك ^(٢) ، كما يتولى مراقبة الداخلين والخارجين من دار الضرب ^(٣) .

ثالثاً: العمال والفنيون بدار الضرب

الناحية الفنية من الجوانب الهامة جداً فى الأعمال التى تقوم بها دور ضرب النقود فى الدولة ، فأهمية النواحي الفنية فى صناعة العملات كأهمية ما تحمله هذه العملات من كتابات ، ونقوش وما شابه ذلك ، وهذه الأعمال الفنية الدقيقة تحتاج الى مهارة عالية ودقة وحذاقة فى القيام بها ، لهذا تضمنت دور الضرب فنيين متعددين يقومون بمختلف الأعمال الفنية التى تحتاجها العملات أو النقود عند ضربها .

وفيما يلى توضيح لأهم الفنيين القائمين بتلك الأعمال :

المقدم

وهو فى مقدمة الفنيين بدار الضرب ، ويعد أهم شخصية فنية بها ، يختص فى المقام الأول بعمل عيارات السبائك المعدنية ، ومراجعة أوزانها باستمرار حتى وهى فى مرحلة التصفية ، ويختص بالمحافظة على السبائك المعدنية لضمان عدم استبدالها بأخرى أقل جودة ونقاء .. كما يختص بحفظ الأتون ^(٤) .

(١) القلقشندى ، صبح ، ج ١٢ ، ص ٤٥٦ - ٤٥٧ . (فضلاً رقم ٢) .

(٢) على بن يوسف الحكيم ، الدوحة ، ص ٦٤ .

(٣) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٢٦ .

(٤) فضلاً أنظر هامش رقم (٤) ، ص ١٤٦ .

ومراقبته وصيانتته ليقوم بوظيفته باستمرار (١) .

شيخ دار الضرب أو معلم دار الضرب

وهى الوظيفة الفنية الثانية بدار الضرب ، وقد أطلقت على رئيس طائفة الحرفيين والمهنيين ، ويختار لهذه الوظيفة من يشهد له بالأمانة والخبرة والكفاية والمعرفة بدقائق المهنة ، ولا شك فى أن متوليها كان على دراية ومعرفة تامة بالأعمال الفنية التى تقوم بها دار الضرب ، ويكون تحت امرته مجموعة الفنيين بدار الضرب من طباعين ونقاشين ونحوهم ، ويكون لديه الاستعداد التام لتعليم غيره ما يتقنه من أعمال ترتبط بسك النقود وصناعتها (٢) .

النقاش

وهو من يقوم بعمل الكتابات والنقوش وغيرها مما تحمله القطع النقدية على وجهيها ، ويطلق عليه أحيانا مصطلح (الفتاح) وهو مأخوذ من الفتح أو البداية حيث تكون مهمة النقاش أو الفتاح وضع التصميم أو الرسم الذى ستكون عليه العملة بعد صدورها بما تحمله من كتابات ونقوش ورسوم .

يقول منصور بن بكرة (٣) عن النقاش ووظيفته :

(١) ابن بكرة ، كشف الأسرار ، ص ٩١ - ٩٢ ، حسن الباشا ، الفنون الاسلامية ج ٣ ، ص ١١٢١ - ١١٢٢ .

ومن الملاحظ أنه لم يأت ذكر لهذه الوظيفة أو ما يقابلها عند على بن يوسف الحكيم فى كتابه الدوحة المشتبكة كغيرها من الوظائف الأخرى .

(٢) ابن الهيثم ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٤٨١ ، حسن الباشا ، الفنون الاسلامية ،

ج ٢ ، ص ٤٧٨ ، ص ٦٣٠ ، رأفت النبراوى ، مسكوكات الممالك الجراكسة ، ص ١٠ .

(٣) كشف الأسرار ، ص ٩١ .

«والذى يلزم النقاش إن لم يكن أميناً أن يختم على يده كجارى العادة ، ومن لوازمه أن لا يشتغل بشئ سوى نقش السكة ، ليتمهر فيها بكثرة إدامانه ، فلا تحكيه الزغليون» .

أما على بن يوسف ^(١) فيركز على حسن الخط لدى الفتح ، وتمييزه للخطوط المستعملة ، وأيضاً عليه ألا يخالط أو يصاحب الأشخاص القريبين من صناعة الحلّى أو الكيمانيين ، أو أولئك الذين يعملون على إفساد النقود وتزييف العملة .

الضراب أو الطباع

وهو من يقوم بالخطوة الأخيرة من خطوات تصنيع العملة وهى عملية الختم أو الطبع على السبيكة المعدنية (الدنانير ، الدراهم ، الفلوس) .

ويشترط فى متولى هذه الوظيفة الأمانة والمهارة ، فالمهمة التى يقوم بها تستوجب الدقة والحرص الشديدين ، وبذلك تخرج العملة التى يتم الضرب عليها مضبوطة الختم ظاهرة الأحرف والنقوش غير مطموسة أو منحرفة أو نحو ذلك ^(٢) .

ويقسم على بن يوسف الحكيم ^(٣) مراتب هذه الوظيفة الى ثلاث درجات : معلمون (الرؤساء) ، وعمال (مساعدون) ، ومتعلمون (الصبية أو الخدم) ، وبهذا التقسيم تتوسع المهام التى يقوم بها مجموعة الضرابين أو الطباعين ،

(١) الدوحة المشتبكة ، ص ١١٥ .

(٢) ابن بكرة ، كشف الأسرار ، ص ٩٣ ، طاهر حسين ، السكة ، ص ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٥ ، ٥٨ ، ص ١١٧ .

لتشمل صهر المعادن ، وتحويلها الى قضبان ، والطرق عليها لتمديدتها ، وتليينها ثم تغطيتها ، وختمها بالسكة الرسمية للدولة ^(١) .

السبائك

وتقوم مهمته الأساسية على تحضير معدني الدراهم الفضية ، وهما النحاس والفضة ، وتحديد النسبة التي يجب الأخذ بها من كل معدن ووزنها وضبط عيارهما ، وهو المستول عن ذلك ، ومتى حدث أى خطأ فى مهمته فهو مأخوذ به ومتحمل نتائج ^(٢) .

٣- المعادن المستخدمة لسك العملات ومصادرها

لقد استخدمت دور الضرب فى الدولة المملوكية ثلاثة معادن لإصدار العملات النقدية هى : الذهب ، والفضة ، والنحاس .

وهذه المعادن توصل اليها الانسان فى وقت مبكر ^(٣) حيث لوحظت اثارها فى الرواسب الرملية وما شابهها ، عند رواسب الأنهار والمنحدرات ، فاتخذها الانسان بمرور الزمن وسيلة للتبادل ، وللحصول على حاجاته الأساسية ، وتعد

(١) عبد الرحمن فهمى ، مقدمة كتاب كشف الأسرار ، ص ٣٧ ، طاهر حسين ، المرجع السابق ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٢) ابن بكرة ، كشف الأسرار ، ص ٩٣ .

(٣) يبدو أن النحاس كان أول المعادن التى استخدمت أداة للتبادل التجارى ، ولحقته به الفضة بين الأعوام ٢٧٠٠ - ٢٥٠٠ ق . م . وكان وقتها الذهب مايزال نادراً ، وغير متوفر لذا لم يستخدم الا فيما بعد . (صلاح يحيارى ، الذهب ، ص ٩٢ ، مؤسسة الرسالة ، دمشق ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م الطبعة الأولى) .

هذه الوسيلة مرحلة متطورة من المراحل التى عاشتها الانسانية لتقويم احتياجاتها بدلاً من الأساليب المتبعة فى عملية التبادل كالمقايضة ، أو الاعتماد على الأصداق وبقايا الحيوانات فى تبادل المصالح المشتركة بين الأطراف .

لقد شجعت الصفات (الفيزيائية) لهذه المعادن على التوسع فى استخدامها لأغراض شتى ، والذي يهمنا من هذه الأغراض هو استخدامها كأداة للتعامل الاقتصادى ، وبصفة خاصة التبادل التجارى ، فانتشار هذه المعادن ، وتوفرها فى مناطق عديدة ، إضافة الى سهولة نقلها وتداولها ، وأيضاً قابليتها للتجزئة جعل منها أداة طبيعة ليتحكم الانسان بها وفى استغلالها أينما كان وحيثما شاء . لهذا أدت هذه المعادن وظيفة هامة فى الاقتصاد المحلى والعالمى ، وتطوره ، ومازالت - وخصوصاً الذهب - تقوم بهذه الوظيفة فى الاقتصاد العالمى ونظام النقد الدولى .

ولقد أظهرت هذه المعادن - وبخاصة الذهب والفضة - الصفات الضرورية لاتخاذها نقداً متداولاً ، ولتشكل فيما بعد القاعدة الأساسية لأى نظام نقدى ، وفى أى دولة مهما اختلفت طريقة استغلالها وتصنيعها لتسخيرها وتهيتها لخدمة الانسانية .

وتوفر الشروط الرئيسية فى هذه المعادن جعلها مقبولة فى كل مكان ، ومؤدية لوظيفتها وللغرض منها بكل اقتدار ، وهذه الشروط هى ^(١) :

أولاً : أن لا تكون سريعة التلف ، وأن لا تكون قابلة للتغيير .

ثانياً : أن تقبل التجزئة مع حفظ قيمة الأجزاء .

(١) أبو بكر الصديق عمر متولى ، شرقى شحانة ، اقتصاديات النقود ، ص ٥٠ ، ٥٤ .

ثالثاً : أن تقبل النقل والتداول .

رابعاً : أن تكون قيمتها متناسبة مع وزنها .

خامساً : أن تكون مقبولة من الجميع .

هذه أهم الصفات أو الشروط الواجب توافرها في أداة التعامل أو التبادل ، لتصبح صالحة لتحقيق طموحات الانسان نحو اقتصاد أفضل ، ولتختفى معها تلك الصعوبات والمتاعب التي صادفت الانسان عند رغبته الحصول على حاجاته الضرورية ، وليتمكن من البيع والشراء بكل يسر وسهولة دون أن يلجأ الى طريقة المقايضة أو المبادلة ، أو استخدام وسائل بدائية لا يتحقق معها طموحات الانسان وسعيه نحو التطور .

رغم تأخر اكتشاف الذهب فإنه أصبح المعدن الأكثر رغبة في استخدامه عملة نقدية نتيجة لخواصه التي ينفرد بها ، فإلى جانب جماله وندرته ، فهو أيضاً سهل السحب وسهل الطرق ، فبالامكان عمل رقائق منه على درجة كبيرة من الرقة ، كانت بداية لاستخدامه على هيئة سبائك ، ولأنه سهل السحب فلا بد معه من إضافة معدن آخر يكسبه درجة أعلى من الصلابة ، فكان معدن الفضة أو معدن النحاس (١) .

وعلى العموم فإن إكتشاف الانسان أو توصله الى هذه المعادن ، واستخدامها نقداً متداولاً يدل على أنها أفضل البدائل لما تتمتع به من خصائص وصفات تنفرد بها عن غيرها من المعادن الأخرى ، ولما تنفرد به من قيم تبادلية ، الأمر الذي ساعد على انتشارها وتوفرها واستخدامها في الأغراض النقدية ، التي بدأت دون شك بصورة بدائية تطورت بمرور الزمن حتى أصبحت تلك الأغراض لا

(١) صلاح يحيوى ، الذهب ، ص ٧٢ ، ٧٦ .

تقوم بمهمتها أو الغرض منها الا بتصنيع تلك المعادن ، وصبها على هيئة قوالب مضبوطة الوزن والعبار ، ثم سكها أو ضربها على شكل عملات معدنية شبه دائرية أو مربعة الشكل أو نحو ذلك ليسهل استخدامها والاستفادة منها ، فأنشئت لذلك دور الضرب الرسمية التى تتولى مهمة إصدار النقود ، فارتفع مستوى تصنيع تلك العملات من جميع النواحي الفنية والادارية .

هذا ولا ينبغى الاسترسال فى الحديث عن التطور التاريخى لاستخدام المعادن أو تصنيع العملات ، فهذه الدراسة ليست موضعا لمثل ذلك ، وسأكتفى بالحديث عن مصادر تلك المعادن لدار الضرب المملوكية ، والطرق التى كانت متبعة لاستغلالها ، وتصنيعها فى شكل عملات نقدية .

مصادر الذهب

فى الفترة السابقة لدولة المماليك ، وبالتحديد فى العهد الفاطمى كان المصدر الرئيسى للذهب بلاد البجة ، وبالأذات فى منطقة أطلق عليها اسم (العلاقى) أو (وادي العلاقى) ^(١) التى اشتهرت بإنتاجها الوفير من معدن الذهب ، ولكن حدث أن مناجم هذه المنطقة بدأت بالانخفاض فى إنتاجها حتى توقفت عن الإنتاج فى العهد الأيوبرى ، وقد أدى ذلك الى قلة كميات الذهب الموجودة وندرتها ، وبالإضافة الى ذلك المصدر هناك مصدر آخر استغلته الدولة الفاطمية ومن بعدها الأيوبية مصدراً من مصادر الذهب هو الدفائن والكنوز التى خلفها الفراعنة فى مقابرهم ، وما تحويه من كميات ضخمة من الذهب والفضة والجواهر وغيرها ، حتى آل أمرها الى النضوب والانتها . ^(٢)

(١) فضلاً : أنظر هامش رقم (١) ، ص ٤٠ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ ، عبد الرحمن فهمى ، فجر السكة العربية ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

وقد ساعد على قلة الذهب وندرته فى الدولة ، تسريه من البلاد عن طريق الصليبيين الذين استغلوا وجودهم فى منطقة الشرق الاسلامى ، ليقوموا بهتريب كميات كبيرة من الذهب الى مختلف المناطق الأوروبية ، بالإضافة الى أسباب أخرى ^(١) أدت الى أزمة نقدية قال عنها القاضى الفاضل ^(٢) :

« عمت بلوى الضائقة بأهل مصر ، لأن الذهب والفضة خرجا منها وما رجعا ، وعندما فلم يوجدنا ، ولهج الناس بما غمهم من ذلك ، صاروا اذا قيل دينار أحمر فكأنما ذكرت حرمة الغيور له وإن حصل فى يده فكأنما جاءت بشارة الجنة له .

والى جانب هذين المصدرين كان هناك بعض المصادر الخارجية التى وفرت بعضاً من احتياجات الدولة من تلك المعادن .

أما فى العصر المملوكى وبعد قيام دولة المماليك البحرية وما بذله سلاطينها من جهود لتنشيط حركة التجارة ^(٣) - وبالأذات الخارجية منها - وما حققته تلك الجهود من نتائج إيجابية على الدولة واقتصادياتها ، والى جانب الأهداف التى

(١) عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ، ص ٧١ ، حسنين ربيع ، النظم المالية فى مصر ، ص ٩٤ - ٩٥ .

(٢) نقلاً عن المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٧ .

(٣) كان للسلاطين الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون جهود كبيرة فى تنشيط حركة التجارة من مصر واليهما ، سواء كانت مختلف أقاليم الدولة ، أو مع الدول الأخرى ، فكان من تلك الجهود حماية الطرق التجارية القادمة الى مصر من الجنوب أو عبر البحر الأحمر أو غيرها ، وما قام به المنصور من تنبيه نوابه الى أهمية معاملة التجار وطوائفهم بالتودد والعدل ، والملاطفة والرفق بهم ، كما أرسل الى تجار العالم يدعوهم الى القدوم والمتاجرة مع الدولة مرحباً بهم وتجارتهم .

(القلشندى ، صبح ، ج ١١ ، ص ٤١ - ٤٢ ، ج ١٣ ، ص ٣٤٠ ، المقرئى ، السلوك ج ١ ، ص ٥٠٦) .

سعى لتحقيقها سلاطين الدولة من خلال تلك الجهود كانت عملية الحصول على الذهب وتدقيقه هدفاً أساسياً لتعويض النقص الحاصل فى احتياجات الدولة ودور الضرب بها ، وفعلاً تمكنت الدولة من الحصول على كميات جيدة من الذهب تصل الى حد تحقيق كافة احتياجاتها منه مما عوضها كثيراً النقص الخطير فى هذا المعدن ، رغم حدوث بعض الأزمات النقدية التى مرت بها الدولة فى السنوات الأولى لقيامها .

لقد اعتمد المالك فى تأمين احتياجاتهم من المعادن - وخصوصاً الذهب - على مصادر داخلية ومصادر خارجية ، وهذه تتم عبر طريق واحد هو التجارة أو التبادل التجارى بين الدولة وبين القوى التجارية ، وقد حققت الدولة من هذا الطريق معظم تلك الاحتياجات بل كان هو المصدر الرئيسى لها فى تأمين الخفامات اللازمة لسك النقود ، أما المصادر الداخلية فهى ليست ذات قيمة فعلية للدولة أولاً ، وثانياً : لعدم إمكانية الاعتماد عليها نظراً لظروفها الطارئة ، وفى التفصيل التالى ألقى الضوء على تلك المصادر ، ودرجة استنفادة الدولة منها مبتدئاً الحديث عن المصادر الخارجية ، ومتناولاً مصادر كل معدن على حدة نظراً لاختلاف تلك المصادر وتنوعها ، ثم التحدث عن المصادر الداخلية التى استفادت منها الدولة فى تأمين جزء من احتياجاتها النقدية والمعدنية ، وسأحدث عن تلك المصادر جميعها فى جزئية واحدة خوف تكرارها ولتشابه المادة العلمية .

كانت بلاد التكرور (بلاد السودان الغربى) ^(١) فى تلك الفترة من أهم مناطق إنتاج الذهب فى العالم ، وكانت تمثل المصدر الأساسى لامدادات دولة

(١) التكرور خليط من أجناس عدة تكون من خلالها شعب حمل هذا الاسم . وسكن أحد أقاليم بلاد السودان الغربى ، وقد اختلف فى أصل اشتقاقه على عدة أقوال . وهذا الاسم كغيره من أسماء أخرى أطلق على بلاد السودان الغربى الواقعة بين المحيط الأطلسى غرباً وبحيرة تشاد شرقاً وجنوبى الصحراء الكبرى (اقليم السافانا) شمالاً والغابات الاستوائية جنوباً . وقد جرى المؤرخون والرحالة العرب بإطلاق هذا الاسم على تلك البلاد ، والتي قامت فيها عدة امبراطوريات وممالك ، كإمبراطورية البرنو ، وإمبراطورية غانة وإمبراطورية مالى ، ومملكة سنغاي ، ومملكة التكرور ، ومملكة الهوسا ، ومملكة كانجهايا وغيرها . وقد عاصرت الدولة المملوكية - بمعهدىها - إمبراطورية مالى التى تأسست على يد شعب الماندينجو ، وقد قامت على أنقاض إمبراطورية غانا ، وتوسعت فى أقاليمها بدءاً من سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٣٥ م ، واتخذت من مدينة نيامى على نهر النيجر عاصمة لها ، وبلغت أقصى ازدهارها فى عهد السلطان كتنك موسى (٧١٢ - ٧٣٨ هـ / ١٣١٢ - ١٣٣٧ م) ، وسيطرت على أقاليم ومساحات شاسعة من بلاد السودان الغربى ، وامتدت من بلاد التكرور غرباً عند شواطئ المحيط الأطلسى حتى شرقى شمالاً عند دندى ومناجم النحاس فى تككدة مركز القوافل ، ومن مناجم الملح فى تلمازة شمالاً الى فولتا جالون ومناجم الذهب فى ونقارة جنوباً حتى اذا ما أصابها الضعف انفصلت عنها عدة اقاليم مكونة ممالك جديدة ، كمملكة الهوسا ، ومملكة التكرور ، ومملكة كانجهايا . ولم يأت منتصف القرن الحادى عشر الهجرى / منتصف القرن السابع عشر الميلادى حتى اندثرت وانتهت بقاياها التى كانت تحمل اسمها .

(محمد محمد أمين ، تطور العلاقات العربية الافريقية فى العصور الوسطى ، ص ٧٢ ، بحث فى كتاب العلاقات العربية ، دار الطباعة الحديث ، القاهرة ١٩٧٨ م ، جوان جوزيف ، الاسلام فى ممالك وإمبراطوريات افريقيا السوداء ، ص ٦٦ ، ص ٧٧ ، ترجمة مختار السويفى ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، ط الأولى ، ١٤٠٤ هـ .

ولمزيد من التفاصيل عن بلاد السودان الغربى بممالكه وإمبراطورياته فضلاً أنظر :

(ابن خلدون ، تاريخه ، ج ٦ ، ص ١٩٨ ، وما بعدها ، الحسن الوزان ، وصف زفريقيا ، ص ٥٣٣ ، ترجمة عبد الرحمن حميدة نشر جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، الرياض ، ١٣٩٩ هـ ، ابراهيم طرخان ، إمبراطورية البرنو الاسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ ، مجموعة مؤلفين تجارة القوافل ودورها الحضارى حتى نهاية القرن التاسع عشر عن معهد الدراسات العربية ، بغداد ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م) .

الماليك من الذهب ، والذي كان وصوله عن طريق التبادل التجارى بين الجانبين ، والعلاقات الاقتصادية النشطة بينهما ، والتي قامت فيها طائفة التجار الكارمية ^(١) بالنشاط الهام والفاعل فى عملية التبادل التجارى ، وايصال معدن الذهب الى الدولة المملوكية .

(١) التجار الكارمية : جمع كارمى وهم فئة من التجار اشتغلت بتجارة التوابل بين بلاد الشرق ومصر ، واشتهر عنهم احتكارهم لتجارة التوابل والبحار ، لقد بدأ نشاطهم منذ القرن الخامس الهجرى حوالى ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٦٤ م ، وكانوا على جانب كبير من الثراء مكنتهم فى كثير من الأحيان من اقراض الدولة أو دول أخرى أو أحد التجار مبالغ مالية ضخمة . عملوا بالصرافة بسبب ثرائهم الكبير واشتهرت منهم عائلات توارثت هذه المهنة قام بعضهم بعدد من المهام الرسمية بتكليف من الدولة مندوبين أو سفراء أو وسطاء عنها .

لزيد من التفاصيل عن هذه الطائفة فضلاً أنظر :

- ستين محمد ربيع ، وثائق الجيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانئ الحجاز واليمن فى العصور الوسطى ، من أبحاث الندوة العالمية الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض ، ١٣٩٧ هـ ، ج ٢ ، ص ١٣١ ، ١٤٤ .

- صبحى لبيب ، التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية ، مج ٤ ، العدد الثانى مايو ١٩٥٢ م ، ص ١٥ ، ٦٣ .

- عطية القوصى ، أضواء جديدة على تجارة الكارم ، المجلة التاريخية المصرية ، مج ٢٢ عام ١٩٧٥ م ، ص ١٧ ، ٤٠ .

- شوقى عبد القوى عثمان حبيب ، العلاقات التجارية بين مصر والدول الافريقية ، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ، رقم ٢٠٦ ، ص ٥٤ ، ٦٢ .

- أحمد عبد الحميد خفاجى ، طبقة التجار فى مصر المملوكية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة طنطا ، العدد الأول ، ١٤٠٣ هـ ، ص ٦٣ ، ٧٦ .

- الشاطر بصبلى عبد الجليل ، الكارمية ، المجلد التاريخية المصرية ، المجلد ١٣ ، عام ١٩٦٧ م ، ص ٢١٧ ، ٢٢١ .

- FISHEL, "W. J. The Spice trade in Mamluk Egypte" J.E.S.H.O. 1958. pp. 157 - 174.

يقرل القلقشندى ^(١) عند حديثه عن الذهب الواصل الى الدولة من بلاد التكرور وغيرها :

«وأصله مما يجلب الى الديار المصرية من التبر من بلاد التكرور ، وغيرها مما يجتمع اليه من الذهب» .

وتقع مناجم الذهب فى منطقة أطلق عليها اسم ونقارة فى حوض السنغال فى اقليم بمبوك بين نهر السنغال وروافده فاليمى ، وكذلك فى منطقة البود قرب التقاء نهر التنكيسو بنهر النيجر ، وأيضاً فى منطقة لوى عند أعالى نهر فولتا ، ومنطقة أشانتى داخل جمهورية غانا الحديثة ^(٢) . وقد تحول إنتاج تلك المناجم عبر التبادل التجارى عن طريق مملكة مالى الى أماكن استيراده ، ومن بينها الدولة المملوكية التى وصلتها كميات الذهب عبر الطرق التجارية (طرق القوافل) القائمة بين الجانبين ، وهناك طريقان يربطان مناجم الذهب بمصر وهما :

الأول : من مدينة تادمكة ثم ورقلة حتى سواحل البحر المتوسط شمالاً ، ومنها الى مصر شرقاً .

الثانى : من تاكوة باتجاه الشرق الى منطقة الواحات الداخلة والخارجة - من أقاليم البلاد المصرية ، ومنها الى مصر ، وهذا الطريق يربط طريق القوافل جنوبى الصحراء الكبرى عبر بلاد كانم وبحيرة تشاد بالدهار

(١) صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦١ .

(٢) توفيق الطيبى ، النقود العربية ، ص ٣٠٤ . الياهر اشتور ، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الاوسط فى العصور الوسطى ، ص ٩٧ ، ترجمة عهد الهادى غلبه ، دار فتيبة ، دمشق ١٩٨٥ م .

المصرية ^(١) وبعد طريقاً قديماً قل سلوكه وأهمل بسبب انعدام الأمن ، وعدم استقرار المناطق التى يمر بها فى بلاد النوبة والصعيد ، لذا أصبح الطريق الرئيسى لتجارة الذهب هو الطريق الشمالى عبر مراكز التجارة فى تمبوكتو وتكرور الى ممالك السنغال والنيجر ، ثم شمالاً الى سواحل البحر المتوسط الى تونس ، ثم الى طرابلس ثم الى الاسكندرية أو الى القاهرة ^(٢) .

لم تسيطر مملكة مالى على منابع الرئيسية للذهب ، الا أنها تحكمت فى الطرق الموصلة اليه ، واستخدمت رعاياها من الوثنيين (الزنج) فى أعمال الحفر والتنقيب وقد اشتهر ذهب هذه المناطق بكثرتة وقربه من سطح الأرض ، وسهولة استخراجة ^(٣) ، فكان إنتاج الذهب مصدر ثراء وريح كبير للامبرطوريات التى قامت فى بلاد السودان الغربى ، وتم استغلال الذهب فى الحصول على احتياجات الدولة من السلع الضرورية عن طريق التبادل التجارى ، فبادلت

(١) دريد عبد القادر نوري ، تاريخ الاسلام فى افريقيا جنوب الصحراء ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ . مطابع جامعة الموصل ١٩٨٥ م . الشيخ الامين عوض الله ، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربى وآثارها الحضارية حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، ضمن كتاب تجارة القوافل ودورها الحضارى حتى نهاية القرن التاسع عشر ، معهد الدراسات والبحوث والدراسات العربية ، ص ٦٦ . أحمد الياس حسين ، الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر كما عرفها الجغرافيون العرب ، ص ١٨٥ وما بعدها ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، رقم ١٩٧٧ عام ١٩٧٦ م .

(٢) محمد انور توفيق أهر على ، دولة سنغاي الاسلامية وتطورها الاقتصادى ، ص ٩٢ ، ص ٩٧ - ٩٨ و رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، رقم ٢٣٠٣ عام ١٩٧٧ م .

(٣) طرخان ، امبراطورية غانة ، ص ٦٧ ، محمد توفيق ، المرجع السابق ، ص ٩٥ .

الذهب بالملح ، وهو أهم سلعة تجارية محتاجها بلاد السودان الغربى ، وقد بلغ سعر الحمل الواحد من الملح فى مناطق الحدود والمراكز التجارية المتطرفة عشرة مثاقيل من الذهب ، أما فى مدينة مالى فيصل سعره الى ثلاثين مثقالاً ، وربما وصل الى أربعين ^(١) .

وأورد العمرى ^(٢) أن أحد أمراء الدولة المملوكية سأل سلطان مالى عند قدومه الى الديار المصرية عن معادن الذهب عندهم - فقال : « توجد على نوعين : نوع فى زمان الربيع ينبت فى الصحراء ^(٣) له ورق شبيه بالنخيل أصوله التبهر . والثانى يوجد فى أماكن معروفة على ضفاف مجارى النيل ^(٤) ، تحفر هناك حفائر ، فيوجد فيها الذهب كالحجارة والحصى فيؤخذ » وأورد القلقشندى ^(٥) استكمالاً للحديث السابق حيث يقول :

« قال وكلاهما - أى النوعين - هو المسمى بالتبهر ، ثم قال : والأول أفحل فى

(١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٢ ، ص ٧٧٣ ، محمد محمد أمين ، علاقات دولة مالى وسنغاي بمصر فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧ م) ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ، مجلة الدراسات الافريقية ، العدد الرابع ، ١٩٧٥ م ، ص ٢٧٣ ، ٣١١ .

(٢) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الأبهصار ، ج ٢٧ ، القسم الرابع ، ورقة ١١٦ أ صورة عن نسخة بودليان اكسفورد ، رقم (BPB. 1690) مكتبة عمادة البحث العلمى جامعة الامام .

(٣) هذا القول يناهى الحقيقة اذ ليس من المقبول كون معدن الذهب نباتاً ينبت فى الصحراء ، ولكن الجهل بأسباب ظهور معدن الذهب فوق سطح الأرض أدى الى هذا القول ، والواقع ان ما يحدث هو فيضان النهر النيجر فيتمدد انحسار لمياهه ، فيظهر فى المساحات التى انحسر عنها ما جلبه عند فيضانه وما اظهره من معادن بسبب عامل التعرية الذى تحدثه مياه النهر على الأرض عند فيضانها وانحسارها .

(٤) المقصود بالنيل هنا هو نهر النيجر .

(٥) صبح الأعشى ، ج ٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

العيار وأفضل فى القيمة» وينسب الى السلطان منسا موسى «أنه بحفر فى معادن الذهب كل حفرة عمق قامة أو ما يعادلها ، فيؤخذ الذهب فى جنباتها ، وربما يوجد مجتمعاً فى أسفل الحفيرة ، وأن فى مملكته أمماً من الكفار لا يأخذ منهم الجزية إنما يستعملهم فى اخراج الذهب من معادنه» وليس أدل على وفرة كميات الذهب فى هذه المملكة ما حدث سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٣ م عندما قدم سلطانها المسمى منسا موسى ^(١) - الذى أشارت اليه المصادر التاريخية بـ (ملك التكرور) الذى أشارت اليه المصادر التاريخية بـ (ملك التكرور) - الى مصر فى طريقه الى مكة المكرمة ^(٢) ، فتذكر المصادر التاريخية أرقاماً - وإن كانت مبالغاً فيها - تدل على مدى الثراء الذى تنعم به هذه المملكة ، وضخامة كميات الذهب الموجودة فى خزائنها ، فتذكر المصادر أنه قدم للخزانة المملوكية حملاً من

(١) السلطان أو الملك أبو بكر موسى بن مارى بن جاطة بن منسا نقا بن منسا موسى ، ومنسا بمعنى السلطان أو الملك على لغة الناندنجو ، من أعظم سلاطين امبراطورية مالى ، تولى أمرها بعد وفاة والده سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م ، وبلغت الدولة فى عهده قمة ازدهارها واتساعها وقوتها ، كما ازدهرت علاقاتها الخارجية بشكل كبير خصوصاً مع الدول الاسلامية المعاصرة لها . كان عاقلاً عادلاً عفيفاً متديناً مالكي المذهب توفى سنة ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ بعد أن مكث فى حكم الدولة خمساً وعشرين سنة .

(ابن بطوطة . الرحلة . ج ٢ . ص ٣٨١ ، ابن حجر ، انباء . ج ١ . ص ٣٤٦ ، الدور الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . ج ٥ . ص ١٥٤ - ١٥٥ ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م . محمد محمد أمين ، تطور العلاقات العربية الافريقية ، ص ٧٢ - ٧٣) .

(٢) لزيد من التفاصيل عن هذه الهبة لملك مالى ، فضلاً أنظر : ابن خلدون ، تاريخه ، ج ٥ . ص ٤٣٣ - ٤٣٤ ، محمد محمد أمين ، علاقات دولتى مالى وسنغاي بمصر فى عصر سلاطين الماليك ، سر الحتم عثمان على ، العلاقات بين مصر والسودان فى العصور الوسطى بين القرنين ١٢ ، ١٤ ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، رقم ٧٢٢ إضافة الى المصادر والمراجع المشار اليها فى الهوامش .

التبر (خام الذهب) ، كما قدم خمسة آلاف مثقال هدية للسلطان ، وأنه - أى الملك - لم يترك أميراً ولا رب وظيفة سلطانية الا ويعث اليه الذهب ^(١) ، وأنه كان يمتطى جواداً يتقدمه خمسمائة رقيق كل منهم يحمل كتلة من الذهب تزن خمسمائة مثقال ، وكان يحمل من الذهب حوالى مائة حمل كل حمل منها يقدر بثلاثة قناطير من الذهب أى ثلاثمائة رطل من الذهب لكل حمل ، ولم يكن توزيعه الذهب فى الديار المصرية فقط ، بل كان يوزعه أينما سار أو نزل ^(٢) وقد أدت تلك الزيادة الى ازدياد العلاقات الاقتصادية والسياسية بين كل من الدولة المملوكية وامبراطورية مالى فكثرت طوائف التجار المتردد بين الدولتين الذين حملوا الى مصر مزيداً من كميات الذهب الخام التى تحتاجها الدولة ^(٣) .

(١) ابن ابيك ، كنز الدرر ، ج ٩ ، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، ص ٣١٦ - ٣١٧ ، تحقيق هانس روبرت روير ، مكتبة الحناجى ، القاهرة ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م ، ابن كثير الحافظ عماد الدين اسماعيل بن عمر ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١١٢ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٧ هـ ، القلقشندى ، صبح ، ج ٥ ص ٢٩٥ ، ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٢ ، ص ٧٨١ ، ٧٩٤ ، الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب ، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، ج ٢ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ ، تحقيق محمد أمين ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٦ م .

(٢) ابن حجر ، الدرر الكافية ، ج ٥ ، ص ١٥٥ ، ابن بهادر ، محمد بن محمد ، فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر ، ورقة ٢٥١ ، نسخة مصورة بجامعة القاهرة رقم ٢٦١٦٦ ، الذهبى ، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ ، تحقيق فهيم شلتوت ، محمد مصطفى ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ م ، الصبر فى خبر من غير ، ج ٤ ، ص ٦٩ ، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، أ. و. بوفيل ، الممالك الاسلامية فى غرب أفريقيا وأثرها فى تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى ، ص ١١٧ - ١١٨ ، ترجمة زاهر رياض ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .

(٣) محمد أمين ، تطور العلاقات العربية الافريقية ، ص ٧٣ .

وكان لتوزيع تلك الكميات من الذهب فى الدولة أثره الكبير والعميق على اقتصاديات الدولة وخصوصاً الجانب النقدى ، اذ تذكر المصادر التاريخية انه بسبب تلك الكميات وكثرتها ، انخفضت اسعار صرف الدينار الذهبى فى الدولة ، واستمر هذا الانخفاض مدة طويلة زادت عن عشر سنوات .

يقول ابن فضل الله العمرى ^(١) عن هذا التأثير :

« وحدثنى خلق من تجار مصر والقاهرة عما حصل لهم من المكاسب والريح عليهم ، فإن الرجل منهم كان يشتري القميص أو الثوب والأزار وغير ذلك بخمسة دنانير ، وهو لا يساوى دينار واحدا

قلت : ولقد كان الذهب مرتفع السعر بمصر الى أن جاء اليها فى تلك السنة ، كان المثقال لا ينزل عن خمسة وعشرين درهماً ، وما زاد عليها فى الغالب ، فمن يومئذ نزلت قيمته ورخص سعره ، واستمر على الرخص الى الآن لا يتعدى المثقال اثنين وعشرين درهماً وما دونها ، هذا من مدة تقارب اثنى عشر سنة الى اليوم لكثرة ما جلبوا من الذهب الى مصر وانفقوه بها » .

ويذكر أحد الباحثين المحدثين ^(٢) قيام أحد ملوك مملكة سنغاي ^(٣) - التى قامت على أنقاض امبراطورية مالى - وهو الأسكيا محمد الى الحج سنة ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧ م حيث أنفق فى رحلته هذه مبلغ ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية .

(١) مسالك الأمصار ، ج ٢٧ ، القسم الرابع ، ورقة ٨٨ أ .

(٢) محمد محمد أمين ، تطور العلاقات العربية الأفريقية ، ص ٧٤ .

(٣) عن مملكة سنغاي الاسلامية فضلاً أنظر : محمد أنور تولىق أبو على ، دولة سنغاي الاسلامية ، محمد محمد أمين علاقات دولتى مالى وسنغاي بمصر فى عصر سلاطين المماليك

وإن كانت تلك الرحلات التى قامت من بلاد السودان الغربى - سواء كانت وجهتها الى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج أم كانت وجهتها الى مصر - قد أوجدت للدولة المملوكية مصدراً من مصادر ذهب بلاد السودان الغربى ، فإن المصدر الأساسى الذى اعتمدته الدولة فى تأمين احتياجاتها هو العلاقات التجارية بين الجانبين ، التى تمثلت بالقوافل التجارية التى كانت تتردد لكل جانب محملة بما تشتهر به كل دولة .

لا تورد المصادر التاريخية أى إحصاءات عن الكميات التى ترد الى الدولة ، ويبقى جهلنا بتقدير تلك الكميات الى أن يتم العثور على حقائق جديدة يمكن الاعتماد عليها .

ولكن الثابت أن القوافل التجارية بين الجانبين لم تنقطع على الأقل حتى سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٩ م حيث يذكر المقرئى ^(١) أنه فى ذلك العام وصلت قافلة من بلاد التكرور محملة بالتبر ، وكانت القوافل التجارية بين الدولتين تسير بمعدل قافلتين سنوياً ، ولا شك فى أن العلاقات النشيطة بين الجانبين ، وخصوصاً بعد زيارة امبراطور مالى الى مصر اثناء حكم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد أدت الى زيادة حجم المبادلات التجارية وتنشيطها الأمر الذى أدى الى زيادة الكميات الواصلة الى مصر من معدن الذهب ، اذ تعد تلك الفترة فترة ازدهار فى العلاقات السياسية والتجارية بين الدولتين ^(٢) ، ولم تشهد العلاقات بينهما فترة ازدهار أخرى كذلك ، لذا فمن الطبيعى أن تكون امدادات الذهب السودانى الى مصر فى تلك الفترة أكثر من امداداتها فى الفترات الأخرى السابقة أو اللاحقة لها .

(١) السلوك ، ج ٤ ، ص ١١٣٥ .

(٢) محمد محمد أمين ، تطور العلاقات العربية الأفريقية ، ص ٧٣ .

والثابت تاريخياً أن تلك الكميات بدأت تقل مع مطلع القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى عندما تحولت معظم امدادات الدولة المملوكية من المعادن الى الشمال الأفريقى ومنها الى أوروبا ، وبالأذات الى الجمهوريات الإيطالية للاستفادة من الذهب فى تصنيع العملات الذهبية الإيطالية تحقيقاً للسيطرة والسيادة النقدية ^(١) ، ولم يأت النصف الثانى من ذلك القرن حتى انقطعت تلك الكميات عن مصر ، وعن أوروبا أيضاً بسبب ظهور البرتغاليين فى مناطق إنتاج الذهب فى المرحلة الأولى من نشاطهم الاستعمارى وكشفهم الجغرافية ^(٢) . وبهذا فقدت الدولة المملوكية مصدراً هاماً من مصادر احتياجاتها المعدنية ، وخصوصاً معدن الذهب بما كان له تأثير بعيد المدى على الأوضاع الاقتصادية فى الدولة ، وبالأذات النقدية منها .

هذا ويمكن تلخيص الظروف التى أدت الى نقص كميات الذهب ، ثم انقطاعها بالأسباب التالية :

- ١ - فساد السياسة الاقتصادية لمعظم السلاطين الجراكسة ، وما ساروا عليه من احتكار البضائع والسلع ، وقيامهم بالمجارة وجمع الثروة ، وما شرعوه -

(١) رأفت النرواى ، مسكوكات الممالك ، ص ٢٣١ .
VICTORION.M. L'Economie de L'Empire Portugals Aux Xve et Vic Siecles. Paris. 1969. p. 122.

(٢) لمزيد من التفصيلات عن هذا الموضوع فضلاً أنظر :
فرنان برودول ، من ذهب السودان الى فضة أمريكا ، ترجمة توفيق اسكندر فى كتاب دراسات وبحوث فى التاريخ الاقتصادى ، دار النشر للجامعات المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١ م ، ص ٧٩ ، ١٠٠ ، عبد الرحمن فهمى ، من فضة الأبريين الى نحاس الممالك ، مجلة مرآة العلوم الاجتماعية ، المجلد السابع العدد الثالث ١٩٦٤ م ، ص ٥٧ ، ٦٦ ؛
ASHTOR, E. Les Metaux Petaux Precieux et la Balance Dees Payments du proche Orient ala Basse Epoque. Paris. 1971.

أيضاً - من نظم تجارية كان لها أثرها السيئ على التجارة ، وعلى مركز مصر فى التجارة الدولية الأمر الذى أدى الى تدهور مركز (طائفة الكارمية) ، وهم الذين اكتسبوا شهرتهم لنشاطهم التجارى مع بلاد السودان الغربى ، وخصوصاً متاجرتهم بالذهب ^(١) .

٢ - الفساد النقدي فى الدولة الذى أدى الى اضعاف مركز النقود الذهبية ، وصعود مركز النقود النحاسية الأمر الذى أدى الى تضخم حاجة الدولة ، ومن ثم طلباتها على النحاس ، وتدنى الكميات التى تستوردها من معدن الذهب ، وطبع النحاس العصر بطابعه مما حدا بالبعض الى إطلاق (عصر النحاس) على العهد المملوكى الجركسى ^(٢) .

٣ - تحول تجارة الذهب الى الشمال الافريقى ومنها الى أوروبا ، حيث اعتمدت الجمهوريات الإيطالية على الذهب الوارد اليها عن طريق بلاد السودان الغربى اعتماداً كبيراً بالإضافة الى بروز الذهب عنصراً هاماً فى اقتصاديات دول المغرب الاسلامى ^(٣) .

(١) توفيق اسكندر ، نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية فى العصر الوسيط ، ص ٣٩ ، بحث فى المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السادس ١٩٥٧ م ، ص ٣٧ ، ٤٦ ، نعميم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ص ٣٩١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م ، أحمد صادق سعد ، تاريخ مصر الاجتماعى والاقتصادى ، ص ٤٢٧ ، دار ابن خلدون ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٧٩ م .

(٢) عبد الرحمن فهمى ، من فضة الأيوبيين الى نحاس المماليك ، ص ٥٧ :
BOUARD, M. L'Evolution Monétaire de L'Egypte Medievale. Cairo. 1939.
p. 427.

(٣) فرنان برتول ، من ذهب السودان الى فضة أمريكا ، ص ٨٣ .
SHINNIE, M. Ancient African Kingdoms. London. 1961. p. 45. Ashtor, E.
op. cit. pp. 20 - 22.

٤ - استهلاك المعادن وخاصة الذهب والفضة فى صناعة الحوايص والسروج والآنية والحلى ، وغيرها من الصناعات التى تعتمد بصفة أساسية على هذه المعادن ، وهى ما عرف به (التكفيت) ^(١١) .

كانت هناك مناطق أخرى لإنتاج الذهب فى العالم ، ومن المرجح أن المالبك استفادوا من تلك المناطق فى الحصول على بعض حاجاتهم ، وتم ذلك عن طريق التجارة ، وتردد طوائف التجار بين موانئ الدولة وتلك المناطق ، وتورد بعض المصادر الجغرافية العديد من مناطق الإنتاج ، فإبن بطوطة ^(١٢) يشير الى توافر الذهب بكميات كبيرة فى عدد من أقاليم الصين ، ويشير ابن فضل الله

(١١) القلقشندى ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦٥ ، عبد الرحمن فهمى ، النقود العربى ، ص ٦٣ . والتكفيت هو تطعيم المعدن بمادة أقيم وأثمن كتطعيم النحاس بالذهب أو الفضة بالذهب ، وهذه الصناعة انتشرت فى مصر زمن المالبك بشكل واضح ، فكثرت صناعة الأواني المكفنة ، وغيرها من الحلى والأدوات المستعملة ، وأكثروا من تزئينها بالنقوش والكتابات التى يستخدم فيها المعدن الثمين ، وقد خصص لهذه الصناعة سوق بالقاهرة أطلق عليه سوق الكفتين .

(المقريزى ، المخطط ، ج ٢ ، ص ١٠٥ ، حسين عبد الرحيم عليوة ، دراسة لبعض الصناعات والفنانين بمصر فى عصر المالبك ، ص ٩٦ ، ٩٨ ، مجلة كلية الآداب جامعة المنصورة ، العدد الأول ، ١٩٧٩ م ، ص ٨٩ ، ١٢٣) .

فضلاً أنظر ما ذكره المقريزى عن هذا السوق . هامش رقم ٣ ، ص .
(٢) الرحلة ، ج ٢ ، ص ٧١٧ ، وأشار الى ذلك أيضاً الرحالة البندقى (ماركوبولو) فى رحلته حول العالم التى بدأها سنة ١٢٧١ م ، وانتهت سنة ١٢٩٥ م . (رحلات ماركوبولو ، ترجمها عن الانجليزية عبد العزيز جاويد ، ونشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٧ م . القاهرة) .

العمري ^(١) الى - جزيرة سيلان ^(٢) - ويوضح أن بها معادن الذهب بكميات كبيرة ، ولكثرته أصبحت تصنع منه سلاسل وأطواق للحيوانات ، كما يشير أيضاً ^(٣) الى مدينة اشبونة ^(٤) فى جزيرة الأندلس ، ويذكر أن بها حصن المعدن حيث يستخرج أهلها معدن الذهب بكثرة وأن بجزيرة الأندلس عدداً من المدن التى تشتهر بإنتاج معادن كثيرة يحمل الى كثير من الأقطار ^(٥) ، وهناك أيضاً (جزائر الرامى) ^(٦) فى المحيط الهندى فى جبالها معادن الذهب

(١) مسالك الأبحار ، ج ٢٧ ، ق ٤ ، ورقة ١١٨ أ ، وذكر ذلك أيضاً التهرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٢٣٤ .

(٢) جزيرة سيلان وقديماً سرنديب وهى سيرلانكا الحالية ، كانت مركزاً تجارياً هاماً وعلى علاقات وطيدة مع الدولة الملوكية خصوصاً فى عهد الماليك البحرية اذ قامت بين الطرفين اتصالات عمقت من هذه العلاقات .

كانت مصدراً رئيسياً للذهب والتوابل تتردد قوافلها حتى ميناء عدن جنوب البحر الأحمر ، ويصلها التجار المسلمون ، ولهم مركزهم التجارى فيها .

(ابن فضل الله العمري ، مسالك ، ج ٢٧ ، ورقة ١١٨ أ ، عادل محى الدين الألوسى ، تجارة العراق البحرية مع أندونيسيا حتى أواخر القرن السابع الهجرى / أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، ص ٢٥٢ ، دار الحرية ، بغداد ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م) .

(٣) مسالك الأبحار ، ج ٢٧ ق ٤ ، ورقة ١٤٨ ، ويذكر ذلك أيضاً ابن الوردي ، خريدة العجائب ، ص ٢٤ .

(٤) أشبونة هى العاصمة البرتغالية الحالية (لشبونة) غربى مدينة قرطبة ، وقريبة من البحر المحيط تقع على نهر شترين ، وتشتهر بذهبها وعسلها وأقمشتها الجيدة .

(زكريا بن محمد بن محمود القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥٥٥ ، دار صادر ، بيروت ، (ب - ت) ، بالقرت معجم البلدان ، مج ١ ، ص ١٩٥) .

(٥) العمري ، مسالك الأبحار ، ج ٢٧ ق ٤ ، ورقة ١٥٢ أ .

(٦) الرامى أو الرامتى أو لامبرى هى جزيرة سومطرة فى أندونيسيا ، ورامى اسم محرف من لامنو ، وهو مكان يقع على بعد ٦٠ كم من عاصمة جزيرة اتشيه الحالية كورتاراجا .

(عادل الألوسى تجارة العراق البحرية ، ص ٢٥٢) .

والرصاص (١١) .

ويشير ابن سعيد المغربي (١٢) الى انكلترا (١٣) إحدى مناطق إنتاج الذهب وغيره من المعادن ، ويذكر أنه كان يصدر الى فرنسا ، ومنها الى مناطق أخرى في العالم ، ومن بينها جمهورية جنوة الإيطالية حيث يصهر هناك .

ويذكر ابن الوردي (١٤) أن أرض التيم غربى بلاد فرغانة (١٥) المجاورة لأرض التبت فيها معادن الذهب ، كما يذكر (١٦) أنه بجبل أسيرة بناحية الشاش مما وراء النهر (١٧) معدن الذهب . ومن مناطق الذهب أيضاً جبل صقلية (١٨) حيث يقول

(١١) العري . مسالك ، ج ٢ ق ٢ . ورقة ١٢٨ . ب . من نسخة دار الكتب المصرية رقم ٥٦٠ معارف عامة ، ويشير الى ذلك أيضاً التويرى . نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٢٣٩ .

(٢) أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي . كتاب الجغرافيا ، ص ١٦٩ ، ص ٢٠٠ . الطبعة الأولى حققه اسماعيل العري . بيروت . ١٩٧٠ م . المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع .

(٣) إحدى الجزر البريطانية صاحبها الانكثار الذي لعب دوراً في الحروب الصليبية . وبالذات حروب عكا ، وقاعدة انكلترا مدينة لندرس (لندن الحالية) . ولها مدن كبيرة كثيرة العمائر . (ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٩٩ - ٢٠٠) .

(٤) خريدة العجائب ، ص ٥٥ .

(٥) أرض التيم قرب سمرقند ، وأرض فرغانة أرض واسعة ذات كور وأقاليم ومدن وقرى وضياع ، ومهى من بلاد ما وراء النهر متاخمة لحدود تركستان بينها وبين سمرقند خمسون فرسخاً ، ومدينة فرغانة قاعدتها . وبها أمم عظيمة وأسواق وخيرات . (باقوت ، معجم البلدان ، مج ٢ ، ص ٦٧ ، مج ٤ ، ص ٢٥٣ ، ابن الوردي ، خريدة العجائب ، ص ٥٥) .

(٦) خريدة العجائب ، ص ١٦٨ .

(٧) أسيرة : عند باقوت أسبار (معدن الذهب) قرية مدينة أصبهان . ويقول عن الشاش أنها متاخمة لبلاد الترك ، وهي أكبر ثغر هناك ذات مساحات واسعة وأودية خضراء ، وادبها الرئيسي يقع على بحر خوارزم ، وبين أرض الشاش ، ومعدن الذهب سبعة قراسخ .

(باقوت ، معجم البلدان ، مج ١ ، ص ١٧١ ، مج ٢ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ . زكريا بن محمد ابن محمود القزويني ، اثار البلاد ، ص ٥٣٨) .

(٨) صقلية من جزائر البحر المتوسط مقابل أفريقيا (تونس بينها وبين الساحل الافريقي =

فيه ابن الوردى ^(١) « وفيه معدن الذهب وتسميه أهل الروم جزيرة الذهب » .

ومن جزائر البحر المتوسط يشير التويرسى ^(٢) الى جزيرة أقریطش (كریت) ^(٣) ، وأنه يوجد فيها معدن الذهب ، ويوجد أيضاً فى منطقة الجبال العالية فى سيكيتان فى ولاية بالاشان ^(٤) (أفغانستان الحالية) مناجم كبيرة للذهب ، ويملك تلك المناجم الملك الذى يقوم بتصديرها خارج الولاية ، ويقوم بتقديم كميات منها هدايا للملوك وغيرهم ^(٥) ، وتوجد أيضاً مناجم للذهب فى بعض جهات ألمانيا ، وإنتاجها بكميات تجارية يتم تصديره الى بعض مناطق أوروبا ^(٦) ، وأخيراً تشير بعض المراجع الحديثة الى تلال بوهيميا فى أوروبا ، ومنطقة كييف فى روسيا بأنها من مناطق إنتاج الذهب بكميات تجارية يتم تصديرها فى المبادلات التجارية التى تقوم بها تلك الجهات ^(٧) ، كما استفاد

= مائة وأربعون ميلاً وهى خصبة كثيرة البلدان والقرى والأمصار ، وفيها معادن الذهب ، فى كل مكان ، وغيره معادن كثيرة ، وتوجد فى جبل النار المطل على البحر لذا سعى بهجبل الذهب (هاقوت ، معجم ، مج ٣ ، ص ٤١٦ - ٤١٨) .

(١) خريدة العجائب ، ص ١٧٦ .

(٢) نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

(٣) أقریطش من جزائر البحر المتوسط فيها مدن وقرى ، تقع غربي جزيرة قبرص وجزيرة ردوس ، وهى جزيرة كريت الحالية . (هاقوت ، معجم ، ج ١ ، ص ٢٣٦ ، ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٧٠) .

(٤) سيدكيان وليست سيكيتان وتنطق الآن سينكيانج . وهى المنطقة الجبلية الواقعة شمالى تركستان الشرقية وتتصل بهضبة الهامير الواقعة فى الشمال الشرقى من أفغانستان والداخلة فى ولايتها الشمالية الشرقية ولاية بدخشان وهى المقصودة بولاية بالاشان التى حفر رسمها كثيراً عن شكله الأصيل (على الفمراوى مشافهة) .

(٥) ماركو بولو ، رحلاته ، ص ٧٢ .

(٦) بيروطافور ، رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ١٩٦ - ١٩٧ ، ترجمة د. حسن حشى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٧ م .

(٧) أمين مصطفى عفيفى ، أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ أوروبا الاقتصادية ، ص ٣٨٩ - ٣٩٠ ، ص ٤٠٤ ، الطبعة الثانية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٤ م .

المالك من الإنتاج المعدنى لبلاد الحبشة . وخصوصاً الذهب حيث تشتهر بمناجمها المعدنية ^(١) بالإضافة الى تلك الجهات المنتجة لخامات الذهب . فهناك جهات أخرى كان لها نصيب فى إنتاج الذهب فى تلك الفترة ، ولا شك فى أن جزءاً من إنتاج تلك المناطق - على الأقل - قد وصل الى الدولة المملوكية لما كان لها من علاقات سياسية واقتصادية ، ومبادلات تجارية مع عدد كبير من الدول المعاصرة .

هذا وسنتحدث عن الناحية التجارية - بصفتها الطريق الذى أدى الى وصول تلك المعادن الى الدولة - بعد الحديث عن مصادر كل من الفضة والنحاس للدولة المملوكية .

مصادر الفضة *

لم يكن هناك مصدر رئيسى للدولة المملوكية تحصل منه على احتياجاتها من معدن الفضة ، لذا فقد حصلت على امداداتها من الفضة من عدة مصادر خارجية عن طريق الجهات التى تنتج خامات الفضة . أو تلك التى تتاجر فيها

(١) سعيد عاشور ، أضرأ جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى . ص ٣٠ . بحث فى المجلة التاريخية المصرية مج ١٤ / ١٩٦٨ م . ١ . ٤٣٠ .
 * الفضة عنصر فلزى رمزه ف . أبيض تقريباً لامع رخو . قابل للطرق والسحب وموصل للحرارة والكهرباء . غير نشيط كيميائياً يتحد فى درجات حرارة عادية مع الكبريت . وتستعمل نترات الفضة فى الطب . ومركباته تستعمل فى التصوير الضوئى كما تستخدم فى الأحبار التى لا تزال . ولتفضيض المرايا . يوجد معدن الفضة منفرداً مع خاماته . وتنتج أكبر كمية منه عند تصفيته من الرصاص والنجاس . له العديد من الاستعمالات المعروفة . وزنه الذرى ١٠٧.٨٨ . ورقمه الذرى ٤٧ ودرجة انصهاره ٩٠٦.٥ م ودرجة غليانه ١٩٥٠ وكفأته (١) . (الموسوعة العربية الميسرة ، مادة فضة ، ص ١٢٤٣ . ص ١٣٠٢) .

مكونة حلقة وصل بين مناطق الإنتاج ومناطق الاستهلاك .

لقد أشارت بعض المصادر المملوكية الى جهات خارجية تقوم بامداد الدولة باحتياجات دور الضرب فيها من معدن الفضة ، فيشير القلقشندي ^(١) الى أوروبا ، أو ما أطلق بلاد الفرنج بأنها أحد تلك المصادر وإن لم يكن أهمها ، مع أن القلقشندي لم يوضح أى الجهات من بلاد الفرنج ، الا أن المرجح هو أن تكون تلك الجهة هى الجمهوريات الإيطالية - جمهورية البندقية ، وجمهورية جنوة ، وجمهورية بيزا - التى كانت على علاقات اقتصادية وثيقة مع الدول المملوكية ، ولم تشر المصادر - وخصوصاً الجغرافية التى تحدثت عن البلدان والأقاليم - الى ان ايطاليا منتجة لمعادن الفضة ، وقد اتخذت تلك الصفة لكونها وسيطاً بين الدولة المملوكية ومناطق انتاج الفضة فى بعض مناطق أوروبا وغيرها ، وتوقف ذلك النشاط منذ بداية القرن التاسع الهجرى - الخامس عشر الميلادى كما يشير الى ذلك القلقشندي دون أن يذكر الأسباب التى أدت الى هذا التوقف رغم استمرارية التبادل التجارى بين الجانبين ، ومن المرجح أن ذلك يعود الى حاجة الجمهورية الإيطالية لمعدن الفضة فى إصدار عملاتها الفضية ، وأيضاً الى النزاع العثماني البندقي - فى تلك الفترة - الذى قضى على المصالح الاقتصادية فى الشرق لجمهورية البندقية - كبرى الجمهوريات الإيطالية ، وأكبر شريك تجارى للمماليك - التى كانت تحصل على الفضة من بعض مناطق الإنتاج فى آسيا وأوروبا ^(٢) .

(١) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٣ .

(٢) كانت التجار البنادقة بصفة خاصة هم المصدرين الأساسيين لمعادن أوروبا وغيرها (الذهب والفضة) الى الدولة المملوكية ، ولذلك أطلق عليهم (ملوك الذهب فى العالم المسيحى) .
أنظر ، توفيق اسكندر ، نظام المقايضة ، ص ٤٣ - ٣٣ .

BACHARCH, J. "Circassian Monetary Policy" : Silver. pp. 270 - 272 .

N. C. v. II. 1971. pp. 276 - 281.

ومهما كانت الحال فالذى حدث أن واردات هذا المصدر من الفضة قد انخفضت بشكل واضح مع بداية عهد الماليك الجراكسة ، وهذا هو أهم سبب من الأسباب التى جعلت الدولة المملوكية تخفض من إصدار الدراهم الفضية بشكل تأثرت معه الأوضاع النقدية فى الدولة ، والمهم أن الجمهوريات الإيطالية خلال العهد المملوكى البحرى قد أصبحت - بما صدرته للدولة المملوكية من خامات الفضة - أهم مصدر من المصادر التى اعتمدت عليها دولة الماليك فى تأمين جزء كبير من احتياجات دور الضرب فيها لمعدن الفضة .

ومن مناطق إنتاج الفضة فى تلك الفترة ما يذكره على بن يوسف الحكيم^(١) عن بعض مناطق الأندلس والمغرب واشتهارها بإنتاج خامات الفضة ، حيث يقول :

«والفضة فى أماكن من المغرب كجبال جندر ، وما والاها من أرض سوسو ، ومعدن عرام ، وأنشرمس^(٢) وكثيراً ما تجلب اليه من مدينة سردانية^(٣) .

(١) الدوحة المشتبكة . ص ٨٥ .

(٢) لم أجد لتلك المواضع تعريفات فى المصادر الجغرافية المتداولة ، ويبدو أنها قد حرقت تحريقاً شديداً .

(٣) سردانية : هى جزيرة سردينيا الواقعة فى غرب البحر المتوسط مقابل سواحل أسبانيا وجنوبى جزيرة كورسيكا التابعة لفرنسا .

فتحتها المسلمون سنة ٩٢ هـ عند فتحهم الأندلس .

وهى ليست مدينة كما ذكر ذلك بن يوسف كما أنها لا تقع مقابل سواحل الشام كما ذكر ذلك كل من ياقوت فى معجمه والحيمرى فى روضه وأيضاً ليس أهلها من الروم فى الغالب ولم يتربط بها ما ذكره من أساطيل يونانية قديمة .

(ياقوت ، معجم ، مج ٣ ، ص ٢٠٩ ، محمد عبد المنعم الحيمرى ، الروض المغطى فى خير الأقطار ، ص ٣١٤ ، تحقيق احسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت . ط ٢ . ١٩٨٤ م . د . على الغمراوي مشافهة) .

وقليلاً من أرض البيرة وجهة اشبيلية^(١) وكثرتين من عمل قرطبة^(٢) وجبال مرسية ووجانة^(٣) .

(١) أرض البيرة كورة كبيرة من الأندلس ذات مساحات وقرى وضياع وأشجار . بينها وبين قرطبة تسعون ميلاً فيها عدة مدن منها غرناطة ، قسطلية وغيرها . كثيرة المعادن تشتهر بعمل الكتان والحرير المنسوب إليها .
(ياقوت ، معجم ، مج ١ ، ص ٢٤٤) .

واشبيلية بينها وبين قرطبة ثمانون ميلاً قريبة من البحر المتوسط . وهي من أمصار الأندلس الجليلة والكبيرة كثيرة المنافع والفوائد ، وهي قديمة وعامرة ذات أسواق وتجارات وغيرها ، وذات أسوار حصينة ، أكثر تجاراتها بزيوت الزيتون الذي يصدر إلى مناطق عديدة ، أصبحت قاعدة لبلاد الأندلس وعاصمة له بعد خراب قرطبة .

(ياقوت ، معجم ، مج ١ ، ص ١٩٥ ، الحميرى ، الروض ، ص ٥٩ - ٦٠) .

(٢) كيرتين لم أعثر لها على تعريف في المصادر المتداولة بقول المحقق (د. حسين مؤنس) الاسم كهرلين أو قهرلين على مقربة من رند ، أما قرطبة فهي معروفة إذ هي قاعدة الأندلس وأشهر مدنها وأعظمها مشهورة بآثارها الإسلامية الخالدة .

(٣) مرسية : مدينة بالأندلس من زعمال تدمير اختطفها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموى ، وسماها تدمير تقع على النهر الأبيض ذات أسواق عامرة وأسعار رخيصة ، وغيرها كثيرة بها حصون وقلاع ، اشتهرت بمعادنها الفضية الفزيرة . بينها وبين قرطبة حوالي مائة ميل .

(معجم ، ياقوت ، مج ٥ ، ١٠٧ ، الحميرى ، الروض ، ص ٥٣٩ - ٥٤٠) .

وججانة : من مدن الأندلس قرب مدينة المرية أول من بناها بنو سراج القضاة عند نزولهم فيها بعد دخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس وتأسيس دولته الأموية ، وبنيت على نط قرطبة وتنظيمها ، ذات أرباض كثيرة وتجارات ، وتعد مصحة يقصدها أهل الاسقام والعاهات لطيب مائها وعلوئته ونقا هوائها ، بشرقيها وعلى بعد ثلاثة أميال منها جبل شامخ فيه معادن كثيرة وغريبة .

(القزوينى ، آثار البلاد ، ص ٥٠٩ ، الحميرى ، الروض ، ص ٧٩ - ٨٠) .

ويذكر ابن فضل الله العمري ^(١) . أن أرض الخزر ^(٢) بها جبل يعترضها من الشمال الى الجنوب (سلسلة جبال) فيها معادن الفضة ، كما يذكر ابن سعيد المغربي ^(٣) أن بعض أقاليم الصين تنتج الفضة بكميات كبيرة ، ويذكر أيضاً أن بعض أقاليم الصين تنتج الفضة بكميات كبيرة ^(٤) ويذكر أيضاً أنه في آسيا الصغرى (أرمينية) وبالتحديد في منطقة (قونية) ^(٥) توجد الفضة بكميات

(١) مسالك الأبحار ، الجزء الثاني ، القسم الأول ، ورقة ٨٦ - ٨٧ ، نسخة دار الكتب المصرية .

(٢) الخزر شعب من الترك يمتازون بقرتهم وغنهم و، وبهذا سيطروا على من حولهم ، وهم على أديان شتى ، ففهم المسلمون واليهود والنصارى ، وفهم من يهدون الأوثان وغير ذلك ، وأرض الخزر اقليم واسع يهدأ من بلاد تفليس (أرمينية) غرباً الى حدود الصين شرقاً ، وتنقسم الى قسمين يفصلهما نهر اتل الذى يصب فى بحر الخزر فى روسيا ، ولك قسم هبارة عن مدينة بأسوارها وأبرابها فيها أسواق ومساجد وغير ذلك .

(القزوينى ، آثار البلاد ، ص ٥٨٤ ، الحميرى ، الروض المعطار ، ص ٢١٨ - ٢١٩) .

(٣) كتاب الجغرافيا ، ص ١٦٤ ، وذكر ذلك أيضاً ماركوبولو فى رحلاته ، ص ١٢٠ ، أنه فى ولاية تندوك الصينية ، وفى منطقة جبلية تسمى أهدينا توجد مناجم ضخمة لاتنتاج الفضة .

(٤) الجغرافيا ، ص ١٨٦ .

(٥) آسيا الصغرى أو بلاد سلاجقة الروم المعروفة قديماً بقلقلية بين تركستان واقليم اذربيجان وجنوبى بحر الخزر شرقاً حتى البحر المتوسط غرباً ، ومن الشمال اقليم جبال القوقاز والبحر الأسود ، ومن الجنوب جبال طوروس ، ذات تاريخ قديم زحافل أصبحت بلاداً اسلامية مع نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، قاعدتها قونية التى تحيط بها الجبال من كافة الاتجاهات مشكلة حواجز طبيعية لذا اتخذت قاعدة وعاصمة للبلاد ومقرًا للوكها . تشتهر بمعادنها التى منها الفضة ، كما تشتهر بمنسوجاتها ، كانت فى الفترة المعاصرة لقيام دولة السالك مملكة مسيحية لم تلبث ان سقطت أمام القوة المملوكية وأصبحت منطقة نفوذ اسلامية ، ثم قامت عدة امارات اسلامية تركمانية الى ان استولى عليها العثمانيون .

(ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٨٦ ، باقوت ، معجم ، مج ٤ ، ص ٤١٥ ، كى لسترنج بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٥٩) ، ترجمة بشير فرنسيس ، وكوركيس عواد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

جيدة .

كما يذكر كل من ابن فضل الله العمرى والنورى ^(١) أن جزيرة سردانية فى البحر المتوسط تشتهر بإنتاج الفضة ، ويذكر ابن الوردى ^(٢) أن جبل أسيرة بناحية بلاد الشاس مما وراء النهر فيه معدن الفضة ، وياقوت فى معجمه الجغرافى ^(٣) يطلق على ذلك الجبل اسم (معدن الفضة) ، كما يشير ^(٤) الى أن جزيرة صقلية من المناطق التى اشتهرت بإنتاج الفضة ، ويذكر ابن فضل الله العمرى ^(٥) أيضاً أن مدينة قشتالة ^(٦) تشتهر بما تنتجه من معادن الفضة ، وأن

(١) مسالك الأبهار . الجزء الثانى القم الأول . ص ١٥٤ أ . نسخة دار الكتاب المصرية .
نهاية العرب . ج ١ . ص ٢٣٤ . فضلاً أنظر أيضاً . النورى الاسكندرانى : محمد بن القاسم بن محمد . اللام بالاعلام بما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الاسكندرية .
ج ٢ . ص ١٢٨ - ١٢٩ . تحقيق اتبين كرمب . عزيز سوويال عطية . دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد . ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م . والذي يذكر أن فضة جزيرة سردانية من الفضة الخالصة التى كانت تصدر الى عدة جهات .

(٢) خريدة العجائب . ص ١٦٨ .

(٣) معجم البلدان . مج ٣ . ص ٣٠٩ .

(٤) نفسه . مج ٣ . ص ٤١٧ .

(٥) مسالك الأبهار . الجزء الثانى . القسم الأول . ورقة ١٥٤ أ .

(٦) قشتالة : اقليم من اقاليم بلاد الاندلس قاعدته مدينة طليطلة . ذو طبيعة جبلية فيه كثير من المدن . كان من الثغور الاسلامية زمن الدولة الاسلامية فى الاندلس . وبعد ضعفها وانقسامها كان نقطة البداية للقضاء على ذلك الضعف والانقسام المتمثل بملوك الطوائف قامت فيه مملكة قشتالة التى تحالفت مع مملكة أراغون للقضاء على الوجود الاسلامى فى بلاد الاندلس .

(ابن سهد . الجغرافيا . ص ١٨٠ - ١٨١ . ياقوت . معجم . مج ٤ . ص ٣٥٢) .

مدينة غرياس في إقليم أذربيجان ^(١) بها معدن الفضة بكميات كبيرة ،
ولكثرتها فإن رطلاً واحداً من ترابها يخرج منه ربع رطل من الفضة الخالصة ^(٢)
، وأيضاً في مدينة نوقان من بلاد خراسان ^(٣) ، جبل تكثر فيه الفضة ^(٤) ،
كما توجد الفضة في بلاد غانة وأرض كوار من بلاد السودان الغربي ^(٥) ،
ويذكر ابن بطوطة ^(٦) ان بمدينة كمش من بلاد العراق ^(٧) معادن الفضة على

(١) لم أجد مدينة بهذا الاسم ، وقد تكون تصحيفاً لسلامى التى ذكرها ياقوت واحدة من
مدن أذربيجان ، والذي هو إقليم واسع - يشمل مساحات من شمال غربى ايران وجنوب غربى
روسيا ، كانت قاعدته مدينة المراغة لخرها التتار أثناء غزواتهم ، فأصبحت تبرز قاعدة لها
- أرضه جبلية في معظمها تتخللها بعض السهول والمسطحات المائية
، كان في الفترة المعاصرة للمالك احدى الولايات المغولية .

(ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٧٢ - ١٧٣ ، ياقوت ، معجم ، مج ١ ، ص ١٢٨) .

(٢) ابن فضل الله ، مسالك ، الجزء الثانى القسم الأول ، ورقة ١٦٧ ب .

(٣) نوقان في إقليم نيسابور على مرحلتين من مدينة نيسابور ، ويقال لها طوس الكبرى ،
مدينة كبيرة حسنة المباني كثيرة الأسواق والأرذاق ، وبها معادن كثيرة منها الفضة ، واسم
خراسان يطلق على جميع الأقاليم الاسلامية شرق بلاد فارس (ايران الحالية) ، وكان يضم
بلاد ما وراء النهر من الشمال الشرقى حتى حدود الصين في الشرق والجنوب الشرقى ، وجمال
هند كوش من ناحية الجنوب ، ومفازة الغزية وأقاليم جرجان غرباً ، وينقسم الى أربعة أقاليم
أطلق على كل اقليم اسم قاعدته هي نيسابور ، ومرو وهراة وبلخ ، ويكون مع اقليم فارس
بلاداً واحدة .

(ياقوت ، معجم ، مج ٢ ، ص ٣٥١ ، الحميرى ، الروض ، ص ٢١٤ - ٢١٥ ، ص ٣٩٨
، كى لاسترنج ، بلدان الخلافة ، ص ٤٢٣ - ٤٢٤) .

(٤) العمري ، مسالك الأبهصار ، ج ٢٧ ، ق ٤ ، ورقة ١٤٤ م أ ، نسخة بودليان .

(٥) نفسه ، ورقة ١١٩ ب ، ورقة ١٢٠ أ ، نسخة بودليان .

(٦) الرحلة ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .

(٧) لم أعثر لها على تعريف ، وهناك جزيرة كيش لكنها لم تشتهر بمعدن الفضة ، ولم يكن
حولها منطقة جبلية اشتهرت بذلك ، ويبدو ان الاسم قد حرف تحريفاً شديداً .

مسيرة يومين منها فى جبال شامخة وعرة ، ويذكر الرحالة بيرو طافور ^(١١) أن بعض جهات ألمانيا تنتج الفضة بكميات تجارية ، وقد أطلق على مدينة ستراسبورج (مدينة الفضة) ، كما يذكر أن مدينة برسلو فى ألمانيا تشتهر بإنتاج الفضة ^(١٢) .

وتذكر بعض المراجع الحديثة مناطق اشتهرت بإنتاج الفضة مثل بلدة مجانة على الحدود بين تونس والجزائر فى الشمال الأفرقى ، حيث اشتهرت بمناجم الفضة وبعض المعادن الأخرى ^(١٣) ، وهناك مناجم الفضة فى أرز جبرج أو التيرول ، وخاصة مناجم شواتز ^(١٤) ، والتي زاد من إنتاجها اكتشاف طريقة جديدة لصهر المعادن تسهل عملية فصل معدن الفضة عن المعادن الأخرى ^(١٥) .

كما تذكر بعض المراجع أن وسط اسيا كان من أهم مناطق إنتاج الفضة اذ حازت مناجم الفضة على شهرة تجارية واسعة ، وحصلت الدولة المملوكية على كثير من احتياجاتها المعدنية من تلك المناطق وغيرها ^(١٦) .

(١١) الرحلة . ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(١٢) نفسه ، ص ٢٣٤ .

(١٣) عبد الرحمن زكى ، صناعة السيوف الاسلامية فى الشرق الأدنى فى العصور الاسلامية ، ص ٧٦ ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الخامس سنة ١٩٥٦ م ، ص ٧٣ ، ٩١ .

(١٤) جميعها فى مقاطعة أوجزبورج فى ألمانيا ، والتي كانت على جانب كبير من الثراء بسبب مركزها التجارى وسط القارة وعلاقاتها الاقتصادية مع مختلف مناطق أوروبا ، وخصوصاً الجمهوريات الإيطالية .

(١٥) فرنان برودول ، من ذهب السودان الى فضة أمريكا ، ص ٨١ .

(١٦) فرنان برودول ، نفسه ، ص ٨١ .

(١٧) أشتور ، التاريخ الاقتصادى ، ص ٢٨٧ ، ص ٣٣٢ ، ص ٤١٦ ، انطوان خليل ضومط ، الدولة المملوكية (التاريخ السياسى والاقتصادى والعسكرى) ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ ، دار الهدانة ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨٠ .

هذه هي أهم مناطق إنتاج الفضة - إن لم تكن جميعها - والتي استفادت منها الدولة المملوكية في تأمين جزء من احتياجات دور الضرب بها لإصدار الدراهم الفضية ، والملاحظ على تطورات الأوضاع النقدية في الدولة ، والمتصلة بالنقود الفضية أن الدولة المملوكية لم تحصل بصفة مستمرة على احتياجاتها الفعلية من الفضة من مصادرها الخارجية لذا ، فقد أصبحت أزمة النقود الفضية ظاهرة مستمرة في الدولة بسبب نقص الدراهم ، وعدم توفر أعداد كافية منها للمعاملات المالية ، والمتتبع للأحداث والتطورات النقدية في العهد المملوكي الجركسي يلمس هذه الظاهرة بكل وضوح ، وهذا ما يعطى تفسيراً لتوقف الدولة عن ضرب الدراهم الفضية ، وإحلال النقود النحاسية محلها في محاولة منها للتغلب على ما تعيشه البلاد من أزمة نقص معدن الفضة .

هذا وسأناقش التأثيرات النقدية لنقص كميات الفضة ، والفترات التي حدث خلالها ذلك النقص عند الحديث عن القوة الشرائية والقيمة النقدية للنقود المملوكية ، ولكن لابد هنا من الحديث عن الأسباب المؤدية لتناقص امدادات الدولة وواراداتها من الفضة عن طريق المصادر الخارجية لها ، ويمكن إجمال تلك الأسباب بالنقاط الثلاث التالية :

أولاً : سبق القول أن الجمهوريات الإيطالية - وخاصة البندقية - تكاد تكون المورد الرئيسي للدولة المملوكية في احتياجاتها من الفضة ، وقد توقفت تلك الامدادات بسبب حاجة أوروبا الى الفضة لتصنيعها نقوداً فضية ، حيث أدت الظروف السياسية الى انخفاض واردات الجمهوريات الإيطالية من الفضة من مناطق الإنتاج في آسيا ، وهي الواردات التي كانت تقوم بتصديرها للفائدة التجارية الى الدولة المملوكية ، ولم تكن الكميات الوافدة من مناطق الإنتاج في أوروبا تزيد عن حاجتها بحيث تقوم

بتصديرها ، بل تفيد بعض المراجع التاريخية ^(١) أن تلك الكميات انخفضت لانخفاض انتاج مناجم وسط أوروبا من الفضة خصوصاً فى الفترة ٧٥١ - ٨٥٤ هـ / ١٣٥٠ - ١٤٥٠ م .

ثانياً : أدى تناقص كميات الفضة الواردة الى الجمهوريات الإيطالية الى حدوث ظاهرة فى الاتجاه المعاكس ، وهى تصدير الفضة - ان لم يكن تهريبها - الى دور السك الأوربية - الإيطالية - والتي استعاضت عن ضرب العملة الذهبية بالاكثار من النقود الفضية لترويجها بدلاً من الذهب فى المراكز التجارية المملوكية ، حيث عجزت كميات النقود فيها عن سد حاجة المعاملات التجارية ، وقد قام بذلك التجار الفرنج الذين يترددون على موانئ الدولة ومراكزها التجارية فى كل من مصر وبلاد الشام ، فسحبوا الكثير من الدراهم الفضية ، ومن ثم تحويلها الى أوروبا وبشكل خاص الى البندقية وإعادة صهرها وسكها نقوداً فضية إيطالية - أو إستخدامها فى صناعات أخرى غير نقدية ^(٢) .

ثالثاً : ظاهرة الإكتناز التى تمثلت بتحويل معدن الفضة الى أوان أو حلى ، أو غير ذلك من المصنوعات كالأسلحة - السيوف والخناجر والسروج والحوايص أو المناطق - جمع منطقة - وغيرها ، وقد كان مرد هذه الظاهرة حرص الناس على الاحتفاظ بالفضة الخالصة النقية بعد أن كثر فسادها

(١) رأفت النبراوى ، مسكوكات المماليك المراكسة ، ص ٢٩٦ .

Ashter, op. cit. pp. 27 - 28.

(٢) القرينى ، إغاثة ، ص ٧١ ، عهد الرحمن فهى . من فضة الأيبيريين الى نحاس المماليك ، ص ٦٣ .

فسادها وغشها وخلطها بمعادن رديئة كالحديد والرصاص والقصدير ^(١) ، كما دخلت الفضة فى عملية التكفيت ^(٢) ، ففقدت الأسواق نتيجة ذلك كميات وأعداداً كبيرة من الدراهم الفضية التى صهرت وحولت الى تلك المصنوعات .

وبالإضافة الى النقاط السابقة فإنه لابد من وجود عوامل أخرى - داخلية - مسؤولة أيضاً عن تناقص كميات الفضة فى الدولة وستتم مناقشتها فيما يلى .

* * * * *

مصادر النحاس

ما قيل عن المصادر الخارجية للفضة يمكن قوله عن المصادر الخارجية للنحاس ، فمعظم المناطق التى كانت تنتج الفضة ، كانت أيضاً تنتج النحاس ، وذلك عبر الطريق الرئيسى لامدادات النحاس الى الدولة المملوكية وهو أوروبا ، التى قامت بدور الوسيط بين مناجم النحاس فى كل من آسيا وأوروبا وأفريقيا ، وبين الدولة المملوكية التى اعتمدت على ما يصلها من كميات النحاس مع التجار الفرنج ، القادمين من أوروبا أو المراكز التجارية الأخرى .

(١) القلقشندى ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦٦ ، المقرئى ، إغاثة ، ص ٧١ ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٩ ، رأفت النبراوى ، مسكوكات المماليك الجراكسة ، ص ٢٩٨ .

(٢) يقول المقرئى ، (المخطوط ، ج ٢ ، ص ١٠٥) عن سوق الكفتيين بمدينة القاهرة : « هذا السوق يسلك اليه من البندقانيين .. ويشتمل على عدة حوانيت لعمل الكفت ، وهو ما تطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة . وكان لهذا الصنف من الأعمال بهيار مصر رواج عظيم ، وللناس فى النحاس المكفت رغبة عظيمة أدركنا من ذلك شئ لا يبلغ وصف واصف لكثرة ، فلا تكاد تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت » .

فضلاً أنظر هامش رقم ، ص .

كانت احتياجات الدولة المملوكية البحرية من النحاس قليلة بسبب قلة الاهتمام بالعملية النحاسية ، وعدم استخدامه فى هذا المجال بصورة موسعة ، فكانت دور ضرب العملة فى الدولة تحتاج لكميات قليلة من النحاس لإصدار أعداد قليلة من الفلوس النحاسية ، فبتحقيق الهدف من إصدارها ، أما فى العهد المملوكى الجركسى ، فقد حدث العكس حيث زادت احتياجات الدولة بسبب تزايد الاهتمام بالنقود النحاسية ، والتوسع فى استخدامها فى الوقت الذى انخفضت فيه كميات المعادن الأخرى (الذهب والفضة) ، وقلت إصدارات الدولة منها ، وأصبح النحاس بناء على ذلك فى العهد المملوكى الجركسى من أهم السلع ، وأكثرها ضرورة حتى أطلق على الفترة التى حكم فيها الماليك الجراكسة (عصر النحاس) ، ويكفى أن نعلم أن الدولة فى بعض الفترات قد قامت بتصدير الفضة ، وهى التى تعاني من نقص فى امداداتها لتستورد النحاس بالكميات التى تتطلبها وتحتاج إليها .

لقد ذكرت بعض المصادر التاريخية والجغرافية العديد من مناطق إنتاج النحاس فى تلك الفترة ، فيذكر ابن فضل الله العمرى ^(١) أنه فى مملكة مالى ومضافاتها يوجد معدن النحاس ، وأنه ليس بموجود فى بلاد السودان الا عندهم ، ويقول القلقشندى نقلاً عنه فى إنتاج مملكة مالى من النحاس :

« قال السلطان منسى موسى أى أن عنده فى مدينة اسمها تكوا (تكدا) ^(٢)

(١) مسالك الأبحار ، ج ٢٧ ، ق ٤ ، ورقة ١١٨ ب ، نسخة بروديان .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٩١ .

(٣) مدينة تكدا تقع شرق النيجر بين مدينتى غاواير فى أقصى شرقى دولة مالى ، كانت من المراكز التجارية فى بلاد السودان الغربى .

(الشيخ الأمين عوض الله ، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربى ، ص ٧٩ ، ٨٠ ، دريد النورى ، تاريخ الاسلام فى افريقيا ، ص ٢٤٠) .

معدن نحاس أحمر يجلب منه قضبان الى مدينة بنى (نيانى ، بنى) قاعدة مالى فيبعث منه الى بلاد السودان الكفار ، فيباع وزن مثقال بثلاثى وزنه من الذهب ، يباع كل مائة مثقال من هذا النحاس بستة وستين مثقالاً وثلاثى مثقال من الذهب .

وزيد ابن بطوطة ^(١) الأمر توضيحاً ، وهو من زار تلك المنطقة فيقول :

«وهو بخارجها يحفرون عليه الأرض ، ويأتون الى البلد فيسبكون فى دورهم ، يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم ، فاذا سبكوه نحاساً أحمر صنعوا منه قضباناً بطول شبر ونصف ، بعضها رقائق وبعضها غلاظ ، فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمثقال ذهب ، والرقائق بحساب ستمائة وسبعمائة بمثقال ذهب ، وهى صرفهم يشترون برقاقها الذهب واللحم والخطب ، وبغلاظها العبيد والخدم والحبوب ، ويحمل منها الى مدينة كوبر من بلاد الكفار ، والى زغازى ، والى بلاد برنو وغيرها .

وكان إنتاج تلك المنطقة يصدر الى عدد من الأقاليم ، ومعظمه الى الدولة المملوكية فى مصر التى كانت على علاقات تجارية نشطة معها ^(٢) .

ومما ذكره ابن بطوطة ^(٣) من مناطق انتاج النحاس مدينة أرزنجان ^(٤) ،

(١) الرحلة ، ج ٢ ، ص ٧٩٨ - ٧٩٩ .

(٢) طرخان ، امبراطورية غانة الاسلامية ، ص ٦٧ ، دريد نوري ، المرجع السابق ، ص ٢٤ . سر الختم عثمان على ، العلاقات بين مصر والسودان ، ص ٩٣ - ٩٤ ، الشيخ

الأمين عوض الله ، المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(٣) الرحلة ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .

(٤) أرزنجان ، مدينة كبيرة عامرة أكثر سكانها من الأرمن كثيرة الحيرات من بلاد أرمينية =

ويرجح انها المقصودة عند المقرئى ^(١) عندما ذكر أنه ببلدة معدن بأرمينية قرب نهر دجلة توجد مناجم النحاس ، وأن تلك المنطقة كانت تصدر إنتاجها من النحاس الى الخارج ، كذلك ذكر ابن تفرى بردى ^(٢) أن من أرمينية كورة من النحاس التى انفردت به على سائر الممالك .

ويذكر النويرى ^(٣) أن جزيرة قهرص كانت تنتج معدن النحاس ، كما ذكر ابن سعيد المقرئى ^(٤) أن جزيرة أرلنده ^(٥) كان بها معدن النحاس ، ويذكر ابن الوردى ^(٦) أن مدينة المربة ^(٧) من مدن الأندلس كان بها معدن النحاس ، ويذكر ابن فضل الله العمري ^(٨) أن من مدن بلاد سحرت - شرق بلاد البلغار - مدينة

= الصغرى ، قريبة من مدينة أرض روم شمال بلاد الشام .

(القزوينى ، آثار البلاد ، ص ٤٩٣ ، ياقوت ، معجم ، ج ١ ، ص ١٥٠ ، ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .

(١) السلوك ، ج ١ ، ص ٦٩٠ .

(٢) حوادث الدهور ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٣) نهاية الارب ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

(٤) الجغرافيا ، ص ٢٠٠ .

(٥) جزيرة ايرلنده شمالى جزيرة المجلترا ، وهى فى الشمال الغربى من الاقليم السادس

مساحتها ألف ميل (ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ٢٠٠ ، القزوينى ، آثار البلاد ، ص ٥٧٧ .

(٦) خريدة العجائب ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٧) مدينة المربة ، مدينة كبيرة من كورة البيرة من أعمال الأندلس أمر بهنائها الخليفة الأموى الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد سنة ٣٤٤ هـ ، وبنى عليها سور حصين ، كانت مينا تجارياً هاماً قبالة سواحل المغرب ، اشتهرت بصناعة النسيج والأقمشة ، ويعد من الصناعات الأخرى المتصلة بالتجارة ، لذا كان أهلها على جانب من الثراء والغنى .

(ياقوت ، المعجم ، مج ٥ ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، الحميرى ، الروض المعطار ، ص ٥٣٨ .

(٨) مسالك الأبهصار ، ج ٢ ق ١ ، ورقة ١٧٦ ب ، نسخة دار الكتب المصرية .

يمحان ^(١) حيث بشرقيها جبل يكثر فيه معدن النحاس ، ويذكر أيضاً ^(٢) من مناطق إنتاج النحاس فى تلك الفترة مدينة طليطلة ^(٣) فى الأندلس ، كما يشير الحسن الوزان ^(٤) الى منطقة جزولة ^(٥) فى مملكة مراكش (المغرب الأقصى) ، وأنها كانت تنتج كميات غزيرة من النحاس .

لقد سبق القول إن أوروبا - الجمهوريات الإيطالية كانت أهم مصادر النحاس

(١) بلاد سحرت ومدينة ويمحان يظهر أنهما حرفا عن رسمهما الصحيح إذ لم أعثر على تعريف لهما فى المصادر الجغرافية المتداولة ، ولكن يذكر ابن فضل الله أن يمحان من جهة الشرق ، وهى صغيرة متحضرة يملكها رجل من الأتراك ، وهى على نهر يسمى سوقان ، وبشرقيها جبل أرحيتا الذى يحتوى على معادن النحاس الذى يستخرجه أكثر من ألف رجل ، ويستخرج منه الكثير ، ويتم تصديره الى أقاليم المنطقة وما جاورها .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ق ١ ، ١٥٠ أ ، نسخة دار الكتب المصرية .

(٣) طليطلة : مدينة كبيرة من أجل مدن الأندلس يطلق عليها مدينة الملوك لجمالها وطيب هوائها وكثرة خيراتها ، تقع على نهر طليطلة وهو نهر كبير شمال شرق الأندلس ، وهى قاعدة للبلاد نظراً لمناعتها وتضاريسها الجبلية و تتصل بواى الحجارة شرقى قرطبة . فتحها المسلمون سنة ثلاث وتسعين وتخلوا عنها سنة ٤٧٧ هـ عندما استولى عليها الصليبيون من أحد املوك الطوائف هو القادر بالله يحيى بن ذى النون .

(القزوينى . آثار البلاد ، ص ٥٤٥ ، ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ١٧٩ ، هاقوت ، معجم ، مج ٤ ، ص ٣٩ - ٤٠) .

(٤) كتاب وصف أفريقيا ، ص ١٥٦ .

(٥) منطقة جزولة ، اقليم مأهول يحاذى اقليم مراكش من الشرق ، ويفصل بينهما جبال الأطلس فى الشمال الغربى ، ومنطقة مناجم النحاس تقع فى كورة (أغاديرن تبهست) كان يقام فيها سوق المولد - مولد النهى محمد - صلى الله عليه وسلم - لمدة شهرين كل عام لتأمين احتياجات السكان من السلع والمتاجر الضرورية ، يمتاز أهله بالخشونة ، وغالبيتهم يتهنون حرفة الرعى .

(الحسن الوزان (ليو الأفريقى) ، وصف أفريقيا ، ص ١٥٦ - ١٥٧) .

للدولة المملوكية لقيامها بدور الوسيط التجارى بين مناطق الانتاج ومناطق الاستهلاك^(١) ، وقد حصلت الدولة المملوكية على احتياجاتها استثناء بعض الفترات التى عانت خلالها الدولة من نقص الامدادات ، حيث لم تكن تلك المصادر تتوفر باستمرار الكميات التى تحتاجها دور الضرب - خصوصاً فى عهد دولة المماليك الجراكسة التى زادت خلالها تلك الاحتياجات - مما أدى الى تعرض الدولة وأوضاعها الاقتصادية الى أزمات نقدية عنيفة ، كتلك التى حدثت فى الفترة الثانية من حكم السلطات الظاهر بريقوق (٧٩٢ - ٨٠١ هـ / ١٣٨٩ - ١٣٩٨ م) مما اضطر السلطان الى ارسال أحد كبار أمرائه ، وهو الأمير محمود بن على الاستادار^(٢) الى بلاد الفرنجة لطلب النحاس الأحمر^(٣) ، وكذلك حدث سنة ٨١٤ هـ / ١٤١١ م حيث واجهت خزائن الدولة نقصاً كبيراً فى النحاس

(١) أشتور ، التاريخ الاقتصادى ، ص ٣٣٢ ، ص ٤١٨ ، محمد الصغير عبد اللطيف ، العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا الجنوبية ، ص ٤٩ ، قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ٦٩ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

(٢) الأمير جمال الدين محمود بن على بن أصغر الطازى كان فى حلب ثم قدم الى مصر ، وعمل شاداً (محصلاً مالياً) عند أحد أمراء الدولة ، ثم انتقل وعمل فى الدولة - فى عهد الظاهر بريقوق ، فبلغ منزلة ومكانة رفيعتين ، يذكر عنه عسفه وظلمه وتشدده فى تحصيل الأموال ، صودر كثيراً وعوقب وعذب حتى قيل أنه توفى فى السجن تحت العقوبة يوم الأحد تاسع رجب سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م ، ودفن بمدرسته التى أنشأها فى القاهرة خارج باب زويلة ، وأوقف عليها أموالاً طائلة .

(٣) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٥ ، ص ٩٧ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ١ ، ص ٤٥٤ ، ابن تفرى بردى ، الدليل الشافى على المنهل الصافى ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ ، تحقيق فؤيد شلتوت ، نشر مركز البحث العلمى والتراث الاسلامى بجامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م .

(٤) المقرئى ، إغانة ، ص ٧١ - ٧٢ .

والفلوس النحاسية مما ترتب عليه قيام الدولة بالاستيلاء على الفلوس الموجودة فى حوزة التجار وأصحاب الأموال فى القاهرة وإعطاء أصحابها الدنانير الذهبية^(١) . وأيضاً حدث سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م أن نقصت كميات النحاس بدور الضرب فى الدولة ، مما دعا السلطان المؤيد شيخ المحمودى الى إخراج مبلغ مائة ألف دينار من خزائن الدولة لشراء النحاس ، وضربه فلوساً نحاسية بدور الضرب^(٢) .

والأمثلة عديدة لتلك الأزمات التى تعرضت لها دولة المماليك الجراكسة بسبب نقص النحاس^(٣) ، ويمكن إرجاع ذلك النقص الذى عانت منه الدولة الى ثلاثة أسباب رئيسية هى :

الأول : قلة واردات الدولة من النحاس من المناطق المصدرة له - خصوصاً أوروبا - التى شهدت انخفاضاً كبيراً فى إنتاج النحاس ، وفى الحصول عليه من مصادر إنتاجه منذ منتصف القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، وحتى ما يقارب منتصف القرن التاسع الهجرى / منتصف القرن الخامس عشر الميلادى^(٤) .

والثانى : يعود الى ظاهرة الاكتناز ، وبروز صناعة التكفيت وتحويل الفلوس

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ١٨٣ .

(٢) ابن ايماس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

(٣) لمزيد من الأمثلة على ذلك فضلاً أنظر المقرئى ، المصدر السابق ج ٤ ، ص ٤٢٧ ، ص ٤٣٦ ، ابن حجر ، انباء الفجر ، ج ٢ ، ص ٤٩٣ ، ج ٣ ، ص ١٤٣ ، الصيرفى ، نزهة ج ٢ ، ص ٤٠٠ ، ج ٣ ، ص ٤٢١ .

(٤) رأفت النبراوى ، مسكوكات المماليك الجراكسة ، ص ٣٣٦ :

النحاسية بعد صهرها الى أوان ومشغولات نحاسية مختلفة ، وبيعها لارتفاع أثمانها ، وكثرة الطلب عليها خصوصاً بعد أن كثر الفساد والغش فى الفلوس النحاسية ، وخلطها بمواد أخرى كالرصاص والحديد ونحو ذلك .

أما الثالث : فهو بروز ظاهرة تهريب النحاس خارج الدولة ، فبعد إرتفاع أسعار النحاس حرص التجار وأصحاب الأموال على الربح المادى ، فقاموا بالمناجزة بالنحاس غير المسكوك - الخام - وتصديره خارج الدولة لما فى ذلك من مردود اقتصادى جيد ، وأرباح مالية عالية ، وقد نشطت هذه التجارة فى كل من الحجاز واليمن وبلاد المغرب والهند بسبب ارتفاع سعر النحاس فى تلك الأقاليم ^(١) .

وقد شجع على بروز تلك الظاهرة السياسة النقدية التى انتهجتها الدولة فيما يتصل بالقيمة النقدية للفلوس النحاسية ، فمع نقص أوزانها الى الثلث تقريباً فإن قيمتها النقدية قد ارتفعت خصوصاً عند قيام الدولة بضرب فلوس نحاسية جديدة فى الوقت الذى ينادى على التنى قبلها (الفلوس العتق) بسعر منخفض ، فتشتري لدار الضرب ، وتضرب فلوساً نحاسية جديدة يتم إنزالها الى الأسواق بالسعر المرتفع ، وفى هذا خسارة أكيدة للمتعاملين ، وأصحاب الأموال الذين وجدوا أن تحويل تلك الفلوس الى سبائك ، أو أوان أو غيرها من المشغولات النحاسية ، ثم تصديرها الى أسواق تمتاز بارتفاع أسعار النحاس بها فيه محافظة على أموالهم ، إضافة الى ما يحصلون عليه من أرباح مضمونة من جراء تلك

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٤١ - ٦٤٢ ، عهد الرحمن قهسى ، من فضة الأيوبيين الى نحاس المالبك ، ص ٦٥ .

العملية .

كان وصول تلك المعادن الى الدولة يتم عن طريق التبادل التجارى ، والحديث عن التبادل التجارى هو حديث عن العلاقات التجارية بين دولتى الممالك والقوى التجارية الأخرى ، وهذا الموضوع سبق وأن نوقش فى عدد كبير من الدراسات والأبحاث ^(١) ، وما يجب الإشارة اليه أن المعادن بأنواعها كانت من أهم السلع التى وصلت الى المراكز التجارية على يد مختلف طوائف التجار ، وبصفة خاصة تجار الفرنج - أى التجار الايطاليون - وهؤلاء بدورهم كانوا يقومون ببيعها إما على الدولة عن طريق المتجر السلطانى ^(٢) أو الدهوان

(١) عن ذلك فضلاً أنظر :

- عادل زيتون ، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى .
- نعيم زكى فهسى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب .
- شوقى عثمان حبيب ، العلاقات التجارية بين مصر والدول الافريقية فى عصر سلاطين الممالك .
- توفيق اسكندر ، نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية فى العصر الوسط .
- سعيد عاشور ، أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحيشة فى العصور الوسطى .
- صبحى لبيب ، التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى .
- محمد محمد أمين ، علاقات دولتى مالى وسنغاي بمصر فى عصر السلاطين الممالك .
- HEYD, W. Histoire du Commerce du levant au moyen Age. Vols, 2. leipzig. 1923.
- ATIYA, A, S, Egypt and Aragon Embassies & Diplomatic Correspondence between 1300, A. D. Leipzig. 1938.

هنا بالإضافة الى عدد من المراجع العربية والافرنجية الرسائل الجامعية والمقالات .

(٢) من جهات الدولة التى تتبع السلطان مباشرة ، ويقوم عليه أحد كبار رجال الدولة ممن يعينهم السلطان ، ومهمته شراء أنواع معينة من البضائع والسلع تتصف بضرورتها وأهميتها كالفلل والتوابل والأقمشة والمعادن . ثم طرحها للبيع فى ظروف معينة وفق أسعار محددة تفرض على التجار الذى يلزمون بشرائها ، وقد كان الهدف منه الحصول على موارد مالية =

الخاص^(١) - الذى يتبعه موظفون مهمتهم المتاجرة بالأموال السلطانية ، أو على التجار وأصحاب الأموال . ثم يتم بعد ذلك توجيه تلك المعادن الى دور الضرب ، لسكها وإصدارها نقوداً ذهبية أو فضية أو نحاسية ، بعد دفع الرسوم المقررة عليها ، ثم تأخذ طريقها الى الأسواق فى عمليات التبادل المختلفة .

هذا وقد عملت الدولة من أجل تنظيم عملية المتاجرة بهذه المعادن بحيث تتحقق استفادة خزينة الدولة وفرضت رسوماً مالية على التجار الأجانب الموردين لهذه المعادن ، تمثلت بتقديم كمية محددة من المعادن الى دار سك النقود^(٢) ، وهذه الكمية ضريبة السماح للمتاجرة بهذا النوع من السلع فى مراكز الدولة التجارية ، كما يقوم أولئك التجار فى بعض الأحيان ، بدفع ضريبة مقدارها اثنان فى المائة من مجموع ما يحمله التاجر من عملات نقدية من الذهب أو

= للسلطان . يتم الصرف منها على نفقاته ومصروفاته المختلفة .

(ابن ممانى ، قوانين الدواوين ، ص ٢٢٧ ، ابن شاهين ، زبدة كشف المالك ، ص ٩٧ ، محمد مصطفى زيادة ، هامش رقم (١) ص ٤٨٦ ، كتاب السلوك ج ٢) .
(١) الديوان الخاص الجهة التى تقع عليها مسئولية الإشراف على أموال السلطان ، والتحدث فيها وفى جهاتها المالية المخصصة للإيرادات المقررة للسلطان ، التى تحمل الى خزانه الخاص ، وقد أحدثه السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ويقوم بالإشراف عليه ناظر الخاص السلطانى ..

(القلشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٥٢ ، ابن شاهين ، زبدة كشف المالك ، ص ١٠٧ ، ١٠٩ ، البقلى ، التعريف ، ص ١٤٦) .

(١) البند الخامس والثلاثين من الاتفاقية الموقعة بين السلطان المعز أبيك ودوق جمهورية الهندية رينو زينو Rinier Zeno (١٢٥٣ - ١٢٦٨ م) ، والتى عقدت بين الطرفين سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م .

وقد قامت بنشر هذه الاتفاقية عفاف صبرة فى كتابها العلاقات بين الشرق والغرب ص ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٣ م .

الفضة ^(١) ، كما يلزم التاجر الأجنبي في بعض الفترات بضرب كميات من الذهب والفضة التي يحملها الى دور الضرب التابعة للدولة ، فيتعامل بتلك النقود المضروبة في معاملاته التجارية في أثناء وجوده في أسواق الدولة ^(٢) ، وقد نظمت المعاهدات المعقودة بين سلاطين الدولة المملوكية وعدد من القوى التجارية المعاصرة تلك الضرائب أو الرسوم المقررة ^(٣) ، ويلحظ على تلك الضرائب أن مقاديرها اختلفت من وقت لآخر ، إذ لم يكن هناك قواعد ثابتة تحكمها ، بل ترك تقديرها لسياسة السلاطين ، ومدى العلاقات التي تربطهم بالقوى ذات الصلات التجارية معهم فسياسة السلاطين في فرض هذه الضرائب أو تحديد مقاديرها تأثرت بقوة هذه العلاقة أو ضعفها ، ففي حالة قوة هذه العلاقة يحصل التجار على إعفاءات وإمميزات تجارية ، أما في حالة ضعف

(١) البند السادس من الاتفاقية المعقودة بين السلطان الناصر بن محمد بن قلاوون ودوق جمهورية البندقية بطرس جرادنجيو Pietro Gradenig (١٢٨٩ - ١٣١١ م) والتي عقدت في التاسع عشر من شهر ذي القعدة سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م . وقد نشرتها عفاف صبرة في كتابها العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٨٥ . ٢٩١ .

والبند الأول والرابع والخامس من المعاهدة التجارية والمعقودة بين السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ودوق جمهورية البندقية جيوفاني جرادنجيو Giovanni Gradinigo (١٣٥٥ - ١٣٥٦ م) ، والتي عقدت سنة ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م . وقد نشرتها أيضاً عفاف صبرة في كتابها العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٩٢ . ٢٩٩ .

(٢) صبحي لبيب ، سياسة مصر ، ص ١٤١ .

BACHARACH, J. "The Dinar versus The Ducat". p. 79. I.J.M.E.S. 4. 1973. pp. 77 - 96.

(٣) عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية ، ص ٢٣٥ ، نعيم زكي فهمي ، طرق التجارة الدولية ، ص ٤١٣ ، ص ٤١٦ ، ص ٤٢٣ ، ص ٤٢٦ ، ص ٤٦٨ ، أشنور ، التاريخ الاقتصادي ، ص ٢٩٤ ك

Heyd, op. cit., vol. II. p. 429.

تلك العلاقات وتوترها ، فإن الدولة تحرص من جانبها على تحصيل الضرائب المقررة بالكامل دون أى إمتيازات أو تسهيلات ^(١) .

وقد تبيّأت البندقية مركز الصدارة فى إمداد الدولة بالكثير من احتياجاتها المعدنية ، فكانت الوسيط بين الدولة المملوكية ومناطق إنتاج المعادن فى أوروبا وآسيا ^(٢) ، كما أن ازدياد حجم النشاط التجارى بين الطرفين قد أدى الى تدفق النقود والعملات البندقية (الدوكات) الى الدولة ، ومن ثم الى دور السك بها ^(٣) ، وللدلالة على ضخامة الأرقام التى كانت تصل الى الدولة نتيجة لذلك يمكن الإشارة إلى المبالغ التى قام التجار الهنادقة بصرفها فى أسواق الدولة ، فبين سنتى ٨١٧ - ٨٢٧ هـ / ١٤١٤ - ١٤٢٣ م كان مجموع تلك المبالغ حوالى ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية (دوكات) ، وفى عام ٨٣٧ هـ / ١٤٣٣ م وصل الرقم الى أربعمائة وستين ألف قطعة ، ومع انخفاض الازدهار التجارى بين الجانبين أواخر القرن التاسع الهجرى . الخامس عشر الميلادى وصل مجموع المبالغ المنصرفة ثلاثمائة ألف دوكات ^(٤) .

هذا وقد نظم العلاقات التجارية بين الطرفين عدد من المعاهدات التجارية

(١) عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٨ ؛

Heyd, op. cit., p. 450.

(٢) انطوان خليل ضرمت ، الدولة المملوكية ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ ، فرنان برودول ، من ذهب السودان الى فضة أمريكا ، ص ٨١ ؛

Heyd, op. cit., p. 490.

Bacharach, op. cit., p. 79

(٣)

(٤) أشتور ، التاريخ الاقتصادى ، ص ٤٢٠ ؛

VAN GENNEP, A. R. "Le Ducat venition en Egypte" p. 494. RN, 1897. pp. 373 - 381. and 494 - 500.

المعقودة بينهما ، حيث ركزت تلك المعاهدات على حصول سلاطين الماليك على احتياجاتهم المعدنية من الصجار البنادقة وفق ضوابط محددة ، وعند الاخلال بتلك الضوابط تقوم الدولة بالتنبيه الى ذلك ، وتدعو الى الالتزام بما نصت عليه الاتفاقيات المعقودة .

وحدث ان حذر السلطان المملوكى قايتباى فى خطاب بعثه فى العاشر من شعبان سنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م الى دوق جمهورية البندقية نيكولو ترون (Nicolo Tron) (١٤٧١ - ١٤٧٣) من قيام التجار البنادقة بتصدير كميات مغشوشة من الذهب والفضة الى الدولة ^(١) .

ولقد أثار تناقص كميات الذهب والفضة الواصلة الى الدولة السلطان الغورى ، وأوضح قلقه من هذا الانخفاض فى الاتفاقية التى عقدها سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ مع دوق جمهورية البندقية ليوناردو لوريدانو Leonardo Loredano (١٥٠١ - ١٥٢١ م) وطلب منه توضيحاً لأسباب هذا التناقص الذى وصل الى أربعة وعشرين ألف قطعة معدنية من مختلف الأنواع بعد أن كان يزيد على ثلاثمائة ألف قطعة ^(٢) .

(١) نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ، ص ٣٧٥ ، حسين عبد الرحيم عليوة ، دراسة لبعض الصناعات والفنانين بمصر فى عصر الماليك ، ص ٩٦ ، أدوارد بروى ، تاريخ الحضارات العام ، ص ٥٠٩ - ٥١٠ ، ترجمة يوسف أسعد ، فريد داغر ، منشورات عويدات ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٨٢ م

Heyd, op. cit., vol. 2, p. 493.

Bacharach, op. cit., pp. 79 - 80.

(فضلاً أنظر ملحق رقم ٧)

(٢) نعيم زكى فهمى ، نفسه ، ص ٤١٤ .

لقد استفادت الدولة فى عهد الماليك الجراكسة من تلك العملات الأجنبية مصدر هام لمعدن الذهب فى الدولة ، وقد قامت الدولة أثناء محاولات الإصلاح النقدي التى قام بها بعض السلاطين بتحويل تلك العملات الى دور الضرب لصهرها وإعادة سكها عملات ذهبية مملوكية ^(١) .

ومن خلال العلاقة القوية التى قامت بين دولة الماليك وجمهورية البندقية نجد أن دور الضرب المملوكية حصلت على معظم احتياجاتها من المعادن سواء كانت مواد خام يتم تصديرها سلعاً ، أو مبالغ نقدية يتم تحويلها الى عملات مملوكية من خلال العمليات التجارية التى يقوم بها التجار البنادقة فى أسواق الدولة ^(٢) ، وإضافة اليهم فقد كان للتجار الأوربيين - وبالذات من جمهورية جنوة وجمهورية بيزا - أهميتهم فى إمداد الدولة ببعض من احتياجاتها المعدنية ، حيث استفادت منهم الدولة المملوكية أكثر من غيرهم من طوائف التجار الآخرين .

وقد دفع التجار البيازنة والجنوية عشرة بالمائة على ما يحملونه من ذهب وفضة ، نظراً لعدم وجود امتيازات لهم فى أسواق الدولة ، وكانوا يدفعون أربعة ونصفاً بالمائة على ما يحملونه من قطع نقدية من الذهب أو الفضة .

وقد دفع الجنوية فى بعض الفترات أكثر من ستة مثاقيل من الذهب عن كل مائة مثقال ، كما دفعوا أكثر من أربعة مثاقيل عن كل مائة مثقال من الفضة الخام ^(٣) .

(١) لمزيد من التفاصيل فضلاً أنظر الفصل الخامس ، ص ٥١٢ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ، توفيق اسكندر ، نظام المقايضة ، ص ٤٤ - ٤٣ .

(٣) عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

أما عن الطوائف الأخرى من التجار ، فمعلوماتنا ناقصة عن مقدار ما كانوا يدفعونه من ضرائب على ما يحملونه من خامات المعادن ، أو على النقود الذهبية والفضية التي يتاجرون بها ، فلم تورده المصادر التاريخية ما يفيد مقدار تلك الضريبة وظروفها ، ولكن الثابت أن المالك قد استفادوا من أولئك جزاء ولو يسيراً من احتياجاتهم المعدنية ، أضافوها الى ما كان يصلهم مع التجار الأوروبيين من خامات أو نقود ^(١) .

وهكذا وصلت المعادن من مصادرها الخارجية الى خزائن الدولة المملوكية وأسواقها ، وحقت من خلالها بعض احتياجات دور الضرب فيها لاتمام العملية الاقتصادية ، ومع أن تلك المصادر الخارجية لم تحقق للدولة جميع احتياجاتها فإنها قدمت لها جزءاً كبيراً من تلك الاحتياجات ، وهذا ما وجه الدولة للبحث عن مصادر أخرى لاستكمال الكميات اللازمة لها ، فقامت باستغلال مصادر داخلية للمعادن نتحدث عنها فيما يلي :

المصادر الداخلية للمعادن

لقد استغل المالك مجالات عدة داخل الدولة لتكون مصادر معدنية أمكنهم عن طريقها تأمين كميات ولر يسيرة من تلك المعادن ، بل إن لتلك المصادر الداخلية أهمية خاصة في كونها ملجأ للدولة في معالجة ما تتعرض له من أزمات نقدية بسبب نقص امدادات المعادن الخارجية ، وعلى هذا فإن الاستفادة الدولة من تلك المصادر - باستثناء بعضها - قد تمت بطريق غير مباشر ، اذ أنها لم تصبح مصدراً الا بسبب ما تمر به الدولة من أزمات ، أو بسبب ظروف محيطية

(١) عادل زيتون ، نفسه ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ، محمد الصغير عهد اللطيف ، العلاقات التجارية ، ص ٤٧ ، ص ٥٥ - ٥٦ .

جعلت الدولة تستغله مصدراً من المصادر المعدنية .

لقد تنوعت تلك المصادر ، فشملت الى جانب المصدر الطبيعي للمعادن ، وهو الأرض مصادر تكونت تحت ظروف اقتصادية أو سياسية ، وأبداً حديثى عن هذا لتنوع بالحديث عن مناطق الإنتاج المعدنى فى الدولة المملوكية ، وهى المصدر الطبيعي للإنتاج .

تعد صحراء سيناء ^(١) من المناطق الغنية بالمعادن ، وقد استغلها المالك فى الحصول على المعادن المستخدمة فى سك العملات ، وخصوصاً معدن النحاس الذى كان موجوداً فى وادى النصب الغربية « فى مناجم اشتهرت بإنتاجها الكثيف ، كما يوجد فى وادى السمرا على مسيرة أربع ساعات من ميناء نوبيع ، وأيضاً فى بعض الجهات الأخرى قليلة الإنتاج ^(٢) .

كما اشتهرت صحراء سيناء بإنتاج معدن الفضة حيث وفرت مناجمها جزءاً لا بأس به من خامات الفضة التى تحتاجها دور الضرب لسك الدراهم الفضية ^(٣) .

كما كان من ضمن مناطق الإنتاج المعدنى مناجم بلاد النوبة التى أنتجت كميات معقولة من النحاس استغلتها الدولة فى إصدار الفلوس النحاسية ^(٤) .

(١) صحراء سيناء الوصلة الهامة بين اسيا وافريقيا ، أو نقطة النيل الى بلاد الشام ، يحدّها شمالاً البحر المتوسط وغرباً خليج السويس وجنوباً البحر الأحمر وشرقاً خليج العقبة ، ولها أسماء عديدة منها جزيرة طور سيناء ، أو جزيرة سيناء . وتعنى معانى عدة منها الجبال الكثيرة أو القمر أو أرض الجذب وغير ذلك .

(نعمم بك شقير ، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها ، ص ٩ - ١٠ ، المركز العربى للبحث والنشر ، ١٩٨٦ م) .

(٢) نعمم بك شقير ، تاريخ سيناء ، ص ٨١ .

(٣) رأفت النبراوى ، مسكوكات لمالك الجراكسة ، ص ٢٩٦ .

(٤) نفسه ، ص ٣٣٤ .

أما المصادر التى تكونت تحت ظروف اقتصادية فهى الضرائب التجارية ، أو الرسوم أو المقررات المالية ^(١) التى فرضها المالك على جهات عديدة فى الدولة وحصلوا منها على موارد مالية نقدية (ذهبية وفضية ونحاسية) كانت مصدراً هاماً من مصادر النقد - المعادن - فى الدولة ^(٢) ، ويكفى أن نعلم أن غالبية الإيرادات المالية لبيت المال فى العصر المملوكى كانت من هذا الجانب ، إذ استغل سلاطين الممالك النواحى التجارية بأنشطتها المختلفة أفضل استغلال . فتحطموا على إيرادات ضخمة من عدد كبير من الضرائب المفروضة على التجارة بفرعها الداخلى والخارجى ، وبالنظر الى الازدهار الذى عاشته الدولة فى عهد دولة المماليك البحرية ، ورواج تجارتها مع الشرق والغرب معاً ، والتبادل التجارى الكبير بين اسيا وأوروبا عن طريق مصر ، وما ترتب على ذلك من مرور السفن التجارية المحملة بالبضائع بثغور الدولة وموانئها ، وما تبعه من جباية للضرائب والرسوم على هذه المتاجر والبضائع ، أو تلك الصادرة من الدولة الى المراكز التجارية فى أوربا وأفريقيا واسيا ، فقد أدى جميع ذلك الى ازدهار ثروات الدولة بشكل كبير الأمر الذى أدى الى توفر احتياطات ضخمة من العملات فى خزائن الدولة أصبحت مصدراً لدور الضرب عند رغبتها إصدار عملات ذهبية أو فضية أو نحاسية .

(١) من المعروف أن لكل من الضرائب والرسوم والمقررات المالية تعريفات خاصة بها ، ولكن لم تكن دولة الممالك تهتم بهذه التسميات بقدر اهتمامها بما يتحصل منها . وهذه المصطلحات كان لها عدة تسميات خلال تاريخ الدولة منها الخمس ، والحقوق ، والموجب ، واجب الديوان ، والمقرر ، والجهة ، والمفرد ، والمشاركة وغير ذلك .

(٢) نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ ، أشتور ، التاريخ الاقتصادى ، ص ٣٨١ .

وعن المصادر التى تكونت تحت ظروف سياسية فقد تنوعت على النحو
التالى :

المصادر

جمع مصادرة ، وهى الاستيلاء على أموال الغير من قبل سلطات الدولة وقد
اشتهر العصر المملوكى بهذه الظاهرة نظراً للتنافس الشديد بين كبار أمراء
الماليك عند تعارض مصالحهم وطموحاتهم ، وأكثر ما حدثت هذه الظاهرة عند
اعتلاء سلطان جديد لسلطنة الدولة ، فيكون ناقماً على عدد من الأمراء
الماليك ، أو كبار رجال الدولة أو أصحاب المال فيها ، أو تكون عند حدوث
المنازعات بين السلطان وكبار الأمراء ، أو عند حدوث تنافس بين كبار الأمراء ،
فيحاول بعضهم النيل من البعض الآخر بالتقرب الى السلطان ، والتأثير عليه
ليأمر بمصادرة أحدهم لإعاقبته ، كما تكون تلك المصادرات عند تقصير أو
فساد أحد الأمراء ، أو أحد كبار موظفى الدولة ، فيأمر السلطان بمصادرة
أمواله وأملاكه ، أو يأمر معاقبته بتفريغ مبالغ مالية يلتزم خطياً بأدائها لخزينة
الدولة .

لقد كثرت تلك المصادرات فى العصر المملوكى بشكل ملفت للنظر اذ لم يخل
عهد من عهود سلاطينها دون حدوث مصادرة لأمر أو لموظف كبير أو لأحد
التجار .

ومهما كانت الظروف والمسببات لتلك المصادرات ، فالثابت أنها كانت مصدراً
نقدياً هاماً لخزينة الدولة أو لخزينة السلطان أوجدت مورداً نقدياً للعملات
استغلتها الدولة فى تنمية احتياطياتها من تلك النقود ، كما استخدمته فى دفع
ما عليها من التزامات مالية مختلفة ، والواقع أنه من الصعوبة بمكان حصر هذه

المصادر التى حدثت فى العصر المملوكى ، وسأكتفى ببعض الأمثلة عليها .

فقد حدث فى عهد السلطان الأشرف خليل بن المنصور قلاوون سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م أن صودر الأمير حسام طرنطاي الكبير (الأمير الكبير) ^(١) ، وقد بلغ مجموع الأموال التى صودرت منه ما يقارب من ألف ألف دينار ^(٢) ، مع ضخامة هذا الرقم ، فإنه يوضح جانباً من ضخامة الأموال التى كانت تجنيها الدولة من هذه المصادرات ، وتذكر بعض المصادر ^(٣) أن المبالغ النقدية فقط كانت ستمائة ألف دينار من الذهب العين ، ومن الدراهم سبعة عشر ألف رطل ومائة رطل عدا الأملاك الأخرى .

(١) الأمير طرنطاي بن عبد الله المنصورى حسام الدين أبو سعيد الأمير الكبير ، من ماليك المنصور قلاوون ، وأكبر أمرائه وأعظمهم شأناً وقوة ، وكان نائب السلطنة فى عهد المنصور قلاوون الذى أوكل اليه العديد من المهام فى الدولة ، كان على عدا شديده مع الأشرف خليل ابن قلاوون بسبب ميل طرنطاي الى الصالح على بن قلاوون وترشيحه لولاية العهد فى عهد والده ، واستمرت تلك العدواة حتى بعد تولية الأشرف خليل سلطنة الدولة ، فقبض عليه وقتله بعد تعذيبه يوم الخميس الثامن عشر من ذى القعدة سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٨٩ م .

(ابن حبيب : الحسن بن عمر ، درة الأسلاك فى دولة الأتراك ، ج ١ ، ورقة ١٠٢ ، مخطوط بجامعة القاهرة رقم ٢٢٩٦١ ، المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٥٧ - ٧٥٨ ، ابن تغرى بردى ، الدليل الشافى ، ج ١ ، ص ٣٦١) .

(٢) الكتبى : ابن شاکر محمد بن أحمد ، عيون التواريخ ، ج ٢٢ ، ورقة ١١١ ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٤٩٧ تاريخ ، العيى : بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، ج ٢٣ ، ص ١٧ ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٥٨٤ تاريخ ، ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، مج ٨ ، ص ١٠١ .

(٣) ابن عبد الظاهر ، تشرىف الأهم والعصور فى سيرة الملك المنصور ، ص ٢٨٦ ، تحقيق مراد كامل ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ابن كشير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣١٨ ، محمد بن قاسم النوهرى الاسكندراني ، الاعلام بالأعلام ، ج ٤ ، ص ٩٩ .

كما حدث فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون - الذى اشتهر عهده بكثرة المصادرات - ، وذلك سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م مصادرة الأمير سيف الدين تنكز^(١) ، وقد بلغت جملة المبالغ النقدية التى صودرت منه أكثر من ثمانمائة ألف دينار غير الأملاك والجواهر^(٢) .

ولا أدل على أهمية هذه المصادرات فى كونها مصدراً من مصادر الذهب فى الدولة ما حدث سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م أن عندما صودر الأمير الدين قوصون^(٣) ، فقد أخذت منه مبالغ ضخمة ، وسمح للعامة بنهب ممتلكاته التى

(١) الأمير تنكز بن عبد الله الحسامى الناصرى سيف الدين أبو سعيد ، كان من مماليك الأشرف خليل ، ثم انتقل الى حسام الدين لاجين ، ثم الى الناصر محمد بن قلاوون ، تدرج فى الرتب والمناصب حتى وصل الى نيابة الشام ، واستمر فى نهايتها ثمانية وعشرين عاماً ، كان له جهاد وحروب وإصلاحات عديدة ، قبض عليه الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م لخلاف بينهما ، وسجنه فى الاسكندرية ، واستمر الى أن قتل فى نفس العام ، صودرت أمواله وأملاكه ، وقد خلف ثروة مالية ضخمة .

(ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٥٥ ، ٦٣ ، ابن تغرى بردى ، الدليل الشافى ، ج ١ ، ص ٢٢٨) .

(٢) شمس الدين الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده ، ص ٨٨ ، تحقيق بهيوة شيفر ، دار النشر فرانز شتاينر ، فيسبادن ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٧ م ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٠٦ ، ابن تغرى بردى ، مورد اللطافة فيمن ولي لسلطنة والخلافة ، ص ٦١ ، نشر ، ج . د . كارليل ١٧٩٢ م .

(٣) الأمير قوصون بن عبد الله الناصرى الساقى سيف الدين قدم من بلاد الترك ، فاشتره الملك الناصر محمد بثمانية آلاف درهم ، فجعله ساقياً ثم رقاؤه وجعله أمير عشرة ، ثم أمير مائة ومقدم ألف حتى عظم عنده وأصبح من خواصه ومدهرى دولته ، وبلغ من المنزلة والمكانة أن زوجه انتهت ، حتى اذا مات الناصر محمد بن قلاوون وقع له حوادث ومحن انتهت القبض عليه ، فحسب بسجن الاسكندرية حتى قتل خنقاً أواخر شهر شوال سنة ٧٤٢ هـ . كان كريماً خيراً شجاعاً ، له عدة منشآت ومساجد .

(الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ابن تغرى بردى ، الدليل الشافى ، ج ٢ ، ص ٥٥١ ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٤٦ ، ٤٨) .

كان من بينها كميات كبيرة من الذهب ، ولكثرة ما وقع بأيدي الناس منه انخفض سعره فى أسواق الدولة ، فوصلت قيمة الدينار الواحد أحد عشر درهماً بعد أن كان عشرين درهماً^(١) .

كما حدث سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م أن صودرت أموال الأمير جمال الدين محمود بن على الاستادار^(٢) ، فكانت جملتها - كما تذكر المصادر - من الذهب العين ألف ومائتى ألف دينار ، ومن الفضة ألف ألف وخمسمائة ألف درهم^(٣) .

هذه أمثلة على تلك المصادرات وضخامة الأموال المصادرة^(٤) ، ومع ما يبدو فيها من مبالغة ، فإنها تدل على ما تحصلت عليه الدولة عن طريقها من علامات نقدية من الضرورى استغلالها فى التخفيف من وقع الأزمات التى تعرضت لها ، وسد العجز فى نفقاتها بسبب نقص احتياطياتها من تلك العملات ، أو بسبب نقص امداداتها من المعادن .

ومن المصادر التى تكونت تحت ظروف سياسية ، وما كانت تستولى عليه الدولة من غنائم بعد المعارك والحروب التى تقع مع القوى الأخرى ، ويدخل فيها

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٧٢ - ٧٣ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ٤٥ ، ابن دلقاق ، صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدمر ، الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ، ج ٢ ، ص ١٧٦ ، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، عالم الكتب ، بيروت .

(٢) فضلاً أنظر ترجمته ، ص ١١٨ ، هامش رقم (٢) .

(٣) ابن حجر ، انباء ، ج ١ ، ص ٥٢٢ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ١ ، ص ٤٥٤ .

(٤) تحوى المصادر التاريخية المملوكية أمثلة لا حصر لها عن هذه المصادرات .

الأتاوات ، أو ما تفرضه الدولة على تلك القوى من مبالغ مالية تقوم بتأديتها سنوياً .

وتشير المصادر التاريخية الى أمثلة عديدة لهذه الغنائم وضخامتها ^(١) . وهى بلا شك قد مكنت الدولة من استغلالها مصدراً من مصادرها المعدنية أو النقدية . ومن الأمثلة على هذه الغنائم ما فرضه السلطان الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م على صاحب سبيس (ملكة أرمينية) بعد أن طلب الصلح مع الدولة ، فقرر عليه وزن خمسمائة ألف درهم من الفضة الخام يحملها الى الدولة ^(٢) ، وكان المنصور على علم بشهرة مملكة أرمينية فى إنتاج الفضة ، فرأى تلبية دور الضرب من معدن الفضة بما فرضه عليها من كميات ، كما قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بفرض جزية سنوية عليها مقدارها ألف ألف ومائتا ألف درهم من الفضة ، ويشير ابن بهادر ^(٣) أنه فى سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م قدم رسل الأرمن وهم يحملون القطيعة المفروضة عليهم ، ومن الأمثلة أيضاً ما فرضه السلطان الأشرف برسباى على جزيرة قبرص بعد غزوة لها سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ م من جزية سنوية مقدارها خمسون ألف دينار ذهبية ^(٤) . وكان من بين الغنائم التى استفادتها الدولة من تلك الغزوة الفدية التى قدمها

(١) ابن عبد الظاهر . الروض الزاهر . ص ٣٢٤ . ابن كثير . البداية والنهاية . ج ١٣ . ص ٢٥٢ . الذهبى . المعبر . ج ٣ . ص ٢٥٩ . ابن بهادر . فتوح النصر . ورقة ٢٥٠ . الكتبى . عيون التواريخ . ج ٢٠ . ص ٣٢٠ . تحقيق ف . فيصل السامر . نبيلة عهد المنعم داود . دار الرشيد للنشر . بغداد . ١٩٨١ م .

(٢) ابن عبد الظاهر . تشريف الأيام والعصور . ص ٩٣ .

(٣) فتوح النصر . ورقة ٢٥٠ .

(٤) ابن حجر . انباء . ج ٣ . ص ٣٧٠ . ص ٣٩٧ .

ملك قبرص عن نفسه بعد أسره ، وكان مقدارها ثلاثمائة ألف دوكات ذهبية ^(١) .

ولا شك في أن تلك الأموال التي استولت عليها الدولة أو فرضتها على أعدائها قد أعانتها في تعويض بعض من احتياجات دور الضرب بها من المعادن ، فكانت مصدراً من مصادر الدولة في الحصول على المعادن ، أو النقود أضافته إلى مصادرها الأخرى .

ومن مصادر الدولة في الحصول على جزء من احتياجاتها النقدية ما كان يصل إلى الدولة - ممثلة بسلطانها - من هدايا خارجية من الدول الأخرى ، وداخلية من الأمراء المالكين أطلق عليها مصطلح تقادم ^(٢) ، وتورد المصادر التاريخية ^(٣) أمثلة عديدة لهذه الهدايا التي تضمنت مبالغ نقدية ، أو معادن من الذهب والفضة يتم تحويلها إلى دور الضرب ليتمكن الاستفادة منها في سك العملات النقدية ، أو تودع في خزائن الدولة لتصبح احتياطياً نقدياً يساعدها في تخطي ما قد تتعرض له من أزمات نقدية .

هذه هي المصادر التي أمنت لدولة المالكين متطلبات دور الضرب من المعادن

(١) بيروتافور ، الرحلة ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) التقادم : جمع مقدمة ، وهي الهدية التي تقدم للسلطان بمناسبة من المناسبات كتزويج سلطنة الدولة ، أو قدومه من سفر ، أو زواجه ، أو زواج أحد أبنائه أو بناته ، وغير ذلك من المناسبات الكثيرة التي اشتهرت بها العادات والتقاليد الملوكية .

(٣) ابن بهادر ، فتوح النصر ، ورقة ٢٧٢ ، ابن الفات ، تاريخه ، مج ٩ ، ج ٢ ، ص ٤٥٨ - ٤٥٩ ، المقرئى والسلوك ، ج ١ ، ص ٢٧٣ ، ص ٥٥٧ ، ص ٧٣٥ ، ج ٢ ، ص ٤٤٧ ، ج ٤ ، ص ٧٠٩ ، ص ٧٦٥ ، ابن خلدون ، تاريخه ، ج ٥ الفرات ، ص ٤٤١ ، الصبرفي ، نزهة ، ج ١ ، ص ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ابن أبياس ، بذائع ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٠٣ ، ج ٢ ق ٢ ، ص ٣٧٩ ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

، أو ما أمنتها الدولة فى بعض الأحيان من عُملات نقدية ، ومع وجود تلك المصادر ، فإن الدولة عاشت أزمات اقتصادية فى امداداتها من المعادن ، وقد سبق الحديث عن أسباب انخفاض تلك الامدادات المرتبطة بكل معدن ، أو بالظروف المحيطة به سواء الداخلية أو الخارجية ^(١) ، ولاهد من الحديث عن الإجراءات التى تتخذها الدولة لمواجهة الأزمات النقدية الطارئة التى تتعرض لها بسبب انخفاض أو نقص كميات المعادن ، أو النقود فى الدولة .

* * * * *

قام المالك بإجراءات عدة لمواجهة نقص احتياجاتها من المعادن فى محاولاتها الهادفة الى عدم تعرضها لأزمة نقدية أو اقتصادية ، ويلحظ على تلك الإجراءات أنها كانت حلولاً مؤقتة لمعالجة ذلك النقص ، أو افتقار خزينة الدولة الى العملات ، فنجد أن تلك الإجراءات لم تكن لتنتهى الأزمة على المدى الطويل ، بل إنها تؤجل تفاقم الوضع وتؤخره قليلاً ، وهذا يبين خطأ السياسة التى سار عليها معظم سلاطين دولة المالك خصوصاً فى عهد المالك

(١) كان للسياسة المالية التى سار عليها معظم سلاطين دولة المالك أثرها البعيد فى تأثر ونقص احتياطات الدولة من تلك المعادن أو النقود ، وذلك من خلال سياسة الإسراف والتبذير التى اتبعها أولئك السلاطين ، واشتهروا بها بشكل عام ، وفى كثير من الأحيان لم يكن لهذا الإسراف أو التبذير ما يبرره ، لعدم وجود مصلحة تدعو لذلك . فبم إهدار أموال الدولة فى مجالات لا يكون أثرها إيجابياً على الوضع العام فى الدولة ، وقد تسابق سلاطين المالك فى الإسراف والبهزخ إما على احتفالاتهم وأسمطتهم أو مآذهم التى يقيمونها ، وإما على شراء المالك وتربيتهم ، وجمع أعداد كبيرة منهم ، أو فى تشييد الأبنية والقصور على سبيل التفاخر والتعاهم .

وعموماً فقد أهدر السلاطين على تلك المجالات أموالاً طائلة ، وغالباً ما أصابها الهلاك بأزمات اقتصادية خانقة نتيجة افتقار خزائن الدولة من احتياطياتها النقدية ، وعدم وجود المعادن الكافية التى تتمكن من طريقها من سبك ما تحتاجه من نقود .

الجراكسة الذى شهد مزيداً من النقص ، ومزيداً من الأزمات النقدية التى لم تجد حلاً أساسية لها أدت فى النهاية الى انهيار الدولة وسقوطها .

لقد اختلفت تلك الإجراءات التى اتبعتها الدولة ، من ذلك قيامها بسحب كميات المعدن الذى تحتاجه من الأسواق ، أو تعويض أصحابه بما يتوفر لديها من نقود ^(١) ، فقد حدث سنة ٨١٤ هـ / ١٤١١ م أن قامت الدولة بأخذ موجودات التجار من الفلوس النحاسية عندما نقصت كميات النحاس بدور الضرب ، وعرضتهم عنها بدنانير ذهبية ، وقد حصلت الدولة من وراء ذلك على حوالى خمسمائة قفة ، بكل قفة ستمائة فلس نحاسى ^(٢) ، وفى بعض الأحيان قامت الدولة بشراء النحاس من أسواق الدولة ، سواء كان معدناً خاماً أو مصنّعاً ، ومثل ذلك حدث سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م عندما دعا السلطان المؤيد شيبغ الى اخراج مبلغ مائة ألف دينار ذهبية من خزانة الدولة لشراء النحاس ^(٣) ، وفى أحيان أخرى قامت الدولة بالاستيلاء على ما لدى التجار والحوانيت والمخازن والفنادق ، وغيرها من المنشآت التجارية أو الجهات الحكومية ^(٤) ، وتتبع سياسة متشددة للحصول على المعدن المطلوب ، ومن يخالف أمر الدولة فإنه سيتعرض للعقوبة والتنكيل ، وقد حدث مثل ذلك سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م عندما كانت الدولة تعاني نقصاً فى احتياطياتها النقدية ^(٥) .

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١١٤٥ ، ج ٤ ، ص ٣ ، ص ٤٢٧ ، ص ٤٣٦ ، ابن حجر ، انباء ، ج ٢ ، ص ٤٩٣ ، ج ٣ ، ص ١٤٣ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٤٠٠ ، ج ٣ ، ص ٤٢١ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ج ٤ ، ص ١٨٣ .

(٣) نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٢٧ - ٤٢٨ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

(٤) المقرئى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٩٣ ، ص ٤١٣ ، ص ٤٦٤ ، ج ٤ ، ص ٤٢٧ - ٤٢٨ .

(٥) المقرئى ، المخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٢ ، ص ٢٤٨ .

ومن إجراءات الدولة نظام طرح البضائع لمواجهة متاعبها المالية ، وما تعانيه من نقص فى النقود ، اذ تقوم بالزام التجار بشراء ما تعرضه عليهم من سلع ومتاجر بأثمان تحددها لهم ، وعليهم دفعها مباشرة ، وتحوى المصادر الخاصة بالعصر المملوكى على أمثلة عديدة لمثل هذه السياسة التى اتبعتها دولة المماليك خصوصاً فى عهد المماليك البحرية وفى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالذات . وفى أحيان كثيرة يعمد السلاطين الى احتكار بعض السلع أو المواد الضرورية ، ويقومون بطرحها على التجار بأسعار تفرض عليهم ، فیرغم التاجر على شرائها بتلك الأسعار المقررة ، أو يقوم بكتابة أوراق تثبت ما عليه للدولة عند عدم اكتمال المبلغ المطلوب منه ^(١) .

كما لجأ سلاطين المماليك الى الحصول على النقود من التجار الأجانب عن طريق فرض قدر معين من التوابل التى تبيعها الدولة بواسطة المتجر السلطانى على التجار الأجانب مقابل عملات نقدية ذهبية ، كما فرض عليهم فى بعض الأحيان قدراً معيناً من معدن الفضة يوزد سنوياً الى دور السك بالدولة ، وفى سنة ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م كان مقدار ما يجب أن يقدمه تجار البنادقة الى دار السك أربعمائة درهم سنوياً عن كل تاجر ^(٢) ، ولكى يقوم التجار بهذا المبلغ

(١) فضلاً أنظر اليوسلى : موسى بن محمد بن يحيى ، نزعة الناظر فى سيرة الملك الناصر ، ص ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٥٠ - ١٥١ . تحقيق أحمد حطيط ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م . المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، الصفحات : ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٤٠٨ ، ٤٣٩ ، ٤٦٠ ، إغانة ، ص ٣٨ ، نزعة ، ج ١ ، ص ١٤٣ ، قاسم عهده قاسم ، دراسات ، ص ٦٤ .

(٢) أحمد محمد عدوان ، اوضاع الاقتصادى فى مصر فى عصر الدولة المملوكية الأولى ، ص ٤٤٥ ، رسالة دكتوراه لم تنشر - كلية الآداب - جامعة عين شمس ، رقم ١٣٦٤١ ؛ LABIDUS, I. S. "The Grein Economy of Mamluk Egypt". pp. 1 - 3. JE-SHO. 12. 1969. pp. 1 - 15.

فرضت عليه الدولة غرامة قدرها ثلاث دوكات ذهبية عن كل درهم ينقص من المبلغ المقرر ^(١) .

ومن إجراءات الدولة أيضاً لمعالجة نقص احتياطياتها من العملات والمعادن الثمينة أقدامها على فرض مزيد من الضرائب والمقررات المالية على جهات الدولة ، وتوضيح المصادر الملوكية ^(٢) أمثلة عديدة لاتخاذ مثل هذا الاجراء .

كما كان من إجراءات الدولة للحصول على احتياجاتها النقدية الاقتراض من بعض جهات الدولة كأموال الأوقاف ^(٣) ، وأموال الموارث الخشيرية ^(٤) وغيرها

(١) توفيق اسكندر ، نظام المقايضة ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢) فضلاً أنظر النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ورقة ١٢٠ ، مخطوط بنار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٤٥ ، ص ٦٢٨ - ٦٢٩ ، ص ٦٦٥ ، ص ٦٧١ ، ص ٦٧٩ ، ج ٣ ، ص ١٠٥٣ ، ص ١١٤٥ ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ ، ٣٨٥ ، العبنى ، عقد الجمان ، ج ٢٣ ، ورقة ٤٠١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٣ ، مرعى بن يوسف الكرملى ، نزهة الناظرين فبين ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، ورقة ٢٨ ب ، مخطوط بنار الكتب المصرية رقم ١٠٣٣ تاريخ .

(٣) أموال الأوقاف هى المتحصلات المالية ، أو الإيرادات التى يتم تحصيلها من الأماكن الموقوفة . التى أوقفها أصحابها على جهات البر كالمساجد والمدارس والمستشفيات ، وغيرها من المؤسسات الدينية والتعليمية والصحية ، هذا وقد انتشر نظام الوقف فى عصر المماليك بشكل ملفت للنظر نظراً للأوضاع السياسية والاجتماعية فى الدولة ، فأوقفت أعداداً كبيرة من الدور والخوانيت والبساتين والحمامات والقباسر حتى أصبحت معظم أراضى مصر ودورها وقصورها موقوفة على أوجه مختلفة ، فكانت بناء على ذلك ذات متحصلات ضخمة ركن إليها سلاطين الدولة عندما تتعرضهم أزمة نقدية طارئة .

لمزيد من التفاصيل فضلاً أنظر :

محمد محمد أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، ط الأولى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٠ م .

(٤) الموارث الخشيرية عرفها القلقشندى (ص ٣ ، ج ٢ ، ص ٤٦٠) بقوله :

، أو الاقتراض من أصحاب الأموال والتجار فى الدولة . وبالدات من طائفة التجار الكارمية ذات الشراء الواسع .

وقد أوردت المصادر التاريخية ^(١) الكثير من الأمثلة لاقتراض الدولة من تلك الجهات التى استفادت منها دولة المماليك عند مرورها بضائقة مالية ونقص فى احتياطياتها النقدية .

ومن ضمن الإجراءات التى تتخذها الدولة لمواجهة نقص كميات المعادن قيامها بإصدار أوامرها لمنع ضرب الأوانى المصنعة من المعادن المستخدمة فى سك العملات ، وخصوصاً الفضة والنحاس ، وكثيراً ما اضطرت الدولة الى منع تصنيع تلك المعادن فى أقاليمها ، وتحويل ما يملكه الناس الى دور الضرب لتعويض النقص الحاصل فى العملات ^(٢) . كما يقوم السلطان فى بعض

= « وهى مال من يموت وليس له وارث خاص بقراءة أو نكاح أو ولاء ، أو الهائى بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق جميع المال ولا عاصب له » . كانت تلك الأموال توضع فى (مودع الأيتام) الذى أنشأه السلطان المملوكى حسام الدين لاجين لحفظ أموال الأيتام ، وما يتبقى من الشركات التى يخلفها الأموات . وكانت تلك الأموال من الضخامة بحيث أصبحت هدفاً لمعظم سلاطين المماليك عند الحاجة الى الأموال .
لمزيد من التفاصيل فضلاً أنظر :

(ابن ممتى ، قوانين ، ص ٣١٩ ، المقرئى ، الخطوط ، ج ١ ، ص ١١١ ، السلوك ، ج ١ ص ٨٤٤) .

(١) ابن أبيك الدوادار ، كنز الدرر ، ج ٩ ، الدر الفاخر ، ص ١٤٨ ، الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢١ ، ٣٩ ، ابن الفرات ، تاريخه ، مج ٨ ، ص ١١٨ ، مج ٩ ، ج ١ ، ص ١٦٧ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦١٨ ، ابن حجر ، انباء ، ج ١ ، ص ٣٧٧ ، ص ٤٦٩ - ٤٧٠ ، ص ٤٧٥ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ١ ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ ، ص ٢٧٢ ، ص ٣٨٦ ، صبحى لبيب ، التجارة الكارمية ، وتجارة مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) المقرئى نفسه ، ج ٤ ، ص ٩٧٧ ، الصيرفى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٥٠ ، ابن ايهاس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٧٠ .

الأحيان بتحويل ما فى خزائن الدولة من أدوات يستخدمها السلطان وأمرأه ومالبيكه فى حروبهم وركوبهم ، كالسروج والأرطة والحوائص والكتائبش ، وغيرها من الأدوات المستخدمة فى الفروسية أو عند المعارك ونحو ذلك ^(١) .

وأخيراً فلمعالجة مشكلة أو أمة نقص المعادن فى الدولة ، وبالتالى نقص احتياطياتها من العملات ، فقد اتجهت دولة الماليك لاتباع نظام المقايضة فى معاملاتها المالية الناشئة عن التبادل التجارى ، وذلك عند اشتداد الأزمة الاقتصادية أواخر عصر الماليك فى عهد الماليك الجراكسة ، وبالتحديد أواخر القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى .

ولم يكن اتجاه دولة الماليك الجراكسة لنظام المقايضة بسبب نقص احتياطيات الدولة النقدية فقط ، بل كانت الظروف والعوامل المحيطة مساعداً لهذا التوجه ، والتي كان منها :

- ازدياد حجم التبادل التجارى بين دولة الماليك والقوى التجارية الأخرى .
- نقص كميات الذهب الواردة مع التجار الفرنج لنقص امداداتهم من الشمال الأفريقى مما أدى الى عجز الذهب فى تلبية حاجة المعاملات التجارية المختلفة .
- عدم قدرة الدراهم الفضية التى تصدر عن الجمهوريات الإيطالية القيام بالمهمة النقدية التى كان يقوم بها الذهب بسبب عدم قبولها فى أسواق دولة الماليك .

(١) القرينى ، نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧٢ ، ص ٧٣٥ ، ج ٤ ، ص ٩٧٧ ، ابن اياس .

بدائع ، ج ١ ق ١ ، ص ٥٠٣ .

- بروز ظاهرة القرصنة البحرية فى البحر المتوسط قلل من ورود السفن وتحركها عبر المراكز التجارية .

- ساعدت الأنظمة التجارية المتبعة فى الجمهوريات الإيطالية على اتباع نظام المقايضة فى المعاملات التجارية ، فقد منعت تلك الأنظمة قيام التجار بالاستدانة أو الإقراض أو المشاركة أو الشراء والبيع بالأجل ^(١) .

ومهما كانت الظروف والعوامل التى أدت الى بروز نظام المقايضة ، فإنه عالج مشكلة نقص معادن الدولة واحتياطياتها النقدية المتصلة بالجانب التجارى فقط ، وأدى الى استمرارية حركة التبادل التجارى - وإن لم تكن بنفس السهولة والنشاط التى كانت عليها قبل ذلك - علاوة على ما نتج عن نظام المقايضة من اثار اقتصادية - وبشكل خاص النقدية منها ^(٢) .

تلك كانت هى الإجراءات التى واجهت بها دولة المالك مشكلة نقص المعادن ، واحتياطياتها من العملات النقدية - وكما سبق القول - فقد كانت تلك الإجراءات محاولة من الدولة لعلاج أزمة تنشأ عن نقص المعدن فى دور الضرب ، أو نقص النقود فى بيت المال ، وفى الغالب لم تكن تلك المحاولات علاجاً جذرياً لما تعرضت له الدولة من أزمات ، بل سرعان ما تعود الأزمة بمجرد توقف الدولة عن متابعة العلاج أو أن الأزمة تشتد أكثر بحيث لا تفيد معها ما اتخذته الدولة من اجراءات للقضاء عليها ، ولتزداد أوضاع الدولة سوءاً بعد ذلك

(١) توفيق إسكندر ، نظام المقايضة ، ص ٣٩ - ٤٠ ، فرنان برودل ، من ذهب السودان الى فضة أمريكا ، ص ٨٧ ، عبد الرحمن فهمى ، من فضة الأيبين الى نحاس المالك ، ص ٦١ - ٦٢ ، نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة ، ص ٣٦١ .

(٢) توفيق إسكندر ، نفسه ، ص ٤٣ .

حتى يكون إصلاحها أمر صعب الحدوث فى ظل ظروف الدولة وامكاناتها المتواضعة .

٤- مراحل سك العملة

إن مراحل سك العملة فى دور ضرب النقود لا تختلف باختلاف الدول ، اذ أن الأسس والنظم التى تعمل بها تلك الدور وتسير عليها واحدة لم تتغير ولم تتبدل ، وإن حدث ذلك فليس بالتغير الجذرى الذى ينظر اليه ، أو يؤخذ فى الحسبان ، ويكفى أن نعلم أن الجوانب الكيميائية فى تصنيع العملات قد أتبعها الشرقيون والغربيون على حد سواء دون أى تغيير حتى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى ، منتصف القرن السادس عشر الميلادى ^(١) .

والملاحظ عند الحديث عن دور الضرب من الناحيتين الفنية والادارية فى الفترة موضوع الدراسة الافتقار الى المصادر التاريخية المتخصصة التى تتحدث عن أهمية دار الضرب ومهامها ، وما يرتبط بها من جوانب فنية وادارية ، حتى المصادر العامة ، وهى كثيرة ومتخصصة فى التاريخ المملوكى لم تتطرق الى هذا الجانب ، ولهذا يجد الباحثون مشقة فى احتواء وجمع المادة العلمية اللازمة ، بل مما يزيد الموضوع صعوبة ورود معلومات مقتضية لا تفى ولا تشبع نهم الباحث ، إضافة الى تباينها وتنشئتها بمختلف المصادر والمراجع ، علماً أن موضوع صناعة النقود وسكها من الموضوعات الجديدة والجديرة بالبحث حيث لم تحز على اهتمام الباحثين والمتخصصين حتى أولئك الذين كتبوا

(١) عبد الرحمن فهمى ، مقدمة كتاب كشف الأسرار العلمية ، ص ١٥ .

عن النقود ^(١) اذ أهملوا الحديث عن دور الضرب ، وما يتصل بها من نواح فنية وإدارية .

ولكن مما يعرض عن هذا الافتقار وجود مصدرين تار يخيين يمكن الاعتماد عليهما فى هذا الجانب ، ألف أحدهما فى الفترة السابقة لعهد دولة المماليك ، والآخر فى نفس الفترة ، ولكن فى دولة أخرى ، فالأول كتاب (كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية) ومؤلفه منصور بن بكرة الذهبى الكاملى المعاصر للملك الكامل الأيوبى جمادى الثانية ٦١٥ هـ - رجب ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٨ م) ، وهو معلم وأستاذ فى صناعة النقود ، وأحد المشتغلين بدار الضرب فى الدولة الأيوبية فى الفترة المشار إليها .

أما المصدر الثانى فهو كتاب (الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة) لأبى الحسن على بن يوسف الحكيم الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى ، والمعاصر للسلطان أبى عنان فارس المتوكل بن أبى الحسن على المرنى (٧٤٩ - ٧٥٩ هـ / ١٣٦٥ - ١٣٧٥ م) .

وهذان المؤلفان وإن لم يكتبيا فى الدولة المملوكية فإن صناعة سك النقود ، ونظم دور الضرب - كما ذكر سابقاً - لا تختلف باختلاف الدول والعصور ، وإن اختلفت فى بعض الجزئيات ، فلا يؤثر ذلك فى أهمية المعلومات وقيمتها العلمية ، حيث اشتملت على ما يتصل بدار سك النقود وصناعتها ، وأبرزت الجوانب الفنية المتعلقة بتهيئة المعادن ، والخطوات التى ترقبها النقود أو العملات حتى تكون جاهزة للتداول ، كما شملت تلك النظم النواحي الادارية

(١) تلجبر المكتبة العربية لهذا النوع من الدراسات حتى فى معظم المؤلفات التى تحدثت عن النقود ، كالتى ألفها البلاذرى ، وابن الرقعة ، والقليشندى ، والمقرئى ، والناوى ، وغيرهم .

بدار الضرب والعاملين بها سواء منهم الفنيون أو غيرهم .

ويجدر التنويه بكتاب ابن بكرة الذهبى الذى يتحدث عن أوضاع دار الضرب المصرية فى العهد الأيوبي ، وقد ورث الماليك دولتهم ونظمهم المختلفة ، ومنها النظم المتعلقة بدار الضرب ^(١) ، كما أن مؤلفه من عمل بدار الضرب ، ومن أقرب الناس اليها ، حيث اطلع على مختلف أوجه النشاط فيها ، والوظائف المتعلقة بها مما يعطى المعلومات التى أوردها الثقة والأهمية فى إبراز كافة الجوانب المتصلة بدار الضرب .

وبجانب هذين المصدرين استفدت من عدد من المصادر والمراجع التاريخية لاستكمال جوانب النقص التى تتطلبها بعض جزئيات هذا الفصل من معلومات ، وإن كانت قليلة ومتناثرة فإنها ضرورية وهامة تدعو الى الاهتمام بها وإبرازها .

فمن خلال المعلومات التى يقدمها المصدران المذكوران بصفة خاصة ، وغيرهما من المصادر والمراجع بصفة عامة عن صناعة السكة يتبين لنا أن ضرب العملات يمر بعدد من الخطوات أو المراحل التى تجعلها صالحة للتداول ، مقبولة ومستوفية للشروط التى يجب أن تتوفر فى كل عملة رسمية قبل تداولها فى الأسواق ، وجعلها الوسيط الرسمى فى العمليات التجارية والمالية وغيرها ، وأهم هذه الشروط نقاء المعدن الذى تسك منه العملة ، وخلوصه من أية شوائب ، وصحة عيار العملة ، وجوازها للسك ، وكذلك ختم هذه العملات

(١) يقول المقرئى (النقود ، ص ٦٠) :

« فلما انقرضوا - الأيوبيين - وقامت دولة الأتراك من بعدهم أبقوا سائر شعارهم ، واقتدوا بهم فى جميع أحوالهم ، وأقروا تقدمهم على حاله » .

بالسكة الرسمية للدولة بما تحمله من عبارات ونقوش ونحو ذلك ، وفيما يلى
نلقى مزيداً من الضوء على هذه الخطوات التى كانت تمر بها صناعة العملة فى
الدولة المملوكية .

أولاً: تصفية المعادن وتنقيتها

المعروف أن المعادن التى كانت مستخدمة فى سك العملات هى الذهب
والفضة والنحاس ، وعادة ما تكون هذه المعادن مختلطة بمعادن أو شوائب
أخرى ، فعند وصولها الى دور الضرب يقوم فريق من العاملين باستخلاص هذه
المعادن وتنقيتها ، وبالتالي ضبط عيار السبائك المقرر ختمها بالسكة الرسمية
للدولة .

لقد اتبعت عدة طرق ^(١) لإجراء عملية استخلاص المعدن الواحد ، وكان من
أهم هذه الطرق طريقة التجفين أو الطريقة الجافة ^(٢) والتى عبر عنها ابن بعرة
بـ (التعليق) ^(٣) ، وهى صهر الذهب المخلوط بالفضة وغيرها من المعادن عدة
مرات ، وملخص ما ذكره ابن بعرة عن ذلك ، هو أن يؤتى بالخليط المؤلف من
الذهب والمعادن الأخرى ويوضع فى أقداح ، ثم توضع الأقداح داخل الأتون ^(٤) ،

(١) أورد على بن يوسف الحكيم فى كتابه (الدوحة المشتبكة ، ص ٩٥) ، ما كان متبعاً
فى دار الضرب المرينية من طرق ، وأشار الى وجود طريقتين متبعتين : هما استعمال الأحجار
، واستعمال الأمزاج - المركبات الكيميائية - لاحتاد عملية الفصل .

(٢) عبد الرحمن فهمى ، مقدمة كتاب كشف الأسرار العلمية ، ص ١٧ .

(٣) كشف الأسرار العلمية ، ص ٥٢ - ٥٣ .

(٤) الأتون : بنا - صغير مربع الشكل داخله دائرى الشكل على هيئة إناء - بنى بالطين والملح
، ودخله ناعم الملمس ، وهو أكثر شبهاً بالفرن ، وفى أعلى هذا البناء اسطوانة دائرية صنعت
من الفخار .

لزيد من التفصيل فضلاً أنظر ابن بعرة ، المصدر السابق ، ص ٦٤ - ٦٥ .

ويوقد عليه النار ليوم كامل ، ثم تخرج الأقداح ليتم تصفية الذهب المنفصل عن المعادن الأخرى عن طريق الغريلة ، ثم يؤخذ ما يتبقى من الخليط ، ويوقد عليه مرة أخرى ليوم كامل ، ثم يصفى الذهب ، وهكذا حتى يصبح الذهب نقياً صافياً خالياً من الشوائب ^(١) . ويتم الكشف أو اختبار مقدار النقاء في ذلك الذهب بوزنه ، ثم بمقارنة نقائه بنقاء ذهب سبيكة أخرى معروفة العيار عن طريق محك خاص ^(٢) .

ثم تأتي الخطوة الثانية لتحرير الذهب وتحديد عياره ليصبح الذهب أو المعدن جائزاً للسبك ، بعمل خليط من الذهب الذي جرى تنقيته على هيئة قطع صغيرة بوزن معين ، مع جزء من الطوب الأحمر الهش الناعم ، ونصف وزن الطوب ملح ، ويضاف إليه قليل من الماء . يوضع هذا الخليط في قذح فخار أحمر مختوم وسط الأتون ، وتوقد النار من حوله لمدة يوم ، ثم يفتح الأتون ، ويترك ختم القذح ، ويغريل ما فيه ويوزن الذهب لمعرفة ما نقص منه ، ويتم مطابقته مع الذهب الجائز ، فإن ماثله لوناً والا أعيد الذهب إلى التعليق مرة أخرى حتى يجوز ، ويكون عياره مضبوطاً :

ويذكر ابن عاتى ^(٣) طريقة مشابهة لطريقة ضبط عيار الذهب وهي كما

(١) طريقة التجفين هي التي يتم بها التأكد من عيار الذهب وجوازه للسك ، ويتم اتباعها حديثاً ، بأن يؤخذ مقدار نصف جرام من الذهب المصفى ، ويضاف إليه ستة جرامات من الرصاص ، ونصف جرام من الفضة ، وتوضع في فرن خاص لامتصاص المواد القوية . فيبقى الذهب والفضة ، ثم يتم فصل الفضة عن الذهب بواسطة حامض الأزوتيك ليجبى الذهب النقي وبوزنه يمكن معرفة نسبة عيار الذهب .

عبد الرحمن فهمي ، مقدمة كتاب كشف الأسرار ، ص ١٧ ، هامش (٣) .

(٢) نفسه ، ص ١٨ .

(٣) قوانين الدواوين ، ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

قال :

« أن يسبك ما يحمل اليها - الى دار الضرب - من الذهب المختلف حتى يصير مائاً واحداً جارياً ، ويقلب قضباناً ، وتقطع من أطرافها بمباشرة النايب في الحكم ما يحرق عليه الوزن ، ويصير سبيكة واحدة ، ثم يؤخذ من جملتها أربعة مثاقيل ، ويضاف اليها من الذهب الحار المسبوك بدار الضرب أربعة مثاقيل ، ويعمل كل منها أربع ورقات (قطع) ، وتجمع الثمان ورقات في قده فخار بعد تحريروا وزنها ، ويوقد عليها الأتون ليلة ، ثم تخرج الأوراق (القطع) وتوسع ، ويعبر الفرع على الأصل ، فإن تساوى الوزن وأجازه النايب في الحكم ضرب دنانير ، وإن نقص أعيد الى أن يتساوى ويصح بالتعليق » .

أما عن الفضة فيورد ابن بهرة صفة استخلاص الفضة من الذهب ^(١) ، كذلك تصفية الفضة من الرصاص ، استخلاصها ما يخالطها من المعادن والشوائب ^(٢) .

وجميع الطرق المستخدمة في ذلك لا تختلف كثيراً عن طريقة التعليق الآتية الذكر ، فهي المتبعة في عملية فصل المعادن عن بعضها ، وبشكل عام كانت هذه الطريقة تعتمد على عملية الصهر التي يتم من خلالها فصل المعادن عن بعضها وفق درجة حرارة معينة ، اذ المعروف أن لكل معدن من المعادن درجة حرارة ينصهر معها ذلك المعدن ، فالفضة تنصهر في درجة حرارة أقل من درجة انصهار الذهب وهكذا .

وهناك عمليات كيميائية أخرى تستخدم في عملية فصل المعادن وتنقيتها ،

(١) كشف الأسرار ، ص ٥٧ .

(٢) نفسه ، ص ٧٣ - ٧٤ .

فيذكر ابن يوسف ^(١) أن هناك طريقتين لاتمام عملية الفصل ، الأولى بالأحجار حيث يؤخذ الذهب المزوج بالفضة ، فيرقق حتى يكون على هيئة صفائح رقيقة ، وتفرش له فرشاة من رقائق الأجر وحجر الجير ، ثم يضاف الى هذا المخلوط نفس مقداره من الملح ، ويوقد عليه في فرن (الأتون) ، فتصير الفضة في جوف ذلك التراب ، وتبقى الصفائح ذهباً خالصاً ، أما الفضة فيتم فصلها بإضافة الزئبق اليها في طريقة أطلق عليها (الطريقة الملقمة) ، وتكون نتيجتها استخلاص الفضة من الشوائب العالقة بها ^(٢) .

أما الطريقة الثانية فهي مزج مواد أخرى الى مخلوط الذهب والفضة ، وعادة ما يتم إضافة مادة النحاس والكبريت الى هذا الخليط ، لينتج بعد التفاعل الكيميائي بين هذه المواد فصل النحاس والفضة كل على حدة ، مع اختلاطهما بالكبريتات المضافة ، أما الذهب فينفصل دون امتزاجه بأية مواد أخرى .

هذا ويضيف على بن يوسف في كتابه ، العديد من الخطوات التي يتم خلالها فصل المعادن التي تحتاجها دور الضرب مما يشوبها من أخلاط وشوائب ، فيذكر فصل الفضة عن الرصاص ، وفصل الفضة عن النحاس ^(٣) ، وفصل الفضة عن الشوائب الأخرى التي تعلق بها ^(٤) ، وكذلك فصل الذهب عن الرصاص ^(٥) .

(١) الدوحة المشتبكة ، ص ٩٥ .

(٢) عرفت هذه الطريقة أيضاً في مصر ، وقد ذكرها منصور بن بكرة في كتابه كشف الأسرار ، وذلك عند حديثه عن استخلاص الفضة مما يعلق بها من شوائب ، ص ٥٧ .

(٣) الدوحة المشتبكة ، ص ٩٤ .

(٤) نفسه ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٥) نفسه ، ص ٩٥ .

إن مرحلة تصفية المعادن وتنقيتها من المراحل الهامة التى تحتاج الى دراية من يقوم بها ، اذ يعتمد على هذه المرحلة فى مدى درجة نقاوة المعدن وصفائه .
وهذا من الأمور الهامة التى تؤثر فى وضع العملة والوضع النقدى للدولة .
وبشكل خاص فى قوة مركزها الاقتصادى .

وقد لاحظ على بن يوسف هذه الأهمية لمرحلة تصفية المعادن فى صناعة العملات وأهمية المشتغلين فيها حيث قال ^(١) :

«ولیکن المشتغل بهذه الوجوه صاحب حذاق ومهارة بها ومعرفة وتجربة ، وليباشر ذلك بالمعاينة لما يعمل فيه ، فإن غيرها من الأشغال قد يسترد الفلظ فيها الا هذا ، فإنه إن غلط فى تشجير الذهب - تصفيته - وأنزله من فرن الطبخ ، الأتون - ، وهو ناقص العيار جاء عليه فى إعادته - إعادة تصفية الذهب بواسطة الصهر - خسارة ونقص ، فإن غفل عنه وتناهى فى التشجير فوق حده كان فيه النقص الكثير ، وكذلك تخليص الفضة اذا أسيلت ، إن لم يكن متولى النظر فيها عارفاً بأحوالها ومميزاً بين صفاتها ، وهو غفل ما يعلم أنها قد أخذت حقها من السبك ، فينزلها على الفور والا كان فيها النقص كثير» .

ثانياً: اختبار المعادن وضبط عيارها

بعد مرحلة تصفية المعادن وتنقيتها ، يتم قياس المعادن المستخدمة فى سك العملات لاختبار أنقى هذه المعادن وأصفاها ، ليعم بعد ذلك ضبط عيارها ثم سبكها . وينبه على بن يوسف الى ضرورة نقاء وصفاء المعدن المراد سبكه حيث يقول ^(٢) :

(١) الدوحة المشبكة ، ص ٩٦ - ٩٧ .

(٢) الدوحة المشبكة ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

« فليختبره الناهر ، فإن كان على وجه السبيكة قموح لا تكريش فيه وعروسها - لونها - أحمر ناصعاً لا دهومة - سواد - فيه ، فلينقر بها على زبرة حديد تكون بين يديه ، فإن كانت صماء فذلك من جدتها ، والصوت دليل تنجيسها ، ثم تعبر بالميلق - حجر أسود - وهو أن تحك فيه حكاً محكماً إلى أن يطلع لونها فيه طلوعاً بيئاً » .

أما عن الفضة وأهمية نقائها وصفاتها فيقول (١) :

« وتختبر بأن يكون وجهها صافياً كالمرآة لا تكريش فيه ، - الخشونة - ، وأسفلها مخسفاً أى مثقباً ثقباً نقيّة وضيفة ر وبهذا الاختبار تختبر النقود كلها » .

وبينه أيضاً منصور بن بكرة على أهمية هذا الاختبار في معرفة نقاء المعدن وصفاته فيقول (٢) :

« فإذا وقع لك ذهب مجهول تحكه على جانب العيارات .. ، فيظهر لك من لونه ولون شبهه من العيارات مبلغ قيمته إلى الوضع الصحيح المحرر بعد الحمى ، فإنه ربما كان في جسمه نحاس ، فيكون لونه على المحك أحمر غال ، وهو ناقص العيار ، وهو إذا حمى تغير لونه ، وركبه سواد ، وغيره على قدر ما فيه من نحاس من الكثرة والقلة فأفهم ذلك ، وأعمل عليه تصب إن شاء الله تعالى » ، واختبار المعادن ما هو إلا لضبط عيار السبيكة المراد سكها ، فالعيار هو النسبة القانونية بين وزن المعدن الموجود في السبيكة ووزنها الكلى ، ويحدد

(١) الدوحة المشتبكة ، ص ١٢٢

(٢) كشف الأسرار ، ص ٦٣

هذا العيار بالنسبة للعدد ألف أو العدد أربعة وعشرين الذى يمثل الوزن الكلى ^(١) ، ولأهمية ضبط عيار السبيكة يقوم الناظر بمراقبة ذلك ، والإشراف عليه ، والنظر فى دقة وزن السبيكة ، فمتى ما كان وزنها أو عيارها جائزاً للضرب دفعت فى المرحلة النهائية الى السكاكين تحتها بالسكة ، وإن نقص العيار أو الوزن أعيدت لضبطها مرة أخرى .

هذا لضبط عيار السبيكة المعدنية استخدم العديد من الطرق لاتمام ذلك ، وقد ذكر كل من منصور بن بكرة ^(٢) ، وعلى بن يوسف ^(٣) عدة طرق الغرض منها ضبط عيار السبيكة ، واعتمادها ليتم ختمها بالختم الرسمى .

ومهما تعددت طرق تحديد عيار السبيكة المراد سكتها ، وتشابهت فى المعادن المستخدمة فإن عملية عيار السبائك لم تكن أمراً تقديرياً بل كان تحديد العيار يعتمد الى حد كبير على عملية الوزن التى تبقى خاتمة المطاف فى عملية ضبط العيار . ويستخدم لذلك ميزان حساس ^(٤) يتم بموجبه الوزن المطلوب ذهباً كان أم فضة .

وقد لخص ابن مائى ^(٥) الطرق التى يتم بها ضبط عيار السكة ، ونبه الى

(١) محمد أمين صالح . التنظيمات الحكومية لتجارة مصر فى عصر المماليك الجراكسة .

ص ١٨٧ . رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب جامعة عين شمس ، رقم ١٧١٢٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٤ ، ص ٦٩ .

(٣) الدوحة المشتبكة ، ص ٤٢ .. ٤٣ ، ص ٥٩ ، ص ٦٩ .

(٤) فضلاً أنظر وصفاً مفصلاً عن الميزان المستخدم لهذا الغرض فى كتاب الدوحة المشتبكة ص ٦١ .

(٥) قوانين الدواوين ، ص ٣٣١ - ٣٣٢ . وقد نقل القلقشندى ، (صحيح) ، ج ٣ ، ص

(٤٦١) ما أورده ابن مائى عن طريقة ضبط العيار .

أهمية الوزن واعتماده فى تحديد عيار السبيكة .

ويمكن تلخيص مرحلة ضبط عيار السبائك الذهبية وإجازتها بما يلى :

- ١ - يصهر ما يجتمع لدى دار الضرب من الذهب ، ويصب على هيئة قضبان .
- ٢ - تقطع أطراف هذه القضبان لتكون عينات ، وتصهر من جديد ليؤخذ منها ما زنته أربعة مثاقيل .

٣ - يؤخذ من الذهب صحيح العيار الموجود لدى دار الضرب ما زنته أربعة مثاقيل عينة تقاس بها المثاقيل الأربعة السابقة ، والمأخوذة من الذهب الواصل حديثاً الى دار الضرب ، وتوضع المثاقيل الثمانية فى الفرن (الأتون) .

٤ - تقاس المثاقيل الحديثة فإن تساوت مع القديمة دل ذلك على تشابه الذهبين ، وأن عيارها متساو ، وجائز ليسك ويختم بالسكة .

أما عن السبائك الفضية ، فتختلف طريقة عيارها اختلافاً بسيطاً على النحو التالى :

- ١ - يؤخذ من الفضة ما مقداره ثلاثمائة درهم ، يضاف إليها ما مقداره سبعمائة درهم من النحاس ، ويصهر الخليط حتى يصبح مائلاً واحداً .
- ٢ - يصب الخليط بعد الصهر على هيئة قضبان تقطع من أطرافها قطعاً مماثلة للدراهم التى تقوم بضربها دور الضرب .

٣ - تؤخذ هذه القطع على مجموعات ، كل مجموعة عددها خمسة عشر درهماً ، وتصهر مرة أخرى ، فإن خلص من كل مجموعة ما مقداره أربعة

دراهم ونصف حساباً عن كل عشرة دراهم ، والا أعيد إلى أن يضبط عيارها .

ونلاحظ مراعاة زيادة نسبة تلك القطع وزناً ، أى أن كل قطعة تزن أكثر من درهم ، فالتضيق الذى وزنه عشرون درهماً يقطع خمس عشرة قطعة لمراعاة نسبة الزيادة ، وهذه يتم استخلاص أربعة دراهم ونصف منها ^(١) ، وعلى هذا الأساس يتم ضبط عيار الدراهم الفضية ثم بعد ذلك تختتم بالسكة الرسمية ^(٢) .

ثالثاً: إعداد السبائك للتختيم

لا تمثنا المصادر التى بين أيدينا بمعلومات وافية ومتكاملة عن الطريقة التى كانت متبعة فى إعداد السبائك المعدنية ، ومجهيزها لتختم بالسكة الرسمية للدولة ، ولكن مما يعرض النقص فى هذا الجانب تلك الدراسة التى قام بها الدكتور عبد الرحمن فهمى محمد ، والتى استقاها من السكة نفسها ، حيث استكمل من دراسته لها جوانب النقص فى المعلومات الخاصة بطريقة إعداد السبائك المعدنية ، فيذكر الدكتور فهمى ^(٣) إن إعداد السبيكة المراد ختمها بخاتم لم يخرج عن وسيلتين هما :

الأولى : السبائك المطروقة ، وذلك بأن تكون السبيكة مقصوصة من القضبان المطروقة طرقات جيداً ، وهى مستديرة الشكل ، ثم تختتم بواسطة قالب الختم على وجهيها .

(١) ابن بكرة ، كشف الأسرار ، ص ٧٥ ، ابن عاتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٣٣ .

(٢) طاهر راجب حسين ، دار السكة ، ص ٣١٨ .

(٣) فضلاً أنظر مقدمة كتاب كشف الأسرار العلمية ، ص ٢١ ، وما بعدها .

الثانية : السبائك المصبوبة ، وذلك بوضع قالب أصلى للسبيكة بكون أنموذجاً (أماماً) للسبائك الأخرى ، فيؤتى بمعدن السبيكة منصهرة نقياً جائز العيار ، فيصب فى ذلك القالب ، فيأخذ شكله بما فيه من كتابات ونقوش على أحد وجهيه ، ثم يختم وجهه الآخر بقالب الختم المخصص لذلك .

والوسيلة الأولى وهى السبائك المطروقة : تتم بصهر المعدن بعد إجراء عمليات التصفية وضبط العيار ، ويشكل على هيئة قضبان طويلة اسطوانية ، وتطرق طرقتاً جيداً لتأخذ الشكل الدائرى ليسهل تقطيع القضيب الى قطع دائرية صغيرة ، ويؤيد هذه الطريقة فى إعداد السبائك المعدنية النص الذى أورده ابن ممتى ^(١) ، ونقله عنه القلقشندى ^(٢) كما ان سهولة هذه الطريقة وملائمتها مع سمك السبيكة واستدارتها بشكل متتابع مدعاة لاستخدامها فى إعداد السبائك ^(٣) .

ويشير الدكتور فهمى الى أن مصلحة السكة المصرية لازالت تستخدم هذه الطريقة فى إعداد السبائك المعدنية حتى وقتنا الحاضر ^(٤) .

أما السبائك المصبوبة فهى بلا شك طريقة أسهل ، وأقل تكلفة وجهداً ، فاهم ما فيها هو القالب الأصلى الذى يتخذ أنموذجاً للسبائك الأخرى ، كما أن هذه

(١) قوانين الدواوين ، ص ٣٣١ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦١ .

(٣) يؤخذ على هذه الطريقة حاجة القضبان الى التسخين من وقت لآخر لتعود اليها ليونتها ، فيسهل طرقها وتقطيعها حسب السمك المطلوب ، والاستدارة المطلوبة ، وكل هذا يحتاج الى مزيد من الوقت والجهد .

(٤) مقدمة كتاب كشف الأسرار العلمية ، ص ٢١ ، هامش (٢)

الطريقة تمتاز بسرعة الأداء مما ينتج عنه إصدار أكبر عدد ممكن من تلك السبائك .

ويذكر أحد الباحثين ^(١) أنه في العصر المملوكي استخدمت الطريقتان معاً في إعداد السبائك المعدنية ، ولكنهم استخدموا بكثرة طريقة السبائك المطروقة ، وبذل على ذلك كثرة القطع النقدية التي عثر عليها ، واستخدمت هذه الطريقة في أعدادها .

(ابعاً:قوالب السك(الاختام)

المقصود بقوالب السك ، الأختام أو السكة التي تختتم بها المسكوكات ، أو العملات المعدنية ، لابرار ما كتب على تلك القوالب أو الأختام من كتابات مركزية وهامشية ، وما يتصل بالناحية الفنية من نقوش وما شابه ذلك .

لقد كان تصنيع تلك القوالب على نوعين :

القوالب المحفورة : بأن يحفر بها الرسم ، أو التصميم المطلوب لكل من وجهي العملة المراد سكها معكوساً ، ويكون الحفر الخاص بكل من وجهي العملة على الشكل المحدد لذلك الوجه ، ويعمق معين ، بحيث تكون الأجزاء البارزة في العملة من الكتابات ونحوها مجوفة وغائرة في كل وجه من وجهي القالب ، ويقوم بهذه المهمة عمال مهرة يملكون من الدقة والمهارة ما يؤهلهم لانعام عملية الحفر على أكمل وجه وأدق .

هذا وقد جرت العادة على تصنيع تلك القوالب من الحديد أو البرونز ، وهما

(١) رأفت النبراوى ، مسكوكات المماليك الجراكسة ، ص ٦ - ٧ ، ص ٢٢٢ ، ص ٢٢٥ ، ص ٢٢٨ .

من المعادن الصلبة التى تتحمل الضغط والاحتق والطرى ، وإن حدث تلف لهذه القوالب لكثرة استعمالها ، وطول مدة ذلك ، فإنه يتم تغييرها كلما تلفت ، أو تلف بعض أجزائها بسبب الضغط أو الضرب على المسكوكات ، ولكن يؤخذ على هذه القوالب أنها وسيلة بطيئة ، كما أن السك بها يحتاج الى نسخ كثيرة منها تناسب مع إنتاج دور السك من العملات فهى لا تقاوم الضرب المستمر لمدة طويلة دون أن تتعرض للتشقق أو النحت والتآكل ، بشكل لا تظهر معه النقوش والكتابات التى يحملها القالب ^(١) .

وللقضاء على تلك السلبيات تم تصنيع قوالب من معدن الرصاص (القوالب المصبوبة) ، فاستخدم قالب محفور من الرصاص لكونه من المعادن المرنة واللينة ، ومن السهولة الحفر عليه ، وتشكيله حسب الحاجة ، حتى وإن حدث أى خطأ فى عملية الحفر أو التشكيل ، فمن السهولة إعادة صهره مرة أخرى ، وبالتالي إجراء عملية الحفر أو النقش المطلوب .

وفى الغالب يعمل قالب أصلى من معدن الرصاص ، ليكون نموذجاً لتلك القوالب المصنوعة من معدنى الحديد والبرونز (المحفورة) ، ليمكن إنتاج عدد كبير منها نظراً للحاجة الى ذلك ، فيسهل استبدالها أو تغييرها عند تلفها ، أو تلف بعض أجزائها لتواكب حاجة الدولة فى إنتاج أعداد كثيرة من العملات المعدنية .

هذا ويصف أحد الباحثين المحدثين ^(٢) قالباً لضرب الدراهم الفضية خاصاً

(١) عبد الرحمن فهمى ، فجر السكة ، ص ٢٠٩ .

(٢) سامح عبد الرحمن فهمى ، قالب لضرب الدراهم ، إضافة جديدة فى سكة الظاهر بهيوس ، ص ٢٣٧ ، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى ، العدد الخامس ، ١٤٠١ هـ مكة المكرمة ، ص ٢٣٥ ، ٢٤٤ .

بالسلطان الظاهر بيبرس ، ومنه يتبين لنا أن القالب يتكون من جزئين :

أحدهما : يمثل وجه الدرهم - أو أى قطعة نقد أخرى كالدينار أو الفلس .

والثانى : يمثل ظهر الدرهم ، ويحوى الكتابات والنقوش المراد طبعها أو ختمها .

الوجه عبارة عن اسطوانة من البرونز قطرها ٣٠ مم ، وارتفاعها ٣٩ مم ، وتضيق هذه الاسطوانة عند وسطها الى الداخل ليسهل قبضها وتثبيتها بقاعدة ثابتة تمثل الجزء الثابت من قالب الضرب ، والظهر أيضاً اسطوانى الشكل قطره ٣٠ مم وارتفاعه ٢٤ مم ، ويضيق أيضاً من وسطه الى الداخل للفرض السابق .

والواضح أن اسطوانة الوجه أكثر ارتفاعاً من اسطوانة الظهر بحوالى ١٥ مم . وذلك تمييزاً للوجه عن الظهر ، لمن يقوم بعملية الطبع أو الحتم ، كما أن هذا الارتفاع يقلل من حركة القالب ويثبته أكثر على القاعدة التى لا تتحرك أثناء الضرب .

وبتلك القوالب يتم الحتم على السبائك المعدنية المراد إصدارها نقوداً ، وتختتم من الوجهين لتحمل الشبكة بوجهيها تلك العبارات والنقوش التى تدل على شرعيتها ورسميتها ، فتأخذ طريقها للتداول والتبادل النقدى فى الأسواق (١)

هذا وقبل أن أختتم حديثى عن الطرق الفنية لصناعة العملات أشير الى ما أوضحه منصور بن بكرة (٢) من ضرورة جلاء السبائك المعدنية سواء كانت دنانير

(١) حلى بن يوسف ، الدوحة المشتبكة ، ص ٧٣ وما بعدها ، طاهر واغب حسين ، دار السكة ، ص ٣١٨ .

(٢) كشف الأسرار ، ص ٧٠ ، ص ٧٦ .

ذهبية أم دراهم فضية وذلك بإحمانها على النار بإضافة كمية من الملح والماء النقى ، فإذا ذاب الملح أخرجت السبائك (القطع المعدنية) ، وغسلت بالماء البارد ، وقليل من الليمون والرمل الناعم لتأخذ لونها الطبيعى .

هذا ما يتصل بدار الضرب فى العصر المملوكى من حيث أهميتها ومراكزها ، وإنتاجيتها ، ونواحيها الفنية والإدارية ، وما يتصل بذلك من أمور ، بالإضافة الى ما تستخدمه تلك الدور من معادن وجهات إنتاجها ، وطرق استفادة الدولة من تلك الجهات .

ومن جميع ما سبق يتبين لنا ما الدور ضرب العملة من أهمية كبيرة على مستوى الدولة والأفراد ، ومقدار اسهامها فى تحقيق الأهداف الاقتصادية للدولة ومواطنيها .

الفصل الثاني

النقود المملوكية

أنواعها ، أوزانها ، وعياراتها ، إصداراتها

١ - أنواعها:

أ - النقود المعدنية (الدنانير الذهبية ، الدراهم الفضية ، الفلوس النحاسية) .

ب - النقود الحسائية (الدينار الجيشى ، الدينار الأسطولى ، الدراهم السوداء ، الدراهم الفلوس) .

٢ - أوزان وعيارات النقود المملوكية .

٣ - الإصدارات النقدية المملوكية .

أ - عوامل ضرب العملة فى دولة المماليك .

ب - النقود المتداولة فى بداية عهد الدولة .

ج - مسح تاريخى لضرب العملة المملوكية .

د - المجالات التى استخدمت فيها العملات المملوكية .

لقد تحدثت فى الفصل السابق عن دور الضرب ، والمراحل الفنية التى تمر بها النقود حتى تكون جاهزة للتداول .

وفى هذا الفصل أتحدث عن أنواع تلك النقود وأوزانها وعياراتها ، والإصدارات المملوكية منها ، وما مرت به تلك النقود من أوضاع وظروف .

إن الحديث فى النقود المملوكية (الذهبية والفضة والنحاسية) لا يختلف كثيراً عن الحديث فى النقود الإسلامية من حيث نوعيتها ، فقد كثر الحديث عن الدينار والدرهم ، ووزنهما وعياريهما فى العديد من المصادر التاريخية ، والمصادر المتصلة بالنواحى الفقهية ، أو بالنظم الإسلامية ، إضافة الى الدراسات والبحوث التى تعرضت للدينار والدرهم من خلال الموضوعات الفقهية أو الاقتصادية والحضارية .

لذا فمن الواجب عدم تكرار ما ذكرته المصادر والمراجع عن النقود بأنواعها ، وسأكتفى بالإيجاز ، وإيراد ما عساه يكون مكملاً للمعلومات التى تم جمعها عن النقود المملوكية .

لقد تعرضت النقود فى تاريخها لمراحل تطورية متعددة كان الهدف الأساسى منها تسهيل إجراءات استخدامها لخدمة التنمية الاقتصادية فى الدولة ، ولازالت حتى الآن تتطور بتطور النظم الاقتصادية ، وما يتم خلالها من معاملات مالية مختلفة ، ومن أمثلة هذا التطور أن كل دولة من الدول اتخذت لها وحدة نقدية تجعلها أساساً لتقوم الأشياء والجهود وتقاس بها ، وتقوم الدولة بسك هذه الوحدة على شكل معين وطراز خاص بها بوزن وعيار محددين ثابتين ، وقد درجت الدول على جعل هذه الوحدة القياسية من الأشياء التى لها قيمة فى ذاتها فاتخذت معدنى الذهب والفضة مقياساً للأشياء ، فسكوا منهما قطعاً نقدية فى

أشكال مختلفة وطرز رسمية خاصة .

فالوحدات النقدية تعد قاعدة أساسية فى النظام النقدى بصفة خاصة ، والنظام الاقتصادى على وجه العموم . إذ أن هذه النقود هى التى توجه حركة النشاط الاقتصادى ، وبالأذات حركة المعاملات المالية بمختلف أشكالها . وبواسطتها تتحقق المطالب الاستهلاكية للمجتمع ، وأساسه الفرد بحاجاته ورغباته ، وبواسطتها أيضاً تتحقق المطالب الاستهلاكية للمجتمع ، وأساسه الفرد بحاجاته ورغباته .

وتنقسم هذه الوحدة النقدية الأساسية الى عملات رسمية ، تتباين تبايناً ملحوظاً فى مختلف الدول ، فكل دولة تختار لها وحدات نقدية بأسماء وأشكال معدنية ، وقد تمتعت هذه الوحدات بأهمية خاصة فى الدولة ، إذ تعدها دلالة على استمرارية الحكم فيها . بل إن هذه الوحدات عدت وظيفة ضرورية للملك ^(١) يختتمها بخاتمه الرسمى تمييزاً لها عن غيرها ، لذا أصبحت وثائق هامة للحقائق التاريخية تلقى مزيداً من الأضواء على مختلف الأحداث السياسية والاقتصادية ، التى تمر بها الدول فى مختلف مراحلها .

١ - أنواع النقود المملوكية

فى الهدء تجدر الإشارة الى أن المالك لم يأتوا بجديد فيما يتصل بأنواع النقود وأوزانها وعياراتها . بل ورثوا جميع ذلك بمسمياته وطرقه ، وأبقوا عليه دون إحداث أى تغيير أو تعديل . باستثناء ما تعرضت له أوزان النقود المملوكية وعياراتها من تقلبات وتغيرات أوجدتها السياسة النقدية السيئة لمعظم

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٣٢ .

سلاطين الماليك .

وبناء على ذلك لم تورد المصادر والمراجع التاريخية - الخاصة بالتاريخ المملوكى - معلومات وافية ترتبط بهذا الجانب ، ومجرد ما ذكر لا يعدو كونه إشارات حاول الباحث قدر استطاعته الاستفادة منها وإبرازها فى شكل متكامل .

فمن خلال تلك الإشارات يمكن تقسيم النقود المملوكية الى نوعين :

نقود معدنية ، ونقود حسابية أو اعتبارية .

النقود المعدنية هى النقود المعروفة (الدنانير ، الدراهم ، الفلوس) وهى ما أوضحه فى التفصيل التالى :

النقود الذهبية (الدنانير)

الدینار وحدة من الوحدات النقدية الذهبية ، استخدم ، عملة رئيسية منذ أمد طويل حتى جاء الاسلام ، وأقر استخدامه وتداوله فى الدولة لاسلامية وأقاليمها المختلفة .

كان اشتقاقه اللفظى - كما تقول المراجع الحديث - عن اللفظ اللاتينى ديناريوس واليونانى نوموس^(١) - لاتوميوس كما تورد ذلك مراجع عديدة - .

(١) الدينار الذى سكبه الرومان من الفضة لم يصفوه بالصفة اللاتينية أرجنتيوس أى الفضى من كلمة أرجنثوم التى هى الفضة فلم يقولوا ديناريوس أرجنتيوس وإنما استعاروا اللفظة اليونانية نوموس لتدل على هذه الصفة فقالوا ديناريوس نوموس .

و (Denarius-Numus) عملة من الفضة اشتق اسمها من اللفظ الرومانى دهنى (Deni) أى عشرة ، وصدرت أول مرة عام ٢٦٨ ق. م - عندما تحدد وزن الآيس بأوقيتين ، وتحددت قيمة =

(ديناريوس نوميوس ديناريوس أريوس) ، وظل استخدام هذا اللفظ ليكون دلالة على عملة رسمية استخدمت في مختلف الدول الإسلامية المتعاقبة بدءاً من عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وانتهاء بدولة المماليك حين بدأت بعض المصطلحات المستخدمة تحمل محل لفظ دينار دلالة على الوحدة النقدية الذهبية ^(١) ، وبالتحديد سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ م في أثناء حكم السلطان المملوكي الجركسي الأشرف برسباي عندما أطلق على العملة الذهبية المضروبة في الدولة اسم الأشرفي بدلاً من لفظ الدينار الذي كان مستخدماً قبل هذه الفترة حتى وإن جاء معرفاً أو مضافاً إلى أحد سلاطين الدولة تمييزاً للدنانير التي يقوم السلاطين بإصدارها . كالدينار الناصري نسبة إلى السلطان الناصر فرج بن برقوق ، الدينار المؤيدي نسبة إلى السلطان المؤيد شيخ المحمودي ، وما تجدر الإشارة إليه أنه خلال العصر المملوكي كثيراً ما استبدل

^{٢٠} الديناريوس بعشرة آيسات ، وقد نقش على وجه الديناريوس من الفضة صورة الآله اليونانية عشرة آيسات ، وقد نقش على وجه الديناريوس من الفضة صورة الآلهة اليونانية (منيرفا) والرقم X أى عشرة آيسات بينما سجل على ظهر القطعة مكان الضرب روما ، وفي سنة ٢١٧ ق . م . تحدث قيمة الديناريوس بستة عشر آيسا ، وأشار إلى هذه القيمة بالرقم XVI .

وفي عصر القيصر نيرون ضربت عملة ذهبية أطلق عليها (Denarius - Aurius) كانت تعادل أربعة جرمات وخمسة وعشرين في المائة من الجرام (٤,٢٥ جم) من الذهب الخالص ، وجاء القيصر قسطنطين ، فوسع من انتشار هذه العملة الذهبية ، فانتشرت في مناطق عديدة ، كبلاد العرب وبلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا .

(محمد أحمد اسماعيل الخاروف ، هامش رقم (٨) ص ٤٨ من كتاب الايضاح ، الموسوعة العربية الميسرة ، مادة ديناريوس ، ص ٨٣٩ ، على الغمراوي مشافهة) .

(١) يذكر الأستاذ نصر النقشبندى أن لفظ دينار اختفى منذ سنة ٧٤٧ - ٧٤٨ هـ في مصر في أثناء حكم السلطان سيف الدين حاجي ، ويؤكد أنه لم ينقش على النقود الذهبية المصرية كلمة دينار إلا بعد التاريخ المشار إليه .

لفظ دينار بلفظ آخر هو المثقال دلالة على الدينار ، ويقول المقرئى (١) عن ذلك :

«المثقال اسم لما له ثقل سواء كبير أو صغر ، وغلب عرفه على الصغير ، وصار فى عرف الناس اسماً للدينار» .

ومع إطلاق لفظ المثقال على الدينار ، وتعارف الناس على ذلك ، فإنه لا يمكننا إغفال المعنى الحقيقي للمثقال إذ أن معنى مثقال هو الوزن ، ومثقال الشيء وزنه ، وهناك مثقال الذهب ومثقال الفضة ومثقال العنبر ومثقال المسك وغير ذلك (٢) .

ويذكر المقرئى (٣) أيضاً أن كلاً من الدينار والدرهم يطلق عليهما مثقال ، وذلك فى حالة كون وزنهما مساوياً لوزن المثقال الذى هو أساس للأوزان ، ويعرفته تسهل معرفة أوزان الدراهم والدنانير وأجزائهما ، وعلى هذا فهناك دنانير وزنها مثقال ، أو نصف مثقال ، أو ربعه ، أو مثقال ونصف ، أو مثقالان ، أو أكثر ، وهناك أيضاً دراهم على النحو السابق .

وإذا كان الدينار يزيد أكثر من مثقال واحد ، فهل يمكن إطلاق لفظ مثقال عليه أم لا ؟ هذا ما يجعلنا أكثر حذراً من استعمال لفظ المثقال تعبيراً عن الدينار حتى مع شيوع ذلك بين الناس وتعارفهم عليه .

ومهما كانت الحال فالدينار المملوكى لم يزد فى وزنه فى تاريخه الطويل عن وزن المثقال البالغ أربعة جرامات وخمسة وعشرين فى المائة من الجرام (٤٠٥ ، ٤٠٦) .

(١) الأوزان والمكييل ، ص ٢١ .

(٢) محمد اسماعيل الخاروف ، هامش (٨) ص ٤٨ من كتاب الإيضاح .

(٣) إغاثة الأمة ، ص ٤٨ - ٤٩ .

جم) ، وهذا ما أدى الى اطلاق لفظ المثلقال على الدينار ، وورد فى معظم مصادر الفترة تعبيراً عن حال العصر ، وما تعارف عليه أهله ، حتى اذا اقتربت الدولة من نهايتها حمل الدينار مصطلحاً نقدياً حديثاً ، وذلك بالنسبة الى أحد سلاطين المماليك الذين يقومون بضرب أو سك دنانير جديدة خلال عهودهم .

والى جانب الدينار أو المثلقال ، تم التعامل خلال العصر المملوكى وخصوصاً العهد الجركسى بعملة من الذهب الهرجة أطلق عليها فى بعض الأحيان الدينار الهرجة ، أو الدينار المصرى ، أو الدينار المختوم وهو ما عرفه المقرئزى ^(١) بقوله :

«وهذا الصنف هو الذهب الاسلامى الخالص من الغش ، وهو مستدير الشكل على أحد وجهيه شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمد رسول الله ، وعلى الوجه الآخر اسم السلطان وتاريخ ضربه ، واسم المدينة التى ضرب بها ، وهى إما القاهرة أو دمشق أو الاسكندرية ، وكل سبعة مثاقيل زنتها عشرة دراهم» .

هذا ولم يوضع المقرئزى فى معرض حديثه التطورات التى مر بها الدينار الهرجة ، وكذلك القلقشندى ^(٢) لم يصف جديداً عند حديثه عن الدنانير الهرجة سوى ما ذكره من أنه لم تكثر أعداده ، ولم يشتهر التعامل به مثل الدنانير الأخرى المتداولة فى الدولة .

ولا شك فى أن الغموض المحيط بالتطورات التى تعرض لها هذا النوع يحيط بالتطورات التى تعرض لها هذا النوع من النقود اذ لا تمدنا المصادر التاريخية ،

(١) السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٤٣٦ - ٤٣٧ .

وحتى المراجع ، بأى معلومات توضح ظروف إصداره أو وزنه ونحو ذلك ، ولكن المرجح أن إصدار هذا النوع من النقود الذهبية قد جاء فى فترة لاحقة فى العصر المملوكى ، وبالأذات فى الوقت الذى تعرض فيه الدينار ، وهو العملة الذهبية الرسمية للدولة للتلاعب والغش وإنقاص وزنه ، مما أدى الى إصدار قطعة ذهبية خالصة تحمل ختم الدولة يتم تداولها كلما دعت الحاجة الى ذلك .

ويوضح القلقشندى ^(١) بعض الغموض فى هذه النقطة عندما ذكر أن السلطان المملوكى الأشرف شعبان بن حسين (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ / ١٣٦٢ - ١٣٧٦ م) قد أصدر دنانير زنة كل منها مثقال ، كما قام الناصر فرج بن برقوق (٨٠١ - ٨١٥ هـ / ١٣٩٨ - ١٤١٢ م) بإصدار مثل تلك الدنانير على أوزان مختلفة فمنها ما زنته مثقال ، ومنا ما زنته مثقالان ونحو ذلك ، ولكن يغلب على تلك الدنانير عدم دقة أوزانها وعدم ضبط عيارها ، وفى ذلك مخالفة لما يجب أن تكون عليه من الدقة والضبط ، وهذا ما أدى الى عدم اشتهاها والتعامل بها فى أسواق الدولة .

وعموماً فإن العادة خلال العصر المملوكى قد جرت بتداول أكثر من نوع من النقود الذهبية ، منها ما هو صادر عن الدولة ، ومنها ما هو صادر عن دول أخرى ، ولم تكن الدولة وكذلك المتعاملون يرغبون عن ذلك ، فحدث فى كثير من الأحيان أن قدرت الدولة نفقاتها ومصروفاتها بنوعين أو ثلاثة من تلك النقود الذهبية ، كما عقدت الكثير من الصفقات التجارية مقدرة بمثل ذلك .

وما ينبغى الإشارة اليه هو أن دولة المماليك قد اتخذت من تلك النقود الذهبية قاعدة النقد فى البلاد ، وغطاء هاماً لميزانية الدولة ، وأسندت مهمة

(١) صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٤٣٦ - ٤٣٧

الدفع الى النقود الفضية خلال العهد البحري ؛ والى الفلوس النحاسية خلال العهد المجرىسى .

وما لا شك فيه أن سلاطين المالك قد استخدموا النقود الذهبية فى عمليات دفع محدودة ، خصوصاً فيما يتصل بالتجارة الدولية ، والعلاقات التجارية للدولة مع القوى الأخرى ^(١) .

وتشير الوثائق ^(٢) والمصادر ^(٣) المملوكية الى تلك السياسة النقدية التى سارت عليها دولة المالك تجاه النقود الذهبية .

(١) سيدة كاشف ، دراسات عن النقود الاسلامية ، ص ٨٧ ، سامع عبد الرحمن ، الوحدات النقدية ، ص ٢٧ ، ٣٠ .

(٢) من تلك الوثائق :

١ - وثيقة وقف الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، ص ٣٩٥ ، ٤١٣ ، ص ٤٢٩ ، ص ٤٤٢ ، نشرها د. محمد أمين ملحقة بكتاب تذكرة التنبيه ، ج ٣ ، ص ٣٤٩ ، ٤٤٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٦ م .

٢ - وثيقة وقف الأمير بلبغا ، ص ٤٣٠ - ٤٣١ ، نشرها د. محمد أمين فى كتاب فهرس وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المالك ، ص ٤٢٣ ، ٤٣٩ ، نشر المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٨١ م .

٣ - حجة وقف الأشرف برسباى ، ص ٢ ، ص ٢٩ ، نشرها د. أحمد دراج ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

٤ - وثيقة وقف الأشرف قايتباى ، ص ٣٥٩ ، وما بعدها ، نشرها د. محمد أمين فى المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٢٢ سنة ١٩٧٥ ، ص ٣١٣ ، ٣٩٠ .

٥ - وثيقة بيع من القرن العاشر الهجرى . أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ٢٤٢ . نشرها د. محمد أمين فى كتاب فهرس وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المالك ، ص ٣٣٣ ، ٣٥٢ .

(٣) من تلك المصادر :

ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبهصار ، الجزء الثانى . القسم الثالث ، ورقة ٣٧٦ ، نسخة دار الكتب المصرية ، الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر وأولاده ، ص ١٤٢ - ١٤٣ ، -

النقود الفضية (الدرهم)

الدرهم : المقصود به هنا وحدة من الوحدات النقدية الفضية الإسلامية ^(١) ، والدولة المملوكية بوصفها دولة إسلامية استخدمت الدرهم وحدة نقدية فضية فى عمليات التداول المالية .

أطلق لفظ درهم اشتقاقاً من اللغة الفارسية عن لفظة درم (Drem) ^(٢) ، وجاء استعماله عن طريق الفرس حيث كان الدرهم الوحدة النقدية الرئيسية للإمبراطورية الفارسية ، وجاء الإسلام ليقر استخدام الدرهم وحدة نقدية فضية الى جانب الدينار الذهبى فى عمليات التداول المختلفة ، واستمرت الدولة المملوكية بعد قيامها فى استخدام الدرهم وحدة نقدية رئيسية فى النظام المملوكى ، وقد أضيف الى لفظ الدرهم بعض المصطلحات التوضيحية للتفريق بين ما يتم ضربه من دراهم خلال عهود السلاطين ، كالدرهم الظاهرى ، والدرهم المزيدي والدرهم الأشرفى ، وقبل ذلك - أى قبل العصر المملوكى - أضيف

= الصيرفى نزهة ، ج ١ ، ص ١٩٤ ، المؤلف المجهول ، حوليات دمشقية ، ص ٥٤ - ٥٥ ، تحقيق د. حسن حبشى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ م ، السخاوى ، الذيل التام ، ص ٢٣٤ .

(١) للدرهم معنى آخر ، وهو كونه وحدة أساسية للوزن أو كيل السوائل ، فهو بهذا وحدة قياسية تستعمل فى عمليات الوزن البالغة الدقة التى ترتبط بها السلع الثمينة كالحلى واللالئ والعقاقير ونحوها ، والدرهم بهذا يشبه الميثقال المستعمل وحدة للقياس والوزن ، إلا ان الميثقال ارتبط بوزن الدينار حتى غلب عليه ، وعرف عند الناس به ، فالميثقال وحدة قياسية ثابتة ومحددة قبل أن يكون علماً على الدينار ، أما الدرهم فالى جانب كونه وحدة قياسية فهو أيضاً وحدة نقدية فضية وزنها ميثقال من الفضة ، ويتضح من هذا التحديد أن الميثقال أقدم من الدرهم كوحدة قياسية توزن بها الأشياء (المقرئى ، النقود الإسلامية ، ص ٢٥ ، الخاروف ، هامش رقم ٨ ص ٢٥ من الإيضاح) .

(٢) ناصر الدين النقيشندى ، مهتاب درويش البكرى ، الدرهم الأموى العربى ، ص ٩ .

الى الدرهم مصطلح فنى أصبح علماً على الدراهم الفضية ، وبدونه لا يمكن تمييزها ، وأعنى بهذا المصطلح لفظ (النقرة) الدرهم النقرة أو الدراهم النقرة - بضم النون - ، وقد استعمل هذا المصطلح فى أواخر العصر الأيوبى ، وبالتحديد فى عهد الكامل الأيوبى خلال إصلاحاته النقدية التى اقم بها ، ولذلك أطلق عليه فى بعض فترات العصر المملوكى (الدراهم الكاملى) تمييزاً له عن الدرهم النقرة الذى أصدره السلطان الظاهر بيبرس بنفس مواصفات الدرهم الكاملى تقريباً من حيث الوزن والعيار ^(١) .

هذا وقد بدأ هذا المصطلح بالاختفاء منذ بداية عهد المماليك الجراكسة ، ويوضح ابن فضل الله العمري ^(٢) أن قاعدة العيار الصحيح للدراهم النقرة هو أن يكون ثلثاها من فضة والثلث من نحاس ولقد تم مراعاة هذه النسبة بكل دقة زمن السلطان الظاهر بيبرس ولكن اختلف الأمر بعد ذلك حيث زادت كمية النحاس عن النسبة المقررة .

يقول القلقشندى عن تلك الدراهم ^(٣) :

«وأصل موضوعها أن يكون ثلثاها من فضة ، وثلثها من نحاس» .

ويوضح ابن عاتى ^(٤) السابق على القلقشندى مفهوم الدراهم النقرة بقوله :

«والفضة يؤخذ منها ثلاثمائة درهم تضاف الى سبع مائة درهم من النحاس .

(١) المقرئى ، كشف الغمة ، ص ٦٦ .

(٢) مسالك الأبحار ، (مالك مصر والشام واليمن والحجاز) ، ص ١٤ ، تحقيق أمين فزاد

سيد ، نشر المعهد العلمى الفرنسى للأثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٨٥ م .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ .

(٤) قوانين الدواوين ، ص ٣٣٣ .

ويسبك ذلك حتى اذا صار ماء واحداً ، قلب قضباناً وقطع من اطرافها خمسة عشر درهماً تسبك ، فإن خلص منها أربعة دراهم ونصف درهم (من الفضة الخالصة) حساباً عن كل عشرة دراهم ، والا اعبدت الى ان تصح وتختم .

كما يوضح على بن يوسف الحكيم معنى النقرة بقوله ^(١) :

«فلينقر بها - السبيكة - على زهرة (قطعة) حديد تكون بين يديه ، فإن كانت صماء فذلك من حديثها - صفائها - والصوت دليل تنحيسها - كثرة النحاس فيها » .

ويورد القلقشندي نحو ذلك وهو يتحدث عن الدراهم النقرة فيقول ^(٢) :

«وربما زاد عيار النحاس عن الثلث في زماننا شيئاً يسيراً بحيث يظهره النقر» .

ويورد البعض ^(٣) في معنى النقرة أنها القطعة المذابة من الذهب والفضة ، أو من الفضة والنحاس ، وهي السبيكة تسبك من معدنين .

فالنقر معروف وإطلاقه يعنى أن هذه الدراهم صحيحة العيار مضبوطة السبك ، فلو نقرتها لإختبارها لتبين من النقر مدى جودتها .

هذا ولم تحافظ الدراهم النقرة على تلك الجودة ، بل فسدت مع مرور الأيام وساء عيارها ، وفقدت ما يدل على حسن شكلها وجودتها ، وذلك عند فساد

(١) اللوحة المشبكة ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٣ .

(٣) رجاء السامرائي ، هامش رقم ٤٧٣ ، ص ١٠٨ من كتاب النقود والمكاويل للسناوى .

الأوضاع النقدية ، وتدهور النقود الفضية خلال العهد المملوكى المبركسى ، ويحدد المقرئى ^(١) تاريخاً لهذا الفساد ، وهو سنة ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ م عندما انتشرت فى أسواق الدولة دراهم فضية رديئة جداً ^(٢) ، فكثرت تعنت الناس منها ، وتضرروا ضرراً كبيراً من التعامل بها الأمر الذى أدى الى فساد الدراهم النقرة ، فكثرت الغش والتلاعب بها لدرجة أن مقدار الفضة فى الدرهم الواحد قد بلغ عشر وزنه فقط وتسعة أعشاره من النحاس ، حتى اذا كانت سنة ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م قام السلطان المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ - ١٤٢١ م) بإبطال التعامل بالدراهم النقرة ، وحل محلها الدراهم المؤيدية التى أصدرها المؤيد لمعالجة الأزمة النقدية الناشئة من ذلك الفساد .

لقد وجدت الى جانب تلك الدراهم الفضية دراهم أخرى يتم تداولها والتعامل بها ، وقد أصدرها سلاطين المماليك خلال تعاقبهم على الحكم ، وتلك الدراهم حملت فى الغالب ألقاب من أصدرها من السلاطين كالدراهم الظاهرية ، والدراهم المؤيدية ، والدراهم الأشرفية ، أو أسماء بعض أمراء الدولة ممن أشرف على إصدارها كالدراهم المحمودية - نسبة الى الأمير محمود بن على الاستادار ^(٣) - أو الدراهم النوروزية - نسبة الى الأمير نوروز الحافظى ^(١) - إضافة الى تداول

(١) النقود ، ص ٦٠ فضلاً أنظر أيضاً السبوتى : جلال الدين عهد الرحمن بن أبى بكر ابن محمد حسن ، المعاصرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ ، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابى الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٧ م ، ابن ايماس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ١٠ .

(٢) أطلق على تلك الدراهم (الحمرية) وقد ضربت فى تاريخ مجهول خلال العصر المملوكى البحرى فى مدينة حماة من بلاد الشام ، ولم يراع فى ضربها الشروط الواجب توفرها بالسكة الصحيحة .

(المقرئى ، النقود ، ص ٦٠ ، المناوى ، النقود ، ص ١٠٤ - ١٠٥) .

(٣) فضلاً أنظر ترجمته ، هامش رقم (٣) ص ١١٨ .

عدد من الدراهم الفضية الصادرة عن دول أخرى ، تم التعامل بها فى أسواق الدولة ووجدت رواجاً فيها ، فهناك الدراهم البندقية ، والدراهم القرمانية ، والدراهم المغربية ، والدراهم التكرورية ، والدراهم العثمانية ^(١) .

هذا وفى تطور لاحق حمل الدرهم الفضى الى جانب اسمه المتعارف عليه مصطلحاً جديداً هو لفظ (النصف) ، وقد اشتق هذا اللفظ من الوزن الذى كان عليه الدرهم ، وهو نصف درهم (وزناً) من الفضة الخالصة وجاءت هذه التسمية تمييزاً له عن الدراهم الأخرى المتداولة حتى إنه فى بعض الفترات حمل مصطلح (الدرهم الصغير) تمييزاً له عن تلك الدراهم التى حملت فى الوقت نفسه مصطلح الدرهم الكبير أو الدرهم الكامل ^(٢) . وقد اشتهر هذا المصطلح فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى / النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى ، على الرغم من أن الأصل فى هذه التسمية يعود الى فترة حكم السلطان المؤيد شيخ ، وبالتحديد سنة ٨١٥ / ١٤١٢ م على يد الأمير نوروز الحافظى الذى أصدر دراهمه النوروزية على أساس أن الدرهم الفضى الواحد منها يساوى نصف درهم وزناً ، واستحسن هذا الوزن ، ورغبة الناس ^(٣) وبعد ذلك قام عدد من سلاطين الدولة بإصدار دراهمهم الفضية على غظه ، الأمر الذى أكسبه هذه التسمية .

(١) فضلاً أنظر ترجمته ، هامش رقم (١) ، ص ٢٣٥ .

(٢) فضلاً أنظر الفصل الخامس ، ص ٤٨٩ .

(٣) ابن حجر ، انبا ، ج ٣ ، ص ٥٤ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٣٢ . الأسدى : محمد بن محمد بن خليل ، التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار ، ص ١٢٧ ، تحقيق عبد القادر أحمد طليعات ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

وقد وردت هذه التسمية فى بعض الوثائق ^(١) والمصادر الملوكية ^(٢) دليلاً على اعتمادها والأخذ بها .

النقود النحاسية (الفلوس)

جمع فلس - ثلاثية الفاء - أصلها أفلس بضمات ثلاث خففت وجمعت على وزن أفعل كأنسر وأعيد ، ولكون مفرد أفعل فى معظم الأحيان فعلاً قالوا : فلس ، ويجمع على فعول أيضاً دلالة على الكثرة كفلوس . أما أفعل كأفلس فدلالة على القلة ^(٣) .

أما عن أصل اشتقاقها ، فيرد فى بعض المصادر العربية ما يلى :

« كل حلبة فى اللجام من فضة أو حديد مستدير ، فهى الفلوس ، وإن كانت مستطيلة أو مربعة ، فهى التفارض ، ووحدات تفرض » .

كما يرد فى بعض المراجع العربية ان اشتقاقها من الرومية (Folium) التى تعنى قطعة نقدية تساوى ربع أوقية ، أو من اللاتينية (Follis) ، وتعنى كيس النقود ^(٤) .

(١) من الوثائق ، وثيقة بيع من القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى . ص ٣٥٩ . نشرها د. محمد محمد أمين فى كتاب فهرس وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك . من ص ٣٥٣ ، ٣٦٣ .

(٢) من المصادر الملوكية : الأسدى ، المصدر السابق . ص ١٢٧ . ابن الهاس . بدائع . ج ٢ . ص ٢٨٣ . ص ٣٤٤ . ج ٣ . ص ٥٥ . ص ٨٩ . ص ٢٠٧ . ص ٢٢٨ . ص ٢٣٧ . ص ٣١٨ . ص ٣٣١ .

(٣) أبى منظور ، لسان العرب . ج ٨ . ص ٤٦ (مادة فلس) . الفيروز آبادى . القاموس المحيط . ج ٢ . ص ٢٤٦ - ٢٤٧ (مادة فلس) .

(٤) انستاس الكرملى . النقود العربية . هامش (٢) . ص ٦٧ - ٦٨ .

ويذكر البعض أن الفلوس تعنى قشور السمك على نحو مجازى للدلالة على
الشيء المستدير البالغ الدقة ^(١) .

وبالنظر الى تلك الاشتقاقات ، فليس بالضرورة أن تطلق هذه الكلمة على
القطعة النقدية المضروبة من النحاس رغم استعمالها فى هذا المجال منذ أمد
طويل ^(٢) ، وهو المجال الذى اشتهرت به كونها عملات مساعدة ، تم استخدامها
لتسهيل العمليات التجارية البسيطة ^(٣) .

يقول المقرئى عن ذلك ^(٤) :

« إنه لما كانت كانت فى المبيعات محقرات تقل عن أن تباع بدرهم ، أو بجزء
منه احتاج الناس من أجل هذا فى القديم والحديث من الزمان الى شئ سوى
الذهب والفضة يكون بإزاء تلك المحقرات ، ولم يسم أبداً ذلك الشئ الذى جعل
للمحقرات نقداً البتة فيما عرف من أخبار الخليفة ، ولا أقيم قط بمنزلة أحد

(١) صمويل برنارد ، النقود العربية ، ص ٦٨ ، المجلد السادس من موسوعة وصف مصر ،

ترجمة زهير الشايب ، ط الأولى ، ١٩٨٠ م ، الناشر مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

(٢) عهد الرحمن فهمى ، النقود العربية ، ص ١١ ، محمد العشى ، مصر والقاهرة على

النقود العربية الاسلامية ، ص ٩٢٧ .

(٣) يذكر المقرئى (اغانة ، ص ٦٧) فى سبب ضرب الفلوس النحاسية ، وأول من ضربها

فى مصر حدثاً طريفاً ، حيث يقول :

« إنه فى أيام الكامل الأيوبي ، تعرضت امرأة لمخطيب الجامع بمصر تسفيه أهل شرب الماء أم
لا ؟ فقال : يا أمة الله وما يمنع من شرب الماء ، فقالت : ان السلطان ضرب هذه الدراهم وانى
اشتري القرية بنصف درهم منها ومعى درهم ، فبرد السقاء على بنصف درهم ورقاً ، فكأنى
اشتريت منه ماء ونصف درهم بدرهم ، فأنكر ذلك ، واجتمع بالسلطان وتكلم معه فى ذلك
فأمر بضرب الفلوس » .

(٤) النقود ، ص ٦٦ - ٦٧ .

النقددين ، واختلفت مذاهب البشر وآراؤهم فيما يجعلونه بإزاء تلك المحقرات ، ولم يزل بمصر والشام .. يجعلون بإزاء هذه المحقرات نحاساً يضرهون منه قطعاً تسمى فلوساً .

وفى موضع آخر يقول المقريزى ^(١) :

«إن تلك الفلوس لم يكن يشتري بها شئ من الأمور الجليلة ، وإنما هي لنفقات البيوت ، ولأغراض ما يحتاج اليه من الخضر والبقول ونحوها» .

حتى اذا كان عهد السلطان الظاهر برقوق - أول سلاطين الجراكسة - وعلى يد استاداره محمود بن على أخذت أهمية ومكانة تلك الفلوس تزداد ، عندما زادت أعدادها بشكل ملحوظ فى الوقت الذى يقابل فيه هذه الزيادة نقص كبير فى أعداد العملات النقدية الأخرى - الذهبية والفضية - المطروحة للتداول فى أسواق الدولة ، فكثرت الفلوس بأيدى الناس كثرة بالغة ، وراجت رواجاً صارت من أجله هي النقد الغالب فى البلد ^(٢) .

المهم أن الفلوس النحاسية أصبحت خلال العهد المملوكى الجركسى هي النقود الرسمية للدولة ، مما يعنى أنها أخذت طريقها الى ذلك قبل هذا العهد ، فاذا نظرنا الى التطور الذى مرت به النقود النحاسية حتى وصلت اليه نحد أن بداية استخدامها كانت قبل قيام دولة المماليك ، وذلك بهدف تسهيل العمليات التجارية البسيطة التى تحتاج الى نقود موازنة لها بالبساطة ، واستمر استخدامها لذلك الهدف معظم سنوات حكم المماليك البحرية لتبدأ مزاحمتها للنقود الرئيسية فى أواخر العهد البحرى ، ولتيسط نفوذها ومكانتها على

(١) الهامة الأمة ، ص ٧٠ .

(٢) المقريزى ، الهامة ، ص ٧١ .

الأوضاع النقدية فى العهد المملوكى الجركسى .

كانت الفلوس التى استخدمت فى بداية عهد الدولة المملوكية على نوعين :

النوع الأول : فلوس مطبوعة بالسكة السلطانية (الختم الرسمى لدار الضرب) ، وهى التى أطلق عليها الفلوس (الصغار) لصغر حجمها وخفة وزنها ، ويتم تداولها فى الغالب عن طريق العدد ، كل ثمانية وأربعين فلساً بدرهم فضى واحد ، واستمر التعامل بتلك الفلوس ، حتى سنة ٧٥٩ هـ / ١٣٥٧ م فى الفترة الثانية من حكم السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (٧٥٥ - ٧٦٢ هـ / ١٣٥٤ - ١٣٦٠ م) حيث أصدرت الدولة فلوساً جديدة اشتهرت بالفلوس (الجدد) ، كل درهم بأربعة وعشرين فلساً منها ، وامتازت بثقل وزنها وكبر حجمها ، فاستحسنها الناس ، وأقبلوا على التعامل بها ، وأخذ كل سلطان يصدر على غطها حتى نهاية عصر الدولة .

النوع الثانى : فلوس غير مطبوعة بالسكة السلطانية ، وأطلق عليها الفلوس (العتق) أى القديمة ، وهى عبارة عن خليط من النحاس الأحمر والأصفر ، خفيفة الوزن ، كان التعامل بها يتم عن طريق الوزن الى جانب الفلوس المطبوعة ، ثم أخذت فى النفاذ شيئاً فشيئاً الى أن عدت تماماً^(١) .

ومن الجدير بالذكر أن مصطلح العتق تحول بعد ذلك الى الفلوس ذات الاصدار القديم وذلك عند اصدار فلوس نحاسية جديدة (جدد) ، فأصبح من

(١) ابن الهائم ، أبو العباس أحمد بن محمد ، نزهة النفوس فى حكم التعامل بالفلوس ، ورقة ١ ، القلشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٣٩ - ٤٤٠ ، ص ٤٦٣ ، المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣١٧ ، مرعى بن يوسف ، نزهة الناظرين ، ورقة ٣٧ أ .

المتعارف عليه أن يطلق على أى فلوس ذات إصدار حديث (فلوس جدد) أما ذات الإصدار القديم ، فيطلق عليها (فلوس عتق) ، وعلى هذا كان الوضع حتى نهاية عصر الدولة .

النقود الحسابية (الاعتبارية)

وهى نقود غير محسوسة ، وليست متداولة جرى استخدامها فى عمليات تقديرية فقط ، وفى نطاق محدود لمعرفة المبالغ الاجمالية لجهة من جهات الإنتاج فى الدولة ، هذا هو الأصل فى تلك النقود ، ومع وجود نقود حسابية حافظت على هذا الأصل ، فإن هناك نقوداً حسابية جرى استخدامها فى الدولة لغير الغرض السابق ، فالظروف التى اضطرت الدولة الى ايجاد نقود حسابية جديدة ، اضطرتها أيضاً لاستخدام تلك النقود فى أغراض ومجالات أخرى .

وفى التفصيل التالى ألقى الضوء على تلك النقود الحسابية والظروف التى مرت بها :

الدينار الجيشى والدينار الأسطولى

أطلق عليهما ذلك نسبة الى الجيش والأسطول حيث تقدر بهما عبر الاقطاعات^(١) الخاصة بأفراد الجيش والأسطول فى دولة المماليك ، وقد استعملتا

(١) المبرة : مقدار المساحة ، وهى فى الاصطلاح المالى القديم المربوط من الخراج ، أو الأموال على كل اقطاع من الأرض ، وما يتحصل عن كل جهة من عين أو غلة ، والاقطاع ما يقطعته ولى الأمر نفسه ، أو يمنحه لغيره من أرض زراعية أو جهة من جهات الإيراد فى الدولة ، ويعنى آخر ، ما يتحصل من غلة أو عين من أرض زراعية أو جهة من الجهات المالية ، ويعرف عند الفقهاء باقطاع الاستغلال .

فقط في المجالات الرسمية عند تحديد ما يستحقه كل فئة من الأفراد من أمراء وجنودهم ونحوهم - من الاقطاعات المخصصة لهم نظير قيامهم بالخدمة العسكرية .

يقول القلقشندي (١) عن الدينار الجيشى :

« أما الدينار الجيشى ، فمسمى لا حقيقة ، وإنما يستعمله أهل ديوان الجيش فى عبء الاقطاعات ، بأن يجعلوا لكل اقطاع عبء دنانير معينة من قليل أو كثير » .

ومما ذكره القلقشندي ينطبق أيضاً على الدينار الأسطولى .

أما عن القيمة النقدية لهما ، فلم تكن ثابتة إذ تراوحت بين ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م بين سبعة وعشرة دراهم ، ثم ارتفعت الى ثلاثة عشر درهماً سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م ، وبعد هذا التاريخ فقد قيمتهما النقدية ، وأصبحت عطفية التقدير تتم تخميناً (٢) .

= لمزيد من التفاصيل فضلاً أنظر : ابن فضل الله العمري ، مسالك الألبصار ، (دولة المماليك الأولى) ص ١٠٨ ، تحقيق دوروتيا كرافولسكى ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م ، المركز الإسلامى للبحوث ، بيروت ، القلقشندي ، فتوة الصبح المسفر وجنى الدوح الثمر ، ص ٢٥٨ ، وما بعدها ، مطبعة الواعظ ، القاهرة ، ١٩٠٦ م ، المقرئى المخطوط ، ج ١ ، ص ٨١ - ٨٧ ، ج ٢ ، ص ٢١٨ - ٢١٩ ، ابراهيم طرخان ، النظم الاقطاعية ، Cahen, Cl. "L'ergime des impots dans le Fayyum Ayyubde" Arabica, III, 1956: pp. 12-13.

(١) صبح ، ج ٣ ، ص ٤٣٨

(٢) المقرئى ، المخطوط ، ج ٢ ، ص ٢١٨ - ٢١٩ ، انطوان خنوط ، الدولة المملوكية ، ص ١١٣ .

هناك إرادة اتفقت كل من العمري ^(١١) ، والقلمشني ^(١٢) ، وابن الجيعان ^(١٣) .
والسيوطي ^(١٤) ، على أن قيمة الدينار الجيشي كانت ثلاثة عشر درهماً وثلاث
الدرهم ..

أما الأحمدي ^(١٥) فيذكر أن القيمة النقدية للدينار زمن الناصر محمد بن
قلاوون كانت بين اثني عشر درهماً ، وعشرة دراهم ، ويصل في بعض الأحيان
إلى ثمانية دراهم فضية .

والواقع أن القيمة النقدية تأثرت بمرتبة صاحب الاقطاع ، فتزيد بعلو
مركزه . وتقل تدريجياً كلما قلت المرتبة ^(١٦) ، كما تختلف القيمة النقدية
بالتفاوت أجناس الأفراد ^(١٧) ، وتختلف أيضاً باختلاف موقع الاقطاع ودرجة
إنتاجه . وتقريبه أو بعده عن المناطق المأهولة ، هذا ولم تخضع تلك القيمة النقدية
للتقلبات الاقتصادية للحضرة . بل ظلت شبه ثابتة دون أي تغيير . وإن حدث
تغيير ، فمجرد ذلك ما يطرأ على الاقطاعات من تغييرات ، أو تنظيمات سواء
كانت طبيعية أو من قبل الدولة ^(١٨) .

(١١) مسالك الأبحار . عمالك الشام واليمن والحجاز) ص ٧٤ .

(١٢) صبح . ج ٢ ، ص ٤٣٨ .

(١٣) الحقبة اللثنية بأسماء البلاد المصرية ، ص ٣ . نشر موريتز ، القاهرة ١٣٢٦ هـ /
١٨٩٨ م .

(١٤) حسن المحاضرة . ج ٢ ، ص ٣٢٦ .

(١٥) التيسير والاعتبار . ص ٧٦ .

(١٦) العمري ، مسالك الأبحار . (دولة للماليل الأولى) . ص ٩٤ . للتقرير - المخطوط . ج ٢ .

٢ . ص ٢١٨ . الأحمدي . المصدر السابق . ص ٦٩ .

(١٧) ابن عثاني . قوانين الدواوين . ص ٣٦٩ .

(١٨) القلمشني . ضوء الصبح للمفسر . ص ٢٥٨ .

الدرهم السود (السوداء)

يقول عنها ابن فضل الله العمري ^(١) :

«ولا يوجد بالديار المصرية من الدراهم السواد الا المسميات لا الأعيان ،
فأما بالاسكندرية فإنها توجد بها ، وهى كل اثنين بدرهم» .

ويقول فى موضع آخر ^(٢) :

«وبالاسكندرية معاملة الدرهم السواد حقيقة مقصوراً عليها لا يخرج فى
سواها ، ولا يتعدى حاضرة أسوارها ، وهو فيها كل درهمين سوداوين بدرهم
واحد من نقد الدرهم المصرى ، يوجد بها الدرهم السود حقيقة اسم على
مسمى ، وأما فى بقية الديار المصرية فكما قدمنا ، يوجد اسماً لا مسمى كل
ثلاثة دراهم سود بدرهم واحد من الدراهم المصرية» ^(٣) .

وأوردت بعض المصادر التاريخية ^(٤) ما يفيد استخدام الدراهم السود فى
المعاملات المالية ، والصفقات التجارية البسيطة ، وذلك فى مدينة
الاسكندرية ، كما يذكر المقرئى ^(٥) أن سبب تسميتها بذلك الاسم يعود الى

(١) مسالك الأبحار ، (دولة المالك الأولى) ، ص ٨١ .

(٢) نفسه ، ص ١٥١ ، وينقل القلقشندى ذلك فى صحيح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٣٨ -

٤٣٩

(٣) نلاحظ فرق سعر الصرف بين الاسكندرية وبقية أقاليم الديار المصرية ولعله أضيف درهم
فى سعر الصرف خارج الاسكندرية مراعاة لكونها عملة حسابية (اعتبارية) غير محسوسة ،
فكانه استعاض عن محسوسيتها بزيادة درهم سواد واحد لسعر صرف الدرهم الفضى .

(٤) اليوسفى ، نزوة الناظر ، ص ٣٤٧ ، المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠٨ .

(٥) نفسه ، ص ١٢٤ ، اغاثة ، ص ٦٥ .

غلبة النحاس عليها . وأن إصدارها كان قبل قيام الدولة الأيوبية . وقد استمر التعامل بها بعد أن أبطلت لفترة مؤقتة أواخر الدولة الأيوبية . وأخذت خلال العصر المملوكى الى جانب اسمها المعروف اسماً جديداً هو (الدراهم الورق) ^(١) .

هذا ولا تمدنا المصادر التاريخية بأية معلومات أو تطورات أخرى تعرضت له تلك الدراهم ، ولكن المؤكد أن استخدامها قد توقف سواء فى المعاملات التجارية أو فى غيرها ، وأن ذلك حدث فى تاريخ مجهول يغلب أن يكون بعد فترة تولى السلطان الناصر محمد ابن قلاوون حيث لم يرد فى المصادر المملوكية بعد تلك الفترة ، وحتى نهاية العصر المملوكى ما يشير الى وجود تلك الدراهم .

الدراهم الفلوس

لم تورد المصادر التاريخية أى معلومات عن الدراهم الفلوس ، واستخدامها عملة حسابية ، واكتفت بالإشارة اليها فى سياق الحديث عن القوة الشرائية ، أو القيمة النقدية للعملات المملوكية فقط .

ولكشف الغموض عنها ، وعن الظروف التى مرت بها فقد استفدت من دراستى لتطورات الأوضاع النقدية التى تعرضت لها العملات ، وخصوصاً الدراهم الفضية والفلوس النحاسية ، فمن خلال تلك التطورات أمكن تبين بعض المعلومات المتعلقة بالدراهم الفلوس ، بوصفها عملة حسابية مملوكية .

ففى العهد المملوكى الجركسى حدثت تطورات نقدية هامة أثرت تأثيراً كبيراً

(١) ابراهيم طرخان ، النظم الاقطاعية ، ص ٥٢٥ :

على الأوضاع النقدية فى الدولة ، وكان من أهمها استخدام عملة حسابية جديدة هى الدراهم الفلوس ، ويقصد بها تقدير قيمة المدفوعات بالدراهم الفضية ، والدفع يكون بالفلوس النحاسية ^(١) ، ولا شك فى أن وراء هذا التطور ظروفاً نقدية تمثلت بنقص امدادات الدولة من معدن الفضة اللازم لإصدار الدراهم الفضية ، فنقصت أعدادها بشكل كبير ، ولم تتمكن من القيام بالمهمة النقدية لها ، وهى تغطية عمليات التبادل المالى والتجارى فى الدولة ، وزادت الأزمة بتوقف إصدار تلك الدراهم ، ومع هذه الظروف لابد من وجود البديل النقدى للقيام بالمهمة الاقتصادية ، وتمثل ذلك البديل بالفلوس النحاسية التى برز مركزها وتساعد لتصبح العملة الرسمية للدولة ، وأداة الدفع الرئيسية فيها

وأمام نقص معدن الفضة (الدراهم) ، وتوفر معدن النحاس (الفلوس) عاجلت الدولة ذلك النقص من خلال توفر النحاس ، فأوجدت عملة حسابية يتم

(١) يذكر محمد أمين صالح فى التنظيمات التجارية فى عهد المماليك الجراكسة ، ص ٢٠٣ . ٢٠٥ . معتمداً على بعض المراجع الأجنبية أن الدرهم الفلوس له مدلولان : الأول قطعة النحاس ذاتها . والثانى وزن هذه القطعة أى أن وزنها درهم واحد . ومعنى آخر أن العملة النحاسية يطلق على كل فلس منها لفظ درهم ، وهذا يعنى فى الوقت نفسه وزنها .

ويمكن الرد على هذا القول أن كتالوجات السكة المملوكية خلت من عملات نحاسية أطلق عليها درهم فلوس . وأن ما عثر عليه من المسكوكات المملوكية ليس بينها أى فلوس نحاسية تزن درهماً واحداً فضلاً عن ذلك :

سامح عبد الرحمن ، الوحدات النقدية .

- رأفت النهروانى ، مسكوكات المماليك .

JUNGFLEISCH, M. Monnales ou Polds ou "Monnaies - Polds" De Sultan Mamelouk Haggy II Bulletin de L'Institut D'Egypte, 31 1948 - 1949 pp 34 47

Pool Balog, "The coinage of the Mamluk Sultans of Egypt and Syria" A. N S. 16. 1970. pp 113 - 171

التقدير خلالها بالدراهم الفضية غير المتوفرة . والدفع بالفلوس النحاسية المتوفرة .

وأول إشارة غير صريحة الى تلك الدراهم أوردها الصيرفى ^(١) ضمن حوادث شهر رمضان سنة ٧٩٣ هـ / أغسطس سنة ١٣٩١ م . ويذكر فيها أن مائة وستين ألف درهم تعادل سبعين ألف درهم فضة ، ولم يحدد الصيرفى نوع الدراهم اذ لا يوجد فى الدولة دراهم رسمية سوى الدراهم الفضية ، ولو كان المقصود بها دراهم غير مملوكة كالدراهم البندقية أو القرمانية أو غيرها لأشار الى ذلك ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن تلك المعادلة تعنى أن الدرهم الفضى الواحد يعادل درهين وثلاثاً تقريباً من تلك الدراهم ، وهذا ما كان عليه الوضع فى السنوات التالية عند معادلة الدراهم الفلوس بالدراهم الفضية ^(٢) .

إما أول إشارة صريحة لتلك الدراهم ، فقد أوردها المقرزى ^(٣) ضمن حوادث شهر رمضان سنة ٨٠٣ هـ / مايو ١٤٠١ م ، فى سياق حديثه عن القيم النقدية للعملات فى الدولة ، ثم تتوالى ذلك الإشارات اليها عند الحديث عن الأوضاع النقدية ، وخصوصاً ما يتعلق بالدراهم الفضية والفلوس النحاسية .

ومن خلال تلك الإشارات يلاحظ أن إيراد تلك الدراهم مقترن بالفلوس النحاسية الجديدة (الجدد) ، وهذا يعنى أن الدفع لم يكن يتم الا بالفلوس حديثة الإصدار حيث التعامل بها يكون عن طريق العدد ، أما الفلوس القديمة (العتق) فاستعمالها عن طريق الوزن ينفى الدقة فى عملية التقدير والدفع ،

(١) نزهة ، ج ١ ، ص ٣٣٣ .

(٢) فضلاً أنظر الفصل التالى ، القيمة النقدية .

(٣) السلوك ، ج ٣ ، ص ١٠٥٩ .

وغالباً ما يتم تحديد القيمة النقدية للفلوس العتق بتلك الدراهم الفلوس ، وعلى هذا فإنه لا يمكن الدفع بواسطتها سوى بالفلوس الجدد فقط .

وقد أكد ذلك ابن الهائم ^(١) عندما ذكر أن المقصود بالدرهم الفلوس هو قيمة الدرهم الفضى مدفوعة بالفلوس النحاسية الجدد التى يتم التعامل بها عدداً .

ومن الطريف أن الفضة الخام التى عرفت خلال العصر المملوكى بالفضة (الحجر) ، تم تحددى ثمنها بواسطة تلك الدراهم الفلوس ، وتراوحت قيمة الدرهم الواحد منها بين درهمين وثلاثة من العشرة من الدرهم الفلوس ، ودرهمين من الفلوس ، ودرهمين الا ربعا ودرهم ونصف فلوس ^(٢) .

هذا ما أمكنى العثور عليه من معلومات ارتبطت بالدرهم الفلوس من خلال المصادر المملوكية أمل أن يكون فيها بعض الايضاح لتلك العملة الحسابية التى بدئ باستخدامها فى العهد المملوكى الجركسى .

وهكذا يتبين لنا أنواع النقود المملوكية المعدنية والحسابية ، وما مرت به من ظروف نقدية خلال العصر المملوكى ، وبالنظر الى تلك الأنواع نجد أن السياسة النقدية لسلاطين المماليك لم تحدث أية تغييرات عما كان عليه الوضع قبل حكمهم ، ويمكن استثناء العملة الحسابية الدرهم الفلوس لكونها عملة حسابية جديدة . مع أن استحداثها راجع الى الأزمة النقدية التى تعرضت لها الدولة ، وليس الى سياستها النقدية .

(١) نزهة النفوس ، ورقة ٣٢ - ٣٤ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١١١١ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٧٧ فضلاً أنظر مزيداً من التفصيل عن القيمة النقدية للدرهم الفلوس فى الفصل التالى (قيمة الدرهم النقدية ، قيمة الفلوس النقدية) .

٢- أوزان النقود المملوكية *

لقد سبق أن تحدثت بإيجاز عند التمهيد لهذه الدراسة ، عن وزن النقود الإسلامية وعيارها ، وما دعت إليه الشريعة الإسلامية بهذا الخصوص ، وما ذكرته ينطبق على دولة المماليك لكونها أولاً دولة إسلامية تطبق ما تدعو إليه الشريعة الإسلامية من تعاليم ونظم ، وثانياً لأنها وارثة لعراث حضارى ضخم ، ونظم متعددة فى جميع نواحي الحياة ، ومن بينها النظام النقدى ، وبالأذات ما يتعلق بأوزان النقود وعياراتها ، الطرق المتبعة لتطبيق الأوزان والعيارات الشرعية على النقود ، وسبل التحقق من ذلك ، ومراقبته والإشراف عليه .

والحديث عن ذلك يضطرننا الى عدم تكرار ما سبق ذكره ، أو ما يتحدث عنه المصادر والمراجع وسأكتفى بالحديث عن سياسة السلاطين تجاه أوزان النقود وعياراتها ، والطريقة المتبعة للتحقق من أوزان وعيارات النقود ، وعلاقة دار العيار بالنقد ، وما أمكن معرفته من أوزان النقود التى أصدرها سلاطين الدولة .

فعن أوزان النقود المملوكية ، أو سياسة السلاطين فى ذلك ، ومدى توافقها مع الوزن الشرعى للنقود ، أقول : إن سلاطين العهد المملوكى البحرى كانوا أكثر اهتماماً وعناية بأوزان النقود ، و سلاطين العهد المملوكى الجركسى رغم عدم خلو المهددين من استثناءات ، إذ عانت الدولة المملوكية خلال السنوات

* المقصود بوزن النقود هو وزن القطعة النقدية بمعدنيها سواء كانا غضة ونحاساً أم ذهناً وفضة أما العيار فله عدة معان والمقصود به هنا هو مدى نقاء المعدن الذى تتكون منه القطعة النقدية مقارنة بما يضاف إليه من معدن آخر . (استثنائاً الكونلى عن النقود ، ص ٢٤٠ هامش رقم ١٢٧) .

العشر الأولى لقيامها من اضطراب نقدى شديد شمل أوزان النقود وعياراتها ، ولم تستقر الأوضاع النقدية حتى قام الظاهر بيبرس بأعماله الإصلاحية فى النظام النقدى ، حيث ركز جهوده فى إصلاح أوزان النقود وعياراتها ، وتشدد فى ذلك ، وأشرف عليه بنفسه ، ولقد وضع بهذا منهجاً لخلفائه الذين واصلوا الاهتمام والعناية بأمر النقود وإن تم ذلك بدرجة أقل ، ولا يمكن اغفال جهود السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى هذا المجال ، وحرصه من خلال سياسته النقدية التى سار عليها على ضبط أوزان النقود ، وما يتصل بها ، ولم يواصل خلفاء الناصر محمد ذلك الحرص وتلك السياسة ، وضعف أمر العناية بوزن النقود ، وانصرف اهتمام سلاطين الدولة عن ذلك ، حتى إذا جاء العهد المملوكى الجركسى بدأت أوضاع الدولة النقدية تتجه نحو التدهور رغم تلك المحاولات الإصلاحية التى قام بها عدد من السلاطين كالمؤيد شيخ ، والأشرف برسباى ، والأشرف قايتباى ^(١) .

وإذا أردنا الحكم على أوزان النقود المملوكية وتطابقها مع الوزن الشرعى للنقود ، اعتماداً على ما أورده المصادر والمراجع التاريخية ، فإنه يمكن القول بعدم التزام السلاطين بالوزن الشرعى ، والاعتماد عليه باستثناء ما أورده بعض المصادر التاريخية ^(٢) عن السلطانين الظاهر بيبرس ، والمؤيد شيخ من التزامها بالوزن الشرعى للنقود ، والاهتمام بذلك والتشدد فيه .

وعند تطبيق الوزن على ما أصدره سلاطين المماليك من نقود ذهبية - تم

(١) فضلاً أنظر فصل الفساد النقدى فى الدولة ص ٥٥٨ ، ٥٦٣ .

(٢) ابن الهائم ، نزعة النفوس ، ورقة ٢٩ ، ٣١ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٢٩ -

٦٣ ، المخطوط ، ج ١ ، ص ١١٠ ، الأسدى ، التيسير والاعتبار ، ص ١٢٨ .

العثور عليها - نجد أن الدقة في ذلك الوزن غير متوفرة بشكل كبير قدم تلك النقود ، وما تعرضت له من نقص اما بفعل الأفراد أو بفعل الطبيعة .

وعلى العموم ، فالملاحظ على أوزان النقود التي سجلت ضمن المجموعات النقدية المملوكية وجود دنانير على الوزن الشرعى أربعة جرامات وخمسة وعشرين بالمائة من الجرام (٤,٢٥ جم) وهو وزن المثلثال ، وبعض تلك الدنانير تزن أقل من وزن المثلثال ، ويعنى هذا عدم مطابقتها للوزن الشرعى ، والبعض منها يزن أكثر من وزن المثلثال بمعنى أن يكون وزن الدينار مثقال وربع ، أو مثقال ونصف ، أو مثقالان ، أو أكثر من ذلك ، وتلك الدنانير يمكن وصفها من حيث الوزن بعدم الدقة ، وعدم مطابقتها للوزن الحقيقي الذى يجب أن تكون عليه ^(١) ، وبالنظر الى الأوزان التي أوردتها المصادر والمراجع التاريخية ، والخاصة بالدنانير التي صدرت عن سلاطين دولة المماليك يتبين لنا ما يلى :

أولاً : إن متوسط أوزان الدنانير الصادرة قبل عهد السلطان الظاهر بيبرس كان بين ثلاثة جرامات ونصف الجرام ، وأربعة جرامات مما يعنى نقص تلك الأوزان عن الوزن الشرعى ^(٢) .

ثانياً : متوسط أوزان الدنانير الصادرة من فترة الظاهر بيبرس ، حتى نهاية فترة الناصر محمد كان مرتفعاً عن الفترة السابقة ، فقد بلغ أربعة جرامات تقريباً يزيد قليلاً فى بعض الأحيان ، وينقص مثل ذلك فى

(١) عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ، ص ٩٢ ، ٩٤ ، رأفت النبراوى ، مسكوكات المماليك ، ص ١٣ وما بعدها ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

Van Gemnep. op. cit., p. 372.

(٢) سامح عبد الرحمن ، الوحدات النقدية ، ص ٣١ ، ٤٨ .

أحيان أخرى ^(١) .

ثالثاً : كان متوسط وزن الدينار فى الفترة بعد الناصر محمد وحتى نهاية عهد الدولة ، فوق ثلاثة جرامات ونصف الجرام ، تقترب فى بعض الأحيان من أربعة جرامات ^(٢) .

رابعاً : لم يسجل من إصدارات سلاطين المجرأكسة من دنانير ذهبية على الوزن الشرعى سوى تلك التى أصدرها السلطان الناصر فرج بهدف الوقوف ضد منافسة العملة الايطالية ، والتى أطلق عليها الدنانير السالمية ^(٣) ، وبلغ وزن الدينار الواحد منها مثقالاً ، وصدر منها ما زنته مثقال ونصف ، ومثقالان ، وثلاثة مثاقيل ^(٤) .

خامساً : كان متوسط وزن الدنانير التى أصدرها الظاهر بريقوق ، فوق ثلاثة جرامات ونصف الجرام ، وأقل من أربعة جرامات ^(٥) .

سادساً : بلغ متوسط وزن الدنانير المملوكية التى أصدرها سلاطين المماليك المجرأكسة بين ثلاثة جرامات ، وثلاثة جرامات ونصف الجرام ، ومن ضمن تلك الدنانير ما أصدره كل من السلطان المؤيد شيخ ، والسلطان الأشرف برسباى ، والسلطان الأشرف قايتباى فى أثناء محاولاتهم الإصلاحية تحسين الوضع النقدى فى الدولة ^(٦) .

(١) سامح عبد الرحمن ، الوحدات النقدية ، ص ١٤٥ ، ٣٣٤ .
 (٢) فضلاً أنظر الفصل الخامس ، العلاقة النقدية ص ٥٠٨ .
 (٣) المقرئى ، النقود ، ص ٧١ ، وأفت النهرواى ، مسكوكات المماليك ، ص ٣٥ - ٣٦ .
 (٤) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، مج ٩ ، ج ١ ، ص ٦ - ٧ ، سامح عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ٢٢٤ ، ٢٣٤ ، وأفت النهرواى ، المرجع السابق ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .
 (٥) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ ، أبو الفرج العشى ، مصر ، القاهرة ، على النقود العربية الاسلامية ، ص ٩٦١ . محمد محمد أمين ، فهرس وثائق القاهرة ، ص ٣٤٢ هامش (٥) ص ٣٩١ هامش (٣) . محمد أمين صالح ، التنظيمات =

ومما سبق يتبين لنا أن جميع سلاطين المماليك - ومنهم أولئك الذين عرف عنهم سياستهم المتشددة فى الأمور النقدية - لم يلتزموا بالوزن الشرعى للدنانير الذهبية ، ويظهر أن سلاطين المماليك البحرية كانوا الأقرب الى الالتزام من سلاطين الجراكسة ، وهذا ما يفسر استقرار الوضع النقدى للدولة خلال العهد البحرى ، بعكس ما كان عليه الوضع غى العهد الجركسى حيث شهد العديد من الأزمات النقدية التى كان لها آثار سيئة ، وكانت سبباً فى تدهور النظام النقدى فى الدولة وانهيائه .

أما أوزان النقود الفضية ، فلم تكن تختلف عما كانت عليه أوزان النقود الذهبية ، وما مرت به من ظروف خلال عهدهى المماليك .

فالدروم الشرعى الذى يزن جرامين وسبعة وتسعين فى المائة من الجرام (٢,٩٧ جم) لم يأخذ به أى سلطان من سلاطين دولة المماليك ، وكانت أقرب الإصدارات الفضية الى ذلك الوزن هى إصدارات السلطانين : الظاهر بيبرس ، حيث بلغ متوسط وزن الدراهم الفضية التى أصدرها بين جرامين وخمسة وثمانين فى المائة من الجرام (٢,٨٥ جم) ، وجرامين وتسعين فى المائة من الجرام (٢,٩٠ جم) ^(١) ، وكذلك الناصر محمد ، وبلغ متوسط وزن دراهمه جرامين وثلاثة وتسعين فى المائة من الجرام (٢,٩٣ جم) ^(٢) . هذا وقد بلغ متوسط وزن الدراهم الفضية التى أصدرها بقية سلاطين المماليك البحرية بين جرامين وستين فى المائة (٢,٦٠ جم) ، وجرامين وسبعين فى المائة من الجرام (٢,٧٠ جم) ^(٣) .

= التجارية ص ١٩٦ ، زبيدة محمد هنا . وثالثه البيع فى مصر خلال العصر المملوكى ، ص ٩ . رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة . رقم ٢٣٣٦ سنة ١٩٧٧ م
(١) سامح فهمى ، الوحدات ، ص ٦٣ ، ٨٤ .
(٢) اشتور ، التاريخ الاقتصادى ، ص ٢٨٢ .
(٣) نفسه ٢٨١ ، ٢٨٣ ، سامح فهمى ، المرجع السابق ، ص ٣٤ وما بعدها .

وعن متوسط وزن الدراهم الفضية التى أصدرها سلاطين الممالك الجراكسة ، فقد بلغ بين جرام واحد ونصف الجرام (١,٥ جم) ، وجرامين (٢,٠٠ جم)^(١).

وتلمس الفارق الكبير فى أوزان الدراهم بين العهدين مع عدم توافقها مع الوزن الشرعى للدهرم الفضى ، وإن كان الفارق لصالح الممالك البحرية الأمر الذى انعكس على استقرار الوضع النقدى ، فإنه لم يكن فى صالح الممالك الجراكسة حيث عاش النظام النقدى أزمات متكررة نتيجة نقص أوزان النقود .

ولا شك فى أن سبب ذلك النقص الذى حدث فى أوزان الدراهم الفضية فى دولة الممالك ، يعود الى نقص امدادات الدولة من معدن الفضة ، وتفاوت النقص بين العهدين المملوكى والمجركى .

وعن أوزان الفلوس النحاسية التى كانت عليها الإصدارات النحاسية المملوكية ، فمن المعروف أنه لم يكن للفلوس وزن شرعى ، لأنها تدخل فى النصاب الشرعى للنقود^(٢) ، ولكونها ليست من النقود الشرعية التى أقر وزنها الاسلام ، لذا تفاوتت أوزانها بشكل ملحوظ ، وهذا ما جعلها هدفاً للفساد النقدى الذى كان ظاهرة اتسم بها العصر المملوكى بعهديه البحرى والمجركى .

وبشكل عام يبدو أن الفلوس النحاسية خلال عصر الممالك كانت ، على وزنين :

(١) رأفت النبراوى ، مسكوكات الممالك ، ص ١٤٧ . ١٨٦ :

Bacharach, Circassian Monetary Policy. p. 268.

(٢) عباس المزوى ، تاريخ النقود العراقية ، ص ٢٢ .

الوزن الأول بين جرامين ونصف الجرام (٥ ، ٢ جم) ، وثلاثة جرامات (٣ جم) ، وهذا الوزن عملت به الدولة منذ قيامها حتى سنة ٧٥٩ هـ / ١٣٥٧ م عندما أصدرت الدولة في ذلك العام فلوساً نحاسية كانت ثقيلة الوزن ^(١) ، بلغ متوسط وزنها أربعة جرامات من النحاس المخلوط بمعادن أخرى ، وهو الوزن الثانى ، واستمرت الأوزان حول ذلك المتوسط تقل أحياناً ، وتزيد في أحيان أخرى ^(٢) .

عيارات النقود المملوكية *

المقصود بعبارة النقود ما فيها من المعدن الخالص بنسبة محدودة تتوافق مع وزن القطعة المعدنية ^(٣) ، وذلك الوزن يشمل المعدن الخالص ومعدناً آخر يخلط به ليكسبه صلابة ، أو محافظة على القيمة النقدية للقطعة المعدنية ^(٤) ، ومن المعروف أن لكل من النقود الذهبية والفضية مقادير خالصة من معادنها بنسب ثابتة ومعينة ، وتحديد تلك المقادير هو ما اصطلح على تسميته بالعبارة .

ونظراً لما تشكله النقود من أهمية قصوى في حياة الناس ، واقتصاديات الدول ، لم يكتف بالأوزان وحدها ، بل كان من الضروري مراعاة عيار النقود

(١) القلشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٣٩ - ٤٤٠ ، المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣١٧ ، مرعى بن يوسف ، نزهة الناظرين ، ورقة ٣٧ أ .

(٢) سامح فهمى ، الوحدات النقدية ، ص ٨٥ وما بعدها ، رأفت النهروانى ، مسكوكات المماليك ، ص ١٩٢ ، ٢٢١ .

* ورد العيار عند العرب بعدة معان ، يقال غير الدنانير تعبيراً وزنها واحداً بعد واحد وقالوا عاور المكابيل وعورها أى قدرها وعابر بينها معايرة وعياراً : قدرهما ونظر ما بينهما (أنستاس الكرملى ، النقود العربية ، ص ٤٤ ، هامش رقم (٢) .

(٣) البقل ، التعريف ، ص ٢٥٣ .

(٤) محمد أمين صالح ، التنظيمات التجارية ، ص ١٨٧ .

لائيات شرعيتها وصحتها للتداول ، ومعرفة عيار السبائك المعدنية لمعدنى الذهب والفضة لم يكن أمراً تقديرياً بل كان مقدار النقاء فى المعدن يتم الوزن أولاً ثم بمقارنة السبيكة بأخرى تكون معروفة بنقاء معدنها (جائزة العيار) ^(١) .

إن تحديد عيار السبيكة يتم بالنسبة للعدد (١٠٠٠) ، أو للعدد (٢٤) الذى يمثل الوزن الكلى ^(٢) . وكان العيار الصحيح للذهب أن لا يقل وزن الدينار عن درهم ونصف ^(٣) (درهم وزن) ، وتكون نسبة الذهب فيه حوالى تسعين فى المائة (٩٠ ٪) ذهباً خالصاً ^(٤) . أما الفضة فكان عيار دراهمها أن يكون ثلثا الدرهم الفضى من الفضة الخالصة ، والثلث من النحاس ^(٥) ، أى بنسبة ستة وسبعين وستة وعشرين فى المائة من المائة (٧٦.٢٦ ٪) ، ويكون بهذا العيار أجود أنواع الدراهم ، وأكثرها دقة فى عيارها .

لقد حرص سلاطين المماليك البحرية على عيار النقود ، وأتبعوا سياسة تقوم على ضبطه ، وعدم التساهل فيه بقدر ما ساعدتهم طرق التصفية المتبعة بدور الضرب ، ومعظم سلاطين البحرية لم يتهاونوا فى هذا الجانب ، بل تشددوا ضد أى تلاعب فى عيار النقود سواء كان مصدره داخل دار الضرب ، أو خارجها ^(٦) . وإن لمجحت هذه السياسة فى بعض الأحيان إلا أنها فى أحيان

(١) عبد الرحمن فهمى ، فجر السكة العربية ، ص ٢١٨ .

(٢) محمد أمين صالح ، المربع السابق ، ص ١٨٧ .

(٣) الأسدى ، التيسير والاعتبار ، ص ١٢٩ .

(٤) المقرئى ، المخطوط ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢٨١

(٥) العمري ، مسالك الأبحار ، (مالك مصر والشام واليمن والحجاز) ، ص ١٤ .

القلقشندى ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٤٣ ، ص ٤٦٢ .

(٦) الذهبى ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص

٢٧٦ ، المقرئى ، المخطوط ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ .

أخرى لم يكتب لها النجاح ، فمرت النقود - وخصوصاً الذهبية منها - بمرحلة من عدم الثبات فى عياراتها ، ومدى صفاء معادنها ونقاوتها ^(١) . أما فى عهد سلاطين الجراكسة ، فلم يكن عيار النقود أحسن حالاً من أوزانها ، حيث تعرضت النقود المملوكية بمختلف أنواعها الى عدم ضبط عياراتها ، وإهماله وعدم مراعاته والاهتمام به ، وقد شهد العهد المملوكى الجركسى حوادث عديدة توضح ذلك ، ويكفى من الإهمال أن بعض السلاطين اتخذوا من نقص العيار تجارة لهم يحققون منها أرباحاً مالية كبيرة ^(٢) .

وتتضح السياسة التى سار عليها سلاطين المماليك بشأن عيار النقود بقول المقرئى ^(٣) :

« وكان يجتهد فى خلاص الذهب وتحرير عياره الى أن أفسد الناصر فرج ذلك بعمل الدنانير الناصرية فجاءت غير خالصة » .

المهم أن سلاطين الجراكسة لم يلتزموا بالعيار الصحيح للنقود ، التى ساءت كثيراً وفسدت ، وكثر التلاعب بها الأمر الذى أدى بالتالى الى زيادة الأزمة النقدية ، واضطراب الوضع النقدى فى الدولة بصورة عامة ^(٤) ، وقد شهدت القلوس النحاسية فى العصر المملوكى الجركسى دون غيرها من النقود الأخرى تلاعباً وفساداً لم تشهده طوال العصر المملوكى ، وأصبحت مجالاً للتلاعب سواء من قبل رجال الدولة ، أو من قبل المتخصصين فى إفساد النقود من الزغليين وأعوانهم ، فخلط النحاس بالحديد والرصاص وغيرهما رغبة فى الاستفادة

(١) عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ، ص ٩١ .

(٢) فضلاً أنظر الفصل السادس ، الفساد النقدى فى الدولة ، ص ٥٤٩ ، ٥٥١ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(٤) القلقشندى ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ ، عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ، ص ٩٧ .

والريح المادى .

لقد كان عيار الدراهم الفضية فى العهد البحرى مرتفعاً كالدنانير الذهبية ^(١) ، وخصوصاً بعد الإصلاحات النقدية التى قام بها السلطان الظاهر بيبرس والتى أدت الى رفع نسبة عيار سبيكة الدراهم الفضية الى ستة وسبعين فى المائة (٧٦ ٪) من الفضة الخالصة ، بعد أن كانت ستة وستين وستة وعشرين فى المائة من المائة (٦٦,٢٦ ٪) ^(٢) .

أما أفضل عيار سجل عن الدراهم الفضية الجركسية ، فقد كانت دراهم السلطان الظاهر برقوق الذى عرف عنه سياسته النقدية المتشددة ، والإشراف الدقيق والمراقبة الدائمة على دار الضرب والعاملين بها ، وقد بلغ عيار الدراهم التى أصدرها بين سبعة وخمسين فى المائة (٥٧ ٪) ، وواحد وستين فى المائة (٦١ ٪) ، وهذا يعنى أن بقية سلاطين الجراكسة قد أصدروا نقوداً أقل عياراً مما أصدره الظاهر برقوق ^(٣) .

وللتحقق من أوزان النقود وعياراتها بكل دقة وضبط فقد استخدمت (السنجات أو الصنجات) ^(٤) ، وهى الطريقة المعتادة منذ زمن طويل ، وورثها

Balog, op. cit., pp. 165 - 166.

(١)

(٢) المقرزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠٨ ، سامح لمسى ، القيم النقدية فى الوثائق الملوكية ، ص ٢٤٢ ، المكتبة الفبصلية ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

(٣) رأفت النهروانى ، مسكوكات ، ص ٢٩٥ :

Bacharach, and A. Qordus, "Studies on the Fineness of Silver Coins" pp. 315 - 316.

JESHO, II, 1968. pp. 298 - 317.

(٤) جمع سنجة أو صنجة ، وأصلها سنك ترازو ، وتعنى حجر الميزان ، وهى من الفارسية ويراد بها الاصطلاح (العيار) .

الماليك ، واستخدموها فى أوزان وعيارات نقودهم ، دون أن يدخلوا عليها أى تغييرات أو تعديلات ، وخصصت لوزن النقود وضبط عيارها ، ووزن الأحجار الكريمة ، وقد تم تصنيعها فى العصر المملوكى من الزجاج ، الذى وجد أنه أحسن مادة لضبط الوزن ، حيث لا يتأثر بالعوامل الطبيعية ، وتظهر عليه أى تغيرات قد تتعرض لها تلك الصنجات ^(١) .

ودار العيار هى الجهة الحكومية المسئولة عن تصنيع تلك الصنجات ، وتعير فيها جميع الموازين والمكاييل والمقاييس المستعملة فى الدولة ^(٢) .

١ - ابن الرقعة ، أبو العباس أحمد ، الإيضاح والتبيان فى معرفة المكاييل والميزان .

- عبد الرحمن فهمى ، صنع السكة العربية ، ج ١ .

- عبد الرحمن فهمى ، صنع السكة فى فجر الاسلام ، ج ٢ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .

- على مبارك ، الميزان والأقبيسة والأوزان ، ص ٢٧ .

- عباس العزواى ، تاريخ النقود العراقية ، ص ٢٢ ، ٢٥ .

- سامع عبد الرحمن فهمى ، المكاييل فى صدر الاسلام ، ص ٥٦ ، ٧١ ، المكتبة الفيصلية مكة المكرمة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

(١) وثيقة الأشرف قايتباى ، ص ٤١٠ ، نشرها د. عبد اللطيف ابراهيم ، ضمن أبحاث المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية ، نوفمبر سنة ١٩٥٩ ، ص ٣٨٩ ، ٤٦٠ ، ناصر النقشبندى ومهاب البكرى ، الدرهم الأموى العربى ، ص ١٧ .

(٢) القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٤٢ ، المقرئى ، الخطوط ، ج ١ ، ص ٤٦٣ -

٣- الإصدارات النقدية المملوكية

إن دولة المماليك كغيرها من الدول الإسلامية قد اتخذت لها وحدات نقدية معينة سكّت عليها أسماء سلاطينها وألقابهم ، ودر الضرب وتاريخ الضرب ، وغير ذلك من الكتابات والنقوش التى تختم بها العملات النقدية ، قبل طرحها للتداول الرسمى فى أسواق الدولة ، ولكن اتسمت تلك الوحدات بما امتازت به الدولة من أوضاع سياسية واقتصادية ، فالمعروف أن النقود عادة ما ترتبط بالسلطان ، ومدى قوته وضعفه ، وما يتعرض على ذلك من بقائها وانتشارها ، داخليا وخارجيا ، فما دام السلطان على رأس السلطة السياسية فى الدولة ، كان تأثير ذلك على الأوضاع النقدية فيها ملموساً وظاهراً ، حيث تكتسب مسكوكاته النقدية الثقة والقبول من المتعاملين بها ، أما إذا اختلف الوضع لأمر ما ، فسرعان ما يختلف الوضع النقدى تبعاً لذلك .

وبناء عليه فإن من الممكن تقرير ظاهرة اتسمت بها نقود المماليك ، وهى أن تلك النقود كانت على درجة كبيرة من الحساسية والتأثر بالأوضاع السياسية التى عاشتها الدولة ، تلك الأوضاع التى اتسمت فى معظم فتراتنا بالاضطراب السياسى الذى حفل بكثير من الفتن والمنازعات ، وأثرت على مجمل الأوضاع فى الدولة سياسية واقتصادية واجتماعية ويمكن استثناء فترتى الاستقرار السياسى اللتين عاشتهما الدولة فى عهدها البحرى ، وذلك خلال حكم كل من السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٥٩ - ١٢٧٧ م) ، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون فى فترة حكمه الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤٠ م) حيث كانت الأوضاع فى الدولة بشكل عام مستقرة من كافة جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، الأمر الذى أدى الى استقرار الأوضاع النقدية ، وتقوية مركز النقود المملوكية ، وسيادتها على العملات المعاصرة لها.

وفيما يلي سأعرض للإصدارات المملوكية خلال الأوضاع التي مرت بها الدولة موضعاً أهم العوامل المؤدية الى تعدد الإصدارات النقدية وتغييرها ، وسأعتمد الى ايراد لمحة موجزة عن النقود التي كانت موجودة عند قيام الدولة ، والتي كان التعامل النقدي قائماً على أساسها ، بالإضافة الى تطور الإصدارات النقدية لسلطين المالينك وتعددتها .

عوامل ضرب النقود في الدولة

تنوعت العوامل والأسباب التي تدعو الدولة الى ضرب عملات جديدة ، فبالإضافة الى العوامل السياسية - وهي عادة ما تؤدي الى تغيير العملة ، واستحداث أو إصدار عملات جديدة - هناك أيضاً عوامل اقتصادية كان لها أثر هام ، ورئيسي في قيام الدولة في كثير من الأحيان بإصدار عملات بديلة عن عملات رأت تغييرها لسبب أو لآخر .

وفي التفصيل التالي نلقى الضوء على تلك العوامل وتأثيراتها :

العوامل السياسية

من الأمور الطبيعية لكل حاكم أو سلطان أن يقوم عند ارتقائه سلطة الدولة بضرب نقود تحمل اسمه ولقبه للدلالة الرسمية على حكمه وتولييه شئون الدولة ، ومن المؤرخين من عد ضرب النقود وظيفة ضرورية للملك ، فهي من مهام الحاكم ، وضروريات حكمه نظراً لما يتحقق بها من تنظيم لمختلف أنواع المعاملات الاقتصادية والمالية ، ولما في ذلك أيضاً من المحافظة على مصالح الرعية ، وسبل عيشها من أن يتطرق اليها الفساد والظلم . ومن العوامل السياسية التي تدعو الدولة الى ضرب نقود خاصة بها ، ورغبتها وحرصها على وحدة أجزائها وصيغتها بصيغة اسلامية ، والابتعاد عن المؤثرات الخارجية التي

تكون مخالفة لمبادئ الدولة وتقاليدها ، وتوجهاتها المختلفة فى كافة الميادين ، كما أن هذا الابتعاد يدعو الدولة الى الاستقلال وعدم الارتباط بالقوى الخارجية ، وخصوصاً تلك القوى التى تسعى للنيل من قوة الدولة الاسلامية ، والتأثير على أوضاعها الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، واستقلالية تلك النواحي مدعاة للمحافظة عليها ، وتوجيهها الوجهة الصحيحة التى تحقق الأهداف العليا للدولة وتخدم مصالح شعوبها .

ويضاف الى العوامل السياسية الداعية الى ضرب النقود ، عامل الأحداث السياسية التى تمر بها الدولة ، ويكون لها تأثير كبير فى تكوينها ومسيرتها ، وتدعو تلك الأحداث ، أو المناسبات الدولة الى ضرب نقود خاصة بها ، يتم تداولها عملات رسمية فى بعض الأحيان ، وفى أحيان أخرى ينظر اليها بمثابة نقود تذكارية تحكى تلك الأحداث ، ومع أن الدولة المملوكية لم تقم بسك مثل تلك النقود ، فإنها سكّت فى بعض فتراتنا نقوداً بمناسبة بعض الأحداث التى مرت بها الدولة كالنقود التى قام بضرها السلطان المظفر قطز سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م وتحكى الانتصار التاريخى الذى حققته جيوش الدولة المملوكية فى عين جالوت ضد جحافل المغول الغازية للعالم الاسلامى .

وكذلك ما قام به الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م من ضرب نقود سجل عليها حدثاً هاماً فى التاريخ الاسلامى ، هو انتقال الخلافة العباسية الى القاهرة بعد سقوطها فى بغداد ، وقد حملت تلك النقود لقب الخليفة العباسى

(١) أبو القاسم أحمد ابن الظاهر بالله محمد بن الناصر لدين الله ، برع له بالخلافة فى شهر رجب سنة ثمان وخمسين وستمائة ، بونيو سنة ١٢٦٠ م ، وقام ببيعته السلطان الظاهر بيبرس .

قدم من بغداد بعد سقوطها فى يد التتار فى المحرم سنة ٦٥٦ هـ / يناير سنة ١٢٥٨ م مع =

المستنصر بالله ^(١) مصحوباً بلقب قسيم أمير المؤمنين ، وهو اللقب الذى اتخذه الظاهر بيبرس بهذه المناسبة ^(١) . هذا ما يتصل بالعوامل السياسية التى كانت لها أثرها فى تعدد الاصدارات النقدية ، أما عن العوامل الاقتصادية ، فقد كان لها تأثير كبير ، وفعال فى قيام الدولة المملوكية فى كثير من الفترات بضرب مجموعات مختلفة من النقود الذهبية والفضية والنحاسية .

فأول هذه العوامل هو الفساد النقدي الذى تتعرض له النقود من غش وتزييف ، وما يلحق ذلك من مظاهر مصاحبة للفساد النقدي الذى أصبح ظاهرة خطيرة لازمت الأوضاع النقدية فى دولة المماليك خصوصاً فى عهدها الجركسى ، وقد اضطرت الدولة الى مواجهة هذا الفساد بقيامها بسك نقود بديلة عن تلك التى أصابها الفساد .

وقد حفل التاريخ المملوكى بأمثلة عديدة لضرب النقود بسبب الفساد النقدي ، وما يلاحظ أن ذلك الفساد خلال العهد المملوكى البحرى كان من عمل

جماعة من العرب شهدوا على أنه ابن الظاهر بالله العباسى ، فأثبت القضاة شهادتهم وبيع بالخلافة .

فى أواخر سنة ٦٥٨ نوفمبر ١٢٦٠ م عاد الى بغداد بجيش كبير جهزه الظاهر بيبرس لاستعادة بغداد ، ولكنه قتل عند وصوله حيث خرج اليه التتار وقاتلوه حتى قتل مع غالب جنده .

(ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٣١ ، ٢٣٣ ، البيهقى ، قطب الدين موسى ابن محمد بن أحمد ، ذيل مرآة الزمان ج ٢ ، ص ١٦٣ ، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م ، الطبعة الأولى ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد ، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م ، القلقشندي ، مآثر الاتافه فى معالم الخلافة ، ج ٢ ، ص ١١١ ، ١١٤ ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٦٤ م) .

(١) البيهقى ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٢٤ ، القلقشندي ، مآثر الاتافه ، ج ٢ ، ص ١١٣ .

الزغليين وأعوانهم فقط ، أما فى العهد المملوكى الجركسى ، فبالإضافة الى ما كان يقوم به الزغليون من افساد للنقود ، فقد كان لبعض سلاطين الدولة ، وأعوانهم من كبار الأمراء وأصحاب المناصب دور فى الفساد النقدى الذى استشرى فى ذلك العهد .

ويرتبط بهذا العامل عامل آخر - وهو من نتائج الفساد الذى أصاب العملة - هو التعامل بالنقود عن طريق الوزن ، وكما هو معروف فإن التداول النقدى عن طريق العدد أدق وأسهل ، كما أن العد مطلب للمتعاملين وأصحاب الأموال من صيارفة وغيرهم ، فتضطر الدولة عند التعامل بالنقود وزناً الى إصدار عملات جديدة يتم التعامل بها عدداً (معاددة) بدلاً من تلك التى دخلها الفساد .

ومن العوامل الاقتصادية الريح المادى الذى تجنيه الدولة ، ويجنيه السلاطين وكبار رجال الدولة من إصدار العملات .

اذ أن دولة المماليك كانت تستفيد من ضرب النقود فى الحصول على بعض ايراداتها المالية ، لقاء تحويل خامات الذهب والفضة والنحاس التى يملكها التجار وأصحاب الأموال الى عملات معدنية ، بالإضافة الى ما يقدم لدار الضرب من عملات أو خامات معدنية على هيئة ضرائب ورسوم مالية من تجار الدولة ، وغيرهم من طوائف التجار الأجانب ، وتلك الظروف قد أدت الى حصول دور الضرب فى الدولة على جزء من احتياجاتها من المعادن ، وأوجدت مصدراً شبه دائم لتغطية جزء ولو يسير من مستلزمات دار الضرب .

وإذا كان ما تحصل عليه الدولة من ربح مادى فيما سبق هو عن طريق مشروع ، فإن هناك طريقاً آخر غير مشروع استغله بعض سلاطين دولة المماليك الجراكسة للحصول على ربح مادى لقاء ضرب النقود ، حيث برزت ظاهرة قيام

بعض السلاطين ، أو بعض كبار رجال الدولة والأمراء ، وأصحاب المناصب فيها باستغلال مراكزهم ، والعمل من أجل تحقيق مصالحهم وأطماعهم الشخصية عن طريق ضرب النقود .

فقد كان السلطان أو غيره يقوم بضرب نقود جديدة غير خالصة العيار ، وليست ثابتة الوزن (مغشوشة) ، أى أن معدنها مخلوط بمعادن أخرى كالرصاص والحديد والنحاس ، وغيرها من المعادن الأخرى ، فيتم تداولها والتعامل بها بقيمة أعلى من قيمتها الحقيقية ، فيتحقق من وراء ذلك ربح مادي كبير بهذه الطريقة ، كما أن هناك طريقة أخرى لتحقيق الربح المادي غير المشروع ، إذ يقوم بعض السلاطين ، أو من توكل اليهم مهمة إدارة دار الضرب والإشراف عليها من كبار الأمراء وأصحاب المناصب بشراء النقود القديمة (العتق) من أسواق الدولة بأسعار أقل من قيمتها الحقيقية ، فيعاد ضربها ثم عرضها بأسعار أعلى دون حدوث ما يدعو في الحقيقة الى ارتفاع قيمتها ، كضبط عيارها أو زيادة وزنها ونحو ذلك .

وقد زادت تلك الأطماع المادية لتلك الفئة من الإصدارات النقدية خلال عهد المماليك الجراكسة في الوقت الذي ازداد فيه فساد النقود ، الأمر الذي أدى الى تدهور الوضع النقدي في الدولة ، وبالتالي تدهور أوضاعها الاقتصادية .

ومن العوامل الاقتصادية أيضاً اضطراب الدولة إلى إصدار المزيد من العملات لمواجهة ازدياد الحركة التجارية ونشاطها ، الأمر الذي يدعو الى ضرورة توفر كميات كافية من تلك العملات للقيام بالمهمة الاقتصادية لها خلال المعاملات المالية المختلفة .

ونلاحظ هذا التوجه من الدولة بقيام بعض نواب الأقاليم فيها نياحة عن

السلطان بإصدار الدراهم الفضية والفلوس النحاسية لتأمين احتياجات أقاليمهم من تلك العملات ^(١) .

كما كان من ضمن العوامل الاقتصادية رغبة بعض سلاطين الدولة إصدار مجموعة من العملات النقدية يكون لها القوة والمركز اللذان تتمتع بهما نقود غيره من السلاطين السابقين فيحرص بعضهم على إصدار النقود ، وتوسيع دائرة التعامل بها وتداولها ، ومنع ما عداها من إصدارات سابقة ، وحين لا تجد هذه الخطوة القبول من المتعاملين يعاود السلطان محاولته بإصدار جديد من النقود عليها تلقى القبول ، وهكذا يكرر بعض سلاطين الدولة إصداراتهم النقدية رغبة في إحلالها في عملية التداول محل غيرها من العملات التي تلقى القبول من المتعاملين .

وأخيراً فإن التنافس الاقتصادي والنقدي بين العملات المملوكية والعملات الأخرى المعاصرة لها قد أوجد ظروفًا ساعدت على قيام الدولة بضرب إصدارات عديدة من العملات في بعض فترات تاريخها .

وأشير هنا بصفة خاصة الى التنافس النقدي بين الدينار الذهبى المملوكى وبين الدينار الذهبى الايطالى الذى سيطر على عمليات التداول النقدي في أسواق الدولة في بعض الفترات . اضطر سلاطين الدولة الى ضرب إصدارات ذهبية جيدة الوزن والعيار والسك ، بحيث تقوى على مواجهة الدينار الايطالى ، وتحوز على ثقة المتعاملين ورضاهم .

لقد قام سلاطين المماليك الجراكسة بعدة محاولات من هذا القبيل بدءاً من

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٣ ، ص ٢٣٢ ، ابن حجر ، أنها ، ج ٢ ، ص

عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق وانتهاء بعهد السلطان الأشرف برسبای .
ومع نجاح بعض تلك المحاولات فى الوقوف أمام انتشار الدوكة ، وسيطرتها على
أسواق الدولة ، فإنها ظلت منافساً قوياً للدينار الاسلامى وسيادته .

النقود المتداولة عند قيام الدولة

من المعروف أن دولة المماليك قد ورثت الدولة الأيوبية بنظمها المختلفة ، ومن
بينها النظام النقدى بوحدهاته النقدية التى تتكون من العملة الذهبية (الدينار) ،
والعملة الفضية (الدرهم) ، والعملة النحاسية (الفلس) .

ففى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م قام صلاح الدين الأيوبي بضرب عملة
ذهبية ، وإضافة الى ضرب اسمه على السكة ضرب اسم الخليفة العباسى
(المستضى بأمر الله) ^(١) ، ثم ضرب عملة ذهبية أخرى سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠
م ونقش عليها اسمه ، واسم الخليفة العباسى (الناصر لدين الله) ^(٢) وفى سنة

(١) هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتضى لأمر الله أبو عهد
الله محمد بن المستظهر بالله ، وهو الخليفة الثالث والثلاثون من خلفاء بنى العباس بالعراق ،
ولد سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م . بوع بالخلافة بعد موت أبيه فى تاسع ربيع الآخر سنة ٥٦٦
هـ / ١١٧٠ م . وكان عادلاً حسن السيرة ، اشتهر بسياسته المالية العادلة وشده فى الحق ،
وبعد توليه سنة واحدة قطع صلاح الدين الخطبة فى مصر للعاضد الفاطمى وأقامها له ،
واستمر فى خلافته حتى توفى فى شهر ذى القعدة سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م .

(القلقشندى ، مآثر الانافة ، ج ٢ . ٥٠ - ٥١ . السبوطى ، تاريخ الخلفاء . ص ٤٤٤ -
٤٤٥ . تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، الطبعة الأولى ،
القاهرة ، ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م) .

(٢) هو أبو العباس أحمد المستضى بأمر الله ولد سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م . وبوع له
بالخلافة بعد موت أبيه فى شهر ذى القعدة فى شهر ذى القعدة سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م .
تعد فترة خلافته من أطول الفترات اذ ولجها سهياً وأربعين سنة ، اشتهر بحزمه وشده ،
وامتازت مدة خلافته بالاستقرار ورعاية مصالح المسلمين ، توفى أول شوال سنة ٦٢٢ هـ /

٥٧٦ هـ / ١٨٨٨ م ساءت أوضاع العملة الذهبية التى أصدرها السلطان صلاح الدين ، وذلك بسبب نقص كميات الذهب فى الدولة ، ونقص احتياطياتها منه ، ولمنافسة الدنانير السورية ^(١) للدينار الإسلامى ، وانتشارها فى المعاملات المالية ، واكتسابها ثقة المتعاملين فى المراكز التجارية ، ونتيجة لذلك أمر صلاح الدين بضرب عملة ذهبية جديدة ، تحوز على ثقة ورضا المتعاملين تكون من الذهب الخالص ، وكما أمر بضرب عملة فضية حملت لقبه ، وأطلق عليها (الدرهم الناصرية) ^(٢) .

وعلى الرغم من فساد تلك الدراهم حيث كانت من الفضة والنحاس مناصفة ، وعدم اكتسابها ثقة المتعاملين فإنها استمرت مدة طويلة حتى بعد سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م ، عندما أمر السلطان الكامل الأيوبرى بإبطالها ، وضرب دراهم جديدة ، وضرب دراهم جديدة مستديرة الشكل ، تتكون من الفضة بمقدار الثلثين ، والنحاس بمقدار الثلث ، وقد أطلق على هذه الدراهم اسم (الدراهم الكاملية) ^(٣) ، وأمر الكامل بعدم التعامل بالدراهم الناصرية التى أطلق عليها اسم (الدراهم العتق) ، أو (الدراهم الورق) ، ولكن تشير بعض المصادر

= (شهاب الدين أبى محمد عهد الرحمن بن اسماعيل المقدسى : أبو شامة ، الدليل على الروضتين ، ص ١٤٥ ، دار الجليل ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٧٤ م ، القلقشندى ، مآثر الانافة ، ج ٢ ، ص ٥٦ - ٥٧ ، السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٤٨) .

(١) الدينار السوري ، ضرب فى مدينة صور فى بلاد الشام ، واستخدمه أهل الشام والعراق فى معاملاتهم منذ أيام الفاطميين ، ولم يبطل ضربها الا بعد وفاة الخليفة الأمر بالله الفاطمى ، غير أنها ظلت متداولة مدة طويلة .

عطية القوصى ، تجارة مصر ، ص ٢٤٧ ، حسين ربيع ، النظم المالية زمن الأيوبيين ، ص ٩٨ . (فضلاً أنظر هامش رقم (١) ص ٤٨٤) .

(٢) المقرئى ، النقود ، ص ٦٠ .

(٣) نفسه ، ص ٦٠ ، إغاثة الأمة ، ص ٦٥ - ٦٦ .

التاريخية الى استمرارية تداولها وعدم منعها ، والتعامل بها على ما بها فساد ، وصلت معه نسبة الفضة الى النصف ^(١) .

وفى العام الذى أصدر فيه الكامل الأيوبي تلك الدراهم ، أصدر أيضاً فلوساً نحاسية ، تم استخدامها فى المعاملات التجارية البسيطة ، وهذه الفلوس هى أول ما ضرب فى الدولة الأيوبية من العملات النحاسية ^(٢) .

هذا وقد أصبحت تلك الدراهم الفضية العملة الرئيسية للدولة ، وهى النقد المتداول الى جانب الفلوس النحاسية ، وذلك بسبب ما عانتها الدولة بصفة مستمرة من تناقص كميات الذهب ، حيث أدى هذا التناقص الى وقوع أزمات حادة ، تأثرت منها أوضاعها الاقتصادية ^(٣) .

وبعد انتهاء الدولة الأيوبية ، وقيام دولة المماليك بعدها ، استمر التعامل النقدي بتلك العملات التى ضربها الكامل الأيوبي من دراهم فضية وفلوس نحاسية .

يقول المقرئى ^(٤) عن ذلك :

« فلما انقرضوا ، وقامت الأتراك من بعدهم أبقوا سائر شعائهم ، واقتدوا فى جميع أحوالهم ، وأقرروا نقدهم على حاله ، من أجل أنهم يفتخرون بالانتماء اليهم » .

(١) أبو شامة ، الذيل ، ص ٢١١ .

(٢) المقرئى ، اغاثة الأمة ، ص ٧٠ ك

Rabie, op. cit., pp. 179 - 184.

(٣) المقرئى ، اغاثة ، ص ٦١ ، النقود ، ص ٥٩ .

(٤) النقود ، ص ٦٠ .

فالمقريزى يذكر باستمرار ذلك النوع من الدراهم الفضية والفلوس النحاسية وأن التعامل بها كان مقبولاً فى نواحى دولة الماليك ، وقد استمر هذا القبول فى المعاملات المالية مدة طويلة ، خلال تاريخ الماليك ^(١) ، الى جانب بعض العملات الأيوبية التى لم يستمر التعامل بها مدة طويلة ، والتى أبطل تداولها بها بعد قيام الدولة .

هذا ويمكن تلخيص النقود الأيوبية المتداولة عند قيام دولة الماليك بما يلى :

١ - الدنانير الذهبية ، وكانت أعدادها قليلة جداً بسبب تناقص كميات الذهب ، وسبب ضخامة المصروفات الأيوبية على القطاع العسكرى لحروبها الكثيرة مع الصليبيين .

٢ - الدراهم الفضية ، وهى على ثلاثة أنواع :

أ - الدراهم النقرة ، وهى الدراهم الفضية الكاملة ، وتحتوى على ما نسبته ثلثين من الفضة وثلث من نحاس ^(٢) .

ب - دراهم تساوى نسبة الفضة فيها الثلث تقريباً من وزنها ، والباقى من النحاس ، وهذه الدراهم كانت الثلاثة منها تساوى درهماً فضياً من الدراهم النقرة ، وهى التى عُرِفَت بالدراهم السود أو الورق ^(٣) .

(١) المقريزى ، إغاثة ، ص ٦١ ، النقود ، ص ٥٩ .

(٢) النقود ، ص ٦٠ .

(٣) عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ، ص ٧٣ .

(٤) المقريزى ، إغاثة ، ص ٦٥ ، النقود ، ص ٦٠ .

Ashtor, op. cit. p. 39.

(٥) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٤ ، سامح عبد الرحمن فهمى ، القيم النقدية فى الوثائق المملوكية ، ص ٤٨ .

Ashtor, op. cit., p. 120.

ج - دراهم تحتوى على نسبة ضئيلة من الفضة ، وكان التعامل بها محدوداً ، وينقسم الدرهم الى أجزاء كل جزء يسمى خروبة ، وتساوى ١/١٦ الى ١/٢٠ من الدرهم ^(١) .

٣ - الفلوس النحاسية التى أصدرها الكامل الأيوبي ، ومن جاء بعده من الأيوبيين ، والتى كانت أعدادها قليلة مقارنة بالدراهم الفضية ^(٢) .

والى جانب النقود الأيوبية ، كانت هناك نقود أخرى أصدرها الصليبيون بعد استيلائهم على أجزاء من بلاد الشام بهدف التعامل بها داخل اماراتهم التى أسسوها ، وفى علاقاتهم التجارية مع المسلمين ، وقد شملت تلك الدنانير الذهبية ، والدراهم الفضية التى كانت تقليداً للنقود الاسلامية ، وقد اتسمت تلك النقود بفسادها الشديد .

وكان من بين تلك النقود الصليبية الدراهم اليافية التى أكثر الصليبيون من ضربها كثرة بالغة ، وكانت من الفساد بدرجة لو تم استخلاص الفضة التى تحويها مائة درهم منها لأصبحت خمسة دراهم فضية فقط ، والبقية من النحاس المخلوط بمعادن رخيصة الثمن ^(٣) .

هذا ما ذكرته المصادر التاريخية من نقود متداولة عند قيام دولة المماليك ، ومن المرجح أن ظروف قيام دولة المماليك ، وما صاحبها من أوضاع لم تتح لسلطين الدولة - خلال العشر سنوات الأولى - بإبطال تلك النقود ، أو القيام بإصلاح نقدى يخدم استقلالية الدولة من الناحية النقدية ، الأمر الذى أدى الى

(١) عطية القوصى ، تجارة مصر فى البحر الأحمر ، ص ٢٤٠ .

Rabie, op. cit., p. 176.

(٢)

(٣) أبو شامة ، الدليل ، ص ٢١١ .

استمرار تداولها مع ما أصدره سلاطين الماليك من نقود مملوكية على الطراز الأيوبي^(١) ، ولم تتحقق تلك الاستقلالية الا بعد الإصلاحات النقدية التي قام بها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس ، وأوجدت نقوداً مملوكية ذات طرز مستقلة ومواصفات أكثر جودة من سابقتها .

مسح تاريخي لإصدارات النقود المملوكية

لقد اعتمدت في دراستي عن تطور ضرب النقود ، أو المسح العام للإصدارات النقدية لسلاطين الماليك ، على ما أورده المصادر التاريخية من معلومات عن هذه الإصدارات ، وقد استكملت جوانب النقص - التي لم ترد بطبيعة الحال في تلك المصادر - بالدراسات الأثرية التي قام بها عدد من الباحثين المحدثين .

ونظراً لأن دراستي لهذا الموضوع بعيدة عن الجوانب الأثرية ، فقد اهتمت عن دراسة تلك المسكوكات دراسة أثرية ، تعتمد على معرفة معادنها وأوزانها ونقوشها الكتابية ، وأقطارها وما يتصل بها من جوانب وصفية للعملة ذاتها ، وقد اكتفيت بالتعريف الموجز عن إصدارات للعملة ذاتها ، وقد اكتفيت بالتعريف الموجز عن إصدارات كل سلطان من المسكوكات بأنواعها المختلفة وكمياتها ، وتاريخ الإصدار ، وغير ذلك من المعلومات المتصلة بالجوانب التاريخية ، أو الاقتصادية في ضوء ما احتوته المصادر والمراجع من معلومات .

تعتبر شجرة الدر^(٢) من الناحية الزمنية أول سلاطين دولة الماليك (٦٤٨ هـ

Rabie, op. cit., p. 184.

(١)

(٢) فضلاً أنظر ترجمتها في : الذهبي العبر في خبر من غير ، ج ٣ ، ص ٢٧٦ ، ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٦١ ، ابن كثير البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٩٩ ، المقرئ

/ ١٢٥٠ م) ، وهى أول من ضرب سكة مملوكية ^(١) ، وكان ذلك سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م حيث ضربت نقوداً ذهبية وفضية ونحاسية فى دارى ضرب النقود فى القاهرة ودمشق ، ونقشت لقبها على تلك النقود ، وهو (المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل) ^(٢) ، كما نقشت مع اسمها ولقبها ، اسم لقب الخليفة العباسى المستعصم بالله ^(٣) ، وعلى الوجه الآخر عبارة (لا اله الا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) وهى العبارة التى حملتها جميع الإصدارات النقدية المملوكية فيما بعد بمختلف مراحلها التاريخية ، وتسبقها أحياناً عبارة (وما النصر الا من عند الله) ، وذلك على مسكوكات بعض السلاطين ^(٤) ، ولكن لم يكتب لهذه النقود

، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦١ ، ابن تفرى بردى ، الدليل الشافى ، ج ١ ، ص ٣٤٢ ، ابن الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج ١ ، ص ٢٦٨ ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، (ب - ت) .

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٢ ، ٣٧٠ ، المخطوط ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

(٢) العمرى ، مسالك الأبصار ، ج ٢٧ ، القسم الثالث ، ورقة ٦٥ ، عن نسخة بودليان ، ابن بهادر ، فتوح النصر ، ورقة ٧٣ .

(٣) هو أبو محمد عبد الله المستنصر بالله أبى جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله ، آخر خلفاء بنى العباس بالعراق ، ولد سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م ، ويومع له بالخلافة فى جمادى الأولى سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م ، وكان من خلفاء بنى العباس المشهود لهم بحسن السياسة والتدبير ، اشتهر بعدله وكثرة صدقاته وإكرامه للعلماء ، يؤخذ عليه لينه وعدم تيقظه وحزمه كما أخذ عليه حبه للمال وجمعه ، قتله التتار عند دخولهم بغداد فى يوم الاربعاء الرابع عشر من شهر صفر سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م .

(الذهبي ، المعبر ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، القلقشندي ، مآثر الانافة ، ج ٢ ص ٨٩ ، السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٦٤)

(٤) سامع عبد الرحمن ، الوحدات النقدية ، ص ١١٦ ، ١٣٠ وما بعدها .

الاستمرار . اذ استبدلت بإصدار جديد على يد المعز أيك التركمانى ^(١) (٦٤٨ - ٦٥٤ هـ / ١٢٥١ - ١٢٥٦ م) الذى تولى سلطنة الدولة بدلاً من شجرة الدر . فقام بضرب عملة فضية سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م ^(٢) . وقد أضاف مع اسمه على العملة كلاً من اسم ولقب الخليفة العباسى المستعصم بالله . والملك الصالح نجم الدين أيوب ^(٣) . ثم ضرب عملات فضية أخرى فى السنوات ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م - ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م . ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م ^(٤) .

أما عن العملات الذهبية (الدنانير) . فقد قام المعز أيك التركمانى بضرب دنانير جديدة سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م . بدارى ضرب النقود فى القاهرة والاسكندرية على الطراز الذى ضرب به دراهمه الفضية . حيث حملت الى جانب اسمه اسم الخليفة العباسى المستعصم بالله . والملك الصالح نجم الدين أيوب . وما ذلك الا حرصاً من المعز أيك على إضفاء الطابع الشرعى على توليه سلطنة الدولة . واستمراراً لما كان متبعاً فى الدولة الأيوبية من طبع اسم الخليفة على الإصدارات النقدية . وأيضاً وفاء وتقديراً لسيده الملك الصالح نجم الدين أيوب ^(٥) .

(١) فضلاً أنظر ترجمته فى : البيهقى . ذيل مرآة الزمان . ج ١ . ص ٥٤ . ابن كثير . البداية والنهاية . ج ١٣ . ص ١٩٨ - ١٩٩ . الذهبى . المعبر فى خبر من غير . ج ٣ . ص ٢٧٥ . المقرئى . السلوك . ج ١ . ص ٣٦٨ . ابن تفرى بردى . المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى . ج ١ . ص ٥ . تحقيق أحمد يوسف لحناتى . مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م .

(٢) عبد الرحمن فهمى . النقود العربية . ص ٨٧ .

(٣) محمد العش . مصر . القاهرة . على النقود العربية الاسلامية . ص ٩٦ :

Balog. op. cit., p. 115.

(٤) سامح عبد الرحمن فهمى . الوحدات النقدية . ص ٣٦ - ٣٧ .

(٥) عبد الرحمن فهمى . النقود العربية . ص ٨٧ .

أما السلطان الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيك^(١) (٦٥٥ - ٦٥٦ هـ / ١٢٥٦ - ١٢٥٨ م) ، فقد أمر بضرب مسكوكاته النقدية فور توليه سلطنة الدولة سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٨ م ، وقد حملت هذه النقود اسمه مصحوباً كذلك باسم الخليفة العباسي المستعصم بالله ، وكانت تلك النقود من العملات الذهبية (الدنانير) ، والفضية (الدراهم) ، وكذلك أنصاف الدراهم ، وقد تم ضرب هذه العملات في القاهرة والاسكندرية ، كما أضاف السلطان المنصور على بن أيك الى إصداره السابق إصدارين آخرين من النقود خلال سنتي ٦٥٦ هـ / ١٢٥٩ م ، و ٦٥٧ / ١٢٥٩ م^(٢) .

وفي عهد السلطان المظفر قطز^(٣) الذي تولى سلطنة الدولة بعد خلع المنصور نور الدين على بن أيك (٦٥٧ - ٦٥٨ هـ / ١٢٥٨ - ١٢٥٩ م) ، فقد تم إصدار عملات جديدة في الدولة شملت الدنانير الذهبية والدراهم الفضية ، والفلوس النحاسية ، حيث أمر المظفر قطز بإصدار عملات فضية (دراهم) فور توليه سلطنة الدولة ، وذلك في دار الضرب بالقاهرة ، وفي سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م أمر المظفر قطز بإصدار عملات ذهبية فضية ونحاسية من دارى الضرب بالقاهرة والاسكندرية ، هذا ولم تحمل إصدارات المظفر قطز النقدية اسم الخليفة العباسي كغيرها من الإصدارات المملوكية السابقة بل حملت اسمه

(١) فضلاً أنظر ترجمته في : ابن دقماق ، الجواهر الثمين ، ج ٢ ، ص ٥٧ ، المقرئى .

السلوك ، ج ١ ، ص ٤٠٥ ، ابن تغرى بردى ، الدليل الشافى ، ج ١ ، ص ٤٥١ .

(٢) سامع عبد الرحمن ، الوحدات النقدية ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٣) عن ترجمة السلطان المظفر قطز فضلاً أنظر : الذهبى ، العبر ، ج ٣ ، ص ٢٩١ ، ابن

كثير ، والهداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٢٥ ، أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص

٢١٠ ، ابن دقماق ، الجواهر الثمين ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

ولقبه فقط ^(١) . ومن المعروف أنه في هذه الفترة كان قد تم الاجتياح المغولي لمركز الخلافة الاسلامية في بغداد مما ترتب عليه سقوط الخلافة العباسية ، وبالتالي عدم وجود خليفة يكتب اسمه على السكة الملوكية .

لقد أعاد السلطان الظاهر بيبرس ^(٢) الخلافة الاسلامية بعد سقوطها ، حيث قام بإحياء الخلافة العباسية في مصر ، بعد توليه سلطنة دولة المماليك (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٥٩ - ١٢٧٧ م) .

ومهما كانت الأسباب التي دعت الظاهر بيبرس الى اتخاذ هذه الخطوة ^(٣) ، فإن اسم الخليفة العباسي ولقبه قد طبعاً على السكة الملوكية مع الإصدارات النقدية التي أمر بضرها السلطان الظاهر بيبرس عند توليه سلطنة الدولة ^(٤) .

(١) سامع عهد الرحمن . المرجع السابق ، ص ٤٥ ، ٤٨ :

Balog, op. cit., p. 116.

(٢) لترجمة الظاهر بيبرس فضلاً أنظر . محمد بن شاکر الکتبی . عیون التواریخ ، ج ٢١ ص ١٣٥ ، ١٤٥ . ابن الفرات . تاریخہ . مج ٧ . ص ٨١ ، ٩٢ . أبو الفداء عماد الدین اسماعیل . المختصر فی أخبار البشر . ج ٤ . ص ١٠ . دار المعرفة . بیروت (ب - ت) ، الصقاعی . فضل الله بن أبی الفخر . تالی کتاب وفيات الأعیان . ص ٤٩ . تحقیق جاکلین سوریل . المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٧٤ م . وغيرها من مصادر عديدة .

(٣) العمری . مسالك الأبصار . ج ٢٧ . ق ٤ . ورقة ٦ (نسخة بودلیان) . النوری . نهاية الأرب . ج ٢٨ . ورقة ٢٠ .

(٤) لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع . فضلاً أنظر ابن شاکر الکتبی . عیون التواریخ . ج ٢٠ . ص ٢٥٠ . وما بعدها . تحقیق فیصل السامر . نهیلة داود . دار الرشید للنشر . بغداد . ١٩٨٤ م . عهد العزيز الخویر . الظاهر بیبرس . ص ٣٧ ، ٣٩ . دار الأصفهانی وشركاء الطبعة الأولى . جدة . ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م . حامد زهان غانم . صفحات من تاریخ الخلافة العباسية فی ظل دولة المماليك . ص ١٨ ، ٢٦ . دار الثقافة . القاهرة . ١٩٧٨ م .

وقد صدرت في كل من القاهرة والاسكندرية ودمشق وحماة ^(١) ، وقد حملت تلك الإصدارات اسم السلطان الظاهر بيبرس ولقبه ، وكذلك اسم الخليفة العباسي أحمد بن المنصور الظاهر بأمر الله ، ولقبه الامام المستنصر بالله أبو القاسم ^(٢) ، أما الاصدارات التالية لسنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م ، فقد تضمنت فقط اسم السلطان الظاهر بيبرس ولقبه دون اسم ولقب الخليفة القائم في تلك الفترة ، وهو أبو العباس أحمد بن الحسن الامام الحاكم بأمر الله ^(٣) ، وقد شملت هذه

(١) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص ٢١٣ ، ابن بهادر ، فتوح النصر ، ورقة ١٠١ ، محمد باقر الحسيني ، الكنى والألقاب على نقود الممالك البحرية والبرجية في مصر والشام ، ص ٧٢ ، مجلة المورد ، مج ٤ ، العدد الأول ، سنة ١٩٧٥ م ، ص ٥٥ ، ١٠٤ .

(٢) هو أبو القاسم أحمد بن الظاهر بالله محمد بن الناصر لدين الله بويع له بالخلافة في شهر رجب سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، وقام ببيعته السلطان الظاهر بيبرس .

قدم من بغداد بعد سقوطها في يد المغول مع جماعة من العرب شهدوا على أنه ابن الظاهر بالله ، فأثبتت القضاة شهادتهم ، وبيع له بالخلافة أواخر سنة ٦٥٨ هـ / ١٥٦٠ م ، وفي رمضان من العام نفسه قدم مع الظاهر بيبرس من دمشق ، ثم جهزه بجيش الى بغداد لاستعادتها من المغول ، ولكن عند وصوله اليها خرج اليه المغول ، فقاتلوه حتى قتل مع غالب جنوده .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٣١ ، ٢٣٣ ، أبو الفداء ، المختصر ، ج ٣ ، ص ٢١٣ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٦٣ ، القلقشندي ، مآثر الإنافة ، ج ٢ ، ص ١١١ ، ١١٤ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٧ .

(٣) هو أبو العباس أحمد بن الحسين أو الحسن بن أبي بكر بن أبي علي القتيبي بن الأمير حسن بن الراشد بالله أبي جعفر المنصور ، بويع له بالخلافة يوم الخميس أواخر ذي الحجة سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م ، بعد مقتل الخليفة المستنصر بالله أواخر سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، وبعد أن مكثت الخلافة شاغرة مدة سنتين تقريباً ، بقي في الخلافة حتى توفي سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م بعد أن مكث بها أربعين سنة .

(ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ابن شاکر الكتبي ، عيون التواريخ ، ج ٢٠ ، ص ٢٨٧ ، القلقشندي ، مآثر الإنافة ، ج ٢ ، ص ١١٦ ، ١١٨ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٨ ، ٤٨٣) .

المسكوكات عملات ذهبية وفضية ونحاسية ، بالإضافة الى ما تم إصداره من أنصاف الدراهم الفضية بغرض تحقيق المرونة فى التبادل التجارى ، والمعاملات المالية المختلفة فى أسواق الدولة ^(١) .

وكما سبق القول - فإنه يلحظ على المسكوكات التى أصدرها الظاهر بيبرس بعد سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م أنها لم تحمل لقب الخليفة العباسى (الحاكم بأمر الله) ، ومن المرجح أن افعال ذلك مرجعه الى اعتقاد السلطة المملوكية أن أوضاع الدولة قد استقرت ، وأن النفوذ المملوكى - الذى كان مهدداً عند قيامها - فى مختلف الأقاليم لا يواجه بمنافسين أو منافذين هذا النفوذ ، وبناء عليه فإنه لا حاجة الى السند الشرعى الذى يمثل الخليفة ، كما أنه لا حاجة الى منحهم السلطة الشرعية التى يقفون بها أمام منافسيهم بعد أن تم القضاء على ما يتهدد الدولة من أخطار .

كما أن بعض المصادر التاريخية ^(٢) تذكر أن السلطان الظاهر بيبرس قد خاف عاقبة مبايعته للخليفة العباسى ، وما فيه من تهديد لسلطاته لذا قام بالحجر عليه فى القلعة ، مع الاغداق عليه بما يحتاجه من نفقات ومرتبات ، كما

(١) ابن بهادر ، فتح النصر ، ورقة ١٠٥ ، القلقشندى ، مآثر الانافة ، ج ٢ ، ص ١١٨ ،
سامح عبد الرحمن ، الوحدات النقدية ، ص ٨١ ؛

Balog, op. cit., pp. 117 - 120 .

ويذكر بعض الباحثين المحدثين أن اسم الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله ولقبه أضيفا الى السكة المملوكية فى الفترة المشار اليها . وشملت جميع الإصدارات ، ومن المرجح أن هذا القول ينطبق على العملات المملوكية الصادرة فى بلاد الشام ، لمزيد من التفاصيل فضلاً أنظر : محمد باقر الحسينى ، الكنى والألقاب ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٦١ .

منع اجتماعه بالأمراء وأصحاب المناصب فى الدولة ، بينما ترك له الحرية فى مقابلة العلماء ونحوهم .

هذا وما يشد الانتباه الى تلك النقود التى أمر بضربها الظاهر ببيرس تلك الدراهم الفضية التى استقلت عن التبعية النقدية للدولة الأيوبية ، وحملت طرزاً مملوكية خاصة ، وأطلق عليها الدراهم (الظاهرة) نسبة اليه ، وقد أصدر منها خمسة طرز مختلفة لكل طراز ظروفه التاريخية التى أملت على دار الضرب الالتزام بنقوش ونصوص معينة (١) .

لقد كانت تلك الدراهم ذات وزن وعتار مختلفين عن الدراهم الكاملية - سابقة الذكر - ونظراً لدقة عيارها ، فقد استمر التعامل بها طيلة فترات سلاطين المماليك البحرية ، وحازت على ثقة المتعاملين حتى دخلها الفساد النقدى كغيرها من العملات النقدية فى نهايات العهد البحرى ، وبالتحديد سنة ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ م (٢) .

أما عن مسكوكات السلطان السعيد ناصر الدين بركة (٣) بن الظاهر ببيرس (٦٧٦ - ٦٧٨ هـ / ١٢٧٧ - ١٢٧٩ م) ، فقد سار على نهج والده ، واتبع نفس طرز النقود التى أصدرها ، حتى رنك (شعار) الظاهر ببيرس ، والمتمثل

(١) سامح عبد الرحمن ، قالب لضرب الدراهم ، إضافة جديدة لسكة الظاهر ببيرس ، ص ٢٣٩ .

(٢) المفريزى ، النقود ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٣) لترجمة السلطان السعيد بركة فضلاً أنظر : ابن الفرات ، تاريخه ، مج ٧ ، ص ١٤٠ ز ، ١٤٧ ، الذهبى ، المعبر ، ج ٣ ، ص ٣٣٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٠ ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ج ٢ ، ص ٨٥ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

بصورة الأسد قد أمر السعيد بركة بطبعه على مسكوكاته المختلفة ^(١) .

وقد بدأ إصدار تلك المسكوكات سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م ، وشملت عملات ذهبية وفضية ، أصدرت في كل من القاهرة والاسكندرية ودمشق ، وقد حملت الى جانب اسم السلطان بركة اسم والده ولقبه ^(٢) .

وفي الفترة القصيرة لحكم السلطان العادل بدر الدين سلامش ^(٣) بن الظاهر بيبرس ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م) التي لم تتجاوز ثلاثة أشهر ، فقد تم إصدار عملات فضية فقط في كل من دمشق والقاهرة ، وحملت اسمه ولقبه ، واسم والده ولقبه أيضاً ^(٤) .

وتذكر بعض المصادر التاريخية ^(٥) أن السكة التي ضربت على عهد السلطان سلامش قد حملت على أحد وجهي العملة اسم مدير السلطنة الأمير سيف الدين قلاوون ، وكان وصياً على العادل سلامش الذي لم يكن يتجاوز

(١) سامح عبد الرحمن ، الوحدات النقدية ، ص ٨٨ .

(٢) محمد باقر ، الكنى والألقاب ، ص ٧٥ .

(٣) لترجمة السلطان العادل سلامش فضلاً أنظر : الذهبي ، العبر ، ج ٣ ، ص ٣٧٢ ، ابن دقماق ، الجوه الثمين ، ج ٢ ، ص ٩٠ ، ابن تغرى بردى ، الدليل الشافى ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

(٤) المؤلف المجهول ، الزهر السنية في الخلفاء والملوك المصرية ، ورقة ٧٢ ، مخطوط رقم ١٢٨ ، تاريخ دار الكتب المصرية ، سامح عبد الرحمن ، الوحدات النقدية ، ص ٩٢ ، محمد باقر الكنى والألقاب ، ص ٧٥ .

(٥) العمري ، مسالك الأبصار ، ج ٢٧ ، القسم الرابع ، ورقة ٣١ ، (نسخة بودليان) ، المؤلف المجهول ، الزهر السنية ، ورقة ٧٢ ، الكنى ، عيون التواريخ ، ج ٢١ ، ص ٢٢٢ ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٣ ، ورقة ٣٧ ، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٦ م .

السابعة من عمره (١) .

وسرعان ما استولى الأتابك قلاوون على السلطة لتبدأ فترة حكمه (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) ، وتلقب بالسلطان المنصور قلاوون (٢) ، وضرب اسمه ولقبه على ما أصدره من مسكوكات نقدية ، اشتملت على عملات ذهبية وفضية ونحاسية ، وكذلك أجزاء العملات الفضية ، وتم ضربها في كل من القاهرة والاسكندرية ودمشق وحماة (٣) ، وكان ضرب الدراهم الفضية على الطرازين الأيوبي - الذي ابتدأه السلطان الكامل الأيوبي عندما ضرب الدراهم الكاملية سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م - والطراز المملوكي الذي ابتدأه السلطان الظاهر بيبرس عندما ضرب الدراهم الظاهرية سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م (٤) .

وسار السلطان المنصور قلاوون على نفس سياسة الظاهر بيبرس في اهمال اسم الخليفة العباس ولقبه ، وعدم طبعها على السكة المملوكية .

وقد استمر هذا الاهمال على عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٥)

(١) الذهبي ، المعبر ، ج ٣ ، ص ٣٣٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٧٠ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

(٢) لترجمة السلطان المنصور قلاوون فضلاً أنظر : محمد بن شاکر الكتبي ، فوات الوفیات ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ابن كثير البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣١٧ ، الذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، ابن الفرات ، تاريخه ، مج ٨ ، ص ٩٤ ، ٩٨ ، ابن العماد المنهلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٤٠٩ - ٤١٠ .

(٣) محمد باقر ، المرجع السابق ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(٤) سامح عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ - ١٠٦ .

Balog, op. cit. pp. 120 - 124.

(٥) لترجمة السلطان الأشرف خليل فضلاً أنظر : الذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ، الصقاعي ، تالی کتاب وفیات الاعیان ، ص ٧٠ - ٧١ ، الكتبي ، فوات الوفیات ، ج ١ ، ص ٤٠٦ ، ٤١٥ ، ابن الفرات ، تاريخه ، مج ٨ ، ص ١٦٥ ، ١٦٨ ، العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٣ ، ورقة ١٤٩ .

(٦٨٩ - ٦٩٣ هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م) حيث خلت إصداراته النقدية من اسم الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله ولقبه .

لقد أصدرت دور الضرب في الدولة المملوكية على عهد الأشرف خليل عملات ذهبية وفضية ونحاسية ، وذلك في كل من القاهرة والاسكندرية ودمشق ، على الطرازين الأيوبي والمملوكي ^(١) .

وينفس الطرازين أصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ^(٢) في فترة حكمه الأولى التي لم تتجاوز العام الواحد (٦٩٣ - ٦٩٤ هـ / ١٢٩٣ - ١٢٩٤ م) إصدارات نقدية من العملات الذهبية والفضية فقط ، وصدرت عن دار ضرب القاهرة فقط ، وحملت اسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ولقبه ، وكذلك اسم والده المنصور قلاوون ولقبه ^(٣) .

وفي عهد السلطان العادل زين الدين كتبغا ^(٤) (٦٩٤ - ٦٩٦ هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٦ م) ، تم إصدار عملات ذهبية وفضية ونحاسية في دور ضرب

(١) سامح عبد الرحمن ، الوحدات النقدية ، ص ١١٠ ، ١١٥ ، محمد باقر ، الكنى والألقاب ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(٢) لترجمة السلطان الناصر محمد بن قلاوون فضلاً أنظر : الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر وأولاده ، ص ١٠١ ، ١١٩ ، الكتبي ، فوات الوفيات ، ج ٤ ، ص ٣٥ - ٣٦ ، العيى ، عقد الجمان ، ج ٢٤ ، ورقة ٤٤ ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٣ ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٩ .

(٣) محمد باقر ، المرجع السابق ، ص ٧٧ .

(٤) لترجمة السلطان العادل كتبغا فضلاً أنظر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج ٣ ، ص ٢١٨ - ٢١٩ ، الذهبى ، المعبر ، ج ٣ ، ص ٢٨١ ، ٢٨٦ ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

القاهرة والاسكندرية ودمشق ، وحملت تلك العملات اسم السلطان العادل ولقبه ^(١) ، وما بلغت الانتباه الى الإصدارات النقدية فى عهد السلطان الملك العادل كتبها أنها اشتملت على كميات ضخمة من النقود النحاسية (الفلوس) خليفة الوزن ^(٢) ، حيث دخلها فساد نقدي كبير أدى الى أن تقرر الدولة ، ولأول مرة فى تاريخها التعامل بتلك الفلوس النحاسية عن طريق الوزن لا العدد ^(٣) .

واستمر ذلك الفساد النقدي - أيضاً - فى العملات النحاسية خلال عهد السلطان المنصور حسام الدين لاجين ^(٤) (٦٩٦ - ٦٩٨ هـ / ١٢٩٦ - ١٢٩٩ م) دون اتخاذ أى تدابير لمواجهة هذا الخلل فى الوضع النقدي للدولة .

لقد أصدر السلطان حسام الدين لاجين ، إضافة الى الفلوس النحاسية عملات ذهبية وفضية ، حملت اسمه ولقبه ، وتم ضربها فى عدد من دوراً ضرب النقود فى الدولة ، وخصوصاً فى القاهرة ودمشق ^(٥) .

أما عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى فترة حكمه الثانية (٦٩٨ - ٧٠٨ هـ / ١٢٩٩ - ١٣٠٩ م) ، فقد استمر فى إصدار مختلف أنواع

(١) سامع عبد الرحمن ، الوحدات النقدية ، ص ١١٦ .

(٢) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٩ ، ورقة ٣٢٣ ، المقرئى ، إغاثة ، ص ٧٠ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٩٧ ، عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ، ص ١٠٥ .

(٣) المقرئى ، نفسه ، ص ٧٠ - ٧١ .

(٤) لترجمة السلطان حسام الدين لاجين فضلاً أنظر : الصقاعى ، تالى كتاب وفيات الأعيان ، ص ١٣٢ ، ابن الفرات ، تاريخه ، مج ٨ ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، العيى ، عقد الجمان ، ج ٢٣ ورقة ٣٠١ .

(٥) محمد باقر ، الكنى والألقاب ، ص ٦٢ ، ٧٩ .

العملات بالدولة ، وبصفة خاصة النحاسية منها ، حيث لوحظ انتشار التعامل بها ، وتفضيلها على العملات الذهبية والفضية التي قل ضرب الدولة لها ، بسبب ما كانت تعانيه من نقص في معدني الذهب والفضة ، وقد كانت انتشار النقود النحاسية ، والاهتمام بها مقدمة للتحويلات النقدية التي تعرضت لها العملات في أثناء حكم سلاطين الجراكسة ، والتي كانت نتيجتها اعتماد الفلوس النحاسية عملة رسمية للدولة ، في حين تراجع مركز العملات الذهبية والفضية ، وأصبحت أسعارها تقدر على أساس الفلوس النحاسية .

لقد أصدر الناصر محمد نقوده على نفس الطرز التي صدرت بها نقوده خلال فترة حكمه الأولى ، وقد حملت تلك النقود اسمه ولقبه ، إضافة الى اسم ولقب والده الملك المنصور قلاوون ^(١) ، وفي إصدارات نقدية ذات طرز مختلفة حملت اسم ولقب السلطان الناصر محمد بن قلاوون إضافة الى اسم ولقب الخليفة العباسي المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله ^(٢) - ولم تذكر الدراسات التي أجريت على السكة المملوكية ذلك ، ولكن أوردته أكثر من مصدر تاريخي ^(٣) مما يؤيد قيام السلطان الناصر محمد بإعادة اسم ولقب الخليفة

(١) سامع عبد الرحمن ، الوحدات النقدية ، ص ١٢٤ - ١٢٥ ، محمد باقر ، الكنى والألقاب ، ص ٧٧ - ٧٨ ؛

Palog, op. cit., pp. 130 - 135.

(٢) ولد في المحرم سنة ٦٨٤ هـ - ١٢٨٥ م ، وبيع بالخلافة ، جمادى الأولى سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م ، واستمر فيها حتى خلع في شهر شوال سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٤٠ م ، ونفاه السلطان محمد بن قلاوون الى قوص لخلاف وقع بينهما ، فتولى هناك في العام نفسه ، وتولى الخلافة بعده ابنه أبو العباس أحمد الحاكم . كان كريماً محباً للعلم .

(القلقشندي ، مآثر الانافة ، ج ٣ ، ص ١٣٢ - ١٣٣ ، السبوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٨٤) .

(٣) المؤلف المجهول ، تاريخ سلاطين الماليك ، ص ١٠٧ ، تحقيق زترشين ، ليدن ، ١٩١٩ =

العباسي ، وختمها على السكة المملوكية من دنانير ودرهم .

لقد أصدر السلطان الناصر نقوده الذهبية والفضية بداري ضرب القاهرة ودمشق ^(١) ، أما النحاسية منها فقد صدرت كميات كبيرة منها في حلب وحماة وطرابلس ^(٢) .

وفي عهد السلطان المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير ^(٣) (٧٠٨ - ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ - ١٣١٠ م) ضربت عملات مختلفة ، إلا أنها بكميات قليلة نظراً لقصر فترة حكمه ، التي لم تتجاوز عاماً واحداً ، وقد أصدرت تلك العملات بداري ضرب القاهرة وطرابلس ، وهما الداران الوحيدتان اللتان ضربت فيهما إصدارات السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير من النقود المتداولة ^(٤) .

وفي الفترة الثالثة من حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣١٠ - ١٣٤١ م) والتي امتدت لأكثر من ثلاثين عاماً ، وهي أطول فترة يحكم فيها سلطان مملوكي ، فقد شهدت تلك الفترة انتاج كميات ضخمة جداً من المسكوكات النقدية على اختلاف أنواعها الذهبية والفضية

= . الكنتي ، عيون التواريخ ، ج ٢٠ ، ص ٢٨٨ ، ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٨ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ ، السيوطي ، حسن المعاصرة ، ج ٢ ، ص ٦٧ .

(١) سامع عبد الرحمن ، الوحدات النقدية ، ص ١٢٤ - ١٢٥ ، محمد باقر ، الكنتي والألقاب ، ص ٧٧ - ٧٨ ؛

Balog, op. cit., pp. 134 - 135.

(٢) سامع عبد الرحمن ، نفسه ، ص ١٣٧ ، هامش رقم (٢) .

(٣) لترجمة السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير فضلاً أنظر : الذهبي ، المعبر ، ج ٤ ، ص ٢٠ ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ج ٢ ، ص ١٣٩ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٣٦٧ ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ج ٣ ، ص ٤٧٣ .

(٤) سامع عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

وقد تم ضرب هذه الكميات فى نواح مختلفة من مناطق الدولة فى مصر والشام ، حيث تقع دور الضرب الرئيسية فى القاهرة ودمشق والاسكندرية وحلب ، بالإضافة الى دور الضرب الأخرى فى المدن المملوكية وقد كان الهدف من إنتاج تلك الكميات من العملات النقدية ، مواكبة حركة النشاط الاقتصادى التى بلغت فى تلك الفترة أوج ازدهارها وقوتها .

ولم تكتف الدولة المملوكية بتلك الإصدارات النقدية ، بل عملت من خلال السياسة المالية - خاصة النقدية - التى سار عليها السلطان الناصر محمد على إجراء إصلاحات نقدية للقضاء على الفساد النقدي الذى تعرضت له العملات - وبصفة خاصة النحاسية منها - منذ عهد السلطان العادل زين الدين كتبغا ، وفى هذا الصدد قام الناصر محمد بإصدار فلوس نحاسية جديدة (جدد) تختلف عن الفلوس القديمة (العتق) ، وأولى أوزانها وعياراتها وشكلها العام عناية خاصة ، وعندما لم تحز هذه الإصدارات الجديدة على ثقة المتعاملين ، قام الناصر محمد بمحاولات أخرى لتحقيق تلك تلك الثقة ، والقضاء على التلاعب بالعملة وإفسادها ، وخلال تلك المحاولات أصدر أربعة طرز من العملات النحاسية فى سنوات مختلفة ^(١) ، ورغم أن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح فإنها أوجدت علاجاً مؤقتاً للأزمة النقدية حتى نهاية عهد الناصر محمد .

والى جانب تلك الإصدارات النحاسية ، كانت هناك إصدارات أخرى من العملات الذهبية والفضية ، وهى العملات الرسمية والقانونية فى الدولة ، وكما هى العادة عند سك العملات النقدية ، فقد حملت تلك الرائدات اسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وألقابه المختلفة ، بالإضافة الى العبارة التى حملتها

(١) عهد الرحمن فهمى ، النقود العربية ، ص ١٠٦ .

النقود المملوكية عامة . وهى عبارة (لا اله الا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) .

وعن المرحلة التالية لفترة حكم الناصر محمد بن قلاوون - التى حكم فيها ثلاثة عشر من أبنائه وأحفاده على فترات مختلفة امتدت حتى سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م ^(١) - فقد ضربت مسكوكات نقدية متنوعة من العملات الذهبية والفضية والنحاسية ، وكذلك أنصاف الدراهم الفضية وأرباعها ، وقد تم ذلك فى عدد من دور ضرب النقود فى أنحاء الدولة مثل القاهرة ودمشق والاسكندرية وطرابلس وحماة وحلب ، وغيرها من مدن دور الضرب ^(٢) .

ونجد لبعض سلاطين الدولة خلال هذه المرحلة عدة طرز من المسكوكات النقدية لعملة واحدة ، مثلما فعل السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ^(٣) فى فترة حكمه الثانية (٧٥٥ - ٧٦٢ هـ / ١٣٥٤ - ١٣٦١ م) حيث أمر بضرب عدة طرز من الدنانير الذهبية .

وكذلك العملات النحاسية التى أمر بضربها السلطان الأشرف شعبان بن حسين ^(٤) (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ / ١٣٩٣ - ١٣٧٧ م) . والعملات الذهبية

(١) فضلاً أنظر الملحق رقم (١) .

(٢) سامح عبد الرحمن ، الوحدات النقدية ، ص ١٧٠ - ١٧١ ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ص ٢١٦ ، ٢١٨ .

(٣) لترجمة السلطان الناصر حسن فضلاً أنظر : ابن دسماق ، الجوهر الثمين ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ١٢٤ ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٢ ، ورقة ٣٤ أ ، ٣٦ أ ، مخطوط بنار الكتب المصرية ، رقم ١١١٣ تاريخ ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٤) لترجمة السلطان الأشرف شعبان بن حسين فضلاً أنظر : المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ ، ابن تغرى ، الدليل الشافى ج ١ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

التي أصدرها السلطان المنصور على بن شعبان ^(١) (٧٧٨ - ٧٨٣ هـ / ١٣٧٧ - ١٣٨١ م) ، وتلك التي أمر بضرها السلطان الصالح حاجي الثاني بن شعبان ^(٢) في فترة حكمه الأولى ^(٣) (٧٨٣ - ٧٨٤ هـ / ١٣٨١ - ١٣٨٢ م) ، وبالإضافة الى ما سبق ، فقد قام سلاطين الماليك في تلك الفترة بإصدار كافة أنواع العملات من ذهبية ، فضية ، ونحاسية ^(٤) .

والملاحظ على تلك الإصدارات أنها اشتملت على كميات كبيرة من العملات النحاسية (الفلوس) في الوقت الذي قلت فيه الكميات المتداولة من العملات الأخرى ، وخصوصاً الذهبية نظراً لعدم توفر معدنها بالكميات التي تكفي لاحتياجات الدولة ، ومختلف المعاملات المالية فيها ، وقد انعكس هذا النقص بوضوح على اتجاه السياسة النقدية للدولة نحو العملات النحاسية ، وسك إصدارات عديدة منها .

(١) لترجمة السلطان المنصور على بن شعبان فضلاً أنظر : المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٨٤ ، ابن تغرى بردى ، الدليل الشافى ، ج ١ ، ص ٤٥٧ .

(٢) لترجمة السلطان الصالح حاجي الثاني فضلاً أنظر : ابن دقاق ، الجوهر الثمين ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، مج ٢ ، ج ٣ ، ص ٨٧ ، محمد بن على ، الشوكانى ، البدر الطالع بحاسن من بعد القرن السابع ، ج ١ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ ، مطبعة لسعادة ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٥٣ ، ابن حجر ، أنباء الغمر ، ج ١ ، ص ٢٣٤ .

(٤) ابن دقاق ، الجوهر الثمين ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ، المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٩ ، المخطوط ، ج ٢ ، ص ٣١٧ ، المحالدى ، المقصد الرفيع ، ورقة ٧٦ أ .

وما إن أتى عهد السلطان الظاهر برقوق^(١) أول سلاطين الجراكسة - فى فترتى حكمه الأولى (٧٨٤ - ٧٩١ هـ / ١٣٨٢ - ١٣٨٨ م) ، والثانية (٧٩٢ - ٨٠١ هـ / ١٣٨٩ - ١٣٩٨ م) - حتى زاد الاعتماد على الفلوس النحاسية ، وبالتالى زادت الكميات الصادرة منها فى الوقت الذى تتعرض فيه الى المزيد من الاضطراب والفساد والتلاعب بأوزانها وأحجامها .

لقد قام الظاهر برقوق بضرب مسكوكاته النقدية من العملات الذهبية (الدنانير) ، فأصدر ثلاثة طرز من الدنانير فى فترة حكمه الأولى ، ومثلها فى فترة حكمه الثانية ، وقد حملت تلك النقود اسمه ولقبه إضافة الى عبارة (وما النصر الا من عند الله) ، وعبارة (لا اله الا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) ، كغيرها من النقود المملوكية التى حملت العبارة نفسها^(٢) .

أما عن العملات الفضية (الدراهم) التى أصدرها السلطان الظاهر برقوق فى فترتى حكمه ، فقد تأثرت الكميات المسكوكة منها بما كانت تعانية الدولة من نقص معدن الفضة الواصل الى دور الضرب فيها ، وترتب على ذلك قلة الإصدارات من العملات الفضية ، وقد بدأ أول إصدار منها بعد خمس سنوات من تولى السلطان الظاهر برقوق سلطنة الدولة إذ يذكر إصدار منها بعد خمس

(١) لترجمة السلطان الظاهر برقوق فضلاً أنظر : ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٣ ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، مع ٢ ، ج ٣ ، ص ١٠ ، ١٢ ، الشوكانى ، البدر الطالع ، ج ١ ، ص ١٦٢ ، ١٦٤ .
(٢) رأفت النبراوى ، مسكوكات الممالك ، ص ١٣ ، ١٥ ، ص ١٨ - ١٩ ، محمد باقر ، الكنى والألقاب ، ص ٦٥ ، ص ٨٧ ، ٨٩ :

سنوات من تولى السلطان الظاهر برقوق سلطنة الدولة اذ يذكر ابن الفرات فى تاريخه ^(١) ضمن حوادث سنة ٧٨٩ هـ ، أنه فى يوم الأربعاء السادس من ربيع الثانى / السادس من مايو سنة ١٣٨٧ م أمر الظاهر برقوق كبير أمرائه الأمير جركس الخليلي ^(٢) بضرب نقود فضية جديدة ، يتم التعامل بها ، الى جانب ما كان متداولاً من دراهم فضية ، صدرت فى الفترة السابقة - الدراهم الكاملة والدراهم الظاهرية التى سبق الحديث عنها - هذا ولم يرد ما يفيد قيام الظاهر برقوق بإصدار مزيد من الدراهم الفضية فى السنوات اللاحقة لحكمه ، مما يرجح قلة إصدارات الدولة منها ، بسبب نقص كميات الفضة فى دور الضرب .

وعن الفلوس النحاسية ، فقد صدر منها عدد كبير من الطرز النقدية ، حيث أكثرت الدولة من إصدارها لتعويض قلة أعداد الدراهم ، وفى أولى سنوات حكم الظاهر برقوق ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م ضرب طرازاً من الفلوس النحاسية ^(٣) ، ثم فى سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م أصدر طرازاً جديداً من تلك الفلوس ^(٤) ، كذلك سنة ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م ^(٥) . وهناك طراز رابع تم إصداره لم يحدد المصادر

(١) مع ٩ ، ج ١ ، ص ٦ ، أنظر أيضاً الصيرفى ، نزهة ، ج ١ ، ص ١٥٢ ، السبوتى ،

حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ .

(٢) الأمير جركس الخليلي سيف الدين القاسمى الظاهري نسبة الى الظاهر برقوق لأنه أحد مماليكه وأحد خواصه ، ترقى ووصل الى مرتبة كبيرة فى الدولة ، وأصبح مستشاراً للظاهر برقوق ، تولى نيابة حلب فى عهد الناصر فرج بن برقوق ، ولم يستمر بها أكثر من شهر ، حيث وقع خلاف بينه وبين الناصر فرج انتهى بقتله فى معركة وقعت قرب بعلبك بينه وبين نائب الشام نوروز الحافظ ، وذلك فى شهر جمادى الأولى سنة ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م .

(٣) ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ٣٩ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ ،

السخاوى ، الضوء اللامع ، مع ٢ ، ج ٢ ، ص ٦٧ .

(٤) رأفت النبراوى ، مسكوكات الممالك ، ص ١٩٢ ، ١٩٦ .

(٥) ابن قاضى شهبه ، تاريخه ، ص ١٣٦ .

(٥) ابن حجر ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٥

التاريخية سنة إصداره ، فهذه أربعة طرز من الفلوس النحاسية صدرت فى الفترة الأولى من حكم السلطان الظاهر بوقوق .

أما فى فترة حكمه الثانية ، فقد صدر منها خمسة طرز كان منها طراز صدر سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٩١ م ^(١) ، وآخر صدر سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣ م ، وثالث صدر سنة ٧٩٨ هـ / ١٣٩٥ م ^(٢) ، أما الطرازان الآخران فلم تذكر المصادر التاريخية تاريخ إصدارها ، وبهذا تصبح مجموعة الطرز التى صدرت فى عهد الظاهر بوقوق من العملات النحاسية تسعة طرز فى سنوات حكمه المختلفة بفتريتها الأولى والثانية ^(٣) .

ومع كثرة الإصدارات النحاسية للظاهر بوقوق ، فإن الدولة كانت تعاني فى الوقت نفسه من قلة الكميات الواردة إليها من معدن النحاس ، وقد واجهت ذلك بتأمين حاجتها من النحاس بشكل فوري عن طريق المراكز التجارية التى اشتهرت بتجارة المعادن ^(٤) .

استمر نقص الفضة فى عهد السلطان الناصر فرج بن بوقوق ^(٥) (٨٠١ -

(١) ابن حجر ، إنباء ، ج ١ ، ص ٤٣٩ ، الصيرفى ، نزعة ، ج ١ ، ص ٣٥٠ .

(٢) ابن قاضى شهاب ، تاريخه ، ص ٥١٤ ، ص ٦٠٣ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٥٦٢ ، رأفت النبواى ، مسكوكات المماليك ، ص ٢٠٩ ، ٢٠٠ ؛ Balog, op. cit., p. 150.

(٤) المقرئى ، النقود ، ص ٦٩ ، المناوى ، النقود ، ص ١٠٥ .

(٥) لترجمة السلطان الناصر فرج بن بوقوق فضلاً أنظر :

(العبنى ، عقد الجمان ، (حوادث سنة ٨١٥ هـ) ص ١٥٨ - ١٥٩ ، تحقيق د. عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، مطبعة علاء ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٥ م ، السخاوى ، الضوء ، مج ٣ ، ج ٦ ، ص ١٦٨ ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ١١٢) .

٨١٥ هـ / ١٣٩٩ - ١٤١٢ م) . وكذلك زاد نقص النحاس . لتزيد الأزمة النقدية شدة بما صاحبها من زيادة فى إفساد النقود والتلاعب بها رغبة الاستفادة والربح المادى . ولم يقف الأمر عند هذا الحد . بل أصبح ضرب الفلوس وإصدارها . يتم خارج دور الضرب . وهى الجهة الرسمية الوحيدة التى يحق لها إصدار العملات النقدية . ولم يكن عدم قانونية تلك الفلوس الصادرة خارج دور الضرب ماثلاً أمام التعامل بها وتداولها . مثلها مثل العملات الرسمية ^(١) .

لقد أصدر الناصر فرج بن برقوق ثلاثة طرز من الفلوس النحاسية الأول صدر منها سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م . والثانى سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م . وقد صدرا عن دار ضرب الاسكندرية ^(٢) والثالث سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م عن دار ضرب دمشق ^(٣) .

أما الإصدارات الفضية من الدراهم . فهى قليلة إن لم تكن نادرة . حيث أصبحت بسبب قلة الفضة . وزيادة الاعتماد على الفلوس النحاسية شبه معدومة . ويصف المقرئى ذلك بقوله ^(٤) :

« كأنها من جملة العروض تباع بهراج حراج فى النداء . كل درهم من الكاملية بكذا وكذا من الفلوس » .

لذا فلا غرابة أن تعد فترة حكم الناصر فرج . وبالتحديد سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م . بداية تدهور مركز الدرهم الفضى المملوكى ^(٥) الأمر الذى أدى الى توقف الدولة عن إصدار الدراهم الفضية . لعدم توفر معدنها بكميات تسمح

(١) المقرئى . السلوك . ج ٤ . ص ٩٤١ . الصيرفى . نزعة . ج ٣ . ص ٣١٦ .

(٢) رأفت النبروى . مسكوكات . ص ٢١٠ .

(٣) المقرئى . المصدر السابق . ج ٤ . ص ٨٣ . ابن حجر . إنباء . ج ٢ . ص ٣٩٨ .

(٤) المقرئى . نفسه . ج ٣ . ص ١١٣٣ .

(٥) المؤلف المجهول . الزهر السنية . ورقة ٧٩ - ٨٠ . المعنى . عقد الجمان . ج ٢٥ . ورقة ٢٠٢ .

بإصدار الأعداد الكافية منها ^(١) .

لقد قام الناصر فرج بإصدار ثلاثة طرز من النقود الفضية ، وقد ضربت تلك الطرز في كل من القاهرة ودمشق وحلب ^(٢) .

أما عن إصداراته الذهبية ، فقد تم إصدار أعداد ليست قليلة منها على طرز مختلفة ، وقد ارتبط صدور تلك الطرز بالمنافسة القائمة بين النقود الذهبية المملوكية ، والذهبية البندقية ^(٣) ، فمما يجدر ذكره أن الدينار المملوكى كان يواجه منافسة حادة من النقود الذهبية الإيطالية ، وخصوصاً الدوكات البندقية التى انتشرت فى أسواق الدولة ، عملات متداولة اكتسبت ثقة المتعاملين ، وكان بالتالى حرص السلطان المملوكى فرج على مواجهة هذا التنافس بإصدار ذهبية متنوعة ، حيث أصدر بعد توليه سلطنة الدولة ، النوع الأول من الدينار الذهبية ، وكان وزن الواحد منها أكثر من المثقال الذى هو الدينار الشرعى ، الذى يزن أربعة جرامات وخمسة وعشرين فى المائة من الجرام (٤,٢٥ جم) ، وقد صدر من هذا النوع خمسة طرز مختلفة خلال سنوات حكم الناصر فرج ^(٤) .

وفى جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ / ديسمبر سنة ١٤٠٠ م أمر السلطان الناصر فرج بإصدار دنانير يزن الواحد منها زنة الدينار الشرعى وأجزائه المختلفة ^(١) . حيث صدر منها ما وزنه مثقالان ونصف ونصف مثقال وربع

(١) القلشندى ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٤٣ ، المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٩ .

(٢) رأفت النبراوى ، مسكوكات ، ص ١٤٩ ، محمد باقر ، الكنى والألقاب ، ص ٦٥ ، ص ٨٩ - ٩٠ .

(٣) فضلاً أنظر الفصل الخامس (العلاوة النقدية) .

(٤) رأفت النبراوى ، المرجع السابق ، ص ٢٤ وما بعدها ؛

مثقال وقد عرف هذا النوع بالدنانير السالمية نسبة الى الأمير بلبغا السالمى ^(٢١) الذى تولى الإشراف عليها فى مراحل تصنيعها ، حتى صدرت ، وتم تداولها ، فصدر من هذا النوع خمسة طرز كانت أعدادها قليلة حيث بلغت ثلاثة آلاف دينار فى الفترة من جمادى الأولى ، وحتى بداية شهر رجب من العام نفسه ^(٢٢) وفى سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م صدر النوع الثالث من النقود الذهبية وهو الذى أطلق عليه اسم الدينار الناصرى ^(٢٣) (نسبة الى السلطان الناصر فرج) ، وكان وزنه ثلاثة جرامات وخمسون فى المائة من الجرام (٣.٥٠ جم) ، وهو الوزن الذى كانت عليه الدوكات البندقية ، وقد تم إصدار أربعة طرز من هذا النوع فى السنوات الأخيرة لحكم الناصر فرج ، ونقش على وجه الدينار الناصرى تاريخ الضرب ، واسم السلطان ولقبه ، (السلطان الملك الناصر أبو السعادات فرج بن الشهيد الملك الظاهر أبو سعيد برقوق) ، ونقش على ظهره عبارة (لا اله الا الله

(١) المقرئى ، النقود ، ص ٧١ ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١٠٢٧ .

(٢) الأمير سيف الدين بلبغا بن عبد الله السالمى الظاهرى أبو المعالى الفقيه الحنفى من عماليك الظاهر برقوق ، وأحد خواصه يذكر أنه قدم من سمرقند مع تاجر اسمه سالم فتنسب اليه ، ترقى فى عهده حتى وصل الى الاستاذارية أو الوزارة ، فهو مدير الدولة ومشيرها . جمع بين أعمال الخير والظلم والشدة والعسف كان له أعمال جليلة فى الدولة كما كان محباً للعلم مشغلاً فيه الى جانب ما حدث منه من سوء استغلال للسلطة توفى مقتولاً فى الاسكتندرية فى شهر جمادى الآخرة ، وقبل فى رمضان سنة ٨١١ هـ / نوفمبر سنة ١٤٠٨ م .

(٣) ابن تفرى بردى ، الدليل السالمى ، ج ٢ ، ص ٧٩٤ - ٧٩٥ ، السخاوى ، الضوء اللامع و مج ٥ ، ج ١٠ ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ ، ابن العماد الحنفى ، شلرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٩٥ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١٠٥٥ ، ابن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٥٠ .

(٥) العينى ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ، ورقة ٣٢٣ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ١٢ ، ص ٤٠٣ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) ، وصدر عن طريق دور الضرب فى كل من القاهرة والاسكندرية ودمشق وحماة وحلب وطرابلس^(١) .

وخلال الفترة القصيرة التى حكم فيها الخليفة العباسى المستعين بالله أبو الفضل العباس بن المتوكل على الله^(٢) (٨١٥ هـ / ١٤١٢ م) ، التى لم تتجاوز سبعة أشهر ، تأثرت الإصدارات النقدية من العملات بقصر تلك الفترة وبما صاحبها من اضطراب ، وعدم استقرار .

ونلمس هذا التأثير فى قلة المسكوكات النقدية التى صدرت سواء ذهبية أو فضية أو نحاسية ، فمن العملات الذهبية لم يصدر سوى طراز واحد فقط من

(١) ابراهيم طرخان ، النظم الاقطاعية ، ص ٥٣٤ . محمد باقر ، الكنى والألقاب ص ٦٥ .
 (٢) أبو الفضل العباس بن المتوكل على الله أبى عبد الله محمد بن المعتضد بالله أبى بكر ابن المستكنى بالله سليمان بن الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد بن الحسن . بويع بالخلافة بعهد من أبيه فى رجب سنة ٨٠٨ هـ / يناير ١٤٠٦ م . وفى ظروف الخلاف بين الناصر فرج والمزيد شيخ الحمودى ، ومقتل الناصر فرج بعد ذلك ، لعدم وجود سلطان للدولة بويع بالسلطنة إضافة الى خلافته ، وذلك فى المحرم سنة ٨١٥ هـ / إبريل ١٤١٢ م . وأصبح المزيد شيخ مديراً لأمر الدولة . وعند تعارض سلطات كل منهما تمكن المزيد شيخ من إقصائه عن السلطنة ثم خلعهم من الخلافة ليتولاها أخوه المعتضد بالله أبو الفتح داود ، وقد أرسل المستعين بعد خلعهم الى الاسكندرية مسجوناً ، وظل كذلك حتى تولى سلطنة الدولة لظاهر ططر سنة ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م . عندما أفرج عنه ، وسكن الاسكندرية ، وعاش بها يتكسب بالتجارة ، حتى جمع من وراء ذلك أموالاً جمة الى أن توفى بالطاعون سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٣٠ م .

(الفلقشندي ، مآثر الانافة . ج ٢ . ص ٢٠٢ . السيوطى ، تاريخ الخلفاء . ص ٥٠٥ .
 ٥٠٩ . السخاوى ، الضوء اللامع ، مج ٢ . ج ٤ . ص ١٩ - ٢٠ . ابن العماد الحنبلى ،
 شذرات الذهب . ج ٧ . ص ٢٠٣) .

الدنانير . وكانت على وزن الدنانير الناصرية - السابقة الذكر - وصدر عن دار ضرب القاهرة فقط .

أما العملات الفضية ، فقد صدر طرازان من الدراهم الفضية فى دار ضرب دمشق على يد الأمير نوروز الحافظى ^(١) نائب الشام ، فى شهر ربيع الأول سنة ٨١٥ هـ / يونيو - يوليو سنة ١٤١٢ م تقدم الأمير نوروز بضرب دراهم جديدة نصفها من الفضة غير الخالصة ، والنصف الآخر من النحاس ، ونظراً لما فيها من فساد وغش ، فقد أبطل التعامل بها ، وألغى ضربها ، واستبدلت بدراهم من فضة خالصة ليس فيها غش ، فضربت دراهم تامة الوزن مضبوطة العيار ، نالت ثقة المتعاملين ورضاهم ^(٢) ، وقد أطلق عليها (الدراهم النوروزية) نسبة الى الأمير نوروز ، الذى أشرف على ضربها وإصدارها ^(٣) .

(١) الأمير سيف الدين نوروز بن عبد الله الحافظى الظاهرى من ممالك الظاهر برقوق ، وقد ترقى فى خدمته ، ولكنه قبض عليه لمشاركته فى محاولة الخروج عليه . سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م . وسجن فى الاسكندرية ، ثم نقل الى دمياط . وأفرج عنه فى العام التالى ، وخدم الناصر فرج ، ووصل الى رتبة رأس نوبة كبير ، كان رفيقاً للمزيد شيخ فى خلافة مع الناصر فرج ، وبعد تسلطن المزيد أصبح نائباً السلطنة فى بلاد الشام ، فكان ذلك سبباً فى الخلاف الذى وقع بينهما ، وانتهى بالقبض عليه ، ثم مقتله فى شهر ربيع الآخر سنة ٨١٧ هـ / يوليو ١٤١٤ م .

كان رئيساً عفيفاً من أكابر الأمراء المماليك ، وأكثرهم جاهاً وثراءً وتسلطاً . يؤخذ عليه أنه كان متكبراً متعاطباً سفاكاً للدماء .

(ابن حجر ، أنها ، ج ٣ ، ص ٥٠ - ٥١ ، المعينى ، السيف المهند فى سيرة الملك المقيد شيخ الحمودى ، تحقيق فهيم شلتوت ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ابن تغرى بردى ، الدليل الشافى ، ج ٢ ، ص ٧٦٢ - ٧٦٣ ، السخاوى الضو . اللامع ، مج ٥ ، ج ٩ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥) .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٣٢ ، ص ٢٤٥

وعن العملات النحاسية (الفلوس) ، فلم تذكر المصادر التاريخية أو المراجع ما يفيد صدور عملات نحاسية فى فترة حكم الخليفة العباسى المستعين بالله ^(٢) ، وليس بعيداً أن يحدث ذلك خلال تلك الفترة القصيرة علاوة على ما كانت تعانيه الدولة من نقص فى إمداداتها من معدن النحاس ، وكان أثر ذلك واضحاً وملحوظاً على الأوضاع النقدية فى الدولة .

وامتداداً لتلك الفترة تأثرت بدايات الفترة التى حكم فيها السلطان المملوكى المؤيد أبو النصر- شيخ المحمودى ^(٣) (٨١٥ - ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ - ١٤٢١ م) ، ولعل فى السياسة النقدية التى سار عليها المؤيد شيخ أثراً فى التخفيف من الأزمة النقدية التى عانتها الدولة وأوجدت حلولاً مؤقتة لنقص إمداداتها من المعادن ^(٤) .

لقد أصدر شيخ نقوده الذهبية على نوعين : الأول على أساس وزن الدوكات البندقية ، وهو ثلاثة جرامات وخمسون فى المائة من الجرام (٣.٥٠ جم) . وصدر منه طرازان ، والثانى على أساس وزن الدينار الشرعى ، وهو أربعة جرامات وخمسة وعشرون فى المائة من الجرام (٤.٢٥ جم) ، وصدر من هذا النوع أيضاً طرازان ، وكان مصدر تلك الطرز دور الضرب فى كل من القاهرة

(١) نفسه ، ص ٢٨٧ ، ابن حجر ، إنها ، ج ٢ ، ص ٥١٣ .

(٢) رأفت النهروانى ، مسكوكات ، ص ٤٨ ، ص ١٥٢ ، ص ٢١١ ، محمد باقر ، الكنى والألقاب ، ص ٩١ .

(٣) لترجمة السلطان المؤيد شيخ فضلاً انظر ابن حجر ، إنها ، ج ٣ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ، العبنى ، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ١ ، ص ٥٩ ، وما بعدها ، السخاوى ، الضوء اللامع ، مج ٢ ، ج ٣ ، ص ٣٠٨ ، ٣١١ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١١٢٧ .

ودمشق والاسكندرية وحلب^(١) .

وقد أطلق على هذا النوع من النقود الذهبية (الدنانير المؤيدية) نسبة إلى المؤيد شيخ ، وحازت على ثقة المتعاملين ورضاهم ، واستمر تداولها مدة طويلة .

ومثل الدنانير المؤيدية هناك الدراهم المؤيدية التي أصدرها المؤيد شيخ في شهر شوال سنة ٨١٧ هـ / ديسمبر سنة ١٤٥٣ م ، وذلك بعد إبطاله الدراهم النقرة (الكاملية) ، القديمة التي داخلها الفساد والتزييف ، وقد ضرب المؤيد جزئى الدرهم المؤيدى النصف والربع ، وقد استمر تداول تلك الدراهم لفترة طويلة^(٢) ، حيث اعتبرها المقرضى من أفضل الدراهم الفضية التي ضربها سلاطين المماليك منذ قيام دولتهم^(٣) ، ولكن لم يلبث الفساد أن أصاب تلك الدراهم ، كغيرها من النقود المملوكية ، فأصبح تداولها ، والتعامل بها عن طريق الوزن بعد أن كان عن طريق العدد^(٤) .

وما يتصل بالعملات النحاسية (الفلوس)^(٥) ، فلم يسجل للسلطان المؤيد شيخ أى فلوس جديدة تدل على قيامه بضربها خلال فترة حكمه ، ولكن هناك

(١) المؤلف المجهول ، الزهر السنية ، ورقة ٨٢ ، رزقت النبرواى ، مسكوكات ، ص ٥٤ ، محمد باقر ، الكنى والألقاب ، ص ٦٦ .

(٢) المقرضى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٨٨ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٥٤ ، المعنى ، السيف المهند ، ص ٣٣٢ .

(٣) النقود الاسلامية ، ص ٦٤ ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٩٤٣ .

(٤) الأسدى ، التيسير والاعتبار ، ص ٢٧ .

(٥) رأفت النبرواى ، مسكوكات ، ص ٢١١ ، محمد باقر ، الكنى والألقاب ، ص ٩١ -

نص أورده المقرئى يفيد بضرب فلوس جديدة - وهو المرجح - دون تحديد للتاريخ الذى ضربت فيه ، ويورد المقرئى ذلك بعد حديثه عن أوضاع العملات الفضية (الدراهم) فى الأيام الأولى لتولى السلطان المؤيد شيخ سلطنة الدولة ، ويركز حديثه عن الدراهم النوروزية - التى سبق الحديث عنها . يقول المقرئى ^(١) عن إصدار تلك الفلوس :

"وفى رابعه - شعبان سنة ٨١٥ هـ - نادى الأمير نوروز بدمشق أن لا يتعامل أحد بالدرهم المغشوشة ، وأن تكون المعاملة بالدرهم الخالصة - الدراهم النوروزية - التى استجد ضربها ، وكانوا بدشق يتعاملون بها جميعا ، الى أن ضربت فلوس جدد زنة الفلوس منها مثقال".

وعلى هذا فإنه يمكن تقرير قيام السلطان المؤيد شيخ بضرب فلوس جدد خلال فترة حكمه وبما يرجح ذلك قيامه بضرب عملات ذهبية وفضية ، ضمن خطواته التنظيمية ، والإصلاحية للأوضاع النقدية فى الدولة .

وإذا علمنا ما كانت تتمتع به الفلوس النحاسية من أهمية ومركز فى مختلف المعاملات المالية فى تلك الفترة ، فاقت بهما العملات الأخرى ، فإنه من الطبيعى أن يشملها التنظيم قبل غيرها ، ومن خطوات ذلك التنظيم إصدار فلوس نحاسية جديدة خالية من الفساد والتلاعب ، ومقبولة من المتعاملين .

وفى الفترة التالية لحكم السلطان المؤيد شيخ حكم ابنه المظفر أبو السعادات شهاب الدين أحمد ^(٢) (٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م) ، وقد كان قصر فترة حكمه سبباً فى قلة إصداراته النقدية حيث اكتفى بإصدار عملات ذهبية ونحاسية فقط

(١) السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٤٥ .

(٢) لترجمة السلطان المظفر شهاب الدين أبي السعادات أحمد بن المؤيد فضلا . انظر :

أصدر المظفر طراز ابن من الدنانير الذهبية التى ضربت فى كل من القاهرة ودمشق وحماة ، وتحمل اسمه ولقبه ، ولقب والده الشيخ المؤيد شيخ ^(١) ، وصدر عن دار ضرب دمشق إصدار من الفلوس النحاسية ، اتسمت بقللة أعدادها ، حيث لم يساعد قصر الفترة فى إصدار عدة طرز من النقود الذهبية أو النحاسية أو الفضية التى لم يصدر منها أى طراز نقدى ^(٢) .

• وأقل من تلك الأعداد التى صدرت بها نقود المظفر أحمد ، صدرت نقود كل من السلطان الظاهر سيف الدين أبو الفتح ططر ^(٣) (٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م) ، وابنه السلطان الصالح ناصر الدين محمد ^(٤) (٨٢٤ هـ / ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م) فكلاهما لم يُسجل لهما إصدار نقود ذهبية أو نحاسية ^(٥) ، ولم تذكر المصادر التاريخية المعاصرة ما يفيد قيامهما بضرب أى دنانير ، أو فلوس خلال فترتى حكم كل منهما ، ولعل قصر فترتى حكمهما كانت سبباً فى حدوث ذلك ، فالأول لم تتجاوز فترة حكمه ثلاثة أشهر ، والثانى زاد عليه بشهر واحد وعدة أيام .

٢٩٧ ، ٢٩٩ ، الصيرفى ، نزعة ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ .
 ٨٤٢ ، ص ٤ ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ١ ، ص

(١) رأفت النبراوى ، مسكوكات ، ص ٥٨ ، محمد باقر ، الكنى والألقاب ، ص ٦٦ .

(٢) ابن ايماس ، بديع ، ج ٢ ، ص ٦٧ ، محمد باقر ، نفسه ، ص ٩٢ .

(٣) لترجمة السلطان الظاهر سيف الدين أبى الفتح ططر فضلاً انظر : ابن تغرى بردى ، الدليل الشافى ، ج ١ ، ص ٣٦٣ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، مج ٢ ، ج ٤ ، ص ٨٠٧ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج ٧ ، ١٦٥ ، الشوكانى ، البدر الطالع ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .

(٤) لترجمة السلطان الصالح ناصر الدين محمد بن ططر فضلاً انظر : المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٥٩٠ ، ابن تغرى بردى ، الدليل الشافى ، ج ٢ ، ص ٦٣٠ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، مج ٤ ، ج ٧ ، ص ٢٧٤ .

(٥) رأفت النبراوى ، المرجع السابق ص ٥٩ ، ص ٢١١ .

وقد صدر عنهما مجموعة من العملات الفضية (الدراهم) التى ضربت فى كل من القاهرة وحلب^(١) .

أما فى عهد السلطان الأشرف أبى النصر سيف الدين برسباى^(٢) (٨٢٥ - ٨٤١ هـ / ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م) ، فقد صدر عن عدد من دور ضرب العملة فى الدولة مجموعة من الإصدارات النقدية ، التى اشتملت على عملات ذهبية وفضية ونحاسية . وقد قام السلطان الأشرف برسباى بضرب كميات كبيرة من النقود الذهبية والفضية ، وتمتد النقود النحاسية ذات كميات قليلة بالنظر الى فترة حكمه الطويلة التى تجاوزت ستة عشر عاماً .

لقد قام السلطان أبو النصر برسباى بضرب نقوده الذهبية على طرازين مختلفين . وذلك عند بداية توليه سلطنة الدولة . ثم ضرب طرازاً آخر أطلق عليه اسم (الدنانير الأشرفية) نسبة إليه . وقد ضربت هذه النقود فى صفر سنة ٨٢٩ هـ / ديسمبر سنة ١٤٢٥ م . عندما أبطل السلطان الأشرف برسباى التعامل بالنقود الذهبية البندقية ، وأمر بصهر الكميات الموجودة منها فى أسواق الدولة . ومحويلها الى نقود ذهبية مملوكية . تحمل الوزن الذى كانت عليه الدوكات . وهو ثلاثة جرامات وخمسون فى المائة من الجرام (٣.٥٠ جم)^(٣) .

(١) محمد باقر ، المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٢) لترجمة السلطان الأشرف أبى النصر سيف الدين برسباى فضلاً انظر : المقرئى ، ج ٤ ، ص ٦٠٧ ، ص ١٠٦٥ ، ١٠٦٧ . ابن تغرى بردى ، الدليل الثانى ، ج ١ ، ص ١٨٦ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، مج ٢ ، ج ٤ ، ص ٨ ، ١٠ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٢٣٨ ، ٢٤٠ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٠٩ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، الزاهرة ، ج ١٤ ، ص ٢٨٣ .

ولقد حققت تلك النقود شهرة كبيرة ، وانتشر التعامل بها ، وحازت على ثقة المتعاملين ، ورضاهم بعد أن عدت الثقة بالعملة المحلية مدة طويلة ، وتمكنت من الوقوف في وجه الدوكات الذهبية ، التي انتشر التعامل بها ، والاعتماد عليها في عملية التبادل ، دون غيرها من العملات الأخرى .

استمر ضرب الدنانير الأشرافية طيلة السنوات المتبقية من حكم السلطان الأشرف برسبای ، وذلك في عدد من دور ضرب النقود في القاهرة ودمشق وحماة وحلب وطرابلس ^(١) . وفيما يتصل بالعملات الفضية (الدراهم) ، فعلى الرغم من عدم توفر معدن الفضة بكميات كافية تغطي احتياجات الدولة ، فإن السلطان الأشرف برسبای حرص على ضرب دراهم فضية جديدة ، الى جانب ما ضربه من دنانير ذهبية ، وقد حملت تلك الدراهم نفس الاسم الذي حملته الدنانير الذهبية حيث أطلق عليها (الدراهم الأشرافية) ^(٢) ، ولأجل انتشار التعامل بهذه الدراهم الجدد ، فقد أمر بمنع التعامل بالدراهم الموجودة في الدولة ، كالدراهم النوروزية والدراهم المؤيدية والدراهم البندقية وغيرها ^(٣) .

ولم يضرب من الدراهم الأشرافية سوى طراز واحد فقط ، إضافة الى ما ضرب من أنصاف الدراهم وأرباعها .

وعن العملات النحاسية (الفلوس) ، فقد قام السلطان الأشرف برسبای سنة ٨٣٨ هـ / ١٤٣٥ م بضرب فلوس جدد ، طرحها للتداول بدلاً من الفلوس

(١) ابن أبياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١١٧ ، محمد باقر الكنى والألقاب ، ص ٦٦ ، ص ٩٤ .

(٢) المقریزی ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٩٤٣ ، العيني ، عقد الجمان ، ج ٥ ، ورقة ٥٤١ .

(٣) فضلاً أنظر الفصل الخامس عن العلاقة النقدية بين العملات .

العتق التى أمر بجمعها من الأسواق ، وتحويلها الى دور ضرب النقود ، ليتم صهرها واعادة سبكها من جديد على هيئة فلوس جدد ^(١) .

وعن الإصدارات النقدية للسلطان عبد العزيز جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن برسبای ^(٢) (٨٤١ - ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م) ، فبالنظر الى فترة حكمه القصيرة نجده مثل باقى السلاطين الممالك الذين حكموا فى فترات قصار واتسمت إصداراتهم النقدية بقلّة كمياتها وأعدادها ، إضافة الى أن أغلب الفترات التى اتصفت بتلك الصفة ، لا تقوم الدولة بإصدار بعض أنواع العملات حيث لا تتمكن - بسبب قصر الفترة - من اصدار جميع أنواع الإصدارات النقدية من دنانير ذهبية ودراهم فضية وفلوس نحاسية ، وهذا ما حدث بالفعل للسلطان العزيز يوسف بن برسبای ، حيث تركزت إصداراته النقدية على العملات الذهبية فى كميات لا بأس بها ، متبعاً نفس الأسلوب الذى سار عليه والده فى إعادة صهر الأنواع الموجودة من العملات الذهبية ، وعلى رأسها عملة البندقية (الدوكات) ، فأصدر نتيجة لذلك أربعة طرز من الدنانير الذهبية التى حملت اسمه ، واسم والده الأشرف برسبای ^(٣) .

وعن إصداراته الفضية ، فقد أصدر عدداً محدوداً منها ، بنفس الطراز الذى كانت عليه دراهم والده ، ولعل ندرة معدن الفضة ، وعدم توفره لدى دور لضرب

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٩٤٤ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٥٤٥ ، المعنى ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ، ورقة ٦٥٨ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٣١٦ .

(٢) لترجمة لسلطان يوسف بن برسبای فضلاً أنظر : ابن تغرى بردى ، الدليل الشافى ، ج ٢ ، ص ٧٩٩ - ٨٠٠ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، مع ٥ ، ج ١٠ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٣) رأفت النبراوى ، مسكوكات ، ص ٧١ ، ٧٥ ؛

قد أدى الى حدوث ذلك النقص فى إصدارات الدولة من العملات الفضية (١)

أما العملات النحاسية ، فلم تذكر المصادر والمراجع التاريخية ما يفيد قيام السلطان العزيز يوسف بإصدار شئ منها ف عهد السلطان الظاهر أبى سعيد جقمق (٢) (٨٤٢ - ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣ م) تم اصدار مختلف أنواع العملات النقدية من دنانير ودرهم وفلوس ، وفى بداية عهده قام بضرب دنانير ذهبية جديدة فأطلق عليها (الدنانير الظاهرية) ، وتم تداولها والتعامل بها الى جانب الدنانير الأشرفية ، التى انتشر التعامل بها فى أسواق الدولة المختلفة ، وضرب من هذه الدنانير ثلاثة طرز حملت اسم السلطان الظاهر جقمق ولقبه ، وصدرت عن دور الضرب فى القاهرة ودمشق وحماة وحلب وطرابلس (٣) ، وفى شهر ذى الحجة من سنة ٨٤٣ هـ / مايو سنة ١٤٤٠ م أمر الظاهر جقمق بإصدار عملات فضية جديدة حملت اسمه (الدراهم الظاهرية) ، بنفس مواصفات الدراهم الأشرفية (هرسبای) ، وعلى الوزن والعيار اللذين كانت عليهما (٤) ، وقد ضرب من هذه الدراهم ثلاثة طرز ، كما ضرب منها أنصاف الدراهم وأرباعها (٥)

وعن العملات النحاسية (الفلوس) ، فقد قام السلطان الظاهر جقمق بضرب فلوس نحاسية جديدة (جدد) ، وطرحت للتداول بعد أن تم إبطال التعامل

(١) عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ، ص ٩٤ - ٩٥ .

(٢) لترجمة السلطان الظاهر جقمق فضلاً أنظر : المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ١٠٨٦ ، ابن تغرى بردى ، الدليل الشافى ، ج ١ ، ص ٢٤٦ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، مج ٢ ، ج ٣ ، ص ٧١ ، ٧٤ .

(٣) محمد باقر ، الكنى والألقاب ، ص ٩٤ .

(٤) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١١٩ .

(٥) رأفت النبراوى ، مسكوكات ، ص ١٦٤ ، ١٦٧ .

بالفلوس القديمة (العتق) ^(١) ، ولم يصدر من هذه الفلوس سوى طراز واحد ، ضرب فى كل من القاهرة وحلب وطرابلس ^(٢) .

وفى عهد السلطان المنصور فخر الدين أبى السعادات عثمان بن جقمق ^(٣) (٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م) ، أصدرت الدولة دنائير ذهبية ، أطلق عليها اسم (المناصرة) ، أو (الدينار المنصورى) ^(٤) ، وكان وزن الدينار الواحد درهماً واحداً من الذهب ^(٥) ، أى جرامين وسبعة وتسعين فى المائة من الجرام (٢,٩٧ جم) .

وقد ضرب من هذه الدنائير طراز واحد فقط ، صدر فى كل من القاهرة ودمشق ، وحملت اسم السلطان المنصور عثمان ولقبه ، وكذلك اسم والده ولقبه ^(٦) .

أما عن إصدارات السلطان المنصور عثمان من الدراهم الفضية والفلوس النحاسية ، فلم يرد فى المصادر والمراجع التاريخية ما يفيد قيام الدولة بإصدار تلك العملات .

(١) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٣٠٧ .

(٢) رأفت النبراوى ، المسكوكات ، ص ٢١٣ . محمد باقر ، الكنى والألقاب ، ص ٩٤ ؛
Balog. op. cit. pp. 158 - 161.

(٣) لترجمة السلطان المنصور عثمان بن جقمق ، فضلاً : أنظر السخاوى ، الضوء اللاع ،
مج ٣ ، ص ٥ . ص ١٢٧ - ١٢٨ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ٣٠١ - ٣١٠ ، ج ٣ ،
ص ٢٣٧ .

(٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٨١ . على مبارك ، المخطوط التوفيقية
، ج ١ ، ص ١٢٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠ م .

(٥) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .

(٦) رأفت النبراوى ، المرجع السابق ، ص ٨٥ ، محمد باقر ، المرجع السابق ، ص ٩٥ .

وفى عهد السلطان المملوكى الأشرف أبى النصر إبنال ^(١) (٨٥٧ - ٨٦٥ هـ / ١٤٥٣ - ١٤٦١ م) ، فقد تنوعت الإصدارات النقدية لتشمل الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية ، وتعد المسكوكات الذهبية التى صدرت فى عهد السلطان إبنال ، ذات كميات أكثر من غيرها من المسكوكات الأخرى ، بدليل وجود أحد عشر طرازاً من العملات الذهبية ، ضربت فى مختلف دور الضرب فى الدولة ، ومجموعة هذه الطرز تعد من أكثر المجموعات التى صدرت لسلطان من سلاطين دولة المماليك ، ومعظم تلك الطرز صدرت فى السنة الأولى من حكم السلطان الأشرف إبنال ، بينما حملت بقية الطرز الأخرى تواريخ سنوات حكمه الأخرى .

هذا ويرغم كثرة تلك الإصدارات من النقود الذهبية ، فإنها لم تحز على مركز لها بين العملات الذهبية الأخرى المتداولة فى أسواق الدولة ، وخصوصاً الدنانير الأشرفية (برسبای) ، أو الدوكات البندقية ، ويمكن تفسير ذلك بكثرة ما داخلها من الفساد والغش ، واضطراب الوضع النقدى فى الدولة بدليل كثرة الإصدارات منها .

ولم يكن حال النقود الفضية (الدراهم) ، أحسن حالاً من النقود الذهبية ، فبرغم قلة الأعداد الصادرة من تلك العملات ، فإنها تعرضت للتغيير والتبديل ، حيث صدر منها مجموعة من الطرز بلغ عددها ستة ^(٢) .

(١) لترجمة السلطان الأشرف أبى النصر إبنال ، فضلاً أنظر : ابن تغرى بردى حوادث الدهور ، ج ٣ ، ص ٥٥٨ ، ٥٦٣ ، الدليل الشافى ، ج ١ ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ ، السخاوى الضوء اللامع ، مع ١ ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ ، السيرطى ، نظم العقيان فى أعيان الأعيان ، ص ٩٣ ، نشر فيليب حتى ، نيويورك ، ١٩٢٧ م ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

(٢) وأفت النبراوى ، مسكوكات ، ص ١٧١ ، ١٧٧ .

ففى بداية عهد السلطان الأشرف إينال ضربت دراهم فضية جديدة ، وسرعان ما أبطل التعامل بها ، نظراً لما كانت عليه من الفساد والتزيف ، وبدلاً منها ضربت فى شهر ربيع الأول سنة ٨٦٢ هـ / يناير سنة ١٤٥٨ م دراهم جديدة خالصة من الغش ^(١) ، وصدر مع تلك الدراهم أجزاء الدراهم من أنصاف وأرباع.

وكانت النقود النحاسية التى صدرت فى عهد الأشرف إينال قليلة اذا ما قورنت بما أصدرته الدولة من نقود ذهبية أو فضية ، فقد ضرب منها طرازين فقط ، صدر أحد هذين الطرازين فى شهر جمادى الأول من سنة ٨٦٣ هـ / مارس سنة ١٤٥٩ م ، حيث ضربت فلوس نحاسية جديدة تم تداولها بعد أن أبطلت الفلوس القديمة (العتق) ^(٢) .

وخلال الفترة القصيرة التى حكم فيها السلطان المؤيد أبو الفتح أحمد بن إينال ^(٣) (٨٦٥ هـ / ١٤٦١ م) ، كانت كمية الإصدارات النقدية قليلة من النقود الذهبية والفضية ، أما النحاسية ، فلم تذكر المصادر والمراجع التاريخية قيام الدولة بإصدارها .

وقد أصدرت الدولة طرازين من الدنانير الذهبية ، وكذلك طرازين من الدراهم الفضية عن عدد من دور الضرب بها ^(٤) .

(١) ابن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ، ص ١٠٢ . ابن اياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ .

(٢) ابن تفرى بردى ، حوادث الدهور ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

(٣) لترجمة السلطان المؤيد أحمد بن إينال فضلاً أنظر : ابن تفرى بردى ، حوادث الدهور ، ج ٠٣ ، ص ٣٩٥ ، ٣٩٧ . السخاوى ، الضوء اللامع ، مج ١ ، ج ١ ، ص ٢٤٦ . لسيوطى ، نظم العقيان ، ص ٤٠ .

(٤) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٨١ ، رأفت النبروى ، مسكوكات ، ص ١٧٨ .

وفى عهد السلطان الظاهر أبى سعيد خوشقدم ^(١) (٨٦٥ - ٨٧٢ هـ / ١٤٦٢ - ١٤٦٧ م) أصدرت الدولة عدة إصدارات من عملاتها المختلفة ، فقد قام السلطان الظاهر عند توليه سلطنة الدولة بإصدار دنانير ذهبية على عدة طرز ، فى عدد من دور ضرب النقود ، فى القاهرة ودمشق وحلب ^(٢) . كما ضربت دراهم فضية سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦٣ م ، وصدر من تلك الدراهم طرازان ، تم ضربهما فى كل من القاهرة وحلب وشملت الإصدارات الفضية مجموعة من أنصاف الدراهم وأرباعها ^(٣) .

وضربت أيضاً فلوس نحاسية ، ولكنها اتسمت بالقللة والاضطراب ، بسبب كثرة فسادها والتلاعب بها ^(٤) ، وفى شهر جمادى الأولى سنة ٨٦٣ هـ / مارس ١٤٥٩ م أصدرت الدولة عملتها النحاسية الجديدة ، ودعت الى التعامل بها ، وإبطال ما عداها من فلوس (عتق) قديمة ، ولكن لم تتحقق دعوة الدولة ، فقد استمرت القديمة الى جانب الجديدة ، شأنها فى ذلك شأن مختلف الإصدارات النقدية المملوكية ^(٥) .

(١) لترجمة السلطان الظاهر أبى سعيد خوشقدم ، فضلاً أنظر : ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ج ٣ ، ص ٦٥٧ ، ٦٦٠ ، الدليل ، ج ١ ، ص ٢٨٦ ، السخاوى ، الضوء ، مج ٢ ، ج ٣ ، ص ١٧ - ١٧٦ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات ، ج ٧ ، ص ٣١٥ ، الشوكانى ، البدر الطالع ، ج ١ ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٢) رأفت النبراوى ، مسكوكات ، ص ١٠٣ ، محمد باقر ، الكنى والألقاب ، ص ٩٥ - ٩٦ .

(٣) رأفت النبراوى ، نفسه ، ص ٣١٩ .

(٤) نفسه ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(٥) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

أما فى الفترة التى حكم فيها السلطان الظاهر سيف الدين يلباى ^(١١) (٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م) ، وحكم خلالها مدة سبعة وخمسين يوماً ، وكذلك الفترة التى حكم فيها السلطان الظاهر أبو سعيد قمرىفا ^(١٢) (٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م) ، وتولى فيها سلطنة الدولة مدة ثمانية وخمسين يوماً ، ففى هاتين الفترتين لم تقم الدولة بضرب أى عملات فضية أو نحاسية ، إذ لم يسجل لهذين السلطانين أى دراهم أو فلوس ، كما أن المصادر التاريخية لم تذكر قيامها بإصدار تلك العملات خلال فترتى حكميهما ، وقد سجل لكل منهما نقود ذهبية ضربت فى عهديهما ، فسجل للسلطان الظاهر يلباى طراز واحد ، بينما سجل للسلطان الظاهر قمرىفا ثلاثة طرز من تلك النقود ، ضربت جميعها فى تلك الفترة القصيرة من حكمه ^(١٣) .

وبعس الفترتين السابقتين نجد الفترة التى تسلطن فيها السلطان الأشرف أبو النصر قايتباى ^(١٤) (٨٧٢ - ٩٠١ هـ / ١٤٦٧ - ١٤٩٦ م) ، فبالنظر الى طول الفترة التى حكم فيها يتبين لنا أن الدولة خلالها أصدرت مجموعات

(١١) لترجمة السلطان الظاهر سيف الدين يلباى . فضلاً أنظر : ابن تفرى بردى . حوادث الدهور . ج ٣ . ص ٦٠٢ . ص ٦١٠ . السخاوى . الضوء اللامع . مج ٥ . ج ١٠ . ص ٢٨٧ . ٢٨٨ . السيوطى . نظم العقبان . ص ١٧٨ .

(١٢) لترجمة السلطان الظاهر أبى سعيد قمرىفا ، فضلاً أنظر : ابن تفرى بردى . حوادث الدهور . ج ٣ . ص ٦١٥ . السخاوى . الضوء . مج ٢ . ج ٣ . ص ٤٠ - ٤١ . السيوطى . نظم العقبان . ص ١٠٢ .

(١٣) رأفت النبروى . مسكوكات . ص ١٠٩ - ١١٠ . ص ١٨١ - ١٨٢ . ص ٢١٧ .

(١٤) لترجمة السلطان الأشرف أبى النصر قايتباى . فضلاً أنظر : ابن تفرى بردى . حوادث الدهور . ج ٣ . ص ٦١٧ . السخاوى . الضوء . مج ٣ . ج ٦ . ص ٢٠١ . ٢١١ . ابن العماد الحنبلى . شذرات الذهب . ج ٨ . ٦ . ٩ . الشوكانى . الهدى الطالع . ج ٢ . ص ٥٥ - ٥٦ .

كثيرة من الإصدارات النقدية المتنوعة التى اشتملت على مسكوكات ذهبية وفضية ونحاسية .

لقد قام السلطان الأشرف قايتباى فى بداية توليه سلطنة الدولة بضرب مسكوكاته النقدية ، مع أن المصادر التاريخية لم تذكر ذلك الا فى وقت متأخر ، إضافة الى أن ما سجل للسلطان قايتباى من نقود لا تحمل تاريخاً لسنوات حكمه الأولى ، وأقدم قطعة نقدية تعود الى سنة ٨٧٩ هـ / ١٤٧٤ م ، وعليه فليس من المقبول أن تمضى سبع سنوات من حكم الأشرف قايتباى دون أن يقوم بإصدار أى من العملات النقدية ، خصوصاً وأن الوضع النقدى فى الدولة كان على قدر من الاضطراب والفساد ، يتحتم معه القيام بإصلاح نقدى فيها ، وعلى هذا فإن قيام السلطان الأشرف قايتباى بضرب مسكوكاته فى بداية فترة حكمه أمر ضرورى فى مثل تلك الظروف .

أصدر قايتباى نقوده الذهبية خلال اثنى عشر طرازاً نقدياً ، جعلته السلطان المملوكى الوحيد الذى يصدر هذا العدد الضخم من الطرز ، وقد حملت تلك الطرز بأشكالها المختلفة اسم السلطان ولقبه ، وضربت فى كل من القاهرة ودمشق وحلب وحماة^(١) .

وأصدر نقوده الفضية على طرز عديدة أيضاً ، وقد ركز فى تلك الإصدارات الفضية على أجزاء الدراهم ، وبالات أنصاف الدراهم .

وصدر أحد تلك الطرز من الدراهم فى شهر شعبان سنة ٨٨٥ هـ / أكتوبر سنة ١٤٨٠ م وطرحت للتداول فى سبيل نشر التعامل بها ورواجها وتدعيماً

(١) رأفت النبروى ، مسكوكات ، ص ١١٢ . محمد باقر . الكنى والألقاب . ص ٩٧

لذلك منع التعامل بالدرهم التي لا تنتمي لفترة الأشرف قايتباي ، حيث أصابها فساد والغش ، وأصبحت مجالاً للتلاعب والتزييف ^(١) .

أما النقود النحاسية ، فقد ضرب السلطان الأشرف قايتباي مجموعة إصدارات نقدية ، في تاريخ مجهول في السنوات الأولى من حكمه ، ثم صدرت مجموعة أخرى كانت على طرز مختلفة . صدر أحدهما في ذى الحجة سنة ٨٧٩ هـ / مايو سنة ١٤٧٤ م ، وصدر آخر في شهر رمضان من سنة ٨٨٦ هـ / أكتوبر - نوفمبر ١٤٨٤ م ، وكان الغرض منها أن يتم التعامل بتلك الفلوس عدداً ، وما عداها يتم التعامل به وزناً ، نظراً لما كانت عليه من تلاعب واضطراب ^(٢) .

هذا وما تجدر الإشارة إليه أن سوء الأوضاع النقدية في الدولة المملوكية استمر على ما هو عليه من فساد وغش ، بل يمكن القول إن غش النقود وفسادها قد زاد في عهد السلطان الأشرف قايتباي ، ومن خلفه من سلاطين المماليك الجراكسة ، حيث نقصت أوزان العملات السلطان الناصر أبى السعادات محمد بن قايتباي ^(٣) (٩٠١ - ٩٠٤ هـ / ١٤٩٦ - ١٤٩٨ م) أصدرت الدولة مجموعة من الإصدارات النقدية ، فصدر من العملات الذهبية مجموعة من الطرز حملت اسم السلطان واسم والده ولقبهما ، كما صدرت عملات فضية تمثلت بأنصاف الدراهم فقط ، التي ضربت بأعداد كبيرة ^(٤) ، مما يوحى باكتفاء

(١) الصيرفي ، إنهاء العصر بأبناء العصر ، ص ٥٠٧ . تحقيق حسن حبشى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٠ م ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٦٧ ، ص ١٨٩ .

(٢) ابن اياس ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٥ ، ص ١٨٩ .

(٣) لترجمة السلطان الناصر محمد بن قايتباي ، فضلاً أنظر : ابن اياس ، بدائع ، ج ٣ ، ص ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ابن العماد الحنبل ، شذرات الذهب ، ج ٨ ، ص ٢٢ .

(٤) ابن اياس ، المصدر السابق ، ص ٣٥٥ ، وأفت النبروى ، مسكوكات ، ص ٣٢٣ .

الدولة من تلك الإصدارات الفضية ، بدلاً من الدراهم التي كان إصدارها يمثل عبئاً عليها ، بسبب عدم توفر معدن الفضة بكميات كافية ، وللتقليل أيضاً من حجم الخسائر التي تتعرض لها الدولة ، وعامة الناس من جراء ما تتعرض له الدراهم من غش وتزييف .

وأصدرت الدولة أيضاً عملات نحاسية في السنة الثانية من حكم الناصر محمد بن قايتهاي ، وقد كثرت أعداد تلك الفلوس بشكل ملحوظ ، خصوصاً في السنة التالية لضربها أي في سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٨ م ، وقد أدت هذه الكثرة إلى انخفاض أسعار صرف تلك العملات ^(١) .

أما عن الإصدارات النقدية في عهد كل من السلطان الظاهر أبي سعيد قانصوه ^(٢) (٩٠٤ - ٩٠٥ هـ / ١٤٩٨ - ١٥٠٠ م) ، والسلطان الأشرف أبي النصر جان بلاط ^(٣) (٩٠٥ - ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ - ١٥٠١ م) ، والسلطان العادل أبي النصر طومان باي ^(٤) - الأول (٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م) ، فقد اتسمت مسكوكاتهم النقدية بالقلّة ، إضافة إلى اشتراكهم جميعاً في عدم إصدار عملات نحاسية خلال فترات حكمهم ، إذ لم تذكر المصادر التاريخية ، أو المراجع قيام أي منهم بضرب فلوس نحاسية ، كما اشترك كل من السلطان الأشرف جان بلاط والسلطان العادل طومان باي في عدم إصدارهما دراهم

(١) ابن إياس ، بدائع ، ج ٤ ، ص ٢٤ .

(٢) لترجمة السلطان الظاهر قانصوه ، فضلاً انظر : ابن إياس ، بدائع ، ج ٣ ، ص ٤٠٤ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، الشوكاني ، الدر الطالع ، ج ٢ ، ص ٥٤ - ٥٥ .

(٣) لترجمة السلطان الأشرف جان بلاط ، فضلاً انظر : ابن إياس ، بدائع ، ج ٣ ، ص ٤٣٨ ، ص ٤٦٢ - ٤٦٣ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٨ ، ص ٢٨ .

(٤) لترجمة السلطان العادل طومان باي ، فضلاً انظر : ابن إياس ، بدائع ، ج ٣ ، ص ٤٦٣ ، ص ٤٧٧ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٨ ، ص ٢٧ .

فضية ، أو أجزائها ، ويشترون جميعاً فى إصدار دنانير ذهبية ، ولكن بأعداد قليلة ، وينفرد السلطان الظاهر قانصوة بإصدار دراهم فضية خلال فترة حكمه .

ومن الواضح أن قصر فترات حكمهم ، واضطرابها ألبضاً قد أدى الى عدم تمكثهم من إصدار مزيد من العملات النقدية ، وقد ساعد على ذلك تدهور الأوضاع الاقتصادية فى الدولة ، وبصفة خاصة النقدية منها ، وما يعانیه هذا الجانب من فساد واضطراب .

لقد بلغ التدهور النقدى المملوكى ذروته فى أثناء الفترة التى حكم فيها السلطان الأشرف قانصوة الغورى ^(١) (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ / ١٥٠١ - ١٥١٦ م) ، وكان تأثير ذلك التدهور ملحوظاً على كافة جوانب الحياة فى الدولة ، فقد وصف لنا المؤرخ المعاصر للفترة ابن اياس المصرى مجمل الأوضاع - ومنها الأوضاع النقدية - التى كانت تعيشها دولة المماليك ^(٢) .

لقد ضرب السلطان قانصوة الغورى مسكوكاته الذهبية على عدة طرز مختلفة ، حملت اسمه ولقبه ، وتم ضربها فى عدد من دور ضرب النقود فى الدولة ^(٣) .

كما أصدر السلطان الغورى مسكوكاته الفضية وأجزائها ، وقد اتسمت بانخفاض أوزانها ، مع ارتفاع أسعار صرفها ، نتيجة الغش الذى وقع عليها ،

(١) لترجمة السلطان الأشرف قانصوة الغورى ، فضلاً انظر : ابن اياس ، بدائع . ج ٤ . ص

٥٠٢ . ج ٥ . ص ٧١ . ص ٨٧ . ١٠٢ . ابن العماد الحنبلى شذرات الذهب . ج ٨ . ص ١١٣ . ١١٥ . الشوكانى ، الهدى الطالع . ج ٢ . ص ٥٥ .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن ذلك فضلاً انظر الفصل السادس .

(٣) رأفت النهروانى ، مسكوكات ، ص ١٣٧ . محمد باقر ، الكنى والألقاب ، ص ٩٨ .

وكثرة ما داخلها من الزغل والتزييف .

أما الفلوس نحاسية ، فقد شهدت اضطراباً لم تشهده من قبل ، حتى أن اهتمامات السلطان الغورى بالشئون النقدية انصرف الى الفلوس والإكثار منها ، فصدر منها مجموعة كثيرة من الطرز المختلفة .

ففى السنة الأولى من حكمه ، وبالتحديد فى شهر صفر من سنة ٩٠٧ هـ / أغسطس - سبتمبر سنة ١٥٠١ م ضرب نقوداً نحاسية ^(١) ، ثم بعد خمسة أشهر أى فى شهر رجب / يناير - فبراير سنة ١٥٠٢ م ضرب أيضاً فلوساً نحاسية جديدة ، نظراً لفساد الفلوس التى صدرت قبلها ، وما نتج عن ذلك من خسارة الناس ، وأصحاب الأموال تضرروهم ^(٢) .

وصدرت أيضاً فى شهر ذى الحجة سنة ٩١٧ هـ / مارس ١٥١١ م فلوس نحاسية جديدة ونودى بالتعامل بها ، وبغيرها من الفلوس السابقة لها على أساس الوزن ، وهذا دليل على الفساد والغش الذى صاحبها ^(٣) ، وبعد حوالى عام ، أى فى شهر ذى الحجة من العام التالى / فبراير عام ١٥١٣ م أصدرت دور الضرب فلوساً نحاسية جديدة ، أمر الناس بالتعامل بها وزناً ^(٤) ، ثم صدرت فى العام التالى فلوس نحاسية جديدة تم تداولها وزناً ^(٥) ، وكذلك فى شهر جمادى الأولى سنة ٩٢٢ هـ / يولية سنة ١٥١٦ م ضربت فلوس نحاسية جديدة ، وطرحت للتداول بعد إبطال ما عداها من فلوس ، بسبب ازدياد نسبة

(١) ابن ابى اس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢٠ .

(٢) نفسه ، ص ٢٤ .

(٣) نفسه ، ص ٢٥١ .

(٤) نفسه ، ص ٢٩٥ .

(٥) نفسه ، ص ٣٣٨ .

فسادها . وعدم صلاحيتها للتداول ^(١) .

وأخيراً جاءت خاتمة المطاف فى الإصدارات النقدية المملوكية ، بما أصدره السلطان الأشرف أبو النصر طومان باى ^(٢) - الثانى - (٩٢٢ هـ / ١٥١٦ - ١٥١٧ م) من عملات ذهبية ونحاسية ، بكميات قليلة حملت اسم آخر سلاطين المماليك ، كما حملت سنة ضربها . وهى سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م . وآخر سنوات الحكم المملوكى ، وانتهت بها الإصدارات النقدية المملوكية .

وبهذا أكون قد استعرضت فى الصفحات السابقة الإصدارات النقدية لدولة المماليك ، بما كانت عليه من تنوع ، وما مرت به من ظروف .

* * * * *

وبعد هذا المسح التاريخى . يجدر بى أن أوضح أهم الملاحظات التى تم استنتاجها من هذا المسح . وهى كالتالى :

أولى تلك الملاحظات هى : أن إصدار المسكوكات النقدية المملوكية قد صاحبه الاضطراب . وعدم الاستقرار بسبب ظروف العصر السياسية . إذ من المعروف أن إصدار النقود من الحقوق الشخصية التى ترتبط ارتباطاً قوياً بالسلطان المملوكى . وتتأثر بقوته وضعفه . وتستمد منه البقاء والتداول . فهى مقبولة وموضع ثقة المتعاملين مادام السلطان ممسكاً بالسلطة . قائماً بها بكل قوة . أما إذا حدث العكس . أو آل الأمر الى سلطان آخر . فان تلك النقود أو

(١) ابن ايماس . بدائع الزهور . ج ٥ . ص ٥٢ .

(٢) لترجمة السلطان الأشرف طومان باى الثانى . فضلاً انظر : ابن ايماس . بدائع . ج ٥ . ص ١٠٣ . ص ١٧٦ - ١٧٧ . ابن العماد الحنبلى . شذرات الذهب . ج ٨ . ص ١١٥ .

المسكوكات سرعان ما تتغير وتتبدل ، حاملة اسم السلطان الجديد .

وتبعاً لذلك ، فقد تأثر إصدار النقود تأثراً كبيراً بالمدة التى يقضيتها هذا السلطان ، أو ذاك فى الحكم ، ونلمس هذا التأثير فى فترات حكم بعض سلاطين الدولة ، بمن اتصفت فترات حكمهم بقصرها ، إذ يظهر لنا من المسح السابق أو أولئك السلاطين أصدروا كميات قليلة من النقود ، أو أصدروا نوعاً أو نوعين دون أن تتاح لهم الفرصة فى إصدار مختلف الأنواع النقدية بل أن هنالك بعض السلاطين ممن تولوا فترات قصيرة جداً لم يتمكنوا من إصدار أى عملات نقدية .

الملاحظة الثانية : هى أن توفر المواد الخام اللازمة لسك النقود ، كان له تأثيره الكبير فى كمية الإصدارات النقدية ، فعدم وجود معدن الذهب ، أو عدم وصوله الى الدولة من مصادره ، يعنى وقوع أزمة فى الدولة ، ينتج عنها عدم ضرب عملات ذهبية ، أو على الأقل ضرب أعداد قليلة منها ، فيترتب على ذلك تأثر الأوضاع النقدية فى الدولة بصفة خاصة ، وأوضاعها الاقتصادية بصفة عامة .

وقد عاشت دولة المماليك ، خلال تاريخها الطويل ، أزمات نقدية نتيجة لنقص كمية أحد المعادن المستخدمة فى سك العملات ، وبمنظرة على المسح السابق ، يظهر لنا ذلك بوضوح ، ويمكننا أن نلمس ذلك النقص عندما تقوم الدولة بتداول نقود ، أو إصدارات نقدية لسلاطين سابقين ، الى جانب النقود التى يصدرها السلطان ، فى أثناء فترة حكمه ، فما يصدر من نقود فى فترة حكم سلطان من السلاطين - لم يكن يكفى فى العادة لتسيير مختلف أنواع العمليات التجارية والمالية فى الدولة ، فتضطر الدولة الى استخدام الإصدارات

النقدية السابقة لتحقيق حاجة المعاملات المالية الى النقود بأنواعها المختلفة ^(١).

والملاحظة الثالثة : هى أنه بسبب نقص احتياجات الدولة من المعادن المستخدمة فى سك العملات ، وبسبب اضطراب الأوضاع السياسية فى دولة الممالك ، وخصوصاً فى عهد الممالك الجراكسة ، أصيب العملات النقدية المملوكية بالفساد والتزيف ، إما بسبب سوء تصرف بعض سلاطين الدولة ، أو بسبب ما كانت تتعرض له النقود من قص وهرش وزغل ، من قبل الغاية وغيرهم من عامة الناس .

وكان من نتائج هذا الفساد حدوث نقص فى أوزان العملات ، واخلل فى عيارها ، وأحجامها وأشكالها ، إضافة الى تذبذب أسعار صرفها ، وما نتج عن ذلك من فقدان الثقة بها ، والبحث عن عملات أخرى تحوز الثقة .

وتظهر هذه الملاحظة بوضوح فى إصدارات الدولة من النقود الفضية خلال العهد الجركسى ، إذ اتسمت تلك الإصدارات بعدم انتظامها ، كما أن عملية سكها لم تكن بالجودة المطلوبة ، ولم تكن أيضاً وفق مواصفات جيدة من الوزن والعيار والشكل - حسبما يذكر أحد المتخصصين ^(٢) الذى يضيف أن معظم تلك الإصدارات لا تظهر عليها المآثرات التى تحملها ، ويعود ذلك الى ضرب قطع معدنية صغيرة فى سكة كبيرة ، أو الى قرض أجزاء من القطعة النقدية للاستفادة والربح المادى .

(١) فضلاً انظر وثيقة السلطان قايتباى ص ٤٣٠ وما بعدها ، ابن العماد . شذرات الذهب .

ج ٧ ، ص ٣٠٤ . ٣٠٥ .

(٢) محمد العيش ، مصر ، القاهرة على النقود العربية الاسلامية ، ص ٩٦٧ .

أما الملاحظة الرابعة والأخيرة ، فهي أن زيادة الإصدارات النقدية ، والإكثار من سك العملات من الأمور الهامة للدولة التي يمثلها السلطان ، إذ من الأهمية بمكان بالنسبة للسلطان أن يتقوى مركزه الداخلى ، وينتشر أيضاً نفوذه داخل الدولة وخارجها ، ومتى حدث ذلك ، فإنه ينعكس على جوانب الحياة فى الدولة ، ومن بينها النقود التى ستمتع بالقوة والانتشار ، وهما الصفتان اللتان تحتاجهما النقود لبقائها وتقوية مركزها ، وفى الوقت نفسه يتحقق بانتشارها رواج وانتشار لاسم السلطان ، وبالتالى تثبيت لحكمه ، وإثراء لدولته بتنشيط العمليات التجارية فيها .

ومن جانب آخر فإن الإصدارات النقدية تؤمن للدولة جزءاً من إيراداتها المالية ، وذلك بحصولها على مبالغ مالية من التجار ، وأصحاب الأموال لقاء ما يضربونه من الدينار والدراهم لحسابهم الخاص بدور ضرب النقود فى الدولة .

وفيما سبق نجد أنه تحقق للدولة فائدتان هامتان : أولاًهما - تثبيت حكم الدولة ، وتقوية مركزها ، ونشر نفوذها ^(١) ، والثانية - هى الفائدة المالية التى جنتها الدولة المملوكية من الإيرادات المالية التى تحصل عليها دور الضرب لقاء

(١) يحفل التاريخ المملوكى بأمثلة عديدة على قوة الدولة ، وسط نفوذها على عدد من القوى الأخرى ، وكان من مظاهر ذلك التبعية النقدية من قبل تلك القوى للدولة المملوكية ، التى اكتفت من السيطرة وسط النفوذ بالدعاء للسلطان المملوكى ، وختم اسمه ولقبه على السكة .

فضلاً أنظر : الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٩٩ ، أهر الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٣٤ ، ابن الفرات تاريخه ، مج ٩ ، ج ١ ، ص ٣٦ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٧٨٨ ، ابن حجر ، أنباء ، ج ١ ، ص ٣٥٠ ، ج ٢ ، ص ٥٣٩ ، ج ٣ ، ص ٥٣٩ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ١ ، ص ٣٨٦ ، ابن بهادر ، فتوح النصر ، ورقة ٢٧٥ ، عباس العزاوى ، تاريخ النقود العراقية ، ص ٧ .

سك العملات .

هذا ما يتصل بالمسح التاريخى للإصدارات النقدية به فى دولة المالك ، وأهم الملاحظات على تلك الإصدارات .

د - المجالات التى استخدمت فيها العملات المملوكية

أما عن المجالات التى استخدمت فيها العملات المملوكية ، فالمعروف أن النقود المملوكية مثل غيرها من النقود الاسلامية ، تألفت من النقود الذهبية (الدنانير) ، والنقود الفضية (الدراهم) ، والنقود النحاسية (الفلوس) ، ومنذ بداية العصر المملوكى الذى يُعد امتداداً زمنياً ومكانياً للدولة الأيوبية ، فقد استمرت النقود الذهبية تمثل القاعدة النقدية الرئيسية للنظام النقدى المملوكى ، وعلى أساسها قُدِّرَت القيم النقدية وأسعار صرف النقود الأخرى .

ومع امتداد الحكم المملوكى وما حفل به من تطورات سياسية واقتصادية قلَّ الاعتماد على النقود الذهبية ، وأضيفت إليها النقود الفضية ، لتشكل معها ثنائياً نقدياً أصبح قاعدة نقدية للدولة - وهو ما يعرف بنظام المعدنين بدلا من نظام المعدن الواحد - وما أن وصلت دولة المالك الى نهايتها حتى كانت النقود النحاسية هى قاعدة النقد الرئيسية للدولة ، واحتلت ما كان للنقود الذهبية والفضية من مركز نقدى ، وأصبحت هى النقود القانونية التى تقوم بها المبيعات والأجور .

لقد مثلت النقود الذهبية أساس المعاملات النقدية التى يتم من خلالها تقدير قيم الأشياء ، وتحقيق المبادلات المختلفة داخل الدولة وخارجها ، حتى فى حالة عدم الدفع بتلك النقود فى كثير من الأحيان ، فعن طريق النقود الذهبية ، تم تحديد ماعداها من نقود ، كما استخدمت النقود الذهبية غطاءً هاماً

لميزانية الدولة ، يعتمد عليها فى تدعيم اقتصادياتها ، وما ينتج من وراء ذلك الدعم من تأثيرات على كافة أوجه الحياة فى الدولة .

ومع أن النقود الذهبية استخدمت أحياناً فى بعض الأغراض كدفع المرتبات والتنفقات ، لأمرء الدولة وأجنادها وموظفيها ، فإن تداولها لم يكن بشكل واسع ، ولعل السبب الرئيسى فى ذلك عائد الى أن إصدارات الدولة من تلك النقود لم يكن بكميات كافية للتداول الأمر الذى أدى الى قلتها ، وبالتالي الى اكتنازها والاحتفاظ بها ، وقد زاد هذا من ندرتها ، مما استوجب البحث عن نقود مساعدة تقوم بالوظيفة المطلوبة فى العملية الاقتصادية .

ومحققاً لهذا الهدف أصبحت النقود الفضية (الدراهم) وسيلة العامل النقدي فى الدولة ، فى مختلف أنواع العمليات الاقتصادية ، كدفع المرتبات لمختلف أصحاب الأجور من أمراء وماليك وموظفين وغيرهم ، كما استخدمت فى الإنفاق على كافة المرافق ، والخدمات العامة سواء ما تشرف عليه الدولة ويقع تحت إدارتها ، أو ما يقع تحت إشراف أصحاب الأموال ، أو أى جهة أخرى من جهات المال فى الدولة ، كذلك التى تقع ضمن أموال الأوقاف . يقول المقرئى^(١) :

«وراجت هذه الدراهم فى بقية دولة بنى أيوب ، ثم فى أيام موالىهم الأتراك بمصر والشام ، رواجاً حتى قلّ الذهب بالنسبة إليها ، وصارت المبيعات الجليلة تُباع وتقوم بها ، وإليها تنسب عامة أثمان المبيعات وقيم الأعمال ، وبها يؤخذ خراج الأرضين وأجرة المساكن وغير ذلك» .

لقد قامت النقود الفضية بالمهمة خير قيام ، واستمر العمل بها لا ينافسها فى ذلك أنواع أخرى من النقود ، حتى نهاية العهد المملوكى الأول ، وبداية العهد

الملوكى الثانى ، الذى شهدت فى أثنائه النقود الفضية ، وكذلك النقود الذهبية منافسة حادة من النقود النحاسية ، انتهت بأن أصبحت الفلوس هى العملات القانونية التى تُنسب إليها أثمان الأيماء وقيم الأجور ، ويتم بها مختلف أنواع المبادلات فى الدولة . حتى إن العملات الذهبية والفضية أصبحت أسعارها ، وقيمتها النقدية تقدّر على ضوء القيمة النقدية للعملات النحاسية .

وهكذا فبدلاً من أن تكون الفلوس النحاسية نقوداً مساعدة للنقود الذهبية والفضية تستخدم فى المبادلات الصغيرة ، والمعاملات المالية البسيطة ، أصبحت هى الأساس النقدى فى الدولة يتم استخدامها فى جميع أنواع المبادلات المختلفة - جليلها وحقيبرها - وفى دفع المرتبات والأجور ، وكافة مصروفات الدولة ونفقاتها .

يقول المقرئى ^(١) عن هذا التطور الهام :

"إن الذى استقر أمر الجمهور بإقليم مصر عليه فى النقد : الفلوس خاصة ، يجعلونها عوضاً عن المبيعات كلها ، من أصناف المأكولات وأنواع المشروبات ، وسائر المبيعات ، وبأخذونها فى خراج الأرضين ، وعشور أموال التجارة ، وعامة مجاهى السلطان ، ويصيرونها قيماً عن الأعمال جليلها وحقيبرها ، لا نقد لهم سواها ، ولا مال إلا إيها" .

وفى موضع آخر ^(٢) يجعل المقرئى هذا التطور فى الأوضاع النقدية المملوكية من أهم الأسباب التى أدت الى تدهور أحوال الدولة حيث يقول :

"لمن نظر الى أثمان المبيعات باعتبار الفضة والذهب لا يجدها قد غلت

(١) إغاثة الأمة ، ص ٧٦ .

(٢) إغاثة الأمة ، ص ٧٩ - ٨٠ .

إلا شيئاً يسيراً ، وإما باعتياد مادي الناس من كثرة الفلوس ، فأمر لا أشنع من ذكره ، ولا أفظع من هوله ، فسدت به الأمور ، واختلت به الأحوال ، وآل أمر الناس بسببه إلى العدم والزوال ، وأشرف من أجله الإقليم على الدمار والإضمحلال .

وأخيراً فإن أغراض واستخدامات النقود لا تقف عند وظيفتها الاقتصادية والمالية ، بل تتمدها إلى أهداف وغايات أخرى تعمل العملات أو المسكوكات النقدية بمختلف أشكالها وأنواعها على نشرها والتعريف بها .

ففى هذا المجال تُعدّ المسكوكات النقدية سجلاً هاماً للأحداث التى تمر بها الدول فإضافة إلى ما تسجله من تطور سياسى تمر به الدولة خلال فترات حكم سلاطينها أو ملوكها فإنها تقوم بعمل إصدارات نقدية تذكارية تحمل أهم الأحداث أو المناسبات ، كما أن العملات بما تحويه من نقوش وكتابات تدل على الوحدة السياسية ، أو التبعية السياسية بين دولة وأخرى ، أو بين عدة دول ، كما تعد النقود مجالاً للتعريف بالألقاب والمسميات التى حملها السلاطين والحكام ، وأولياء العهد ، أو الولاة والنواب ، أو تكون دالة على الوظائف والرتب وما شابهها ، أو فى التعريف بالنطاق الجغرافى للدولة وعند ذكر مدن الضرب على العملات .

ومع أن المسكوكات المملوكية لم تتحقق فيها جميع تلك الاستخدامات أهم الأغراض ، فإنها استخدمت فى بعضها ، والأهم من ذلك كله أن النقود المملوكية قد أعطت صورة واضحة لما كانت عليه الأوضاع السياسية والاقتصادية فى الدولة وما مرت به تلك الأوضاع من ظروف ، وما تعرضت له من تطورات .

الفصل الثالث

القيم النقدية للنقود المملوكية

- ١ - المقصود بالقيمة النقدية ومؤثراتها المختلفة .
- ٢ - متوسط القيمة النقدية للنقود .
- ٣ - القيمة النقدية للدينار .
 - أولاً: في العهد المملوكي البحري .
 - ثانياً: في العهد المملوكي الجركسي .
- ٤ - القيمة النقدية للدرهم .
- ٥ - القيمة النقدية للفلوس .
- ٦ - نتائج دراسة القيم النقدية .

١ - المقصود بالقيمة النقدية ، ومؤثراتها المختلفة

المقصود بالقيمة النقدية هو قيمة ما تحتويه الوحدة النقدية من المعدن ، فالقيمة النقدية للدینار والدرهم مقدرة بما يساويه من الذهب أو الفضة ^(١) ، وعليه فإن هذه القيمة لا شك ستتأثر بدرجة نقاء المعدن ، وخلوصه من أى أخلاط ، سواء كانت معادن رخيصة الثمن ، أو شوائب ، وهذا ما يعرف بمقياس المعدن ، كما أنها ستتأثر بمدى توفر المعدن ، وكثرة المعروض منه .

وإذا كان عامل وزن المعدن ونقاؤه ، وعامل توفره قد أثرا مباشرة وبشكل دائم على القيمة النقدية للنقود الملوكية ^(٢) ، فإن هناك عوامل أخرى تتأثر بها القيمة النقدية من حيث ثباتها ، أو تذبذبها بين الارتفاع والانخفاض ، وهذه العوامل تتلخص فيما يلى :

أولاً : السياسة النقدية للسلطين ، وتدخلهم فى تحديد القيم النقدية لأنواع النقود ، فمن خلال دراستنا التالية لأسعار المبادلة بين النقود الملوكية نجد أنه فى بعض الفترات ، وخصوصاً فى العهد المملوكى الجركسى - يتدخل السلطان فى تحديد القيمة النقدية للدینار أو الدرهم ، إما رغبة فى الحد من ارتفاعها وتنظيم عملية التبادل ، وهذا لا يتأتى الا بمعالجة السبب المباشر فى الارتفاع ، وإما رغبة فى الرفع المادى برفع القيمة

(١) أبو بكر الصديق عمر متولى ، شوقى اسماعيل شحاته ، اقتصاديات النقود فى إطار الفكر الإسلامى ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) تأثرت أسعار المبادلة بين أنواع النقود الملوكية - طوال العصر المملوكى بهذين العاملين بصفة رئيسية حتى أن العوامل الأخرى كانت نتيجة لهذين العاملين ، وقد سبق مناقشة أوزان النقود الملوكية ومقاييراتها ، وقبل ذلك تمت مناقشة المعادن المستخدمة فى سك النقود الملوكية والنتائج المترتبة على نقصها .

النقدية أكثر مما تستحق ، وإجبار الناس على التعامل بها ^(١) .

ثانياً : الأحوال الاقتصادية فى الدولة ، حيث تتأثر قيمة النقود بمدى قوة اقتصاد الدولة ، وما تتعرض له من أزمات مختلفة ، فنظراً لتأثيرها المباشر على القوة الشرائية - كما سنرى فى الفصل القادم - فإن هذا التأثير يؤدي الى نتيجة عكسية على القيمة النقدية اذ المعروف أن ارتفاع أثمان المبيعات يؤدي الى انخفاض القيمة للنقدية ، وارتفاع القيمة النقدية عائد الى انخفاض الأسعار ، ومن هنا نرى التأثير البالغ لأوضاع الدولة الاقتصادية على أسعار المبادلة بين النقود المملوكية .

ثالثاً : الفساد النقدي فى الدولة ، وعلى رأس ذلك الفساد انتشار التعامل بالفلوس النحاسية حتى أصبحت النقود الرئيسية فى الدولة ، وهذا ما يعرف عند الاقتصاديين بقانون جريشام (GRESHAM) الذى عاش فى القرن العاشر الهجرى / السادس الميلادى ونصه : « إذا وجدت أنواع مختلفة من العملة لا يتفق المعدل القانونى فيما بينها ، مع المعدل التجارى فإن النوع الذى تقل قيمته التجارية عن قيمته القانونية يدفع الأنواع الأخرى بعيداً عن ساحة التداول ، بحيث تختفى النقود الجيدة ، وتبقى النقود الرديئة وحدها فى التداول ، وبهذا تطرد النقود الضعيفة النقود القوية ^(٢) .

(١) لمزيد من التفصيلات عن السياسة النقدية للسلطين ، فضلاً أنظر الفصل السادس . الفساد النقدي . ص ٥٤٩ .

(٢) رأفت النبرواى ، مسكوكات المماليك الجراكسة ، ص ٢٤٤ . ويذكر أن القانون من اختراع الاقتصادى الانجليزى هنرى ماكلود فى القرن التاسع عشر ، وليس من اختراع سير توماس جريشام .

والواقع أن المقریزی قد سبق جريشام الى هذه القاعدة ، وقد ذكرها ضمن مبادئه الاقتصادية التي نادى بها من خلال مؤلفاته الاقتصادية القيمة ، والتي صرح من خلالها بأن ما يتعرض له النظام النقدي المملوكى من فساد راجع الى تداول تلك الفلوس .

المهم أن تداول الفلوس النحاسية قد أثر كثيراً فى القيمة النقدية للنقود المملوكية فى الوقت الذى عانت فيه من تذبذب ، وعدم استقرار فى أسعار مبادلتها ، فقد شهدت أيضاً ارتفاعاً فى قيمها النقدية نتيجة اختفاء النقود الذهبية والفضية ، مما زاد من فرص افسادها عن طريق إنقاص أوزانها ، وبالتحديد إنقاص معدنى الذهب والفضة فيهما ، وعدم ضبط عيارهما ، بخلطها بمعادن رخيصة الثمن .

هذه بإيجاز العوامل المؤثرة على القيمة النقدية المملوكية ، وسيوضح لنا من خلال دراسة أسعار المبادلة فى العصر المملوكى تأثير تلك العوامل على تلك الأسعار ، والتقلبات التى عانت منها .

٢ - متوسط القيمة النقدية

لعل من المفيد أن أبدأ حديثى عن متوسط القيمة النقدية المملوكية بما ذكره المقریزی من تحديد لمتوسط القيمة النقدية لكل من الدينار والدرهم .

= وللحق ، فإن الراجب نسبة القانون الى المقریزی لا الى هنرى ماكلود أو جريشام ، إذ من المؤكد أن دورهما لا يعدو عن ربط هذه النظرية بعلم الاقتصاد كعلم حديث ، ولأن أول من قال بهذه القاعدة النقدية هو المقریزی عندما طبقها على الدراهم الفضية والفلوس النحاسية التى كثر استخدامها وزاد تداولها والتعامل بها ، فطردت الدراهم الفضية من استخدامها فى عمليات التعامل المختلفة .

يقول المقرئى (١) :

«إن الفضة الخالصة التى لم تضرب ، ولم تغش سعر كل مائة درهم منها خمسة مثاقيل من الذهب ، وتحتاج بذار الضرب فى ثمن نحاس ومكس للسلطان ، وثمان حطب ، وأجرة صناع ونحو ذلك بحكم سعر هذا الوقت الى ربع دينار ، فتصير بهذا العمل وزن مائة وخمسين درهماً معاملة عنها من الذهب .. - خمسة مثاقيل وربع مثقال ، فحكم ذلك يكون صرف كل مثقال من الذهب المختوم بأربعة وعشرين درهماً من الفضة المعاملة » .

هذا هو المتوسط الدقيق للقيمة النقدية لكل من الدينار والدرهم ، ولكن هل تم تطبيق ذلك خلال العصر المملوكى ؟ هذا ما يجيب عليه القلقشندى بقوله (٢) :

«ثم صرف الذهب بالدينار المصرية لا يثبت على حاله بل يعلو تارة ، ويهبط أخرى بحسب ما تقتضيه الحال » .

فالقلقشندى يصور لنا ما كان عليه الدينار الذهبى من تقلب وعدم ثبات فى قيمته النقدية ، إذ أن ذلك مرتبط بشكل بأوضاع الدولة وظروفها ، وهو ما عر عنه بقوله : ما تقتضيه الحال ، وهذا الوضع ينطبق دون شك على الأنواع الأخرى للنقود المملوكية .

فأسعار المبادلة لم تثبت على قيمة محددة يمكن من خلالها استعراض متوسط للقيمة النقدية لأى نوع من الأنواع ، حيث تأثرت بظروف العرض

(١) إجماعة الأمة . ص ٨٠ .

(٢) صبح الأعشى . ج ٣ . ص ٤٣٨ .

والطلب الذى كانت عليه تلك النقود ، وهذه القاعدة - العرض والطلب - هى التى وجهت فى معظم فترات العصر المملوكى السعر التبادلى للنقود ، سواء كان التعامل بها قد تم عن طريق العدد أو عن طريق الوزن ^(١) .

هذا وقد ذكر عدد من الباحثين ^(٢) أن متوسط القيمة النقدية للدينار المملوكى فى العهد المملوكى البحرى ، والسنوات الأولى من العهد المملوكى الجركسى كانت عشرين درهماً ، تزيد فى بعض الأحيان الى خمسة وعشرين درهماً ، والى ثمانية وعشرين درهماً .

والواقع أنه فى ظل عدم ثبات القيمة النقدية للدينار أو الدرهم ، فإن استخلاص متوسط للقيمة النقدية أمر غير دقيق من الناحية العلمية ، صحيح أن أسعار المبادلة قد مرت بفترات استقرار ، وثبات معظم سنوات العهد المملوكى البحرى ، ولكن هذا لا يتيح لنا تحديد متوسط عام يشمل فترة الدراسة جميعها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن القيمة النقدية للنقود المملوكية حتى فى فترات الثبات قد اختلفت من اقليم لآخر ^(٣) الأمر الذى يصعب معه وضع

(١) عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ، ص ٩٢ ، محمد أمين صالح ، التنظيمات التجارية ، ص ١٨٧ .

(٢) محمد أمين صالح ، نفسه ، ص ٢٩٢ ، رأفت النهروانى ، مسكوكات الممالك الجراكسة ، ص ٢٣٤ ؛

- DAVID AYALON, "The System of Payment in Maumluk Military Society", pp. 47 - 48. J.E.S.H.O, vol. I, 1957. pp. 37 - 65, and RABIE. op. cit., p. 185.

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٩١٦ ، المؤلف المجهول ، تاريخ سلاطين الممالك ، ص ٢٢٤ ، تحقيق زكريا شتون .

متوسط دقيق لتلك القيمة .

وعلى أية حال ، ففى التفصيل التالى سأنتج أسعار المبادلة ، أو القيمة النقدية لمختلف النقود المملوكية ، والتطورات التى مرت بها ، متحدثاً عن كل نوع على حده ، وموضحاً ما أمكن المؤثرات والظروف التى كانت تمر بها الدولة ، وارتباطها بتذبذب أسعار مبادلة النقود ، وتأثيرها بتلك الظروف .

٣ - القيمة النقدية للدينار

أولاً: فى العهد المملوكى البحرى

سبق القول أن الأوضاع النقدية خلال السنوات العشر الأولى من العصر المملوكى لم تكن مستقرة ، بسبب ما صاحب قيام الدولة من اضطرابات ، وعدم استقرار للحالة السياسية ، وهذا ما دعا السلطان الظاهر بيبرس عند توليه سلطنة الدولة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م للقيام بإصلاحات نقدية شملت أوزان النقود الذهبية والفضية ، وعياراتها وقيمتها النقدية ، وتثبيت أسعار المبادلة بها ^(١) .

كان أول ذكر لقيمة الدينار النقدية ما ذكره كل من القلقشندى والمقريزى من أنها بلغت ثمانية وعشرين درهماً ونصفاً فى أواخر سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ^(٢) . ومن الواضح أن هذه القيمة تعد مرتفعة إذا ما قورنت بالقيمة الحقيقية التى يجب أن يكون عليها الدينار أو بما كانت عليه فى معظم فترات العهد المملوكى البحرى ، ولكن يبدو أن الأوضاع السياسية ، وظروف الغزو

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية . ج ١٣ ، ص ٢٧٦ .

(٣) صحيح الأعمش ، ج ٣ ، ص ٤٣٨ . المخطوط . ج ١ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

المغولى ، وما تلا ذلك من أحداث كان لها أثرها فى ارتفاع قيمة الذهب بدليل أنه بعد اتجاه الأوضاع الى الهدوء ، وفى أثناء العالم التالى ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م أصبحت القيمة النقدية للدينار ستة عشر درهماً فضياً ، أو تزيد قليلاً ^(١) ، ثم تنخفض أكثر فى سنتى ٦٨١ - ٦٨٢ هـ / ١٢٨٢ - ١٢٨٣ م لتصل الى ثلاثة عشر درهماً فضياً وثلاث درهم ^(٢) ، وفى بعض المصادر التاريخية الى اثني عشر درهماً فضياً ^(٣) ، ومن المرجح أن الوضع الاقتصادى ، وبالذات التجارى الذى بدأ نشاطاً واسعاً خلال الفترة ^(٤) ، قد مكن الدولة من الحصول على كميات وفيرة من الذهب ، فكثير عرضه ، وبالتالي انخفضت قيمته النقدية فى الأسواق ، ولكن هذه القيمة ارتفعت تدريجياً مع أوائل سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م لتصل الى سبعة عشر درهماً فضياً ^(٥) ، ثم الى ثمانية عشر درهماً فضياً ^(٦) ، ثم الى عشرين درهماً فضياً ^(٧) ، لترتفع بشكل كبير جداً الى خمسة وعشرين درهماً فضياً ونصف درهم ، وذلك فى أواخر سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م ، وبداية العام التالى ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م ، ويرجع المقرئى هذا

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ، ورقة ١٢ .

(٢) نفسه ، ج ٢٩ ، ورقة ٢٦ ، ابن الفرات ، مع ٧ ، ص ٢٧٢ .

(٣) المؤلف المجهول ، تاريخ سلاطين المالك ، ص ٣٩ .

(٤) القلشندى ، صبح ، ج ١١ ، ص ٤١ - ٤٢ ، ج ٣ ، ص ٢٤٠ ، عهد العزيز الموحى ، الظاهر بيبرس ، ص ١٤٠ - ١٤١ ، شوقى عثمان ، العلاقات التجارية بين مصر والدول الأفريقية ، ص ٥٧ :

Labidus, op. cit., pp. 1 - 2.

(٥) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٨٩٩ .

(٦) ابن أبيك الدوادار ، كنز الدرر ، ج ٩ ، (الدر الفاخر) ، ص ٣٧ - ٣٨ .

(٧) المقرئى ، المخطط ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

الارتفاع المفاجئ فى القيمة النقدية للدينار الى ما كانت تمر به الدولة من ظروف سياسية حربية ، واستعدادات عسكرية لمواجهة الهجوم المغولى على بلاد الشام ، وما أقدمت عليه من إجراءات قشلت بفرض عدد من المقررات المالية ، والضرائب لتجهيز الجيش المملوكى . يقول المقرئى (١) :

« واجتمع من ذلك مال عظيم ، وصار لكل فارس أربعون ديناراً ، وبعثوا الى كل مقدم ألف نفقة وضافية ، والى كل من نواب الشام نفقة عسكرية » .

فتوفر للدولة من جراء ذلك مبالغ مالية ضخمة أنفقتة على أفراد الجيش ، وهؤلاء بالتالى أنفقوه للتجهيز ، وشراء ما يلزمهم من العتاد الحرسى ، مما نتج عنه توفر النقود الذهبية فى الأسواق ، بشكل تسبب فى انخفاض القيمة النقدية لها ، نتيجة كثرة عرضها وقلة الطلب عليها ، وما أن زالت الظروف العسكرية السابقة حتى تدنت قيمة الدينار النقدية ، فوصلت الى سبعة عشر درهماً فضياً (٢) .

وخوفاً من استمرار تدهور قيمة الدينار ، ورغبة فى وقف انخفاضه ، تدخلت الدولة لتحديد سعر تبادلى للدينار ، فنادت الدولة (٣) بأن يكون سعر الدينار عشرين درهماً (٤) .

(١) السلوك ، ج ١ ، ص ٨٩٩ .

(٢) التوسرى ، نهاية الارب ، ج ٢٩ ، ورقة ١١٢ ، المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٨٩٩ .

(٣) جرت العادة فى العصر المملوكى عند صدور مرسوم ، أو اتخاذ قرار له علاقة بتنظيمات اقتصادية أو اجتماعية ، ونحو ذلك أن ينادى فى أسواق الدولة على ذلك المرسوم ، أو القرار ليكون معلوماً لدى الناس ، وليتسنى تطبيقه والعمل به بعد ذلك .

(٤) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٠٠ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ،

هذا وقد استمرت القيمة النقدية للدينار المملوكى على هذا الأساس فترة من الزمن حيث تورد بعض المصادر والمراجع التاريخية أن سعر مبادلة الدينار سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م كان عشرين درهماً^(١) ، وكذلك سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م^(٢) ، وسنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م^(٣) ، وسنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م^(٤) ، وسنة ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م^(٥) ولا تقدمنا المصادر التاريخية حتى سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م بأى معلومات عن القيمة النقدية للدينار ، والاحتمال كبير فى أنها لم تختلف عن معدلها السابق على الأقل حتى سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م ، إذ لم تشهد البلاد قبل هذا التاريخ أى مؤثرات يمكنها إحداث تغيير فى أسعار مبادلة النقود ولكن فى السنة المذكورة ، والفترة التالية لها ، حدث فى الدولة أزمة نقدية نجمت عن الفلوس النحاسية ، وما داخلها من تلاعب وفساد^(٦) ، وتلك الأزمة النقدية لا شك فى أنها أحدثت تغييراً على القيم النقدية للنقود ، ويدل على ذلك أن سعر مبادلة الدينار قد تغيرت نحو الارتفاع قبل شهر رجب من سنة ٧٢٤ هـ / يوليو سنة ١٣٢٤ م ، حيث وصل الى خمسة وعشرين درهماً ففضياً للدينار الواحد ، ويفهم ذلك من إشارة المقرئى^(٧) ، ويذكر فيها أن القيمة النقدية للدينار ، قد فقدت بين درهمين وستة دراهم بعد أن كانت بخمسة

(١) على مبارك ، المخطوط التوفيقية ، ج ٢ ، ص ١٣٩ .

(٢) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(٣) المقرئى ، المخطوط ، ج ١ ، ص ٢٢٦ ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ .

(٤) ابن بهادر ، فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر ، ورقة ٢٣٩ ، على مبارك ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٩ .

(٥) ابن بهادر ، المصدر السابق ، ورقة ٢٣٩ .

(٦) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ورقة ٤٧٤ ، ج ٣١ ، ورقة ٢ ، ورقة ١٥ .

(٧) السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .

وعشرين درهماً ، وقد تسبب فى هذا الانخفاض توفر كميات من الذهب فى أسواق الدولة ، مما جلبه معه ملك التكرور (منسا موسى) ^(١) عند زيارته للقاهرة فى طريقه الى مكة المكرمة ، وكان بصحبته عشرون ألفاً من أبناء مملكته الى اشتهرت بإنتاج معدن الذهب ، وأنفقوا كميات من الذهب لشراء ما يحتاجونه من سلع القاهرة ، وبضائعها التى اشتهرت بها ^(٢) .

كان انخفاض قيمة الدينار مؤقتاً ، فقد عادت الى مستواها السابق ، وهو خمسة وعشرون درهماً بعد وقت قصير ، وبشكل مؤقت أيضاً اذ سرعان ما شهدت البلاد ظروفاً شبيهة بالظروف السابقة أدت الى عودة الانخفاض فى قيمة الدينار لتصل الى عشرين درهماً ، وفى العام التالى ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م أدت الى وفرة كميات الذهب ، والنقود الذهبية التى صرفها أمراء ، وجنود احدى الحملات العسكرية التى أعدتها الدولة على تجهيزاتهم ، الى انخفاض سعر الدينار بمقدار خمسة دراهم ^(٣) .

وما ان زالت تلك الظروف حتى عادت القيمة النقدية الى ما كانت عليه ، وذلك فى العام التالى ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م ، فيذكر ابن بطوطة ^(٤) أن خمسة وعشرين ألف درهم فضى كان صرفها من دنانير الذهب ألف دينار ، فتكون قيمة الدينار خمسة وعشرين درهماً فضياً .

(١) فضلاً أنظر الفصل الأول ص ٩٣ .

(٢) النورى ، المصدر السابق ، ج ٣١ ، ورقة ١٧ ، الذهبى ، العبر ، ج ٤ ، ص ٦٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ، اليافعى ، مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ٢٧١ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٦١ ، ابن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٧٩ .

(٤) الرحلة ، ج ١ ، ص ٤٤ .

أما فى سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م ، فقد حدث للقيمة النقدية انخفاض تراوح بين خمسة وستة دراهم فضية ، وقد كان مرد هذا الانخفاض ما حدث للدنانير الذهبية من فساد فى عيار معدنها من قبل العاملين بدار الضرب ، نتج عن ذلك تضرر مصالح الناس ، وخسارتهم جملة من أموالهم ، وأمام ذلك اضطرت الدولة الى إصدار دنانير جديدة مضبوطة العيار ، وحددت سعر المبادلة بها بخمسة وعشرين درهماً لكل دينار بينما قررت قيمة للدينار الناقص مقدارها واحد وعشرون درهماً ^(١) .

وبهذا الاجراء أصبح للدينار المملوكى سعران استخدمما فى عملية التبادل النقدى فى أسواق الدولة ، وهو ما حدث لأول مرة فى تاريخ دولة المماليك ^(٢) ، ويمرور الوقت قضى على تلك الدنانير الناقصة ، واستمرت اسعار المبادلة على ما رسمته الدولة بواقع خمسة وعشرين درهماً للدينار الواحد .

ففى سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م يذكر المقرئى ، أن الدولة قامت بحسب كميات الذهب الموجودة فى الأسواق سواء أكانت على هيئة نقود ذهبية (دنانير) أم كانت مصوغات وحلياً ونحوها ، وقد تولى هذه المهمة أبرز رجالات الدولة فى تلك الفترة ، وهو النشو ^(٣) (ناظر الخاص) .

(١) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ .

(٢) لقد اتخذت الدولة مضطرة هذا الاجراء ، لمواجهة الاضطراب الطارئ فى أوزان الدنانير الذهبية وعياراتها للتخفيف من الضرر الذى وقع على المتداولين ، وأصحاب المصالح فأوجدت سعراً محدداً روعى فيه ذلك النقص ، بينما حدد سعر آخر لتلك الدنانير الجيدة التى سكتها الدولة ليتم التبادل بها بدلاً من تلك المضطربة .

(٣) عهد الوهاب فضل الله الرئيسى شرف الدين النشو ناظر الخاص من مسألة القبط . كان والده بخدمة الأمير بكتمر الحاجب ، ثم انتقل لخدمة الناصر محمد بن قلاوون الذى عينه «

يقول المقرئى عن ذلك (١) :

« وفيها أشتدت وطأة النشو على الناس ، وابتكر مظلمة لم يسبق اليها ، وهى أنه ألزم أهل الصاغة ودار الضرب ألا يبتاع أحد منهم ذهباً بل يحمله جميعه الى دار الضرب ليصك بصكة السلطان ، ويضرب دنانير هرجة ، ثم تصرف بالدراهم ، فجمع من ذلك مالا كثيراً للديوان ، ثم تتبع النشو الذهب المضروب فى دار الضرب فأخذ منه ما كان للتجار والعامه ، وعوضهم عنه بضائع ، وحمل ذلك كله للسلطان ، وانحصر ذهب مصر بأجمعه فى دار الضرب ، فلم يجسر أحد على بيع شئ منه فى الصاغة ولا غيرها » .

فمن هذا النص وما يصوره من حدث يمكن إثارة تساؤل هام عن الأسباب التى دعت الدولة الى اتخاذ هذا الإجراء الطارئ ، والحقيقة أن الأحوال العامة فى البلاد كانت مستقرة إن لم تكن جيدة ، وبشكل خاص الأوضاع النقدية ، حيث لم أجد فى المصادر المملوكية ما يؤيد الدولة فى مسلكها الذى قامت به ، ولم أجد تعليلاً لذلك سوى السياسة الحاطنة التى سار عليها النشو ناظر الخاص الذى سلمت اليه مقاليد الدولة يتصرف فيها كيف يشاء ، فأساء وأفسد وظلم كثيراً ، والشواهد كثيرة فى المصادر المملوكية على فساد السياسة التى سار

مستوفياً فى الجيزة ، فأظهر همه ونشاطاً وكفاية ، الى أن أصبح ناظراً للدولة سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م ، وبعد أن أسلم وصل الى مركز كبير ، كان ظالماً غشوماً صادر وقتل الكثير من الناس ، كما كان سئ الأخلاق قبض عليه الناصر ، وصادره وعذبه حتى توفى تحت العقوبة نهار الأربعاء نهاية ربيع الأول سنة ٧٤٠ هـ ، ١٣٣٩ م .

(الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٦ ، ٦٥ ، البوسفى ، نزعة الناصر ، ص ٤٥٢ ، ص ٩١ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٤٣ ، ابن تغرى بردى ، الدليل الشافى على المنهل الصائى ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ج ٢ ، ص ١٦٧) .

(١) السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٩٣ .

عليها ذلك الرجل ^(١) .

وقد خلفت تلك السياسة آثار سيئة على الدولة واقتصادياتها ، ومن ذلك ما حدث سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ عندما نودى على الدينار أن يكون سعر تبادله خمسة وعشرين درهماً ، وكان بعشرين درهماً ^(٢) .

ويعلل أحد المؤرخين المعاصرين للأحداث ^(٣) ، سبب تحديد الدولة لسعر تبادلى مرتفع للدينار ، بأنها بعد القبض على النشو عملت احصاءات بما عليها من التزامات مالية ، وديون لصالح التجار ، وأصحاب الأموال ، فوجدت أنها قد بلغت ألف ألف دينار ، فأرقت الدولة بعضاً من تلك الديون على أساس السعر الذى حددته للدينار ، وهو خمسة وعشرين درهماً ، فخسر أصحاب الأموال خسارة كبيرة ، وأدى ذلك الى توقف أحوال الناس ومصالحهم ، وتأثر المعاملات التجارية فى أسواق الدولة ، وقد نتج عن ارتفاع قيمة الدينار أزمة فى النقود الفضية التى اختفت من الأسواق ، وقسك بها من عنده شئ منها ، وامتنع الصيارفة عن دفعها مقابل الذهب المرتفع ، وقد حاولت الدولة معالجة نقص الدراهم الفضية ، بأن أخرجت من خزائنها ألفى درهم فضة - كما ورد - وأخذت عنها الدنانير الذهبية ، ولكن هل يمكن لألفى درهم - إذا كان الرقم صحيحاً -

(١) فضلاً أنظر على سبيل المثال : الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ١٢ ، ص ٣٥٠ ، ص ٣٥٥ ، البوسلى ، نزهة الناظر ، ص ١١٩ ، ص ١٢٧ ، ص ١٢٩ ، ص ١٨٦ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

(٢) الشجاعى ، المصدر السابق ، ص ٦٦ - ٦٧ ، المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٤٣ ، السيوطى ، حسن المعاصرة ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ .

(٣) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ٦٧ - ٦٨ ، وانظر كذلك : المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٨٨ .

معالجة أزمة نقص الدراهم الفضية ؟ يقول المقرئ جواباً لهذا التساؤل ^(١) :

« وفيها توقفت الأحوال بسبب صرف الذهب ، وعدم وجود الفضة من بين الناس في الأسواق ، فأخرج السلطان من الخزانة ألفى درهم فضة ^(٢) ، فرقت لمدة شهر على الصيارف ، وأخذ عنها ذهب فمشت الأحوال قليلاً ثم توقفت » .

لقد بدأ الوضع يعود الى طبيعته ، حيث لم تقض سوى سنة حتى ألغى تحديد الدولة لسعر تبادل الدينار ، وجعله حراً تحدده الظروف النقدية في الدولة ، فبعد تولى السلطان الملك المنصور أبو بكر بن الناصر محمد (٧٤١ - ٧٤٢ هـ / ١٣٤٠ - ١٣٤١ م) كان أول ما بدأه أن أبطل سعر الذهب ، وجعله يباع بسعر الله ^(٣) ، وقد لقيت هذه الخطوة القبول والرضا من التجار وأصحاب الأموال ، وغيرهم من المتعاملين في الأسواق ^(٤) ، وأدت الى انخفاض قيمة الدينار الى عشرين درهماً ^(٥) . بعد عدة أشهر من اطلاق سعر الدينار ، وبالتحديد في شهر رجب سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤٢ م انخفض سعر التبادل بدرجة

(١) نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ .

(٢) هذا الرقم يدعو الى الشك ، والأقرب أنه ألفى ألف درهم (أى مليونى درهم فضى) ، ويبدو أنه حدث خطأ ما من الطابع أو النسخ .

(٣) درج على استخدام هذا المصطلح في الفترة موضوع الدراسة للدلالة على أن الدولة أبطلت التسعير ، وتركت تقدير السعر يتحدد وفقاً للظروف ، والأوضاع السائدة في أسواق الدولة .

جاء على لسان العرب ، ج ٥ ، ص ٣٠ ، ٣٢ - مادة سعر - « أنه قيل للنبي - صلى الله عليه وسلم - : سعر لنا فقال : إن الله هو المسعر أى أنه هو الذى يرخص الأشياء ويغليها ، فلا اعتراض لأحد عليه .

(٤) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ١٢٥ ، المؤلف المجهول ، تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٢٤ ، المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٥٢ ، ابن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ٤ .

(٥) ابن تفرى بردى ، نفسه ، ج ١٠ ، ص ٤٥ .

كبيرة انحط معها الى أحد عشر درهماً فضياً^(١) ، وتذكر بعض المصادر التاريخية^(٢) ، أن سبب هذا الانخفاض الملحوظ لقيمة الدينار يعود الى توفر الذهب والنقود الذهبية بكميات كبيرة فى أسواق الدولة ، وفى أيدي الناس ، ويعود ذلك الى الاستيلاء على ممتلكات الأمير قوصون الكبير^(٣) أحد كبار الأمراء فى الدولة وتعرضها للنهب من قبل عامة المالكين ، والناس فى القاهرة ، وقد ذكرت المصادر التاريخية أرقاماً تكاد تكون خيالية لثروة الأمير التى نهبت ، ولكثرة ما وقع بأيدي الناس من الذهب أمرت الدولة بالقبض على كل من أحضر من العامة ذهباً الى تاجر أو صيرفى أو غيرهما ، فأدت هذه الخطوة الى مزيد من التدهور فى قيمة الدينار الذهبى ، فكان كل من معه شئ من الذهب يحاول التخلص منه بأى سعر يحصل عليه ، حتى تدنت قيمته الى أحد عشر درهماً ، وهو أقل مستوى تصل اليه منذ قيام الدولة المملوكية .

(١) المقريزى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، المخطط ، ج ٢ ، ص ٧٣ ، ابن تفرى بردى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٥ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، ج ١٠ ، ص ٥٩١ ، ٥٩٣ ، ابن تفرى بردى ، نفسه ، ج ١٠ ، ص ٤٤ ، ٤٧ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٣١٢ - ٣٤٣ .

(٣) الأمير قوصون الساقى الناصر من بلاد القفجاق قدم الى القاهرة سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م ، وأصبح من ممالك السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ومن خواصه ، حتى أنه زوجه ابنته ، كان أول أمره ساقياً ، ثم رقاء الناصر حتى جعله أمير مائة ومقدم ألفاً ، ومديراً للدولة وبعد وفاة الناصر محمد كان من المقريدين لسلطنة المنصور ابن أبى بكر بن الناصر ، فتنازع بعد ذلك مع عدد من أمراء الدولة الذى لا يرغبون فى سلطنته ، حتى تم له الأمر بتولية السلطان المنصور ، ولكن هذا لم يمه تنافس الأمراء المالكين ، وتنازعهم حول سلطنة الدولة ، وكان من نتائجها أن قبض على الأمير قوصون ، وأودع سجن الاسكندرية حتى قتل فيه أواخر شوال سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤٢ م كان خيراً كريماً شجاعاً .

(الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ١٥٩ ، ١٦١ ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ٤٦ ، ٤٨ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣)

وقد ساعد فى اضعاف قيمة الدينار ، ما كانت تعانيه الدولة من عدم استقرار فى أوضاعها الداخلية ، عقب وفاة السلطان الناصر محمد ، وكان من نتيجة الفتن والمنازعات التى وقعت بين كبار أمراء الدولة مصادرة ممتلكات عدد كبير من أولئك الأمراء ، وغيرهم من كبار الموظفين وأصحاب الأموال ، أو القبض عليهم والاستيلاء على ممتلكاتهم وإطلاق يد العامة فى تلك الممتلكات التى اتسمت بالضخامة - لنهبها والاستيلاء عليها ، فأوجد ذلك وفرة فى النقود المتداولة ، فكثرت عرضها مقابل قلة الطلب عليها ، فتدنت أقيامها الى مستويات منخفضة .

فى سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٥ م كانت القيمة النقدية للدينار فى وضع أفضل ، حيث كان سعر التبادل عشرين درهماً فضياً لكل دينار اذ يورد المقرئى^(١) أحد الأمثلة على ذلك ، فيذكر أن ستمائة ألف درهم عنها ثلاثون ألف دينار .

وفى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م انخفضت القيمة النقدية للدينار ، ووصلت الى خمسة عشر درهماً بعد أن كان بعشرين درهماً^(٢) ، ويعود هذا الانخفاض الى ما تعرضت له الدولة من وباء عم مختلف أقاليمها ، والذي أطلق عليه (الفناء الكبير) ، أو (الوباء الأسود)^(٣) ، فكان تأثيره كبيراً على مختلف أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فكثرت أعداد الموتى بشكل ملحوظ ،

(١) المخطوط ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٨٦ . ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢١٠ .

(٣) عن ذلك الوباء فضلاً أنظر : المقرئى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٧٢ ، ٧٩١ . ابن تغرى

بردى ، نفسه ، ج ١٠ ، ص ١٩٥ ، ٢١٣ ، قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى فى

عصر سلاطين المماليك ، ص ٦٤ - ٦٦ ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

حامد زيان غانم ، الأزمات الاقتصادية والأوبئة فى مصر عصر سلاطين المماليك ، ص ٤٣ .

٤٧ ، المكتبة العالمية ، القاهرة ، ١٩٧٦ م .

وقل اقبال الناس على الشراء ، برغم انخفاض مستوى الأسعار ، وضعت المعاملات التجارية والمالية ، وانصرف الناس الى ما أصابهم من وباء ، ومجاعة أشغلتهم عن حوائجهم ومتطلباتهم ، وقد عانت الدولة من ركود اقتصادى ضعفت معه قيمة العملات النقدية فى الدولة ، ومنها الدينار الذهبى .

ومع استمرار الآثار التى خلفها ذلك الوباء فترة من الزمن بعد انحساره ، فقد عاد الدينار الى معدل تبادله السابق ، وهو عشرون درهماً فضياً ، اذ يذكر المقرئى ^(١) فى أحد نصوصه أن ثلاثمائة ألف درهم عنها من الذهب خمسة عشر ألف دينار ، وذلك سنة ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م .

ويبدو أن سعر تبادل الدينار بشكل عام قد استمر بنفس مستواه السابق فترة طويلة اذ تورد المصادر التاريخية أنه فى سنوات ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م ^(٢) ، ٧٦١ هـ / ١٣٥٩ م ^(٣) ، ٧٦٦ هـ / ١٣٦٤ م ^(٤) ، ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م ^(٥) ، ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م ^(٦) ، ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م ^(٧) ، حافظت القيمة النقدية للدينار على معدلها السابق ، وهو عشرون درهماً فضياً .

ولا يعنى هذا ان تلك القيمة لم تتغير طوال تلك الفترة ، فالظروف

(١) المخطط ، ج ٢ ، ص ٦١ .

(٢) نفسه ، ج ٢ ، ص ٣١٦ .

(٣) نفسه ، ج ٢ ، ص ٢١٢ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٩٨ .

(٥) ابن حجر ، إنباء ، ج ١ ، ص ٧١ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٦٦ .

(٦) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٥ ، ابن تفرى ، ج ١ ، ص ١٣٢ -

١٣٣ .

(٧) المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٣٠ .

السياسية والطبيعية التي تعرضت لها الدولة كنفيلة بإحداث تأثيرها على سعر تبادل الدينار وتكفى الإشارة الى ما تهدده الدولة من نزاع سياسى على السلطة فى معظم سنوات تلك الفترة ، وكذلك ما تعرضت له من رباء كبير سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م ، وأزمة اقتصادية سنة ٧٧٥ هـ / ١٣٣٣ م كان من آثارها أن انخفضت قيمة الدينار الى سبعة عشر درهماً فضياً ونصف درهم ^(١) ، ولا شك فى أنه كان لتلك الظروف أثرها على الوضع النقدى ، كغيره من الأوضاع الأخرى .

فى سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م تدنت قيمة الدينار بشكل ملحوظ ، فوصلت الى ما يقارب الستة عشر درهماً ^(٢) ، ومن المرجح أن للحالة السياسية فى البلاد علاقة بهذا الانخفاض ، فقد كان النزاع محتدماً بين أمراء المماليك حول السلطة بما أوجد حالة من الاضطراب ، وعدم الاستقرار ، وبالتالي تأثر الوضع الاقتصادى ، وبصفة خاصة النقدى منها .

ومع ما شهدته الدولة خلال عام ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م من شبه استقرار ، فقد ارتفعت القيمة النقدية للدينار الى المستوى الذى كانت عليه قبل ذلك ، وهو عشرون درهماً ^(٣) ، ولكن هل استمرت على معدلها فى الفترة التالية ؟ هذا ما لم توضحه المصادر التاريخية ، ففى العام التالى عادت الحالة السياسية فى البلاد الى التدهور نتيجة استمرار التناقص ، والنزاع بين كبار الأمراء ، وطوائف المماليك حول السلطة ، وقد كانت نتيجته القضاء على حكم أبناء السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وطائفة المماليك البحرية ، ليحل محلهم فى حكم

(١) ابن حجر ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٠ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٣٧٨ .

(٣) ابن حجر ، انباء ، ج ١ ، ص ٢٤٤ .

الدولة السلطان الظاهر برقوق ، وطائفة المماليك الجراكسة ، وذلك فى اليوم الثامن عشر من شهر رمضان سنة ٧٨٤ هـ الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٣٨٢ م .

ثانياً: فى العهد المملوكى الجركسى

أول اشارة لقيمة الدينار النقدية فى العهد المملوكى الجركسى ، أوردها ابن حجر العسقلانى ^(١) سنة ٧٨٧ هـ / ١٣٨٥ م ، وذكر فيها أن قيمة الدينار كانت عشرين درهماً فضياً ، ويبدو أن حالة الاستقرار التى شهدتها الدولة ، مع تولى السلطان الظاهر برقوق كان لها تأثيرها على الوضع النقدى ، حيث عادت القيمة النقدية للدينار الى مستوى العشرين درهماً بعد الانخفاض الذى شهدته قبل ذلك ، ولكن هذه العودة صاحبها ارتفاع فى سعر تبادل الدينار فى العام التالى ٣٨٨ هـ / ١٣٨٦ م ، حيث وصل الى ثلاثة وعشرين درهماً وربع الدرهم ، ولم يوضح القرىزى ^(٢) - الذى أورد ذلك - أسباب هذا الارتفاع ، ولكن من المحتمل ارجاعه الى الظروف الطبيعية التى شهدتها الدولة فى تلك الأثناء ، والمتمثلة بانتشار الأوبئة والأمراض ، وبشكل خاص وباء الطاعون الذى قضى على عدد كبير من الأفراد ، وصاحبه ندوة فى السلع الضرورية ، وارتفاع فى أثمانها ^(٣) ، ومع ضعف النشاط الاقتصادى ، والحركة التجارية فى أسواق الدولة ، تناقصت كميات الذهب المتداولة ، وقل المعروض من الدنانير فى عمليات التداول المحدودة .

(١) إنباء ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ .

(٢) السلوك ، ج ٣ ، ص ٥٥٣ ، فضلاً أنظر أيضاً الصيرفى ، نزهة ج ١ ، ص ١٤٣ .

(٣) القرىزى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٧٥ ، ابن حجر ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٢٥١ .

هذا ولا يمكن إغفال ظاهرة الاكتناز بوصفها مؤثراً في ارتفاع قيمة الدينار ، اذ بدأت تلك الظاهرة تأخذ طريقها في الانتشار حفاظاً على الذهب الخالص ، مع بروز مركز الفلوس النحاسية ، وانتشار تداولها والاهتمام بها ، وقد كان ذلك البروز ، وهذا الانتشار على حساب كميات الدنانير الذهبية ، والدراهم الفضية التي نقصت أعدادها بشكل ملحوظ أدى الى ارتفاع قيمتها النقدية ^(١) .

ويظهر تأثير تلك الظاهرة في ارتفاع قيمة الدينار سنة ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م الى ما يقارب خمسة وعشرين درهماً ^(٢) . وقد شهد ذلك الارتفاع في العام التالي ٧٩٠ هـ / ١٣٨٩ م توقفاً ، ثم انخفاضاً مؤقتاً في قيمة تبادل الدينار ، وصلت معه الى عشرين درهماً فضياً ، حتى أوائل سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م ^(٣) ، ثم تعود مع نهاية العام الى المستوى الذي كانت عليه قبل انخفاضها ، وهو خمسة وعشرين درهماً فضياً للدينار الواحد ^(٤) .

وتعود تلك التقلبات المفاجئة في أسعار تبادل الدينار الى الأزمة السياسية التي شهدتها البلاد ، اثر النزاع بين كبار الأمراء على السلطة ، والى الأزمة الاقتصادية التي عانت منها الدولة لانتشار الربا فيها ^(٥) ، هذا ولم يرد في المصادر الملوكية ما يفيد انخفاض قيمة الدينار بعد ذلك ، وما تذكره بعض

(١) المقرئى ، إغاثة ، ص ٧١ - ٧٢ ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٥١٤ ، ص ٦٦١ .
 (٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٥٦٦ ، ابن حجر ، انباء ، ج ١ ، ص ٣٣٧ .
 (٣) ابن الفرات ، تاريخه ، مج ٩ ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ، القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٣٨ ، المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥٩٣ .
 (٤) المقرئى ، الخطوط ، ج ٢ ، ص ٤١٩ ، ابن حجر ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .
 (٥) ابن الفرات ، المصدر السابق ، ص ٥٧ ، ص ٦٦ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٦٠٣ - ٦١٥ ، الصوري ، نزعة ، ج ١ ، ص ٢٠٢ ، ٢١١ .

المصادر التاريخية^(١) أن تلك القيمة ، قد ارتفعت الى مستوى لم تهله من قبل ، وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة ٧٩٦ هـ / فبراير ١٣٩٤ م ، حيث وصلت الى ما يقارب الثلاثين درهماً فضياً لكل دينار ، ثم تستمر على هذا المستوى حتى أواخر سنة ٧٩٧ هـ / ١٣٩٥ م ، عندما انخفضت الى سبعة وعشرين درهماً ، لتواصل انخفاضها فى العام التالى ، فتصل الى خمسة وعشرين درهماً فضياً للدينار الواحد^(٢) .

هذا ولم تكن الأسباب المؤدية لتلك التقلبات واضحة فى المصادر التاريخية ، ولا أعتقد أن انخفاض منسوب مياه النيل فى تلك الفترة مسئول عن تلك التقلبات ، بقدر مسئولية الدولة نفسها ، وما كان لسياستها من تأثير على ذلك ، فتلك السياسة السيئة التى سارت عليها الدولة ونفذها بعض رجالاتها لرفع أسعار التبادل النقدى طلباً للفائدة المادية ، وتحقيقاً لمصالح شخصية ، وقد تضمنت بعض المصادر التاريخية إشارات واضحة لهذا الاتجاه ، وفى مقدمة تلك المصادر مؤلفات المقرئى عن الدولة المملوكية التى ضمنها نصراً كثيرة عن تلك السياسة ، واتجاهات بعض رجال الدولة فى هذا المجال ، وأعقبها بنقده الصريح لذلك الوضع .

فعن أحد رجال الدولة من كان لهم أثر فى إفساد أوضاع الدولة ، ومن بينها النظام النقدى يوضح المقرئى^(٣) ما قام به سعد الدين ابراهيم بن غراب^(١) حيث يقول :

(١) ابن حجر ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٧٤ - ٤٧٥ .

(٢) ابن حجر ، إنباء ، ج ١ ، ص ٤٩٥ .

(٣) الخطط ، ج ٢ ، ص ٤١٩ .

« وهو أحد من قام بتخريب اقليم مصر ، فإنه مازال يرفع سعر الذهب حتى بلغ كل دينار الى مائتى درهم وخمسين درهماً من الفلوس ، بعدما كان ينحو خمسة وعشرين درهماً ، ففسدت بذلك معاملة الاقليم ، وقلت أمواله ، وغلت أسعار المبيعات ، وسامت أحوال الناس » .

كما يحدثنا المقرئى فى موضع آخر ^(٢) ، عن الأمير يلبغا السالى ^(٣) الذى كان له أثر كبير فى إفساد الأوضاع النقدية فى الدولة ، فيذكر أنه فى ظروف مرض السلطان الظاهر برقوق ، وعند توزيع النفقة السلطانية ^(٤) على الماليك ، تم حساب الدينار لهم على أساس أربعة وعشرين درهماً ، فلما انتهت عملية

(١) ابن غراب القاضى ، الأمير سعد الدين ابراهيم بن عبد الرازق الاسكندراني ، ناظر الخاص ، وناظر الجيوس ، واستادار السلطان ، كان جده غراب أول من أسلم من ابائه فى الاسكندرية ، تقلب فى المناصب والوظائف حتى عظم أمره وعلت مكانته ، كان ممن أهان السلطان الناصر فرج على الهرب بعد فترة حكمه الأولى ، وكان أيضاً ممن أعانته فى العودة الى السلطة فى فترة حكمه الثانية الأمر الذى جعل الناصر يقره اليه ويقلده أمور الدولة ، كان محباً للسياسة والسلطة كريماً ، تولى بعلة القولنج فى العشرين من رمضان سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، ولم يبلغ من العمر ثلاثين سنة .

(المقرئى ، المخطوط ، ج ٢ ، ص ٤١٩ ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٨٣٩ ، ابن حجر ، انباء ، ج ١ ، ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ١ ، ص ٨٥ ، ٩٣) .
(٢) المخطوط ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ ، فضلاً أنظر السخاوى ، الضوء اللامع ، مج ٥ ج ١٠ ، ص ٢٨٩ .

(٣) فضلاً أنظر ترجمته ص هامش رقم () .

(٤) النفقة المقصود بها المرتب الشهرى للماليك ، ويعطونها مهالغ نقدية اضافة الى ما كانوا يحصلون عليه من إضافات كالجامكية والجراية ، وغيرها من الهبات والاقطاعات التى يقدمها عادة السلاطين لماليكهم ، ولم تكن تلك النفقة ثابتة لكل مملوك ، فقد اختلفت حسب فئاتهم ومراتبهم ، ولغالب الأحيان يحكمها الوضع المالى للدولة ، ومقدار احتياطيها =

التوزيع نودى فى الدولة أن يكون سعر الدينار ثلاثين درهماً ، وهدد من امتنع بنهب ماله ، ومعاقبته ، فحصل للناس من جراء ذلك ضرر كبير ^(١) .

فهذا لأسلوب ، أو تلك السياسة توضح تلاعب المسئولين فى الدولة بأسعار تبادل العملات تحقيقاً لمصالحهم وأطماعهم ، حتى إنهم يستخدمون القوة تنفيلاً لتلك السياسة دون النظر الى ما يلحق العامة والمتعاملين من ضرر .

والواقع أنه كان لتلك السياسة أثرها المباشر فى ارتفاع أسعار مبادلة الدينار خلال الفترة التالية من حكم سلاطين المماليك ، حتى نهاية عصر الدولة ، وسنرى فى استعراضنا لما تبقى من تطورات القيم النقدية تأثير هذه السياسة فى تقلبات أسعار التبادل للنقود المملوكية .

فى شهر المحرم من سنة ٨٠١ هـ / سبتمبر - أكتوبر سنة ١٣٩٨ م ، كانت القيمة النقدية للدينار واحداً وثلاثين ، أو اثنين وثلاثين درهماً فضياً ^(١) .

^١ = الشهرى من النقود ، ويقوم أحد بيوت الخواصل بترتيب أمر هذه النققات وما يرتبط بها ، وهو بيت الخوانج خانه ، الذى يرتبط بالوزير مباشرة .
(المقريزى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٨١٧ ، انطوان ضومط ، الدولة المملوكية ، ص ٣١ ، ٨٢) .

لزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع فضلاً أنظر :

- ابراهيم طرخان ، النظم الاقتصادية .

- الهاز العرنى ، المماليك ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٩ م .

- David, Ayalon : The System of Payment in the Mamulk Military Society.

(١) يذكر ابن حجر (إنباء ، ج ٢ ، ص ٥١ - ٥٢) أنه قبل قبض المماليك لنفقتهم كان سعر تبادل الدينار ثلاثين درهماً ، وعندما أرادت الدولة دفعها لهم نادى بأن يكون السعر ستة وثلاثين درهماً ، وبعد انتهائها من التوزيع نودى بأن يكون السعر ثلاثين درهماً ، ويبدو أن ما ذكره ابن حجر خاص بنفقة شهر آخر غير الشهر الذى حدث فيه ما ذكره المقريزى من تلاعب فى سعر التبادل .

واستمرت على ذلك حتى شهر شوال من العام نفسه / يونيو ١٣٩٩ م ^(٢) ، ثم بعد ذلك انخفضت بمقدار درهين ^(٣) ، وتستمر في الانخفاض حتى تصل الى مستوى متدن ، وهو ثلاثة وعشرون درهماً للدينار الواحد ^(٤) ، وذلك بعد موت السلطان الظاهر برقوق في شهر شوال سنة ٨٠١ هـ / يونيو - يوليو سنة ١٣٩٩ م . وقد كان وراء هذا الانخفاض في أسعار الذهب ، والدنانير الذهبية - بالإضافة الى ظروف وفاة السلطان الظاهر برقوق - وفرة كميات الذهب ، والقطع الذهبية في أسواق الدولة ، وفي أيدي المتعاملين والعامة لكثرة ما أنفق الظاهر برقوق من الذهب ، ما صرفه على الفقراء والمحتاجين في أثناء مرضه الذي توفي فيه ^(٥) ، وتذكر بعض المصادر ^(٦) أن مجموع ما أنفق السلطان الظاهر بلغ مائتين وخمسين ألف مثقال (دينار) من الذهب ، كما تذكر بعض المصادر التاريخية ^(٧) أن الظاهر برقوق ، قد خلف جملة كبيرة من الذهب ، قدرت بألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار من الذهب العين ، ومن الطبيعي أن يؤدي توفر تلك الكميات من الذهب في أسواق الدولة ، وفي أيدي الناس الى كثرة المعروض منه ، وبالتالي هبوط أسعار تبادله .

(١) المقرئى ، السلوك . ج ٣ ، ص ٩١٦ ، ابن حجر ، انبا . ج ٢ ، ص ٣٧ ، العيني ، عقد الجمان . ج ٢٥ ، ورقة ٥٣ ، الصيرفى ، ج ١ ، ص ٤٨٨ .

(٢) الصيرفى ، نفسه . ج ١ ، ص ٤٩٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم . ج ١٢ ، ص ١٧٥

(٣) المقرئى ، المصدر السابق . ج ٣ ، ص ٩٦٤ ، الصيرفى ، نفسه . ج ٢ ، ص ١٤ .

(٤) المقرئى ، نفسه . ج ٣ ، ص ٩٦٧ ، ابن اياس ، بدائع . ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٠ .

(٥) المقرئى ، نفسه . ج ٣ ، ص ٩١٩ ، الغزاة ، ص ٧١ - ٧٢ ، ابن اياس ، نفسه . ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣١ ، ص ٦٩٥ .

(٦) ابن حجر ، المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٢٠ .

(٧) المقرئى ، المصدر السابق . ج ٣ ، ص ٩٣٨ .

لقد سارعت الدولة ، أو المسئولون فيها - وهم الذين عملوا على رفع أسعار الذهب حرصاً على مصالحهم - الى العمل على وقف انخفاضه ، فنودى فى الدولة أن يكون سعر الدينار ثلاثين درهماً فضياً ، ولكن كان لهذا الاعلان رد فعل لدى الناس ، والمتعاملين الذين توقعوا هبوط أسعار التبادل لموت السلطان الظاهر ، ولتوفر كميات كبيرة من الذهب والدنانير الذهبية .

ويوضح المقرئى تلك الظروف بقوله (١) :

«ونودى أن يكون سعر الدينار ثلاثين درهماً ، فإن الناس كانوا قد توقعوا فى الذهب بعد موت السلطان ، وانحط من ثلاثين الى ثلاثة وعشرين درهماً للدينار ، فشق ذلك على الناس ، وخافوا الخسارة لما كانوا يظنون من انحطاط سعر الذهب ، فجاء الأمر بخلاف ما فى ظنونهم ، ولم يزل يرتفع حتى بلغ ما لم يكن فى بال أحد قط» .

استمر تجاهل الناس والمتعاملين لإعلان الدولة لتحديد سعر تبادل الدينار ، وكان التعامل به يتم على أساس خمسة وعشرين درهماً للدينار ، فقامت الدولة بالمناداة مرة ثانية ، فى شهر ذى القعدة سنة ٨٠١ هـ / يوليو - أغسطس سنة ١٣٩٩ م على ما نادت به سابقاً ، بتحديد سعر التبادل بثلاثين درهماً ، فشق ذلك على الناس ، وتوقفت أحوالهم ، وامتنع الصيارفة عن القيام بأعمالهم ، اعتراضاً على ذلك لما سيتعرضون له من خسارة فى حالة تعاملهم بالسعر الذى حددته الدولة .

ولمواجهة هذه المعارضة نادت الدولة للمرة الثالثة ، لتأكيد ما حددته لسعر

التبادل ، وهددت وتوعدت المخالفين بالعقوبة ^(١) ، وأمام ضغط الدولة تقبل المتعاملون ذلك خوفاً على أنفسهم وأموالهم ، واستقر سعر تبادل الدينار على ما حددته الدولة ، وهو ثلاثون درهماً لكل دينار ، ويدل على ذلك ما أورده بعض المصادر التاريخية ^(٢) ، من أن سعر مبادلة الدينار كان ثلاثين درهماً في مستهل شهر المحرم سنة ٨٠٢ هـ / يناير - فبراير سنة ١٤٠١ م ، فبعد هذا التاريخ ارتفعت القيمة النقدية للدينار الى تسعة وثلاثين درهماً فضياً ، وتذكر المصادر ^(٣) التي أوردت ذلك ، أن الأسباب تعود الى نقص كميات الذهب المتوفرة في الدولة وندرتها ، وأقول ان سبب ذلك النقص عائد الى عاملين ، أولهما تناقص واردات الدولة من الذهب ^(٤) ، حيث أخذ هذا التناقص يمثل ظاهرة بدأت تظهر بتأثيراتها السلبية على الدولة عموماً ، وعلى نظامها النقدي بشكل خاص ، وثانيها سحب الدولة كميات من الذهب والنقود الذهبية الموجودة في أسواقها ، بهدف إصدارها دنانير ذهبية جديدة ^(٥) ، في محاولة منها لتحسين مركز الدينار المملوكي أمام المنافسة الحادة التي كان يواجهها من قبل الدنانير الإيطالية ، التي أصبحت العملات الرئيسية للمتعاملين في أسواق الدولة ^(٦) .

ولا يمكن تجاهل الحالة السياسية داخل الدولة ، بما كانت تعانيه من نزاع

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٩٦٧ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٣ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٧٧ ، ص ١٠٢٧ ، العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ، ورقة ١١٣ . ابن اياس ، نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥١ ، ص ٥٩١ .

(٣) ابن حجر ، اثبا . ج ٢ ، ص ١٤٥ ، الصيرفى ، نزعة ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

(٤) فضلاً أنظر الفصل الأول (مصادر الذهب) .

(٥) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٢٧ ، ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٦ .

(٦) فضلاً أنظر الفصل الخامس ، ص ٥٠٨ .

داخلي بين أمراء الممالك ، وخارجياً بما كانت تواجهه من ظروف الغزو التيمورى لبعض أجزائها الشمالية الشرقية ^(١) ، واستيلاء التتار على كميات كبيرة من النقود الذهبية والفضية ، حتى قيل إنه لم يبق مع أهل دمشق درهم ولا دينار من كثرة ما أخذ التتار منهم ^(٢) ، كما لا يمكن تجاهل الظروف الطبيعية التى شهدت الدولة ، والمتمثلة بنقص مياه النيل ، وما حدث نتيجة ذلك من مجاعة ، أعقبها انتشار للأوبئة والأمراض ، قضت على عدد كبير من السكان ^(٣) .

بعد عدة أشهر من التاريخ السابق ، وبالتحديد فى شهر رمضان سنة ٨٠٣ هـ / ابريل - مايو ١٤٠١ م انخفض سعر تبادل الدينار ديناراً واحداً ، ليصبح بثمانية وثلاثين درهماً ، وكان وراء هذا الانخفاض إشاعة مفادها أن الدولة ستقوم بطرح أعداد إضافية من الدينانير الجديدة على الصيارف ^(٤) .

وبعد ثلاثة أشهر عادت قيمة الدينار الى الارتفاع ، حيث وصلت الى أربعين درهماً فضياً ^(٥) ، ولكن سرعان ما انخفض الى ستة وثلاثين درهماً فى شهر المحرم من سنة ٨٠٤ هـ / أغسطس - سبتمبر من سنة ١٤٠١ م ^(٦) ، ولم تحدد المصادر التاريخية الفترة التى استمر فيها سعر تبادل الدينار بمستواه السابق ،

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٣ - ٦١٤ ، محمد امين صالح ، التنظيمات التجارية ، ص ١٩٤ ، اشتور ، التاريخ الاقتصادى ، ص ٣٩٢ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١٠٩٤ .

(٣) المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٠٣ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ١ ، ص ٥٠١ ، العينى ، عقد الجمان ، ج ٥ ورقة ١٠٠ .

(٤) المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٤٩ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٢ ، ص ٧٥٠ .

(٥) المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٧١ .

(٦) المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٧٦ ، العينى ، المصدر السابق ، ج ٧٥ ، ورقة

١٧٧ ، ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٦٣٨ .

وما ذكرته هو ارتفاعه فى شهر المحرم سنة ٨٠٥ هـ / أغسطس سنة ١٤٠٢ م الى خمسين درهماً^(١) ، ثم بوالى ارتفاعه ليصل فى شهر جمادى الأولى الى سبعة وستين درهماً ، لينخفض فى الشهر التالى الى خمسة وستين درهماً^(٢) للدينار الواحد^(٣) .

وتشير بعض المصادر التاريخية^(٤) الى أن أسباب ذلك الارتفاع تعود الى الفساد النقدي فى الدولة والمتثل فى التلاعب بأسعار النحاس ، والفلس النحاسية وأوزانها ، وارتفاع سعرها بما نسبته خمسة وستون فى المائة ، والتى كانت آنذاك النقود الرئيسية فى الدولة .

ويوضح ذلك الوضع السياسة السيئة التى انتهجتها الدولة المملوكية فى تلك الفترة ، وتأثيرها على فساد أحوال الدولة ، دون النظر الى ما كان يعانيه عامة الناس من أزمات اقتصادية واجتماعية ، وتوقف أحوالهم ومصالحهم^(٥) .

لقد ظل سعر تبادل الدينار على مستوى خمسة وستين درهماً ، حتى شهر شوال من السنة نفسها / ابريل سنة ١٤٠٣ م ، عندما نودى بتخفيض خمسة

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١٠٩١ ، العينى ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ، ورقة ١٨٥ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٩ .

(٢) ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ورقة ١٨٨ ، مخطوط رقم ٢٠٨ بمعهد احياء المخطوطات العربية القاهرة .

(٣) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٩٨ ، العينى ، المصدر السابق ، ج ٢٥ ، ورقة ١٩٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٢ ، ص ٢٩٧ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

(٤) المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٩٨ ، العينى ، نفسه ، ج ٢٥ ، ورقة ١٩٨ ، ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٥ .

(٥) المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٩٨ ، العينى ، نفسه ، ج ٢٥ ، ورقة ١٩٨ .

دراهم من قيمة الدينار ، لتصبح ستين درهماً ^(١) ، ثم يستمر على ذلك حتى شهر صفر من السنة التالية ٨٠٦ هـ / أغسطس سنة ١٤٠٣ م ليرتفع الى أربعة وستين درهماً فلوساً ^(٢) (حوالى ستة وثلاثين درهماً فضياً) ^(٣) والى سبعين درهماً فلوساً (أربعين درهماً فضياً) فى شهر ربيع الأول سنة ٨٠٦ هـ /

(١) ابن دقماق ، المصدر السابق ، ورقة ١٩٠ ، المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١١٠٥ .
 ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ ، الصيرفى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٦٦ ، ابن
 أباس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٧١ .
 (٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١١٥ ، العينى ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ، ورقة ٢٠١ ،
 الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ١٧٨ .

(٣) سبق القول أن الدولة المملوكية قد اتخذت اسلوب جديد فى مواجهة الأزمات النقدية - وأهمها ظاهرة التضخم - التى تعرضت لها ، والتى نتجت عن نقص المعادن المستخدمة فى سك النقود ، وتمثل هذا الأسلوب ، باستعمال نقود حسابية أو اعتبارية ، يتم عن طريقها تقدير قيمة النقود التى لا تتوفر بكميات تدعو الى استخدامها بقيمة النقود التى تتوفر أعدادها ، ويمكن استخدامها فى عمليات الدفع .

ونظراً للارتفاع المتواصل فى قيمة الدينار ، ووصولها الى مستويات عالية ، فإن تلك القيمة لا يمكن مبادلتها بالدرهم الفضية ، فالفضة ليست متوفرة ، وأسعارها مرتفعة أيضاً ، وتكاد تنساوى مع الذهب فى نسبة الارتفاع ، لذا لا يمكن تطابق ذلك مع تلك الأرقام الأمر الذى يدعو الى القول أن القيمة هى مقابل الدرهم الفلوس ، فمعها يمكن قبول تلك الأرقام .

وقد اتخذت سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م بداية لتلك التطورات النقدية ، نظراً لأنها شهدت ارتفاعات متوالية وشديدة فى أسعار تبادل الدينار ، الى جانب كونها من أصعب السنوات التى عانت فيها الدولة من أزمات وضائقات متنوعة ، حتى عداها بعض المؤرخين بداية تدهور أوضاع الدولة وفساد أحوالها ، حتى أذنت شمسها بالمغيب ولجئها بالأفول .

لقد عادت الدرهم الفلوس التى أوردتها المصادر التاريخية فى أسعار تبادل الدينار بالدرهم الفضية قد حاولت ما أمكن تتبع القيمة النقدية ، فيما بين الدرهم الفضية والدرهم الفلوس لضبط تلك المعادلة حرصاً على دقة الأرقام ما أمكننى ذلك .

سبتمبر سنة ١٤٠٣ م^(١) ، ثم الى اثنين وسبعين درهماً فلوساً (أكثر قليلاً من واحد وأربعين درهماً فضياً) فى شهر ربيع الآخر / أكتوبر^(٢) ، والى ثلاثة وسبعين درهماً فلوساً فى شهر جمادى الأول / نوفمبر^(٣) ، والى ثمانين درهماً فلوساً (حوالى ستة وأربعين درهماً فضياً) فى شهر شعبان / فبراير سنة ١٤٠٤ م^(٤) ، ثم الى تسعين درهماً فلوساً حوالى واحد وخمسين درهماً فضياً ونصف درهم) فى شهر رمضان / مارس^(٥) ، والى مائة درهم فلوس (أكثر قليلاً من سبعة وخمسين درهماً فضياً) فى شهر شوال / إبريل^(٦) .

لا شك فى أن التقلبات السريعة ، والمتجهة نحو الارتفاع فى سعر تبادل الدينار ، تدعو الى التعجب والتساؤل عن الأسباب الكامنة وراء ذلك ، فأقول إن عوامل ذلك هى نفس العوامل التى سبق الحديث عنها فى سنتى ٨٠٢ - ٨٠٣ هـ / ١٣٩٩ - ١٤٠١ م من فساد سياسة الدولة ، وتلاعب مسئوليتها ، الى نقص امدادات الذهب ، ونقص مياه النيل ، وحدث المجاعة ، وانتشار الأوبئة ، وإفساد النقود والمعاملات المالية ، والتلاعب بأسعار تبادل العملات وقيمها النقدية ، وقد ركزت المصادر التاريخية^(٧) على نقص مياه النيل ،

(١) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١١٦ ، الصيرفى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٠ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٨٢ .

(٢) الصيرفى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

(٣) نفسه ، ص ١٨٣ .

(٤) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٢٢ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ٢٦١ .

(٥) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١١٢٢ ، العينى ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ، ورقة ٢٠٢ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .

(٦) المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١١٢٣ .

(٧) المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١١١٦ ، ١١١٩ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ .

٢٦٢ ، الصيرفى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٧٨ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٧٨ .

وعدم وصولها الى المستوى الذى تستفيد منه الأراضى الزراعية ، فأثر ذلك النقص على الأوضاع الاقتصادية ، فارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً ، وأعقب ذلك حدوث مجاعة كانت نتيجتها انتشار الأوبئة والأمراض ، التى أهلكت كثيراً من الناس ، مما زاد من سوء الأحوال وتدهورها ، وظهر ذلك بوضوح فى التقلبات الحادة لقيمة النقود والقوة الشرائية لها .

وأضيف الى نقص معدن الذهب فى تلك الفترة نقص كميات الفضة الواصلة الى الدولة ، فقلت بدرجة كبيرة حتى كادت الدراهم الفضية أن تنعدم فى تلك الأثناء . ومن المعروف أن سعر تبادل الدينار ، يتم تحديده ودفع قيمته بالدراهم الفضية ، وأمام ذلك النقص فى كميات الفضة أصبحت عملية التبادل من لصعوبة بحيث اضطرت الدولة الى اتخاذ نظام حسابى جديد تمثل فى تحديد قيمة الدينار ، وغيره بالدراهم الفضية بينما يكون الدفع بالفلوس النحاسية ^(١) ، ويلاحظ هذا التطور واستخدام هذا النظام المحاسبى من خلال كتابات المؤرخين المعاصرين - دون إشارة منهم اليه - الذين دأبوا ابتداء من سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م على ذكره عند حديثهم عن الأسعار والقيم النقدية .

لقد كانت سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ - ١٤٠٤ م من أصعب السنوات التى مرت على الدولة يقول المقرئى عن ذلك ^(٢) :

«وهى أول سنى الحوادث ، والمعن التى خربت فيها ديار مصر ، وفنى معظم أهلها واتضعت بها الأحوال ، واختلت الأمور ، خلافاً أذن بدمار اقليم مصر» .

(١) فضلاً أنظر الفصل الثانى (النقد الحسابية ، الدراهم الفلوس) ص ١٨٤ .

(٢) السلوك . ج ٢ . ص ١١٢٧ .

ويقول فى موضع آخر ^(١) :

«وطرق ديار مصر الغلاء من سنة ست وثمانائة ، فبذل أمراء دولته - الناصر فرج - ومدبروها جهدهم فى ارتفاع الأسعار بخزنتهم الغلال ، وبيعها بالسعر الكبير ، ثم زيادة أجره أطيان أراضى مصر ، حتى عظمت كلفة ما تخرجه الأرض ، وأفسدوا مع ذلك النقود بإبطال السكة الإسلامية من الذهب ، والمعاملة بالدنانير المشخصة ، التى هى من ضرب النصارى ، ورفعوا سعر الذهب حتى بلغ الى مائتين وأربعين لكل مثقال ، بعدما كان بعشرين درهماً » .

ويستمر فى حديثه الى أن يقول :

«لا جرم أن خرب اقليم مصر ، وزالت نعم أهله ، وقلت أموالهم ، وصار الغلاء بينهم كأنه طبيعى لا يرجى زواله » .

لقد استمرت قيمة الدينار فى الارتفاع مقابل الدراهم الفلوس رغم انخفاضها الطفيف فى شهر المحرم سنة ٨٠٧ هـ / يوليو سنة ١٤٠٤ م الى تسعين درهماً فلوساً ^(٢) (حوالى ثلاثين درهماً فضياً) ^(٣) ، فوصلت فى شهر صفر / أغسطس الى مائة وعشرة دراهم فلوس (حوالى ستة وثلاثين درهماً فضياً

(١) نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١١٣١ - ١١٣٢ ، المعنى ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ، ورقة ٢١٠ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٩٤ .

(٣) نلاحظ أن قيمة الدينار فى مقابل الدراهم الفضية قد انخفضت كثيراً ، ويعود ذلك الى ارتفاع قيمة الفضة والدراهم الفضية لتدريتها ، وعدم وجودها ، حيث وصل سعر الدرهم الفضى المضروب ثلاثة دراهم فلوس ، بينما سعر الدرهم الفضى الخام أربعة دراهم فلوس ، فضلاً أنظر ما على : القيم النقدية للدرهم الفضى .

ونصف درهم) ، وترجع بعض المصادر التاريخية ^(١) ذلك الى ما تعرضت له الفلوس النحاسية في أوزانها وسعر مبادلتها ، خصوصاً وأنها العملات الرئيسية للدولة ، والتي أصبح يتم بها تقويم كافة المبيعات والأجور والأثمان ، وأمام هذا الارتفاع نادى الدولة بتحديد سعر الصرف بمائة درهم من الفلوس .

لم يقد تحديد الدولة لسعر تبادل الدينار بل لقي معارضة من المتعاملين ، تمثلت باستمرار ارتفاع القيمة النقدية للدينار في شهر ربيع الآخر / أكتوبر ، وتراوح قيمته بين مائة وعشرين ، وخمسة وعشرين درهماً فلوساً ^(٢) (حوالي واحد وأربعين درهماً فضياً ونصف درهم) ، وقامت الدولة مرة ثانية في الشهر التالي بالمناداة على السعر الذي حددته للدينار ، واستمرت المعارضة برفض الناس والمتعاملين لذلك السعر ، نظراً لما سيسفر عنه من خسارة في أموالهم ، وضرر في مصالحهم ، فامتنع التجار والصيارفة عن أخذ الدنانير الذهبية الا بالسعر المتداول ، فكثرت كميات الذهب في الأبدى ، وتوقفت أحوال الناس بعد تغيب الصيارفة ، والامتناع عن أخذ الدنانير في ثمن المبيعات ، وأمام هذا الضغط رضخت الدولة لرغبات الناس ، فنودى على الدينار أن يكون سعره بمائة وعشرين درهماً فلوساً ^(٣) (أى بأربعين درهماً فضياً) .

ويستمر ارتفاع سعر تبادل الدينار ، فيصل في شهر جمادى الآخرة / ديسمبر

(١) ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٢ ، ص ٣٠٩ .

(٢) ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ٣١٨ ، المعنى ، المصدر السابق ، ج ٢٥ ، رقة ٢١٠ ، الصيرفي ، نزهة ، ج ٢ ، ص ١٩٥ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١١٣٤ ، ابن الهيثم ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٩٧ .

الى مائة وثلاثين درهماً فلوساً^(١) أكثر من ثلاثة وأربعين درهماً فضياً ، ثم يرتفع عشرة دراهم فلوس (أكثر من ثلاثة دراهم فضية) ، وقد صاحب هذا الارتفاع ، ارتفاع كبير فى الأسعار ، الأمر الذى أقلق الناس ، وخوفهم من عاقبة ذلك على أموالهم ومعاشاتهم ، فارتحل عدد كبير منهم الى خارج مصر اتقاء من هذا الغلاء^(٢) .

لم يستمر تقدم الدينار بل تراجع سعر تبادله بعد فترة قصيرة ، فانخفض الى مائة وثلاثين درهماً فلوساً (أكثر من ثلاثة وأربعين درهماً فضياً) ، ثم الى مائة درهم فلوس (أكثر قليلاً وثلاثين درهماً فضياً) فى شهر شوال / ابريل ، وقد استغلت الدولة هذا الانخفاض ، فقامت بتحديد قيمة الدينار على أساسه^(٣) ، ولكن لم يستمر هذا التحديد أكثر من شهر ، حيث عاد سعر الدينار الى الارتفاع مرة أخرى ، ليصل فى شهر ذى الحجة / يونيو الى مائة وثلاثين درهماً (أكثر من ثلاثة وأربعين درهماً فضياً) ، وحاولت الدولة التدخل لوقف ارتفاع قيمة الدينار ، فقامت - ممثلة بالأمير بليغا السالى - بتحديد سعر تبادل للدinar مقداره ثمانون درهماً فلوساً (حوالى سبعة وثلاثين درهماً فضياً)^(٤) .

وتضرر الناس لقاء هذا التسعير ، وقلقوا قلقاً عظيماً لما فيه من ظلم وخسارة لهم ، فتدخل بعض رجال الدولة لوقف العمل به ، واستغلاله للإيقاع

(١) ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ورقة ٢٠٧ ، المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١١٤٥ ، ابن اياس ، نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٠٥ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١١٤٥ - ١١٤٦ ، ابن حجر ، أنباء ، ج ٢ ، ص ٨٩ ، ابن اياس ، نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٠٥ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١١٥٥ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧١٥ .

(٤) المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١١٦١ ، ابن اياس ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٢٠ .

بالأمير بلبغا السالمى ، ومعاقبته بسبب فساد سياسته فى الدولة ، وتم الغاء
التحديد ، فنودى بعدم التعامل به ، واعتماد سعره السابق الذى حددته الدولة ،
وهو مائة درهم فلوس لكل دينار واحد ^(١) .

فى شهر المحرم سنة ٨٠٨ هـ / يوليو سنة ١٤٠٥ م كان سعر تبادل الدينار
مائة وأربعين درهماً فلوساً ^(٢) (ستة وأربعين درهماً فضياً ونصف درهم) ، وفى
أوائل شهر صفر / أغسطس زاد عشرة دراهم فلوس ، ولكنه لم يلبث أن هاد
لسعره السابق بسبب توقف الناس فى أمر الفلوس النحاسية ، وانخفاض قيمتها
النقدية ، فأمسك التجار والصيارفة عن اخراجها ، والتعامل بها ، مما أدى الى
كثرة الذهب وتداوله فى الأبدى ، وبالتالي قلت رغبة المتعاملين فى أخذه
فانخفضت قيمته النقدية ^(٣) .

لم يستمر هذا الانخفاض لأكثر من شهر واحد ، فخلال شهر ربيع الآخر/
أكتوبر عادت قيمة الدينار الى مستواها قبل انخفاضه السابق ، وهو مائة
 وخمسون درهماً ، ويدل على ذلك النصان اللذان أوردهما كل من المقرئى ^(٤)
وابن تغرى بردى ^(٥) ، وذكرنا فيهما أن خمسمائة ألف درهم فلوساً ، عنها ثلاثة
آلاف دينار وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون مثقالاً وثلاث مثقال (دينار) ، ثم تزيد
القيمة بعد ذلك لتصل الى قريب من مائة وخمسة وستين درهماً فلوساً (خمسة
 وخمسين درهماً فضياً) ، وتذكر المصادر التاريخية أن حدوث ذلك الارتفاع كان

(١) ابن دقماق ، الجوهر الصمين ، ورقة ٢١٠ ، المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١١٦٣ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١١٧٠ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣ ابن إياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٨٣٧ .

(٤) نفسه ، ص ٥ .

(٥) النجوم ، ج ١٢ ، ص ٤٣ .

فى ظل أوضاع سياسية مستقرة ، وأحوال اقتصادية متدهورة .

وفى أواخر العام كانت القيمة النقدية منخفضة عما كانت عليه ، حيث بلغت مائة وثلاثين درهماً من الفلوس (أى ستة وعشرين درهماً فضياً) ، ويدل على ذلك أيضاً النصفان اللذان أوردهما كل من المقرئى ^(١) وابن أباس ^(٢) ، وفيهما أن مائة مثقال من الذهب عنها من الفلوس ثلاثة عشر ألف درهم فلوس ، هذا ولم يرد فى المصدرين المذكورين سبب ذلك الانخفاض ، ولكن من المرجح تعليله بما كانت عليه الفلوس النحاسية من اضطراب فى أوزانها ، وقيمتها النقدية ، فى الوقت الذى ارتفعت فيه القيمة النقدية للدرهم الفضية بدرجة كبيرة .

فى شهر المحرم من السنة التالية ٨٠٩ هـ / يونيو سنة ١٤٠٦ م زادت قيمة الدينار النقدية خمسة دراهم لتصبح مائة وخمسة وثلاثين درهماً فلوساً ^(٣) (أى سبعة وعشرين درهماً فضياً) ، ولكن هذه الزيادة لم ترض الدولة ، فنادت فى الشهر نفسه ، بأن يكون سعر تبادل الدينار بمائة وخمسين درهماً فلوساً (أى ثلاثين درهماً فضياً) ، ولا شك فى أن هذه زيادة كبيرة لن يستطيع الناس ، والمتعاملون تحملها ، الأمر الذى أدى الى ضرر فى مصالحهم وخسارة فى أموالهم ^(٤) ، خصوصاً من كان منهم يملك كميات من الفلوس النحاسية التى انخفضت قيمتها مقابل الذهب والفضة .

قامت الدولة فى شهر شعبان / يناير ١٤٠٧ م بتخفيض قيمة الدينار ،

(١) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٥١ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٧ ، ابن أباس ، بنائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٥٧ .

(٤) المقرئى ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٠ .

عندما نادى عليه أن يكون سعر تبادله خمسة مائة وعشرين درهماً فلوساً (أربعة وعشرين درهماً فضياً) ، فأدت هذه الخطوة من الدولة الى اضطراب الأوضاع الاقتصادية وتوقفها ^(١) ، ومن الطبيعى أن تحدث تلك التقلبات السريعة فى قيمة الدينار النقدية بين الانخفاض والارتفاع أثرها السيئ على أحوال الناس ومصالحهم وأموالهم ، إضافة الى عدم استقرار اقتصاديات الدولة ، مما يعنى مزيداً من الفساد والتدهور فيها .

وقد ظهر الضرر من خطوة الدولة فى عدم امتثال الناس لها والتعامل بها ، الأمر الذى جعل قيمة الدينار النقدية تقفز الى مائة وأربعين درهماً فلوساً (ثمانية وعشرين درهماً فضياً) ، وذلك خلال شهر المحرم سنة ٨١٠ هـ / يونيو سنة ١٤٠٧ م ^(٢) .

لقد استقرت قيمة الدينار بعد ذلك لمدة أشهر دون حدوث تغيير فيها ، وبدل على ذلك عدم ذكر المصادر التاريخية لأى مؤشرات تفيد ارتفاعها ، ولكنها بدأت تأخذ فى الارتفاع التدريجى حتى وصلت فى رمضان من سنة ٨١١ هـ / يناير من سنة ١٤٠٩ م الى مائة وسبعين درهماً فلوساً (أربعة وثلاثين درهماً فضياً) ، مما أدى الى توقف أحوال اناس ، وتوقف المبيعات التى شملها الارتفاع بشكل مباشر ، ففلت الأسعار مما اضطر الدولة الى التدخل ، فصنعت التعامل بالذهب منعاً باتاً وهدد من يتعامل به بالعقوبة . ووصل الأمر بالدولة الى أن عملت على حصر كميات الذهب لدى التجار والصيارفة وغيرهم من المتعاملين ، وعمل قسائم بتلك الكميات التى لا يتمكن أحدهم من التصرف بها ، كما أنها

(١) نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٠ ، ابن الهيثم ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٦٧ .

(٢) ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ .

منعت الصاغة وغيرهم من تصنيع الذهب وتحويله الى حلى ومصاغ ونحوه ، وقد لحق بالناس من جراء ذلك ضرر عظيم ^(١) .

لقد كان ارتفاع سعر الذهب والدنانير الذهبية راجعاً الى قلة المتوفر منها فى أسواق الدولة ، وفى أهدى المتعاملين ، حتى أن خزائن الدولة قد واجهت نقصاً خطيراً فى تلك الكميات ، مما دعاها الى اتخاذ تلك الخطوة ، محافظة منها على كميات الذهب واستمرار حركة الاقتصاد فى الدولة .

لقد ختمت الدولة إجراءاتها بالمناداة على سعر تبادل جديد للدينار مقداره مائة وعشرين درهماً فلوساً (أربعة وعشرين درهماً فضياً) وإن كان هدف الدولة من هذا التخفيض الحد من التعامل بالذهب والدنانير الذهبية ، فقد تحقق لها ذلك عندما شح الناس فى إخراج الذهب والتعامل فيه ، الأمر الذى أثر سلبياً على أسعار المبيعات والقوة الشرائية للنقد التى ارتفعت بشكل ملحوظ .

فى الشهر التالى شوال / فبراير ، خفضت الدولة قيمة الدينار بمقدار عشرين درهماً فلوساً ليكون مائة درهم فلوساً للدينار الواحد (عشرين درهماً فضياً) ، وأكدت هذه القيمة الجديدة مرة ثانية فى الشهر التالى ، ذى القعدة / مارس ، فزاد هذا التخفيض من ضرر الناس وسوء احوالهم ، مما ادى الى لجوء اصحاب الاموال فى الدولة من تجار وصيارفة وغيرهم الى تهريب الذهب خارج الدولة ، للحصول على سعر أفضل .

وفى مواجهة ذلك منعت الدولة خروج الذهب منها ، فلم يتمكن أحد من تهريب شئ من الذهب ، فاشتد الأمر على الناس ^(٢) وألحقت الدولة تلك الخطوة بخطوة أخرى هى رفع قيمة الدينار ، ليصبح مائة وعشرين درهماً فلوساً ^(٣) .

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٢ ، ابن حجر ، انباء ، ج ٢ ، ص ٤٠١ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٤ .

(أربعة وعشرين درهماً فضياً) .

فى المحرم سنة ٨١٢ هـ / مايو سنة ١٤٠٩ م ارتفع سعر تبادل الدينار ، فبلغت قيمته مائة وستين درهماً فلوساً^(٢) (اثنين وثلاثين درهماً فضياً) ثم واصل ارتفاعه فى شهر جمادى الآخرة / نوفمبر حيث بلغ مائتى درهم فلوساً^(٣) (أكثر من ثلاثة وثلاثين درهماً فضياً) ، كان ذلك الارتفاع بسبب اضطراب الفلوس النحاسية وفسادها ، اضافة الى ارتفاع سعر الدراهم الفضية مقابلها ، بعد ان قلت اعدادها بدرجة كبيرة ، ويستمر الدينار فى تقلباته صعوداً وهبوطاً عندما انخفض فى شهر المحرم من العام الثانى ٨١٣ هـ / مايو ١٤١٠ م بمقدار عشرين درهماً فلوساً ليصبح بمائة وثمانين درهماً فلوساً^(٤) (خمسة عشر درهماً فضياً) ، ثم يرتفع فى الشهر التالى ، ليلبغ مائتى درهماً فلوساً (أكثر من ستة عشر درهماً فضياً ونصف درهم) ، والى مائتى وعشرين درهماً فلوساً^(٥) (أكثر من ثمانية عشر درهماً فضياً وربع درهم) ، ويعود سبب هذا الارتفاع

(١) نفسه ، ج ٤ ، ص ٨٥ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ٤٠١ .

ونلاحظ أنه فى تلك الأثناء تم تداول نوعين من الدنانير المملوكية هما الدينار الهرجة الخالص العيار ، والدينار الناصرى الذى ضربه الناصر فرج ، وقد استخدمت القيمة النقدية المتصلة بالدينار الهرجة لهذه الفترة بالذات نظراً لكونه الدينار الرسمى فى الدولة ، ولعدم قبول المتعاملين والناس للدنانير الناصرية ، كما ان التعامل بثلث الدنانير لم يستمر فى الدولة مدة طويلة مما يصعب معه بيع قيمته النقدية .

لمزيد من التفاصيل فضلاً أنظر : المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٦٥ ، ص ٣٠٤ ، وما بعدها .

(٢) نفسه ج ٤ ، ص ٩١ .

(٣) المينى ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ، ورقة ٣٠٨ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ١٣١ .

(٥) ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ٤٦٣ .

الذى تسبب فى اغلاق الاسواق ، وتعطل مصالح الناس الى ارتفاع قيمة الفلوس النحاسية ، التى كان التعامل بها عن طريق الوزن ، كل رطل منها ستة دراهم ، فنودى فى الدولة بأن يكون الرطل منها باثنى عشر درهم ^(١) ، هذا وقد استمرت قيمة الدينار بنفس معدلها السابق حتى نهاية العام اذ تذكر بعض المصادر التاريخية ^(٢) ان سعر تبادل الدينار فى شهر ذى الحجة . ابريل ١٤١١ م كان مائتى وعشرين درهماً فلوساً (أكثر من ثمانية عشر درهماً فضياً وربع درهماً) .

وفى بداية العام التالى فى شهر المحرم سنة ٨١٤ هـ / مايو ١٤١١ م انخفضت قيمة الدينار النقدية خمسة دراهم فلوس ، لتصبح مائتين وخمسة عشر درهماً فلوساً ^(٣) (حوالى ثمانية عشر درهماً فضياً) ، ولكن تعاود إرتفاعها فى الشهر نفسه ، وتعوض ما فقدته من قيمة ، لتصل الى مائتين وعشرين درهماً فلوساً ^(٤) (أكثر من ثمانية عشر درهماً فضياً وربع درهماً) ، ثم الى مائتين وخمسة وعشرين درهماً فلوساً (تسعة عشر درهماً فضياً الا ربعاً) فى شهر رجب/أكتوبر من العام نفسه ، ثم فى شوال/يناير سنة ١٤١٢ م ترتفع الى مائتين وثلاثين درهماً للدينار الواحد ^(٥) (أكثر من تسعة عشر درهماً فضياً

(١) فضلاً أنظر ص ٣٥٤ - ٣٥٥ .

(٢) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٦٥ ، الصيرفى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٣) المقرئى السلوك ، ج ٤ ، ص ١٧٣ ، المعنى ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ورقة ٣٣٦ .

(٤) الصيرفى ، نزعة ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

(٥) المقرئى ، المصدر السابق ، ص ١٩٣ ، المعنى ، المصدر السابق ، ج ٢٥ ، ورقة

٣٣٧ ، الصيرفى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

فضياً) وفى شهر ذى الحجة / إبريل الى مائتين وأربعين درهماً فلوساً^(١) (أى عشرين درهماً فضياً) .

ومع بداية العام الجديد ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م تراوحت قيمة الدينار بين مائتين وأربعين درهماً ، ومائتين وخمسين درهماً فلوساً^(٢) (قريب من واحد وعشرين درهماً فضياً) ، وقد أدى الى هذا التذبذب فى قيمة الدينار ، الطريقة التى بدأ التجار وأصحاب الاموال والباعة اتباعها فى احتساب قيمته ، فعندما يتم دفع الدينار فى ثمن بعض السلع أو المبيعات أو الأجور يزيد فى قيمته خمسة أو عشرة دراهم ، أما إذا دفع ، وطلب عوضاً عنه فلوساً نحاسية ، فإن قيمته تنقص بنفس المقدار السابق^(٣) ، ولاشك فى أن هذه الطريقة قد اتبعها المتعاملون ، حفاظاً على ما لديهم من فلوس نحاسية ، حيث أخذت أعدادها بالتناقص شيئاً فشيئاً ، مما دعا الدولة لسحبها من الأسواق طلباً لها^(٤) ، حتى أنها فى بعض الاحيان كانت تأخذ عنوة ، وتدفع لاصحابها عن كل دينار مائتى درهم فى الوقت الذى كان سعرها لا يتجاوز مائة وتسعين درهماً فلوساً ونحوها^(٥) .

فى المحرم سنة ٨١٦ هـ / أبريل سنة ١٤١٣ م كانت قيمة الدينار النقدية نحو معدلها السابق ، مع ارتفاع طفيف^(٦) ، واستمرت على هذا النحو مدة

(١) الصيرفى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

(٢) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٠٤ ، العينى ، المصدر السابق ، ج ٢٥ ، ورقة ٣٧٠ ، الصيرفى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٣١٩ .

(٣) المقرئى ، نفسه ، ج ٤ ، ص ١٧٣ ، ١١٦ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٧٢ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ١٨٣ .

(٥) نفسه .

(٦) نفسه ، ص ٢٥٦ ، العينى ، عقد ، ١٨٤ ، (تحقيق القرموطى) .

تزيد عن السنتين حيث تذكر بعض المصادر التاريخية المعاصرة ^(١) أن قيمة الدينار لم تزد عن مائتين وخمسين درهماً فلوساً (نحو ثمانية عشر درهماً فضياً) .

لقد كان لتولى السلطان المؤيد شيخ سلطة الدولة أثره فى اتجاه الوضع النقدى نحو الاستقرار ، حيث امتاز بسياسة نقدية تهدف الى إصلاح الفساد النقدى ، ومعالجة الازمات النقدية التى تعانى منها الدولة ، ولعل ثبات سعر تبادل الدينار فى الفترة السابقة كان من تأثير تلك السياسة ، وذلك التوجه للسلطان المؤيد شيخ ^(٢) .

فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر صفر سنة ٨١٨ هـ / مايو سنة ١٤١٥ م عقد إجتماع ضم السلطان والقضاة والصيارفة ، لمناقشة الاوضاع النقدية ، وقد تقرر فى الاجتماع تثبيت قيمة الدينار على ما هى عليه ، وهى مائتان وخمسون درهماً فلوساً (أربعة عشر درهماً فضياً تقريباً) ، ونودى بذلك فى الدولة ^(٣) ، ولكن هذا التثبيت لم يدم طويلاً فقد تزايدت قيمة الدينار فى شهر رجب / سبتمبر الى مائتين وستين درهماً من الفلوس ^(٤) (أربعة عشر درهماً فضياً ونصف درهم) ^(٥) ، ثم فى بداية شهر ذى القعدة / يناير ١٤١٦ م

(١) المقرئى ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ ، ص ٢٨٠ ، ص ٣٠٤ - ٣٠٥ ، المينى ، نفسه ، ص ٢١٠ ، ص ٢٢١ ، ص ٢٤٤ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ .

(٢) فضلاً أنظر ما يلى : (القيمة النقدية) ، والفصل السادس (الفساد النقدى)

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ، العينى ، عقد ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٦ .

(٤) ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٤٠ .

(٥) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٣٥ ، العينى ، المصدر السابق ، ص ٢٤٦ .

أصبحت مائتين وسبعين درهماً فلوساً^(١) (أى خمسة عشر درهماً فضياً) ، ثم فى نهاية الشهر ارتفعت الى مائتين وثمانين درهماً فلوساً للدينار الواحد^(٢) (خمسة عشر درهماً فضياً ونصف درهم) ، ويذكر أحد مؤرخى الفترة أن الاسباب وراء الارتفاع الكبير فى سعر الدينار مقابل الفلوس النحاسية ، أو (الدراهم الفلوس) ، إنما جاء نتيجة للنقص الواضح فى الذهب والدنانير الذهبية ، بل لاتعدامها فى أسواق الدولة ، وفى حركة التداول ، ويضيف ذلك المصدر أن سبب ذلك النقص يعود الى تصديره الى أوروبا (إيطاليا) مع التجار الفرنج ، كى يحول هناك نقوداً ذهبية إيطالية (دوكات بندقية) .

وبالاضافة الى ذلك السبب المباشر ، فقد كان للظروف السياسية والطبيعية أثرها على إرتفاع سعر الذهب والدنانير الذهبية ، ففى تلك الفترة كانت الدولة تعاني من أزمة اقتصادية حادة ، تمثلت بالغلاء الفاحش الذى نتج عن نقص مياه نهر النيل وعدم وفائه ، وما أعقب ذلك من مجاعة ووباء^(٣) ، كما شهدت الدولة نزاعاً سياسياً على السلطة واضطرابات فى أنحاء متفرقة^(٤) .

لقد سارعت الدولة لوقف الارتفاع الحاصل فى سعر تبادل الدينار ، فرسمت فى شهر ذى الحجة / فبراير أن تكون قيمة الدينار التقديرية مائتين وخمسين

(١) المقرئى . نفسه . ج ٤ . ص ٣٣٨ . المعنى . نفسه . ابن حجر . إنباء . ج ٣ . ص ٧١ .

(٢) المعنى . نفسه . ص ٢١٠ .

(٣) المقرئى . السلوك . ج ٤ . ص ٣٠١ . المعنى . عقد . ص ١٦٥ . ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٤) اورد المقرئى تفصيلات هذه الظروف والمنازعات ، وما أحدثته من تأثيرات على نواح الحياة فى الدولة ، فضلاً أنظر (السلوك . ج ٤ . ص ٣٤٧ وما بعدها) .

درهماً فلوساً^(١) (اربعة عشر درهماً فضياً تقريراً) ، ولكن تلك الظروف أو الازمات كانت أقوى من الإجراءات التى أقدمت عليها الدولة ، فأدت عند اشتدادها الى إرتفاع اسعار الذهب وقيمة الدينانير الذهبية ، التى بلغت فى شهر صفر سنة ٨١٩ هـ / ابريل سنة ١٤١٦ م مائتين وسبعين درهماً فلوساً للدينار الواحد^(٢) (خمسة عشر درهماً فضياً) ، ومائتين وثمانين درهماً فلوساً^(٣) (خمسة عشر درهماً فضياً ونصف درهم) فى شهر ربيع الآخر / يونيو

كان للدولة موقف عنيف مع التجار والصيارفة وأصحاب الاموال ، لعدم تعاملهم بما رسمت به ، فقيضت على عدد منهم ، وسجنوا ليرى السلطان رأيه فيهم ، فيما أسواق الدولة ومعاملاتها متوقفة بسبب التوقف عن أخذ الذهب لارتفاع سعره ، وفرض عليهم أن يتعاملوا بالسعر الذى حددته الدولة ، ومن لم يمتثل ، أو يعترض فسيلقى عقاباً رادعاً^(٤) .

فى الوقت نفسه أراد السلطان المزيّد شيخ إعادة أسعار الذهب والفضة الى ما كانت عليه زمن السلطان الظاهر برقوق ، فأمر بتنزيل قيمة الذهب الى أن انحط سعره من مائتين وثمانين الى مائتين وثلاثين درهماً فلوساً^(٥) (ثلاثة عشر درهماً فضياً إلا ربع درهم) ، وتبعاً لذلك قام بتغيير الفلوس النحاسية

(١) المقرئى ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٣٨ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٧٧ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٤٤ ، ص ٣٤٩ .

(٣) نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٥٤ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٥٦ .

(٥) المعنى ، عقد ، ص ٢٦٧ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٩١ ، الصيرفى ، نزعة ،

ج ٢ ، ص ٣٦٨ .

والمعاملة بها ، وضرب فلوساً نحاسية جديدة ، تدعيماً لمخطته فى تخفيض أسعار الذهب ، وقام أيضاً بإصدار دراهم فضية جديدة ، وإحلالها بالمعاملة (التداول) محل الفلوس النحاسية فى أثناء المبادلات النقدية .

والواقع أن الخطوات التى أقدم عليها السلطان المملوكى لم تؤد إلى انخفاض قيمة الذهب ، وهو الهدف من تلك الخطوات ، فلم تتأثر أسعار المبادلات ، واستمرت على ما هى عليه من الارتفاع .

فى شهر جمادى الآخرة سنة ٨١٩ هـ / أغسطس سنة ١٤١٦ م كانت القيمة النقدية للدینار مائتين وسبعين درهماً فلوساً ، وتعادل ثلاثين نصفاً من الفضة ^(١) (خمسة عشر درهماً فضياً) ، ونادت الدولة فى شهر رجب / سبتمبر بتخفيض سعر الدينار ، فقررت قيمة بد مائتين وخمسين درهماً فلوساً (حوالى أربعة عشر درهماً فضياً) الأمر الذى أدى إلى خسارة المتعاملين ، ووقوع الضرر عليهم ^(٢) ، كما لحقتهم خسارة اضافية خلال شهرى شعبان ورمضان / أكتوبر ونوفمبر ، كان مبعثها ثبات أسعار المبيعات ، والأجور على ما هى عليه فى الوقت الذى خفضت فيه أسعار تبادل العملات ، ولا شك أن الذين كانوا

(١) كان من اصلاحات السلطان المؤيد شيخ النقديّة إصدار عملات فضية على نوعين ، نوع وزنه نصف درهم من الفضة أطلق عليه الدرهم النصف ، أو الدرهم الصغير ، والنوع الثانى وزنه درهم فضى أطلق عليه الدرهم الكامل ، أو الدرهم الكبير ، وقد استحسن الناس والمتعاملون الدرهم النصف ، وحرصوا على التعامل به ولكنة تداوله واشتهاره حمل مصطلح النصف ، وقد استمر التعامل به حتى نهاية عصر الدولة ، وعلى لفظه أصدر السلاطين المالک عملاتهم الفضية .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٦٠ ، ٣٦٣ . ابن اياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ٢٨ .

يملكون نقوداً ذهبية قد لحقتهم خسارة أكبر من غيرهم ، وزادت خسارة بعضهم لكثرة نقودهم الذهبية ^(١) ، وقد زادت الخسارة أيضاً عندما انخفضت قيمة الدينار في شهر صفر من العام التالي ٨٢٠ هـ / يناير ١٤١٧ م ، وبلغ سعر تبادل مائتين وثلاثين درهماً فلوساً ، (ثلاثة عشر درهماً فضياً الا ربع درهم ، منخفضاً عن السعر الذي حددته الدولة بمقدار عشرين درهماً فلوساً) ^(٢) .

لقد تحسنت قيمة الدينار بعد فترة وجيزة ، فوصل سعر تبادله الى مائتين وأربعين درهماً فلوساً (ثلاثة عشر درهماً فضياً وثلاث درهماً) ، ثم الى مائتين وستين درهماً فلوساً (أربعة عشر درهماً فضياً ونصف درهم) في شهر ربيع الآخر ^(٣) / مايو ، ثم الى مائتين وثمانين درهماً فلوساً (خمس عشرة درهماً فضياً ونصف درهم) في شهر جمادى الأولى / يونيو ^(٤) ، ويعود ذلك الإرتفاع المتواصل في قيمة الدينار الى ما اتخذته الدولة من اجراءات للحصول على ما يحد نقص خزينتها من الذهب ، فقد قررت عند حصولها على ايراداتها المالية من جهاتها المختلفة أن تأخذ الذهب فقط دون ما عداه من نقود أخرى ، وقد أدى ذلك الى زيادة الطلب على الذهب والدنانير الذهبية ، وبالتالي الى ارتفاع القيمة النقدية للدنانير الذهبية ^(٥) .

في شهر جمادى الأولى سنة ٨٢٠ هـ / يونيو - يوليو سنة ١٤١٣ م نودى

(١) المقرئى ، نفسه ، ص ٣٦٤ .

(٢) نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٨٥ ، العيني ، السيف المهند ، ص ٢٦٦ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٩٢ .

(٤) نفسه ، ص ٣٩٦ - ٣٩٧ ، العيني ، عقد ، ص ٢٧٠ .

(٥) المقرئى ، نفسه ، ص ٣٨٥ ، الصيرفى ، نزهة ، ص ٣٨٣ .

بتخفيض سعر الدينار الى مائتين وخمسين درهماً من الفلوس (حوالى أربعة عشر درهماً فضياً) ، وقد أدى ذلك الى خسارة عدد كبير من الناس ، وتوقف أحوالهم ، وكساد الأسواق ، وحركة التعامل ^(١) ، فقامت الدولة فى نهاية شهر ذى القعدة / يناير سنة ١٤١٨ م بإطلاق سعر الدينار وقيمته النقدية دون تحديد ، وترك ذلك لظروف السوق ، وما يحيط بها من مؤثرات ، فعادت قيمة الدينار النقدية الى ما كانت عليه قبل تحديد الدولة أى مائتين وثمانين درهماً فلوساً ^(٢) (خمسة عشر درهماً فضياً ونصف درهم) ، ولكن لم تستمر الدولة فى مراقبتها الداعى لإطلاق سعر تبادل الدينار ، فتدخلت فى خطوة منها للحد من ارتفاع قيمة الذهب والدنانير الذهبية ، وحددت فى شهر صفر سنة ٨٢١ هـ / مارس سنة ١٤١٨ م مائتين وخمسين درهماً فلوساً لكل دينار (أى ستة عشر درهماً فضاً ونصف درهم) ، ومع هذا التخفيض المفاجئ فى قيمة الدينار لم تحفل الدولة بما أصاب الناس من خسارة كبيرة ، بل إن تلك الخسارة زادت بعد أن ألزم التجار ، وأصحاب الأموال بتخفيض أسعار المبيعات بنفس نسبة انخفاض الدينار ^(٣) .

لم يمثل معظم التجار والمتعاملين لما قرره الدولة ، فاتخذت مع هؤلاء موقفاً متشدداً ، وأنكرت عليهم مخالفتهم لما رسمت به من خفض الذهب والمبيعات ، وبالغت فى التهديد والوعيد ، وكثرت الشائعات فى مصيرهم ،

(١) المقرئى ، نفسه ، ص ٣٩٧ ، الصيرفى ، نفسه .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ص ٤٣٧ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ١٥٦ ، العينى ، المصدر

السابق ، ص ٣٠٢ ، الصيرفى ، نفسه ، ص ٤١٠ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٣٧ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ١٥٦ ، العينى

، عقد ، ص ٣١٤ .

فتوقفت أحوال الناس ومصالحهم ، وقلت السلع المعروضة فى الأسواق .

لقد كان سبب تلك التطورات ، وما نتج عنها من ظروف ، هو واقع الفلوس النحاسية ، وما عانته من فساد أدى الى ندرة أعدادها ، بدرجة اختلت معها القاعدة النقدية للدولة ، وهى التى تعتمد على تلك النقود أساساً لعملاتها الأخرى ، وأداة لدفع الأثمان والأجور وغيرها من المعاملات المالية المختلفة ، فأصبحت مطلباً للمتعاملين ، وهدفاً يسعون للحصول عليه ، فقل الطلب على العملات الأخرى ، وبالدلات النقود الذهبية حتى هبطت قيمتها النقدية الى مائة وسبعين درهماً فلوساً^(١) (أكثر قليلاً من اثنى عشر درهماً فضياً) .

لقد أحدثت الأزمة النقدية السابقة تطوراً له دلالة فى الدولة ، اذط أصبحت النقود الفضية (الدراهم) هى العملة الرئيسية ، وعلى أساسها كان تقويم العملات الأخرى ، وبها تدفع الأجور وأثمان المبيعات ، وقد تقرر ذلك فى شهر صفر سنة ٨٢١ هـ / مارس سنة ١٤١٨ م بعد اجتماع ضم ممثلين عن الدولة والتجار وأصحاب الأموال فيها^(٢) .

لقد أثرت تلك الظروف - كما سبق القول - على القيمة النقدية للدینار ، فانخفضت الى مستوى متدن ، مما اضطر الدولة الى التدخل لوقف ذلك ، والعمل على رفعة قيمته ، فنادت فى شهر شعبان / سبتمبر ، بأن يكون سعر تبادل الدينار مائتين وثلاثين درهماً من الفلوس^(١) (ستة عشر درهماً فضياً

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٣٩ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ١٥٧ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٤١٠ .

وصف درهم) .

وخلال العام التالي ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م لا توجد المصادر التاريخية معلومات عن القيمة النقدية للدينار ، وقد أورد العيني ^(٢) أن قيمة الدينار خلال سنة ٨٢٣ هـ / ١٤٢٠ م كانت بنفس معدلها السابق ، وهو مائتين وثلاثين درهماً فلساً (حوالي ستة عشر درهماً فضياً ونصف درهم) ، ويورد ابن حجر ^(٣) ضمن حوادث شهر شوال / أكتوبر - نوفمبر أن الدينار الذهبى كانت قيمته ثلاثين نصفاً (خمس عشرة درهماً فضياً) ، وتعادل مائتين وعشرة دراهم من الفلوس ، ويبدو أن ما أوردته العيني أكثر دقة بدليل أن سعر تبادل الدينار فى المحرم من العام التالي ٨٢٤ هـ / يناير سنة ١٤٢١ م ، كان مائتين وثلاثين درهماً فلساً ^(٤) (حوال ستة عشر درهماً فضياً ونصف درهم) ، كما أن المقرئى ، وهو عمدة مؤرخى الفترة لم يورد أى تغيير فى قيمة الدينار ، ولو حدث ذلك لما فاتته ذكره .

وبما ينبغى الإشارة اليه هو تناقص كميات الذهب والدنانير الذهبية بشكل ملحوظ فى الفترة السابقة ، حتى أصبح وجوده نادراً ، أو كما تذكر بعض المصادر ^(١) «إنه عزيز الوجود» وقد أدى هذا النقص الى ارتفاع قيمة الدنانير

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٥٥ .

(٢) العقد ، ص ٣٨٨ ، وأورد ذلك أيضاً الصيرفى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨١ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٥٤٨ ، العيني ، عقد الجمان ، (حوادث سنة ٨٢٤ هـ .

٨٥ هـ) ، ص ٧٧ - ٧٨ ، تحقيق ، عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، رسالة دكتوراه غير

منشورة ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، رقم ٢٢١٢ سنة ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ .

الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٥٢٠ .

الذهبية خلال الفترة التالية ، ومع أن المصادر التاريخية لم تذكر للدینار سعراً تبادلياً خلال سنة ٨٢٥ هـ / ١٤٢١ - ١٤٢٢ م ، فإنها تذكر ذلك في سنة ٨٢٦ هـ / ١٤٢٢ - ١٤٢٣ م ، وأن قيمته كانت مائتين وأربعين درهماً من الفلوس عنها ^(٢) (اثنى عشر درهماً فضياً) . ثم زادت بعد ذلك حيث بلغت سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ - ١٤٢٤ م مائتين وخمسين درهماً فلوساً ^(٣) (اثنى عشر درهماً فضياً ونصف درهم) . ووصلت الى مائتين وسبعين درهماً فلوساً ^(٤) (ثلاثة عشر درهماً فضياً ونصف درهم) في سنة ٨٢٨ هـ / ١٤٢٤ - ١٤٢٥ م ، وكذلك في سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ - ١٤٢٦ م ^(٥) .

هذا وقد كانت نتيجة ذلك التناقص في أعداد الدنانير الذهبية ، وكميات الذهب أن اضطرت الدولة والتجار وغيرهم من المتعاملين لاتباع نظام المقايضة ، ونصف المقايضة لعقد الصفقات التجارية ، وإتمام العمليات المالية ، خصوصاً في حركة التجارة الخارجية ، وذلك لمواجهة نقص النقود الذهبية ، أداة الدفع المقبولة في التبادل التجاري مع القوى التجارية .

ويقول المقرئى ^(١) عن تأثير هذا الوضع على أهل مصر :

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٧٨ ، ص ٧٠٥ ، ص ٨٠٠ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ ، المعنى ، نفسه ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، الصيرفى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٦ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ص ٦٣٤ .

(٣) المعنى ، المصدر السابق ، ص ١٤٥ - ١٤٦ ، الصيرفى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥٦ .

(٤) المعنى ، نفسه ، ص ١٥٩ ، الصيرفى ، نفسه ، ص ٦٩ .

(٥) الصيرفى ، نفسه ، ص ١٠٦ .

« فمن شدة فقر أهله ، وفاقتهم وسوء أحوالهم لا يتابعون الا بالفلال ، نعدم الذهب والفضة بعدما كانوا من الغنى والسعة فى غاية » .

وكان من نتيجة ذلك النقص أن قل التعامل بالدينار الذهبى إن لم يكن قد عدم ، بدليل ان المصادر التاريخية لا تورد أى معلومات عن القيمة النقدية للدينار حتى سنة ٨٣١ هـ / ١٤٢٧ - ١٤٢٨ م ، أى بعد الإصلاحات النقدية التى قام بها السلطان المملوكى الأشرف برسبای ، وكان من نتائجها أن حولت الدولة أعداداً كبيرة من النقود الذهبية الأجنبية (الدوكات الهندية) الى دنانير ذهبية مملوكية ^(٢) عاجلت ولو مؤقتاً أزمة نقص الذهب التى عانت منها الدولة .

أدت تلك الخطورة الى انخفاض قيمة الدينار النقدية مؤقتاً عن مستواه السابق ، ليصبح فى شهر شوال سنة ٨٣١ هـ / يوليو سنة ١٤٢٨ م مائتين وخمسة وعشرين درهماً فلوساً ^(٣) (أحد عشر درهماً فضياً وربع الدرهم) .

وقد أدى انخفاض الذهب الى سحب كمياته ، وقطعه النقدية من الأسواق بشكل كثيف ، فعادت أزمة الذهب الى الظهور من جديد ، متمثلة فى ارتفاع سعر تبادل الدينار الذى وصل الى مائتين وخمسين درهماً فلوساً (اثنى عشر درهماً فضياً ونصف درهم) فى شهر جمادى الآخرة ورجب من سنة ٨٣٢ هـ / مارس - ابريل سنة ١٤٢٩ م ^(١) ، ولوقف هذا الارتفاع تدخلت الدولة فى خفض

(١) السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٠٥ .

(٢) فضلاً أنظر الفصل الخامس ص ٥٠٩ (محاولات بعض الساطين مجاهدة منافسة العملات الأوربية للعملات المملوكية) ، وكذلك الفصل السادس ، ص ٥٥٦ (سياسة سلاطين المماليك النقدية) .

(٣) ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٤٠٦ .

قيمة الدينار الى مائتين وثلاثين درهماً فلوساً (أحد عشر درهماً فضياً ونصف درهم). ، ونادت بذلك فى شهر شوال / يوليو ^(٢) ، ولكن هذا النداء لم يلق تجاوباً من العامة والمتعاملين ، فارتفعت قيمة الدينار أكثر من ذى قبل ، فوصلت الى مائتين وثمانين درهماً من الفلوس (أربعة عشر درهماً فضياً) ، وذلك فى شهر صفر من سنة ٨٣٣ هـ / أكتوبر من سنة ١٤٢٩ م ^(٣) ، وتستمر على هذا المعدل حتى شهر صفر من العام التالى ٨٣٤ هـ / أكتوبر - نوفمبر سنة ١٤٣٠ ^(٤) ، عندما نادى الدولة بأن يكون سعر تبادل الدينار مائتين وثلاثين درهماً من الفلوس (أحد عشر درهماً فضياً ونصف درهم) فتضرر الناس كثيراً من هذا التخفيض ولحققتهم خسارة كبيرة ، الأمر الذى أدى الى مخالفة ما رسمت به الدولة ، وعدم تطبيق السعر الذى حددته ، فارتفعت قيمة الدينار النقدية ، حتى وصلت الى مائتين وثمانين درهماً فلوساً للدينار الواحد ^(٥) (أربعة عشر درهماً فضياً) ، وذلك فى شهر ربيع الأول / نوفمبر - ديسمبر ، فاضطرت الدولة الى التدخل لوقف ذلك ، فنادت فى الشهر التالى أن يكون تبادل الدينار مائتين وثلاثين درهماً فلوساً (أحد عشر درهماً فضياً ونصف

(١) العيني . عقد (حوادث سنة ٨٣٢ هـ) ، ص ٢٥٧ ، الصيرفى . نزهة ، ج ٣ ، ص ١٥٤ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٠٥ .

(٣) نفسه ، ص ٨١٩ ، العيني . المصدر السابق ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ص ٣٥٢ .

(٤) ابن حجر ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٥٥ ، العيني . نفسه ، ص ٢٨٠ ، الصيرفى . المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٩٥ ، ص ٢١٩ .

(٥) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٥١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٦٤ ، ص ٣٥٢ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٢١٨ ، ابن ايماس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ١٣٧ .

درهم) ، وحذرت من يخالف ذلك ، فزاد تضرر الناس وخسارة المتعاملين ^(١) ، ولكن تغير موقف الدولة في شهر رمضان / أبريل - مايو سنة ١٤٣٣ م عندما رفعت سعر التبادل ، ليصبح مائتين وخمسين درهماً من الفلوس ^(٢) (اثنى عشر درهماً فضياً ونصف درهم) ، ويتغير مرة أخرى في شهر ذي القعدة / يونيو - يوليو عندما خفضته الى مائتين وخمسة وثلاثين درهماً فلوساً (اثنى عشر درهماً فضياً الا ربع درهم) وحذرت الدولة أن من يخالف ذلك سيعرض نفسه للعقوبة ^(٣) .

وقضى سنة ٨٣٥ هـ / ١٤٣١ - ١٤٣٢ م دون أن تذكر المصادر التاريخية شيئاً عن أسعار تبادل الدينار ، والمرجع أنها كانت بين مائتين وخمسة وثلاثين درهماً فلوساً ، وهو ما حددته الدولة لقيمة الدينار في نهاية العام الماضي ، ومائتين وستين درهماً من الفلوس (ثلاثة عشر درهماً فضياً) ، وهو ما كان عليه سعر الدينار في شهر المحرم سنة ٨٣٦ هـ / أغسطس سنة ١٤٣٢ م ، مبتدئاً مرحلة جديدة من الارتفاع بسبب قلة الذهب في الدولة ، وعدم توفر الدنانير الذهبية ، بحيث كانت أعدادها قليلة جداً ، وصلت الى حد الندرة والاعتماد في بعض الأحيان ^(٤) .

لقد ارتفعت قيمة الدينار نتيجة لذلك ، فوصلت الى مائتين وسبعين درهماً

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٥١ ، العيني ، عقد ، ص ٢٨٣ ، الصيرفى ،

نفسه ، ص ٢١٨ .

(٢) ابن حجر ، إنبأ ، ج ٣ ، ص ٤٥٧ .

(٣) نفسه ، ص ٤٦١ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٨٠ ، العيني ، عقد ، ص ٣٣١ ، لصيرفى ، نزعة

، ج ٣ ، ص ٢٤٧ .

فلوساً^(١) (ثلاثة عشر درهماً فضياً ونصف درهم) ، ثم الى مائتين وثمانين (أربعة عشر درهماً فضياً) فى شهرى جمادى الآخرة ورجب / يناير - فبراير سنة ١٤٣٣ م^(٢) ، وفى أوائل السنة التالية ، ترتفع الى مائتين وخمسة وثمانين درهماً من الفلوس^(٣) (أربعة عشر درهماً فضياً وربع درهم ، وفى هذه الأثناء ساعدت على ارتفاع قيمة الذهب شائعات سرت فى الدولة مفادها أن السلطان يعمل لإصدار نقود جديدة ، وسيبطل التعامل بالنقود المتداولة^(٤) ، وقد أدى ذلك الى ارتفاع قيمة الذهب والدنانير الذهبية ، ليصل سعر تبادل الدينار الى رقم قياسى ، هو ثلاثمائة درهم فلوس (أى خمسة عشر درهماً فضياً)^(٥) .

فى شهر صفر من السنة التالية ٨٣٨ هـ / سبتمبر سنة ١٤٣٤ م كانت قيمة الدينار النقدية منخفضة ، فقد وصلت الى مائتين وخمسين درهماً من الفلوس^(٦) (اثنى عشر درهماً فضياً ، ولكن هذا المعدل ارتفع الى مائتين وخمسة وثمانين درهماً فلوساً (أربعة عشر درهماً فضياً وربع الدرهم) فى شهر شعبان / مارس سنة ١٤٣٥ م^(٧) .

وتعفل المصادر التاريخية ايراد معلومات عن القيمة النقدية للدينار حتى

(١) ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

(٢) المقرئى ، المصدر السابق ، ص ٨٨٨ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٣٧١ ، الصيرفى ، المصدر السابق ، ص ٢٥٦ .

(٣) الصيرفى ، نفسه ، ص ٢٧١ .

(٤) المقرئى ، المصدر السابق ، ص ٩٠٢ ، ص ٩١٢ ، الصيرفى ، نفسه ، ص ٣٧١ .

(٥) ابن حجر ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥٠١ .

(٦) المقرئى ، المصدر السابق ، ص ٩٣١ .

(٧) المقرئى ، السلوك ، ص ٩٤٤ .

شهر ذى الحجة من سنة ٨٤٣ هـ / يوليو من سنة ١٤٤٠ م ، حيث كانت على معدلها السابق ، وهو مائتان وخمسة وثمانون درهماً من الفلوس ^(١) ، ولا أعتقد أن قيمة الدينار قد استقرت طوال تلك الفترة ، فظروف الدولة لا تحقق ذلك الاستقرار ، ولعله شبه استقرار عاشته قيمة الدينار النقدية ، فى الفترة المذكورة حول ذلك المعدل ، ولو حدثت تغييرات قوية لساغت المصادر التاريخية لايرادها كمعادتها عند حدوث ذلك ، وما يجدر الاشارة اليه ان مصادر الفترة التالية - التى خلت من مؤلفات المقرئى - لا تمدنا بمعلومات عن التطورات النقدية فى الدولة بشكل متواصل ، فنلاحظ بعد سنة ٨٤٣ هـ / ١٤٤٠ م ، وما بعدها حتى نهاية عصر الدولة ، وجود ثغرات عديدة فى تواصل المعلومات المتصلة بأسعار التبادل النقدي ، ويعود السبب الرئيسى فى ذلك الى عدم توفر مصادر تاريخية متعددة لهذه الفترة باستثناء المؤرخ ابن تغرى بردى - مع قصر فترته - الذى أمكن من خلال ما أورده من معلومات سد جانب نقص كبير فى معلومات الفترة المشار اليها .

المهم ان الظروف النقدية فى الفترة المتبقية من عصر الدولة لم تشهد أى تحسن ، بل انها زادت سوءاً وتدهوراً ، وعانى النظام النقدي خلالها من أزمات شديدة التأثير ، أدت الى انهيار ذلك النظام قبل انهيار الدولة ، ولم تشهد الدينانير الذهبية أى انخفاض فى قيمتها النقدية ، وما شهدته هو مزيد من الفساد فى أوزانها وعياراتها ، ومزيد من الارتفاع فى أسعار التبادل .

فى سنة ٨٤٧ هـ / ١٤٤٣ - ١٤٤٤ م كانت القيمة النقدية للدينار بنفس معدلها السابق من الدراهم الفلوس ، وهو مائتان وخمسة وثمانون ^(١) ، ولكنها

(١) المقرئى ، السلوك ، ص ١١٩٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٥ ، ص ٣٤٠ .

اختلفت بالدراهم الفضية ، حيث انخفضت الى اثنى عشر درهماً فضياً تقريباً^(٢) ، وكانت كذلك فى السنة التالية ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤ - ١٤٤٥ م^(٣) وسنة ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ - ١٤٤٦ م أيضاً^(٤) ، وكذلك سنتى ٨٥١ - ٨٥٢ هـ / ١٤٤٧ - ١٤٤٩ م^(٥) .

فى شهر ربيع الأول سنة ٨٥٦ هـ / مارس سنة ١٤٥٢ نودى فى الدولة أن يكون سعر صرف الدينار مائتين وخمسة وثمانين درهماً من الفلوس (اثنى عشر درهماً فضياً تقريباً) ، وقد كثر فى الدنانير الذهبية الغش والفساد ، وقد هددت الدولة من يعمل على رفع السعر بالعقوبة والمجازاة^(٦) .

وفى شهر ذى القعدة / نوفمبر ، ارتفع سعر تبادل الدينار بشكل لم يسبق له مثيل من قبل ، حيث وصل الى ثلاثمائة وعشرين درهماً من الفلوس^(٧) (ثلاثة عشر درهماً فضياً وثلاث درهم) ، ثم واصل ارتفاعه أوائل العام الثانى ، ليزيد عشرة دراهم من الفلوس عن السعر السابق ، فتضرر من جراء ذلك عدد كبير من الناس والمتعاملين ، مما اضطر الدولة الى التدخل والمناذاة بتحديد سعر الدينار

(١) العيني ، عقد ، ص ٤٨٤ ، السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٧٦ .

(٢) كان سعر تبادل الدرهم الفضى فى السنة المذكورة أربعة وعشرين درهماً فلوساً ، فضلاً أنظر : القيمة النقدية للدرهم) .

(٣) ابن تفرى بردى ، حوادث الدهور ، ج ١ ، ص ١١ .

(٤) العيني ، المصدر السابق ، ص ٥١٢ ، السخاوى ، المصدر السابق ، ص ١٢٦ .

(٥) السخاوى ، نفسه ، ص ١٨٧ .

(٦) ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٥ ، ص ٤٤٠ ، السخاوى ، نفسه ، ص ٣٨٢ ، ابن ايماس ، هدايت ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ .

(٧) ابن تفرى بردى ، حوادث ، ج ١ ، ص ١٣٥ ، السخاوى ، نفسه ، ص ٣٨٢ .

الدينار بمائتين وخمسة وثمانين درهماً فلوساً (اثنى عشر درهماً فضياً تقريباً) .
وذلك فى شهر جمادى الأولى من العام نفسه ٨٥٧ هـ / مايو سنة ١٤٥٣ م ^(١) .

فى شهر ذى القعدة من العام نفسه / نوفمبر ارتفعت قيمة الدينار الى
مستوى عال ، فوصلت الى ثلاثمائة وخمسة وثلاثين درهماً فلوساً (أربعة عشر
درهماً فضياً) ، ولا يمدنا ابن تغرى بردى ^(٢) الذى أورد ذلك بأسباب الارتفاع ،
وما ذكره يتصل فقط بالأسعار والقيم النقدية للعملة فقط .

حاولت الدولة تخفيض قيمة الدينار عدة مرات ، وعن طريق عدة تدابير
لمستوى ثلاثمائة وعشرين درهماً فلوساً (ثلاثة عشر درهماً فضياً وثلاث) ،
ولكن موقف الناس والمتعاملين من تلك التدابير أوضحها ابن تغرى بردى
بقوله ^(٣) :

«ولا أظنه الا أن يزيد أيضاً» .

وفعلاً فقد ارتفع سعر تبادل الدينار فى العام التالى ٨٥٨ هـ / ١٤٥٤ م ،
فوصل الى أعلى مستوى له حتى ذلك التاريخ ، فبلغ ثلاثمائة وخمسين درهماً
فلوساً (أكثر قليلاً من أربعة عشر درهماً فضياً ونصف الدرهم) ، فسارعت
الدولة الى المناداة لتخفيض سعر التبادل ، فنودى فى شهر جمادى الآخرة /
مايو ، بأن تكون قيمة الدينار ثلاثمائة وعشرين درهماً فلوساً ^(٤) (ثلاثة عشر
درهماً فضياً وثلاث درهم) ، ولكن مناداة الدولة لم تؤد الى تخفيض سعر الدينار

(١) ابن تغرى بردى . حوادث ، ص ١٧٤ ، ص ١٨٦ .

(٢) نفسه ، ١٩٦ .

(٣) نفسه ، ص ١٩٩ .

(٤) نفسه ، حوادث ج ١ ، ص ٢٠٨ .

الذى حافظ على معدله السابق رغم تكرار مناداة الدولة ^(١) .

فى شهر المحرم من العام التالى ٨٥٩ هـ / ديسمبر سنة ١٤٥٤ م ، واصل سعر الدينار تقدمه ، فبلغ ثلاثمائة وسبعين درهماً فلوساً ^(٢) (حوالى خمسة عشر درهماً فضياً ونصف درهم) ، ونظراً لهذا الارتفاع الكبير فى قيمة الدينار النقدية ، فقد قررت الدولة عقد اجتماع طارئى لمعالجة الوضع ، فى شهر ربيع الأول / فبراير سنة ١٤٥٥ من حضره القضاة ، وكبار الأمراء ، وبعد الاجتماع تم تفويض السلطان الأشرف إينال فى اتخاذ القرار المناسب ، فأصدر أوامره على الفور بتخفيض سعر تبادل الدينار ، ونودى فى الدولة بأن تكون قيمة الدينار النقدية ثلاثمائة درهم فلوس (اثنى عشر درهماً فضياً ونصف درهم) ، وقد تسبب هذا التخفيض الكبير فى سعر الدينار بخسارة الكثيرين من المتعاملين ، فى الوقت الذى هددت الدولة فيه من يخالف ذلك بأشد العقوبات ^(٣) ، وتوالت نداءات الدولة لتطبيق ما أمرت به ، ولكن جميع تلك النداءات لم تجد أذاناً صاغية من الناس والمتعاملين ، وأصحاب الأموال الذين لا يرغبون لأنفسهم الضرر والخسارة ، لذا فقد استمرت قيمة الدينار بنفس معدلها السابق دون تغيير ^(٤) ، وما يدل على استمرارها ، بل واتجاهها نحو الزيادة ، ما كان عليه سعر تبادل الدينار فى شهر رمضان سنة ٨٦٠ هـ / أغسطس سنة ١٤٥٦ م ، حيث بلغ ثلاثمائة وستين درهماً فلوساً ^(٥) (خمس عشرة درهماً فضياً) .

(١) ابن تفرى بردى ، حوادث ، ص ٢٠٩ .

(٢) نفسه ، ص ٢٢٢ .

(٣) نفسه ، ص ٢٢٥ .

(٤) نفسه ، ص ٢٤٥ ، السخاوى ، الدليل التام ، ص ٧٧ .

(٥) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧٦ .

حاولت الدولة فى المحرم من العام التالى ٨٦١ هـ / ديسمبر سنة ١٤٥٦ م تخفيض قيمة الدينار الى ثلاثمائة درهم فلوس (اثنى عشر درهماً فضياً ونصف درهم) . وخصوصاً بعد أن تجاوزت قيمته ثلاثمائة وخمسة وسبعين درهماً من الفلوس ^(١) (خمسة عشر درهماً فضياً ونصف درهم) ، ولكن محاولة الدولة لم يتحقق لها النجاح ، بل إن قيمة الدينار تزايدت كثيراً ، فبلغت فى شهر ربيع الأول من السنة نفسها / فبراير من سنة ١٤٥٧ م أربعمائة درهم فلوساً لكل دينار واحد ^(٢) (سبعة عشر درهماً فضياً الا ثلث درهم) وفى نهاية الشهر وصل الى أربعمائة وعشرين درهماً فلوساً ^(٣) (سبعة عشر درهماً فضياً ونصف درهم) ، ثم فى شهر المحرم من العام التالى ٨٦٢ هـ / نوفمبر سنة ١٤٥٧ م ارتفع الى أربعمائة وخمسين درهماً من الفلوس ^(٤) (تسعة عشر درهماً فضياً الا ربع درهم) ، وفى شهر ربيع الأول / يناير سنة ١٤٥٨ م وصل الى أربعمائة وستين درهماً فلوساً (أكثر من تسعة عشر درهماً فضياً) . فسارعت الدولة لمواجهة هذا الارتفاع ، فأمرت بالمناداة فى الأسواق أن يكون سعر تبادل الدينار ثلاثمائة درهم فلوس فقط (اثنى عشر درهم فضياً ونصف) ، وتشددت الدولة بتطبيق السعر الجديد ، وعوقب عدد كبير من الباعة والمتعاملين ، وشهر بجماعة منهم فى الأسواق ، ولم تنظر الدولة الى ما قد يسببه هذا الاجراء من خسارة كبيرة لهم ، فخسروا معظم أموالهم ^(٥) .

(١) ابن تغرى بردى ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٢٩١ ، النجوم ، ج ١٦ ، ص ٩٩ .

(٢) نفسه ، النجوم ، ج ١٦ ، ص ١٠٤ .

(٣) نفسه ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

(٤) نفسه ، ص ٣٠٩ .

(٥) ابن تغرى ، النجوم ، ج ١٦ ، ص ١١٥ ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٣١٠ - ٣١١ .

السخاوى ، الذيل على رفع الأصر (بغية العلماء والرواة) ، ص ٩٧ ، تحقيق جودة هلال . -

لقد كانت أسباب تلك الارتفاعات المتوالية فى قيمة الذهب ، والدنانير الذهبية تعود الى كثرة الطلب عليه ، بسبب ما كانت تعانيه الدراهم الفضية ، والفلوس النحاسية من فساد وغش ، وعدم استقرار فى التعامل بها ، وتردد شائعات فى الدولة عن إبطال التعامل بها ، واستبدالها بإصدارات جديدة ^(١) ، كما أن أحوال الدولة الداخلية ، سياسية واقتصادية لم تكن مستقرة ، بل كانت على درجة كبيرة من الاضطراب والنزاع السياسى ، والأزمات الاقتصادية مما كان له الأثر المباشر على سير أوضاع الدولة ومنها النقدية ^(٢) .

لقد فقدت الدولة السيطرة على تحديد سعر تبادل الدينار أمام معارضة العامة والمتعاملين ، فبعد عدة نداءات وجهتها الدولة لتحقيق ذلك الهدف ، لم يلتفت أحد لما تنادى به ، فأصبح السعر يتحدد من خلال ظروف الدولة ، وظروف أسواقها ، والعوامل المحيطة بتلك الظروف ^(٣) .

ولا نمذنا المصادر التاريخية بعد هذه الفترة ، وحتى سقوط الدولة بمعلومات ذات قيمة عن أسعار تبادل الدينار المملوكى ، باستثناء ما ذكره السخاوى ^(٤)

■ ومحمد محمود صبح ، الدار المصرية للتأليف ، القاهرة ، (ب - ت) ، ابن اياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ .

(١) ابن تفرى ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٢) تمثل الاضطراب والنزاع بما أحدثه المماليك الجلبان (الذين تم جلبهم الى الدولة) من فتن وحوادث فى أنحاء الدولة بين قتل رجال الدولة وكبار موظفيها ، وأصحاب المناصب بها عن لا يوافقونهم فى أهدافهم وتوجيهاتهم ، وبين سطر ونهب لأموال الناس ، وتعرض للتجار وبضائعهم ، والفساد لمنشآت الدولة ، وتخريبها وإشعال الحرائق بها . (فضلاً أنظر عن المماليك الأجلاب هامش ٢ ص ٤٤٥) ، (ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٦ ، ص ١١٦ ، السخاوى ، الذيل التام ، ص ٧٦ ، ١١٦ ، حامد زيان ، الأزمات الاقتصادية ، ص ١٠٨) .

(٣) ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٦ ، ص ٣٥٢ .

(٤) الذيل التام ، ص ٣٣٦ .

ضمن حوادث سنة ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ من أن قيمة الدينار قد زادت أكثر من ثلاثة دراهم فضية بسبب الفساد الذى تعرضت له الفلوس النحاسية ، وما ذكره أيضاً ضمن حوادث سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م ^(١) من أن قيمة الدينار ارتفعت أكثر من أربعمئة درهم فلوس ، وأن الغلاء عم الهلاد ، وانعدام الفضة وعدم التعامل بها فى الأسواق ، وكذلك ما أورده ابن اياس ^(٢) من أن قيمة الدينار سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ - ١٤٩٨ كانت بخمسة عشر درهماً فضياً ، وتعادل أربعمئة وعشرين درهماً من الفلوس النحاسية .

وقد دأبت المصادر فى الفترة المشار اليها على ذكر الفساد النقدي الذى وقع على العملات المملوكية ، وما عانت من اضطراب وتلاعب ، وإهمال المسؤولين فى الدولة لهذا التدهور دون تدخل منهم ، أو محاولة تحسين الأوضاع أملاً فى الحصول على فوائد ، ومصالح تتحقق لهم من خلال تلك الأوضاع .

٤ - القيمة النقدية للدرهم *

شكلت النقود الفضية فى بداية العصر المملوكى مع الدينانير الذهبية القاعدة النقدية للعهد المملوكى البحرى ، أما فى العهد الجركسى ، فقد حلت الفلوس النحاسية محل الدراهم الفضية ، وانتشرت وتم استخدامها فى عمليات التداول ، وقل الطلب على النقود الفضية التى لم تستطع الوقوف أمام ذلك الانتشار الذى حققته الفلوس ، فقلت أعدادها بشكل كبير ، وأصبح من النادر عمل

(١) الليل التام ، ص ٣٣٦ .

(٢) بدائع ، ج ٣ ، ص ٣٩٥ .

* يمكن من خلال التفاصيل المتصلة بالقيمة النقدية للدرهم التعرف فى الوقت نفسه على القيمة النقدية للفلوس النحاسية .

إصدارات جديدة منها ، حتى مع المحاولات التي قام بها عدد من سلاطين الماليك لإعادة النقود الفضية لمركزها الطبيعي ، فإنه لم يكتب لتلك المحاولات النجاح ، بسبب عدة عوامل ، فإلى جانب المنافسة الحادة من قبل الفلوس النحاسية ، كانت هناك منافسة أخرى من قبل دراهم الهندية التي انتشرت التعامل بها في أسواق الدولة ، وحازت على ثقة المتعاملين نظراً لجودة سكها ، ودقة وزنها وعيارها ^(١) . في الوقت الذي تعرضت فيه الدراهم المملوكية الى الفساد ، وظهر أنواع وديئة منها ، تزيد نسبة النحاس فيها عن نسبة الفضة ، حتى أصبح الدرهم لا يحتوى الا على ثلث وزنه من الفضة ، بينما ثلثاه من نحاس ^(٢) ، وهذا عكس القاعدة الشرعية ، وكان هذا الوضع نتيجة لنقص امدادات الدولة من معدن الفضة ، الذي أدى الى تناقص أعداد الدراهم ، وبالتالي ندرتها ، وفي بعض الأحيان الى توقف إصدارها .

نمع نهاية القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى قلت كميات الفضة في الدولة ، ونشطت عملية تهريبها الى خارج البلاد - وخاصة الى أوروبا - طعاً في الفائدة المادية ، ويتأسف المقرئ على ذلك قائلاً ^(٣) :

«والفرنج تأخذ ما بمصر من الدراهم الى بلادهم ، وأهل البلاد تسبكهـا طلباً للفائدة ، حتى عزت وكادت تفقد» .

كما يشير القلقشندي الى بعض مسببات ذلك النقص فيقول ^(٤) :

(١) فضلاً أنظر : الفصل الخامس (العلاقة بين الدراهم المملوكية والدراهم الهندية) .

(٢) القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦٣ ، المقرئ ، النقود ، ص ٦١ .

(٣) النقود ، ص ٦٩ .

(٤) صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦٣ .

« أما بعد الشاغنة فقد قلت الفضة ، ، وبطل ضرب الدراهم بالدبار المصرية ،
الا فى القليل النادر ، لاستهلاكها فى السروج والآنية ونحوها ، وانقطاع اصلها
الى الدبار المصرية من بلاد الفرنج وغيرها ، ومن ثم عز وجود الدراهم فى
المعاملة بل لم تكن توجد » .

ومهما قل عدد الدراهم الفضية المملوكية ، أو ندر سكها فلان إصداراتها لم
تنقطع كلية ، فإضافة الى ما أصدره سلاطين المماليك البحرية ، قام سلاطين
المماليك الجراكسة بإصدار أعداد ولو قليلة من تلك الدراهم - سبق التعرض لها -
وفيما يلى نتتبع تطور القيم النقدية ، وأسعار التبادل التى مرت بها الدراهم
الفضية المملوكية .

كان للدرهم الفضى فى الفترة الأولى من عصر دولة المماليك مركز هام فى
التعامل النقدى ، ووظيفة رئيسية فى اقتصاديات الدولة ونظامها النقدى ،
بوضح المقرئى ذلك المركز ، وتلك الوظيفة بقوله ^(١) :

« وراجت هذه الدراهم - الدراهم النقرة التى ضربها الكامل الأيوبي - فى بقية
دولة بنى أيوب ، ثم فى أيام موالىهم الأتراك بمصر والشام راجاً حتى قل الذهب
بالنسبة اليها ، وصارت المبيعات الجليلة تباع وتقوم بها ، واليها تنسب عامة
أثمان المبيعات ، وقيم الأعمال ، وبها يؤخذ خراج الأرضين ، وأجرة المساكن
وغير ذلك » .

فالنص السابق ينطبق تماماً على دولة المماليك البحرية ، حيث كانت الدراهم

(١) إغانة الأمة ، ص ٦٥ .

الفضية تمثل الى جانب الدنانير الذهبية القاعدة النقدية للبلاد . بل إن الدراهم الفضية هي أداة الدفع والتداول ، فحازت على ثقة المتعاملين ، والناس جميعاً نظراً لدقة وزنها وعيارها ، وحسن سكها ، ونتيجة ذلك احتفظت بقيمة شبه ثابتة طوال تلك الفترة ، ونلاحظ ذلك من المعلومات التي أوردتها المصادر التاريخية للتطورات النقدية في الدولة .

يفيدنا التفصيل السابق عن القيم النقدية للدينار في التعرف على القيمة النقدية للدراهم الفضة مقابل الدنانير الذهبية ، أي سعر تبادل الدراهم بالدنانير الذهبية ، وهذه المعلومات التي توفرت لنا عن القيم النقدية للدينار ، تغطي جانباً من نقص المعلومات المتصلة بالقيم النقدية للدرهم الفضي ، التي نعرض لها في هذا التفصيل ، الذي نتناول فيه سعر تبادل الدرهم الفضي مقابل الفلوس النحاسية .

كانت القيمة النقدية للدرهم النقرة - وهو الدرهم المتداول عند قيام دولة الماليك - ثمانية وأربعين فلساً عدداً ، واستمرت هذه القيمة بشكل شبه ثابت حتى سنة ٧٥٩ هـ / ١٢٥٧ م ^(١) .

والواقع أن القيمة النقدية للدراهم قد تأثرت في بعض الأحيان ما تعرض له الدينار الذهبي من تقلبات في الفترة المذكورة ، وأيضاً بما تعرضت له من تلاعب في أوزانها وعيارها ، ويدل على ذلك ما ذكره المقرئ ^(٢) في حوادث سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ - ١٣٣٧ م أن الدراهم الفضية كان التعامل بها يتم عن طريق الوزن ، ومجرد التعامل النقدي بهذه الطريقة دلالة على فساد النقود

(١) للفتشندى . ص ٣ ، ج ٣ . ص ٤٣٩

(٢) السلوك . ج ٢ . ص ٤٢٠

المتعامل بها ، وعدم صلاحيتها للتعامل العددي ^(١) ، ومثل ذلك أيضاً ما حدث سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ - ١٣٤٠ م من إبطال التعامل بالدرهم الفضية بسبب نقص أعدادها ، وانعدام الفضة ، حتى أن الباعة والتجار رفضوا أخذ الدنانير الذهبية ثمناً لبضائعهم ، فمحاولة منهم للحصول على الفضة ، وقد كان تصرف الدولة سليماً عندما أخرجت الفضة من خزائنها ، ووزعتها في الأسواق لسد الحاجة إلى الدرهم الفضية ، وكان سبب هذه الأزمة راجعاً إلى ارتفاع سعر تبادل الذهب مقابل الدرهم الفضية الأمر الذي أدى إلى احتفاظ الناس ، وأصحاب الأموال بالدرهم الفضية ، وعدم التفريط بها ^(٢) .

ومن المرجح أن أسعار تبادل الدرهم قد عادت إلى الاستقرار حتى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م عندما داهم الدولة الوباء الكبير الذي كانت له تأثيرات سلبية على نواحي الدولة ، وبالذات الاقتصادية والاجتماعية منها ، وتأثرت قيمة الدرهم النقدي بالغلاء المصاحب لذلك الوباء ، فارتفعت تبعاً لذلك ^(٣) .

ومهما كانت الحال فإنه يمكن القول أن القيمة النقدية للدرهم كانت ثابتة في معظم سنوات الفترة ، حتى سنة ٧٥٩ هـ / ١٢٥٧ م باستثناء بعض التقلبات التي أحدثتها ظروف طارئة مرت بها الدولة ، وقد بلغت تلك القيمة النقدية

(١) جرى اتباع قاعدة وزنية عند استخدام طريقة الوزن في تداول النقود ، وتقضى باستخدام صئج خاصة بكل نوع من النقود ، للدنانير صئج خاصة بها ، وكذلك للدرهم والفلوس (حجة وقف السلطان الأشرف برسبای ، ص ١٩٢ ، ص ٢١٥ ، نشر جزء منها محمد كامل مراد ، في سياسة الأشرف برسبای الداخلية وعلاقاته الخارجية ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، كلية أصول الدين ، جامعة الأزهر ، رقم ١٤٦ عام ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .

(٢) المقریزی ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ ، السبوطی ، حسن المحاضرة ، ج ٢ .

الثابتة ثمانية وأربعين فلساً نحاسياً للدرهم الفضى الواحد ، وعندما أصدرت الدولة فلوساً نحاسية جديدة ، تم تعديل قيمة الدرهم الفضى مقابلها ، فأصبحت أربعة وعشرين فلساً من الفلوس الجديدة (المجدد) ، والتي أصبح كل فلس منها لفلسين من الفلوس القديمة (العتق) ، وأصبح التعامل بها يتم عن طريق وزنها ، كل رطل منها بدرهم فضى ونصف درهم ^(١) .

لقد استمرت قيمة الدراهم النقدية على النحو السابق حتى حتى سنة ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ م عندما داخلها الفساد ، وخلطت بدراهم ضربت فى مدينة حماة من بلاد الشام أطلق عليها الدراهم الحموية ، ففسدت الدراهم الجيدة ، ونقصت أوزانها ، واختلت عياراتها ^(٢) ، مما حتم على الدولة المتأداة بتداول الدراهم الفضية عن طريق الوزن ^(٣) .

وقد أتاح ذلك الفساد اضافة الى ما بدأت تشهده الدراهم الفضية من تناقص فى كمياتها وأعدادها ، الفرصة للفلوس النحاسية بالظهور ، ومزاحمة الدراهم الفضية فى مركزها ، وفى حيازتها لثقة المتعاملين ، فتحقق لها ذلك ، وتمتعت بمركز جيد كان بداية لتطور هام شهدته الدولة فيما بعد ^(٤) .

(١) المقرئى - السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٨٦ ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٩ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣١٧ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٤ .

(٢) من مظاهر فسادها ونقص أوزانها أن وزن الدرهم قد وصل الى أن يكون نصفه فضة بدل ثلثيه ونصفه الآخر نحاساً بدل ثلثه ، ثم كان ربعها من فضة وثلاثة أرباعها من نحاس ، بل فى بعض الأحيان أصبحت الفضة لا تتعدى العشر ، وتسعة أعشاره من النحاس .
(المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٣٢ ، السيوطى ، حسن ، ج ٢ ، ص ٣٠٨) .

(٣) المقرئى ، النقود ، ص ٦١ .

(٤) هناك فى الواقع العديد من التطورات النقدية التى شهدتها الدولة من ذلك بروز ظاهرة التضخم النقدى نتيجة استخدام الفلوس النحاسية واستخدام الدولة عملة حسابية جديدة =

لقد استمر التعامل بالدراهم الفضية عن طريق الوزن مدة طويلة . فتذكر بعض المصادر التاريخية أنه في سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٨ - ١٣٨٩ م ^(١) . وسنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩٠ - ١٣٩١ م ^(٢) كان التعامل بالدراهم يتم عن طريق الوزن . مع محافظة الدرهم على قيمته النقدية التي تقدر بأربعة وعشرين قلماً ورغم كمياته القليلة في أسواق الدولة ^(٣) . ورغم تناقص وزنه عن الوزن الشرعي للدرهم ، والمحدد بجرامين وخمسة وتسعين في المائة من الجرام (٢.٩٥ جم) .

= (الدرهم الفلوس) للربط بين الدراهم الفضية والفلوس النحاسية في نظام محاسبي واحد . وكذلك انتشار العملات الأوربية وغيرها . ومزاحمتها للنقود المملوكية في مختلف عمليات التداول في أسواق الدولة .

(١) الصيرفي ، نزهة ، ج ١ ، ص ٢٧٠ .

(٢) نفسه ، ص ٣٣٣ .

(٣) يقول المقرئ (إغاثة . ص ٧١) : « فسات الظاهر للناس ثلاثة نقود أكثرها الفلوس . وهي النقد الرائج الغالب ، والثاني الذهب ، وهو أقل وجداناً من الفلوس . وأما النقصة . فقلت حتى بطل التعامل بها لعزتها » .

والواقع أن نقص النقصة كان تدريجياً . بدأ مع نهايات العهد المملوكي البحري . وبمرور الوقت أصبح يمثل أزمة دائمة للدولة . بلغت غايتها سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٩١ - ١٣٩٢ م عندما توقفت دور الضرب في الدولة عن إصدار الدراهم الفضية لعدم وجود خامات . وأصبح إصدارها لا يتم إلا في القليل النادر حتى أنه من شدة الأزمة أن الدرهم النقضي قد تم تداوله عن طريق المزاد العلني . وهو ما عرف به (حراج) فمن يدفع قيمة أعلى يحصل عليه . هذا ويمكن تلخيص مجمل الأسباب التي أدت إلى ذلك النقص بما يلي :

- ١ - قلة كميات النقصة المستخرجة من مناجم الدولة في سيناء . وأخيراً توقفها عن الإنتاج .
- ٢ - انخفاض صادرات أوروبا من النقصة إلى الدولة المملوكية . وهي المصدر الرئيسي ثم انقطاع وصول النقصة نهائياً إلى الدولة ، وبداية حركة محاكاة تمثلت في تهريب النقصة إلى أوروبا مع التجار الأوروبيين .

٣ - المبالغ الكبيرة التي أنفقها السلطان الظاهر برفوق في الهبات والأعطيات . ونفقات المالك حرم الدولة من احتياطي كبير من النقود الفضية .

فى سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ - ١٤٠١ م ، وفى ظل ظروف الغزو التتورى لبلاد الشام كانت القيمة النقدية للدرهم الفضى مرتفعة جداً ، ولم يذكر ابن حجر ^(١) الذى أورد ذلك أى أرقام تمثل تلك القيمة المرتفعة . ويعود ذلك الارتفاع الى أن الغزاة كانوا فى أثناء غزؤهم لا يطلبون من الأموال سوى الدنانير الذهبية والدرهم الفضية مما رفع من أسعار تبادلها ^(٢) .

واستمرت الفضة على ارتفاعها فى سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ - ١٤٠٣ م ، فيورد ابن دقماق ^(٣) أنه فى شهر جمادى الأولى / ديسمبر بلغت القيمة النقدية للدرهم الفضى وزناً درهمن وثلاثة بالعشرة من الدرهم الفلوس (خمس وخمسين فلساً نحاسياً) ^(٤) ، وما أورد ابن دقماق بعد أول إشارة لقيمة الفضة مقابل الدراهم الفلوس ، ويبدو أن هذا هذا التطور فى النظام السعري للنقود المملوكية جاء نتيجة النقص الكبير فى الدراهم الفضية ، الذى قابله زيادة كبيرة فى الفلوس النحاسية ، فكان ارتفاع قيمة الفضة ، وانخفاض قيمة النحاس انعكاساً لما عاشه الوضع النقدى فى الدولة من تغيرات .

٤ - بروز ظاهرة الاكتناز للنقود الفضية الجديدة ، بعد فساد الدراهم الفضية ، ومن ثم تناقص أوزانها .

(القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦٣ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٩٠٩ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٧ ، ٩٩ ، ابن حجر ، إنها ، ج ٢ ، ص ١٤٥ ، عهد الرحمن فهمى ، النقود العربية ، ص ٩٢ ، ٩٤ ، ورافقت النبروى ، مسكوكات الممالك ، ص ٢٩٨) .
(١) إنها ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٩ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٣ .
(٣) الجوهر الثمين ، ورقة ١٨٩ .

(٤) الدرهم الفلوس يساوى أربعة وعشرين فلساً اذ المعروف أنه تقدير الدرهم الفضى مدفوعة بالفلوس النحاسية . (المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١١١١ ، كذلك ، ج ٤ ، ص ٩٤٢) .

تراجعت قيمة الدرهم الفضى مقابل الفلوس النحاسية بشكل طفيف ومؤقت ، عندما وصلت فى المحرم من سنة ٨٠٦ هـ / يوليو من سنة ١٤٠٣ هـ الى درهمن الا ربعاً من الدراهم الفلوس ^(١) ، ويبدو أن ظروف الفلوس النحاسية فى تلك الأثناء قد أدت الى هذا الانخفاض ، فقد حدث إنقاص لوزن الفلوس النحاسية عند التبادل ، أدى الى ارتفاع أسعارها مقابل النقود المملوكية (الدنانير والدراهم) ^(٢) ، وما إن هدأت مشكلة الفلوس النحاسية ، حتى عادت الدراهم الى الارتفاع فى قيمتها ، حيث وصلت الى درهمن واثنين بالعشرة من الدرهم الفلوس ^(٣) ، وواصلت الفضة ارتفاعها فى شهر رمضان من العام نفسه / فبراير - مارس من سنة ١٤٠٤ م الى ثلاثة دراهم فلوساً للدراهم المضروبة (الدرهم النقرة ، والدرهم الكاملى) ، أما الفضة الحجر (الحام) ^(٤) ، فقد كان ثمن الدرهم منها أربعة دراهم من الفلوس ^(٥) .

ولم تذكر المصادر التاريخية التى أوردت تلك المؤشرات السعرية الأسباب وراء ارتفاع الفضة والدراهم الفضية ، والمرجح أن سبب ذلك راجع بالإضافة الى نقصها وقلة أعدادها المتداولة فى الأسواق ، الى عدم ضرب الدولة لدراهم فضية جديدة ، والى نشاط الناس فى صهر المتداول منها ، وتحويله الى حلى وأوان

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١١١١ . العينى . عقد الجمان ، ج ٢٠ ، ورقة ٢٠١ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٧٧ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ص ١٠٩٨ ، ابن اياس ، نفسه ، ص ٦٦٥ .

(٣) ابن دساق ، المصدر السابق ، ورقة ١٩٣ - ١٩٤ .

(٤) حملت الفضة غير المصنعة فى تلك الفترة مصطلح (الفضة الحجر) تعبيراً عن عدم كونها دراهم مضروبة ، وقد امتازت بخلوص عيارها ، وعدم تعرضها للفس .

(٥) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١١٢٢ ، الصيرلى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ١٨٦ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٨٧ .

ونحو ذلك .

فى شهر ربيع الأول من سنة ٨٠٧ هـ / سبتمبر - أكتوبر من سنة ١٤٠٤ م
واصلت الدراهم الفضية ارتفاعها ، فبلغ سعر تبادل الدرهم الواحد ثلاثة دراهم
فلوساً وثلاثة بالعشرة من الدرهم الفلوس . ثم بعد فترة قصيرة ، ارتفع الى
أربعة دراهم فلوساً لكل درهم فضى واحد ^(١) . وحافظ الدرهم على ذلك
المستوى فى شهر المحرم سنة ٨٠٨ هـ / يونيو سنة ١٤٠٥ م ^(٢) ، وبعد عدة
أشهر ، وبالتحديد فى شهر جمادى الأولى / أكتوبر - نوفمبر ، ارتفعت القيمة
النقدية للدراهم بشكل واضح . اذ وصلت الى أربعة وسبعة بالعشرة من الدرهم
الفلوس ^(٣) . وفى الشهر التالى بلغت مستوى خمسة دراهم فلوساً لكل درهم
فضى واحد . من الدراهم النقرة أو الدراهم الكاملية ، وهو ما أطلق عليه
المقرىزى درهم معاملة ، ويتم التعامل به وزناً لا عدداً ^(٤) .

وبين المقرىزى ^(٥) أن أسباب تلك الارتفاعات المتتالية فى قيمة الفضة عائدة
الى ما كان يخيم على الدولة من فساد ، وما سارت عليه الدولة ممثلة برجال
سلطتها ، من فساد وتلاعب فى أوزان النقود ، وأسعار تبادلها تحقيقاً
لأطماعهم المادية . مستعينين بالفلوس النحاسية النحاسية للوصول لأهدافهم
بالاكثار منها ، وبإفسادها والتلاعب بأسعارها ^(٦) هذا بالإضافة الى ما سبق

(١) المقرىزى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٣٣ ، ابن الهيثم ، نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٩٥ - ٦٩٦ .

(٢) المقرىزى ، نفسه ، ص ١١٧٠ ، ١١٧٣ ، ابن الهيثم ، نفسه ، ص ٧٣٠ .

(٣) المقرىزى ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٥ ، ابن الهيثم ، نفسه ، ص ٧٢٨ .

(٤) المقرىزى ، نفسه ، ص ١١ ، إغاثة ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(٥) المقرىزى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(٦) فضلاً أنظر : الفصل السادس (سياسة السلاطين النقدية) .

إيضاحه من أسباب ارتباطت بالدراهم الفضية .

لقد حل عام ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م على الدولة ، وهى تعاني من أزمة حادة فى احتياجاتها من الفضة والدراهم الفضية ، وإن ظهرت فبيع كل درهم مضروب بخمسة دراهم فلوس ^(١) ، بنفس المعدل كانت قيمة الدرهم سنة ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م ^(٢) ، ولم تذكر المصادر التاريخية بعد هذا التاريخ ، وحتى شهر المحرم من سنة ٨١٣ هـ / مايو ١٤١٠ م أى تفصيلات عن القيمة النقدية ، أو أسعار تبادل الفضة والدراهم الفضية .

فى الشهر المذكور ، ونتيجة للفساد النقدي الذى كانت تعاني منه الدولة بسبب الفلوس النحاسية ، وما أحدثه فسادها ، والتلاعب بأسعارها من عدم استقرار أسعار تبادل العملات فى الدولة ، ومنها الدراهم الفضية التى ارتفعت قيمتها النقدية مقابل الفلوس الى ستة أو سبعة دراهم من الفلوس لكل درهم فضى واحد ^(٣) .

ويعطى الصيرفى ^(٤) صورة أكثر وضوحاً ، عندما ذكر أن الفضة الخام عدمت نهائياً فى الأسواق ، الأمر الذى أدى الى ارتفاع قيمتها الى رقم قياسى ، فبلغ ضعف ما كانت عليه من قبل ، فوصل سعر الدرهم الواحد منها وزناً اثني عشر درهماً فلوساً ، وهذا بدوره انعكس على الدراهم المسكوكة ، فارتفعت قيمتها الى مستوى ستة أو سبعة دراهم فلوس ، وظل هذا السعر ثابتاً لم يتغير

(١) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٧ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٥٧ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ٥١ ، ابن اياس ، ص ٣٧٦ .

(٣) المقرئى ، نفسه ، ص ١٣١ .

(٤) نزهة ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

فى شهر جمادى الآخرة / أكتوبر ^(١) . وكذلك استمر بنفس المعدل فى شهر ذى القعدة / مارس سنة ١٤١١ ^(٢) . وفى شهر ذى الحجة / إبريل ترتفع الفضة الحجر الى ثلاثة عشر درهماً فلوساً ، لكل درهم موزون منها ^(٣) .

فى سنة ٨١٦ هـ / ١٤١٣ - ١٤١٤ م كان سعر الفضة (الحجر) بين أربعة عشر وخمسة عشر درهماً من الفلوس ، ولم يذكر العينى الذى أوود ذلك ^(٤) قيمة الدراهم الفضية المضروبة ، ومن المرجح مع ارتفاع سعر الفضة الخام أن تزيد قيمة الدرهم المضروب ، وأن يصل سعر تبادل الدرهم الواحد الى ثمانية أو تسعة دراهم من الفلوس تقريباً ، وفى سنة ٨١٧ هـ / ١٤١٤ - ١٤١٥ م ظلت قيمة الفضة الخام على ما هى عليه دون تغيير فيها ^(٥) .

أما فى سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ - ١٤١٦ م ، فقد حدث أن تغير الوضع النقدى تماماً مما أحدث تغييراً نقدياً كبيراً فى القيمة النقدية للدراهم الفضية . فمن ضمن الإصلاحات النقدية التى قام بها السلطان المؤيد شيخ ^(٦) ، أن أصدر دراهمه المؤيدية ، والتى كانت على نوعين درهم صغير (النصف) ، ودرهم كبير (الكامل) بهجزئيه النصف والربع ، وكان السلطان المؤيد قد عقد اجتماعاً مع القضاة والأمراء للتشاور فى الوضع النقدى للدولة ، وخلال ذلك الاجتماع ، تم

(١) العينى ، عقد ، ج ٢٥ ، ورقة ٣٠٨ .

(٢) الصيرفى ، المصدر السابق ، ٢٥٦ ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ١٦٦ .

(٤) العينى ، عقد ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ ، تحقيق القرموط .

(٥) نفسه ، ص ٢١٠ .

(٦) فضلاً أنظر الفصل السادس (سياسة سلاطين المالك النقدية) .

تحديد أسعار جديدة للدرهم الفضية على النحو التالي :

كل درهم صغير بتسعة دراهم فلوس ، وكل درهم كبير بثمانية عشر درهماً فلوساً ، والربع درهم بأربعة دراهم فلوس ونصف درهم من الفلوس ، وكانت النتيجة - كما تقول بعض المصادر التاريخية ^(١) - أن حصل رفق عظيم للناس ، وصلحت معاملتهم ، وكثرت الدراهم الفضية في أيديهم وانتفعوا بها .

لقد أصدرت الدولة مرسوماً في شهر صفر سنة ٨١٨ هـ / مايو سنة ١٤١٥ م ينظم عملية تبادل الدراهم الفضية ، وتقرر منع التعامل بالفضة الحجر ، ولا تباع الا لدور الضرب فقط ، ليتم سكها دراهم فضية ^(٢) .

لقد استمر تحديد الدولة لأسعار تبادل الدراهم الفضية ، ففي شهر جمادى الآخرة سنة ٨١٩ هـ / أغسطس سنة ١٤١٦ م يذكر المقرئى ^(٣) أن الدينار الذي كان يصرف بثلاثين نصفاً (خمس عشرة درهماً فضياً) كان في الوقت نفسه يصرف بمائتين وسبعين درهماً فلوساً ، فتكون قيمة النصف بالدراهم الفلوس تسعة دراهم ، أو ثمانية عشر درهماً من الفلوس للدرهم الكامل ،

(١) المقرئى ، النقود ، ص ٦٤ ، ابن حجر ، انباء ، ج ٣ ، ص ٥٤ ، العيني ، عقد ، ص ٢٢١ ، السيف المهند ، ص ٣٣٢ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ ، العيني ، عقد ، ص ٢٢٢ ، الصيرلى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٣٤٩ .

هذا وقد ساعد المزيد شيخ في إصار تلك الدراهم ، وجرد كميات جيدة من الفضة تولدت عن طريق تحويل الدول الأجنبية المنتشرة في أسواق الدولة كالنقود الفضية الهندية (الجرسو) ، والنقود الفضية المغولية (اللكية) وغيرها ، فضلاً أنظر :

الفصل الخامس (العلاقة النقدية) ، ٤٨٥ .

(٣) السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٦٠ .

ولكن فى الشهر التالى حدث انخفاض فى قيمة الدرهم الفضى ، وصلت معه قيمة النصف المؤدى الى ثمانية دراهم فلوس ، ويرجع ابن حجر ^(١) هذا الانخفاض الى تخفيض الدولة لقيمة الدينار الذهبى ، اذ كثرت الدراهم نتيجة ذلك ، مما خفض من قيمتها النقدية ، أما المقرئى ^(٢) ، فيذكر أنه بسبب تلك الخطوة ، ومع ثبات أسعار المبيعات خسر الناس كثيراً من أموالهم .

لقد نادى الدولة بذلك التخفيض ، وهددت من يخالف ما رسمت به ، ثم أكدت عليه ثانية فى شهر رمضان / نوفمبر ^(٣) لتستمر قيمة الدرهم على تحديد الدولة ، حتى شهر المحرم من سنة ٨٢٠ هـ / فبراير ١٤١٧ م ^(٤) ، عندما قامت الدولة بخطوة أخرى لتخفيض سعر تبادل الدرهم ، فنادت بأن يكون النصف من الفضة بسبعة دراهم فلوس ونصف ، أى كل درهم بخمسة عشر درهماً فلوساً ، وألزمت الدولة الصيارفة والمتعاملين بالعمل بهذا التحديد ^(٥) ، ولقد استمرت القيمة النقدية التى حددتها الدولة سعراً للدرهم الفضى حتى شهر ذى الحجة يناير سنة ١٤١٨ م ، عندما أمرت الدولة برفع قيمة الدرهم الى ما كان عليه من قبل خطوات التخفيض ، وهى ثمانية عشر درهماً لكل درهم فضى ^(٦) ، وما دعا الدولة الى هذا الاجراء هو محاولاتها تخفيف الضرر

(١) إنها ، ج ٢ ، ص ١٠٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٦٣ ، فضلاً أنظر أيضاً ، المعنى ، عقد ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٣) المقرئى ، نفسه ، ص ٣٦٦ .

(٤) نفسه ، ص ٣٨١ ، ابن حجر ، إنها ، ج ٣ ، ص ١٢٥ ، الصيرفى ، نزعة ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ .

(٥) المقرئى ، نفسه ، ص ٣٩٢ .

(٦) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٢٧ .

والخسارة على الناس ، بعد تخفيض النقود ، وعندما فشل هذا الحل اضطرت الى رفع قيمة الفضة بعد أن زادت خسارة الناس ، وكثر تضررهم وتوقف مصالحهم .

فى شهر صفر من السنة التالية ٨٢١ هـ / مارس من سنة ١٤١٨ م ، عادت خطوات الدولة لتخفيض قيمة الدراهم الفضية ، فنادت بتحديد سعر تبادل جديد ، وهو سبعة دراهم فلوس لكل نصف مؤيدى ، أى أربعة عشر درهماً من الفلوس لكل درهم فضى كامل ، وأصابت الناس خسارة فى أموالهم ، حاولت الدولة معالجتها بتخفيض أثمان المبيعات ، وقيم الأشياء بقدر ما خفضته من قيمة النقود ، وتشددت فى تطبيق هذا الإجراء ، مما اضطرت المتعاملين والتجار ، وأصحاب الأموال الى الامتثال لما رسمت به الدولة على كره منهم لذلك ^(١) .

لم توضح المصادر التاريخية الأسباب وراء تلك التخفيضات ، ولكن من المؤكد أن ذلك كان مصاحباً لجهود السلطان المؤيد شيخ ، ومحاولاته إرجاع أسعار تبادل العملات ، وقيمتها النقدية الى ما كانت عليه زمن السلطان الظاهر برقوق ، ولا شك فى أن ذلك قد أحدث بعض الأزمات التى واجهتها الدولة ، وخصوصاً فى كميات النحاس والفلوس النحاسية ، التى اتجهت الى النقص ، وأحدثت ضائقة نقدية فى الدولة :عالمجتها ، بجمع أكبر قدر ممكن من النحاس ، والفلوس النحاسية ، ودفعت لبعض مسئوليتها نقوداً ذهبية كثيرة ، لشراء النحاس والفلوس النحاسية من مختلف أقاليم الدولة ، كما هددت الدولة من

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ١٥٦

، الصيرفى ، نزعة ، ج ٢ ، ص ٤١٠ .

يحاول إخفاؤها ، أو تهريبها من الدولة بالعقوبة الشديدة ^(١) .

بعد عدة أشهر نادى الدولة مرة أخرى على القيمة التى حددتها ، سعراً لتبادل الدرهم الفضى ، واتخذت لمعالجة الخسارة التى ترتبت على هذا التخفيض إجراءً يتمثل بالإبقاء على الدينون القديمة وأجرة الأملاك ونفقات المالك ، على ما كانت عليه قبل المناذرة ، أى على السعر السابق ، وهو ثمانية عشر درهماً فلوساً لكل درهم فضى ^(٢) .

فى شهر شعبان / سبتمبر كانت القيمة النقدية للنصف على ما كانت عليه ، وهى سبعة دراهم فلوس ^(٣) . وكذلك فى سنة ٨٢٣ هـ / ١٤٢٠ م ^(٤) ، وأوائل سنة ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م ^(٥) ولكنها ارتفعت فى الأشهر الأخيرة منها الى خمسة عشر درهماً فلوساً لكل درهم فضى موزون ^(٦) .

لقد كان هذا الارتفاع فى قيمة الدرهم الفضى بداية لعدة ارتفاعات قادمة ، وقد كان سببه الفساد والتلاعب ، اللذان تعرضت لهما الدراهم الفضية ، فى

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٢٧ ، ٤٣٦ ، ابن حجر ، انباء ، ج ٣ ، ص ٩١ ، العيني ، عقد ، ص ٢٦٧ ، الصيرفى ، نزعة ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ٤٣٨ ، ٤٤١ ، ابن حجر ، نفسه ، ص ١٥٦ ، العيني ، نفسه ، ٣١٤ .

(٣) المقرئى ، نفسه ، ص ٤٥٥ .

(٤) العيني ، المصدر السابق ، ص ٣٨٨ ، الصيرفى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨١ .

(٥) العيني ، نفسه ، ص ٧٧ - ٧٨ ، تحقيق القرموط (رسالة دكتوراه) .

(٦) الصيرفى ، المصدر السابق ، ص ٥٢٠ ، (حدث ذلك بعد وفاة السلطان المؤيد شيخ الحمودى ، فى التاسع من المحرم سنة ٨٢٤ هـ / يناير سنة ١٤٢١ م) .

أوزانها وعباراتها من قبل الزغليين ^(١) والصيارفة وغيرهم ، ممن يسعون لإفساد النقود لمصالح مادية وقد صدر عن الزغليين دراهم من ضربهم مخلوطة بالنحاس مع فضة يسيرة ، ولا يكاد يمضى وقت قصير على تداولها حتى ينكشف زغلها ، ويظهر زيفها وفسادها ^(٢) .

لقد كانت النتيجة الطبيعية لذلك الفساد أن أصبح التعامل بالدراهم الفضية يتم عن طريق الوزن ، وبلغت القيمة النقدية لكل درهم عشرين درهماً فلوساً ^(٣) ، وذلك في شهر صفر من سنة ٨٢٥ هـ / فبراير سنة ١٤٢٢ م ، ويوضح المقرئى ^(٤) أن ما حدث ليس ارتفاعاً في قيمة الفضة ، بل هو في حقيقة الأمر انخفاض ، فكان سعر النصف الواحد من الفضة قد أصبح بخمسة دراهم فلوس ، وأقل منها بعد أن كان بسبعة دراهم فلوس ، وما يقصده المقرئى هو أن النصف (الدراهم الصغير) أصبح بعد نقص وزنه ، عن طريق قص أطرافه يزن ربع درهم قيمته خمسة دراهم فلوس بالسعر الجديد ، بعد أن كان نصف درهم ، وقيمته سبعة دراهم فلوس بالسعر القديم .

لقد ظلت القيمة النقدية للدراهم الفضى الموزون ثابتة في شهر رمضان / أكتوبر ويتضح ذلك من المثال الذى أورده المقرئى ^(٥) . ويذكر فيه أن أردب

(١) هم المتخصصون في إفساد النقود وغشها ، وحملوا هذا المصطلح في تلك الفترة وهو مأخوذ من الزغل ، أى الخلط (فضلاً أنظر الفصل السادس) .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٥٤٨ ، العينى ، عقد ، ص ٨٢ ، الصيرفى ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

(٣) حجة وقف السلطان الأشرف برسباى ، ص ٢١٥ .

(٤) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٧ .

(٥) السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٧ .

القمح بيع بمائة وخمسين درهماً من الفلوس ، عنها يومئذ سبعة دراهم ونصف فضية ، أى أن قيمة الدرهم الفضى كانت عشرين درهماً من الفلوس ، وكانت القيمة بنفس معدلها فى شهر المحرم سنة ٨٢٦ هـ / ديسمبر ١٤٢٢ م ^(١) ، وكذلك كانت فى شهر صفر / يناير سنة ١٤٢٣ م ^(٢) ، وشهر جمادى الأولى / إبريل ^(٣) ، وكانت كذلك فى سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ - ١٤٢٤ م ^(٤) ، وسنة ٨٢٨ / ١٤٢٤ - ١٤٢٥ م ^(٥) وسنة ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦ - ١٤٢٧ م ^(٦) .

لقد استمرت القيمة النقدية للدرهم الفضى على معدلها مدة طويلة حتى شهر ذى الحجة سنة ٨٤٣ هـ / مايو - يونيو سنة ١٤٣٩ م ، فيذكر المقرئى ^(٧) فى أثناء حديثه عن التطورات النقدية فى الدولة ، حتى التاريخ المذكور أن قيمة الدرهم الفضى موزوناً قد بلغت عشرين درهماً من الفلوس .

وتجدر الإشارة الى تلك التطورات التى تعرض لها الوضع النقدى فى الدولة والتى بوضحها المقرئى ^(٨) بقوله :

وأحوال الناس بديار مصر وبلاد الشام واقفة لقلّة مكاسبهم ، وقد شمل اقليم مصر و مدنها وأريافها الخراب لا سيما الوجه القبلى ، فمن شدة فقر أهله ،

(١) السلوك ، ص ٦٢٩ - ٦٣٠ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٢٩٩ .

(٢) الصيرفى ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٢٣ .

(٣) المقرئى ، المصدر السابق ، ص ٦٣٤ .

(٤) الصيرفى ، المصدر السابق ، ص ٥٦ .

(٥) المقرئى ، المصدر السابق ، ص ٦٧٨ ، العينى ، عقد ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٦) المقرئى ، نفسه ، ص ٧٤٤ .

(٧) نفسه ، ص ٩٤١ ، ٩٤٤ ، ص ١١٩٠ ، ١١٩٢ .

(٨) نفسه ، ص ٧٠٥ .

وفاقتهم وسوء أحوالهم ، لا يتبايعون الا بالغلال لعدم الذهب والفضة ، بعدما كانوا من الغنى والسعة فى غاية » .

كانت الدولة تعاني نقصاً فى حاجتها من الفضة ، حيث نتج عن انخفاض قيمتها تهريبها الى خارج الدولة طمعاً فى الكسب المالى ، كما نتج عن فسادها صهرها ، ثم تحويلها الى حلى وأواني منزلية ، خصوصاً مع ارتفاع أسعار الذهب ، وقد أدى افتقار دور الضرب فى الدولة من معدن الفضة ، الى أن يصدر السلطان الأشرف برسباى أوامره بعدم التبايع بالفضة الا مع دور الضرب ، ليعم سكها دراهم فضية ^(١) ، وقد مكنت تلك الخطوة الدولة من إصدار دراهم فضية جديدة (الدرهم الأشرفى) فى شهر ربيع الآخر سنة ٨٣٢ هـ / ديسمبر سنة ١٤٢٨ م ^(٢) ، وكغيرها من النقود المملوكية ، فقد فسدت تلك الدراهم ، ودخلها الغش الأمر الذى جعل الدولة تنادى بتداولها عن طريق الوزن ^(٣) .

وينبغى الإشارة أيضاً الى ذلك التطور الذى أدخله السلطان الأشرف برسباى على الفلوس النحاسية ، فقد قام بضرب فلوس نحاسية سنة ٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م ، امتازت بدقة وزنها وعيارها ، وتم تحديد القيم النقدية للنقود الذهبية والفضية بناء على هذا الإصدار ، فجعل الدرهم الفلوس ثمانية فلوس ، والدرهم الفضى عشرين درهماً من الفلوس ، أى مائة وستين فلساً للدرهم .

خلال تلك التطورات كانت القيمة النقدية للدرهم الفضى ثابتة حتى سنة

(١) المقريزى . السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٩٤ ، ٩٧٧ . الصيرفى ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٣٥٠ .

(٢) المقريزى . نفسه ، ص ٧٩٥ ، ٨٠٥ .

(٣) نفسه ، ص ٨٥١ - ٨٥٢ ، ابن حجر . إنبأ ، ج ٣ ، ص ٤٥٥ . الصيرفى ، المصدر

السابق ، ج ٣ ، ص ٢١٧ .

٨٤٣ هـ / ١٤٣٩ م . عندما قام السلطان الظاهر جقمق بإبطال التعامل بالدرهم الأشرقية ، وأن يتم التعامل بالدرهم الظاهرية التى استجد ضررها ، وحدد قيمة الدرهم منها بأربعة وعشرين درهماً فلوساً ، مما يعنى ارتفاعاً فى القيمة النقدية للدرهم الفضى . ولكن منع التعامل بالدرهم غير الظاهرية لم يلقى ترحيباً من المتعاملين والصيارفة وغيرهم . فاضطرت الدولة الى السماح للصيارفة فقط بقبولها بسعرها السابق ، وهو عشرون درهماً من الفلوس لكل درهم . وكان الهدف من هذا السماح . هو العمل على جمعها لدى الصيارفة ، ثم أخذها لدور الضرب ، كى يتم تحويلها الى دراهم ظاهرية ^(١) . هذا ولقد استمرت القيمة النقدية للدرهم الفضية على المعدل السابق حتى نهاية حكم السلطان الظاهر جقمق فى سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م . حيث تذكر المصادر التاريخية ذلك دون حدوث أى تغيير ^(٢) .

وخلال الفترة من ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م . وحتى سنة ٨٦١ هـ / ١٤٥٦ - ١٤٥٧ م ، لا تسعنا المصادر التاريخية بمعلومات وافية عن أسعار المبادلة ، أو القيم النقدية للدرهم مقابل الفلوس النحاسية ، ولكن الاحتمال قوى بأن القيمة النقدية قد ظلت على مستواها فى الفترة السابقة ، ولم تختلف كثيراً زيادة أو نقصاً ، وما يقوى من ذلك أن قيمة الدراهم الفضية فى سنة ٨٦١ هـ / ١٤٥٧ م كانت أربعة وعشرون درهماً فلوساً للدرهم لفضى الواحد ، لا فرق فى ذلك بين

(١) القرينى ، السلوك . ج ٤ . ص ١١٩٠ . ابن تغرى بردى . النجوم . ج ١٥ . ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٢) المعينى . عقد . ص ٤٨٤ . ابن تغرى بردى . حوادث الدهور . ج ١١ . ص ١٦ . ص ٧٥ - ٧٦ . السخاوى . التبر المسبوك . ص ٧٧ . ص ١٢٦ . ص ١٨٧ . ص ٢٣ .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم . ج ١٦ . ص ١٠٤ . حوادث . ج ٢ . ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

الدراهم بأنواعها المختلفة التي أصدرتها الدولة من ظاهرية ، وأشرفية ، ومؤيدية (١) . وقد اتسمت تلك الأنواع جميعها بالفساد والغش ، الذى أفقدها نسبة كبيرة من قيمتها النقدية ، فكان التعامل بها يتم عن طريق الوزن ، وما زادت فيه نسبة الفساد والغش فقد حاولت الدولة منع التعامل به الا أن خسارة الناس وتضررهم ومعارضتهم ، اضطرها الى المناذاة عليها باستمرار تداولها ، على أن يكون سعر تبادلها ثمانية عشر درهماً فلوساً لكل وزن درهم منها (١).

ومع استمرار الفساد النقدى فى الدراهم الفضية ، وكثرة الغش الذى داخلها ، فقد نادى الدولة فى شهر ربيع الأول سنة ٨٦٢ هـ / يناير سنة ١٤٥٨ م ، بتحديد سعر الدراهم الفضية جميعها ، تحت سعر تبادل واحد ، هو ثمانية عشر درهماً من الفلوس لكل درهم فضى موزون (٢) ، ثم أكدت عليه مرة ثانية بمناداتها به ، وتهديد من يخالفه (٣) ، ولكن خطوة الدولة لم تلق تجاوباً من قبل المتعاملين والناس ، فعقدت مجلساً ضم الفقهاء والقضاة والأعيان ، لمناقشة الأوضاع المتردية للدراهم الفضية ، وكثرة ما داخلها من الغش والفساد ، وانفض الاجتماع بالنداء ، على أن يكون سعر تبادل الدراهم الفضية المغشوشة ستة عشر درهماً فلوساً لكل وزن درهم ، أما الدراهم الفضية التى ضربتها الدولة حديثاً ، فتكون قيمتها النقدية أربعة وعشرين درهماً من الفلوس لكل درهم منها ، وتنفيذ لإجراءات الدولة ، فقد اتخذت عقوبات متشددة لمواجهة المعارضين ، الذين ضرب عدد منهم ، وعوقب عدد آخر وشهر بهم ، حتى أذعنوا لأوامر

(١) نفسه ، النجوم ، ج ١٦ ، ص ١٠٢ ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ .

(٢) ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٦ ، ص ١١٥ .

(٣) السخاوى ، الذيل على رفع الأصر ، ص ٩٧ .

الدولة وإجراءاتها ، ولم تلبث الدولة أن عدلت من إجراءاتها ، بأن تم إبطال الدراهم المغشوشة بأنواعها ، وأن من عنده شيء منها يتقدم به الى دار الضرب بواقع ستة عشر درهماً من الفلوس لكل درهم ، ويأخذ عنها دراهم فضية جديدة بواقع أربعة وعشرين فلوساً لكل درهم ^(١) .

لقد ظلت قيمة الدرهم الفضى على معدلها السابق مدة طويلة ، فتذكر بعض المصادر التاريخية أن قيمة الدرهم كانت أربعة وعشرين درهماً فلوساً لكل درهم فضى واحد ، فى كل من شهر ربيع الأول سنة ٨٧١ هـ / أكتوبر سنة ١٤٦٦ م ^(٢) ، وسنة ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ - ١٤٧١ م ^(٣) ، وكذلك فى شهر ربيع الأول من سنة ٨٧٧ هـ / سبتمبر من سنة ١٤٧٢ م ^(٤) ، هذا ولا تمدنا المصادر التاريخية المعاصرة بأى معلومات عن قيمة الدرهم النقدية حتى رمضان من سنة ٨٨١ هـ / يناير من سنة ١٤٧٧ م عندما ذكر ابن اياس ^(٥) أن الأوضاع النقدية فى الدولة سبينة للغاية ، وأن الفضة كانت فى فساد وغش جعلها التعامل بها يتم عن طريق الوزن ، وحدد لها سعر مبادلة جديد ، بلغ ستة وثلاثين درهماً فلوساً لكل درهم فضى موزون ، ويبدو أن الأمر قد التبس على المؤرخ ابن اياس فى قيمة الدرهم النقدية ، اذ المرجح أن مبلغ الستة وثلاثين درهماً فلوساً كان لسعر الرطل من الفلوس - وهو ما كان عليه فى تلك الفترة - ^(٦) وما يؤيد خطأ هذا الرقم ما ذكره السخاوى ^(٧) ضمن حوادث سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦ -

(١) ابن تغرى بردى ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ ، ٣١٢ .

(٢) نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٣٠ .

(٣) الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ١٨٧ .

(٤) نفسه ، ص ٤٨٢ .

(٥) بدائع ، ج ٣ ، ص ١٢١ .

(٦) ابن اياس ، بدائع ، ج ٣ ، ص ١٢١ .

(٧) الذيل التام ، ص ٣٥٢ .

١٤٨٧ م من أن الفضة الجديدة - أى الدرهم الفضى الجديد - كانت بأربعة وعشرين درهماً فلوساً ، مع أنها كانت عزيزة الوجود لا يكاد يوجد منها شئ فى الدولة ، الأمر الذى أدى الى توقف الضرب عن إصدارها .

هذا وقد واصلت الدراهم الفضية ارتفاعها مع استمرار تدهور النظام النقدى المملوكى ، وفساد العملات ، فبلغت قيمة الدرهم الفضية سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٨٠ م ثمانية وعشرين درهماً من الفلوس ^(١) ، ثم زاد كثيراً فى سنة ٩١٨ هـ ١٥١٢ م ليصل سعر تبادل الدرهم الفضى الى أربعين من الفلوس ^(٢) . ونظراً لهذا الارتفاع الكبير فى سعر تبادل الفضة تدخلت الدولة لتخفيض السعر وتحديدده ، فتسودى بأن يتم التعامل بواقع اثنين وثلاثين درهماً من الفلوس التى استجد ضربها السلطان ، لكل درهم فضى واحد ، وذلك سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م ^(٣) .

وهكذا يتبين لنا القيمة النقدية التى كانت عليه الفضة أو الدراهم الفضية فى العصر المملوكى .

٥ - القيمة النقدية للفلوس النحاسية

من خلال دراسة القيم النقدية للدراهم الفضية المملوكية يتبين لنا جانب كبير من القيم النقدية للفلوس النحاسية مقابل الدراهم ، وفى هذه الدراسة أكمل ما عساه أن يكون مكملاً لقيم الفلوس النقدية التى سبق عرضها من خلال الحديث

(١) ابن ايماس . المصدر السابق . ج ٣ . ص ٣٩٥

(٢) نفسه . ج ٤ . ص ٣٢٧

(٣) نفسه . ج ٥ . ص ٥٢ .

عن القيم النقدية لكل من الدنانير والدراهم ، ولكن قبل الشروع فى هذه الدراسة ، وتوضيح التطورات المختلفة ، لأسعار تبادل الفلوس يجب الإشارة الى عدة ملاحظات تعد جزءاً من تلك التطورات ليتمكن بعد عرضها من توضيح الصورة كاملة عن القيم النقدية للنقود النحاسية المملوكية ، وما تعارضت له من ظروف .

أولى تلك الملاحظات ما يقرره المقرئى ^(١) بذكره لحقيقة ثابتة هى أن الفلوس النحاسية قبل سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م لم تقم أبداً بمنزلة أحد النقدين (الذهب والفضة) ، ولم تستخدم الا للمحقرات من عمليات البيع والشراء (العمليات التجارية البسيطة) ، والتي تقل مبالغها عن درهم واحد ، أو أجزائه كالنصف والرابع .

واذ كان ما ذهب اليه المقرئى ليس دقيقاً من حيث التحديد الزمنى لبروز الفلوس النحاسية ، فإنه دقيق بالنظر الى القيمة النقدية لتلك الفلوس ، فالفلوس النحاسية فى العهد المملوكى البحرى لم يكن لها أى قيمة نقدية تذكر ^(٢) ، بعكس العهد المملوكى المجرى ، وبالأزمنة منذ سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م ، حيث أصبحت الفلوس ذات قيمة نقدية تبنى على أساسها القيم النقدية للعملات الأخرى وقيم الأشياء .

أما ثانية تلك الملاحظات ، فقد سبق القول أن الفلوس النحاسية على

(١) النقود ، ص ٦٦ - ٦٧ .

(٢) من الناحية الشرعية لم يكن هناك نسبة إبدال ثابتة ، أو قيمة نقدية للفلوس ، وقد أتاح ذلك إصدار فلوس نحاسية غير ثابتة الوزن والقياس طوال العصر المملوكى . الأمر الذى أدى الى حدوث أزمنة نقدية كثيرة بسبب ذلك .

نوعين : مطبوعة وغير مطبوعة ، وما أحب إضافته هنا هو أن الفلوس المطبوعة هي ما عبرت عنه المصادر التاريخية بالفلوس (الجدد) ، والتي تتحول بعد فترة الى الفلوس (العتق) ، وهي غير المطبوع ، فالفلوس في بداية أمرها تكون حديثة الصدور واضحة المعالم ، وبالذات ختم الدولة الرسمى ، وبسبب رداءة ضربها وعدم نقاء معدنها ، وما داخلها من الغش والتزييف يحى منها ختم الدولة ، فتصبح وكأنها من غير سكة ، فيطلق عليها عندئذ مصطلح (العتق) ، وقد جرت العادة في الدولة المملوكية على أن الفلوس الجدد يتم التعامل بها عدداً ، وعندما تصبح فلوساً عتقاً ، فإنه يتم التعامل بها عن طريق الوزن ، لأن الوزن في هذه الحالة يكون أكثر دقة في تحديد القيمة النقدية للفلوس ، والعصر المملوكى بعهديه يزخر بأمثلة عديدة على استخدام الوزن طريقة لتحديد سعر تبادل الفلوس النحاسية .

ومن الملاحظة الثالثة ، فهي أن القيمة النقدية للفلوس النحاسية كانت تختلف بين الجدد والعتق ، وعادة يكون هذا الاختلاف عند تداول إصدار جديد من الفلوس ، حيث تقوم الدولة بالمناداة على التى قبلها أن يتم التعامل بها بالوزن ، وتخفيض قيمتها النقدية ، هذا وقد أتاح عدم وجود قيمة إبدال ثابتة بين الدراهم ، والفلوس النحاسية ، الفرصة لبعض سلاطين الدولة - وخصوصاً فى عهدها الجركسى - فى تحديد نسب إبدال تحقق لهم أرباحاً طائلة دون النظر الى اتباع تنظيم يقوم على مراعاة البلاد والعباد ، وعدم الاضرار بهم .

أما عن أهم الملاحظات وأخرها ، فهي أيضاً عن القيمة النقدية للفلوس

النحاسية ، فعن الأصل فى هذه القيمة يقول المقرئى (١) :

«إن المئقال يصرف بأربعة وعشرين درهماً من الفضة المعاملة ، ويؤخذ بالأربعة والعشرين درهماً من الفضة ثلاثة وعشرون رطلاً وثلاث رطل من الفلوس ، التى تعد فى كل درهم من الفضة المعاملة منها نحو مائة وأربعين فلساً .

فالقيمة النقدية الصحيحة هى : أن كل أربعة وعشرين درهماً فضياً تعادل ثلاثة وعشرين رطلاً وثلاث رطل من الفلوس ، هذا إذا كان التعامل بالفلوس يتم وزناً ، أما إذا كان يتم عدداً ، فإن كل درهم من الفضة نحو مائة وأربعين فلساً ، وكل رطل من الفلوس وزناً يعادل مائة وأربعة وأربعين فلساً وعشرين بالمائة من الفلوس عدداً .

ولكن هل سارت الدولة المملوكية على هذه القيمة ؟ إن تطورات أسعار التبادل لا تشير الى الالتزام بذلك ، وإنما تشير الى أن الفلوس النحاسية عند إصدارها يتم تبادلها عدداً ، حتى إذا ما دخلها الفساد والغش تحول تبادلها الى الوزن بالرطل (١) ، وكان تقدير قيمة الرطل فى العهد المملوكى البحرى ، وأوائل

(١) الرطل بكسر الراء ، وفتحها استعمل كوحدة وزن للموزونات من المهبوب ونحوها ، شاع استعماله وحدة لوزن النقود النحاسية فى العصر المملوكى ، ويختلف مقداره من إقليم الى آخر ، وينظر اليه بشكل عام على أنه ائنتى عشرة أوقية ، وهو فى مصر مائة وأربعة وأربعون درهماً ، فكل أوقية اثنى عشر درهماً .

(انتقاس الكرملى ، النقود ، هامش رقم (١) ص ٢٦ . محمد أحمد الخاروف ، هامش رقم (٦) ص ٥٥ كتاب الابضاح والتهيان فى معرفة المكبال والميزان لاهن الراعية الانصارى) .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١١١١ ، ص ٩٤٢ .

العهد المملوكى الجركسى بالدرهم الفضية . ثم أصبح تقدير قيمته بواسطة الدراهم الفلوس ، حتى نهاية العصر المملوكى ، والدرهم الفلوس تم حسابه على على أساس أربعة وعشرين فلساً^(١) منذ بدئ باستخدامه حتى سنة ٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ - ١٤٣٥ م ، حيث تغير حسابه الى ثمانية فلوس لكل درهم فلوس^(٢) ، ولقد استمر ذلك التقدير حتى شهر ذى الحجة من سنة ٨٧٩ هـ / أبريل - مايو من سنة ١٤٧٥ م ، عندما تغير الى أربعة فلوس فقط لكل درهم فلوس واحد^(٣) .

أما تبادلها بالعدد ، فقد كان على أساس ثمانية وأربعين فلساً لكل درهم فضى حتى سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ - ١٢٩٦ م ، وفى بعض الفترات حتى سنة ٧٥٩ هـ / ١٣٥٧ م عدل سعر تبادلها مع الدرهم الفضى ليصبح أربعة وعشرين فلساً لكل درهم فضى ، وقد استمر هذا التقدير حتى أوائل العهد المملوكى الجركسى ، عندما بدأ العمل بحساب الدراهم الفلوس ، فى الوقت نفسه كثر التعامل بالفلوس النحاسية عن طريق الوزن .

وفى التفصيل التالى نلقى الضوء على جميع تلك التطورات التى حدثت للقيم النقدية للفلوس وزناً وعدداً ، وما مرت به من تغييرات مختلفة ، منذ قيام دولة المماليك كانت القيمة النقدية للفلوس النحاسية تقوم على أساس أن كل ثمانية وأربعين فلساً نحاسياً بدرهم واحد من الفضة^(١) ، ولقد استمر ذلك حتى سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ - ١٢٩٦ م ، عندما كثر الفساد والاضطراب فى

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١١١١ ، ص ٩٤٢ .

(٢) نفسه ، ج ٤ ، ص ٩٤١ ، ص ١١٩٠ .

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

الفلوس النحاسية ، ورفضها المتعاملون والتجار بسبب ذلك ، مما اضطر الدولة الى المناداة بالتعامل بها وزناً ، كل رطل منها بثلاثة دراهم فضية ^(٢) ، وعندما كثر اعتراض المتعاملين على هذا التقدير ، عدل سعر الرطل الواحد منها الى درهمن فضيين ^(٣) .

ولكن الى متى استمر تبادل الفلوس النحاسية عن طريق الوزن ؟ للأسف ، فالمصادر المملوكية لا توضح لنا تطورات الأسعار أولاً بأول ، ولكن ما ذكرته هو إشارات عن التعامل بالفلوس عن طريق الوزن ، مع ذكر قيمة الرطل الواحد منها .

فتذكر بعض المصادر ^(٤) أنه في سنة ٧٠٥ هـ / ١٣٥٥ - ١٣٠٦ أصدرت الدولة فلوساً نحاسية جديدة ، ورسمت بالتعامل بها وزناً كل رطل منها بدرهمن ونصف درهم فضي كما تذكر مصادر أخرى ^(٥) أنه في سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠م سامت الفلوس النحاسية كثيراً ، وكثر فيها الزغل وخفة الوزن ، فاضطرت أحوال

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٣ ، ورقة ٤٧٤ ، المقرئ ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٩ ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٩ ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣١٧ .

(٢) السيوطي ، حسن ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ ، المناوي ، النقود ، ص ١٠٨ .

(٣) المقرئ ، إغاثة ، ص ٣٧ ، ص ٧١ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٨١٠ ، السيوطي ، نفسه ، المناوي ، نفسه .

(٤) المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٧ .

(٥) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٣ ، ورقة ٤٧٤ ، المزلف المجهول ، تاريخ سلاطين الماليك ، ص ١٣٢ ، المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١٧ .

أحوال الناس ، وتوقفت العمليات التجارية فى أسواق الدولة لاضطراب أسعار تبادل العملات وتقلباتها ، فأبطل التعامل بها عدداً ، وأصبح وزناً كل رطل منها بثلاثة دراهم فضية ، فى الوقت الذى قامت فيه الدولة بإصدار فلوس نحاسية جديدة خالية من الفساد والغش ، وطرحتها للتداول على أساس القيمة الثابتة للفلوس ، وهى كل ثمانية وأربعين فلساً بدرهم فضى ، وكان المتعاملون قد اعتبروا على ارتفاع قيمة الرطل من الفلوس ، وتوقفوا عن التعامل بها ، فاضطرت الدولة الى تخفيض القيمة الى درهمن ونصف درهم فضى لكل رطل من الفلوس ، وذلك فى المحرم سنة ٧٢١ هـ فبراير ١٣٢١ م ^(١) ، واستمرت المعارضة لتلك القيمة فأبطلت الدولة التعامل بالفلوس القديمة (العتق) ، مما زاد من معارضة الناس لخسارتهم واضطراب أحوالهم ، فبيع الرطل بدرهم ونصف من الفضة ، فنادت الدولة من كان عنده شئ منها ، فليحمله الى دار الضرب حساباً عن كل رطل درهمان ، ثم نادى الدولة ثانية بأن يتم التعامل بالفلوس العتق كل رطل بدرهمن .

ولكن لم يستمر الحال اذ سرعان ما فسدت الفلوس الجديدة (الجدد) ، فكثرت قصها وغلطها ، فعادت أزمة الفلوس من جديد ، فنودى فى شهر رجب / أغسطس بتبادل الفلوس بنوعيتها على أساس الرطل بدرهمن ونصف درهم فضى ، واستمر الوضع حتى سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٣ م ، عندما أصدرت الدولة فلوساً نحاسية جديدة ، وتعامل الناس بها الى جانب الفلوس العتق التى أبطل التعامل بها فى شهر ربيع الأول / مارس ١٣٢٤ م ، واستقرت الأحوال بذلك ^(٢) .

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ورقة ٢ ، البوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ .

(٢) النويرى ، نفسه ، ورقة ١٥ ، ابن بهادر ، فتوح النصر ، ورقة ٢٤٧ - ٢٤٨ ، المناوى ، النقود ، ص ١٠٨ ، السيوطى ، حسن ، ج ٢ ، ص ٣٠١ .

وفى سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م كان التعامل بالفلوس النحاسية عن طريق الوزن ، ولم يذكر المقرئى^(١) الذى أورد ذلك رقماً للقيمة النقدية التى كان عليها الرطل من الفلوس النحاسية .

وفى سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ - ١٣٤٠ م تذكر بعض المصادر التاريخية^(٢) أن وضع الفلوس النحاسية كان سيئاً ، إذ كانت تعاني من الاضطراب والفساد الذى أثر على أسعار تبادل العملات ، وعلى الوضع النقدى عموماً . كما تذكر بعض المصادر التاريخية^(٣) أن تبادل الفلوس النحاسية قبل سنة ٧٥٩ هـ / ١٣٥٣ - ١٣٥٨ م كان عن طريق الوزن ، وكان كل رطل ونصف منها بدرهم فضى ، ويبدو أن أوضاع الفلوس النحاسية لم تتحسن منذ سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ - ١٣٤٠ م ، وأن قامت به الدولة سنة ٧٥٩ هـ / ١٣٥٧ - ١٣٥٨ م من ضرب فلوس نحاسية جديدة ، وتغيير النظام لسعرى لتلك الفلوس بجعل كل أربعة وعشرين فلساً بدرهم فضى بدل الثمانية والأربعين التى كان التعامل بها قبل ذلك ، وجعل قيمة الفلوس العتق وزناً كل رطل منه بدرهم ونصف بعد أن كان بدرهمين ، لهو دلالة على إصلاح نقدى أجرته الدولة على تلك الفلوس بعد أن طالت أزمته ، وتأثيراتها على الأوضاع الاقتصادية^(٤) .

المهم أن سعر تبادل الفلوس النحاسية قد استمر على أربعة وعشرين فلساً حتى سنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ - ١٣٨٢ م ، عندما أصدرت الدولة ثلاثة أنواع

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٢) ابن بهادر ، فتوح النصر ، ورقة ٢٨٩ .

(٣) مرعى يوسف ، نزهة الناظرين ، ورقة ٣٧ أ ، المناوى ، النقود ، ص ١٠٨ .

(٤) ألبوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٢٨٨ ، ابن بهادر ، المصدر السابق ، ورقة ٢٨٩ .

المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٩١ ، ص ٧١٩ ، ص ٧٧١ .

من الفلوس : نوع كل أربعة فلوس بدرهم فضى ، ونوع كل ثمانية فلوس بدرهم ، ونوع كل ثمانية وأربعين فلساً بدرهم ، ويعنى آخر أعيد سعر تبادل الفلوس السابق القائم على ثمانية وأربعين فلساً لكل درهم فضى ، ولكن يبدو أن هذا التعديل فى أنواع الفلوس وقيمتها النقدية لم يستمر أكثر من يوم واحد فقط ، حيث ألغى ذلك ، وعادت القيمة النقدية للفلوس على وضعها السابق ، أى أن كل أربعة وعشرين فلساً بدرهم فضى ، وقد استمر ذلك حتى تاريخ سابق لشهر جمادى الآخرة من سنة ٨٠٥ هـ / ديسمبر من سنة ١٤٠٢ م ، حيث تم التعامل بالفلوس عن طريق الوزن ، وارتفعت قيمتها فى التاريخ المذكور ليصل سعر الرطل الواحد منها الى ستة دراهم فلوس^(١) ، (أى درهمن وستين بالمائة من الدرهم الفضى) ، وهذا يعنى ارتفاعاً فى قيمة الفلوس النقدية ، وقد أوضح المقرئى^(٢) أن سبب ذلك يعود الى ما تعانیه الفلوس من تناقص مستمر فى أوزانها والتلاعب فى أسعارها من قبل الدولة لكان لذلك أثره فى ارتفاع أسعار تبادل النقود الأخرى (الذهبية والفضية) ، وارتفاع أثمان المبيعات ، وقد أدى هذا بالتالى الى ارتفاع قيمة الفلوس مجازاة لذلك الارتفاع

ومن الجدير بالذكر أن المصادر المملوكية لم تورد منذ سنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ - ١٣٨٢ م ، وحتى نهاية عصر دولة المماليك أى مؤشر لأسعار تبادل الفلوس النحاسية عن طريق العدد ، وما دأبت على ذكره هو إيراد ذكر تلك الأسعار للفلوس الموزونة فقط ، ومن المؤكد أن التبادل بالعدد لم يتوقف منذ ذلك التاريخ ، إذ أن ذلك مرهون بإصدارات جديدة من الفلوس ، وتلك الإصدارات لم

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٥٣ - ٤٥٤ ، ابن حجر ، انباء ، ج ١ ، ص ٢٣٤ .

(٢) السلوك ، ج ٣ ، ص ٩٨ - ١٠١ ، ص ١١٣٣ .

تنقطع طوال العصر المملوكى ، ولكن يبدو أن التعامل بالعدد لم يكن مرغوباً فيه ، لأن ما أصدره السلاطين فى تلك الفترة من فلوس لم يكن خالياً من الفساد بنقص أوزانها ، أو عدم ضبط عيارها ، إضافة الى سرعة ما يداخل تلك الفلوس الجديدة من فساد بمجرد تداولها لفترة قصيرة ، وكثيراً ما نجد الدولة تنادى بعد وقت قصير من إصدارها لفلوس نحاسية جديدة ، بتداولها عن طريق الوزن ، فهذا هو الأسلوب الوحيد لحل مشكلة نقص الفلوس عن أوزانها الأصلية .

ظل سعر الرطل من الفلوس فى سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ - ١٤٠٤ م على مستواه السابق ، وهو ستة دراهم فلوس^(١) ، وبعد أكثر من عام ، وبالتحديد فى شهر ذى الحجة سنة ٨٠٧ هـ / يوليو سنة ١٤٠٥ م حاول الأمير يلبغا السالمى^(٢) أن يخفض من سعر رطل النحاس درهمين ليصبح بأربعة دراهم فلوس ، ولكن محاولته رفضت فى حينها ، واعترض عليه سلطان الدولة الناصر فرج المدعوم من قبل بعض أمراء الدولة ، فاستمرت قيمة الفلوس على حالها السابق^(٣) .

والواقع أن السالمى أراد تحدى السلطان ، ومن معه من الأمراء المعارضين له بتخفيض سعر الفلوس كى لا يجنسوا من المتاجرة بها ، والتلاعب بأسعارها أية أرباح مادية ، وهذا ما أدى الى معارضته بقوة ، وتهديده الذى انتهى

(١) المقرئى ، السلوك . ج ٣ ، ص ١١١٧ ، ابن اياس . بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٨٣

(٢) فضلاً أنظر ترجمته ص ٢٣٣ هامش رقم (١) .

(٣) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١١٥ ، ص ١١٦١ ، ١١٦٣ ، ابن حجر ،

إنها . ج ٢ ، ص ٢٩٧ .

باعتقاله . ومن سجنه ثم موته ^(١) .

استمر سعر التبادل للفلوس الموزونة ثابتاً لم يتغير حتى شهر المحرم من سنة ٨١٣ هـ / مايو من سنة ١٤١٠ م ^(٢) ، ولكن فى الشهر التالى ، ولرغبات مادية بحتة ، ولطمع من جانب السلطان الناصر فرج ارتفع سعر رطل الفلوس بدرجة عالية ، وصل معها الى اثنى عشر درهماً فلوساً ^(٣) .

ويوضح المقرئى المصلحة الذاتية للسلطان فى رفع أسعار الفلوس بقوله ^(٤)

«وهو أن السلطان اشترى نعالاً للخيول ، وسك حديداً لأجل السفر ، فحسب ثمنها كل رطل باثنى عشر ، فقال ، هذا غبن أن يكون الحديد الأسود باثنى عشر درهماً للرطل ، والنحاس المصفى المسكوك كل رطل بستة دراهم ، ووجد عنده عشرة آلاف قفة من الفلوس ، زنة كل قفة مائة رطل منها ستمائة درهم قد حملت الى القلعة لتنفق فى الممالك عند السفر الى الشام ، فأراد أن يجعل الرطل الفلوس بخمسة عشر ليعطى القفة الفلوس التى حسبت عليه بستمائة فى الفضة بألف وخمسمائة ، وتخيل فى ذلك ربحاً عظيماً الى الغاية ، وخشى ألا يتمشى له هذا ، فرسم أن يكون الرطل باثنى عشر درهماً ، ثم رجع عنه الى

(١) يظهر لنا من هذا الحدث ما تعرضت له النقود من فساد على أيدي أمراء الدولة وبعض سلاطينها ، فضلاً أنظر الفصل السادس (الفساد النقدي) .

(٢) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٧ ، ص ٥١ ، ص ١٣١ ، ابن حجر ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٨ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ ، ٢٧٧ ، ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٥٦ .

(٣) العبنى ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ، ورقة ٣٠٨ ، ابن حجر ، نفسه ، ص ٤٦١ ، الصيرفى ، نفسه ، ص ٢٦٤ .

(٤) السلوك ، ج ٤ ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

تسعة ثم الى ستة . وسبب رجوعه تنمر المماليك عليه ، ليفتنهم بما أراده من الفائدة عليهم ، وحدثوه غير مرة فلم يجد بداً من عود الأمر الى حاله خشية نفوذهم عنه وقت حاجته اليهم .

وكما يذكر المقرئى ، فقد تراجع السلطان عن طمعه ، وأعاد سعر رطل الفلوس الى ما كان عليه ، وهو ستة دراهم فلوس ، واستمرت تلك القيمة ثابتة فى شهر جمادى الآخرة / أكتوبر ^(١) ، وكذلك فى شهر ذى الحجة / مارس - أبريل سنة ١٤١١ م ، وظلت كذلك فى شهر المحرم من سنة ٨١٤ هـ / أبريل من سنة ١٤١١ م ^(٢) ، واستمرت أيضاً فى شهر ربيع الآخر / يوليو ، ويذكر المقرئى ^(٣) أن الدولة فى هذه الفترة كانت تعاني نقصاً فى النحاس والفلوس النحاسية ، ولمعالجة ذلك قامت بإجراءات سيئة ضد التجار ، وأصحاب الأموال ممن تعتقد امتلاكهم لكميات من تلك الفلوس ، فهاجمت محلاتهم التجارية واستولت على ما فيها من فلوس رغماً عنهم ، حتى أنها قامت بشراء كميات من الفلوس ، وكانت تدفع عن كل دينار مائتى درهم فلوس بينما كان سعره مائة وتسعين درهماً فلوساً ، ولكن فى اعتقادى أن الأزمة لم تكن فى نقص الفضة بقدر ما هى فى سياسة الناصر فرج ، وحاشيته من الأمراء الذين يزينون له المتاجرة بأسعار النقود ، والتلاعب بها رغبة فى الربح المادى ، وجمع الثروة ، ويؤيد ذلك ارتفاع سعر الفلوس النحاسية بدرجة كبيرة فى شهر ذى القعدة / فبراير مارس ١٤١٢ م ، اذ وصل الى اثنى عشر درهماً فلوساً لكل رطل من

(١) العينى ، عقد ، ج ٢٥ ، ورقة ٣٠٨ .

(٢) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٦٦ ، ١٧٣ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ .

(٣) السلوك ، ج ٤ ، ص ١٨٣ .

الفلوس ، ونتيجة لذلك تأثر الوضع الاقتصادى فى الدولة ، وأغلقت المحلات التجارية من حوانيت وغيرها ، وقد جابهت الدولة هذه المعارضة بكل قسوة وشدة وغير مكترثة بما سببته من خسارة مالية كبيرة ، وضرر مبالغ للمتعاملين من التجار والعامة معا^(١) .

هذا وبعد أن حقق الناصر فرج وأعوانه أرباحهم المالية نودى فى شهر ذى الحجة / أبريل أن يعود سعر الفلوس كما كان عليه قبل الزيادة أى بستة دراهم فلوس كل رطل^(٢) .

ولم يرد فى المصادر المملوكية حتى شهر جمادى الآخرة سنة ٨١٩ هـ / أغسطس سنة ١٤١٦ م ما يوضح القيمة النقدية التى كانت عليها الفلوس النحاسية ، ولكن المرجح أنها حافظت على قيمتها فى تلك الفترة من حكم السلطان المؤيد شيخ ، الذى امتاز بشبه استقرار للوضع النقدى ، نتيجة الإصلاحات النقدية التى قام بها ، كما لم يرد فى مصادر الفترة ما يفيد حدوث ذلك ، ويذكر بعضها^(٣) أن القيمة كانت ستة دراهم فلوس لكل رطل ، عندما نادى الدولة على الفلوس أن يكون الرطل منها بخمسة دراهم فلوس ونصف ، واستمر ذلك حتى شهر المحرم من العام التالى ٨٢٠ هـ / فبراير سنة ١٤١٧ م ، عندما عادت الدولة عن تحديداتها ، وأرجعت الرطل من الفلوس الى مستواه

(١) نفسه ، ص ١٩٥ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ - ٤٨٨ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ص ١٩٦ ، ابن حجر ، نفسه ، ص ٤٨٨ ، العبنى ، عقد ، ج ٢٥ ، ورقة ٣٤١ ، الصيرفى ، نفسه ، ص ٢٩٢ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٦٣ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ١٠٠ ، العبنى ، عقد ، ص ٢٨١ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٣٨٣ .

السابق ، والبالغ ستة دراهم فلوس لكل رطل ، وقد خسر الناس والتجار كثيراً من أموالهم ، بسبب ذلك الانخفاض الذى أصاب العملات جميعاً ، ولقد استمر السعر السابق خلال شهر رمضان / أكتوبر - نوفمبر حيث أكدت الدولة للمرة الثانية تحديد سعر مبادلة الفلوس النحاسية وحرصها على تثبيت أسعار استبدال النقود (١) .

وتكرر تأكيد الدولة للقيمة السابقة فى شهر ذى القعدة / ديسمبر - يناير سنة ١٤١٨ م ، عندما نودى أن كل رطل ونصف من الفلوس بنصف درهم مزيدي (٢) - كان النصف بتسعة دراهم من الفلوس ، فيكون الرطل بستة دراهم فلوس - وما تحذر الإشارة إليه أن الدولة فى تلك الأثناء كانت تعاني من نقص كبير فى النحاس والفلوس النحاسية ، فعملت على شراء النحاس والفلوس النحاسية ، وخصصت لذلك مبلغ مائتى ألف دينار ، ونودى فى الدولة من كان عنده فلوس ، فليحملها الى خزينة الدولة ، ومن امتنع عن ذلك عوقب أشد عقاب (٣) .

ومع حدوث ذلك النقص ، فقد ظلت قيمة الرطل من الفلوس على معدلها السابق فى سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ - ١٤١٩ م ، وكان لموقف الدولة ، وتشدها

(١) المقرئى ، نفسه ، ص ٣٨١ ، ابن حجر ، نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ، ابن الهيثم ، بناتع ، ج ٢ ، ص ٢٨ .

(٢) كان هذا التقدير بالدرهم الفضية من بين الإجراءات التى قام بها السلطان المزيدي شيخ لارجاع الأوضاع النقدية الى ما كانت عليه زمن السلطان الظاهر برقوق ، وإعادة التعامل بالدرهم الفضية ، وجعلها أداة التقدير والدفع .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٧ - ٤٢٨ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ١٤٣ ، العيني ، عقد ، ص ٣٠٢ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٤٠٠ .

مع التجار الصيارفة أثره فى استقرار سعر الفلوس ^(١) . ولقد استمر سعر الرطل على النحو السابق ثابتاً عدة سنوات . حيث تذكر بعض المصادر التاريخية ^(٢) ذلك خلال سنة ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م . ولكن ارتفع السعر ارتفاعاً ملحوظاً سنة ٨٢٦ هـ / ١٤٢٢ م ، بسبب النقص الكبير فى الفلوس النحاسية ، إضافة الى فسادها ، وغشها مما اضطر الدولة الى تحديد سعرين متبادلين للفلوس النحاسية ، سعر للفلوس التى لم تخلط بقطع الحديد والرصاص ، وغيرهما من المعادن رخيصة الثمن ، ومبلغ هذا السعر سبعة دراهم فلوس لكل رطل ، أما السعر الآخر فهو للفلوس غير الخالصة ، والتى خلطت بتلك المعادن ، ومبلغه خمسة دراهم فلوس لكل رطل منها ، وكانت قبل ذلك بأربعة دراهم فلوس كل رطل .

هذا ويعود نقص الفلوس الجيدة الخالصة من الغش الى تهريبها خارج الدولة . نظراً لرخصتها داخل الدولة ، وارتفاع أسعارها ، وأسعار النحاس فى الخارج . ومن لم يتمكن من تهريبها خارج الدولة عمل على صهرها ، وتحويلها الى أوان منزلية حفاظاً على جودتها ، وطلباً لأسعار مرتفعة فيها ^(٣) .

وبعد أن زادت الأمة سوءاً بسبب نقص الفلوس النحاسية عدلت الدولة أسعار تبادلها فى شهر رمضان / أغسطس - سبتمبر سنة ١٤٢٣ م فرفعت من سعرها حرصاً على اخراجها وتكثيرها فى الأسواق ، فجعلت سعر الرطل للفلوس الجيدة

(١) المقرئى ، نفسه . ص ٤٣٧ . ص ٤٤١

(٢) نفسه . ص ٥٤٨ . العبنى . المصدر السابق . ص ٥٦ - ٥٧ (القموط . رسالة)

الصيرفى . المصدر السابق . ج ٢ . ص ٥٢٠ .

(٣) المقرئى . نفسه . ص ٦٢٩ - ٦٣٠ . ابن حجر . المصدر السابق . ج ٣ . ص ٢٩٩

العبنى . نفسه . ص ٨١ . الصيرفى . نفسه . ج ٢ . ص ٢٣ - ٢٤ .

تسعة دراهم فلوس ، وأبطلت الفلوس غير الجيدة ، وهددت من يخالف ذلك ^(١) ، واستمرت القيمة على معدلها لفترة امتدت نحو سنتين ، حيث كانت على السعر السابق ، فى شهر المحرم من سنة ٨٢٨ هـ / نوفمبر من سنة ١٤٢٤ م ^(٢) ، ولكن فى نهاية ذلك العام ، وبالتحديد فى شهر ذى القعدة / أكتوبر سنة ١٤٢٥ م ، نادى الدولة عليها بأن يكون الرطل بائنى عشر درهماً من الفلوس . نظراً للنقص الخطير فى اعداد الفلوس النحاسية ، وعدم توفر النحاس فى الدولة ^(٣) ، وأضيف نقص الفلوس فى الدولة الى نقص الدنانير والدرهم ، ليحدث ذلك أثراً سلبياً فى اقتصاديات الدولة ، وأوضاعها الداخلية الأمر الذى حتم على الدولة ، المتعاملين اتباع نظام المقايضة ، ونصف المقايضة ، لعقد صفقاتهم التجارية ، وتنشيط الحالة التجارية التى اتجهت نحو الركود فى مختلف أسواق الدولة .

ظل سعر تبادل الفلوس ثابتاً على اثنى عشر درهماً فلوساً لكل رطل خلال شهر المحرم سنة ٨٢٩ هـ / نوفمبر سنة ١٤٢٥ م ^(٤) ، ولكن فى ظل ازدياد ازمة نقص النحاس ، وعدم فعالية الخطوات التى اتخذتها الدولة ارتفعت قيمة الرطل من الفلوس النحاسية فى شهر ربيع الآخر سنة ٨٣٢ هـ / ديسمبر سنة ١٤٢٨ م ، حيث نادى الدولة بأن يكون سعر الرطل من الفلوس الموزونة (العق) بثمانية

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٤١ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٣٠٨ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ص ٦٧٨ ، العيني ، عقد ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٦٩ .

(٣) المقرئى ، نفسه ، ص ٦٩٨ ، ابن حجر ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٤٨ ، العيني ، نفسه ، ص ١٥٩ ، الصيرفى ، نفسه ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(٤) المقرئى ، نفسه ، ص ٧٠٥ ، الصيرفى ، نفسه ، ص ١٠٦ .

عشر درهماً فلوساً^(١) ، واستمر السعر بنفس معدله فى شهر المحرم سنة ٨٣٦ هـ / سبتمبر سنة ١٤٣٢ م^(٢) ، وكذلك فى شهر شعبان سنة ٨٣٧ هـ / مارس - ابريل سنة ١٤٣٤ م^(٣) ، وفى السنة التالية ٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ - ١٤٣٥ م استمرت القيمة بنفس معدلها للفلوس العتق ، ولكن رفعت الدولة سعر الرطل من الفلوس التى استجذت ضربها ، فجعلت كل رطل منها بأربعة وعشرين درهماً من الفلوس ، ثم ارتفع السعر فى شهر شعبان / مارس ١٤٣٥ م الى سبعة وعشرين درهماً فلوساً لكل رطل ، ويعود السبب فى هذا الارتفاع الى استمرار أزمة نقص النحاس ، واستمرار تهريبه خارج الدولة^(٤) .

ونظراً لذلك اضطرت الدولة الى إجراء تعديل نقدى فى الفلوس النحاسية يقوم على ضرب فلوس نحاسية جديدة دقيقة الوزن والعيار ويتم تبادلها ، والتعامل بها عن طريق العدد لا الوزن ، وحددت الدولة سعر الفلوس على أساس أن كل درهم فلوس يعادل ثمانية فلوس جدد ، وعند الرغبة فى التعامل بها عن طريق الوزن ، قدر الرطل الواحد منها بسبعة وعشرين درهماً من الفلوس^(٥) .

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٩٤ ، ابن حجر ، انبا ، ج ٣ ، ص ٤١٩ ، العينى ،

عقد (حوادث سنة ٨٣٢ هـ) ، ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، الصيرفى ، نزعة ، ج ٣ ، ص ١٤٨ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ص ٨٨٠ ، العينى ، نفسه ، ص ٣٣١ .

(٣) المقرئى ، نفسه ، ص ٩١٢ .

(٤) نفسه ، ص ٩٤١ ، ٩٤٤ ، ابن حجر ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥٤٥ ، العينى ،

المصدر السابق ، ص ٣٥٢ ، الصيرفى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣١٦ ، المؤلف المجهول ،

حوليات دمشق ، ص ١٣٦ .

(٥) المقرئى ، نفسه ، ص ٩٤٤ .

ويذكر المقرئى ^(١) أن ذلك استمر على الوضع السابق سنة ٨٤٣ هـ / ١٤٣٩ - ١٤٤٠ م فى حالة التعامل بالفلوس عدداً ، ولكن قيمتها فيما لو قدرت وزناً ارتفعت الى مستوى كبير ، حيث بلغت ستة وثلاثين درهما فلوساً لكل رطل ، هذا ولقد استمر التعامل بتلك الفلوس على النحو السابق حتى سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ - ١٤٤٩ م ^(٢) ، عندما نودى على الفلوس بالتعامل بها وزناً ، كل رطل منها بستة وثلاثين درهماً فلوساً ، وذلك بعد أن زاد فسادها ، وكثر خلطها بالرصاص والحديد وغيرها ^(٣) ، ولكن لم تستمر على ذلك بل ارتفعت قيمتها بعد ذلك ، فنادت الدولة بعد أن أصدرت فلوساً جديدة فى شهر ربيع الآخر سنة ٨٥٤ هـ / مايو - يونيو سنة ١٤٥٠ م ، بأن يكون سعر الرطل منها بستة وثلاثين درهماً من الفلوس بدلاً من اثنين وأربعين درهماً فلوساً كان عليها سعر الرطل قبل ذلك ^(٤) ، وتكرر النداء مرة أخرى فى العام نفسه ، وبالتحديد فى شهر جمادى الأولى / يونيو - يوليو بأن يكون السعر كما هو دون تغيير ، وكذلك سعر الفلوس الجديدة ، والتي يتم التعامل بها عدداً على النحو السابق ، وهو كل درهم فلوس بثمانية فلوس ^(٥) ، ويتكرر النداء مرة ثالثة فى شهر ذى الحجة / يناير سنة ١٤٥١ م بما رسمت به الدولة ^(٦) .

فى شهر جمادى الأولى سنة ٨٦٣ هـ / مارس سنة ١٤٥٩ م أصدرت الدولة

(١) المقرئى ، ص ١١٩١ .

(٢) ابن تغرى بردى ، حوادث ، ج ١ ، ص ١١ و السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٧٧ ، ص ١٢٦ ، ص ١٨٧ .

(٣) السخاوى ، نفسه ، ص ٢١٣ .

(٤) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٨ ، السخاوى ، نفسه ، ص ٣٠٧ .

(٥) ابن تغرى بردى ، نفسه ، ص ٧٥ .

(٦) نفسه ، ص ٩٩ ، السخاوى ، المصدر السابق ، ص ٣٢٥ .

فلوساً نحاسية جديدة ، وقررت التعامل بها عن طريق العدد على ما كان متبعاً من قبل ، وهو أن كل درهم فلوس بثمانية فلوس ^(١) ، وقد تم إبطال التعامل بالفلوس العتق ، ولكن بعد أيام نودى بإعادة التعامل بها ، على أن يكون الرطل الواحد منها بأربعة وعشرين درهماً فلوساً ، وتكرر النداء مرة ثانية في شهر جمادى الثانية / إبريل بالتعامل بالفلوس النحاسية العتق بما رسمت به الدولة ^(٢) ، وزاد سعر الرطل من تلك الفلوس في شهر شوال من سنة ٨٦٦ هـ / يوليو سنة ١٤٦٢ م ، ليصبح بخمسة وعشرين درهماً فلوساً ^(٣) ليرتفع أكثر في شهر صفر سنة ٨٦٨ هـ / نوفمبر سنة ١٤٦٣ م ، ويصل الى ستة وثلاثين درهماً فلوساً لكل رطل ^(٤) ، وفي العام التالي ٨٦٩ هـ في شهر ذى الحجة الى ستة وثلاثين درهماً فلوساً لكل رطل ، وفي العام التالي ٨٦٩ هـ في شهر ذى الحجة أغسطس سنة ١٤٦٥ م أصدرت الدولة فلوساً نحاسية جديدة ، تم التعامل بها عن طريق العدد ، كل ثمانية أفلس بدرهم فلوس ، والفلوس القديمة (العتق) ، تم التعامل بها وزناً كل رطل منها بثلاثين درهماً من الفلوس ، ولم يلبث أن عاد سعر الفلوس العتق الى سعره السابق ، وأصبحت بستة وثلاثين درهماً من الفلوس ^(٥) ، ليظل هذا السعر ثابتاً خلال العام التالي ٨٧٠ هـ / ١٤٦٥ - ١٤٦٦ م في الوقت الذي أبطلت فيه الدولة تداول الفلوس الجديدة بالعدد ، وجعلت تداولها وزناً على نحو الفلوس العتق ^(٦) .

في سنة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ - ١٤٦٩ م انخفضت قيمة الفلوس بشكل

(١) ابن تغرى بردى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

(٢) ابن تغرى بردى ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

(٣) نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٢٩ .

(٤) نفسه ، ص ٤٤٥ .

(٥) نفسه ، ص ٥٠٣ ، ٥٠٨ .

(٦) نفسه ، ص ٥١٠ .

حاد ، عندما هبط سعر الرطل الى أربعة وعشرين درهماً فلوساً ، وتسبب ذلك فى خسارة الناس ، وتضرروهم بهذا الانخفاض الذى أدى الى فقدانهم ثلث أموالهم ^(١) .

وفى نهاية سنة ٨٧٩ هـ / ابريل - مايو سنة ١٤٧٥ م أصدرت الدولة فلوساً نحاسية جديدة رسمت بالتعامل بها معاودة ، كل درهم فلوس بشمانية فلوس ، وعن طريق الوزن بلغ سعر الرطل منها بستة وثلاثين درهماً فلوساً ، أما الفلوس العتق ، فقررت التعامل بها وزناً كل رطل منها بأربعة وعشرين درهماً من الفلوس ^(٢) ، وفى شهر رمضان من سنة ٨٨١ هـ / يناير من سنة ١٤٧٧ م منع التعامل بالنقد جميعها عن طريق العدد دنانيرها ودرامها وفلوسها ، وذلك بسبب الفساد الذى تعاني منه ، حيث خفت أوزانها ، ونقص عيارها ، ونودى على الفلوس النحاسية ، بأن كل رطل بستة وثلاثين درهماً فلوساً ، فخسر الناس والمتعاملون ثلث أموالهم بسبب هذا التخفيض الحاد لسعر الفلوس النحاسية ^(٣) ، وزادت خسارتهم عندما بلغ سعر الرطل اثنين وأربعين درهماً فلوساً ، ثم نادى الدولة فى سنة ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ - ١٤٨١ م بأن يكون سعر الرطل ستة وثلاثين درهماً فلوساً ، ويبطل التعامل بالفلوس التى استجبت الدولة ضربها عن طريق العدد ، ليتم ذلك عن طريق الوزن ^(٤) .

ويزداد ارتفاع القيمة النقدية للفلوس النحاسية ، فتصل الى ثمانية وأربعين

(١) ابن تيمى هردى ، حوادث ، ج ٣ ، ص ٦٧٥ .

(٢) ابن اياس ، بدائع ، ج ٣ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٣) نفسه ، ص ١٢١ .

(٤) الصيرفى ، إنها ، العصر ، ص ٥٠٦ - ٥٠٧ . ابن اياس ، نفسه ، ص ١٨٩ ، ابن

طولون ، ملاكحة الحلال فى حوادث الزمان ، القسم الأول ، ص ٢٤ ، ص ٢٩ - ٣٠ .

درهماً فلوساً لكل رطل ، وذلك فى شهر المحرم من سنة ٨٩٢ هـ / يناير من سنة ١٤٨٧ م ^(١) ، على الرغم من توفر النحاس ، وكثرة تداول الفلوس النحاسية فى الأسواق ، ولكن يبدو أن نقص كميات الفضة والدراهم الفضية فى الدولة ، والارتفاع الكبير الذى كان عليه سعر تبادل الدرهم ، قد أدى بدوره الى حدوث ارتفاع فى سعر تبادل الفلوس النحاسية ^(٢) ولكن كان ارتفاعاً مؤقتاً على ما يبدو ، فمع استمرار توفر الفلوس النحاسية ، وكثرتها فى الأيدي ، وزيادة العرض منها على الطلب عليها ^(٣) انخفضت قيمة الفلوس النحاسية بشكل كبير ، حيث أتاح توفرها أن قامت الدولة سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ - ١٤٩٨ م بتحديد سعر تبادل الفلوس عن طريق العدد ، كل ثمانية وعشرين درهماً فلوساً بدرهم فضى واحد ^(٤) ، وفى سنة ٩٠٧ هـ / ١٥٠١ - ١٥٠٢ م أصدرت الدولة فلوساً نحاسية ، تم تداولها عدداً ، وقد أدى ذلك الى خسارة الناس فى أموالهم ، بمقدار الثلث وتضررهم كثيراً ^(٥) .

وفى شهر ذى الحجة من سنة ٩١٧ هـ / مارس من سنة ١٥١٢ م كانت

(١) ابن اياس ، بدائع ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ .

(٢) السخاوى ، الذيل التام ، ص ٣٥٢ .

(٣) تعود وفرة النحاس فى الدولة الى وصول كميات كبيرة الى الدولة من أوروبا ، اذ تورد بعض المراجع أن كمية النحاس فى التى أصدرتها أوروبا الى الدولة المملوكية فى السنوات الأولى من القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى قد زادت من ثلاث مرات كانت فى القرن الثامن الهجرى . الرابع عشر الميلادى الى عشرين مرة فى الفترة المذكورة .

رافقت النبراوى ، مسكوكات ، ص ٣٥٣ .

(٤) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٩٥ .

(٥) نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٠ .

القيمة النقدية للفلوس النحاسية منخفضة جداً ، فيذكر ابن اياس ^(١) ان الرطل من الفلوس (الجدد والعتق) بثمانية عشر درهماً فلوساً ، واستمرت فى انخفاضها فى شهر ذى الحجة من العام التالى ٩١٨ هـ / فبراير - مارس سنة ١٥١٣ م الأمر الذى أدى الى توقف أحوال الناس ، وخسارتهم بسبب رخص الفلوس ، وانحطاط قيمتها النقدية ^(٢) ، وتدخلت الدولة لمعالجة الوضع المتردى . فنادت بأن يتم التعامل بالفلوس (الجدد العتق) وزناً على أساس الرطل الواحد بنصفين من الفضة (أى بدرهم فضى واحد) ، وكان سعر تبادل النصف فى تلك الفترة قد تراوح بين خمسة عشر ألف عشرين درهماً من الفلوس أى أن يكون سعر رطل الفلوس بين ثلاثين وأربعين درهماً فلوساً ، ومن المرجح أنه أربعون درهماً فلوساً لأنه السعر الذى كانت عليه الفلوس فى أوائل العام التالى ٩١٩ هـ / مارس - ابريل سنة ١٥١٣ م ^(٣) .

ولكن بعد شهر جمادى الآخرة / يوليو - أغسطس ارتفع سعر الرطل ، ليصل الى ثلاثة أنصاف من الفضة (حوالى ستين درهماً فلوساً) ، فسارعت الدولة الى تحديد سعر الفلوس على ما كان عليه أوائل العام ، أى بنصفين من الفضة ^(٤) .

وفى جمادى الأولى سنة ٩٢٢ هـ / يونيو سنة ٥١٦ م نودى فى الدولة بأن يكون سعر الرطل من الفلوس (العتق) بنصفين من الفضة ^(٥) ، وأن يتم

(١) ابن اياس ، المصدر السابق . ص ٢٥١ .

(٢) ابن اياس ، بدائع ، ج ٤ . ص ٢٩٥ .

(٣) نفسه ، ص ٣٢٧ .

(٤) نفسه ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

(٥) نفسه ، ج ٥ . ص ٥٢ .

التعامل بالفلوس (الجدد) معاددة ، عن كل درهم فضى اثنان وثلاثون درهماً من الفلوس ، وهو السعر الذى كانت عليه فى شهر رجب من السنة ذاتها / أغسطس^(١) .

٦ - نتائج دراسة القيم النقدية

وهكذا يتبين لنا القيم النقدية التى كانت عليها الفلوس النحاسية فى دولة الممالك ، وهذا ما مرت به من تطورات ، ومن خلال هذا التفصيل ، وما سبقه من دراسة عن أسعار تبادل الدينانير الذهبية والدرهم الفضية ، تتضح لنا القيم النقدية التى كانت عليها النقود الملوكية طوال العصر الملوكى ، ومن خلال مؤشرات أسعار التبادل وما كانت عليه من ظروف ، وما مرت به من تطورات يمكن استخلاص الآتى :

أولاً : بالنظر الى مستويات القيم النقدية للنقود الملوكية نجد أنها أكثر ثباتاً وقماساً فى العهد الملوكى البحرى ، مقارنة بما كانت عليه الحال فى العهد الملوكى الجركسى ، ولكن فى العهد الملوكى البحرى كانت القيمة النقدية للنقود أكثر ارتفاعاً منها فى العهد الجركسى باستثناء القيم النقدية للفلوس النحاسية ، فقد كانت فى العهد الجركسى أكثر ارتفاعاً منها فى العهد البحرى ، وتعليل ذلك هو اختلاف مركز النقود النحاسية فى كلا العهدين .

ثانياً : كان لأوضاع الدولة الداخلية ، وأحوالها الاقتصادية علاقة مباشرة فى اتجاه مؤشرات القيم النقدية ارتفاعاً أو هبوطاً ، ونلمس ذلك فى محافظة

(١) ابن أباس ، ج ٥ ، ص ٦٠ .

القيم النقدية للنقود على مستوياتها فترات طويلة في العهد المملوكى البحرى ، بخلاف العهد المملوكى الجركسى الذى شهد تقلبات سريعة ، وكبيرة فى تلك المستويات ، كما أن قوة اقتصاديات الدولة فى العهد البحرى أعطى النقود المملوكية قوة ودعماً فى مركزها ، بعكس العهد الجركسى الذى عانت فيه النقود المملوكية من تدهور وفساد مستمرين .

ثالثاً : كان للفساد النقدي الذى عاشته النقود المملوكية ، وبالدات فى العهد الجركسى أثره الكبير فى أسعار تبادل العملات تقلباتها ، وكان لذلك الفساد أثره أيضاً فى تدهور قيمة النقود المملوكية بشكل عام ، وفقدانها مركزها النقدي ، فسهلت منافستها من قبل العملات الأخرى ، وخصوصاً الأوربية التى غزت أسواق الدولة ، وحصلت على قيمة نقدية أكبر من قيمتها الحقيقية (التجارية) فى ظل تدهور القيمة النقدية للنقود المملوكية .

رابعاً : كان لسياسة سلاطين المماليك النقدية أثرها فى تحديد مستوى القيم النقدية للنقود ، فنجد أن لسياسة عدد منهم تأثيرها على استقرار القيم النقدية ، وأسعار المبادلة ضمن الحدود الطبيعية لها ، بينما نجد عدداً آخر منهم يتخذون سياسة تقوم على الاستفادة - قدر الامكان - من التقلبات السعريّة للنقود بالتلاعب بها انخفاضاً وارتفاعاً ، إما للحصول على أرباح شخصية ومصالح ذاتية ، وإما لظروف طارئة كتنقص احتياجات الدولة من النقود ، ومحاولات توفير كميات منها عن طريق فروق الأسعار .

ومن الملاحظ على سياسة الاستفادة ، أنها لم تضع فى حسابها ما لحق

الناس من ضرر وخسارة عند ارتفاع أسعار التبادل ، ثم انخفاضها ، ويظهر ذلك من عدة أمثلة حدثت خلال العصر المملوكى .

خامساً : كانت مشكلة التضخم المالى فى العهد المملوكى الجركسى . تمثل المظهر الأكثر تأثيراً فى الأزمة الاقتصادية التى أوجدها اعتماد الدولة على الفلوس النحاسية ، والإكثار من إصدارها ، على حساب الدنانير الذهبية والدراهم الفضية ، فنقصت أعدادها ، وارتفعت قيمها النقدية ، ويظهر تأثير تلك المشكلة على الحياة العامة فى الدولة منذ سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ - ١٣٩٩ م عندما بدأت أخبار النقود ، وظروفها تأخذ طابع الأهمية والصدارة فى المصادرة التاريخية ، التى دأبت على إيراد معلومات مكثفة ، متصلة عن الوضع النقدى عموماً ، والتقلبات السعرية للعمالات برجه خاص .

سادساً : لم تؤثر جميع محاولات الإصلاح التى قام بها عدد من سلاطين الدولة للأوضاع النقدية غفى ثبات القيم النقدية أو انخفاضها ، بل أدت فى معظمها الى ارتفاع أسعار تبادل العملات ، كما أحدثت اضطراباً ، وتقلباً سريعاً لتلك الأسعار كان لها أثر سئ على أموال الناس ، وخسارتهم لمبالغ ضخمة منها أدى الى افتقارهم ، وتلهذب مستوياتهم الاجتماعية .

سابعاً : نلاحظ اهتمام سلاطين المماليك بالاعلان أولاً بأول ، وبتكرار النداء مرة ومرتين عن سعر تبادل العملات ، وكان ذلك إما لتنظيم عملية التبادل النقدى ، والتعامل المالى فى أسواق الدولة ، وإما لتحقيق الربح المادى ، والمصالح الشخصية برفع سعر التبادل ، وإجبار المتعاملين على القيمة

التي حددتها الدولة ، أو بإعادة ضرب النقود الموجودة بعد استقطاع جزء من أوزانها أو عيارها ، وتداولها بنفس قيمتها السابقة ، أو بقيمة أرفع منها .

ثامناً : نرى من خلال الدراسة السابقة أن الدراهم الفضية كانت محور التبادلات النقدية في العهد المملوكي البحري ، بينما شكلت الفلوس النحاسية ذلك المحور في العهد الجركسي ، وفي كلا العهدين حددت الكميات المتوفرة لدى الدولة . وفي أسواقها من المعدنين القيم النقدية لهما ، وتأثرت أسعار التبادل بصورة مباشرة بقاعدة العرض والطلب .

أما الذهب أو الدينانير الذهبية ، فلم يحدث نقص أعدادها تأثيراً مباشراً مقارنة بتأثير نقص الدراهم أو الفلوس - على أسعار تبادل العملات ، وكذلك على حركة التعاملات التجارية والمالية في الدولة .

تاسعاً : تأثرت القيم النقدية للنقود في بعض الفترات بموقف المتعاملين المعارض حدوث أى تقلبات في أسعار تبادل العملات ، وتشدد معارضتهم عندما يؤدي ارتفاع القيمة أو انخفاضها الى وقوع خسائر مالية لهم ، وكان موقف الدولة في معظم الأحيان سلبياً ، وفي قليل من الأحيان مجدها تقوم بتعديل أسعار التبادل أمام معارضة الناس والمتعاملين .

هذه بعض من النتائج التي يمكن استخلاصها من واقع دراسة القيم النقدية للنقود المملوكية ، والواقع أن النتائج كثيرة ومتعددة نلمسها من خلال التطورات والأوضاع التي مرت بها العملات ، ويمكن أيضاً الخروج بنتائج أخرى بالنظر الى الرسوم البيانية التي تمثل القيمة الشرائية للنقود المملوكية .

الفصل الرابع

القيمة الشرائية للنقود المملوكية

- ١ - المقصود بالقيمة الشرائية .
- ٢ - العوامل المؤثرة فى القيمة الشرائية للعملة المملوكية .
- ٣ - متوسط القيمة الشرائية للنقود المملوكية .
- ٤ - تطورات القيمة الشرائية للعملات (الاسعار) .
 - أولاً: فى العهد المملوكى البحرى .
 - ثانياً: فى العهد المملوكى الجركسى .
- ٥ - نتائج دراسة القيمة الشرائية .

1870

1870

1870

1870

1870

1870

1870

1870

1870

١ - المقصود بالقيمة الشرائية

عند ذكر مصطلح قيمة النقود ، فإن المقصود منه ينصرف الى القوة الشرائية على أساس السلع والخدمات التي يمكن الحصول عليها بالوحدة النقدية ، مع أنه يقصد منها في بعض الأحيان القوة الشرائية بالنسبة للذهب ، والقيمة الخارجية أى مبادلة العملة الوطنية بغيرها من العملات غير الوطنية ^(١) .

والقوة الشرائية للوحدة النقدية المملوكية ، وما يمكن بها الحصول على السلع والخدمات و هى المقصودة فى بحثنا هذا ، وعليه فإن لفظ القيمة الشرائية تعبير عن قيمة النقود وفقاً للتغيرات فى أثمان السلع أى الأسعار ، ولكن قيمة النقود تكون عكس تغير الأسعار ، فارتفاع الأسعار يعنى انخفاض القيمة الشرائية ، وانخفاضها يعنى ارتفاع القيمة الشرائية ^(٢) ، لذا كان من الوظائف الهامة التى تؤدّيها النقود - مهما كان نوعها - ، كونها مقياساً للقيمة ، لذا كان من الضروري ثباتها نسبياً فى القيمة الشرائية ، كى يتسنى قيامها بالوظيفة المطلوبة على الوجه الأمثل ، والذى حدث على مدى الأزمنة التاريخية أن القيمة الشرائية للنقود لم تثبت عند نسبة معينة ، بل اختلفت وتذبذبت على مر العصور ، فالثبات المطلق فى القوة الشرائية أمر غير وارد ، وهذا يعنى ارتفاع الأسعار وانخفاضها فى أثناء ذلك التذبذب الذى تسببه عدة عوامل أهمها ما تتعرض له العملات من تقلبات مختلفة فى أقيامها النقدية ، وفساد يؤدى

(١) محمد زكى شافعى ، مقدمة فى النقود والبنوك ، ص ٨٣ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٤ م .

(٢) محمد زكى المسير ، اقتصاديات النقود ، ص ٦٥ ، القاهرة ، ١٩٨٥ م .

الى نقص أوزانها وعيارها وتزييفها ، والتعامل بها عدداً أو وزناً^(١) . وهذا ما عانته النقود الملوكية .

إن للنقود عدة أسعار ، وأهم وأقوى تلك الأسعار هي القوة الشرائية ، ففيها يكمن أساس قيمة النقود ، وفيها يكمن أيضاً أساس الرغبة في الطلب عليها ، والاحتفاظ بها ، فالنقود لها القدرة على جلب أو شراء السلع والخدمات ، وهذا هو المقصود بالقوة الشرائية عند إطلاقها ، لذا يمكن استعمال هذه القوة مقياساً لقيمة النقود أو سعر صرفها ، فكلما ارتفعت قدرتها على جلب أو شراء مقدار أكبر من السلع ارتفع سعرها أو قيمتها ، والعكس صحيح ، اذ كلما ارتفعت أسعار السلع والخدمات ، انخفضت القوة الشرائية للنقود وقيمتها ، فالمعروف أن القيمة النقدية ما هي الا انعكاس للقيمة الشرائية ، أو لأثمان السلع ، بمعنى أن ارتفاع الأسعار يعني انخفاض قيمة النقود ، وانخفاض الأسعار يعني ارتفاع قيمة النقود ، فبمقدار التغير في أثمان السلع يتحدد مقدار التغير في قيمة النقود ، فارتفاع الثمن الى الضعف يدل على انخفاض قيمة النقود الى النصف ، فمثلاً لو كان سعر اردب القمح ثمانين درهماً ، وانخفض الى أربعين درهماً أى بنسبة خمسين في المائة تكون قدرة الدرهم على الشراء قد زادت بنسبة مائة في المائة أى أن القيمة النقدية قد ارتفعت الى النصف .

ويعنى مبسط (القيمة النقدية هي مقلوب مستوى الأسعار) .

وعند تطبيق هذه القاعدة على الرسوم البيانية الخاصة بالقيمة الشرائية

(١) أبو بكر الصديق متولى ، شوقي اسماعيل شحاته . اقتصاديات النقود في اطار الفكر الاسلامي ، ص ٥٢ . محمود أبو السعود ، خطوط رئيسية في الاقتصاد الاسلامي ، ص ٢٧ - ٢٨ .

يتضح لنا مقدار القيمة النقدية للنقود المملوكية فى مقابل تلك القيمة الشرائية .

لقد عاشت القيمة الشرائية للنقود المملوكية تلك الأوضاع جميعها خلال تاريخها الطويل الذى شارف على الثلاثة قرون ، حيث لم تحتفظ بمعدل ثابت من القيمة حتى فى ظروف التسعير الذى كانت تقوم به الدولة فى بعض الأحيان ، لمواجهة الارتفاع المفاجئ فى الأسعار ، الى حد تتضائل معه القوة الشرائية للنقود المملوكية الى مستويات منخفضة جداً ، والملاحظ أن مستوى الأسعار فى العصر المملوكى فى تصاعد مستمر ، بحيث تحول معه الوضع إلى ما اصطلح على تسميته فى العصر الحديث بـ (التضخم) ^(١) ، ولكن فى ظل الارتفاع المفاجئ سرعان ما تعود الأسعار الى الانخفاض لتأخذ وضعاً شبه ثابت لترتفع مرة أخرى ، ثم تنخفض وهكذا ، ولا يعنى هذا النفى عدم حدوث حالات من الارتفاع الذى يستمر لفترة ليست قصيرة ، إذ ان التاريخ المملوكى قد شهد حوادث متعددة من هذا القبيل تأثرت خلالها الأوضاع الاقتصادية فى الدولة تأثراً ملحوظاً ، وتضرر الناس كثيراً حتى أصبح حصولهم على السلع الضرورية أمراً فيه مشقة وعناء ، وسنطالع فى التفصيل القادم أمثلة متعددة لذلك ، من خلال تتبع تطورات القوة الشرائية للنقود ، وارتفاع الأسعار وانخفاضها ، والعوامل المؤدية الى ذلك ، وما ينتج عنها من نتائج وآثار ، أو أى تفصيلات

(١) يعرف الاقتصاديون ظاهرة التضخم بأنها «الانخفاض المتواصل للقيمة الحقيقية لوحدة النقود» وتقاس القيمة الحقيقية لوحدة النقود ، فى وقت معين بالمتوسط العام لما يمكن أن يشتري بهذه الوحدة من السلع والخدمات ، ومن ثم تسير القيمة الحقيقية أو القوة الشرائية لوخدة النقود عكسياً مع ارتفاع المستوى العام للأسعار ، وبالتالي يتمثل المظهر العام للتضخم فى الارتفاع المتواصل للمستوى العام للأسعار .
صبي تادرس قرصة ، النقود والبنوك ، ص ٢٣١ .

أخرى ترتبط مباشرة بهذا الجانب ليتمكن من خلال ذلك القاء الضوء على القيمة (القوة) الشرائية للنقد المملوكة والظروف المحيطة بها .

٢ - العوامل المؤثرة فى القيمة الشرائية

لقد اختلفت عوامل ومسببات ارتفاع الأسعار وانخفاضها ، (عدم ثبات القوة الشرائية للنقد) ، وذلك الاختلاف لن أتحدث عنه من وجهة نظر اقتصادية ، وما يخلق بها من نظريات الكمية الكلاسيكية والكنزية أو غيرها من النظريات التى جاء بها الاقتصاديون لتحليل الظروف والأوضاع التى تمر بها أية قوة شرائية ، ولكن سيكون حديثى عنها من خلال الأوضاع الاقتصادية التى مرت بها النقد فى العصر المملوكى ، وما تعرضت له تلك الأوضاع من ظروف طبيعية أو سياسية أو غيرها أدت الى ارتفاع القوة الشرائية ، أو انخفاضها فى الدولة ، وذلك من واقع المصادر والمراجع التاريخية التى تحدثت عنها ، فى سياق الحديث عن التطورات النقدية التى مرت بها دولة المماليك .

يمكن تقسيم تلك العوامل الى عوامل طبيعية ، عوامل سياسية ، عوامل اقتصادية ، وجميعها أثرت على الأسعار ارتفاعاً أو انخفاضاً ، وبالتالي تأثرت القيمة الشرائية للنقد المملوكة .

فمن العوامل الطبيعية يأتى فى مقدمتها نهر النيل ، وضرورة وفاء مائه عند منسوب محدد دون زيادة أو نقص ^(١) ، ليحدث رى الأراضى الزراعية ، وبالتالي إنتاج المحاصيل الضرورية للاستهلاك كالحبوب ونحوها ، وتوفرها فى الأسواق بكميات كافية ، وبأسعار متاحة للجميع ، وان حدث أن نقص ماء النيل

(١) كان هبوط مياه النهر عن حد الوفاء المحدد بستة عشر ذراعاً ، أو زيادتها عن ذلك تمثل خطراً كبيراً على الحياة العامة فى مصر ، الاجتماعية والاقتصادية (الزراعية بصفة خاصة) . =

عن الوفاء ، فلم ترو الأراضى الزراعية ، أو حدث زيادة فى الماء عن المستوى المحدد ، فأحدثت فيضاناً فى مياه النهر يغمر الأراضى الزراعية جميعها ، ويحيلها الى أراضى غير صالحة ، مما ينتج عنه عدم زراعة الأرض ، وعدم انتاج المحاصيل الضرورية فيعترتب على ذلك نقصها وارتفاع أسعارها ، ثم انعدامها لكثرة الطلب عليها ، واختفاؤها من الأسواق لتظهر المجاعة ، والفاقة بين الناس حتى تشتد وتزداد ، فيعقبها انتشار الأوبئة والأمراض الحادة بين الناس ^(١)

= وكارثة يغطى الجميع حدوثها ، وذلك أن النيل هو مصدر الرى الوحيد تقريباً ، فإذا قصر عن الوفاء فات أوان الرى ، وإذا زاد عن الحد المقرر اغرق الحقول ، فجعلها غير صالحة للزراعة ، الأمر الذى ينتج عنه فى الحالتين حدوث نقص فى المحاصيل الزراعية ، وبالأوقات المهبوب ، وبالتالي حدوث مجاعة فى الدولة يعقبها انتشار الأوبئة والأمراض ، فتعانى الدولة فى أثناء ذلك من أزمة اقتصادية واجتماعية خانقة ، ترتفع خلالها الأسعار بسبب نقص السلع لضرورية وكثرة الطلب عليها .

لقد تحدث عدد كبير من المصادر والمراجع والدراسات عن أنه النيل ، وأهميته لمصر ولزهد من التفاصيل عن النيل (وفائه وزيادته ونقصه) والمجاعات ، والأوبئة ، والأزمات الاقتصادية التى حدثت بسببه) فضلاً أنظر من المصادر : النويرى ، الاسكندراني ، الامام بالاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ ، القلشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٢٩١ ، ابن دقماق ، التنصار ، ج ٤ ، ص ١١٤ - ١١٥ ، المقرئيز ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ابن شاهين ، كشف الممالك ، ورقة ٣٦ أ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ .

ومن المراجع : محمود رزق سليم ، تاريخ سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ١٨٣ ، النيل فى عصر المماليك ، على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ١٨ ، حامد زيان غانم ، الالتزام الاقتصادية والاوبئة فى مصر عصر سلاطين المماليك ، قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى فى عهد سلاطين المماليك ، جابر سلامة المصرى ، الزراعة فى مصر فى عهد الابهيين والمماليك ، ص ٤٩ ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب جامعة القاهرة رقم ١٢٢٨ ، حياة الحبى أحوال العامة فى سلطنة الأشرف شعبان بن حسين ، ص ٢٠٥ ، مجلة عالم الفكر ، مج ١٤ ، العدد ٣ ، ١٩٨٣ م ، ص ١٦١ ، ٢٢٢ .

الى جانب عدد كبير من المصادر والمراجع .

، ثم يلى ذلك تناقص عدد السكان بسبب موت وفناء عدد كبير منهم ، وما يترتب عليه من نقص الأيدى العاملة ، وتأثر نواحي الإنتاج فى الدولة ، وارتفاع أسعار المواد ، والمحاصيل المنتجة ، والمحصلة النهائية لتلك المؤثرات ضعف فى القيمة الشرائية للعملة .

ومن العوامل الطبيعية أيضاً الأحوال الجوية من رياح وأمطار وحرارة وبرودة ، حيث كان لها أثرها فى الغالب على المحاصيل الزراعية ، فتتأثر إنتاجية الأرض الزراعية من تلك المحاصيل ، وتنقص كمياتها ، ويكثر الطلب عليها ، فترتفع أسعارها ^(٢) لتضعف بذلك القوة الشرائية للنقود .

فالعوامل الطبيعية التى تعرضت لها الدولة تكاد تكون المسببات الرئيسية فى ارتفاع الأسعار وتكرار حدوثها فى العصر المملوكى كان له أثره السئ على مجمل الأوضاع فى الدولة ، وبصفة خاصة الاقتصادية والاجتماعية منها .

وعن العوامل الاقتصادية ، فقد تلت سابقتها فى الأهمية ، وكان لها تأثيراتها العميقة على الحياة العامة فى الدولة المملوكية .

وقد سبق التعرض لقلة الأيدى العاملة ، وما لها من تأثير على نواحي الإنتاج الزراعى والصناعى والتجارى ، وما يخلفه ذلك من ارتفاع أسعار المواد المنتجة ، وانعكاساته على القيمة الشرائية للعملة ^(١) ، وما يحسن الإشارة

(١) أنظر فيما يلى أمثلة عديدة على الأزمات التى حدثت فى الدولة ، والغلاء المصاحب لها من خلال الأسعار التى وصلت إليها أثمان السلع الضرورية فى ظل تلك الأزمات .

(٢) بيهرس الدوادار : ركن الدين المنصرى ، التحفة المملوكية فى الدولة التركية ، ورقة ٨٧ ب ، نسخة مصورة بجامعة القاهرة رقم ٢٩٠٢٤ ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ج ٢ ، ص ١٣٧ ، ابن حجر ، انتهاء ، ج ١٣ ، ص ٤٠٦ ، العيني ، عقد ، ص ٢٣١ ، ٢٤٣ .

إليه أن عددا من سلاطين الممالك - وخصوصاً في العهد المملوكى الجركسى - قد أهملوا تلك النواحي ، ولم يعملوا على تنميتها ودعدها ، ومجدهد مرافقها ومنشأتها المختلفة ، من جسور وقنوات وفنادق وأسواق وغيرها ، وقد أدى ذلك الإهمال الى تضاؤل الإنتاج فى جميع قطاعات الدولة ، والى رداءته ، ففقدت تلك النواحي عوامل بقائها واستمراريتها ، الأمر الذى عجل فى تدهورها وانهارها (٢) .

وكان للسياسة التجارية التى سار عليها عدد كبير من سلاطين الممالك أثر كبير فى ارتفاع الأسعار ، فما أقدم عليه أولئك السلاطين من احتكار تجارى لعدد من السلع الضرورية ، ومتاجرتهم - عن طريق المتجر السلطانى - بتلك السلع ، وما انتهجوه من أساليب فى تخزينها ، ثم بيعها - عن طريق نظام طرح البضائع - كان له نتائج سلبية على الأوضاع الاقتصادية ، وبشكل خاص على ارتفاع الأسعار (٣) .

كم كان للأوضاع النقدية فى الدولة ، وما عاشته النقود من عدم استقرار فى أسعار صرفها ، وما تعرضت له من نقص أوزانها وقياراتها ، وما عانتها من

(١) آشور ، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى ، ص ٣٨٦ ، ٣٩١ .

(٢) المقرئى ، إغاثة الأمة ، ص ٤٣ ، ٤٧ ، محمد أمين صالح ، التنظيمات التجارية ، ص ٢١٥ ، ٢١٧ ، آشور ، نفسه ، ص ٣٨٩ ، ص ٤٠٨ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخه ، مج ٩ ، ج ٢ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ص ٣٦٧ ، ص ٣٨٤ ، ص ٣٩٢ ، ج ٤ ، ص ٦٤٧ ، ص ٦٥٥ .

ابن حجر ، انباء ، ج ٢ ، ص ٤٤٤ ، ج ٣ ، ص ٦٩ ، ٧١٤ ، المعنى ، عقد ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، الاسدى والتبسيبر ولاعتبار ، ص ١٤٥ ، المزلف المجهول ، حوليات ، ص ٧٩ .

فساد وتلاعب جميع ذلك كان له أثره فى عدم احتفاظ العملة بقيمة شرائية ثابتة . بل إن ذلك أدى الى ضعف مركزها وقوتها النقدية وعدم الثقة بها . ففقدت بذلك قدراً كبيراً من قدرتها الشرائية ^(١) .

وكان للسياسة الضرائبية التى انتهجتها عدد من سلاطين الممالك أثرها فى ارتفاع الأسعار وانخفاضها ، فكلما اتجهت تلك السياسة نحو تقليص الضرائب ، وعدم ائثال العامة بها ، والعمل على إبطالها ، كانت النتيجة استقرار الأسعار واتجاهها الى الانخفاض ^(٢) . أما اذا كثفت الدولة من فرضها للضرائب ، والمقررات المالية على العامة ، وعلى السلع الضرورية لاستهلاكهم ، واستخدمت سياسة متشددة فى جمع أموال تلك الضرائب ، فإن نتيجة ذلك لا شك أنها كانت سلبية على الأسعار وعدم استقرارها ^(٣) .

وأخيراً فإن انعدام الرقابة الصارمة على الأسعار أتاح عدم استقرارها ارتفاعها ، فلبأ التجار وغيرهم الى رفع أسعار السلع والبضائع طمعاً فى الكسب المادى ، ولا شك فى أن ذلك مسئولية الدولة ، وانصرافها عن الاهتمام بهذا الجانب قد هبأ الفرصة للمتلاعبين فى رفع الأسعار ، يضاف الى ذلك الفساد الذى تعرض له منصب المحتسب ، وهو المسئول من قبل الدولة عن مراقبة الأسعار ، وما كان عليه من انحراف عن الأهداف الرئيسية لوظيفة الحسبة ، وتلاعب رجال

(١) المقرئى ، إغائة . ص ٧٩ . ٨٣ . السيوطى . حسن المحاضرة . ج ٢ . ص ٢٩٧ .

(٢) ابن بهادر ، فتوح النصر ، ورقة ١٩١ ، المقرئى . السلوك . ج ١ . ص ٦٦٤ . الخطط . ج ١ . ص ١٠٥ - ١٠٨ . العينى . عقد . ورقة ٣٠٤ . ابن اياس . بدائع الزهور . ج ٣ . ص ٦٠ . ج ٤ . ص ٣٠٤ .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية . ج ١٣ . ص ٣٤٨ . المقرئى . نفسه . ج ١ . ص ٦٩٦ . ابن اياس . نفسه . ج ١ . ق ١ . ص ١٢٢ .

الحسبة ، وفسادهم وعدم اهتمامهم بالمصلحة العامة ، والقيام بما يصلح أحوال الناس ومعاشاتهم ^(١) .

وفيما يتعلق بالعوامل السياسية ، فقد تأثرت الأسعار صعوداً وهبوطاً بعدد من العوامل السياسية في الدولة ، وأكثر تلك العوامل تأثيراً على اقتصاديات الدولة ، وبصفة خاصة ما يتعلق منها بالأسعار ما عانته دولة المماليك من أوضاع سياسية مضطربة ، وفتن داخلية وقعت بين طوائف المماليك وأمرائهم في نزاع عرقي وسياسي ، وما حدث أيضاً من فتن ومنازعات بين القبائل العربية والسلطة المملوكية ^(٢) .

وقد ترتبت على تلك الأوضاع اشاعة الفوضى في البلاد ، وقلة الأمن وكثرة اللصوص ^(٣) ، مما أوجد بيئة غير صالحة لمزاولة أى نشاط اقتصادي من زراعي أو تجاري أو صناعي ، فكان لذلك تأثيره على الأسعار بارتفاعها ، خصوصاً أسعار السلع الاستهلاكية .

ويرتبط بتلك الفتن والأحداث الداخلية ، النزاع السياسي بين زعماء المماليك حول سلطنة الدولة ، وما شهدته ذلك النزاع من صراع دموي حول عرش الدولة ، وقد كان لذلك اثار سلبية على مجمل أوضاعها ، وبالذات ما يتعلق بمعاش الناس وأرزاقهم ^(٤) .

(١) اليوسفي ، نزهة الناظر ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٦ . المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٨٥٤ .

ابن حجر ، إنباء ، ج ١ ، ص ٢٣٤ ، الاسدى ، التيسير ، ص ١٤٣ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ج ١ ، ص ٨٠٢ ، ٨٠٦ ، ج ٤ ، ص ٥٤٦ ، ص ٥٦٦ . ابن

حجر ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٦٩ ، ٧١ ، العيني ، عقد ، ص ٢٩٥ ، ابن حجر ، نفسه ، ج

٢ ، ص ١٣٢ ، ٢٥٨ ، الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ٤٤ - ٤٥ .

وكان أيضاً للظروف العسكرية والحربية التى خاضتها الدولة ضد عدد من القوى المعاصرة أثره فى ارتفاع الأسعار ، فعند تهديد بعض مناطق الدولة ، واحتمال الهجوم عليها تنشأ حالة من القلق والخوف لما يترتب على ذلك - فى حالة حدوثه - من تأثير على اقتصاديات الدولة نتيجة تأثر الطرق التجارية ، وعدم انتظام وصول المواد الضرورية ، وتناقص كمياتها عن حاجة المستهلكين ، كما أن لاستعدادات الدولة ، وما تقوم به من إجراءات لتجهيز جيوشها فى مواجهة ما يتهددها من أخطار ، واضطرابها الى القيام بعمل عسكرى ضد أعدائها ، أثره على المستوى العام للأسعار فى الدولة ، فيكثر الطلب على السلع الاستهلاكية ، وغيرها مما تحتاجه الجيوش عند تجهيزها ، فيؤدى ذلك الى زيادة الأسعار ، التى ترتفع أكثر عند نقص تلك السلع ، وعدم توفرها بكميات متوازنة مع الطلب عليها (٢) .

تلك العوامل المؤثرة على الأسعار ، أو القيمة الشرائية للنقود المملوكية ، وسيتبين لنا بشكل أكثر وضوحاً تلك العوامل عند تطبيقها على الواقع الذى عاشته الأسعار ، فى أثناء الحكم المملوكى ، وما مرت به من ظروف وملاهبسات ، أدت الى تذبذبها ، من خلال الحديث عن القيمة الشرائية للنقود المملوكية .

(١) المقرئى ، ص ٦٢٠ ، ٦٢٣ ، ابن قاضى شعبة ، تاريخه ، ج ٣ ، ص ٣٠ ، ص ٨٦ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٣٢٠ ، ابن اياس ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٧٥ ، ص ٩٠٣ ، ٩٠٧ .
(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٠٩ ، ص ٣١٤ ، ج ٣ ، ص ١٠٤٥ ، ١٠٥٣ ، ج ٤ ، ص ٧١ ، ٨٢ ، ابن تفرى بردى ، نفسه ، ج ١٢ ، ص ٢٤٦ .

٣- متوسط القيمة الشرائية

فى ضوء انعدام الإحصاءات الدقيقة عن الأسعار فى الفترة موضوع الدراسة ، وكذلك عدم معرفة مدى نقاء المعدن المستخدم ووزنه ليمكن من خلاله تحديد القيمة النقدية ، بالإضافة الى ارتباط القيمة الشرائية بظاهرة التضخم التى عانت منها الدولة المملوكية ، على ضوء ذلك كله ، فإنه من الصعب تقدير القوة الشرائية للنقود فى تلك الفترة بالشكل المطلوب من الدقة ، خصوصاً وأن لغة الأرقام تتطلب مزيداً من العناية والضبط فى التعامل معها .

ولكن - وبصورة تقريبية - يمكن الاعتماد على ما أورده المصادر التاريخية من نصوص تتحدث عن ارتفاع الأسعار لسبب أو لآخر ، - أى أن انخفاض القوة الشرائية - دون أن تتحدث عن انخفاض الأسعار - أى ارتفاع القوة الشرائية - الا نادراً .

لقد أشارت بعض تلك المصادر التاريخية الى متوسط القيمة الشرائية للنقود ، فيذكر ابن فضل الله العمري ^(١) متوسط أسعار عدد من السلع حيث يقول :
«وأوسط الأسعار فى غالب أوقاتها : الأرب القمح بخمسة عشر درهماً ،
والشعيرة بعشرة ، وبقية الحبوب على هذا النموذج» .

وينقل عنه القلقشندي ^(٢) ذلك ويضيف اليه قوله :

«وهذه الأسعار التى ذكرها - ابن فضل الله - قد أدركتنا غالبها ، وبقيت الى ما بعد الثمانين والسبعائة . فقلت الأسعار ، وتزايدت فى كل صنف من ذلك

(١) مسألة الأهبار ، (دولة المماليك الأولى) . ص ٨٣ - ٨٣ .

(٢) صبح ، ج ٣ ، ص ٤٤٤ .

وغيره ، وصار المثل الى ثلاثة أمثاله ، أو أربعة أمثاله ، فلا حول ولا قوة الا بالله ذى المتن المجسمة القادر على اعادة ذلك على ما كان عليه أو دونه .

أما الأسدى وهو أحد رجال النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى ، فيقول ^(١) عن متوسط القيمة الشرائية :

ومن القواعد المعلومة فى الحسبة الشريفة اذا كان سعر الأردب فى الديار المصرية بدينار من الذهب يكون الرطل من الخبز المصرى بدرهم من الفلوس ، ويكون السعر وسطاً ، وإن كان بدينارين ، فيكون الرطل الخبز بدرهمين ، ويكون السعر غلاء ، وإن كان الأردب بزل من دينار فبحسابه ، ويكون السعر رخاءاً .

ويمثل ذلك قال ابن حجر العسقلانى ^(٢) المعاصر للأسدى ، حيث أوضح أن متوسط سعر القمح لكل أردب ^(٣) وهو دينار واحد ، وما زاد عن ذلك فهو غلاء ، وما نقص عنه فهو رخص .

(١) التيسير والاعتبار ، ص ١٤٣ .

(٢) إنها . ج ٣ ، ص ٣٠١ .

(٣) الأردب ، جمعه أرادب مكيال ضخم لأهل مصر له عدة أحجام ، فمنه الكبير ومنه الصغير ، والمتعارف عليه هو الأردب الشرعى الذى يعادل اثنين وخمسين كيلو جراماً ، وأربعة عشر فى المائة من الكيلو جرام (٥٢.١٤ كجم) ، وبعضهم ذكر أنه يعادل من تسعة وستين كيلو جراماً وستة فى العشرة من الكيلو جرام (٦٩.٦ كجم) من القمح أو ستة وخمسين كيلو جراماً من الشعير (٥٦ كجم) ، وهو فى العصر الحاضر يعادل مائة وخمسين كجم من القمح (١٥٠ كجم) ، أو مائة وعشرين كيلو جراماً (١٢٠ كجم) من الشعير ، أو مائة وأربعين كيلو جراماً (١٤٠ كجم) من الذرة ، أو مائة وخمسة وخمسين كيلو جراماً (١٥٥ كجم) من الفول ، أو مائة وسبعة وخمسين كيلو جراماً (١٥٧ كجم) من العد ، ويزيد بعض أنواعه عن ذلك ، وينقص حسب ما تعارفت عليه الأقاليم . (ابن فضل الله =

هذا ما ذكرته المصادر التاريخية عن متوسط القيمة الشرائية للنقود ، وبواسطة ذلك المتوسط يمكن الحكم على القيمة الشرائية للنقود هل هي في انخفاض أم في ارتفاع ؟ هل هي قوية أم ضعيفة ؟ ، هذا ويجب أن نلاحظ علاقة متوسط القيمة الشرائية بالتطورات النقدية التي تمر بها الدولة ، وتأثره بظاهرة التضخم ، وارتفاع أسعار تبادل الدينار الذهبية (قيمتها النقدية) في مقابل الدراهم الفضية والفلوس النحاسية ، أو أسعار مبادلة الدراهم الفضية في مقابل الفلوس النحاسية .

وهذا ما لم يفتن اليه القلقشندى عندما ذكر - في نصه السابق - أن الأسعار في زمنه ارتفعت الى ثلاثة أضعاف وأربعة أضعاف ، ولكن تنبه المقرئ الى تلك العلاقة والى ذلك التأثير عندما أشار بحس المؤرخ المطلع ونظراته الثاقبة حيث قال (١) :

« فمن نظر الى أثمان المبيعات باعتبار الفضة والذهب لا يجدها قد غلت الا شيئاً يسيراً ، وأما باعتبار ما دهب الناس من كثرة الفلوس ، فأمر لا أشنع من ذكره ، ولا أفظع من هوله ، فسدت به الأمور ، واختلت به الأحوال ، وآل أمر الناس الى العدم والزوال ، وأشرف من أجله الاقليم على الدمار والاضمحلال ، ولكن الله يفعل ما يشاء » .

= العمري ، مسالك ، ج ٢٧ ، القسم الثالث ، ورقة ٣٧٦ - ٣٧٧ ، ابن الرقعة ، الايضاح ، ص ٧١ ، على مبارك ، الميزان ، ص ٨٨ - ٨٩ ، محمد الحاروف ، هامش رقم (١) ، ص ٧١ (كتاب الايضاح) .

(١) إغاثة الأمة ، ص ٧٩ - ٨٠ .

ويقول فى موضع آخر (١) :

« فالأسعار اذا نسبت الى الدرهم والدينار لا يكاد يوجد فيها تفاوت ... الا أشياء معدودة سبب غلاتها أحد أمرين : الأول فساد نظر من أسند اليه النظر فى ذلك ، وجهله بسياسة الأمور ، وهو الأكثر فى الغالب ، والثانى الجائحة التى أصابت ذلك الشئ حتى قل » .

وما ذكره المقرئى إشارة واضحة الى الوضع النقدى فى الدولة ، وما كان عليه من اضطراب وفساد ، والى ظاهرة التضخم التى أوجدتها الفلوس النحاسية ، وما كان لها من تأثير كبير على ضعف القيمة الشرائية ، أو الارتفاع الكبير فى الأسعار .

وستتضح لنا جميع تلك الظروف من خلال الحديث عن تطورات الأسعار فى العصر المملوكى ، وما كانت عليه القيمة الشرائية للنقود المملوكية .

٤ - تطورات القيمة الشرائية (الأسعار)

قبل الحديث عن القوة الشرائية للنقود المملوكية نجد الإشارة الى الوحدة النقدية التى كانت مستخدمة فى تحديد المدفوعات من أجور وأثمان وغير ذلك ، ففى العهد المملوكى البحرى ، ويضع سنوات من العهد المملوكى المجرى ، وعلى وجه التقريب حتى سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م كانت الوحدة المستخدمة فى عمليات الدفع هى الدراهم الفضية ، ومن ثم استخدمت الفلوس النحاسية فى عمليات الدفع مقدرة بالدراهم الفضية ، واصطلح على اطلاق مصطلح (درهم فلوس) لتحقيق عملية التقدير والدفع معاً (٢) .

(١) إغائة الأمة ، ص ٨٣ .

(٢) فضلاً أنظر الفصل الثانى (ص ١٨٤ ، ١٨٧) .

هذا ولم تشر المصادر التاريخية صراحة الى هذا المصطلح فى القيمة الشرائية الا سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م ، وكانت قبل ذلك تذكر القيمة الشرائية بالدرهم فقط دون توضيح الدرهم المقصودة ، هى هى درهم فضية أم درهم فلوس ؟ ولا شك فى أن هذا يوقع الباحث فى إشكال تحديد القيمة الشرائية ، حتى ولو افترض أنها بالدرهم الفلوس ، فكيف يمكن تحديد القيمة النقدية لها فى مقابل الدرهم الفضية مع عدم وجود معلومات توضح تلك القيمة فى الفترة المشار اليها .

المهم أن تحديد القيمة الشرائية قد وردت بالدرهم ، وقد تم تسجيلها على هذا النحو مع مناقشة كافة الظروف والمتغيرات المصاحبة لكل قيمة شرائية .

وتنبغى الإشارة أيضاً الى أنه تم اختيار بعض السلع الضرورية لتطبيق القيمة الشرائية عليها ، وقد جاء التركيز على هذه السلع ، لكونها من المواد الغذائية الهامة لحياة الانسان ، ولكونها أيضاً من المواد الاستهلاكية الضرورية لجميع الفئات التى يتكون منها المجتمع المملوكى ، وقد دلت المصادر المملوكية على ذلك عند ذكرها بصفة دائمة مؤشرات أسعار تلك السلع ، وما تتعرض له من تقلبات دلالة على أهميتها الاقتصادية والاجتماعية ، الأمر الذى أدى الى اختيار أسعار القمح والشعير والفول لمعرفة القوة الشرائية للوحدة النقدية المملوكية .

أولاً: فى العهد المملوكى البحرى

فى ظروف قيام دولة المماليك البحرية سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م كانت القوة الشرائية للنقود منخفضة حيث يقابلها ارتفاع كبير فى الأسعار ، وقد كان من الطبيعى أن يحدث ذلك فى ظل عدم الاستقرار الذى أحدثته تلك الظروف ، بالإضافة الى ظروف التهديدات المغولية بغزو بلاد الشام ، وقد كان نتيجة ذلك أن قلت الأقوات ، وانعدمت السلع الضرورية بالإضافة الى اضطراب أوضاع النقود ، وعدم وجود كميات كافية منها ، وبالذات الفلوس النحاسية (١) .

واستمرت تلك الظروف وازداد سوءها مع قيام المغول بغزو بلاد الشام ، وتوجههم الى الديار المصرية سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م الأمر الذى أدى الى ارتفاع الأسعار ، وبشكل خاص أسعار السلع الضرورية ، فى مؤشر على انخفاض القوة الشرائية للنقود المملوكية (٢) .

وفى ظروف طبيعية صعبة تعرضت لها الدولة سنة ٦٦٢ / ١٢٦٤ م ، وتمثلت فى انخفاض مياه النيل لم يتم رى الأراضى الزراعية ، مما يعنى انخفاض إنتاجيتها من المحاصيل ، وأهمها الحبوب ، وقد أدى ذلك الى انخفاض القوة الشرائية للوحدة النقدية المملوكية ، حيث وصل سعر الأردب الواحد من القمح الى مائة درهم ، وأكثر من ذلك ، وبلغ سعر ارب الشعير سبعين درهماً (٣) .

(١) التومرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ورقة ٣٧ ، المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٤ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ص ٤٦٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٢١٣ .

(٣) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٨٨ ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، ص ٩٠ ، تحقيق زبيدة عطا ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب جامعة القاهرة ، رقم ١٠٢٤ ، الصقاعى ، تالى وثبات الأعيان ، ص ٤ ، الحسن ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ورقة ٣٣ .

ومن أجل هذا الارتفاع الكبير فى الأسعار ، ورغبة فى عدم حدوث المزيد من التدهور فى القوة الشرائية ، سارعت الدولة الى تسعير الغلال ^(١) ، ورغم ذلك واصلت الأسعار ارتفاعها ، فتراجعت الدولة عن قرارها بالتسعير ، واتخذت عدداً من الخطوات لعلاج الموقف . ففتحت الأهراء السلطانية ^(٢) لبيع الغلال لمنافسة تجار الغلال ، واستمر ذلك مدة حتى أخذت الأسعار فى الانخفاض ثم الاستقرار ^(٣) ، فانحطت حتى وصل سعر الاردب من القمح عشرين درهماً ، واستمرت فى انخفاضها بشكل ملحوظ ، مع وصول كميات كبيرة من الغلال الى الأسواق ^(٤) .

(١) التسعير : لغة سعر النار أوقدها ، والسعر الذى يقوم عليه الثمن ، وأسعروا وسعروا تسعيراً أى اتفقوا على سعر ، والسعر مأخوذ من سعر النار اذا رفعها لأن السعر يوصف بالارتفاع ، واصطلاحاً قيام السلطان أو نائبه بتقدير سعر للناس واجبارهم الى التبايع بما يقدره ، وقد اتفق العلماء على تحريم التسعير واختلفوا فى حق الحاكم فى التسعير ، فمنهم من رأى تحريمه مطلقاً ، ومنهم من رأى استثناء المصلحة ، فلا يحرم اذا رأى الامام مصلحة فيه للرعية ، ومنهم من رأى وجوبه اذا كانت هناك ضرورة لذلك . (ابن القيم الجوزية ، الطرق الحكيمة فى السياسة الشرعية ص ٢٣٣ - ٢٤٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ابن الأخوة معالم القرية فى أحكام المحسة ، ص ١٢١ ، تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد المطيعى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ م ، قمحان الدورى ، الاحتكار ، وآثاره فى الفقه الاسلامى ، ص ١٥٥ ، ١٦٤ ، مطبعة الأمة ، الطبعة الأولى ، بغداد ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .

(٢) الأهراء السلطانية ، مخازن ومستودعات مخصصة لتخزين الغلال الخاصة بالسلطان ، ولا تفتح هذه الأهراء الا عند الضرورة كأوقات الأزمات (ابن شاهين ، زبدة كشف المسالك ، ص ١٢٢) .

(٣) بيبرس الداودار ، زبدة الفكرة ، ص ٩٠ - ٩١ ، التويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ورقة ٩١ .

(٤) بيبرس الداودار ، التحفة الملوكية فى الدولة التركية ، ورقة ١٢ أ ، الحسن ابن عمر ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ورقة ٣٣ ، المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠٨ .

ولا تمدنا المصادر المملوكية بمعلومات عن الأسعار ، والقيمة الشرائية للنقود حتى سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٣٦ م ، ولكن من المرجح أن عدم ذكر ذلك يعطى دلالة على استقرار الأسعار فى تلك الفترة ، وإن حدث أن ارتفعت لذكرت المصادر التاريخية التى دأبت على ذكر أى ارتفاع يطرأ على الأسعار .

فى سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ م كان مستوى الأسعار منخفضاً^(١) مما يعنى ارتفاعاً فى القيمة الشرائية للنقد ، وقد واصلت ارتفاعها فى العام التالى ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م ، عندما وصل سعر الارdeb من القمح الى مستوى قياسى فى الانخفاض حيث كان بين خمسة وستة دراهم ، والشعير بين ثلاثة وأربعة دراهم ، وأنواع الحبوب الأخرى بدرهمين^(٢) .

وفى العام التالى واصلت الأسعار انخفاضها الى مستويات أقل لترتفع القيمة الشرائية للنقود الى مستوى أعلى^(٣) ، وتشير بعض المصادر^(٤) الى أن أسباب ذلك الانخفاض ، تعود الى وفاء ماء النيل الذى عم أرض مصر ، وكانت نتيجته ، أن جادت الأراضى الزراعية بمحاصيل وفيرة من الحبوب وغيرها .

وفى أوائل سنة ٦٨٢ هـ / ابريل سنة ١٢٨٣ م ضعفت القوة الشرائية ،

(١) ابن بهادر ، فتوح النصر ، ورقة ١٣٧ .

(٢) ابن ابيك الدوادار ، كنز الدرر ، ج ٨ (الدرة الزكية) ، ص ٢٢٦ ، بيهرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ص ١٥٤ ، الكنى ، عيون التواريخ ، ج ٢٠ ، ورقة ٢٣٥ ، المقرئى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٤٧ .

(٣) ابن ابيك الدوادار ، كنز الدرر ، ج ٨ ، (الدرة الزكية) ، ص ٢٢٦ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٤٧ ، ص ٦٥٠ .

عندما تحركت الأسعار صعوداً ليصل سعر الأردب الواحد من القمح الى خمسة وثلاثين درهماً ، فسارعت الدولة لمواجهة ذلك بإخراج كميات كبيرة من الغلال للعمل على انحطاط الأسعار ، فانخفضت حتى وصل سعر الأردب من القمح خمسة وعشرين درهماً ، واستمر مواصلاً انخفاضه حتى وصل الى عشرين درهماً ، ثم الى ثمانية عشر درهماً ، واستمر على انخفاضه ، مع وصول كميات كبيرة من المحصول الزراعى الجديد ^(١) .

ويبدو أن القيمة الشرائية للنقود استمرت على معدلها السابق خلال السنوات العشر التالية إذ لم تذكر المصادر التاريخية أى مؤشر يدل على ارتفاع الأسعار حتى سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م ، عندما ذكر بعضها انخفاض القيمة الشرائية للنقود ، عند ارتفاع الأسعار بسبب نقص مياه النيل ، وعدم وفائه ^(٢) .

ولكن الوضع السيئ حدث أواخر سنة ٦٩٤ هـ ، وأوائل سنة ٦٩٥ هـ / نوفمبر سنة ١٢٩٤ م عندما تعرضت الدولة لأزمة اقتصادية خانقة بسبب القحط الذى أصابها ، وما أعقبه من مجاعة نتيجة انخفاض منسوب مياه النيل ، وكان لهذه الأزمة أثرها السئ على الأوضاع فى الدولة ، وخصوصاً الاجتماعية منها ^(٣) ، وما يعنيننا من تلك الأزمة هو تدنى مستوى القوة الشرائية للنقود بارتفاع الأسعار حيث وصل سعر الأردب من القمح الى ستين درهماً ^(١) ، ثم

(١) المقرئى ، السلوك ، ص ٧١٧ ، ٧١٨ .

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ورقة ٧٩ .

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ورقة ٨٣ - ٨٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج

١٢ ، ص ٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ابن حبيب ، تذكرة النبى ، ج ١ ، ص ١٧٨ ، ١٨٤ ، الخالدى ،

المقصد الرفيع ، ورقة ٧٠ ب .

الى مائة درهم . والشعير الى ستين والفل الى خمسين ^(٢) . ثم يواصل ارتفاع الأسعار استمراره ليصل سعر القمح الى مائة وخمسين درهماً للأردب الواحد . ثم يرتفع الى مائة وستين درهماً ، وبقية الحبوب الى مائة درهم ^(٣) .

ومع اشتداد الأزمة زاد ارتفاع الأسعار ، مؤدياً الى انخفاض القوة الشرائية للنقود ، فوصل سعر الأردب من القمح الى ما يقارب مائتى درهم ، والشعير الى مائة وعشرين درهماً . والفل والعدس الى مائة وعشرة دراهم ^(٤) . وقد شهدت الأقاليم الأخرى فى الدولة أوضاعاً أكثر سوءاً ، حيث وصلت الأسعار فيها الى مستويات عالية ، محققة انخفاضاً كبيراً فى القيمة الشرائية للنقود ^(٥) .

وفى العام التالى ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ - ١٢٩٧ م انخفضت الأسعار بشكل ملحوظ محققة للنقود المملوكية قدراً من القوة الشرائية التى فقدتها خلال تلك

(١) السيوطى . حسن المعاصرة . ج ٢ . ص ٢٩٧ .

(٢) النويرى . المصدر السابق . ج ٢٩ . ورقة ٨٣ - ٨٤ . المقرئى . إغاثة الأمة . ص ٣١ - ٣٧ . السلوك . ج ١ . ص ٨٠٨ . ٨١٥ .

(٣) بيبرس الداودار . التحفة المملوكية . ورقة ٦٠ أ . الخالدى . المصدر السابق . ورقة ٧٠ ب .

(٤) المؤلف المجهول . تاريخ سلاطين المماليك . ٣٦ . العمرى . مسالك الأبصار . ج ٢٧ . القسم الرابع . ورقة ٦٢ . بيبرس الداودار . المصدر السابق . ورقة ٦٠ أ . الحسن بن حبيب . المصدر السابق . ج ١ . ص ١٧٨ . ابن دقماق . الجوهر الثمين . ج ٢ . ص ١١٨ - ١١٩ .

(٥) الحسن بن الحبيب . درة الأسلاك . ج ١ . ورقة ١٢٣ . ابن بهادر . فتح . ورقة ١٨٤ . ابن الفرات . تاريخه . مج ٨ . ص ١٩٦ . ١٩٩ . ص ٢٠٨ . المقرئى . السلوك . ج ١ . ص ٨١٠ . الخالدى . المقصد الرفيع . ورقة ٧٠ ب . السيوطى . حسن . ج ٢ . ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

الأزمة . فقد كان سعر الأردب الواحد من القمح أربعين درهماً ، ثم انخفض الى خمسة وثلاثين ، ثم الى خمسة وعشرين ، والشعير بثلاثين درهماً للأردب ، وواصلت الأسعار انخفاضها ، حيث بيع أردب القمح بعشرين درهماً ، والشعير بعشرة دراهم ^(١) . ويبدو أن هذا الانخفاض فى الأسعار ، وارتفاع القوة الشرائية للنقود قد جاء نتيجة استقرار الأوضاع الداخلية فى الدولة ، بتولى السلطان حسام الدين لاجين ، إضافة الى ما قام به عند توليه سلطنة الدولة من إلغاء عدد من الضرائب والمقررات المالية فى الدولة ، ومع استقرار الأوضاع والسياسة المالية التى انتهجها السلطان لاجين ، فإن ظروف نهر النيل فى نهاية العام المذكور ، وتوقف مائه عن الزيادة ، وعدم وصولها الى المستوى المطلوب لرى الأراضى الزراعية تسببت فى ارتفاع أسعار القلال ، والمحاصيل الأخرى ^(٢) .

وفى ظروف سياسية حربية سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م هاجم المغول أراضى الدولة ، واستولوا على دمشق ، وفرضوا الأموال على أهلها ، ونتيجة لذلك ارتفعت الأسعار فى الدولة ، ووصلت الى مستويات عالية مسببة انخفاضاً فى القوة الشرائية للنقود ^(٣) .

وفى ظل استعدادات الدولة لمواجهة الهجوم المغولى ، حدث فى الدولة بعض

(١) العمري ، مسالك ، ج ٢٧ ، ق ٤ . ورقة ٦٣ - ٦٤ ، النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٨

، ورقة ٨٤ ، ابن الفرات ، المصدر السابق ، مج ٨ ، ص ٢٣٢ .

(٢) ابن بهادر ، المصدر السابق ، ورقة ٣٨٤ . المقرئى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص

٨٢٩ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٨٩٣ .

الاطمئنان ، وخفت حدة الخوف الذى أصاب الناس ، فانخفضت الأسعار الى النصف تقريباً ، حيث بلغ سعر الأردب من القمح مائة وخمسين درهماً ^(١) .

وكانت القوة الشرائية للنقود أكثر تماسكاً وارتفاعاً فى العام التالى ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م ، عندما كان سعر الأردب من القمح عشرين درهماً ، انخفض بعدها الى خمسة عشر درهماً ^(٢) ، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً ، حيث عادت ظروف التهديدات المغولية ، ودخلت الدولة فى حرب مع المغول ، وذلك سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م لتسبب أزمة اقتصادية فى الدولة ، تمثلت بإغلاق الأسواق ، وارتفاع أسعار المواد الضرورية وعدم توفرها ^(٣) ، وفى العام التالى ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م كان للظروف الطبيعية أثرها على الأسعار ، فقد توقفت مياه النيل عن الزيادة ، مما أدى الى ارتفاع الأسعار ليصل أردب القمح الى أربعين درهماً ، ولكن انخفض بعد فترة قصيرة الى خمسة وعشرين درهماً ، نظراً لتحسن مستوى مياه النيل ، ثم بواصل تحسنه ليبلغ حد الوفاء (ستة عشر ذراعاً) لتستمر الأسعار فى انخفاضها محققة ارتفاعاً فى القيمة الشرائية للنقود ^(٤) .

وعكس ذلك حدث سنة ٧٠٥ هـ / ١٣٠٥ م عندما انخفضت القيمة الشرائية بارتفاع أسعار المبيعات بتأثير الأزمة النقدية التى تعرضت لها الدولة ، نتيجة فساد الفلوس النحاسية ، فارتفعت الأسعار الى الضعف تقريباً ، حيث وصل سعر أردب القمح الى أربعين درهماً بعد أن كان بعشرين ، ورغم جهود الدولة فى معالجة الأزمة ، وإصلاح الوضع فإن الانخفاض فى القوة الشرائية لم يطرأ

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٩٠١ .

(٢) نفسه ، ص ٩٠٨ .

(٣) نفسه ، ص ٩٣٨ .

(٤) نفسه ، ص ٩٤٩ ، ص ٩٥٦ .

عليه أى تغيير ^(١) .

وفى سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧ م أثرت الظروف الطبيعية على الأسعار التى ارتفعت بسبب هبوب الرياح الحارة وقت حصاد المحاصيل الزراعية ، فأفسدت الزروع ، وقل محصول الغلال بشكل كبير ، فارتفعت أقيامها ليصل سعر الأردب من القمح الى خمسين درهماً ، وتنخفض بذلك القوة الشرائية للنقود ^(٢) .

وفى سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ فقدت النقود بعض قيمتها الشرائية ، حيث انخفضت الى المستوى السابق بعد أن بيع أردب القمح بخمسين درهماً ، والفول والشعير بعشرين درهماً ، وقد كان وراء هذا الارتفاع ما كانت تعيشه الدولة من اضطراب فى أوضاعها الداخلية ، وتأثر الأسواق التجارية نتيجة ذلك ، فأثرت على توفر السلع الضرورية بصفة دائمة ، وإضافة الى ذلك تناقص مياه نهر النيل ، وتوقفها عن الزيادة ^(٣) .

فى سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ - ١٣٢١ م كانت الفلوس النحاسية على جانب كبير من الفساد الأمر الذى أدى الى انخفاض القوة الشرائية للنقود بارتفاع الأسعار ^(٤) ، وقد كان للخطوات الإصلاحية التى قامت بها الدولة نتائج ايجابية ، حيث انخفضت الأسعار بشكل ملحوظ ، ووصل سعر أردب القمح الى عشرة

(١) المقرئى ، ج ٢ ، ص ١٧ .

(٢) بيبيرس الدوادار ، التحفة الملوكية ، ورقة ٨٧ ب ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ج ٢ ، ص ١٣٧ .

(٣) ابن ابيك ، كنز الدرر ، ج ٩ ، (الدر الفاخر) ، ص ١٦٣ ، النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣ ، ورقة ٢٤٣ ، ورقة ٣٥٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٤٣ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

دراهم^(١) ، لترتفع القيمة الشرائية للنقود بصورة جيدة ، والواقع أن تحسن الوضع النقدي في الدولة ، وارتفاع القوة الشرائية للنقود في انخفاض الأسعار ، لم يكن نتيجة مباشرة لما قامت به الدولة من إصلاحات ، بل كان للاستقرار الاقتصادي الذي تمتعت به الدولة في تلك الفترة أثره الكبير على مجمل الأوضاع في الدولة . ونلاحظ هذا التأثير في سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٣ م عندما أدى فساد الفلوس النحاسية الى ارتفاع الأسعار عن الفترة السابقة ليصل سعر الأردب من القمح الى سبعة عشر درهماً ، ثم سرعان ما يعود الى الانخفاض عند تدخل الدولة ، وهذه المرة كان الانخفاض في الأسعار كبيراً حيث وصل سعر اردب القمح الى خمسة دراهم فقط ، والشعير والفول الى ثلاثة دراهم^(٢) ، ولقد استمرت الأسعار في استقرارها ، والقوة الشرائية في ارتفاعها عدة سنوات .

ففي سنة ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥ م أوضحت بعض المصادر التاريخية انخفاض الأسعار على النحو السابق^(٣) ، وفي سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧ م ، ارتفعت الأسعار بشكل مؤقت وطفيف بسبب ما وقع للمحاصيل الزراعية من افات ونحوها ، مما ترتب عليها تلف كميات من المحاصيل ، فقلت كمية الإنتاج ، ونقص المعروض منها في الأسواق ، ومع هذا فقد كانت نسبة ارتفاع السعر طفيفة اذ بلغ سعر الأردب من القمح الى ثلاثة عشر درهماً ، ثم الى عشرين درهماً لتتخفض سريعاً الى مستواها السابق^(٤) .

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ .

(٢) نفسه ، ص ٢٧٨ ، الحالدى ، المقصد الرفيع ، ورقة ٥٧٣ .

(٣) ابن ابيك الدواوادر ، كنز الدرر ، ج ٩ ، (الدر الفاخر) ، ص ٣٢٠ ، ابن دقماق ،

الجمهور الثمين ، ج ٢ ، ص ١٦١ .

اختلف الوضع فى جمادى الآخرة من سنة ٧٣٦ هـ / يناير ١٣٣٦ م عندما حدثت فى البلاد أزمة اقتصادية أدت الى ارتفاع الأسعار ، وانخفاض القيمة الشراذية للنقود ، واستمرت فى الانخفاض عندما وصل سعر الارادب من القمح الى سبعين درهماً ، والقول الى خمسين درهماً ، وتدخلت الدولة للحد من ارتفاع الأسعار ، فأمر السلطان الناصر محمد بفتح الأهراء السلطانية ، وأهراء الأبراء ، وتغطية احتياجات الناس منها ، بسعر محدد قدره ثلاثون درهماً ، ثم انخفضت الأسعار أكثر مع وصول كميات اضافية من المحاصيل الزراعية الجديدة ، ليصل سعر الأردب من القمح الى خمسة وعشرين درهماً^(٢) .

ولا شك فى أنه كان لجهود الناصر محمد ، والخطوات التى اتخذها أثر كبير فى تخفيف الأزمة على العامة ، وعدم تأثرهم بها^(٣) ، هذا ولم تذكر المصادر التاريخية الأسباب التى أدت لوقوع تلك الأزمة ، والثابت عدم وقوعها بسبب ظروف طبيعية مرت بها الدولة ، وخصوصاً ما يتعلق بنهر النيل ووفائه ، حيث أثبتت بعض المصادر التاريخية^(٤) زيادة مياه النيل ، حتى تم له الوفاء ليتحقق معه النفع للأراضى الزراعية ، ولكن أشارت مصادر أخرى^(٥) الى وجود فساد نقدى تعرضت له الفلوس النحاسية ، إضافة الى وجود نقص فى كميات الذهب التى كانت تحتاجها دور الضرب لسك الدينار الذهبية ، والمرجح أن تلك الظروف النقدية كانت وراء الأزمة المذكورة ، حيث رفع التجار أسعار

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٠٠ .

(٢) البيوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٧٤ ، المقرئى وإغاثة الأمة ، ص ٣٩ ، ابن بهادر ، فتح النصر ، ورقة ٢٦٩ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ ، ٣٩٦ .

(٤) نفسه ، ص ٤٠٤ .

(٥) البيوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٢٩٢ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٩٣ .

المواد الضرورية لمواجهة فساد الفلوس ، ونقص الدنانير الذهبية ، وتدخلت الدولة ، فباعت من مخزونها بسعر محدد لإرغام التجار على البيع بذلك السعر ، وكان لها ما أرادت عندما انخفضت الأسعار ، وزادت في انخفاضها عندما كثر العرض بوصول كميات جديدة من الحبوب .

وطالما أن الفساد النقدي مستمر ، وهو سبب ذلك الارتفاع في الأسعار والانخفاض في القيمة الشرائية للنقود ، فقد أدى في العام التالي ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ - ١٣٣٧ م إلى النتيجة نفسها عندما وصل سعر الأردب من القمح إلى أربعين درهماً والفل إلى اثنين وثلاثين ، والشعير إلى ثمانية وعشرين ^(١) .

ويبدو أن الدولة عاجلت الأزمة النقدية - فساد الفلوس ونقص الذهب - بدليل ارتفاع القيمة الشرائية للنقود ، وانخفاض أسعار الفلال ، حيث تدنت قيمة الأردب من القمح إلى مستوى منخفض ، وصلت معه إلى ثمانية دراهم ، والشعير إلى ستة دراهم ، وكان لكثرة المعروض من الحبوب ، وقلة الطلب عليها أثره في ذلك الانخفاض ^(٢) .

في سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ - ١٣٤١ م فقدت القيمة الشرائية بعضاً من قوتها عندما ارتفعت الأسعار ، ووصل سعر الأردب القمح إلى ثلاثين درهماً بعد أن كان بخمسة عشر درهماً ، ويعود سبب هذا الارتفاع إلى القلق السياسي في الدولة الذي صاحب مرض السلطان الناصر محمد ، ثم حالة عدم الاستقرار السياسي

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

(٢) نفسه ، ص ٤٤٤ .

السياسى الذى أعقب وفاته ، بتنافس كبار الأمراء للسيطرة على الأمور ^(١) ، ولم يكن تأثير ذلك على القيمة الشرائية قُطْع ، بل امتد أثره إلى الأوضاع النقدية ، حيث ارتفعت أسعار صرف الدينار الذهبية بشكل ملحوظ ^(٢) .

وعلى سنة ٧٤٤ هـ / ١٣٤٤ م كانت القوة الشرائية مرتفعة عندما كان سعر الأردب من القمح بمشرة دراهم ، وانخفضت قليلاً عندما ارتفع السعر إلى عشرين درهماً للأردب القمح بسبب فيضان النيل ، وزيادة مائه عن حد الرقاع . مما أدى إلى اتلاف كميات كبيرة من المحاصيل الزراعية ^(٣) .

واستمر الانخفاض فى العام التالى ، ولكن كان بسبب تدهور أوضاع الفلوس النحاسية الذى استمر بعد ذلك ، حيث تشير المصادر إلى انخفاض القيمة الشرائية سنة ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م ، عندما وصل سعر اردب القمح إلى ثلاثين درهماً ، وزادت بعض المؤثرات الأخرى من ارتفاع الأسعار ، وانخفاض القوة الشرائية للنقود ، حيث وصل سعر الأردب من القمح إلى خمسة وخمسين درهماً ثم إلى سبعين درهماً والشعير إلى إثنين وعشرين درهماً ثم إلى خمسة وعشرين درهماً الأردب ، والفول إلى عشرين درهماً ، وزادت معظم أسعار الغلال أكثر من الثلث ، وتمثلت تلك المؤثرات فى ظروف الدولة الداخلية ، وقلة إنتاج الأراضى الزراعية لتأخر وفاء النيل ، وعدم رى الأراضى الزراعية ، وسحب كميات كبيرة من الغلال لحاجة السلطان ، وتجهيزاً لسفره ، ولم تستمر الأسعار فى ارتفاعها ، حيث أخذت فى الانخفاض شيئاً فشيئاً حتى وصل سعر اردب القمح إلى عشرين درهماً ، لترتفع القوة الشرائية للنقود المملوكية عما كانت

(١) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ١٠٣ .. المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٢٢ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ص ٥٢٠ .

(٣) نفسه ، ص ٦٥٧ - ٦٥٨ .

عليه قبل ذلك ^(١) .

وفى سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ - ١٣٤٨ م أخذت الأسعار فى التصاعد التدريجى لتصل الى أربعين درهماً ، ثم الى خمسين درهماً لأردب القمح محققة انخفاضاً فى القيمة الشرائية للنقود ، وتستمر فى الانخفاض مع تواصل أنباء الوباء الذى أصاب عدداً من الدول ، ولم يمض زمن طويل حتى أصيبت الدولة كغيرها ، فأصبحت فريسة لهذا الوباء الذى أطلق عليه (الوباء الأسود) ^(٢) ، نظراً لخطورته ، وتأثيراته البالغة على الأوضاع فى الدولة ، ورغم تلك التأثيرات ، فإن القيمة الشرائية للنقود لم تتأثر كثيراً ، حيث كانت منخفضة عن ذى قبل ، ووصلت الأسعار الى مستويات منخفضة لانشغال الناس بدفن موتاهم لكثرة الموتى ، فلا تجد من يقبل على الشراء .

بعد تلك الأزمة وظروف الوباء الذى أصاب الدولة تذبذبت القيمة الشرائية للنقود بين القوة والضعف ، ومرت الأسعار بحالة من عدم الاستقرار والثبات ، فتذكر بعض المصادر التاريخية أن مستوى الأسعار بعد ذلك الوباء كان منخفضاً ، وعليه تكون القيمة الشرائية للنقود فى مستوى جيد ، فقد بلغ سعر أردب القمح عشرين درهماً ^(٣) ، ولكن هذا الانخفاض لم يدم طويلاً ، إذ

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٥٣ .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن هذا الوباء فضلاً أنظر : الحسن بن عمر بن حبيب ، تذكرة النبيه ، ج ٣ ، ص ١١٠ ، وما بعدها ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٧٢ ، ٧٩١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٩٥ ، ٢١٣ ، ابن بهادر ، فتح النصر ، ورقة ٢٩٥ ، الخالدي ، المقصد الرفيع ، ورقة ٧٥ أ ، ب ، السخاوى ، الذيل التام على دول الاسلام ، ورقة ١١ .

(٣) المقرئى ، المصدر السابق ، ص ٨٥٢ .

ارتفعت الأسعار سنة ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م ، فانخفضت معها القيمة الشرائية ، ووصل سعر القمح الى سبعة وثلاثين درهماً للأردب الواحد ^(١) ، ثم ترتفع القيمة الشرائية لانخفاض الأسعار سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م ، فبيع الأردب من القمح بخمسة عشر درهماً ، ثم بعشرة دراهم ^(٢) .

وفى سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م انخفضت القيمة الشرائية لارتفاع الأسعار ، فوصل سعر اردب القمح الى ستة وثلاثين درهماً ، والشعير عشرين درهماً ، والفول الى ستة عشر درهماً ، وذلك بسبب نهر النيل ، وفيضان مائه مما ترتب عليه تلف كثير من المحاصيل الزراعية وفسادها ^(٣) .

ويبدو أن القوة الشرائية قد حققت تقدماً فى الفترة التالية ، اذ لم تورد المصادر التاريخية ، وحتى سنة ٧٦٥ هـ / ١٣٦٣ م ما يفيد وجود أى ارتفاع للأسعار فى أسواق الدولة خلال الفترة المشار اليها .

وقد ذكرت بعض المصادر أنه فى سنة ٧٦٥ هـ / ١٣٦٣ م ، انخفضت القيمة الشرائية بشكل ملحوظ بعد أن بلغ سعر أردب القمح الى أربعين درهماً ^(٤) ، ولم يورد المقرئى الذى ذكر ذلك أسباب ارتفاع الأسعار ، وفى سنة ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م ، كان الوباء الذى تعرضت له الدولة سبباً فى ارتفاع الأسعار ، وانخفاض القوة الشرائية للنقود المملوكية ، ولم يحدد المصادر ^(٥) التى أوردت

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٨٥٢ .

(٢) نفسه ، ص ٩٠٣ .

(٣) نفسه ، ج ٣ ، ص ١٢ .

(٤) نفسه ، ص ٩١ .

(٥) الحسن بن عمر ، تذكرة النبیه ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ ، المقرئى ، نفسه ، ص ١٨٣ .

ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٩٦ .

ذلك المستوى الذى وصلت اليه الأسعار فى ارتفاعها .

وفى سنة ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م كان توقف ماء النيل عن الزيادة سبباً فى ارتفاع الأسعار ، ووصولها الى مستوى مرتفع ، وصل معه ارب القمح الى سبعين درهماً^(١) ، ثم ينخفض السعر فى العام التالى ٧٧٥ هـ / ١٣٧٣ م ، وترتفع القيمة الشرائية بوصول أردب القمح الى سعر ستة وثلاثين درهماً ، ولكنها تنخفض قليلاً بوصوله الى أربعين درهماً ، ثم الى خمسين درهماً ، والشعير والفول كل أردب بخمسة وعشرين درهماً ، وجميع تلك التقلبات كانت بسبب النيل ، وعدم انتظام مياهه فى الزيادة ، ولكن بعد تحسن تلك الظروف - بشكل مؤقت - انخفضت الأسعار ، وتحسن وضع القيمة الشرائية لفترة قصيرة^(٢) .

فمع نهاية عام ٧٧٥ هـ / ١٣٧٣ م ، وبداية عام ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م ، وظروف النيل ، وعدم وفائه شهدت البلاد غلاء فاحشاً استمر مدة تزيد عن السنتين ، وانخفضت معه القوة الشرائية للنقود الى كمستوى منخفض بعد أن ارتفعت أسعار المواد الضرورية وغيرها ، اذ وصل سعر الأردب من القمح خمسين درهماً ، والشعير والفول الى خمسة وعشرين درهماً ، ثم تتدرج الأسعار ارتفاعاً حتى وصل سعر الأردب من القمح مائة وخمسين درهماً ، والشعير الى مائة درهم ، والفول بأكثر من ثمانين درهماً الأردب ، وشمل الغلاء كافة الأصناف ، فعزت الأقوات ، وقل جودها ، فمات عدد كبير بسبب الجوع ،

(١) القلشندي ، مآثر الاتانة فى معالم الخلافة ، ج ٢ ص ١٧١ .

(٢) التومرى الاسكندراني ، الامام بالاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ،

ص ٢١٨ ، ٢٢٦ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ١ ، ص ٦٠ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج

١١ ، ص ٦٥ - ٦٦ .

وبما زاد من سوء الأوضاع المجاعة التي حدثت نتيجة لظروف النيل - كما هي العادة - وما صاحبها من انتشار الأوبئة والأمراض ^(١) .

وكما أسلفت فقد استمرت تلك الأزمة مدة سنتين تحسنت الأوضاع بعدها تدريجياً ، حتى عم الرخاء ، والرخص سائر البلاد ^(٢) ، لترتفع القيمة الشرائية للنقود الى معدلات جيدة بعد ذلك الانخفاض .

ففى سنة ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م هبطت الأسعار الى مستويات منخفضة جداً ، ولم تذكر المصادر التاريخية ^(٣) التي أوردت ذلك أى أرقام توضح ذلك الهبوط ، ولكن يمكن تقدير ذلك من واقع ما أوردته بعض المصادر ^(٤) من أن الحنظل بيع كل أربعة وعشرين رطلاً بدرهم ، فيكون سعر اردب القمح بناء عليه أقل من عشرة دراهم ، وتكون القيمة الشرائية على هذا النحو قد ارتفعت بشكل ملحوظ .

أما فى سنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م ، فقد كانت الفلوس النحاسية من الاضطراب والفساد بحيث أدت الى ارتفاع الأسعار ، وبالأذات أسعار السلع الضرورية كالحبوب ونحوها ، فوصل سعر الأردب من القمح الى أربعين درهماً ، وتزايد حتى وصل الى ستين درهماً ^(٥) .

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٢١ ، ابن حجر ، انباء ، ص ٧١ ، العيني ، عقد و ج ٤ ، ورقة ١٨٣ ، الخالدي ، المقصد الرفيع ، ورقة ٧٧ ب .

(٢) القلقشندي ، مآثر الانافة ، ج ٢ ، ص ١٧٣ ، المقرئى ، نفسه ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٧ . ابن حجر ، نفسه ، ص ٧٢ ، ابن تفرى برد ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٦٥ - ٦٦ .

(٣) المقرئى ، نفسه ، ص ٣٢٢ ، ابن حجر ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٥٥ ، ابن اياس ، بقاتع الزهور ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٢٤ .

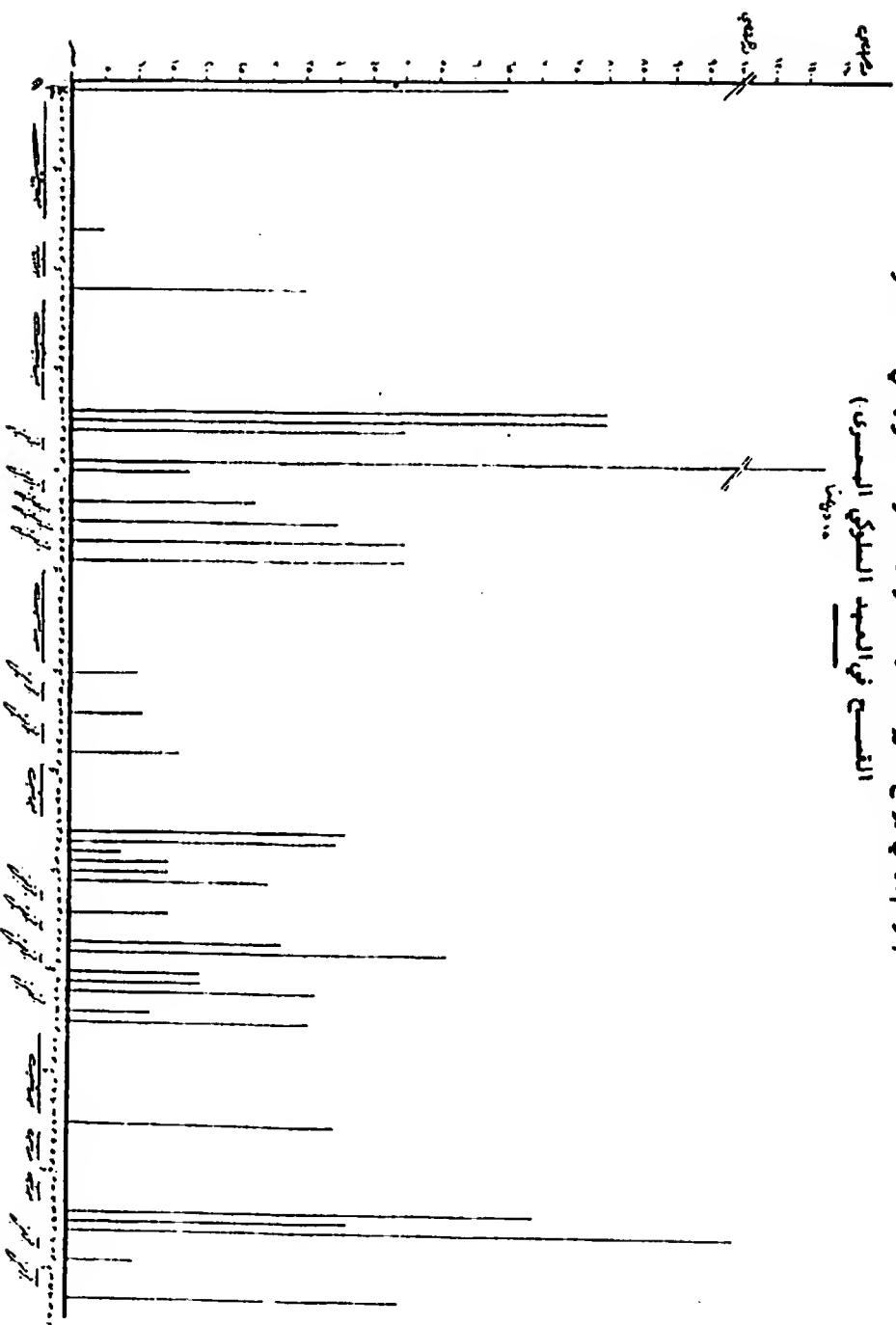
(٤) المقرئى ، نفسه ، ص ٣٢٢ .

(٥) نفسه ، ص ٤٥٧ ، ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٢٩٨ .

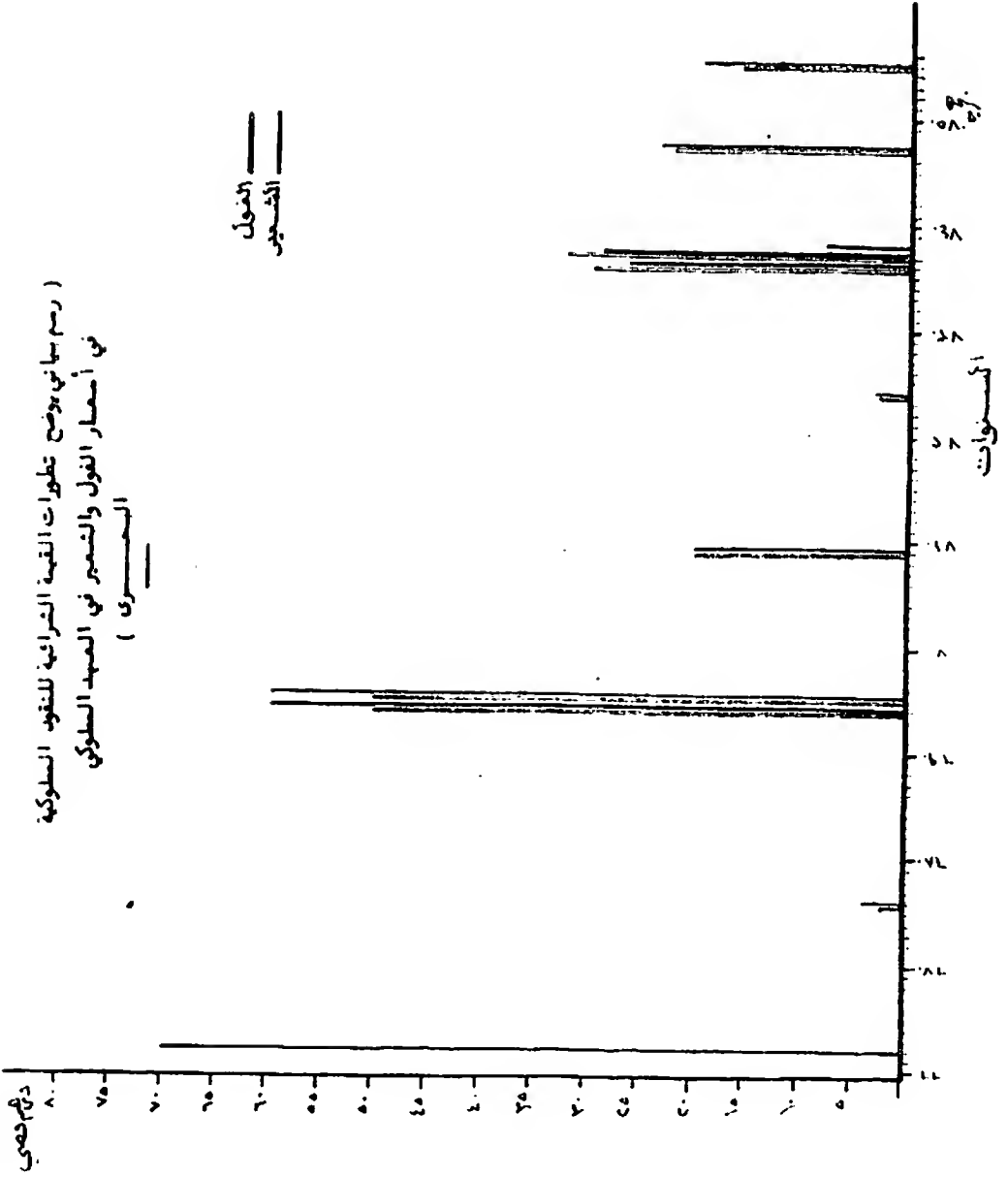
(رسم تخطيطي يوضح تطورات القيمة التراكمية للتقود السلوكية في أعمار

المستوح في العهد السلوكي المصري)

دقيقتا



(رسم ساني يوضح تطورات القيمة الشرائية للنقود السلوكية
في أسعار الفول والشعير في العهد السلوكي
المصري)



ثانياً: العهد المملوكي الجركسي

تزايدت الأسعار مع دخول العام التالي ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م مما يعنى هبوطاً إضافياً للقيمة الشرائية للنقود حيث وصل سعر اردب القمح الى أكثر من مائة درهم ، و اردب الشعير الى خمسين درهماً^(١) .

وأخذت الأسعار تتجه نحو الانفراج اذ بدأت بالانخفاض التدريجى مع ارتفاع القوة الشرائية ، حتى اذا كانت سنة ٧٨٥ هـ / ١٣٨٣ م عم الرخاء . والرخص فى الأسعار ، بحيث تراوح سعر اردب القمح بين ثمانية دراهم وخمسة عشر درهماً ، والشعير بين ستة وثمانية دراهم للأردب^(٢) .

وبعد سنتين أى فى عام ٧٨٧ هـ / ١٣٨٥ م توقفت مياه النيل عن الزيادة ، ولم تبلغ حد الوفاء مما أدى الى ارتفاع الأسعار ، فبلغ سعر اردب القمح ثلاثين درهماً ، والشعير عشرين درهماً للأردب ، والفول بثمانية عشر درهماً ، ثم زادت الأسعار ليصل القمح الى خمسين درهماً للأردب الواحد مسجلاً انخفاضاً إضافياً للقيمة الشرائية للنقود المملوكية^(٣) .

وبعكس ذلك كانت الأسعار سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م قد اتسمت بالانخفاض الكبير ، وتبعاً لذلك ارتفعت القوة الشرائية للنقود ، ، حيث بيع اردب القمح

(١) ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ . المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٦٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٢١٠ ، ابن اياس ، بذائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٠٢ .

(٢) ابن دقماق ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ . المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٠٩ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ١ ، ص ٢٧٩ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ١ ، ص ٨٧ .

(٣) المقرئى ، نفسه ، ص ٥٢٨ ، ابن حجر ، نفسه ، ص ٢٠٣ ، الصيرفى ، نفسه ، ص ١٢٣ .

بثمانية دراهم ^(١) . ويبدو أن هذا الانخفاض لم يستمر بسبب انتشار الوباء في الدولة ^(٢) حيث ترتب عليه ارتفاع الأسعار ، وبالتالي انخفاض القيمة الشرائية للنقود .

وفي سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩٠ م توقفت مياه النيل عن الزيادة ، الأمر الذي أدى الى ارتفاع الأسعار ^(٣) ، وفي ظروف متشابهة أواخر سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣ م ارتفعت الأسعار أيضاً ، فوصل سعر الأردب من لقمع الى أربعين درهماً ، والشعير والفول الى عشرين درهماً ، وتأثر الناس بهذا الارتفاع مما اضطر الدولة الى فتح أهراتها ، والأمر بفتح أهراء الأمراء والتجار لبيع ما فيها من حبوب ، وهددت من امتنع بنهب مخازنه ^(٤) .

وكان لهذا الإجراء أثره على الأسعار التي سجلت انخفاضاً لم يستمر ، حيث عادت ارتفاعها مع بداية العام التالي ٧٩٧ هـ / ١٣٩٤ م ، محققة مزيداً من الانخفاض للقيمة الشرائية للنقود ، وذلك عندما وصل سعر أردب القمح الى سبعين درهماً ، والفول والشعير الى أربعين درهماً ، ثم الى ثمانين درهماً لأردب القمح ، وأربعة وخمسين درهماً لأردب كل من الشعير والفول ^(٥) . وقد

(١) ابن حجر ، انباء ، ج ١ ، ص ٣٤٣ .

(٢) ابن قاضي ، شهبه ، تاريخه ، ج ٣ ، ص ٢٣٩ ، الصبرفي ، نزهة النفوس ، ج ١ ، ص ١٧٠ .

(٣) نفسه ، ص ٣٣٣ .

(٤) ابن الفرات ، معج ٩ ، ص ٣٨٧ ، المقرئ ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٨١٨ ، ابن قاضي شهبه ، المصدر السابق ، ص ٥٢١ - ٥٢٢ ، ابن حجر ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٧٦ ، الصبرفي ، نفسه ، ص ٣٩١ .

(٥) ابن الفرات ، تاريخه ، معج ٩ ، ج ٢ ، ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ص ٤١٦ ، المقرئ ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٨٢٦ ، ٨٤٢ ، ابن قاضي شهبه ، تاريخه ، ج ٣ ، ص ٧٧ ، ابن حجر ، انباء ، ج ١ ، ص ٤٨٦ - ٤٨٧ ، ص ٤٩٥ .

ذكرت بعض المصادر ^(١) أن سبب ذلك الارتفاع هو اضطراب الأوضاع الداخلية في الدولة ، وما عانتها من فتن ومظالم بسبب نزاع الماليك وتنافسهم .

ومع بداية العام التالي ٧٩٨ هـ / ١٣٩٥ م انخفضت الأسعار عدة أيام ارتفعت بعدها لتتخفض القيمة الشرائية للنقود بعد أن وصل سعر اردب القمح الى مائة درهم ^(٢) ، وبعد فترة وجيزة ارتفع الى مائة وخمسة وسبعين ، ثم الى مائتين ، واستمرت الحال عدة أشهر عندما وصلت كميات اضافية من الغلال أدت الى انخفاض عشرة دراهم في سعر اردب القمح ^(٣) ، ومع تدفق الكميات ، وتوالي وصولها استمر الانخفاض التدريجي في الأسعار لتحقيق بعض المكاسب للقوة الشرائية حتى بلغ سعر الأردب من القمح خمسين درهماً ، والشعير والفول ثلاثين درهماً ، ولكن توقف ذلك الهبوط في الأسعار عندما أخذت في الارتفاع مع تناقص الكميات المعروضة من الحبوب ، وبعد أن طمع التجار في الحصول على ربح أفضل لمبيعاتهم ، حتى وصل سعر القمح الى مائة وعشرين درهماً للأردب الواحد ^(٤) .

وفي أوائل المحرم سنة ٧٩٩ هـ / أكتوبر سنة ١٣٩٦ م انحطت أسعار

(١) الصيرفي ، نزلة ، ج ١ ، ص ٣٩٩ ، ص ٤٠٣ ، ٤١٤ ، ابن قاضي شهبة ، نفسه ، ص ٥٤٠ .

(٢) ابن الفرات ، المصدر السابق ، مج ٩ ، ج ٢ ، ص ٤٣٥ ، المقرئ ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٨٤٩ ، الصيرفي ، نفسه ، ص ٤٢١ .

(٣) المقرئ ، نفسه ، ص ٨٥٦ ، ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥٧٧ ، الصيرفي ، نفسه ، ص ٤٢٧ .

(٤) المقرئ ، نفسه ، ص ٨٥٩ ، ابن قاضي شهبة ، نفسه ، ص ٥٨١ - ٥٨٢ ، ابن حجر ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٠٨ ، الصيرفي ، نفسه ، ص ٤٢٩ .

الحبوب عما كانت عليه ، فبيع أردب القمح بستين وخمسين درهماً للأردب ، والفول بخمسة وثلاثين ، والشعير بثلاثين درهماً للأردب ^(١) ، ويتوالى انخفاض الأسعار وارتفاع القيمة الشرائية للنقود المملوكية ، فيصل سعر أردب القمح بعد عدة أشهر الى ثلاثين درهماً ، ثم الى ثمانية وعشرين درهماً ، وقد استمرت القوة الشرائية في ارتفاعها مع انخفاض الأسعار خلال عام ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧ - ١٣٩٨ م عندما وصل سعر أردب القمح الى حوالى أربعة وعشرين درهماً ^(٢) ، وكذلك سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م حتى شهر شوال / يونيو ١٣٩٩ م عندما ارتفع سعر أردب القمح ، وأصبح بأربعين درهماً ^(٣) ، ويستمر على ذلك حتى شهر صفر من العام التالى ٨٠٢ هـ / أكتوبر ١٣٩٩ م حيث زادت قيمة الأردب عشرين درهماً ، لتصبح ستين درهماً للأردب الواحد ، ثم سبعين درهماً ، والشعير والفول بخمسة وثلاثين درهماً ، وقد ذكرت بعض المصادر المعاصرة ^(٤) أن سبب ذلك الارتفاع يعود الى ظروف وفاة السلطان الظاهر بريقوق ، بالإضافة الى نهر النيل ، وعدم ثبات زيادة مائه ، واتجاهها نحو الهبوط ، وبالتالي عدم رى الأراضى الزراعية ، ولقد استمرت الأسعار فى مستوياتها السابقة من الارتفاع ، وان انخفضت قليلاً ليرتفع مع هذا مؤشر القيمة الشرائية للنقود عن مستواه السابق ، وذلك خلال الأربعة أشهر الأولى من سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م ، فبيع أردب القمح بخمسين درهماً ، والشعير

(١) الصيرفى ، نزهة . ج ١ ، ص ٤٣٩ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٩٠٩ .

(٣) نفسه ، ص ٩٧٧ ، ٩٨٢ ، ابن حجر ، ج ٢ ، ص ٩٣ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥١ ، ٥٥٤ .

(٤) المقرئى ، نفسه ، ص ٩٩٣ ، العينى ، عقد ، ج ٢٥ ، ورقة ٩٩ - ١٠٠ .
الصيرفى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٥ ، ابن اياس ، نفسه ، ص ٥٦٣ ، ص ٥٧٢ .

والقول كل أردب منها بثلاثين درهماً^(١) .

وتفيد بعض المصادر التاريخية^(٢) أنه في شهر جمادى الآخرة / يناير ١٤٠١ م ارتفعت الأسعار بنسبة عالية هبطت معها القوة الشرائية للنقود الى مستوى منخفض ، ويعود سبب ذلك الارتفاع المفاجئ في الأسعار الى ظروف الغزو المغولي على بلاد الشام بقيادة تيمورلنك .

وبعد انحسار تلك الظروف عادت القيمة الشرائية للنقود الى مستواها السابق بتراجع الأسعار وانخفاضها ، حيث تأثرت في أثناء سنة ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ . ١٤٠٢ م بالوضع النقدي الذي كانت عليه الدولة من قلة الذهب والفضة ، وغلاتها ، وفساد الفلوس النحاسية وللهبوط الشديد في قيمتها النقدية ، ويحدثنا المقرئى^(٣) عن ذلك بقوله :

«وزاد بالناس البلاء أن أصحاب تمر لنك لا يأخذون ، الا الدراهم والدنانير لا غير ، وردوا الفلوس ، فانحطت ، وصار ما كان بخمسة دراهم لا يحسب الناس فيما بينهم غير درهم واحد» .

هذا وقد بلغت قيمة أردب القمح في ظل تلك الظروف خمسين درهماً والشعير والفول خمسة وعشرين درهماً لكل اردب منها^(٤) .

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ابن اياس ، بذائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ٥٩١ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٤٨ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ١٣٩ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٩٣ ، ابن اياس ، نفسه ، ج ١ ، ق ٦١٣ .

(٣) المقرئى ، نفسه ، ص ١٠٤٩ ، وقد نقل ابن اياس ذلك النص عن المقرئى فى كتابه بذائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٣ .

(٤) المقرئى ، نفسه ، ص ١٠٧٦ ، ابن اياس ، نفسه ، ص ٦٣٨ .

ويظهر أثر العامل النقدي فى ارتفاع الأسعار ، وانخفاض القيمة الشرائية للنقود خلال سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ - ١٤٠٣ م . حيث أوضحت بعض المصادر التاريخية ^(١) تأثير الفلوس النحاسية وما تعرضت له من نقص أوزانها ، والتلاعب بقيمتها النقدية فى ارتفاع الأسعار عندما وصل سعر أردب القمح فى شهر رجب / فبراير ١٤٠٣ م الى سبعين درهماً ، وشمل الغلاء كل شئ من المأكّل والمشارب والملابس ^(٢) ، وتزايدت الأسعار فى أواخر العام ، فأصبح سعر أردب القمح خمسة وتسعين درهماً ، والفلّ ثمانين درهماً ، والشعير ستين درهماً للأردب ^(٣) .

أما عن سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ - ١٤٠٤ م ، فتتجمع المصادر التاريخية ^(٤) على أنها ليست كغيرها من سنوات الدولة الأخرى ، نظراً لما عانتها الدولة خلالها من ظروف سيئة فى مجمل الأوضاع فيها - سياسية واقتصادية واجتماعية ، وما يهمنى هو الأوضاع النقدية ، وبصفة خاصة القيمة الشرائية للنقود المملوكية ، ويظهر لنا سوء الأوضاع التى كانت تعانيها الدولة من خلال الارتفاع التدريجى للأسعار ، فتذكر تلك المصادر التاريخية عن أسعار تلك السنة أن

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١١٠٤ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ص ١٠٩١ ، ١١٠١ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ١٦١ ، ابن ايماس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٩ ، ٦٦٧ .
(٣) المقرئى ، نفسه ، ص ١١٠٧ ، الصيرفى ، نفسه ، ص ١٦٩ ، ابن ايماس ، نفسه ، ص ٦٧٣ .

(٤) فضلاً أنظر المقرئى ، نفسه ، ص ١٠٣٥ ، اغائة ، ص ٧٩ ، ٨٣ ، ابن حجر ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦١ ، الصيرفى ، نفسه ، ص ١٧٨ ، ابن ايماس ، نفسه ، ص ٦٧٨ .

سعر أردب القمح مائة درهم فلوس^(١) (حوالى خمسين الى خمسة وخمسين درهماً فضياً) ، والشعير والفول بسبعين درهماً فلوساً (حوالى سبعة وثلاثين درهماً فضياً)^(٢) ، ومع الاضطراب النقدي ، وعدم استقرار الأوضاع النقدية كان للظروف الطبيعية ، وبالأذات نهر النيل ، تلهذب مستويات مائه ، أثر كبير فى ارتفاع الأسعار وبالتالى انخفاض القيمة الشرائية للنقود ، وهذا ما حدث عندما وصل سعر اردب القمح الى مائة وعشرين درهماً^(٣) (حوالى ستين درهماً فضياً) ، ثم الى مائة وثلاثين^(٤) (حوالى خمسة وستين درهماً فضياً) ، ثم فى شهر ربيع الأول / سبتمبر ١٤٠٣ م الى مائة وثمانين درهماً فلوساً (حوالى تسعين درهماً فضياً) ، والشعير بمائة درهم فلوس^(٥) (حوالى خمسين درهماً فضياً) ، ثم بعد أيام ارتفع الى مائتين وخمسين درهماً فلوساً لأردب القمح

(١) يبدو أن هذا السعر مقدر بالدرهم الفلوس التى سبق الحديث عنها ص . فالارتفاع التوالى فى الأسعار ، وبشكل ملفت للنظر فى ضخامة الأرقام يدعو الى هذا القول ، فليس من المعقول أن يصل سعر اردب القمح الى أربع مائة وخمسين درهماً فى ذلك العام . (المقريزى ، اغانة ، ص ٧٧) ، ومن المرجح أنه لم يصل الرق الى هذا المستوى الا لكونه بالفلوس النحاسية التى أوجدت فى الدولة ظاهرة التضخم وما صاحبها من ارتفاع كبير فى الأسعار ، وعليه فإن تقدير القيمة الشرائية للنقود بدءاً من تلك السنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م سيكون بالدرهم الفلوس ، ومعادلتها ما أمكن بالدرهم الفضية ، كلما جادت المصادر التاريخية بمثل تلك المعادلة وستتم تلك المعادلة بوضعها بين قوسين (درهم فضى) ، وهو ما يمثله السعر بالدرهم الفضية .

(٢) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١١٠٤ ، ص ١١١١ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٧٨ .

(٣) المقريزى ، نفسه ، ص ١١١٣ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ١٧٨ .

(٤) المقريزى ، نفسه ، ص ١١١٥ .

(٥) الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

(حوالى مائة وعشرين درهماً فضياً) ، والفول والشعير الى مائتين وثلاثين درهماً فلوساً للأردب الواحد ^(١) (ما يعادل مائة وخمسة عشر درهماً فضياً تقريباً) .

ومع استمرار تدهور الأوضاع النقدية فى الدولة ، وتعرض أحوالها لمزيد من الظروف الطبيعية الصعبة استمرت الأسعار فى ارتفاعها ، والقوة الشرائية فى انخفاضها ، وتظهر الأسعار ارتفاعاً واضحاً بالنسبة لسعر القمح ، ففى شهر رجب / يناير ١٤٠٤ م ، وصل سعر الاردب الى ثلاثمائة وعشرين درهماً فلوساً (أى مائة وستين درهماً فضياً) ، وهذه هى المرة الأولى فى تاريخ الدولة المملوكية التى تصل فيها أسعار الغلال الى المستوى المذكور ، ولا شك فى أنه انخفاض حاد فى القوة الشرائية للنقود المملوكية زاد من تدهور الأوضاع النقدية ، وكان له نتائج سلبية على مختلف أوضاع الدولة الأخرى ^(٢) .

لم تكن تلك الأسعار هى أقل ما بلغته القيمة الشرائية للنقود ، بل انخفضت أكثر عندما وصل سعر اردب القمح الى اربعمائة درهم فلوس (حوالى مائتى درهم فضى) والشعير والفول الى مائتين وخمسين درهماً فلوساً للأردب لكل منهما ^(٣) (أى ما يعادل مائة وخمسة وعشرين درهماً فضياً) ، ثم تواصلت الأسعار ارتفاعاً ، فيصل سعر اردب القمح الى أربعمائة وخمسين درهماً فلوساً (حوالى مائتين وخمسة وعشرين درهماً فضياً) والشعير والفول كل اردب منهما

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١١١٦ ، ابن اياس ، بذائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٨٢

(٢) المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١١٢٠ ، الصيرفى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٨١ ، ١٨٤ ، ابن اياس ، نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٨٦ .

(٣) المقرئى ، نفسه ، ص ١١٢٢ ، ابن حجر ، انباء ، ج ٢ ، ص ٢٦١ ، الصيرفى ، نفسه ، ص ١٨٦ ، ابن اياس ، نفسه ، ص ٦٨٧ .

بأكثر من ثلاثمائة درهم فلوس ^(١) (حوالى مائة وخمسين درهماً فضياً).

ومع نهاية ذلك العام . وبداية العام التالى ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م بدأت الأسعار بالتراجع ، وانخفضت بنسبة كبيرة ، حيث بلغت قيمة اردب القمح مائتين وخمسين درهماً فلوساً (ما يعادل خمسة وسبعين درهماً فضياً تقريباً) ، ثم تنخفض الى مائتين وعشرين درهماً فلوساً (أى ستة وستين درهماً فضياً) ، والشعير قيمة الأردب مائة وأربعون درهماً فلوساً ^(٢) (حوالى اثنين وأربعين درهماً فضياً) .

كان المتوقع لهذا الانخفاض فى الأسعار ، والارتفاع فى القوة الشرائية أن يتوقف فى ظل عدم ظهور مؤشرات تدل على تحسن الأوضاع فى الدولة ، سواء كانت سياسية أم اقتصادية أم ظروف طبيعية ، ففى شهر ربيع الأول / سبتمبر ارتفعت الأسعار الى مستوياتها السابقة ، فبلغ سعر اردب القمح الى أربعمائة درهم فلوس (تعادل مائة وواحد وعشرين درهماً فضياً) ، والقول والشعير كل اردب بثلاثمائة وعشرين درهماً فلوساً (أى سبعة وتسعين درهماً فضياً تقريباً) وعم الغلاء وارتفاع الأسعار سائر المبيعات ^(٣) لتتخفض مقابل ذلك القيمة الشرائية للنقد المملوكية .

وتضاعفت الأسعار فى شهر رجب / يناير ١٤٠٥ م ، ومع اشتداد الغلاء ، وتزايد الفقراء وعم الجوع ، فكثرت الأموات فى الدولة ، وتنتقل بعض المصادر التاريخية صوراً - وان كانت مبالغاً فيها - توضح حجم المأساة ، وضخامة الأزمة

(١) المقرئى . إغاثة الأمة . ص ٧٧ - ٧٨ .

(٢) المقرئى . السلوك . ج ٣ . ص ١١٣ . ابن حجر . انبا . ج ٢ . ص ٢٦٨ .

الصيرفى . نزهة . ج ٢ . ص ١٩٥ . ابن اباس . بدائع الزهور . ج ١ . ق ٢ . ص ٦٩٣ .

(٣) المقرئى . نفسه . ص ١١٢٧ - ١١٣٤ . الصيرفى . نفسه . ج ٢ . ص ١٩٤ -

١٩٥ . ابن اباس . نفسه . ج ١ . ق ٢ . ص ٦٩٥ . ٦٩٧ . ص ٧٠٥ . ٧١٢ .

التي كانت تمر بها الدولة ، والتي جعلت القوة الشرائية للنقود تنحط بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ دولة المماليك .

وينقل لنا المقرئى - وهو فى طبيعة مؤرخى الفترة والمعاصر لأحداثها - صورة حية لتلك الأزمة ، أسبابها وطرق علاجها ، بل إن تلك الأزمة التي كانت تمر بها الدولة هى ما دعا المقرئى الى تأليفه كتابه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) ، والذي خصصه للحديث عن الأزمات التي تعرضت لها مصر خلال تاريخها عطفاً على ما تعرضت له من أزمات خلال عصر المماليك ، وقد أوضح المقرئى فى كتابه المذكور مسببات تلك الأزمة وسياسة الدولة فى معالجتها ، والسبل الكفيلة بعلاجها ، وتخفيف اثارها على الدولة ورعاياها .

حاولت الدولة معالجة الأزمة التي كانت تمر بها عن طريق بعض الإصلاحات التي أدخلتها على النقود النحاسية ، ورفع قيمتها النقدية ، ومحاولة الدولة - بزعامة الأمير يلغا السالمى - ربط أسعار المبيعات بسعر الذهب ، لا بسعر الفلوس النحاسية التي أصبحت فى تلك الفترة الأساس الذى تقاس به الأثمان والمبيعات ، ومعها أسعار الذهب أيضاً ، ومع أن المصادر التاريخية لا تبين لنا التطورات التي أعقبت تلك الإصلاحات ، فإن الوضع النقدى لم يسجل أى مؤشر لنجاحها بدليل استمرار الاضطراب والفساد النقدى بنفس المستوى الذى كانا عليه من قبل .

ومهما كانت الحال ، فقد صاحب تلك الإصلاحات قيام الدولة بتسعير بعض السلع الضرورية ، ومن بينها القمح ، حيث حدد سعر الأردب الواحد بمائتى درهم فلوس ، (وهى فى ذات الوقت مائتا درهم فضى) ، ويعنى هذا التحديد انخفاضاً فى الأسعار التي بلغت مستويات عليا ، وأدى وصول كميات جديدة

من الغلال وتوفرها فى زسواق الدولة الى انخفاض أسعارها ، وذلك عندما بلغ سعر أردب القمح مائة وخمسين درهماً فلوساً (مائة وخمسين درهماً فضياً) ، ثم الى مائة درهم فلوس^(١) (أى مائة درهم فضى) .

هذا ونلاحظ على القيمة النقدية للدراهم الفضية الانخفاض الحاد بعكس الفلوس النحاسية ، فعند ربط القوة الشرائية بالفلوس لمجدها مرتفعة مقارنة بأسعار السنة السابقة ، أما عند ربطها بالدراهم الفضية ، فنجدها قد انخفضت ، ويحدثنا المقرئى عن هذا الوضع النقدى الشاذ بقوله^(٢) :

« وارتفعت أسعار جميع المبيعات حتى بلغت أضعاف قيمتها المعتادة بالفضة ، فصار من معلومه مثلاً مائة درهم بالشهر - وكان قبل هذه الحوادث والمحن يأخذها فضة عنها خمسة مثاقيل ذهباً - فإنه الآن يأخذ عن المائة سبعة عشر رطلاً وثلاثى رطل من الفلوس يقال لها مائة درهم ، ولا تبلغ ديناراً واحداً ، فيشتري بهذه المائة ما كان قبل هذا يشتري به بأقل من عشرين بكثير ، فإن كل سلعة كانت تباع بدينار لا تباع الآن الا بدينار وبأكثر من دينار » .

المهم أن القيمة النقدية للدراهم قد تحسنت كثيراً خلال عام ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، وانخفضت الأسعار لترتفع القيمة الشرائية بدرجة كبيرة ، وكذلك الفلوس النحاسية ارتفعت القوة الشرائية لها ، ولكن بنسبة قليلة عندما انخفضت الأسعار ، وبلغ سعر أردب القمح مائة وسبعين درهماً فلوساً (أى سبعة وخمسين درهماً فضياً) ، والقول والشعير لكل أردب منها مائة وخمسون درهماً

(١) المقرئى ، السلوك . ج ٣ ، ص ١١٥٥ ، ابن ايماس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧١٥

(٢) نفسه ، ص ٢٧ ، وقد نقل عنه ذلك ابن ايماس ، نفسه ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٧٥٨ .

فلوساً^(١) (تعادل خمسين درهماً فضياً) وقد كان هذا الانخفاض مؤقتاً حيث ارتفعت الأسعار في شهر صفر / يوليو - أغسطس ، فوصل سعر اردب القمح الى مائتين وعشرين درهماً فلوساً (حوالي ثلاثة وسبعين درهماً فضياً وثلاث درهم) ، والقول والشعير كل اردب منها بمائة وعشرين درهماً فلوساً^(٢) (أى أربعين درهماً فضياً) ، واستمرت الأسعار في الزيادة خلال شهر ربيع الآخر / سبتمبر وذلك عند ربطها بالفلوس النحاسى التى شهدت انخفاضاً فى قيمتها النقدية أدى الى ضعف قيمتها الشرائية وانخفاضها ، بعكس الدراهم الفضية التى ارتفعت قيمتها النقدية بالتدريج مقابل الفلوس ، وارتفعت مع ذلك قيمتها الشرائية ، ونلاحظ ذلك عندما وصل سعر اردب القمح الى مائتين وستين درهماً فلوساً (تعادل خمسة وستين درهماً فضياً) ، وذلك خلال شهر ربيع الآخر / سبتمبر ، وكذلك فى شهر جمادى الأولى / أكتوبر بوصوله الى مبلغ مائتين وثمانين درهماً فلوساً^(٣) (حوالي خمسة وأربعين درهماً فضياً) ، ومع قدوم شهر ذى الحجة / مايو - يونيو سنة ١٤٠٦ م انحلت الأسعار ، وخصوصاً أسعار الحبوب ، فترتفع القيمة الشرائية للنقود المملوكية ، حيث بلغ سعر الأردب من القمح مائة وثلاثين درهماً فلوساً (تعادل اثنين وثلاثين درهماً فضياً ونصف) ، ثم مائة وعشرين درهماً^(٤) (أى ثلاثين درهماً فضياً) ، ثم يعود الى مستواه قبل ذلك ، وهو مائة وثلاثون درهماً فلوساً (اثنان وثلاثون درهماً فضياً) ،

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١١٧ .

(٢) نفسه ، ج ٤ ، ص ٣ ، ابن اياس ، بدائع ، ق ٢ ، ص ٧٣٧ .

(٣) المقرئى ، نفسه ، ص ٤ - ٥ ، إغاثة ، ص ٤١ ، ابن اياس ، نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٣٨ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ١٩ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٥١ .

والفول والشعير بمائة درهم فلولس^(١) (خمسة وعشرين درهماً فضياً) لكل أردب منهما .

أما في سنة ٨٠٩ هـ ، وبالتحديد في شهر شعبان / ديسمبر - يناير ١٤٠٧ م ، فقد شهدت الأسعار انخفاضاً ملحوظاً صاحبه ارتفاع في القوة الشرائية للنقود المملوكية ، وذلك عندما بلغ سعر الأردب من القمح ستين درهماً فلولساً (ما يعادل اثني عشر درهماً فضياً) والشعير خمسة وثلاثين فلولساً للأردب الواحد (أى سبعة دراهم فضية) ، والفول بخمسة وعشرين درهماً فلولساً^(٢) أى (خمسة دراهم فضية) ، وبعد شهرين تقريباً انتشر الوباء ، وكثر مع انتشاره الأموات ، واتجهت الأسعار تبعاً لذلك نحو الارتفاع^(٣) .

ويظهر هذا الارتفاع في سنة ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ - ١٤٠٨ م عندما بلغ سعر أردب القمح مائة وثمانين درهماً فلولساً^(٤) (تعادل ستة وثلاثين درهماً فضياً) ، وينظرة الى ذلك السعر نجد أن القيمة الشرائية للفولوس النحاسية قد هبطت كثيراً ، بينما حافظت على مستواها السابق بالنسبة للدراهم الفضية .

وفي السنة التالية تنخفض الأسعار ، وترتفع القيمة الشرائية للنقود يتراجع القمح الى مائة درهم فلولس (حوالى عشرين درهماً فضياً) للأردب الواحد ، وكان الشعير بسبعين درهماً فلولساً (خمسة عشر درهماً فضياً) ، والفول بستين درهماً فلولساً^(٥) (ما يعادل اثني عشر درهماً فضياً) .

(١) ابن اياس ، نفسه ، ص ٧٥٧ .

(٢) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٠ ، ابن اياس ، نفسه ، ص ٧٦٧ .

(٣) المقرئى ، نفسه ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٤) المقرئى ، نفسه ، ص ٥١ ، ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٦٧ .

(٥) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٧ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٧٦ .

هذا ولم يستمر ذلك الانخفاض طويلاً ، اذ شهدت الدولة بعد عدة شهور اضطراباً نقدياً ، تمثل فى عدم ثبات أسعار صرف الذهب ، واتجاهها نحو الارتفاع مع محاولات الدولة تثبيت أسعار صرف الدينار الذهبى وتحديد قيمته بالإضافة الى ما كانت تشهده الدولة من اضطراب سياسى تمثل فى تنافس كبار أمراء الدولة ، وتنازعهم على السلطة ، وقد أدت تلك الظروف الى تذبذب الأسعار ، وعدم استقرارها وارتفاعها تدريجياً نحو مستويات مرتفعة .

ففى المحرم من سنة ٨١٢ هـ / مايو سنة ١٤٠٩ م . وصل سعر الأردب من القمح الى مائت وخمسين درهماً فلوساً ^(١) (حوالى ستة وعشرين درهماً فضياً) ، وأخذ السعر فى الزيادة حتى وصل سعر اردب كل من الشعير والفلول الى مائتى درهم فلووس ^(٢) (أى ثمانية وعشرين درهماً ونصف درهم) .

وفى بداية العام التالى انخفض سعر القمح بشكل مؤقت ، فانحدر الى مائتى درهم فلووس (ثمانية وعشرين درهماً فضياً ونصف) للأردب الواحد ، ثم ارتفع فى شهر ربيع الأول / يوليو الى مائتين وخمسين درهماً فلوساً (خمس وثلاثين درهماً فضياً ونصف) والفلول بمائة وستين للأردب (قريب من ثلاثة وعشرين درهماً فضياً) ، والشعير بمائة وخمسين درهماً فلوساً ^(٣) (تعاادل واحداً وعشرين درهماً فضياً ونصف) .

ويعود ذلك التذبذب فى الأسعار ، والقيمة الشرائية للنقود الى الاضطراب النقدي الذى كانت عليه الفلوس النحاسية وأسعار مبادلتها ، وكذلك ارتفاع أسعار تبادل الذهب ، ولم تف الدولة بوعودها تخفيض أسعار الذهب ، وأسعار

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، نفسه ، ٩١ .

(٢) نفسه ، ص ١١٩ ، ابن حجر ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٣ .

(٣) والمقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ١٢٨ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

بيع المواد الاستهلاكية ^(١) ، لتستمر تلك الأسعار في ارتفاعها ، والقيمة الشرائية للنقود في انخفاضها ، ولم تنخفض الا بسفر السلطان المملوكى الى بلاد الشام ، خصوصاً ، وأنه المتسبب في اضطراب الوضع النقدي في الدولة ، وارتفاع أسعار تبادل النقود ^(٢) ، وقد بلغ سعر اردب القمح بعد ذلك الانخفاض في شهر ذى الحجة / ابريل ١٤١١ م مائة وثلاثين الى مائة وأربعين درهماً فلوساً (تعاادل عشرين درهماً) ، والفول بمائة درهم فلوس (أربعة عشر درهماً فضياً وثلاثاً تقريباً) ، والشعير بثمانين درهماً من الفلوس للأردب ^(٣) (تعاادل أحد عشر درهماً فضياً ونصف درهم) .

وقد حافظت الأسعار على معدلها السابق تقريباً مع اتجاهها نحو الانخفاض في بعض الأحيان ، وذلك خلال السنوات التالية ، ففي سنة ٨١٤ هـ / ١٤١١ - ١٤١٢ م حافظت القيمة الشرائية للنقود على مستواها السابق ^(٤) ، وفي سنة ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م كان سعر الاردب من القمح مائة وثمانين درهماً فلوساً ^(٥) (أى ستة وعشرين درهماً فضياً) وفي سنة ٨١٧ هـ / ١٤١٤ - ١٤١٥ م انخفض السعر الى مائة وأربعين درهماً فلوساً ^(٦) (أى أحد عشر درهماً فضياً تقريباً) ، وانخفض أكثر بعد ذلك عندما بلغ سعر الأردب ثمانين درهماً فلوساً ^(٧) (حوالى ستة دراهم فضية ونصف) .

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ١٥٣ .

(٢) فضلاً أنظر ص .

(٣) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٦٥ ، ص ١٧٣ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ٤٦٣ .

الصيرفى ، المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .

(٤) الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ .

(٥) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ ، العينى ، عقد ، ص ١٨٥ .

(٦) المقرئى ، نفسه ، ص ٢٨٠ .

(٧) نفسه ، ص ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

وقد أدى الى تلك الانخفاضات المتتالية فى الأسعار ، وبالتالى ارتفاع القوة الشرائية للنقود ، ما كانت عليه الدولة من استقرار سياسى ، وما شهدته من أوضاع نقدية شبه مستقرة بعد فترة من الاضطراب السياسى والاقتصادى ، وفساد الأحوال فى الدولة ، بسبب فساد السلطان الناصر فرج بن برقوق ، وسوء سياسته وتدبيره ، كذلك كان للسياسة النقدية الحسنة التى سار عليها السلطان المؤيد شيخ نتائج إيجابية على الوضع الاقتصادى عامة ، والنقدى بصفة خاصة ، وقد كان من تلك النتائج عودة الدراهم الفضية الى مكانتها الطبيعية فى النظام النقدى المملوكى ، بصفتها وسيلة الدفع فى مختلف العمليات الاقتصادية ، وبالتالى ارتفعت قيمتها النقدية الى مستويات جيدة ساعدت على التخفيف من الآثار السيئة لارتفاع الأسعار الذى شهدته الدولة فى الفترة السابقة .

وفى سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ - ١٤١٦ م ارتفع سعر الغلة قليلاً بسبب الرباء الذى تفشى فى الدولة أوائل العام ، ووصل سعر الأردب من القمح الى مائة وستين درهماً فلوساً ، (أى تسعة دراهم فضية تقريباً) ، والشعير الى مائة وثلاثين درهماً فلوساً للأردب (حوالى سبعة دراهم فضية وربع) ، ثم انحلت الأسعار مع وفاء النيل ، وكثرة ما وصل من المحاصيل الزراعية الجديدة ^(١) .

ولكن الغلاء الكبير حدث بعد ذلك بعدة أشهر ، وبالتحديد فى شهر شوال / نوفمبر ١٤١٥ م ، حيث بلغ ريع سعر الأردب من القمح ما يزيد عن أربعمائة درهم فلوس (تعادل اثنين وعشرين درهماً فضياً) ، ثم زاد سعره ، فوصل الى حوالى ستمائة درهم فلوس (أى ثلاثة وثلاثين درهماً فضياً وثلاث) ، والشعير كل أردب بمائتين وخمسين درهماً فلوساً (حوالى أربعة عشر درهماً فضياً) .

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣١٨ . ٣٢٠ . الصيرفى ، نزعة ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ .

وتذكر المصادر التاريخية ^(١) التي أوردت تلك المعلومات ، أن أسباب تلك الأزمة تعود الى عوامل طبيعية : منها عدم نزول المطر في بعض جهات الدولة مما أدى الى الجفاف والقحط ، ومنها ظهور الفأر بأرض مصر فالتف بظهوره كميات كبيرة من الغلال ، بالإضافة الى عوامل سياسية داخلية تمثلت بقيام عدد من الفتن والمنازعات في بعض أقاليم الدولة ، فقل جلب المحاصيل والمواد الاستهلاكية الى الأسواق ، والمراكز التجارية .

وجاءت سنة ٨١٩ هـ / ١٤١٦ - ١٤١٧ م ، والأوضاع الاقتصادية على ما هي عليه ، بل انها ازدادت سوءاً ، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً كبيراً ، أدى الى انخفاض القوة الشرائية للنقود المملوكية الى مستوى متدن ، وأدت تلك الظروف الى حدوث أزمة اقتصادية خانقة ، كان من تأثيراتها انتشار القحط والمجاعة والوباء ، في نواحي الدولة والقضاء على عدد كبير من الناس ^(٢) .

لقد بلغ سعر الأردب من القمح عند بداية تلك الأزمة (في شهر المحرم / مارس ١٤١٦ م) أكثر من ثلاثة دنانير ذهبية (ويعادل الدينار الواحد مائتين وسبعين درهماً فلوساً) أى أكثر من ثمانمائة درهم فلوس (تعادل أكثر من خمسة وأربعين درهماً) والشعير بخمسة وأربعين درهماً فلوساً للأردب الواحد ^(٣) (أى ثلاثين درهماً فضياً) .

(١) القلشمدى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣١٨ . ٢٢٠ ، الصيرفي ، نزعة ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ ، ابن حجر ، ج ٣ ، ص ٦٩ ، ٧١ ، العيني ، عقد ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ (تحقيق القرموط) ، الصيرفي ، نفسه ، ٣٥٧ .

(٢) عن تلك الأزمة فضلاً أنظر :

المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٤٢ ، ٣٥٥ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٨٥ - ٨٧ ، العيني ، السيف المهند ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٤٠ .

وفى شهر صفر / ابريل انخفضت الأسعار بشكل ملحوظ بعد سلسلة من الإجراءات التى اتخذها السلطان المؤيد شيخ لمواجهة ارتفاع أسعار الغلال ، كان من أهمها تأمين كميات من الحبوب لسد احتياجات ومتطلباتهم منها ^(٢) ، وتبعاً لذلك انحط سعر الأردب من القمح الى مائتين وسبعين درهماً فلوساً ^(٣) (أى ثمانية عشر درهماً فضياً) ، ثم واصل انخفاضه الى مائتين وخمسين درهماً فلوساً ^(٤) (أى خمسة عشر درهماً فضياً وربع تقريباً) ، ثم الى مائة وثلاثين درهماً فلوساً ^(٥) (أى ثمانية دراهم فضية تقريباً) .

فى شهر جمادى الأولى من العام التالى ٨٢٠ هـ / يوليو - أغسطس ١٤١٧ م ، وبسبب نقص مياه النيل ، ارتفعت الأسعار بنسبة طفيفة ، حيث بلغ سعر اردب القمح مائتى درهم فلوس (حوالى ثلاثة عشر درهماً فضياً وثلاث درهم) ، ولكن لم تلبث مياه النيل ان بلغت حد الوفاء ، لينخفض سعر الحبوب ، ويصل سعر الاردب من القمح الى مائة وثلاثين درهماً فلوساً (أى ثمانية دراهم فضية ونصف) ، ثم الى مائة درهم فلوس (أى ستة دراهم ونصف تقريباً) ، وذلك فى شهر ذى الحجة من السنة نفسها فبراير سنة ١٤١٨ م ، والفول والشعير بأقل من تسعين درهماً فلوساً (أى خمسة دراهم فضية) ، وفى أواخر

(١) المقرئى ، نفسه ، ص ٣٤٢ ، ابن حجر ، نفسه ، ص ٨٥ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٣٥٩ .

(٢) العينى ، عقد ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ابن تفرى بردى ، المصدر السابق ، ج ١٤ ، ص ٤٠ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٩ ، ان تفرى بردى ، نفسه ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٤) العينى ، عقد الجمان ، ص ٢٦٦ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ .

(٥) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٣١ .

الشهر ارتفع السعر الى أكثر من الضعف ، وانخفضت تبعاً لذلك القيمة الشرائية للنقود ، حيث وصلت قيمة اردب القمح الى مائتين وأربعين درهماً فلوساً (تعادل ثلاثة عشر درهماً فضياً وثلاث درهم) ، والشعير والفول الى مائتى درهم فلوس لكل اردب منها (حوالى أحد عشر درهماً فضياً) .

وترجع المصادر التاريخية ^(١) التى أوردت تلك المعلومات أسباب ارتفاع الأسعار ، وانخفاض القيمة الشرائية للنقود المملوكية الى عدم نزول المطر فى فصل الخريف والشتاء مما أدى الى قلة المحاصيل المنتجة فيهما ، فاضطر الناس الى الاحتفاظ بما لديهم من غلال ، وعندما كثر الطلب عليها مع قلة المعروض منها ارتفعت أسعارها . ودخلت سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م ، والأسعار على ما هى عليه من الارتفاع ، واستمرار الانخفاض فى القيمة الشرائية للنقود نظراً لتأثير العوامل الطبيعية ، كنهر النيل وعدم زيادة مائه ، وتقلب الظروف المناخية ، اضافة الى انتشار بعض الآفات الزراعية التى أفسدت كميات من الغلال ^(٢) ، كذلك أثر الوضع النقدى ، وما كانت عليه النقود المملوكية بأنواعها من اضطراب وفساد .

لقد بلغ سعر اردب القمح مائتين وخمسين درهماً فلوساً ^(٣) (قريباً من ثمانية عشر درهماً فضياً) ، ثم زاد عشرة دراهم فلوس ، وبلغ سعر الفول والشعير مائتين وخمسين درهماً فلوساً ^(١) (ثمانية عشر درهماً فضياً تقريباً) .

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٣١ ، ابن حجر ، انبا ، ج ٣ ، ص ١٣٦ ، المعينى ، عقد ، ص ٣٠٢ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٤٠٠ .

(٢) المعينى ، نفسه ، ص ٣٢٥ ، الصيرفى ، نفسه ، ص ٤٢٠ .

(٣) المعينى ، نفسه .

وفى رجب من سنة ٨٢٢ هـ / أغسطس ١٤١٩ م انخفض السعر مؤقتاً ، فوصل القمح كل اردب الى مائتين وخمسين درهماً (حوالى ثمانية عشر درهماً فضياً) ، والشعير الفول الى مائة وسبعين درهماً فلوساً^(١) (حوال اثنى عشر فضياً وأربعة عشر بالمائة من الدرهم) ، ولكن عاد السعر الى الارتفاع فى شهر شعبان / سبتمبر بسبب نقص مياه النيل وعدم وفائه ، فوصلت قيمة الأردب القمح الى ثلاثمائة درهم فلوس (أى واحد وعشرين درهماً فضياً ونصف) ، والشعير كل اردب بمائتين وخمسين درهماً فلوساً (تقريباً ثمانية عشر درهماً فضياً) ، ثم زادت الأسعار فى رمضان / أكتوبر .. وكذلك فى ذى القعدة / ديسمبر ليصل سعر اردب القمح الى ثلاثمائة وخمسين درهماً فلوساً (خمسة وعشرين درهماً فضياً) ، وتعود أسباب ذلك الارتفاع الى العوامل الطبيعية السابق ذكرها ، بالإضافة الى عدم تأمين طرق القوافل التجارية البرية والنهرية ، وتفشى ظاهرة قطع الطرق التى انتشرت بكثرة فى تلك الفترة أمام تهاون الدولة فى معاقبة قطاع الطرق أو القضاء عليهم ، كما أدى الطمع المادى والحرص على الربح من قبل التجار وأصحاب الأموال الى نقل الغلال الى أقاليم أخرى فى الدولة تتسم بارتفاع أسعار الغلال فيها ، فقلت الكميات المعروضة فى الأسواق والمراكز التجارية ، وبالتالي ارتفعت أسعارها^(٢) .

وامتداداً لتلك الظروف التى كانت تعيشها الدولة ، ارتفعت الأسعار أكثر مؤدية الى زيادة الانخفاض فى القيمة الشرائية للنقد ، وذلك فى المحرم سنة

(١) المريزى . المصدر السابق ، ص ٤٧٠ - ٤٧١ .

(٢) المريزى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٥٠٠ .

(٣) نفسه ، ج ٤ ، ص ٥٠٣ ، ص ٥١٠ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ١٧٤ ، المعنى ،

عقد ، ص ٣٦٠ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .

٨٢٣ هـ / يناير - فبراير ١٤٢٠ م ، حيث بلغ سعر اردب القمح أربعمائة درهم فلوس (ثمانية وعشرين درهماً فضياً ونصف) ، و اردب كل من الشعير والبول بمائتين وخمسين درهماً فلوساً (سبعة عشر درهماً فضياً وخمسة وثمانين بالمائة من الدرهم) ، ولقد انخفض السعر بعد ذلك ، حيث كان فى شهر شعبان / أغسطس ثلاثمائة درهم فلوس (واحداً وعشرين درهماً فضياً ونصف) لأردب القمح ، ومائة وثمانين درهماً فلوساً ^(١) (اثنى عشر درهماً فضياً وخمسة وثمانين بالمائة من الدرهم) لأردب الشعير .

وتزداد الأسعار مع بداية سنة ٨٢٤ هـ / يناير سنة ١٤٢١ م ، فبيع أردب القمح بمائتين وثمانين درهماً فلوساً (أى عشرين درهماً فضياً) ، والشعير بمائة وسبعين درهماً فلوساً (أكثر من اثنى عشر درهماً فضياً) ، والبول بمائة وستين درهماً فلوساً ^(٢) (قريب من أحد عشر درهماً فضياً ونصف) .

وفى صفر من سنة ٨٢٥ هـ / يناير سنة ١٤٢٢ م كانت القيمة النقدية للنقد المملوكية تعاني من التذبذب وعدم الثبات بسبب ما كانت عليه الأوضاع النقدية من فساد وتلاعب ، وبالأذات الدراهم الفضية ، وقد كان الوضع أكثر استقراراً فى شهر رمضان / أغسطس مما أدى الى حدوث انخفاض فى الأسعار ، وارتفاع القيمة الشرائية ، حيث بيع اردب القمح بمائة وخمسين درهماً فلوساً ^(١) (أى سبعة دراهم فضية ونصف) ، وهذا السعر يدل على قوة القيمة الشرائية للدراهم الفضية .

(١) العيني ، عقد ، ص ٣٨٨ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٤٨٠ - ٤٨١ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٠٣ ، العيني ، عقد ، نفسه ، ص ٧٨ ، الصيرفى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٢٠ .

وقد واصلت القيمة الشرائية ارتفاعها مع توالى انخفاض الأسعار ، وذلك فى المحرم سنة ٨٢٦ هـ / ديسمبر سنة ١٤٢٠ م ، فوصلت الى أعلى قوة بلغتها منذ قيام دولة المماليك ، وقد شمل ذلك الارتفاع كافة أنواع النقود المملوكية ، وبصفة خاصة الدراهم الفضية والدنانير الذهبية .

لقد بيع اردب القمح فى التاريخ المذكور بتسعين درهماً فلوساً (أى أربعة دراهم فضية ونصف) ، وعلى هذا يكون خمسة اردب بدينار ذهبي واحد ، وتشير المصادر التاريخية - التى أوردت ذلك - ^(٢) الى أن وراء هذا الانخفاض الكبير فى الأسعار أسباباً أهمها : وفاء النيل حتى شملت مياهه جميع الأراضى الزراعية ، وغزارة الأمطار على المناطق التى لا تروى أراضيها بمياه النيل ، وإضافة الى انخفاض الأسعار فى كافة أقاليم الدولة وعدم ارتفاعها فى بعض الأقاليم ، ومنع التجار من نقل الغلال اليها طلباً للفائدة المادية ، كما كان من بين الأسباب الاستقرار السياسى الذى شهدته الدولة مع تولى السلطان الأشرف برسباى ، وكان له نتائجها الإيجابية على أوضاع الدولة .

وواصلت القيمة الشرائية ارتفاعها فى شهر جمادى الأولى / ابريل ١٤٢٣ م ، وذلك عند انخفاض الأسعار ، ووصل سعر اردب القمح الى ثمانين درهماً فلوساً ^(٣) (أربعة دراهم فضية فقط) ، ولكن فى الشهر التالى انخفضت القيمة الشرائية مع ارتفاع السعر الى مائة درهم فلوس (خمس دراهم فضية) ، ثم الى مائة وأربعين درهماً فلوساً (سبعة دراهم فضية) ، والشعير الى سبعين درهماً

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٦١٨ .

(٢) نفسه ، ص ٦٣٠ - ٦٣١ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ٣٠١ ، المعنى ، عقد ،

ص ١٠٨ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٢٣ .

(٣) المقرئى ، نفسه ، ص ٦٣٤ .

فلوساً (ثلاثة دراهم ونصف) . ثم الى مائة درهم فلوس ^(١) (خمسة دراهم فضية) .

وقد أدى الى ذلك الارتفاع عدم توفر الغلال بكميات كبيرة كافية ، ويظهر ذلك بانخفاض الأسعار بمجرد توفر الكميات اللازمة من الحبوب فى الشهر التالى رجب / يونية ^(٢) . ولكن ترتفع مرة أخرى فى شهر ذى القعدة / أكتوبر الى مستواها السابق . عندما بلغ سعر اردب القمح مائة وأربعين درهماً فلوساً (سبعة دراهم فضية) ، والشعير والفول بسبعين درهماً فلوساً ^(٣) (ثلاثة دراهم فضية ونصف) .

ويرتفع السعر أكثر فى العام التالى ٨٤٧ هـ / ١٤٢٤ م اذ بلغ فى شهر صفر - يناير مائتى درهم فلوس لاردب القمح (عشرة دراهم فضية) ، ثم الى مائتين وعشرين درهماً فلوساً (أحد عشر درهماً فضياً) ، والشعير بمائة وتسعين درهماً فلوساً (تسعة دراهم ونصف) ، والفول بمائة درهم فلوس (خمسة دراهم فضية) .

ثم ينخفض السعر الى مائة وثمانين درهماً فلوساً لاردب القمح (تسعة دراهم فضية) وخمسة وثمانين درهماً فلوساً لاردب الشعير ، أربعة دراهم وربع) ، وثمانين درهماً فلوساً لاردب الفول ^(١) (أربعة دراهم فضية) ، ولكن الأسعار فى آخر العام انخفضت نحو الصعود لتتخفص القيمة الشرائية للنقود ، عندما

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٣٦ .

(٢) نفسه ، ص ٦٣٧ .

(٣) نفسه ، ص ٦٣٠ - ٦٣١ . ابن حجر . إنها . ج ٣ ، ص ٣٠١ . العيني . عقد . ص ١٠٨ ، الصيرفى . نزهة . ج ٣ ، ص ٢٣ .

وصل سعر اردب القمح الى ثلاثمائة درهم فلوس (أى خمسة عشر درهماً فضياً) ، والفول والشعير الى مائتين وثمانين درهماً فلوساً (أربعة درهماً فضياً) .

ولم يوضح الصيرفى ^(١) الذى أورد ذلك أسباب هذا الارتفاع المفاجئ ولكن المقرئى أورد وصفاً لأوضاع الدولة الاقتصادية فى تلك الفترة ، والمرجح أن تلك الأوضاع هى المسئولة عن حدوث ذلك الارتفاع .

يقول المقرئى ^(٢) :

« وأسواق القاهرة ومصر ودمشق فى كساد عظيم وظلم ولالة الأمر من الكشاف والولاية فاش ، ونواب القضاة قد شنعت قالة العامة فيهم من تهافتهم ، وأرض مصر أكثرها بغير زراعة لقصور مد النيل فى أوانه ، وقلة العناية بعمل الجسور ، فإن كشافها إنما دأبهم اذا خرجوا لعملها أن يجمعوا مال النواحي لأنفسهم وأعوانهم ، والطرق بمصر والشام مخوفة من كثرة عبث العرمان والعشير ، والناس على اختلاف طبقاتهم قد غلب عليهم الفقر ، واستولى عليهم الشح والطمع ، فلا تكاذ تجد الا شاكباً مهتماً لدنياه ، وأصبح الدين غربياً لا ناصر له » .

ومع تلك الأوضاع التى يتحدث عنها المقرئى ، فقد انخفضت أسعار الفلال سنة ٨٢٨ هـ / ١٤٢٤ م ، ووصل سعر اردب القمح الى مائتى درهم فلوس (عشرة دراهم فضية) ، والشعير والفول كل اردب منهما بمائة وعشرة دراهم

(١) المقرئى . نفسه ، ص ٦٦٠ ، ٦٧٣ ، العبنى . نفسه ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

الصيرفى . نفسه ، ص ٥٦ .

(٢) نزهة ، ج ٣ ، ص ٧٠ .

(٣) السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٧٨ .

فلوس ^(١) (أى خمسة دراهم فضية ونصف) ، ولكن لم تلبث تلك الظروف أن خيمت على الأوضاع الاقتصادية أواخر العام ، فانخفضت القيمة الشرائية للنقود عند ارتفاع الأسعار حيث وصل سعر اردب القمح الى ثلاثمائة درهم فلوس ، (خمسة عشر درهماً فضياً) ، والشعير بمائتين وثمانين درهماً فلوساً الاردب ^(٢) (تعاادل أربعة عشر درهماً فضياً) ، واستمرت تلك الظروف فى تأثيرها على استقرار وثبات الأسعار ، والقيمة الشرائية للنقود المملوكية ، وجاءت سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ - ١٤٢٦ م ، لتستمر القوة الشرائية فى تأرجحها صعوداً وهبوطاً نتيجة ذلك الركود الذى يعانى منه الاقتصاد المملوكى ^(٣) .

ففى شهر صفر / ديسمبر تجاوز سعر الاردب من القمح ثلاثمائة درهم فلوس (أكثر من خمسة عشر درهماً فضياً) ، ووصل سعر اردب الفول أربعمائة درهم فلوس (عشرين درهماً فضياً) ، ووصل سعر اردب الفول أربعمائة درهم فلوس (عشرين درهماً فضياً) ، وذلك بسبب ندرته وعدم وجوده ^(٤) ، وفى الشهر التالى انحلت الأسعار قليلاً ، وبشكل مؤقت لترتفع كثيراً فى الشهر الذى يليه ، حيث تجاوز سعر

(١) السلوك ، ص ٦٨٧ ، ٦٩١ .

(٢) ابن حجر ، انباء ، ج ٣ ، ص ٣٥١ ، العينى ، ص ١٥٩ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٠٥ ، ص ٧٠٩ - ٧١٠ ، ابن حجر ، نفسه ، ص ٣٦٤ .

(٤) المقرئى ، نفسه ، ص ٧١١ .

الذى يليه ، حيث تجاوز سعر اردب القمح خمسمائة درهم (أكثر من خمسة وعشرين درهماً فضياً) ، وفى بعض المناطق ارتفع سعره ارتفاعاً حاداً ، وقد كان سبب ذلك عدم توفر الحبوب فى أسواق الدولة بكميات كافية ، وبعد أن توفرت الغلال انخفضت أسعارها ، فتراجع سعر اردب القمح الى مائتين وسبعين درهماً فلوساً (ثلاثة عشر درهماً فضياً ونصف) ثم ينخفض الى أقل من ذلك ^(١) .

وتواصل الأسعار انخفاضها ، والقوة الشرائية للنقود تقدمها مع بداية سنة ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦ م ، وتصل الى مستوى مرتفع بوصول قيمة اردب القمح الى مائة وخمسين درهماً فلوساً (سبعة دراهم فضية ونصف) ، والفلول بنفس المستوى ، والشعير بمائة درهم فلوس للاردب ^(٢) (خمسة دراهم فضية) .

وتزداد الأسعار انخفاضاً ، والقوة الشرائية ارتفاعاً ، وذلك فى شهر رجب / مايو سنة ١٤٢٧ م ، فبلغ سعر القمح مائة وعشرة دراهم فلوس للاردب (خمسة دراهم فضية ونصف) ، ثم ينخفض أكثر الى ثمانين درهماً فلوساً (أى أربعة دراهم فضية) ، والشعير بسبعين درهماً فلوساً ^(٣) (ثلاثة دراهم فضية ونصف) ، وفى الشهر التالى يرتفع السعر قليلاً ، وتنخفض القيمة الشرائية بشكل طفيف ، ويباع اردب القمح بمائة وثلاثين درهماً فلوساً (أى ستة دراهم فضية ونصف) ، والفلول بأكثر من ثمانين درهماً فلوساً (أربعة دراهم فضية) ، والشعير بخمسة وستين درهماً فلوساً ^(٤) (أى ثلاثة دراهم فضية وربع) .

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧١٨ ، ص ٧٢٨ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٣٤ .

(٣) نفسه ، ص ٧٤٤ .

(٤) ابن الهيثم ، بدائع ، ج ٢ ، ص ١١٤ .

والواقع أن ذلك الهبوط فى الأسعار ، والارتفاع فى القيمة الشرائية ليس مرده تحسن الأوضاع فى الدولة واستقرارها ، بل على العكس من ذلك ، إذ لم تكن الأوضاع مستقرة ، كما أن ظروفها الاقتصادية لم تكن على درجة عالية من النشاط والازدهار المؤثر على أحوال الدولة والرعية (١) .

وقد ازدادت تلك الأوضاع سوءاً فى نهاية العام بسبب نقص مياه النيل ، وعدم اتجاهها نحو الزيادة ، ومن ثم الوفاء ، الأمر الذى أدى الى كثرة الطلب على الغلال بأنواعها ، فغلت أسعارها ، ووصل سعر اردب القمح الى مائتى درهم (عشرة دراهم فضية) ، والشعير والفول كل اردب بمائة وخمسين درهماً فلوساً (سبعة دراهم فضية ونصف) ، فقامت الدولة بتحديد الزسعار خوفاً استمرارها فى الارتفاع ، كما حددت الكمية لكل فرد يرغب فى الشراء بالأا تزيد عن عشرة أرداب ، وذلك خشية تخزينها للمتاجرة بها ، وبيعها بأسعار مرتفعة ، وقد أدت هذه السياسة الحازمة من قبل الدولة الى انخفاض الأسعار (٢) ، فتدنت قيمة القمح مع بداية العام التالى ٨٣١ هـ / أكتوبر ١٤٢٧ م الى أقل من مائة وسبعين درهماً فلوساً للأردب الواحد (ثمانية دراهم فضية ونصف) والشعير الى مائة وثلاثين درهماً فلوساً للأردب (ستة دراهم فضية ونصف) ، ثم الى تسعين درهماً فلوساً (أربعة دراهم فضية ونصف) والفول الى نحو ذلك (٣) ، ولكن ذلك الانخفاض لم يستمر إذ كان للرياح الموسمية التى تعرضت لها الدولة ، واستمرار هبوبها عدة أيام أثره على المحاصيل الزراعية ، ففسد معظمها ، وقلت كمياتها ، مما أثر على أسعارها ، فارتفعت فى شهر رمضان /

(١) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٧٤٦ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٤٨ ، ص ٧٥٣ .

(٣) نفسه ، ص ٧٦٤ ، العيى ، عقد ، ص ٢٣١ .

يونيو ١٤٢٨ م الى مائتين وستين درهماً فلوساً (ثلاثة عشر درهماً فضياً) لاردب القمح ، ومائتى درهم فلوس (عشرة دراهم فضية) لكل من الشعير والفلول ، وزادت الأسعار فى شهر ذى القعدة / أغسطس ، فوصل سعر اردب القمح الى ثلاثمائة درهم فلوس (خمسة عشر درهماً فضياً) ، والفلول الى مائتين وستين درهماً (ثلاثة عشر درهماً فضياً) للاردب ، والشعير الى مائتين وثلاثى درهماً فلوساً (اثنى عشر درهماً فضياً ونصف) ، ثم زادت أيضاً فى شهر ذى الحجة / سبتمبر ليصل القمح الى أربعمائة درهم فلوس (عشرين درهماً فضياً) ، والشعير الى ثلاثمائة درهم فلوس^(١) (خمسة عشر درهماً فضياً) . وقد كان وراء زيادة الأسعار ، وانخفاض القيمة الشرائية للنقود ، إضافة الى ما سبق ذكره أيضاً ابن حجر^(٢) من أن البلاد خلال سنة ٨٣١ هـ / ١٤٢٧ - ١٤٢٨ قد تعرضت لثلاث ظواهر طبيعية كان لها أثرها على الأسعار ، وتلك الظواهر هى :

نزول الصقيع على بعض المحاصيل ، فآفسدها ، وفيضان مياه النيل على كثير من الأراضي الزراعية ، فلم تزرع ، وما أصاب المحاصيل من آفات قضت على كميات كبيرة منها .

وقد استمر تأثير تلك العوامل على أسعار الفلال خلال السنة التالية ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ - ١٤٢٩ م وبقيت القيمة الشرائية للنقود المملوكية على معدلها وأكثر منه ، وإن انخفضت فى بعض الأحيان ، فإنما هو انخفاض مؤقت ، لا تلبث معه أن تعود الى مستواها الذى كانت عليه .

(١) المقرئى ، نفسه ، ص ٧٧٦ ، ٧٧٨ ، ص ٧٨٢ ، نفسه ، ص ٢٣١ ، ٢٤٣ .

(٢) إنباء الفجر ، ج ٣ ، ص ٤٠٦ .

ففى أوائل تلك السنة انخفض سعر القمح مؤقتاً عندما وصل الى ثلاثمائة وخمسين درهماً فلوساً للاردب الواحد ^(١) (سبعة عشر درهماً فضياً ونصف) ، وسرعان ما عاد مستواه السابق بوصوله الى أربعمائة وخمسين درهماً فلوساً للاردب (اثنين وعشرين درهماً فضياً ونصف) ، والشعير والبقول الى نحو ثلاثمائة درهم لكل اردب (خمسة عشر درهماً فضياً) وقد ساعد على ارتفاع الأسعار احتكار الغلال وتخزينها من قبل أمراء المالك والتجار رغبة فى الربح المادى ، ووصل سعر القمح نتيجة ذلك الى مبلغ خمسمائة درهم فلووس ^(٢) (خمسة وعشرين درهماً فضياً) .

بعد شهرين وبالتحديد فى شهر جمادى الآخرة / مارس سنة ١٤٢٩ م ارتفعت القوة الشرائية مع انخفاض الأسعار عندما وصل سعر اردب القمح الى مائتين وثمانين درهماً فلوساً (أربعة عشر درهماً فضياً) ، والشعير بمائة وثلاثين درهماً فلوساً للاردب ^(٣) (ستة دراهم فضية ونصف) ، ثم تنخفض الأسعار أكثر حيث بيع القمح بمائتين وأربعين درهماً فلوساً ^(٤) (اثنى عشر درهماً فضياً) .

وفى أواخر ذلك العام ، وبسبب عدم وفاء نهر النيل ، وبعض العوامل الطبيعية الأخرى ارتفعت الأسعار مما أدى الى انخفاض القيمة الشرائية للتقود ، إذ بيع الاردب من القمح بمائتين وخمسين درهماً فلوساً (اثنى عشر درهماً فضياً ونصف) ، ثم بمائتين وسبعين درهماً فلوساً (ثلاثة عشر درهماً فضياً ونصف) ،

(١) المقرئى ، نفسه ، ص ٧٩٤ ، العيى ، عقد ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٣ ، ص ١٤٨ .

(٢) العيى ، نفسه ، ص ٢٥٧ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٩ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٣ ، ص ١٥٤ .

(٤) المقرئى ، نفسه ، ص ٨٠٠ ، الصيرفى ، نفسه .

ثم بثلاثمائة دراهم فلوس ^(١) (خمسة عشر درهماً فضياً) .

ومع بداية السنة التالية ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ - ١٤٣٠ م ، انخفض سعر اردب القمح الذى تدنى الى مائتين وستين درهماً فلوساً (ثلاثة عشر درهماً فضياً) ثم الى مائتين وخمسين درهماً فلوساً (اثنى عشر درهماً فضياً ونصف) ، والشعير كل اردب بمائة وعشرة دراهم فلوس ^(٢) (خمسة دراهم فضية ونصف) ، وفى شهر رجب / ابريل ١٤٣٠ م هبط سعر القمح الى اقل من مائتى درهم فلوس (أقل من عشرة دراهم فضية) ، والشعير الاردب بتسعين درهماً فلوساً (أربعة دراهم فضية ونصف) ، ثم ينخفض القمح حتى يصل سعر الاردب الى مائة وخمسين درهماً فلوساً (سبعة دراهم فضية ونصف) ، والفول الى سبعين درهماً فلوساً للاردب ^(٣) (أى ثلاثة دراهم فضية ونصف) .

وجاءت السنة الجديدة ، والأسعار مستمرة فى انخفاضها ، والقوة الشرائية تتقدم فى ارتفاعها ، فقد وصل سعر اردب القمح الى مائة واربعين درهماً فلوساً (أى سبعة دراهم فضية) ، والشعير والفول كل اردب بسبعين درهماً فلوساً (ثلاثة دراهم فضية ونصف) ، وأقل من ذلك ^(٤) .

ومع ما عاشته الأسعار من تذبذب ، وعدم ثبات خلال السنوات الثلاث التالية ٨٣٥ - ٨٣٧ هـ / ١٤٣١ - ١٤٣٤ م ، فقد حافظت على القيمة .

(١) المقرئى ، المصدر السابق ، ص ٨٠٠ ، الصيرفى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٦٠ ، ص ١٦٦ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ص ٨٢٠ ، العينى ، عقد ، ص ٢٨٠ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٣٠ ، ٨٣٢ ، العينى ، عقد ، ص ٨٠ ، الصيرفى ، نزعة ، ج ٢ ، ص ١٩٣ ، ١٩٥ .

الشرائية للتقود المملوكية على معدلها السابق^(١) ، بل انها ارتفعت أكثر في بعض الفترات ، عندما وصل سعر اردب القمح الى مائة درهم فلوس^(٢) (خمسة دراهم فضية) ، وفي أواخر سنة ٨٣٦ هـ / ١٤٣٢ - ١٤٣٣ م ، وأوائل سن ٨٣٧ هـ / ١٤٣٣ - ١٤٣٤ م خاف الناس من عدم وفاء النيل ، فأقبلوا على شراء الغلال ، مما أدى الى ارتفاعها تدريجياً ، لتتخفف القيمة الشرائية الى مستوى أقل ، حيث ارتفع سعر اردب القمح الى مائة وأربعين درهماً فلوساً^(٣) (تعادل سبعة دراهم فضية) ، ثم زاد بعد شهر ليصبح مائة وثمانين درهماً فلوساً (تسعة دراهم فضية) ، والشعير الأردب بمائة وأربعين درهماً فلوساً^(٤) (أى سبعة دراهم فضية) ، وعادت الأسعار الى الانخفاض المؤقت بعد ذلك ليصبح سعر اردب القمح مائة وخمسين درهماً فلوساً (أى سبعة دراهم ونصف) ، ثم يرتفع الى مائة وسبعين درهماً فلوساً (ثمانية دراهم فضية ونصف) ، ويواصل ارتفاعه مع نهاية العام ليصل الى مائتى درهم فلوس للاردب الواحد من القمح (أى عشرة دراهم فضية) ، والفول الى مائة وخمسة وثمانين درهماً فلوساً للاردب (تسعة دراهم فضية وربع) ، والشعير بنحو ذلك^(٥) .

وقدمت سنة ٨٣٨ هـ ، وأوائل سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٣٤ - ١٤٣٥ م ، وكانت الأسعار خلال تلك الفترة منخفضة حتى اذا كان شهر ربيع الآخر / نوفمبر

(١) المقرئى . نفسه ، ص ٨٧٢ ، المؤلف المجهول ، حوليات دمشقية ، ص ٧٠ .

(٢) المقرئى . نفسه ، ص ٨٩٣ - ٨٩٤ ، الصيرفى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ ، ص ٢٦١ - ٢٦٣ ، المؤلف المجهول ، نفسه ، ص ٧١ .

(٣) المقرئى . نفسه ، ص ٩٠٣ ، ابن حجر ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥٠١ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٩٠٤ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٥١١ ، الصيرفى ، نزهة .. ج ٣ ، ص ٢٧٣ .

(٥) المقرئى . نفسه ، ص ٩١٩ - ٩٢٠ ، المعنى ، عقد ، ص ٣٣١ .

ارتفعت أسعار الغلال ، فوصل سعر الاردب من القمح الى ثلاثمائة وستين درهماً فلوساً (أى ثمانية عشر درهماً فضياً) ، والشعير والفول كل اردب بمائتى درهم فلوس^(١) (أى عشرة دراهم فضية) ، وتذكر بعض المصادر التاريخية^(٢) أن سبب ذلك الارتفاع راجع الى فساد الفلوس النحاسية واضطرابها ، ومن المرجح أن السياسة الاقتصادية الاحتكارية التى سار عليها السلطان الأشرف برسباى كان لها أثرها فى ارتفاع الأسعار ، وانخفاض القيمة الشرائية للنقود^(٣) .

فقبل شهر صفر / يوليو كان سعر اردب القمح مائة واربعين درهماً فلوساً (أى سبعة دراهم فضية) ، والفول والشعير كل اردب بثمانين درهماً فلوساً (أى أربعة دراهم فضية) ، ولظروف النيل ولفيضان مائه ، وما أصيبت به المحاصيل الزراعية من آفات ، بالإضافة الى الفتن التى حدثت فى بعض مناطق الدولة ، وما سببته من اتلاف كميات المحاصيل الزراعية ، وقلة جلبها الى الأسواق ، بسبب جميع تلك العوامل الطبيعية والسياسية ، حدث ارتفاع فى الأسعار ، ووصل سعر اردب القمح الى مائة وتسعين درهماً فلوساً (أى تسعة دراهم فضية ونصف) ، كما بلغ سعر اردب الشعير الى مائة وخمسين درهماً فلوساً (سبعة دراهم فضية ونصف) ، والفول الى مائتى درهم فلوس^(١) (عشرة دراهم

(١) المقرئى . نفسه . ص ٩٦٤ . المعنى ، نفسه ، ص ٣٥٩ . الصيرفى ، المصدر السابق . ص ٣٣٧ .

(٢) المؤلف المجهول ، حوليات دمشقية . ص ١٥٦ .

(٣) للوقوف على بعض صور تلك السياسة الاقتصادية التى سار عليها السلطان المملوكى ، فضلاً أنظر :

المقرئى . السلوك . ج ٤ . ص ٩٢٩ . ص ٩٣٣ . ص ٩٣٥ . ص ٩٦٥ . ص ٩٧٢ .

فضية) بسبب ندرته .

وارتفعت أيضاً فى شهر شعبان / يناير ١٤٤٠ م حيث بلغ سعر الاردب من القمح ثلاثمائة درهم فلوس (خمسة عشر درهماً فضياً) ، وزاد السعر فى شهر رمضان / فبراير ، فبلغ ثلاثمائة وثلاثين درهماً فلوساً (سنة عشر درهماً فضياً ونصف) ، ثم انخفض فى شوال / مارس ، فبيع الاردب بمائتى درهم فلوس^(٢) (عشرة دراهم فضية) .

ولم تورّد المصادر التاريخية ما يشير الى القيمة النقدية للنقود ، ومستوى الأسعار فى الدولة حتى سنة ٨٤٧ هـ / ١٤٤٣ - ١٤٤٤ م عندما ورد أن الأسعار خلال ذلك العام كانت مرتفعة مما يعنى انخفاض القيمة الشرائية ، ويذكر العيني^(٣) الذى أوضح ذلك أن سعر اردب القمح قد بلغ ثلاثمائة درهم فلوس (أى اثنى عشر درهماً فضياً ونصفاً) ، ثم زاد فى ارتفاعه ليصل الى خمسمائة درهم فلوس (حوالى واحد وعشرين درهماً فضياً) .

ويبدو أن القيمة الشرائية قد ارتفعت بصورة كبيرة بعد انخفاضها السابق ، حيث أوردت بعض المصادر التاريخية^(٤) أن الأسعار كانت منخفضة سنة ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤ - ١٤٤٥ م ، وكذلك سنة ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ - ١٤٤٦ م ، حيث كان سعر اردب القمح خلالها مائة وعشرين درهماً فلوساً ، وأقل من ذلك (أى خمسة درهم فضية) ، والشعير والفول بخمسة وتسعين درهماً فلوساً لاردب

(١) المقرئى . المصدر السابق ، ص ١١٦٠ ، ص ١١٧٣ ، ص ١١٧٦ .

(٢) نفسه ، ص ١١٨٠ - ١١٨١ ، ص ١١٨٤ .

(٣) عقد ، ص ٤٨٤ ، وذكر ذلك أيضاً ابن تغرى بردى ، حوادث ، ج ١ ، ص ١١ .

(٤) ابن تغرى بردى ، نفسه ، ج ١ ، ص ١١ ، السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ١٢٦ .

القمح (سبعة دراهم فضية ونصف) ، والشعير والفول بنحو مائة وأربعين درهماً فلوساً (حوالى ستة دراهم فضية) .

وكانت الأسعار سنة ٨٥١ هـ / ١٤٤٧ - ١٤٤٨ م منخفضة ، فاستمرت القيمة النقدية للتقود المملوكية على معدلها السابق ، اذ بيع اردب القمح بمائة وعشرين دراهم فلوس ^(١) ، (حوالى أربعة دراهم فضية ونصف) ، ولكن فى السنة التالية ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ - ١٤٤٩ م وفى شهر ربيع الآخر / يونيو انخفضت القيمة الشرائية الى مستوى أقل ، عندما ارتفع سعر اردب القمح الى ثلاثة درهم فلوس (اثنى عشر درهماً فضياً ونصف) ، والشعير بنحو مائتين وثمانين درهماً فلوساً للاردب (حوالى أحد عشر درهماً فضياً ونصف) ، وبعد ايام انخفض السعر قليلاً لترتفع القيمة الشرائية بشكل يسير ومؤقت ، اذ انخفضت الى مستوى أدنى من مستواه السابق خلال شهر جمادى الآخرة / أغسطس عندما ارتفعت الأسعار كثيراً بسبب نقص مياه النيل ، وإقبال الناس على شراء وتخزين الغلال ، فبلغ سعر اردب القمح أكثر من أربعمئة درهم فلوس (أكثر من ستة عشر درهماً فضياً ونصف) .

وتزداد الأسعار ارتفاعاً فى شهر رمضان عندما تحول الأمر الى أزمة اقتصادية تمر بها البلاد ، بسبب عدم وفاء نهر النيل الأمر الذى أدى الى حدوث مجاعة وقحط فى الدولة ، أعقبهما حدوث وباء شامل فى الدولة ، فزادت الأزمة سوءاً ، وارتفعت الأسعار الى مستوى مرتفع مؤدية الى انخفاض القوة الشرائية للتقود بشكل حاد ^(١) ، وان انخفضت الأسعار قليلاً مع بداية السنة الجديدة

(١) ابن تغرى بردى ، نفسه ، ص ١٨٧ .

سنة ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م الا انها عادت من خلال تأثيرات الأزمة الى الارتفاع فى شهر جمادى الآخرة / أغسطس ، وانخفضت اثر ذلك القيمة الشرائية للنقود ، فبيع اردب القمح بأكثر من خمسمائة درهم فلوس ^(٢) (حوالى واحد وعشرين درهماً فضياً) ، واستمرت الأسعار فى ارتفاعها فى الأشهر التالية ، وكذلك خلال العام التالى ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ - ١٤٥١ م ، بقيت الأسعار بنفس معدلها السابق ، واستمرت فى حالة التذبذب ، وعدم الاستقرار التى يعانى منها ، مما أثر على القوة الشرائية وثباتها ^(٣) .

ويقول ابن تفرى بردى ^(٤) عن تلك الظروف :

«ولهذا الغلاء نحو سنتين ، والسعر تارة يزيد وتارة ينقص ، فأعلى ما بيع من القمح تسعمائة ، وأرخصه أربعمائة وخمسون ، وهو فيما بينهما هذه المدة ، فسبحان المتكفل بأرزاق الخلاق ، والناس الآن فى خوف عاقبة هذا النيل ، فله الأمر».

وكان من نتيجة ذلك ان زادت الاوضاع سوءاً فى الدولة الأمر الذى أثر على اقتصاديات الدولة ، واقتصاديات مواطنيها ، وانحطت القيمة الشرائية للنقود بدرجة كبيرة مع توالى ارتفاع الأسعار ، ووصولها الى مستوى مرتفع جداً بيع

(١) ابن تفرى بردى ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٢ ، ص ٢٧١ ، السخاوى ، الذيل التام ، ص ٢٩ .

(٢) ابن تفرى بردى ، نفسه ، ج ٢ ، ٤٧ ، ٥٢ ، النجوم ، ج ١٥ ، ص ٣٩٦ .

(٣) الاسدى ، التفسير والاعتبار ، ص ١٤٣ ، ابن تفرى بردى ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٦٠ ، ص ٧٨ ، السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٣٠١ ، ص ٣١٢ ، الذيل التام ، ص ٢٩ ، ص ٤٢ - ٤١ .

(٤) ابن تفرى بردى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٦ .

القمح خلالها بسبعمائة درهم فلوس (حوالى ثلاثين درهماً فضياً) ، ويتسعمانة درهم (سبعة وثلاثين درهماً فضياً) ، وبألف درهم فلوس وأكثر من ذلك ^(١) (أكثر من اثنين وأربعين درهماً فضياً) .

ودخلت سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ - ١٤٥٢ م ، والقيمة الشرائية مستمرة فى معدلها السابق مع استمرار ارتفاع الأسعار بمعدلاتها السابقة مع انخفاض طفيف آخر العام كان مقدمة لانخفاض كبير عاشته الأسعار سنة ٨٥٦ هـ / ١٤٥٢ - ١٤٥٣ م ارتفعت خلاله القيمة الشرائية للنقود الى مستوى أفضل ، وذلك بتحسّن الظروف الطبيعية ، وبالات نهر النيل ووفاء مائه ، ورى جميع الأراضى الزراعية ، وقد وصل سعر اردب القمح نتيجة لذلك الى اربعمائة درهم فلوس (ستة عشر درهماً فضياً ونصف) ، ثم الى ثلاثمائة درهماً فلوساً (ثلاثة عشر درهماً فضياً وثلاث تقريباً) والفول بثلاثمائة درهم فلوس للاردب (اثنى عشر درهماً فضياً ونصف) ، والشعير بمائتين وأربعين درهماً فلوساً للاردب الواحد (عشرة دراهم فضية) وأقل من ذلك ^(٢) .

وفى سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م ، وكذلك سنة ٨٥٨ هـ / ١٤٥٤ م كانت القيمة الشرائية مرتفعة نتيجة الانخفاض المتواصل فى الأسعار ، وبلغت مستوى مرتفعاً جداً ، عندما بيع أردب القمح بمائة وأربعين درهماً فلوساً (أقل من ستة دراهم فضية) ، والفول والشعير بتسعين فلوساً ، وأقل من ذلك ^(٣) (أربعة دراهم فضية الا ربعا) .

(١) ابن تغرى بردى ، ص ٨٨ ، ٩٦ ، السخاوى ، التبر ، ص ٣٢٤ .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٥ ، ص ٤٣٥ ، ج ١٦ ، ص ١ ، ص ١٢ ، حوادث ، ج ٢ ، ص ١٢٤ ، ١٣٥ ، السخاوى ، التبر ، ص ٣٨١ ، ٣٨٢ .

(٣) ابن تغرى بردى ، حوادث ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ، السخاوى ، الذيل التام ، ص ٧٦ .

أما فى سنة ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥ م ، فقد تحركت الأسعار ارتفاعاً ، وذلك بسبب ظروف نهر النيل ، ونقص مائه عن حد الوفاء مما دعا الناس الى شراء القلال وتخزينها ، فزاد سعر اردب القمح الى مائة وخمسة وسبعين درهماً فلوساً (أكثر من سبعة دراهم فضية) ، والشعير بمائة وثلاثين درهماً فلوساً الاردب (قريب من خمسة دراهم فضية ونصف) ، والفول بمائة وعشرة دراهم فلووس (أكثر من أربعة دراهم فضية ونصف) ، وسرعان ما تراجعت الأسعار عندما تحسن وضع النيل ، واتجه ماؤه نحو الزيادة ليبلغ حد الوفاء ، فوصلت الى معدلها الذى كانت عليه قبل الارتفاع ، وأقل منه ^(١) وكما هى العادة ، فلم تثبت الأسعار بشكل ملحوظ .

وانخفضت تبعاً لذلك القيمة الشرائية للنقود ، اذ وصل سعر القمح فى شهر ربيع الأول / يناير - فبراير سنة ١٤٥٦ م الى مائتين وسبعين درهماً فلوساً للاردب (زحد عشر درهماً فضياً وربع) والشعير والفول كل اردب منهما بمائة وسبعين درهماً فلوساً ^(٢) (أكثر من سبعة دراهم فضية) .

وقد استمر مستوى الأسعار عدة أشهر تالية انخفض فى أثنائها لفترات قصيرة ففى شهر ربيع الآخر / فبراير - مارس انخفض سعر اردب القمح الى مائتى درهم فلووس (ثمانية دراهم فضية وثلاث) ، والشعير والفول بمائة وخمسين درهماً فلوساً لكل اردب منهما ^(٣) (ستة دراهم فضية وربع) .

وفى رمضان / أغسطس ارتفع السعر ليصل الى مائتين وستين درهماً

(١) ابن تغرى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

(٢) ابن تغرى بردى ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٣) نفسه ، ص ٢٥٥ .

فلوساً للاردب من القمع ^(١) (قريب من أحد عشر درهماً فضياً) .

وكما سبق القول ، فقد كان وراء التقلبات فى الأسعار ، وعدم استقرار القيمة الشرائية للنقود عدة عوامل تمثلت باضطراب الأوضاع الداخلية فى الدولة وذلك الاضطراب الذى نشأ عن الممالك الأجلاب ^(٢) ، وما أحدثوه من ظلم وعنف وفساد فى سائر أنحاء الدولة ، يقول ابن تغرى بردى عن ذلك ^(٣) :

« ونودى بالقاهرة من قبل السلطات بعدم تعرض الممالك الأجلاب الى الناس ، والباعة والتجار ، فكانت هذه المناداة كضرب رباب أو كطينين ذهاب ، واستمروا على ما هم عليه كمن أخذ أموال الناس ، والظلم والعنف حتى غلت الأسعار فى سائر الأشياء من المأكول والملبوس والقلال والعلوفات .. » .

كما كان للظروف الطبيعية كمياه النيل - نقصانها وزيادتها - وانعدام المطر فى بعض المناطق ، وما نشأ عنها من سلبيات اقتصادية كالمجاعة والقحط والوباء ونحو ذلك أثره على الأحوال العامة فى الدولة ^(١) .

(١) ابن برى ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٢) (الممالك الأجلاب) .

من التطورات العسكرية والادارية التى حدثت فى العهد المملوكى المبركى ، فكل سلطان من سلاطين الدولة عمل على تدعيم مركزه عن طريق الاكثار من فئة جديدة من الممالك بشرائهم من أماكن متفرقة خارج الدولة زلطق عليهم الممالك الأجلاب أو الجلبان أو المشتروات) ، وهؤلاء يلتحقون بفئة الممالك السلطانية ، غلبت عليهم الخشونة والجهل والقسوة فأصبح لمط حياتهم قائماً على العنف والثورة وعدم اطاعة الأوامر فأصبحوا بهذا مصدر قلق للدولة والرعية معاً .

قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ٢٤ ، انطوان ضومط ، الدولة المملوكية ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٤ .

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ، ص ٩٨ .

فى ظل الظروف السابقة ، وسبب ما حدث فى الدولة سنة ٨٦١ هـ / ١٤٥٦ - ١٤٥٧ م من اضطراب نقدى ، وظهور شائعات مفادها أن الدولة تعتزم إصدار دراهم فضية جديدة ، وإبطال الدراهم القديمة (العتق) ، ومنع التعامل بها مما جعل الناس يسارعون الى التخلص منها ، بالإقبال على شراء السلع الضرورية ، فى ظل ذلك حدث ارتفاع فى الأسعار ، وانخفاض فى القيمة الشرائية للنقود المملوكية بنسبة ليست قليلة وذلك عندما بلغ سعر اردب القمح أربعمائة وسبعين درهماً فلوساً^(٢) (أكثر من تسعة عشر درهماً فضياً ونصف)

وقد استمر ارتفاع الأسعار بسبب الظروف النقدية مدة طويلة تجاوزت سنتين ، ولم تغلح المحاولات التى قامت بها الدولة لمعالجة الوضع النقدى من خفض الأسعار ورفع القيمة الشرائية للنقود^(٣) .

فى أثناء عام ٨٦٤ هـ / ١٤٥٩ - ١٤٦٠ م كانت تأثيرات الظروف السابقة ماثلة ، وزاد عليها الوباء الذى تعرضت له الدولة ، فوقع الناس بين الوباء ، والغلاء ، والظلم ، فسامت أحوالهم ، وضائق معاشهم ، وزادت سواهاً بوصول الأسعار الى مستوى أكثر ارتفاعاً ، حيث بيع اردب القمح بستمانه درهم فلووس (خمسة وعشرين درهماً فضياً) والقول والشعير لكلاهما بأربعمانه درهم فلووس للاردب^(١) (أكثر من ستة عشر درهماً فضياً ونصف) .

(١) ابن تغرى بردى ، حوادث ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٢) نفسه ، ص ٢٠٠ .

(٣) ابن تغرى بردى ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣١٠ ، ٣١٢ . النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ، ص ١١٥ - ١١٦ .

وفى سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦١ - ١٤٦٢ م تسبب نهر النيل فى ارتفاع الأسعار وتدنى القوة الشرائية للنقود المملوكية بوصول سعر اردب القمح الى أكثر من أربعمئة درهم فلوس (أكثر من ستة عشر درهماً فضياً ونصف) ، ثم بعد أيام زاد السعر لأكثر من خمسمئة درهم فلوس لكل اردب من القمح ^(١) (أكثر من واحد وعشرين درهماً فضياً) ، ثم ينخفض فى شهر ذى القعدة / أغسطس ١٤٦٢ م الى قرابة أربعمئة وخمسين درهماً فلوساً (حوالى تسعة عشر درهماً فضياً) ، والفول الى مائتين وثمانين درهماً فلوساً (أكثر من أحد عشر درهماً فضياً ونصف) ، والشعير الى مائتى درهم فلوس ^(٢) (ثمانية دراهم فضية وثلاث) .

ويبدو أن الأسعار قد انخفضت الى ما دون المستوى السابق خلال المدة التالية حيث يورد ابن تغرى بردى ^(٣) أنها ارتفعت فى شهر رجب سنة ٨٦٨ هـ / مارس - أبريل ١٤٦٤ م ، فكان يورد سعر اردب القمح ثلاثمئة وعشرين درهماً فلوساً (خمسة عشر درهماً فضياً) ، والشعير ثلاثمئة وعشرين درهماً فلوساً (ثلاثة عشر درهماً فضياً وثلاث) ، والفول بأقل من ذلك ، أما فى سنة ٨٦٩ هـ / ١٤٦٤ - ١٤٦٥ م ، فقد أدت قلة الأمطار فى بعض أقاليم الدولة الى عدم وفرة إنتاجها من المحاصيل الزراعية ، وبالأذات المحبوب ، فقلت الكميات المعروضة فى الأسواق الأمر الذى رفع أسعارها ، فانخفضت تبعاً لذلك القيمة الشرائية للنقود ، حيث كان سعر اردب القمح حوالى أربعمئة درهم فلوس

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٦ ، ص ١٤١ ، ١٤٣ ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ .

(٢) نفسه ، حوادث الدهور ، ج ٣ ، ص ٤٢٩ ، السخاوى ، الذيل التام ، ص ١٣٢ .

(٣) ابن تغرى بردى ، ج ٣ ، ص ٤٣٠ .

(٤) نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٥٦ .

(أكثر من ستة عشر درهماً فضياً ونصف) ، والفول والشعير بمائتى درهم فلوس لكل اردب ^(١) (ثمانية دراهم فضية وثلاث) .

وزاد ارتفاع الأسعار فى الفترة التالية حيث يذكر ابن تفرى بردى ^(٢) أن الأسعار فى شهر رجب سنة ٨٧٠ هـ / مارس ١٤٦٦ م قد انخفضت الى خمسمائة وأربعين درهماً فلوساً لاردب القمح (اثنين وعشرين درهماً فضياً ونصف) وإذا كان سعر القمح قد انخفض الى القيمة المذكورة فى شهر رجب ، فيعنى هذا أن الأسعار كانت قبل الشهر المذكور مرتفعة ، وأن القيمة الشرائية كانت منخفضة ، وقد زاد انخفاضها بشكل حاد فى الشهر التالى شعبان / ابريل من العام نفسه ، عندما زاد سعر اردب القمح عن ألف درهم فلوس (أكثر من واحد وأربعين درهماً فضياً ونصف) ، ثم بدأ السعر فى الانخفاض ، حتى وصل الى أقل من ستمائة درهم فلوس ^(٣) (خمسة وعشرين درهماً فضياً) ، وهو مع ذلك مرتفع ، وقد أدى بالتالى الى انخفاض القيمة الشرائية .

واستمرت فى انخفاضها فى العام التالى ٨٧١ هـ / ١٤٦٦ - ١٤٦٧ م ، حيث كان مستوى الأسعار مرتفعاً بسبب ظروف مياه النيل ، وتوقفها عن الزيادة ^(٤) .

(١) ابن تفرى بردى ، حوادث ، ج ٣ ، ص ٤٩٩ .

(٢) نفسه ، ص ٥١٦ .

(٣) نفسه ، ص ٥١٧ .

(٤) السخاوى ، الذيل التام ، ص ١٦٣ .

وكذلك كان الوضع فى سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ - ١٤٦٨ م ، اذ ارتفع سعر اردب القمح فى شوال من العام المذكور / مايو ١٤٦٨ م الى ستمائة درهم فلوس (خمسة وعشرين درهماً فضياً) ، والشعير الى مائتين وأربعين للاردب (عشرة دراهم فضية) والبول الى مائتى درهم فلوس الأردب ^(١) (ثمانية دراهم فضية وثلاث) ، و زاد السعر فى شهر ذى الحجة / يوليو ، ليصل أردب القمح الى سبعمائة درهم فلوس (أكثر من تسعة وعشرين درهماً فضياً) ، والشعير الى ثلاثمائة درهم فلوس للاردب ^(٢) (اثنى عشر درهماً فضياً ونصف) .

وواصلت الأسعار ارتفاعها ، والقيمة الشرائية انخفاضها فى العام التالى ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ - ١٤٦٩ م ، وبلغت قيمة اردب القمح فى شهر صفر / أغسطس - سبتمبر ١٤٦٨ م سبعمائة وخمسين درهماً فلوساً (واحد وثلاثين درهماً فضياً وربعاً) ، ثم ينحط الى ستمائة درهم فلوس (خمسة وعشرين درهماً فضياً) ، وكان سبب هذا الارتفاع كما هى العادة عدم زيادة ماء النيل ليلبغ حد الوفاء ^(٣) ، بل إنه انخفض أكثر ليستمر السعر فى الارتفاع ، فوصل الى أكثر من ثمانمائة درهم فلوس لردب القمح (أكثر من ثلاثة وثلاثين درهماً فضياً وثلاث) ، ثم فى الشهر التالى الى تسعمائة درهم فلوس (سبعة وثلاثين درهماً فضياً ونصف) ، والبول والشعير الى أكثر من أربعمائة وخمسين درهماً فلوس لكل اردب (تسعة عشر درهماً فضياً الا ربعاً) ، وقد زاد من الغلاء ، وسوء الوضع فى الدولة ما أعقب نقص مياه النيل من مجاعة وتحط كانت

(١) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٢٣ ، ص ٦٢٨ .

(٢) نفسه ، ص ٦٤٣ .

(٣) نفسه ، ص ٦٧٦ .

نتيجتها انتشار الوباء في الدولة ^(١) .

وفي شهر رمضان / مارس - أبريل ١٤٦٩ م كان السعر منخفضاً ، حيث بيع اردب القمح بستمائة درهم فلوس (خمس وعشرين درهماً فضياً) ، والفول والشعير كل اردب بثلاثمائة درهم فلوس ^(٢) (اثني عشر درهماً فضياً ونصف) . وقد حققت القيمة الشرائية من هذا الانخفاض جزءاً من قوتها التي فقدتها في الفترة السابقة .

في سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ - ١٤٧٠ م . كانت الأسعار في غاية الارتفاع اذ بلغت أرقاماً مرتفعة بالنسبة الى الدراهم الفلوس ، فانخفضت معها القيمة الشرائية بشكل حاد ، حيث وصل سعر اردب القمح الى الف وثلاثمائة درهم فلوس (أكثر من أربعة وخمسين درهماً فضياً - حوالى أربعة دنائير ذهبية) ، ونظراً لهذا الارتفاع الكبير قامت الدولة بتحديد سعر القمح بألف درهم فلوس (سبعة وثلاثين درهماً فضياً ونصف) ، وحددت الدولة قيمته بستمائة درهم فلوس ^(٣) (خمس وعشرين درهماً فضياً) ، ولم يتحقق للدولة ما سعت اليه من تخفيض الأسعار ، اذ استمرت القيمة الشرائية بنفس معدلها السابق في العام التالي ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ - ١٤٧١ م ، ولم يطرأ على الأسعار تغيير يذكر ^(٤) حتى اذا كان شهر رجب / يناير ١٤٧١ م كانت الأسعار منخفضة ،

(١) ابن تقي بردي ، حوادث ، ص ٦٨٥ ، ص ٦٨٧ ، ص ٦٩٦ ، الصيرفي ، انباء الهجر ، ص ٢٦ ، ٣٢ .

(٢) ابن تقي بردي ، نفسه ، ص ٧٠٦ ، الصيرفي ، نفسه ، ص ٦١ .

(٣) الأسدی ، التفسير والاعتبار ، ص ١٤٣ ، الصيرفي ، نفسه ، ص ١٦٢ ، السخاوي ،

الذيل الثام ، ص ١٨٨ ، ابن اياس ، بئاتح ، ج ٣ ، ص ٤١ ، ٤٣ .

(٤) الصيرفي ، انباء ، ص ١٨٧ .

وحققت بذلك القيمة الشرائية تقدماً واضحاً ، وعم الرخص نواحي الدولة ^(١) .

وقد امتد تحسين الوضع الاقتصادي للعام التالي ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ - ١٤٧٢ م ، وشهدت الأسعار خلاله انخفاضاً كبيراً مقارنة بالارتفاع الذي كانت عليه من قبل ، وفي ظل هذا التحسن ارتفعت القيمة الشرائية للنقود المملوكية بدرجة جيدة ، فكان سعر اردب القمح حوالى أربعمائة درهم فلوس (أكثر من ستة عشر درهماً فضياً ونصف) ، وسعر اردب الشعير حوالى مائة وثلاثين درهماً فلوساً ^(٢) (خمسة دراهم فضية ونصف) .

وواصلت الأسعار انخفاضها سنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ - ١٤٧٣ م ، حيث بيع اردب القمح بمائتى درهم فلوس ^(٣) (ثمانية دراهم فضية وثلاث) ، مما يعنى ارتفاعاً كبيراً فى القيمة الشرائية للنقود .

وخلال فترة الأحد عشر عاماً التالية أى حتى سنة ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤ م تتوقف المصادر التاريخية عن ذكر أى مؤشرات القيمة الشرائية ^(٤) ، ولا شك أنها فترة طويلة لا يمكن معها وضع أرقام تقريبية للأسعار التى كانت عليها الحبوب ، ولكن يمكن من خلال الأوضاع الاقتصادية التى مرت بها الدولة فى

(١) ابن اياس ، بدائع ، ج ٣ ، ص ٥٥ .

(٢) الصيرفى ، المصدر السابق ، ص ٤٣١ .

(٣) نفسه ، ص ٤٧٦ .

(٤) فى الواقع ان الفترة حتى نهاية الدولة المملوكية اتسمت بنقص المعلومات المتصلة بمؤشرات الأسعار ومستويات القيمة الشرائية للنقود .

فقلة المصادر التاريخية كان لها أثرها فى قلة المعلومات الى حد ندرتها كذلك انعدامها فى كثير من سنوات الفترة ، وقد أدى ذلك الى عدم تسلسل المعلومات الواردة عن القيمة الشرائية ، ووجود ثغرات واضحة نتيجة لذلك .

بعض سنوات تلك الفترة إعطاء تصورات عن الحالة التي كانت عليها الأسعار ،
أو القيمة الشرائية أهي مرتفعة أم منخفضة ؟

ففى سنة ٨٧٨ هـ / ١٤٧٣ - ١٤٧٤ م كان الوضع الاقتصادى فى الدولة
جيداً ، والأسعار رخيصة ^(١) ، وفى سنة ٨٨١ هـ / ١٤٧٦ - ١٤٧٧ م كانت
النقود فى الدولة بأنواعها فى وضع سيئ من الغش والتلاعب والفساد الأمر الذى
حدا بالدولة الى إعلان التعامل بها وزناً ^(٢) ، كما عانت الدولة خلال ذلك العام
من الوباء الذى فتك بعدد كبير من سكانها ، وأدى الى تأثر الوضع الاجتماعى
والاقتصادى فى الدولة ، ومن المرجح أنه فى ظل تلك الظروف تأثرت الأسعار ،
والقيمة الشرائية للنقود ، وفقدت جزءاً كبيراً من قوتها .

فى سنة ٨٨٢ هـ / ١٤٧٧ - ١٤٧٨ م ، كانت ظروف النيل سيئة ، فقد
أدى فيضان مائه الى خراب الأراضى الزراعية ، وتأثر المحاصيل الزراعية ، وقلة
كمياتها المعروضة فى الأسواق ^(٣) ، وعادة ما يؤدي ذلك الى إقبال الناس على
الشراء ، وتخزين الغلال فترتفع أسعارها كثيراً ، وبالتالي تنخفض القيمة
الشرائية للنقود بشكل واضح .

فى سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ - ١٤٨٠ م كانت ظروف النيل حسنة ومستقرة
، وتمثل ذلك بوفاء النيل ^(٤) ، وما صاحبه من رخاء ورخص فى الأسعار .

سنة ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ - ١٤٨١ م تعرضت النقود الفضية الى التلاعب

(١) ابن الهيثم ، بلدائع ، ج ٣ ، ص ٨٩ - ٩٠ .

(٢) نفسه ، ص ١٢١ .

(٣) نفسه ، ص ١٢٢ ، ١٣٤ .

(٤) نفسه ، ص ١٥٥ .

والفساد ، وقد كان لذلك تأثيره على الوضع النقدي فى الدولة ^(١) ، وسيكون له تأثيره على الأسعار واتجاهها نحو الارتفاع ، وانخفاض القيمة الشرائية .

سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ - ١٤٨٤ م شهدت الدولة خلالها غلاء شمل سائر المبيعات ^(٢) ، فارتفعت أسعارها ، وتأثرت القيمة الشرائية بهذا الغلاء ، وانخفضت الى مستوى متدن .

وبعكس سنة ٨٨٨ هـ كانت سنة ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤ م التى شهدت انخفاضا كبيرا فى الأسعار انعكس على القيمة الشرائية ، وأدى الى ارتفاعها ، وقد بلغ سعر اردب القمح خلال ذلك الانخفاض فى الأسعار الى أقل من مائتى درهم لوس ^(٣) (أقل من تسعة دراهم فضية) .

وفى ذى الحجة سنة ٨٩٠ هـ / ديسمبر سنة ١٤٨٥ م ارتفعت الأسعار قليلا بسبب اضطراب أمر الفلوس النحاسية ، وعدم ثباتها مما أدى الى توقف حال الناس ، وتضررهم ^(٤) .

ولكن الارتفاع الحاد الذى شهدته الأسعار سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦ م ، حيث انخفضت القيمة الشرائية للنقود الملوكية الى أدنى مستوى لها خلال عهد المماليك الجراكسة ، وذلك عندما وصل سعر اردب القمح الى ألف وستمائة درهم فلس (أكثر من ستة وستين درهماً فضياً ونصف) .

ويرجع سبب هذا الوضع المتأزم فى الدولة الى اضطراب الوضع الداخلى فى

(١) ابن اياس ، بدائع ، ج ٣ ، ص ١٦٧ .

(٢) نفسه ، ص ١٩٩ .

(٣) نفسه ، ص ٢٠٧ .

(٤) نفسه ، ص ٢٢٢ .

الدولة ، وانعدام حالة الاستقرار والأمن فى أقاليم الدولة بسبب انتشار فتن المالك الأجلاب ، وكثرة ظلمهم وفسادهم ، وكذلك كثرة ثورات عرب صعيد مصر ^(١) التى أدت الى خراب الاقليم ، وتدهور أحواله ، والى جانب هذا كان سوء الوضع النقدى فى الدولة نتيجة الفساد ، والتلاعب اللذين شهدتهما النقود المملوكية بمختلف أنواعها ^(٢) .

فى سنة ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠ - ١٤٩١ م انخفضت الأسعار بشكل ملحوظ ، وارتفعت بذلك القيمة الشرائية الى مستوى جيد ، فقد كان سعر اردب القمح بأقل من مائة وخمسين درهماً فلوساً ^(٣) (أقل من ستة دراهم فضية وربع) ، ولكن فى العام التالى ٨٩٧ هـ / ١٤٩١ - ١٤٩٢ م ، ارتفعت الأسعار بسبب الظروف الطبيعية ، وأهمها نقص مياه نهر النيل ، فانخفضت القيمة الشرائية للنقود الى مستوى متدن ، حيث بيع اردب القمح بأكثر من ألف درهم فلوس

(١) عن ثورات الأعراب ، ونتائج ذلك فضلاً أنظر : إضافة الى المصادر المملوكية :

- سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المالك ، ط الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .

- حنفى محمود خطاب ، الحركات الداخلية فى الدولة المملوكية الأولى ، رسالة ماجستير لم تنشر ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، رقم ٣٧ .

- محمد فتحى عوض الشاعر ، اقليم الشرقية فى عصرى سلاطين الأيوبيين والمالك ، رسالة ماجستير لم تنشر ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة رقم ١٧٠٠ ، عام ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

- عبد المنعم ماجد ، موقف المصريين من حكم المالك فى العصور الوسطى ، بحث فى بحوثات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، المجلد (١٢) عام ١٩٦٦ م من ص ٤٩ الى ص ٥٨ .

(٢) ابن اياس ، بدائع ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ .

(٣) نفسه ، ص ٢٨٤ .

(أكثر من اثنين وأربعين درهماً فضياً) ، وبعد أن أخذ ماء النيل فى الزيادة نحو الوفاء انخفضت الأسعار كثيراً لتعود القيمة الشرائية لمستواها السابق ، وهو أقل من مائة وخمسين درهماً فلوساً ^(١) (أقل من ستة دراهم فضية وربع).

وفى ربيع الآخر من سنة ٩٠١ هـ / يناير سنة ١٤٩٦ م كانت أسعار الفلال رخيصة جداً ، وقد بيعت خمسة أرادب من القمح بدينار ذهبى ^(٢) ، وهذا أدنى سعر له فى تاريخ دولة المماليك ، وأعلى مستوى تصله القوة الشرائية للنقود ، أو الوحدة النقدية المملوكية ، فلو افترضنا أن سعر صرف الدينار الذهبى هو أربعمائة وستون درهماً فلوساً ، وهو أعلى سعر صرف يصل اليه الدينار ، فيكون سعر الارذب اثنين وتسعين درهماً فلوساً ، وتعادل ثلاثة دراهم فضية وثلاثاً تقريباً ، اذ وصل سعر صرف الدرهم الفضى فى تلك الفترة الى ثمانية وعشرين درهماً فلوساً للدرهم الفضى .

وفى العام التالى ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ - ١٤٩٧ م تسببت الأوضاع الداخلية فى الدولة من تنازع وتنافس بين أمراء المماليك ، وما أحدثه المماليك الجلبان من فساد وظلم وعدوان ، إضافة الى فتن وثورات الأعراب ، فى مناطقهم ، تسبب جميع ذلك فى ارتفاع الأسعار لقلة الوارد الى أسواق الدولة من السلع والمتاجر ، ومنها الحبوب ، وقد وصل سعر اردب القمح خلال تلك الظروف الى ستمائة درهم فلوس ^(٣) (واحد وعشرين درهماً فضياً ونصف تقريباً) .

وفى السنوات التالية من حكم دولة المماليك عانت القيمة الشرائية للنقود

(١) ابن اياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢) نفسه . ص ٣١٨ .

(٣) نفسه . ص ٣٢٢ .

اضطراباً مستمراً ، وتذبذباً دائماً فى الأسعار بين الارتفاع والانخفاض ، وليس بغريب حدوث ذلك فى ظل حالة التدهور الذى شمل كافة مرافق الدولة ، نواحى الإنتاج فيها ، وبأتى فى مقدمة أسباب ذلك التذبذب فى الأسعار ، وعدم ثبات القيمة الشرائية لتلك الفترة ، العامل النقدى ، وبالذات الفلوس النحاسية ، وعدم ثبات سياسة الدولة ، ووضوحها تجاه ما تعرضت له من فساد وغش وتلاعب ، ونلمس وضوح الأثر الاقتصادى الذى خلفه اضطراب الفلوس النحاسية فى بروز ظاهرة البيع بسعرين مختلفين لكل سلعة من السلع ^(١) .

* * * * *

٥ - نتائج دراسة القيمة الشرائية

من خلال الدراسة السابقة ، وما سجلته من أرقام توضيحية أوردتها المصادر المملوكية يتبين لنا مؤشرات الأسعار ، وما كانت عليه النقود من قوة شرائية ، وما مرت به من فترات استقرار وتذبذب ، أو ارتفاع وانخفاض ^(٢) .

ومن المفيد بعد هذه الدراسة إبراز عدد من النتائج التى تمخضت عنها ، ومع أنه يمكن استنتاج عدد كبير من النتائج ، فإننى أكتفى بإيراد - ما رأيته - أهم تلك النتائج ، عليها تضيف رؤية متممة لما أحاط بالقيمة الشرائية للنقود المملوكية من ظروف وقد تمثلت أهم تلك النتائج بما يلى :

(١) ابن اياس . بدائع . ج ٣ . ص ٣٩٥ . ج ٤ . ص ٢٠ . ص ٢٤ . ص ٢٥١ . ص ٢٩٥ . ٣٢٦ . ص ٣٢٨ . ج ٥ . ص ٥٢ .

(٢) أوضحت الرسم البهانية الخاصة بأسعار السلع فى المهدى تلك المؤشرات فى الأسعار ، والتمهات القوة الشرائية للنقود المملوكية ارتفاعاً وانخفاضاً استقراراً وتذبذباً وهى تعطى صورة مبسطة وسريعة عن ظروف الأسعار والقوة الشرائية فى العصر المملوكى .

أولاً : إن فترات الاستقرار فى الأسعار ، وانحائها نحو الانخفاض أكثر من فترات التذبذب والارتفاع ، خصوصاً فى العهد المملوكى البحرى الذى شهد ازدهاراً اقتصادياً ، وبالتالي قوة فى الاقتصاد المملوكى ، بعكس العهد المملوكى الجركسى الذى شهد تدهوراً اقتصادياً مضطرباً ، وضعفاً عاماً فى مختلف المجالات الاقتصادية .

ولكن الملاحظ على ذلك التباين أن الأسعار خلال عهد الازدهار كانت أكثر ارتفاعاً منها فى عهد التدهور ، وينظر على أسعار العهدين نجد أن الفارق يصل الى نسبة تتراوح بين ثلاثين بالمائة وخمسين بالمائة ، ويمكن تفسير ذلك بما كانت عليه الأحوال فى دولة المماليك البحرية من كثافة سكانية ، وما بلغت الدولة ومواطنوها من ثراء أدى الى ارتفاع تكاليف المعيشة ، وزيادة الطلب على السلع بمختلف أنواعها بعكس ما كانت عليه دولة المماليك الجراكسة ، من تناقص أعداد السكان بنسبة كبيرة لكثرة ما انتاب الدولة من أوبئة ومجاعات وغيرها ، بالإضافة الى تدهور مجالات الانتاج ، وكثرة ما تعرضت له من أزمات متنوعة مما زثر على اقتصادياتها ، وحركة المعاملات التجارية والمالية فى أسواقها ، ومراكزها التجارية ، وأصابها بركود اقتصادى عام .

(فضلاً أنظر الرسوم البيانية)

ثانياً : فى أثناء فترات الاستقرار الاقتصادى التى تشهدها الدولة لا تتأثر القيمة الشرائية للنقود بدرجة كبيرة بالأزمات المفاجئة التى تصيبها لعوامل طبيعية أو سياسية ، ونلمس ذلك بوضوح فى العهد المملوكى البحرى ، وهذه المناسبة لا يمكننا إغفال ما قام به سلاطين ذلك العهد من

تدخل فورى لوقف ارتفاع الأسعار ، وما اتخذوه من إجراءات خلفت من التأثيرات المحتملة لأى أزمة ، بعكس ما كان عليه الوضع فى العهد المملوكى الجركسى ، وإن أمكن استثناء بعض سلاطينهم ، فإن ما إتخذوه من إجراءات لم تكن قادرة على معالجة الوضع بشكل جذرى .

ثالثاً : خلال السنوات البعيدة عن المجاعات أو الأزمات الاقتصادية كانت الأسعار أكثر ثباتاً واستقراراً ، ويقل ذلك كلما كانت الأسعار مرتفعة لقربها من الأسباب ، فإن هذا الارتفاع يتدرج نحو الانخفاض حتى اذا مضى زمن على حدوث المسبب كانت الأسعار فى مستوى أقل يؤهلها للثبات والاستقرار (فضلاً أنظر الرسوم البيانية) .

رابعاً : ارتبط ارتفاع الأسعار وانخفاضها بالفصول المناخية ، وما يرتبط بها من عوامل طبيعية كفيضان النيل وسقوط الأمطار ، وهبوب الرياح ، أو اقتصادية : كرى الأراضى الزراعية ، وجنى المحاصيل ونحو ذلك ، ففى أشهر الحريف والشتاء تكون الأسعار فى كثير من الأحيان عند مستويات ثابتة تتجه نحو الانخفاض ، وتبدأ رحلة الارتفاع مع قدوم الربيع لتصل الى أقصى ارتفاعها فى أشهر الصيف ، وبشكل عام فكلما كان الوقت قريباً من جنى المحاصيل الزراعية وإنتاجية الأراضى الزراعية كانت الأسعار متدنية أما اذا بعد زمن جنى المحصول ، فتكون غالب المحاصيل الزراعية قد نفذت ، وعندها يكثر الطلب عليها ، ومع قلة المعروض منها ترتفع أسعارها .

خامساً : برزت ظاهرة التضخم فى العهد المملوكى الجركسى نتيجة لاستخدام الفلوس النحاسية فى عمليات التداول نقوداً رئيسية ، كما برزت فى

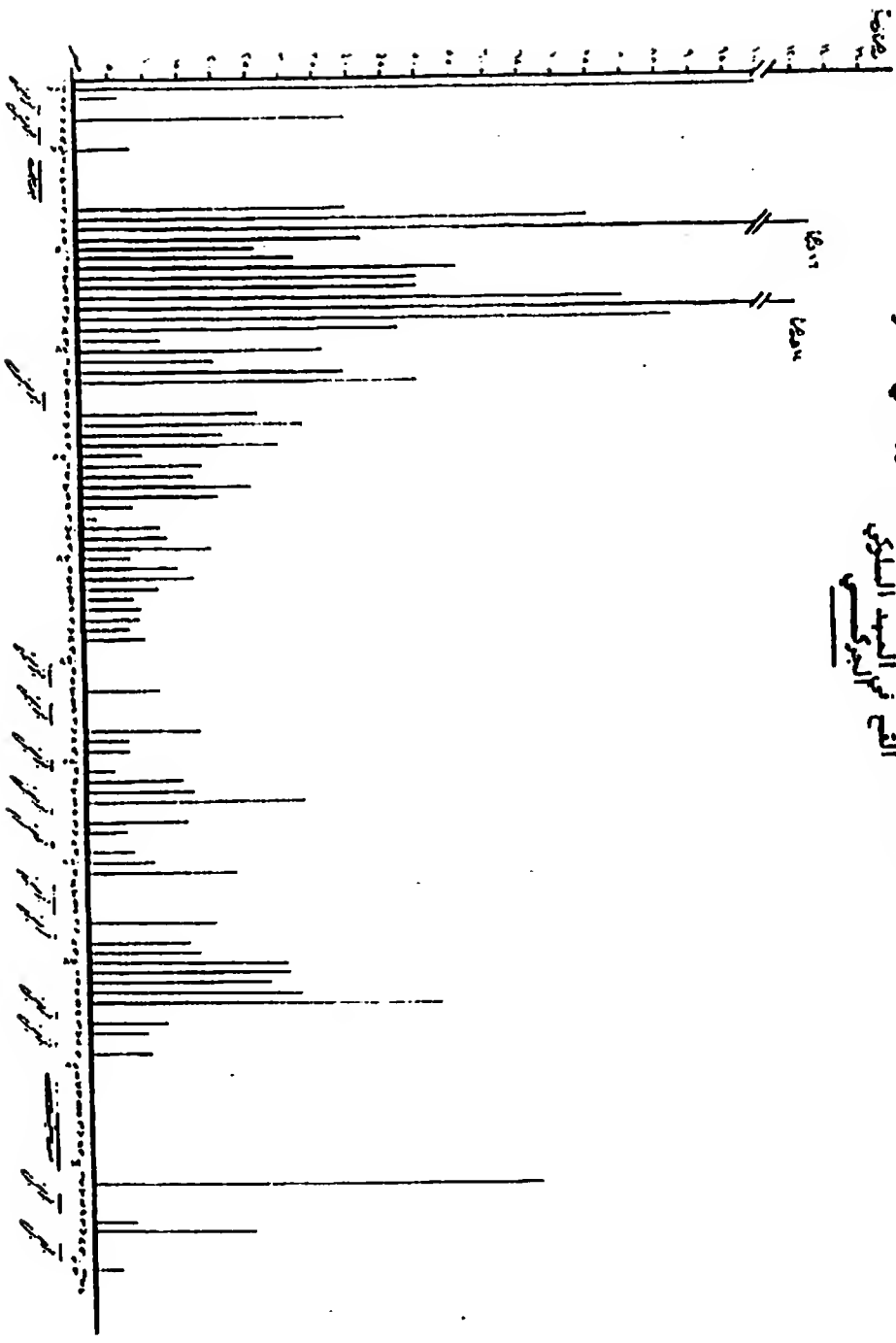
الوقت نفسه ظاهرة نقص أوزان النقود (الدنانير والدرهم) ، وارتفاع أسعار صرفها مقابل الفلوس .

وكان تأثير الحالتين أن ارتفعت الأسعار الى معدلات عالية عند ربطها بالفلوس النحاسية ، بينما انخفضت مقابل الدنانير الذهبية والدرهم الفضية ، وبعد ذلك سبباً من الأسباب التي أدت الى انخفاض مستوى الأسعار بشكل عام في العهد المملوكي الجركسي .

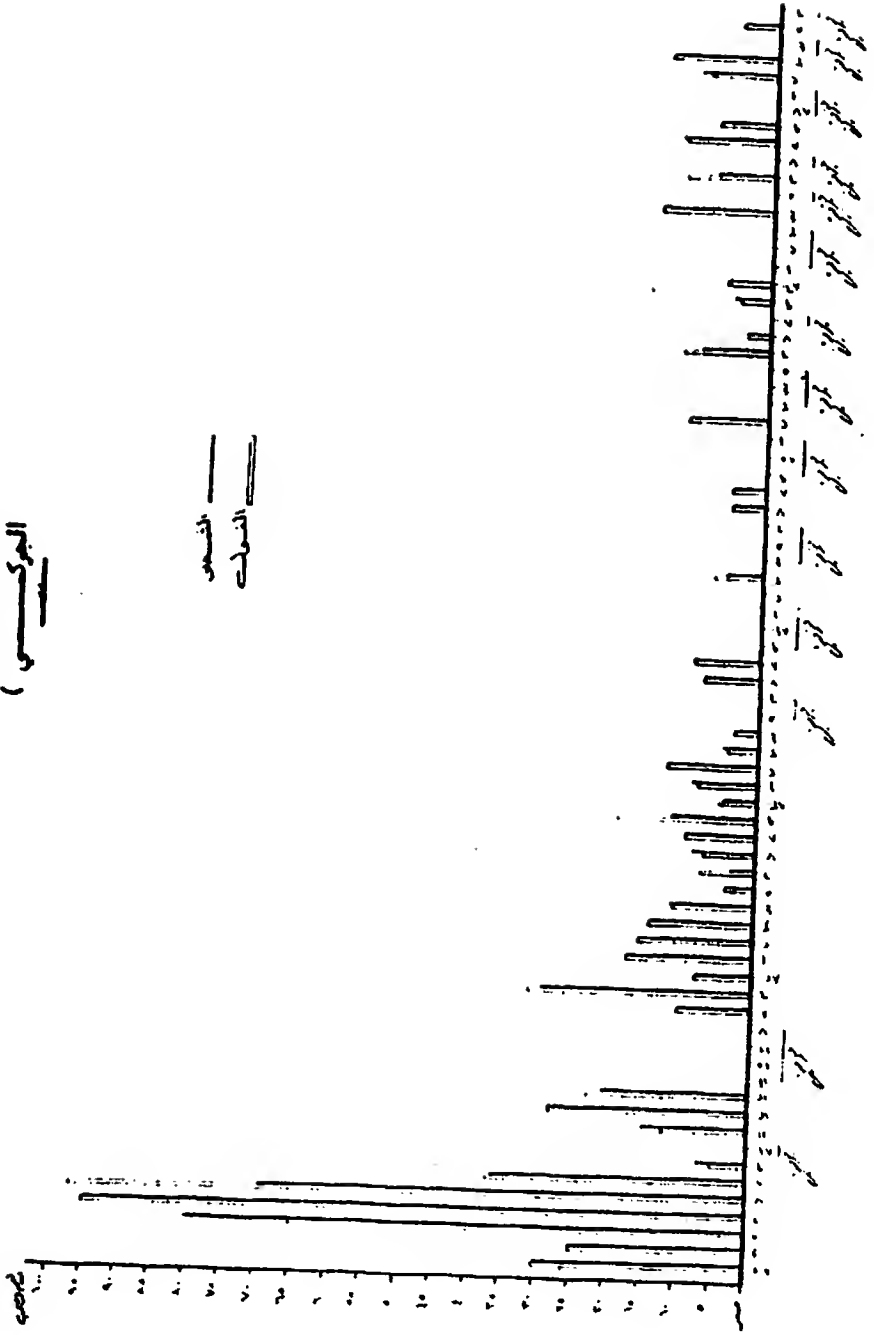
سادساً : لقد كان لتذبذب أسعار صرف العملات ، وبالذات في العهد المملوكي الجركسي أثره المباشر على تذبذب الأسعار وعدم ثباتها ، وبالتالي عدم استقرار القيمة الشرائية للنقود عند مستوى معين ، وكما هو معلوم ، فإن استقرار وثبات أسعار التبادل يكون له نتائج المباشرة على الأوضاع الاقتصادية في الدولة ، ومن بينها الأسعار ، إن لم يؤد الى انخفاضها بشكل سريع ، فعلى الأقل الى ثباتها ، والمحافظة على معدلاتها (فضلاً أنظر الرسوم البيانية) .

هذه أهم النتائج التي تم استخلاصها من واقع مؤشرات الأسعار في العصر المملوكي ، أو القيمة الشرائية للنقود المملوكية ، من خلال ما تعرضت له من تقلبات مختلفة نتيجة الظروف والأوضاع التي مرت بها .

(رسم بياني يوضح تطورات القيمة التراكمية للتبذير الحكومي في أعمار
 الفتي من المبدأ السلوكي
الميركسي



(رسم بياني يوضح تطورات القيمة الثابتة للتقود السلوكية لـ
 أسعار الفول والشعير في المصد السلوكي
 البركاني)



الفصل الخامس

العلاقة النقدية بين العملات المملوكية والعملات المحاصرة لها

- ١ - العوامل المؤثرة فى العلاقة قوة وضعفا .
- ٢ - العملات ذات العلاقة بالعمله المملوكية .
- ٣ - التنافس النقدى بين الدرهم المملوكى والدرهم البندقى .
وموقف الدولة من ذلك .
- ٤ - التنافس النقدى بين العملة الذهبية المملوكية والعملات
الذهبية الإيطالية .
- ٥ - محاولات الدولة وقف تقدم العملات الذهبية والإيطالية .
والنتيجة النهائية لتلك المحاولات .
- ٦ - دراسة مقارنة بين القيم النقدية للدينار المملوكى والدينار
الإيطالى .

يمثل سك النقود سيادة سياسية ليست فقط للملوك أو السلاطين الذين يرغبون اعطاء فترات حكمهم الصفة الشرعية ، بل إن الدولة نفسها كثيراً ما تحرص على أن يؤمن لها سك العملات استقلالاً سياسياً واقتصادياً عن غيرها من الدول الأخرى ، وما من شك في أن نتيجة ذلك الاستقلال ستكون ايجابية على وحدة الدولة وقوتها ، وعلى نظمها وأهدافها الداخلية والخارجية .

وبما أن العملات النقدية تكون وحدات النظام النقدي لأى دولة ، فإنه مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتلك الاستقلالية أو السيادة ، الأمر الذى أدى الى قيام علاقة نقدية بين عملات الدول ، شأنها فى ذلك شأن النظم الأخرى السياسية والاقتصادية ونحوهما .

ولكن طبيعة تلك العلاقة تتأثر بأوضاع كل دولة ، والتي من شأنها تحديد المستوى الذى تكون عليه عملاتها النقدية ، من حيث مركزها وقوتها أو ضعفها ، وانتشارها أو انحسارها الى غير ذلك .

١ - العوامل المؤثرة فى العلاقة قوة وضعفاً

لقد تأثرت العملات المملوكية بالظروف التى عاشتها الدولة ، سواء كانت الظروف ايجابية أم سلبية ، فتحدت بناء عليها ما تمتعت به من قوة ، وما عانت من ضعف طوال تاريخ حكم سلاطين الماليك .

ولقد اختلفت تلك الظروف باختلاف مجالات الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، حيث تشكلت العوامل المؤثرة فى العملات من خلال ذلك ، فكان لها أثرها المباشر على العلاقة النقدية بين العملات المملوكية والعملات غير المملوكية التى انتشرت فى الدولة وتم تداولها ، والتعامل بها على نطاق واسع ، هذا ويمكن تقسيم تلك العوامل على النحو التالى :

أولاً : القوة السياسية للدولة ، ومدى نفوذها .

ثانياً : القوة الاقتصادية للدولة ومستوى مركزها الاقتصادى .

ثالثاً : السياسة النقدية للدولة .

رابعاً حاجة الدولة للمعادن ، ومدى توفرها لإصدار العملات .

خامساً : الفساد النقدى .

وسنطالع فى التفصيل التالى أثر كل عامل فى علاقة النقود المملوكية مع النقود المعاصرة لها .

أولاً: القوة السياسية للدولة ، ومدى نفوذها

تأثر النظام النقدى المملوكى كثيراً بالأحوال السياسية للدولة ، وتبعاً لذلك تأثرت العملات المملوكية بل إنها طبعت بالطابع السياسى الذى ساد العصر المملوكى ، فاتصفت دون غيرها من نقود العالم الاسلامى عامة ، وبمصر خاصة باضطرابها الشديد الذى كان بصفة عامة سمة العصر .

فمن المعروف أن سك النقود احدى وظائف الملك وشاراته ، لذا حرص سلاطين المماليك على هذا الحق المرتبط بهم ، وتأثرت العملات التى يصدرونها بمدى قوة أو ضعف السلطان اذ تستمد من بقائه وقوة شخصيته قوة لمركزها وانتشاراً لها ، حتى اذا انتهت مدة حكمه بموته أو قتله أو خلعه ، أو نحو ذلك حلت محلها عملات جديدة ، وأصبحت العملات التى أصدرها عملات قديمة (عتقاً) سرعان ما تنخفض قيمتها النقدية ، قوتها الشرائية ، ودخلها التزيف والفساد ، فتقل فائدتها ويعم ضررها .

لقد سبق القول إن العملات المملوكية فى الفترة الأولى من قيام الدولة عانت فترة من التذبذب نتيجة اضطراب الأوضاع السياسية ، أعقبها فترة استقرار سياسى وجهت الدولة خلاله جهودها للإصلاح والتنظيم ، فكان للنظام النقدى نصيب من الإصلاحات التى قام بها السلطان الظاهر بيبرس وقد دعم تلك الإصلاحات ذلك الإستقرار ، وما بلغت الدولة خلاله من مركز نفوذ على مستوى الخارجى فافتت بها الدول المعاصرة لها ، وانعكس ذلك على مختلف أوضاع الدولة ، ومنها الوضع الاقتصادى ، وبصفة خاصة النظام النقدى ، فعاشت العملات المملوكية حالة استقرار وثبات ، وقوة فى مركزها ، وانتشارا فى التعامل بها ليس فقط داخل الدولة بل خارج حدودها ، وقد استمر ذلك الاستقرار وتلك القوة طوال عهد المماليك البحرية ، حتى وإن حدث بعض التقلبات النقدية الطارئة المصاحبة لفترات الاضطراب السياسى كتلك التى أعقبت وفاة السلطان الأشرف خليل ، والفترة التى أعقبت موت السلطان الناصر محمد خصوصاً فى نهايتها ، فإن العملات المملوكية حافظت على قوتها النقدية ، وانتشارها الواسع ومركزها المتقدم على العملات الأخرى .

ومع فترة الاضطراب والضعف التى بدأت فى السنوات الأخيرة من العهد البحرى ، واستمرت طوال العهد المملوكى الجركسى ^(١) عانت العملات المملوكية

(١) تميز العهد المملوكى الجركسى بازدياد الصراعات السياسية بين مختلف طوائف المماليك وأمرائهم . فشهد تولى عدد من الأطفال سلطنة الدولة عن طريق الوراثة . وكان يقاوم مرهوناً بقوة كبار الأمراء (مدبرى السلطنة) ، فإذا استطاع أمير ما بمساعدة بعض الأمراء إبعاداً من المماليك ، السيطرة والتغلب ، أمكنه إزاحة السلطان واعتلاء العرش مكانه . فمن شدة الاضطراب السياسى الذى عانت منه الدولة ، حدث أن تعاقب على سلطنة الدولة أربعة سلاطين فى فترة تقدر بنحو سنة وشهرين ، كما تولى أربعة آخرون فى فترة تزيد قليلاً عن سنتين ، ومنهم من حكم مدة شهرين ، بل إن منهم من لم تزد فترة حكمه عن ثلاثة =

اضطراباً وفساداً شديدين تدهورت خلالهما قوتها النقدية ، وتراجع مركزها المتقدم الذى يحدث لأول مرة لنقود إسلامية متيحاً المجال والفرصة للنقود غير المملوكية وغير الإسلامية التقدم والانتشار ، وإن استثنينا بعض فترات من العهد المملوكى الجركسى قام خلالها بعض السلاطين بمحاولات لوقف التراجع من العهد المملوكى الجركسى قام خلالها بعض السلاطين بمحاولات لوقف ذلك التراجع انتهت بتمكين الدولة من وقف تقدم وانتشار النقود غير الإسلامية فإن النتيجة النهائية هى استمرار تدهور النقود المملوكية ، وازدياد ضعف قيمتها الأمر الذى أذن بانتهائها . سيادة النقود الإسلامية .

ثانياً: القوة الاقتصادية للدولة

لا أريد الحديث هنا عن اقتصاديات الدولة ، وتنوعها ، فذلك جانب سيق لعدد من الباحثين مناقشته ودراسته ^(١) . ويكفى أن أشير الى الثقل الاقتصادى الذى كانت عليه الدولة ، ومدى ما تمتعت به من قوة ، وما عانته من

أيام . ومنهم من تولى ليلة واحدة لم ينعم فيها بسلطة أو حكم ويكفى أن أشير الى أن مبدأ القوة كان المسيطر على الأحداث إذ اغتصب ططر السلطة من أحمد بن المزد شينغ ، واغتصب برسبى السلطة السلطة من محمد بن ططر ، واغتصب جلقق الحكم من يوسف بن برسبى ، واغتصب انبال الحكم من عثمان بن جلقق ، واغتصب خشقدم السلطنة من أحمد بن انبال ، وأخيراً قانصره الغورى الحكم من محمد بن قايتهى .

(١) فضلاً : أنظر ابراهيم طرخان ، النظم القطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، نعم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى ، أحمد صادق سعد ، تاريخ مصر الاجتماعى والاقتصادى ، أحمد محمد عدوان ، الوضع الاقتصادى فى مصر فى عصر الدولة المملوكية الأولى ، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب جامعة عين شمس ، رقم ١٧٦٤١ ، محمد أمين صالح ، التنظيمات الحكومية لتجارة مصر ، عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب ، الى جانب عدد من البحوث والدراسات الأخرى .

ضعف فى اقتصادياتها المختلفة سواء داخل الدولة أو خارجها .

إن الحالة الاقتصادية للدولة المماليك تعد امتداداً لما كانت عليه فى الدول التى سبقتها ، ولم تشهد أى تطورات أو تغيرات ، بل على العكس من ذلك ، فبرغم المكانية حدوث ازدهار اقتصادى دائم ومستمر فى الدولة فإن الملاحظ على اقتصاديات دولة المماليك أنها شهدت تدهوراً ، وانخفاضاً تدريجياً فى خطها البيانى .

بدأت أولى خطوات التدهور الاقتصادى فى الدولة بالناحية الزراعية التى ارتبطت بالنظام الاقطاعى ^(١) ، وتأثرت به لدرجة كبيرة ، فقلت المساحات المزروعة فى الدولة من مليونين ونصف المليون فدان الى ستمائة ألف فدان ، وهبط عدد القرى المأهولة من حوالى ألفين وخمسمائة قرية الى ألفين ومائة وسبعين قرية ، أربعون بالمائة منها إنخفض إنتاجها الزراعى بنسبة زادت عن خمسين بالمائة تقريباً ^(٢) ، وفى ظل سياسة ضرائبية متشددة ، وإدارة مملوكية غاية فى السوء زادت تدهور الأوضاع الزراعية وما يتصل بها من نواحى الإنتاج

(١) الاقطاع تنظيم متعدد الجوانب اعتمدت عليه دولة المماليك خلال فترة حكمها فى نواح عديدة سياسية واقتصادية واجتماعية ، وهو بهذا يحمل أكثر من صفة يمكن أن تطلق عليه ، أما عن تعريفه ، فلفظة : القطعة من الشئ الطائفة منه ، واقطع طائفة من الشئ أخذه ، فاقطعه قطيعه ، أى طائفة من الأرض ، واصطلاحاً هو ما يقطع على الأمر لنفسه أو يمنحه لغيره من أرض ، أو نحو ذلك ، ومعنى آخر هو ما يتحصل عليه من غلة أو عين من أرض زراعية ، أو جهة من الجهات المالية ، وهو المعروف عند الفقهاء باقطاع الاستغلال ، لمزيد من التفاصيل فضلاً أنظر :

(ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٠ ، ص ١٤٩ - ١٥٩ (مادة قطع) ، ابراهيم طرخان ، النظم الاقطاعية ، الهاز العرنى ، المماليك ، محمد محمد أمين ، حركات اسلامية) .
(٢) أحمد صادق سعد ، تاريخ مصر الاجتماعى والاقتصادى ، ص ٤٢٤ .

الصناعى والحيوانى ، والتجارى ^(١) .

كان لابد من أن يبحث المالك عن مجال انتاجى آخر يحقق لهم الموارد المالية اللازمة لاستمرارهم واستمرار دولتهم ، لذا انجسوا الى التجارة التى كانت فى ازدهار وتقدم ، وأقبلوا عليها بكل شغف ، مستغلين ما فرضوه على جوانبها المختلفة من ضرائب ورسوم ومحتكرين - فى معظم الأحيان - عمليات الاستيراد والتصدير لأنفسهم مانعين التجار من المساهمة فى هذا الجانب ^(٢) ، إضافة الى السياسة الاقتصادية السيئة التى اتبعها أكثر السلاطين لتحقيق أطماعهم ومصالحهم ، وقد أدت تلك التوجهات المملوكية الى الاضرار الكبير بالتجارة الخارجية للدولة ، وجعلت التجار الوافدين ، والقوى التجارى يسأمون من تلك السياسة ، وتخوفون منها بحيث أصبحوا يتمنون تحول طرق التجارة عن مصر ، فيتخلصوا من ظلم المالك واستبدادهم ، وأرسلت لهم القوى ذات العلاقة التجارية معهم سفراها ومبعوثيها تنكر على الدولة تلك السياسة ،

(١) تجمعت العديد من العوامل التى أدت الى التدهور الزراعى يمكن تلخيصها بما يلى :
أ - إهمال السلاطين إقامة الخدمات الزراعية من سدود وقنوات وجسور تصريف وتطهير وتنظيف ونحو ذلك .

ب - إهمال المقطعين أراضيهم الزراعية ، وتوجههم الى مجالات إنتاجية سريعة تدرك عليهم إيرادات مالية فورية .

ج - الفتن والاضطرابات السياسية التى حدثت بين الدولة والقبايل العربية القاطنة فى أنحاء متفرقة من الأقاليم .

د - غلاء الأرضى الزراعية مع عدم استصلاحها ، مما أدى الى قلة إنتاجية الأرض الزراعية ، ومن ثم إهمالها ، وعدم الاستثمار فيها .

هـ - فساد السياسة التى سار عليها ولاة وعمال الأقاليم ، فاتبعوا سياسة تقوم على الظلم والجور وارهاق كاهل الرعية بزيادة من الضرائب والمقررات المالية المتنوعة .

(٢) ابن حجر ، انباء ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ ، ص ٤٢٣ ، ص ٥٤٧ .

وتطالبها بانتهاج سياسة أكثر مرونة وتفهماً لمصالح الآخرين ^(١) .

وبشكل عام فقد أدى الضعف الاقتصادى للدولة الى تدهور حالتها الاقتصادية وركود مراكزها التجارية ^(٢) .

ولا شك فى أن النتيجة السيئة - والتى يؤسف لها - لم تأت من فراغ ، بل كانت نتيجة طبيعية لما تعرضت له الدولة من أزمات متتالية ، ولما سارت عليه من سياسة سيئة لمعظم سلاطينها ، الذين لم يستطيعوا القيام بواجبهم نحو الدولة ، وحاجة مواطنيها من الإصلاحات والأعمال التى تزيد من قوة اقتصادها والأعمال التى تزيد من قوة اقتصادها ، نواحى الإنتاج فيها ، بل إنهم لم يحافظوا على ما ورثوه من ركائز وإيجابيات قام بها بعض السلاطين المالكيين عن اشتغالهم باصلاحاتهم ، وحرصهم على القيام بما يخدم الدولة والرعية .

لقد كان النظام النقدي - بصفته أقرب النظم ، وأكثرها ارتباطاً بالعملية الاقتصادية - الأكثر تأثراً بتلك الأوضاع ، فنقصت واردات الدولة من المعادن ، كما قلت أو عذمت احتياطياتها من النقود ، وكذلك انخفضت مواردها المالية عن طريق التجارة - وبالذات الخارجية ، وعن طريق جهات الإنتاج فى الدولة ، فأدى ذلك الى فقر الدولة ، وعجز ميزان المدفوعات فيها الذى عالجته بسياسة عقيمة تمثلت بإنقاص أوزان النقود ، ورفع قيمها النقدية مما زاد من سوء الأوضاع وتدهورها ، وخلال ذلك فقد العملات المملوكية مركزها النقدي ، وقوتها النقدية

(١) ابن تقيى بردى ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٣٦٦ .

(٢) أوردت المصادر التاريخية أمثلة عديدة على تلك الأوضاع والظروف ، فضلاً أنظر :

المقريزى ، ج ٤ ، ص ٧٩١ ، ٨٠١ ، ٨٦٩ ، ص ٩٣٣ ، ٩٣٥ ، ص ١١٨٧ - ١١٨٨ .

ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٥١ ، الصيرفى ، نزعة ، ج ١ ، ص ١٤٣ .

والشرائية تاركة المجال لعملات أخرى امتازت بقدرتها على المنافسة . ثم السيطرة على عمليات التداول ، فحرمت بذلك العملات المملوكية من مناطق واسعة سبق وأن انتشرت فيها . ومن مراكز تجارية كان التعامل النقدي لا يتم إلا بها . وحلت محلها النقود الأوروبية لتقوم بالمهمة بعد أن ضعفت الثقة بالعملات المملوكية ^(١) .

ثالثة السياسة النقدية لسلطين المماليك

فى ثنايا الحديث فى الفصول السابقة يتضح لنا بعض جوانب السياسة النقدية لسلطين الدولة المملوكية . وفى هذه الجزئية أركز الحديث عن الجانب الذى أثر فى مركز العملات المملوكية ، وتدنى الثقة فيها ، وانحسار التعامل بها .

إن سياسة غالبية سلطين المماليك لم تكن فى صالح النقود المملوكية . وعدد قليل منهم حرصوا على نظام الدولة النقدي وعمالها ، فأدخلوا فيها جملة إصلاحات ، وقاموا بعدة محاولات تهدف الى إصلاح النقود المملوكية ، والرفع من مركزها ، وقيمتها النقدية ، وقوتها الشرائية . كان أولها السلطان الظاهر بيبرس بإصلاحاته وتنظيماته للأوضاع النقدية التى أدت الى استقرارها ، وتدعيم مركزها وقوتها داخلياً وخارجياً ، بعد فترة اضطراب صاحبت قيام الدولة

(١) كان للتوسع التجارى أثره فى انتشار التعامل بالنقود المملوكية فى كثير من المراكز التجارية التى يصلها تجار الدولة ، وفى مقدمتهم طائفة التجار الكارمية ، كما كان لذلك التوسع ولتلك الطائفة ، وما كان لها من نشاط تجارى أثره فى نشر التعامل بالنقود الأجنبية ، وخصوصاً الأوروبية منها ، وذلك بعد أن ضعفت الثقة بالعملة المملوكية (صحيح لبيب ، التجارة الكارمية ، ص ٢٧ - ٢٨ ، شوقى عبد القوى ، العلاقات التجارية بين مصر والدول الأفريقية ، ص ٢٥١ ، ٢٥٣)

الملوكية . واستمر أثر جهود الظاهر بيبرس وتنظيماته النقدية فترة زمنية طويلة . ومع أن ذلك الاستقرار قد تعرض فى بعض فتراته الى تقلبات نقدية مؤقتة صاحبت فترات الاضطراب السياسى الذى حدث فى الدولة بعد مقتل السلطان الأشرف خليل ، فإن تولى السلطان الناصر محمد سلطنة الدولة فى فترة حكمه الثالثة ، قد أوقف تلك التقلبات ، وأعاد الاستقرار والثبات الى العملات الملوكية ، حيث اتبع سياسة نقدية سليمة ، وبالذات فيما يتصل بالعملات الذهبية والفضية ، ومع أنه قد حقق نجاحاً كبيراً فى تقوية مركز تلك العملات فإنه لم يحقق النجاح المطلوب فى مجال العملات النحاسية التى أحدثت عدة ززمات نقدية بسبب ما تعرضت له من فساد .

والمهم أن سياسة الناصر محمد النقدية ، وما كانت عليه الدولة فى عهده من قوة سياسية واقتصادية قد حافظ على المركز النقدى للعملات الملوكية الإسلامية ، استمرت محافظة على مكانتها فى الأسواق ، والمراكز التجارية الخارجية ، ويكفى أن تأثيرات تلك السياسة ، وتلك الأوضاع ، قد جعلت النقود الملوكية تحافظ على مكانتها ومركزها وقوتها فترة طويلة بعد وفاة الناصر محمد رغم الاضطراب السياسى الذى عم تلك الفترة ، وكذلك ما اتصف به سلاطينها من ضعف ، وعدم قدرة على الاستمرار ، مما جعلهم غير قادرين على انتهاز سياسة نقدية واضحة يمكن الحكم عليهم من خلالها .

لقد حكم سلاطين المماليك الجراكسة فى الوقت الذى زاد فيه تنافس الأمراء وتنازعهم . وكذلك طمعهم ورغبتهم فى الكسب والثراء ، فصرفهم ذلك عن تدارك الاتجاه المنحدر لمؤشر أوضاع الدولة ، ولم يحاولوا إصلاح ما يحتاج منها الى إصلاح ، ولم يحافظوا أيضاً على ما خلفه سلاطين المماليك البحرية من مقومات جيدة ، وجوانب إنتاجية فى الدولة ، ولقد شكلت سياسة معظم

سلاطين الجراكسة على الدولة واقتصادياتها ، فمع عدم قيامهم بإصلاح أو تنظيم أو محافظة على بعض عوامل متبقية من قوة الدولة ، فإنهم أخذوا فى استقلال تلك العوامل أسوأ استقلال تحقيقاً لطموحاتهم ، ومآربهم الشخصية ، فتحكموا لذلك بمقدرات الدولة ومقوماتها ومقدرات شعوبها ، وشهدت الدولة بمختلف جوانبها تدهوراً ملحوظاً اذن بانتهائها وسقوطها .

لقد كان النظام النقدي ، أو العملات النقدية ضمن الأدوات التى استغلها سلاطين الدولة ، فافسدوا النظام ووحداته النقدية ، فأصبحت وأمسّت فى وضع لا تحسد عليه ، وتراجعت أمام المنافسة الحادة التى واجهتها من عملات أجنبية عدة ، وإن نجحت بعض المحاولات التى قام بها بعض السلاطين فى وقف تلك المنافسة ، فإن النقود المملوكية لم تحافظ على قيمتها وقوتها النقدية مدة طويلة ، اذ سرعان ما انهارت أمام التقلبات النقدية التى تعرضت لها ، أو بسبب السياسة النقدية الفاسدة التى تحكممت بها وهما اللتان شكلتا ظاهرة بارزة هددت المركز النقدي للعملات المملوكية ، وأضعفت من قوتها النقدية والشرائية ، ومع قيام بعض السلاطين بمحاولات لإصلاح مسار النظام النقدي المملوكى ، فإنه لم يكتب النجاح لعدم وجود رغبة صادقة لدى أولئك السلاطين فى تصحيح ذلك المسار ، وكذلك لم تمنحهم الظروف والأزمات التى تعرضت لها الدولة الوقت الكافى لانجاح تلك المحاولات ، كما كان لسياسة مواجهة العجز المالى فى خزانة الدولة ، وعجز ميزان مدفوعاتها الذى انتقل لصالح قوى تجارية أخرى أثرها فى اضعاف قيمة النقود المملوكية ، وفقدان الثقة بها بسبب ما أقدم عليه السلاطين من إنقاص أوزانها وعياراتها ، وخلطها بمعادن رخيصة ، وما من شك فى أن تلك السياسة ، سياسة خاطئة ، وعقبة ومعينة عن المنهج القويم ، ولكن لم يهتم السلاطين بكل هذا مادام أنه يحقق لهم حلولاً وقتية لما يبرون به من أزمات .

والنتيجة النهائية ، فساد النقود ، وضياح مركزها ، وفقدانها للسياسة النقدية التى تمتعت بها النقود الاسلامية ، وحافظت عليها عدة قرون .

رابعاً: حاجة الدولة الى المعادن ومدى توفرها لإصدار العملات

لقد سبق القول - إن توفر المعادن المستخدمة فى إصدار العملات يهيئ للدولة سلك ما محتاجه عن أعداد النقود بمختلف أنواعها ، بما يكفل لها تحقيق المهمة الاقتصادية ، ويقوم بعمليات التداول المختلفة .

إن توفر تلك المعادن فى أراضى الدولة يحقق لها مصالح هامة جداً ، ويوفر لها دعماً اقتصادياً ، وقوة لمركزها النقدى ، فلا تضطر الى الاعتماد على مصادر خارجية لتأمين احتياجاتها ، وفى ذلك نواح سلبية عديدة تؤدى فى كثير من الأحيان الى أزمات مالية تتعرض لها الدولة من جراء نقص احتياطياتها ، أو توقف امداداتها ، أو على الأقل وصولها بكميات لا تلبى حاجة الدولة ، إضافة الى ما يسببه ذلك من ضغوط على الدولة قد تعرض استقلالها وسيادتها لضرر ، كما أن دفع مبالغ نقدية ضخمة لقاء تلك الكميات قد يعرض الدولة الى هزات مالية تنعكس على اقتصادياتها ، واقتصاديات مواطنيها .

وقد يحدث أن تصاب احتياطيات الدولة بنقص تلك المعادن الهامة كما حدث للدولة فى العهد الجركسى بسبب سوء سياستها فى هذا الاتجاه ، فتقوم بتصدير معادنها الثمينة (الذهب والفضة) ، لتستورد معادن أقل أهمية وثنماً (النحاس) ، فى الوقت الذى لم تستطع فيه تعويض الكميات التى فقدتها من معادنها الثمينة ، لتوقف وصولها من مصادرها الخارجية ، وبهذا قلت كميات المعادن فى الدولة ، وقلت تبعاً لذلك أعداد النقود التى تصدرها إضافة الى ما لحقها من نقص أوزانها ، وعدم ضبط عياراتها ، فكان هذا على حساب قوة

العملات المملوكية ، وانتشارها ومركزها بين العملات المعاصرة لها .

فلو كانت هناك سياسة سليمة لأمكن للدولة المحافظة على احتياطاتها من وحداتها النقدية الرئيسية خلال نشاطها التجارى الواسع ، بدلاً من إنفاقها وتهديرها فى قنوات لا تعود على الدولة ، ولا على مواطنيها بأى نفع ، لقد فقدت الدولة مبالغ نقدية طائلة ، لو أحسن استغلالها والاستفادة منها ، لحافظت على قوتها الاقتصادية ، وقوة عملاتها وانتشارها ، ولوفرت تلك الكميات احتياطياً نقدياً ينقلها من الوقوع فى أزمات مالية خانقة .

خامساً: الفساد النقدي

كان للفساد النقدي أثره الكبير المباشر على ضعف العملات المملوكية ، وانحطاطها وتدهور مركزها ليس على المستوى الداخلى فقط ، بل على المستوى الخارجى أيضاً ، والحديث عن الفساد النقدي يحتاج الى تفصيل أكثر لذا أفردت له الفصل التالى ليتمكن من خلاله الامام بجميع جوانب ذلك الفساد ، ولكن تنبى الإشارة - ونحن نتحدث عن علاقة العملات المملوكية بالعملات المعاصرة لها - الى الفساد النقدي بصفته المسئول الأول عن الخلل الذى جعل تلك العلاقة تسير فى اتجاه معامس ، فقدت خلاله العملات الاسلامية سيادتها وقوتها ، نظراً لانعدام الثقة بها من جانب المتعاملين داخل الدولة وخارجها ، مما تطلب البحث عن بديل مناسب يقوم بالوظيفة النقدية ، فوجد ذلك البديل فى العملات الأوروبية التى حازت على السيادة النقدية فى تلك الفترة .

٢ - العملات ذات العلاقة العملة المملوكية

يتحدث القلقشندي في موسوعته (صبح الأعشى) ^(١) - نقلاً عن موسوعة ابن فضل الله العمري (مسالك الأبصار) - عن عملات الدول المعاصرة لدولة الماليك ، وأنواعها وقيمتها النقدية ، وهي وإن كانت معلومات مقتضبة إلا أنها تفيد في معرفة ما أصدرته تلك الدول من نقود ، ولكن في ظل حديثنا عن العلاقة النقدية بين العملات المملوكية والعملات المعاصرة لها ، لا يهمنا معرفة ما أصدرته الدول المعاصرة لدولة الماليك من عملات متنوعة فتلك كمعلومات ترتبط بدراسة تلك الدول ، أو دراسة نظمها الاقتصادية ، وما يهمنا في هذا الجانب هو معرفة ما تم تداوله ، والتعامل به من عملات أجنبية داخل الدولة المملوكية في أسواقها ومراكزها التجارية ، من واقع المعلومات التي أوردها المصادر التاريخية .

والمعروف أن الدولة المملوكية قد أدخلت ضمن نفوذها بلاد الشام بصفة ثابتة ومستمرة ، وبلاد الحجاز بصفة شبه ثابتة ^(٢) ، وبلاد اليمن بصفة متقطعة ^(٣)

(١) ج ٤ ، ص ٣٠٥ وما بعدها .

(٢) عن هذا الموضوع فضلاً أنظر : على حسين الناصر ، العلاقات الحجازية المصرية ، رسالة ماجستير طبوعة ، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٣ هـ / ١٩٧٣ م ، فهد بن عبيد بن محميد ، الحجاز تحت حكم الماليك ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، رقم ٢١٠٤ ، سنة ١٣٩٩ هـ ، ريتشارد مورتييل ، الأحوال السياسية والاقتصادية في العصر المملوكي ، رسالة دكتوراه غير مطبوعة ، عمادة شئون المكتبات ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

(٣) عن هذا الموضوع فضلاً أنظر : محمد عبد العال ، بنو رسول وبنو طاهر ، وعلاقات اليمن الخارجية في عهديهما ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠ م ، وقاسم عبده ، علاقات مصر بعالم البحر الأحمر في عصر سلاطين الماليك الجراكسة ، سنار ، ■

كذلك بعض الأقاليم المتاخمة لحدودها- بصفة مؤقتة (١) ، ولقد صدرت فى تلك الأقاليم دنانير ودراهم وفلوساً عليها شارات الدولة المملوكية فى معظم الفترات ، وحملت مسميات محلية تمييزاً لها (٢) ، كما ماثلت مراحل سك تلك العملات ما كان متبعاً فى مصر (مركز الدولة المملوكية) من نظم ادارية وفنية وان اختلفت فى بعض الأحيان ، فلا يعد اختلاقاً جوهرياً ، وقد انتشرت تلك العملات فى مختلف مناطق الدولة ، وكان لكل عملة سعر تبادلى يختلف عن أسعار مثيلاتها فى الأقاليم الأخرى حسب اختلاف أوزانها ونسب عياراتها ونحو ذلك (٣) ، وهذا ليس بغريب ، فقد اختلفت القيم النقدية للنقود المملوكية

= الدراسات العليا للتاريخ الحديث ، (البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة) جامعة عين شمس ، ١٩٨٠ م ، ص ١٢٥ ، ص ١٥٧ .

(١) حدث ذلك عندما صدرت فى امرة بنى قرمان دراهم باسم السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون ، سنة ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م ، وقد تاخمت تلك الامارة الحدود الشمالية لدولة المالك ، وهى من الامارات التى قامت على أنقاض دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى .

(ابن فضل الله العمري ، مسالك ، ص ٦٧ ، تحقيق أين فؤاد سيد ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١٨٥ ، ج ٣ ، ص ٥٨٥ ، محمد مصطفى زيادة ، هامش رقم (٥) من كتاب السلوك ج ١ ، ص ٦٣٠ ، فضلاً أنظر هامش رقم (١) ، ص ٤٦٥ .

كما حدث أن ضربت دراهم عليها اسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون أيضاً فى مملكة أرمينية الصغرى (المسيحية) .

(ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٣٩ ، محمد باقر ، الكنى واللقاب ، ص ٥٥) .

(٢) القلشندى ، صبح ، ج ٤ ، ص ١٨٠ ، ١٨١ ، المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٨٦ ، العبنى ، عقد الجمان ، (حوادث سنة ٨٢٦ هـ) ، ص ١٠٨ .

(٣) على بن حسين الناصر ، النشاط التجارى فى شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى ، ص ٢٦٥ ، رسالة دكتوراه مطبوعة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨١ م ، على السيد على ، القدس فى العصر المملوكى ، ص ٢٢٨ ، رسالة دكتوراه مطبوعة ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٦ م .

الصادرة عن مركز الدولة ، بين اقليم وآخر ، وعلى هذا فانه يمكن القول ان تلك العملات لم تكن تختلف كثيراً عن العملات التى تم ضربها فى الديار المصرية ، وبناءً عليه فإن انتشارها فى مناطق الدولة وأقاليمها أمر طبيعى يفرضه الترابط السياسى ، والادارى الموجود بين أقاليم الدولة ^(١) .

ونظراً لذلك ، فإنه لا يعنينا الحديث عن تلك العملات ، بل إن ما يعنينا فى حديثنا عن العلاقة النقدية هو العملات التى صدرت من خارج نفوذ الدولة ونطاقها الجغرافى ، وتم تداولها فى مناطق الدولة وأسواقها ومراكزها التجارية .

* * * * *

وتنبغى الإشارة قبل الدخول فى تفاصيل تلك العلاقة الى أن مراكز التجارة الخارجية فى الدولة التى تستقبل مختلف طوائف التجار من كافة الأجناس ، قد شهدت تداول أنواع عديدة من العملات الذهبية والفضية التى أصدرتها الدول ذات العلاقة التجارية مع دولة المالك ، وذلك التداول الذى تم فى المراكز التجارية ليس بالضرورة حدوثه داخل الدولة ، وفى أسواقها ، مراكزها التجارية الداخلية ، ولقد سبق الحديث عن تنظيم عملية دخول العملات أو معدنى الذهب

(١) لقد أعطى سلاطين المملك صلاحيات واسعة لنواب الأقاليم لإصدار عملات نقدية تغطى حاجة السوق المحلية لكل نيابة . وفى الغالب حملت النقود الصادرة فى النباهات أسماء النواب الذى يقومون بإصدارها ، أو أماكن الإصدار كالدبنار المكى والدرهم لسعودية فى بلاد الحجاز والدرهم المهدية والدرهم المظفرية فى بلاد اليمن ، والدرهم التوروزية والدرهم الحموية فى بلاد الشام ، وهذا التنوع فى الإصدارات النقدية ومسمياتها لا يكون بالضرورة مخالفاً لنظام الدولة النقدي ، إذ أنه لم يتغير وإن حدث فلأنما هو تغير بسيط لا يلقى طهيعة التهمية النقدية للحكومة المركزية ، وما حدث ذلك إلا لتسهيل الإجراءات المالية ، والمعاملات التجارية لكل اقليم ، وفقاً لحاجاته النقدية .

والفضة الى الدولة ^(١) - ، ولا شك فى أن درجة توفر عملات كل دولة قد خضعت لمستوى النشاط التجارى الذى حدث بين تلك الدولة ، ودولة المالك ، حيث كان تداولها على نطاق واسع أو ضيق ، مرهون بحجم التبادل التجارى من ناحية ، وجودة تلك العملات - سبكاً ووزناً وعتاراً - من ناحية أخرى .

والواقع أن المصادر التاريخية لا تمدنا بأى معلومات عن العلاقة بين العملات المملوكية ، وتلك العملات التى وصلت الى مراكز التجارة الخارجية للدولة دون أن تتعمق الى الداخل فى الأسواق ونحوها ، وعدم تغطية هذا الجانب بمعلومات متكاملة ، أوجد ثغرة لا يستهان بها فى دراسة العلاقة النقدية بين العملات الصادرة فى فترة الدراسة ، ليس هذا فقط بل ان ما أورده المصادر التاريخية عن العملات الأجنبية التى تم تداولها ، والتعامل بها داخل الدولة يعد ناقصاً من الناحية العلمية وإن ركزت تلك المصادر على أسعار مبادلة عملة من العملات الأجنبية وأوردتها بشكل دائم ، فإنها لم تورد ما يتصل بها من تطورات وظروف أخرى ، أو بغيرها من العملات التى انتشر التعامل بها فى أسواق الدولة .

ومهما كان نقص المادة العلمية لموضوع العلاقة النقدية فقد حاولت توضيحها بقدر ما أتيج لى من معلومات أوردها المصادر المعاصرة لفترة الدراسة ، وتحسن الإشارة قبل الدخول فى التفاصيل الى أن المصادر المملوكية لم تورد ما يفيد انتشار التعامل بأى عملات أجنبية داخل الدولة طوال العهد المملوكى البحرى ، ومع أن التسليك بهذا الرأى غير ممكن دون تدقيق وتحيص فإنه مع

(١) صامويل برنارد ، النقود العربية ، ص ٦٣ .

ذلك يوضح جانباً هاماً فى العلاقة النقدية هو قوة العملات المملوكية وثبات مركزها ، وعدم وجود فرصة لمنافستها خلال ذلك العهد .

ومن الثابت تاريخياً وجود عملات أجنبية ، تم تداولها داخل الدولة المملوكية ، خصوصاً فى السنوات الأولى من قيام الدولة ، والثابت أيضاً أن تلك العملات لم تنافس العملات المملوكية ، ولم تشكل أى تهديد لمركزها ، أو لقيمتها النقدية ، ويظهر ذلك بوضوح فى عدم الإشارة الى تلك العملات الأجنبية فى المصادر المملوكية المعاصرة لها ، وهذا دلالة على عدم أهميتها ، وعدم وجود أى مركز نقدي لها ، وقد انحصرت تلك العملات بالعملات البيزنطية والعملات الصليبية :

النقود البيزنطية

لم يذكر القلقشندى شيئاً عن معاملة امبراطورية بيزنطة ، وعملاتها الخاصة بها ، وقد كان النظام النقدي البيزنطى يعتمد على الذهب قاعدة نقدية ، وحملت العملة الذهبية اسم نوميسما ^(١) (Nomisma) ، وتساوى اثنى عشر ميلياريسيا ^(٢) (Mliarisioon) ، وهى العملة الفضية البيزنطية ، وأقل منها القيراط (Keration) ، وكل اثنى عشر قيراطاً تعادل ميلياريسيا واحدة ، وهناك الفلوس النحاسية وكل قيراط يعادل فلسين أى أن كل أربعة وعشرين

(١) النومييسا هى ما أطلق عليه باللغة الرومانية السوليدوس Solidias ، ثم حلت بعد ذلك اسم البيزانت Bezant بيزنط ، ثم بعد ذلك حلت اسم الهيروبيرون Hyperperon . عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية ، ص ٤٥ ، هامش (١) .

(٢) الميلياريسيا هى التى تقابل الدراهم الفضية الاسلامية بدى بسكها أواخر القرن الأول الهجرى / أوائل القرن الثامن الميلادى ، وقد تم تقليد الدراهم الأموى عند إصدارها . (أمين توفيق الطيبي ، النقود العربية ، ص ٣٢١) .

فلساً تعادل ميليارسيا واحدة (١١) .

ولقد تم تداول العملة الذهبية البيزنطية فى الفترة المعاصرة للسنوات الأولى من قيام الدولة المملوكية فى بلاد الشام ، والمراكز التجارية فى الدولة ، وقد حملت تلك العملة اسم هيبورير (٢) ، وكان قبل ذلك قد أطلق عليه لفظ محلى هو الدينار الرومى (٣) ، وقد انتشر التعامل بها ، وفضلها كثير من المتعاملين نظراً لوزنها شبه الثابت وحسن عيارها (٤) ، ولكن يبدو أن فساد هذه النقود فيما بعد قد حد من انتشارها ، وأتاح الفرصة للنقود المملوكية فى الانتشار ، وأن تحوز على ثقة المتعاملين ورضاهم (٥) . خصوصاً بعد أن زاد فساد العملة الذهبية البيزنطية ، ونقصت أوزانها بدرجة كبيرة ، وصلت معه قيمتها النقدية

(١) ستيفن ونسيهان ، الحضارة البيزنطية ، ص ٢١٠ ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، سلسلة الألف كتاب ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦١ م ، كتاب والى المدينة ، أو (Eparccikon Biblion) ، صنفه الامبراطور البيزنطى ليو السادس بين سنتى ٩١١ - ٩١٢ م ، ترجمه الى العربية ، د. الهاز العرنى ، ملحقاً بكتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة للشيزى ، ص ١٤٤ ، ١٧٦ .

(٢) هايد ، تاريخ التجارة ، ج ١ ، ص ٢١٥ ، ترجمة أحمد محمد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٥ م ، مارك بلوك ، مشكلة الذهب فى العصر الوسيط ، ص ٢ .

(٣) النابلسى : عثمان بن اسماعيل ، طمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية ، ص ٥٣ ، تحقيق كلود كاهن ، مجلة معهد الدراسات الشرقية ، المجلد السادس عشر ، دمشق ، ١٩٥٨ م .

(٤) عزيز سورببال عطية ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٧٥ .

LOPEZ. R. S.
"The Dallar of the Middle Ages" pp. 232 - 233. JESHO. vol, XI, summer.
1951, No. 3, pp. 209 - 234 .

(٥) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ١ ، ص ٣٩٢ .

إلى سدس ما كانت عليه قبل ذلك . ومع توالى فسادها وهبوط مركزها لم يعد يمكن الاعتماد عليها . فحلت محلها العملات الذهبية المملوكية ، وذلك أواخر القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ^(١) .

النقود الصليبية

يمكن القول أنه لم يكن للنقود الصليبية (ذهبية أو فضية) أى مركز نقدى فى تلك الفترة حتى داخل الامارات الصليبية التى أصدرتها ، اذ أن التعامل بالنقود الاسلامية ونقود بيزنطة كان واسعاً فى تلك الامارات ، حيث كانت هى النقود المفضلة فى التعامل النقدى ، خصوصاً وأن اصدار النقود الصليبية جاء تقليداً للنقود الاسلامية ، بل إنها حملت فى معظمها آيات قرآنية وعبارات دينية اسلامية ^(٢) ، وتكفى الإشارة الى أن الوجود الصليبي بعد قيام دولة المماليك كان قصيراً جداً ، فلم يمض نصف قرن على قيامها ، حتى استطاعت القضاء على الامارات الصليبية ، ومعها قضى على نقودهم التى استحدثوها كما أن تلك النقود لم تحز على مركز ، أو على قوة تمكنها من الاستمرار ، والانتشار بسبب ما كانت عليه من فساد وسوء النقود الذهبية أو الفضية ^(٣) .

(١) ستيفن ونسيان ، الحضارة البيزنطية ، ص ٢١١ .

(٢) رأفت النبراوى ، المسكوكات الصليبية فى مصر والشام ، ص ٢ - ٣ ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، رقم ٢٧٨٨ ، مارك بلوك ، مشكلة الذهب ،

ص ٣١ .

(٣) عبد الرحمن فهمى ، النقود الصليبية تحت تأثير النقود الاسلامية ، ص ٢٧٨ ، مقالة فى مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، أم القرى بمكة المكرمة ، العدد الخامس سنة ١٤٠١ هـ ، ص ٢٧٧ ، ٢٩٨ ، رأفت النبراوى ، نفسه ، ص ١٥ .

ولا أدل على انحطاط قيمتها النقدية من أن الدينار الصوري ^(١) وهو من أشهر العملات الذهبية الصليبية كان كل خمسة عشر دينار منه تعادل دينارا مملوكيا واحدا ^(٢) ، وعن فسادها فقد أوردت بعض المصادر التاريخية ^(٣) أن الصليبيين قد أصدروا دراهم فضية عرفت بالياقية - نسبة الى ياقا - وكانت كثيرة الغش لدرجة أن كل مائة درهم فضى منها فيها من الفضة ما يعادل خمسة عشر درهماً نقداً ، وبسبب التعامل بها أفسدت المعاملات ، وأحدثت ضرراً كبيراً للمتعاملين بها ، ولا يمكن أن يكون لها مع ذلك الفساد ، والانحطاط مركز نقدي ، أو قدرة على منافسة العملات النقدية المملوكية .

هذا ما يتصل بالعملات الأجنبية التي تم تداولها داخل الدولة المملوكية في السنوات الأولى من قيامها ، وهو ما ذكرته المصادر والمراجع التاريخية ، أما في الفترة التالية لقيامها ، فلم تذكر المصادر المملوكية أى عملات أجنبية تم تداولها حتى نهاية العهد المملوكي البحري .

بينما تذكر بعض المراجع ^(٤) - التي تعتمد على مصادر أجنبية - أنه تم

(١) الدينار الصوري هو الدينار الصليبي المقلد الذي أصدره الصليبيون تقليداً للدنانير الإسلامية بما فيها من كتابات ونقوش ، اتسم بعدم دقته من حيث السبك والوزن والقياس ، وجاءت نسبه الى مدينة صور لكونها أول مدينة يتم فيها إصدار نقود ذهبية صليبية على الطراز الإسلامي (النابلسي ، لمع القوانين ، ص ٥٣ ، رأفت النبراوي ، المرجع السابق ، ص ١٥) .

(٢) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، ص ٢٨٢ ، ابن بهادر ، فتوح النصر ، ورقة ١١١ .

(٣) أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ٢١١ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .

(٤) عادل زعتون ، العلاقات الاقتصادية ، ص ٥٢ ، عفاف صبرة ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٤٩ .

تداول العملات الإيطالية فى الفترة المذكورة ، وأن انتشارها بدأ مع بداية القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، وإن حدث خلاف فى تداول العملات الإيطالية وانتشارها ، فإن المصادر والمراجع قد اتفقت على عدم ذكر أى عملات أخرى غير إيطالية انتشرت فى الدولة حتى نهاية العهد المملوكى البحرى ، واتفقت أيضاً تلك المصادر والمراجع على ذكر ما انتشر فى الدولة من عملات خلال العهد المملوكى الثانى سواء كانت إيطالية أم غيرها ، ومنافستها للعملات المملوكية ، وهو ما سأناقشه فى الفقرة التالية .

لقد أدى تراجع مركز العملات المملوكية فى العهد المملوكى الثانى بسبب ما تعرضت له من خلل ، الى منافسة عدة عملات أجنبية ذهبية وفضية للعملات المملوكية ، ومنازعتها على مركزها النقدي ليس فقط خارج الدولة بل وداخلها أيضاً ، حيث حازت على ثقة المتعاملين ورضاهم ، فاختلفت ما كان للنقود من مركز نقدي وقوة نقدية .

وقد رأينا فى الفقرات السابقة أن العلاقة النقدية فى العهد المملوكى البحرى كانت فى صالح العملات المملوكية التى حافظت على مركزها وقيمتها وقوتها فى ظل الاهتمام بأوزانها وعباراتها وسكها ونحو ذلك ، أما فى العهد المملوكى الجركسى ، فما حدث هو عكس ذلك ، حيث تحولت العلاقة النقدية لصالح العملات المنافسة للعملات المملوكية التى لم تستطع المحافظة على مركزها وقيمتها وقوتها فى ظل التدهور المستمر فى أوزانها وعباراتها ، والفساد الدائم الذى أصابها .

— Rabie, op. cit., pp. 190 - 191.

DARRAG, A.

L'Egypte Le Regne De Barsbay (825 - 841 / 1422 - 1438).

لقد نافست العملات المملوكية عدة عملات أجنبية ، وقد اختلفت درجة ذلك التنافس ، ففي الوقت الذى لم يكن لمنافسة بعض العملات أى تأثير على العملات المملوكية ، فإنه كان لمنافسة عملات أخرى تأثيرها الشديد على العملات المملوكية ، وقد انحصرت بالعملات الإيطالية (الذهبية والفضية) ، التى تزعمت التنافس النقدي ، وكانت منافساً عنيداً للنقود المملوكية .

أما العملات التى لم يكن لها تأثير كبير على العملات المملوكية ، فقد كانت جميعها دراهم فضية ، وتركزت منافستها النقدية فى ظروف نقص الدراهم المملوكية فى أسواق الدولة وعدم كفاية أعدادها ، فاضطر المتعاملون الى التعامل بدراهم أجنبية تعويضاً عن ذلك النقص ، وكانت النتيجة النهائية للعلاقة النقدية بينها وبين الدراهم المملوكية هى انحسار التعامل بتلك الدراهم وانحسار تداولها داخل الدولة ، وتوقفت منافستها بشكل عام ، وقد قُتلت تلك الدراهم الفضية الأجنبية بما يلى :

الدراهم اللنكية

أول إشارة لتلك الدراهم وردت فى بعض المصادر التاريخية سنة ٨٣١ هـ / ١٤٢٨ م ^(١) ، وتحدث عن دراهم مغولية أطلق عليها الدراهم اللنكية انتشر التعامل بها فى أسواق الدولة ، وقد اكتفى المقرئى ^(٢) ، وهو من تحدث عن

(١) ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٤٠٦ .

(٢) السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٥١ .

الدراهم اللنكية وهى من الفضة من إصدار مملكة مغول آسيا الوسطى ، أو إحدى الممالك المغولية الأخرى ، أطلق عليها اللنكية إما لأنها من إصدار تيمور لك ، أو لأنها من إصدار أحد خانات المغول ، ولكن ساعدت غزوات تيمور لك لبعض أجزاء الدولة المملوكية على انتشارها فحملت اسمه ، ويبدو ان لها اسماً مغولياً خاصاً بها عرفت به غير ما عرفت به فى دولة المماليك .

انتشارها فى الدولة بذكره أنها ضرب ببلاد العجم ، والواقع أن الظروف السياسية تجعلنا نرجع انتشار هذا النوع من الدراهم الى أوائل القرن التاسع الهجرى ، وبالتحديد فى ظل ظروف غزو تيمو لنك لبعض أجزاء الدولة سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ - ١٤٠١ م ، ويشير بعض الباحثين ^(١) الى أن هذه الدراهم قد وصلت الى مصر سنة ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م ، وإن كان ذلك صحيحاً ^(٢) ، فإنه يدل على انتشار تلك الدراهم فى بلاد الشام ، ومع حدوث أزمة نقص الفضة ، والدراهم الفضية ، تم الاستعانة بها فى مصر للتخفيف من وقع الأزمة ، وبعد أن زاد الاعتماد عليها ، ونافست الدراهم المملوكية التى أصدرها السلطان الأشرف برسباى قامت الدولة بالمناداة بمنع التعامل بتلك الدراهم ، وذلك فى شهر شوال من سنة ٨٣١ هـ / أغسطس سنة ١٤٢٨ م ، لكن لم يتحقق للدولة ما أرادت إذ استمر التعامل بها مما اضطرها الى المناداة مرة ثانية فى شهر ربيع الأول من العام التالى ٨٣٢ هـ / ديسمبر ١٤٢٨ م بمنع التعامل بالدراهم اللكنية ، وغيرها من الدراهم الأجنبية ^(٣) ، ولم يلق هذا المنع قبولاً كسابقه ، فاستمر التعامل بها بسبب قلة الدراهم الفضية المملوكية ، وعدم ثبات سياسة الدولة النقدية فى هذا الشأن ، يقول المقرئى عن ذلك ^(٤) :

(١) رأفت النبراوى ، مسكوكات الممالك الجراكسة ، ص ٣٠٣ :

Ashtor, op. cit. p. 45.

(٢) أورد المقرئى (السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨) أنه فى سنة ٨١٧ هـ ١٤١٤ م كثرت بمصر الدراهم الفضية وهى ما جلبه العسكر من بلاد الشام ، وكانت على نوعين الدراهم النوروزية ، والدراهم الهندية ، ولم يورد المقرئى الدراهم اللكنية معها ، كما أنه لم يحدد تاريخ جلب العسكر لهذه الدراهم .

(٣) ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٤٠٦ .

(٤) السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٩٣ .

«وفى خامسه نودى بمنع الناس من المعاملة بالدراهم البندقية . والدراهم اللنكية . فامتنعوا ، وتصدى جماعة لأخذها بأقل من قيمتها لعلمهم بأن الدولة لا ينضى لها أمر ، ولا تثبت على حال ، فخرس طوائف من الناس جملة وريح آخرون» .

تكررت محاولة الدولة منع تلك الدراهم من المعاملة والتداول ، فنادت بذلك بعد عدة أشهر ، ولكن لم تنجح محاولتها لعدم توفر الدراهم المملوكية بأعداد كافية ، حيث فشلت سياسة الدولة فى معالجة نقصها ، أو كما ذكرت المصادر «لإعراض ولاية الأمر عن عمل المصالح لبعدهم عن معرفتها ، مع طلبهم للمال بكل وجه يذم ويستقيح»^(١) .

حاولت الدولة للمرة الرابعة فى شهر صفر سنة ٨٣٤ هـ / أكتوبر سنة ١٤٣٠ م منع الدراهم اللنكية من التعامل بها ، وعملت على سحبها من الأسواق ، ودفعها الى دار الضرب لتحويلها الى دراهم فضية مملوكية^(٢) ، وأكدت الدولة سياستها فى شهر ربيع الآخر / يناير ١٤٣١ م ويبدو أن الدولة قد حققت نجاحاً فى هذا السبيل ، فقصت أو على الأقل منعت تداول تلك الدراهم داخل الدولة ، وما يؤيد ذلك أن المصادر المملوكية لم تورد بعد التاريخ السابق أى ذكر للدراهم اللنكية مما يعنى القضاء على منافستها .

(١) السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٠٥ ، الصيرفى ، نزعة ، ج ٣ ، ص ١٦١ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ص ٨٣٢ ، ص ٨٥١ ، ٨٥٣ ، ابن حجر ، المصدر السابق ، ج ٣ ،

ص ٤٥٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٣٥٢ .

الدراهم القرمانيية

نسبة الى بنى قرمان الذين أسسوا لهم إمارة فى الأجزاء الجنوبية من آسيا الصغرى منتصف القرن السابق الهجرى تقريباً^(١) ، وكانت علاقتها السياسية والاقتصادية جيدة مع دولة الماليك ، مما زاد فى حركة التبادل التجارى بين الجانبين ، فكثرت تردد التجار ، وتبع ذلك كثرة تداول نقود كل جهة ، ووجدت الدراهم القرمانيية مجالاً للانتشار والتداول فى أسواق الدول المملوكية ، وأقاليمها المختلفة ، فى الوقت الذى تعانى فيه تلك الأسواق من نقص واضح فى أعداد الدراهم الفضية المملوكية .

لم يرد فى المصادر المملوكية تاريخ بدء تداول هذه الدراهم ، أو الفترة التى ظهرت فيها ، ومن المرجح أن انتشارها كان مصاحباً لانتشار الدراهم اللكنكية فى ظروف أزمة نقص الدراهم الفضية التى عانت منها الدولة بدءاً من سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٩١ - ١٣٩٢ م .

(١) تأسست على يد كريم الدين قرمان بن نود صوفى حوالى ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م فى جهات أرمناك وقسطنطيني ، وعدت من أهم وأكبر الإمارات التى نشأت بعد تفكك الدولة السلجوقية ، وكانت قاعدتها لازددة ، استمرت فترة زمنية طويلة ، وعانت من الغزو التيمورى الذى أسقطها لكنها استعادت أملاكها ونفوذها حتى استولت عليها الدولة العثمانية سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٨٦ م ، على يد السلطان محمد الفاتح وجعلها إحدى ولايات الدولة وتولى حكمها ابنه مصطفى الذى تمكن من القضاء نهائياً على أسرة بنى قرمان سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م .

(القلقشندي ، صبح ، ج ٥ ، ص ٣٦٥ ، محمد مصطفى زيادة ، هامش رقم (٥) كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ١٨٥ ، ص ٦٣٠ ، كى لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٨٠ ، أحمد شلبى بن سنان القرماني ، تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص ٣٠ ، تحقيق بسام عبد الروهاب ، الحجاج ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، دار الهضائر ، دمشق) .

وأول اشارة لهذه الدراهم فى المصادر التاريخية وردت فى نفس الظروف التى وردت فيها الدراهم اللنكية ، وذلك فى شهر شوال من سنة ٨٣١ هـ / أغسطس سنة ١٤٢٨ م (١) ، عندما بدأت الدولة محاولاتها منع تلك الدراهم من منافسة دراهمها الفضية ، وكررت محاولاتها عدة مرات - كما فعلت مع الدراهم اللنكية - ولكن جميع تلك المحاولات لم يتحقق لها النجاح الا بعد أن قامت الدولة بجمع تلك الدراهم من الأسواق ، وتحولها الى دار الضرب لسكها دراهم مملوكية ، ويبدو أن نجاح الدولة كان ضعيفاً وهشاً ، فيما يتعلق بالقضاء نهائياً على الدراهم القرمانية التى استمرت عدة سنوات ، وهى فى أيدي المتعاملين ، فقامت الدولة فى شهر شعبان من سنة ٨٣٧ هـ / مارس سنة ١٤٣٤ م بمنع التعامل بها نهائياً ، وأخذ الصيارفة يماطلون فى تنفيذ أوامر الدولة ، فقبضت الدولة على عدد منهم وضربتهم وشهرت بهم (٢) ، وبعد التاريخ السابق لم يرد فى المصادر التاريخية ما يفيد استمرار تداولها فى الدولة ، مما يرجع انقطاع التعامل بها ، وعدم تداولها داخل الدولة (٣) .

واضافة الى الدراهم اللنكية والقرمانية - التى تحدثت عنها ، والدرهم البندقى الذى يأتى الحديث عنه - فقد حدث تداول أنواع أخرى من الدراهم الفضية داخل الدولة المملوكية بصفة مؤقتة ، فتورد بعض المصادر

(١) ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٤٠٦ .

(٢) المقرئى ، ج ٤ ، ص ٩١٢ ، المؤلف المجهول ، حوليات دمشقية ، ص ٩٨ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٢٨٣ .

(٣) أورد ابن طولون (مفاكهة الخلان القسم الأول ص ٢٨١) وجود دراهم قرمانية فى بلاد الشام.. ومن المعتقد ان انقطاع التعامل بتلك الدراهم لم يشمل الدولة كلها فإن توقف أو انقطاع التعامل بها وتداولها فى الديار المصرية لا يعنى حدوث ذلك فى بلاد الشام خصوصاً وأنها قريبة من مكان صدور تلك الدراهم .

التاريخية ^(١) أنه في الفترة التي انتشر فيها تداول تلك الدراهم انتشر أيضاً تداول الدراهم القبرصية - ضرب قبرص - ، كما يورد العيني ^(٢) أنه انتشر أيضاً التعامل بالدراهم العثمانية - ضرب بنى عثمان - والتكرورية - ضرب بلاد التكرور - ولا شك في أن ظروف نقص الفضة والدراهم الفضية هي التي ساعدت على تداول تلك الدراهم ، كما أن محاولات الدولة منع التعامل بها قد صاحب منعها للدراهم اللنكية والقرمانية ، وكذلك ظروف اختفائها ، وعدم تداولها صاحب ظروف اختفاء الدراهم اللنكية والقرمانية .

والواقع أن وجود تلك الأنوع من النقود ، وغيرها في الدولة ليس بمستغرب بل هو أمر طبيعي في ظل النشاط التجارى الواسع الذى يربط الدولة بعدد من القوى التجارية ^(٣) ، وكان وجود تلك العملات في العادة عند الصيارفة ، والصاغة الذى يؤدون مهمة استبدال العملات النقدية ، وقد أدت أزمة نقص الفضة التي كانت تمر بها الدولة الى البحث عن أى دراهم فضية تحقق الهدف الاقتصادى ، وكانت الدراهم في متناول أيدي المتعاملين فاستخدمت بديلاً عن الدراهم المملوكية .

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٥١ - ٨٥٢ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٣٥٢ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٢١٧ .

(٢) العيني ، ص ١٠٨ .

(٣) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ ، الصيرفى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٥٠ ، صامويل برنارد ، النقود العربية ، ص ٦٣ ، على السيد على ، القدس في العصر المملوكى ، ص ٢٣٠ .

٣ - المنافسة النقدي بين الدرهم المملوكي والدرهم البندقي

وموقف الدولة من ذلك

ان المنافسة القوية التى عانت منها الدراهم المملوكية جاءتها عن طريق دراهم البندقية ، وكانت الظروف التى أوجدت تلك المنافسة هى نفس الظروف التى أوجدت منافسة الدراهم التى سبق الحديث عنها ، فقد كانت الدراهم المملوكية تعاني من الفساد والندرة مما أتاح لدراهم البندقية الفرصة للوصول الى مركز نقدي متقدم كان على حساب المركز النقدي للدرهم المملوكي ، وقيمتها النقدية .

لقد بدأت جمهورية البندقية إصدار نقدها الفضى سنة ١١٩٣ م / ٥٩٠ هـ على يد الدوق الثانى والأربعين من دوقات البندقية هنرى داندولو (ENRICO DANDOLO ١١٩٣ - ١٢٠٥ م ^(١)) ، وكان الدرهم البندقي الذى أطلق عليه اسم جروسو (GROSSO) أول درهم فضى تصدره جمهورية ايطالية ، فاعتمدته الجمهوريات الايطالية جميعها قبل أن تبدأ إصدار نقودها الخاصة ^(٢)

ويذكر ابن فضل الله العمري ^(٣) أن الدرهم البندقي كان تداوله وانتشاره قد عم مناطق كثيرة ومراكز تجارية ، خصوصاً فى الشرق ، بقول عن ذلك ، وعن أهم صفات الدرهم البندقي :

«البنادقة يستخدمون الدراهم ، وبها درا ضرب للفضة جلييلة المقدار انتشر إنتاجها فى الأقطار ، وهى دراهم حسنة متساوية على أحد الوجهين صورة

(١) شارل دهل ، البندقية ، ص ٦٥ - ٦٦ ، عزيز سوريال عطية ، العلاقات ، ص ١٧٧ ، ادوارد بروجى ، تاريخ الحضارات العام ، ج ٣ ، ص ٤٠٢ .

(٢) ادوارد بروجى ، نفسه .

(٣) مسالك الأبحار ، ج ٢ ، ق ٢ ، ورقة ١٨٦ أ ، نسخة دار الكتب المصرية .

شخص ، وعلى الآخر صورة شخصين» .

ويذكر ابن بطوطة ^(١) ، إن الدرهم البندقي كان من العملات الرئيسية فى القسطنطينية سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ - ١٣٣٣ م ، كما يفيد ابن كثير ^(٢) أنه كان إحدى العملات المتداولة فى بلاد الشام سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦٠ - ١٣٦١ م .

ومن المرجح أن تداول الدرهم البندقي قد سبق قيام دولة المماليك ، حتى إذا قامت انحصرت تداوله والتعامل به فى بلاد الشام فقط دون مصر ، ويبدو أن تداوله والتعامل به فقد حدث من خلال الوجود الصليبي فى أجزاء من بلاد الشام ، وقيام نشاط تجارى كبير شمل الامارات الصليبية ، وبلاد الشام من جهة ، وجمهورية البندقية من جهة أخرى ، ولقد ظل التعامل به مع استمرار النشاط التجارى بين المراكز التجارية الاسلامية فى بلاد الشام ، وجمهورية البندقية بعد القضاء على الوجود الصليبي فى المنطقة .

ونظراً للسياسة المتشددة التى سلكها سلاطين المماليك البحرية حتى وفاة الناصر محمد سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤١ م تجاه التعامل بالنقد الأجنبي فى مصر ، فقد تأخر انتشار الدرهم البندقي ، والتعامل به فى مصر ويشير المقرئى ^(٣) الى أن الدرهم البندقي فى مصر قد كثر تداوله سنة ٨١٧ هـ / ١٤١٥ - ١٤١٥ م ، وأنه مما جلبه العسكر معهم الى مصر من بلاد الشام ، ولم يحدد المقرئى ، هل هو موجود قبل التاريخ المشار اليه أم لا / ، والواضح من حديث

(١) الرحلة ، ج ١ ، ص ٣٩٢ .

(٢) البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢٧٧ .

(٣) السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

المقرىزى أن الدرهم البندقى كان موجوداً فى مصر ولكنه كثر وانتشر فيها بشكل ملفت للنظر فى التاريخ المذكور فى وقت لم تكن فيه الدراهم الفضية الرسمية تتوفر بكميات تكفى عمليات التداول النقدى فى أسواق الدولة .

ومهما كانت الحال ، فقد استمر تكاثر دراهم البندقية فى العام التالى ٨١٨ هـ / ١٤١٥ - ١٤١٦ ^(١) . ومع كثرتها زاد تداولها والتعامل بها ، وزادت ثقة الناس بها ، حتى أصبحت مع انعدام الدراهم الفضية المملوكية ، وكأنها العملة الرسمية للدولة ^(٢) .

لقد أدت ظروف نقص الفضة ، وانعدام الدراهم الفضية الى استخدام دراهم البندقية وغيرها من الدراهم الفضية الأجنبية ، وما إن عادت الأوضاع الى طبيعتها نوعاً ما بعد الإصلاح النقدى الذى قام به السلطان المؤيد شيخ فى شهر صفر سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م الى تركيز على الدراهم الفضية ، حتى ضعفت منافسة دراهم البندقية لدراهم الدولة وزاد من ضعف منافستها ما داخلها من فساد وغش فقدت بهما ثقة الناس فتحولوا منها الى الدراهم الفضية التى أصدرها المؤيد شيخ ، وحازت على القبول والرضا من المتعاملين .

استغرق اختفاء دراهم البندقية من الساحة المملوكية بعض الوقت ، فبدأت الدولة عملية تنظيم التعامل بها ، وتحديد ذلك عن طريق الوزن ، وفق سعر لا يتجاوز خمسة عشر درهماً فلساً لكل وزن درهم منها ^(٣) . وفى أغلب الأحيان

(١) المقرىزى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣١١ ، ص ٧٣٦ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ٣٦ .

(٢) المقرىزى ، نفسه ، ص ٢٨٩ ، النقود الاسلامية ، ص ٦٢ - ٦٣ ، ابن حجر ، نفسه ، ص ٣٨ .

(٣) المقرىزى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ، ابن حجر ، نفسه ، ص ٥٤ .

يتحدد السعر التبادلي للدرهم البندقي من خلال جودته أو رداءته ، وفى ظل سياسة التشدد التى انتهجها السلطان الأشرف برسباى لوقف منافس العملات المملوكية قام فى شهر صفر من سنة ٨٣٠ هـ / ديسمبر من سنة ١٤٢٦ م بمنع التعامل بالدرهم البندقي ، ورسمت الدولة بحمل ما فى أيدي الناس الى دار الضرب ليتم تحويلها الى دراهم مملوكية ، ولكن لم تنفذ أوامر الدولة ، واستمر التعامل بدراهم البندقية رغم حظر تداولها من قبل الدولة . يقول المقرئى (١) عن ذلك :

« فجرى الناس على اعادتهم فى الاصرار والاستهانة بمراسيم الحكام ، وتعاملوا بها الا قليلاً منهم » .

وتكرر نداء الدولة حول هذا المنع فى شهر شوال من العام التالى / أغسطس ١٤٢٨ م (٢) ، ثم تكرر فى ربيع الأول من سنة ٨٣٢ هـ / ديسمبر سنة ١٤٢٨ م ، ويستمر اعراض المتعاملين عن نداءات الدولة ، بل إن بعضهم استغل ذلك لتحقيق أرباح مالية عن طريق المتاجرة بتلك الدراهم بشرائها بأقل من قيمتها ، ثم بيعها بقيمة أعلى عند عدم معارضة الدولة على تداولها والتعامل بها (٣) .

وقد حاولت الدولة للمرة الرابعة منع التعامل بدراهم البندقية ، وذلك فى شهر صفر سنة ٨٣٣ هـ / نوفمبر سنة ١٤٢٩ م ، وأن من لديه شئ منها يقدمه لدار ضرب النقود فى الدولة ليسبك دراهم أشرفية (٤) ، ولم يتحقق النجاح للدولة فى محاولتها مما اضطرها للخضوع للأمر الواقع ، وترك مهمة القضاء على

(١) السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٣٦ .

(٢) ابن حجر ، أنها ، ج ٣ ، ص ٤٠٦ .

(٣) المقرئى ، المصدر السابق ، ص ٧٩٣ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٣ ، ص ١٤٧ .

(٤) الصيرفى ، نفسه ، ص ٢١٧ .

الدرهم البندقى ، والتعامل به لقوة الدرهم المملوكى وتقدم مركزه النقدى ، ومواجهته لما ينافس من دراهم أجنبية .

هذا ولا تسفعا المصادر التاريخية بتوضيح تطورات العلاقة النقدية بين الدرهم المملوكى والدرهم البندقى فى الفترة التالية ، اذ لم تذكر المصادر ما يدل على استمرار التعامل بدراهم البندقية ، أو عدم استمرار ذلك ، والمرجح هو استمرار تداول تلك الدراهم داخل الدولة المملوكية على الأقل لفترة قادمة ، ويفهم ذلك مما ذكرته بعض المصادر التاريخية ^(١) ضمن أحداث سنة ٨٣٧ هـ / ١٤٣٤ م من قيام الدولة بمنع التعامل بالدراهم القرمانية ، ونحوها من الدراهم المنتشرة فى الدولة ، كما يفيد أحد الباحثين ^(٢) - دون أن يذكر مصدر إفادته - أن الدراهم البندقى سنة ٨٨٣ - ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م ، كان متداولاً فى بلاد الشام فى الوقت الذى أعرض عنه فى الديار المصرية .

ومهما كانت الحال ، فالثابت فى المصادر التاريخية المعاصرة عدم ورود ما يفيد تداول الدرهم البندقى بعد سنة ٨٣٧ هـ / ١٤٣٤ م ، مما يدعو الى القول أن منافسة الدرهم البندقى قد ترقفت لصالح الدرهم الفضى المملوكى .

(١) الصيرفى ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٢٨٣ .

(٢) أشتور ، التاريخ الاقتصادى ، ص ٣٨٠ - ٣٨١ .

٤ - التنافس النقدي بين العملة الذهبية المملوكية

والعملات الذهبية الإيطالية

فى الوقت الذى سادت فيه العملات البيزنطية والاسلامية ، ثم انفراد العملات الاسلامية بالسيادة النقدية العالمية ، كانت أوروبا تتبع نظاماً نقدياً داخلياً اعتمد على العملات الفضية ، وخارجياً على العملات الذهبية البيزنطية الاسلامية ، ثم الاسلامية ، بعد ذلك أدركت وبالدات الجمهوريات الإيطالية ذات النشاط التجارى الواسع مع الشرق أهمية إيجاد عملة نقدية خاصة بها يتحقق من خلالها التوازن الاقتصادى مع القوى التجارية الأخرى ، وفى مقدمتها دولة المماليك ، وتواجه بها متطلبات نشاطها التجارى الأخذ فى التوسع والانتشار .

لقد سارعت الجمهوريات الإيطالية - كل واحدة تحاول أن تسبق الأخرى - بإصدار عملاتها الفضية فى البداية ، ثم بدأت خطوات إصدار العملات الذهبية تتلاحق (١) .

(١) لقد عرض مارك بلوك لتاريخ العملة فى الغرب الأوروبى ، وأشار الى أنه قد تم سك الذهب والفضة فى الامبراطورية الرومانية حتى القرن التاسع الميلادى حين حدث انفصال نقدي بين شرقى الامبراطورية وغربها ، فاستمر الشرق (الامبراطورية البيزنطية) فى نظامه النقدي القائم على الذهب والفضة ، وتقرب سك العملات الذهبية فى الغرب ، واستمرت النقود الفضية أداة التعامل النقدي فيه ، ولم بعد الغرب لسك الذهب الا فى القرن الثالث عشر الميلادى ، حيث بدأت الجمهوريات الإيطالية خطواتها الأولى فى هذا المجال ، وأهم ما فى هذا البحث هو الإشارة الى عودة الغرب الى سك العملات الذهبية جاء نتيجة للتأثير الشرقى (الإسلامى) ، وأن حدوث ذلك جاء بعد حصول أوروبا على الذهب اللازم لقاء تصديرها الأخشاب والأسلحة والأصواف وغيرها الى شق البحر المتوسط وجنوبه ، وقد بلغ التأثير حداً جعل النقود الأوروبية صورة مقلدة من النقود الاسلامية .

فبدأتها جمهورية جنوة سنة ١٢٥٢ م / ٦٥٠ هـ عندما أصدرت نقداً ذهبياً عرف بإسم جنوفينو أو جنوينو (Jenovino - Januino) ، وأعقبها في نفس العام قيام جمهورية فلورنسا بإصدار عملة ذهبية أطلق عليها إسم فلورين (Florino) ثم تلتها بفترة متأخرة جمهورية البندقية التي أصدرت عملتها دوكات (Ducat) سنة ١٢٨٤ م / ٦٨٣ هـ (١) ، ثم توالى بعد ذلك إصدار العملات الذهبية من قبل المدن التجارية الإيطالية ، والدول الأوروبية (٢) .

لقد كان تتابع تلك الخطوات من قبل أوروبا دلالة واضحة على بداية تطورات نقدية شهدتها أوروبا عامة ، وجمهورية إيطاليا بصفة خاصة ، حيث كانت تلك التطورات ضرورة اقتصادية هامة واجهت بها الجمهوريات الإيطالية بكل ذكاء - التراجع المستمر للعملة الإسلامية حماية لمصالحها الاقتصادية ، وعلاقاتها التجارية مع الدولة المملوكية (٣) ، وساعد النشاط التجاري الإيطالي مع الشمال الأفرى في حصولها على كميات كبيرة من الذهب مكنتها من سك عملاتها

لمزيد من التفاصيل عن النظم النقدية الأوروبية فضلاً أنظر :

مارك بلوك م مشكلة الذهب في العصر الوسيط ، ص ١ ، ٥٢ ، فرنان برودل ، من ذهب السودان الى فضة أمريكا ، ص ٧٩ ، ١٠٠ ، أمين مصطفى عفيفي ، أحمد عزت عهد الكريم ، تاريخ أوروبا الاقتصادية ، ص ٤٠٢ ، ٤٠٦ ، أمين الطيبي ، النقود العربية ، ص ٣٢٠ ، ٣٢٦ .

LOPIZ, op. cit., pp. 26 - 31.

(١) عزيز سوريال عطية ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٧٦ - ١٧٧ ، عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية ، ص ٤٧ ، ٤٩ ، شارل دبل ، البندقية جمهورية أرستقراطية ، ص ٦٥ ، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٨ م .

(٢) مارك بلوك ، مشكلة الذهب ، ص ٦ - ٧ :

Darrag, op. cit., pp. 93 - 94 .

Bacharch, "The Dinar versus The Ducat" p. 78.

(٣)

الذهبية ، فبدلاً من أن تذهب تلك الكميات من معدن الذهب الى مصر تحولت الى أوروبا ، فافتقرت مصر الى ذلك الذهب مما أثر سلباً على أوضاعها النقدية ، بينما أثر ايجاباً على الأوضاع النقدية الأوروبية ، وكان للسياسة التجارية التي انتهجتها المدن الايطالية مع بقية المناطق الأوروبية في حصولها على كميات إضافية من الذهب ، فكانت تشتري السلع والبضائع المختلفة من أوروبا بالعملات الفضية ، وتأخذ أثمانها عملات ذهبية في الشرق الاسلامي ، فكان لديها احتياطياً ضخماً من النقود الذهبية ^(١) .

ولا يمكننا أن نتجاهل المحاولات الأوروبية المتكررة للسيطرة ومنافسة النقود الإسلامية ونفوذها ، فبعد تدهور العملة البيزنطية ، وانفراد العملة الإسلامية بالسيادة النقدية عملت أوروبا بدعم من الكنيسة للقضاء على القوة الاقتصادية للدولة الاسلامية - خصوصاً بعد فشل مشروعاتها السياسية في الحروب الصليبية - وفرض حصار اقتصادي على العالم الاسلامي بمنع التعامل معه ، ثم بالقرصنة البحرية التي تعرضت لها التجارة الاسلامية في البحر المتوسط ، ثم بالعمل على إضعاف القوة الاقتصادية بإضعاف النقود ومركزها ، ومواجهتها وأخيراً بحركة الكشف الجغرافية التي حققت الهدف الكبير ، وهو القضاء على دولة المماليك القوة الاسلامية المعاصرة - والقضاء على النفوذ الاسلامي ، والسيطرة الاسلامية على طرق التجارة الدولية ومراكزها .

وتجمعت الظروف داخل الدولة المملوكية ، وخارجها ضد العملات الاسلامية ، فكانت في الوقت نفسه في صالح العملات الايطالية الأمر الذي أدى الى سيطرتها لفترة من الزمن على السيادة النقدية ، والتعامل النقدي في أقاليم عديدة إسلامية وغير إسلامية .

(١) عادل زيتون ، العلاقات ، ص ٤٩ ، مارك بلك ، مشكلة الذهب ، ص ٣٦ .

انحصرت العلاقة النقدية ، أو بالأصح المنافسة النقدية للعملة المملوكية بينها وبين العملات الذهبية الايطالية ، فقدت العملة المملوكية نتيجة تلك المنافسة نسبة كبيرة من مركزها وقوتها وقيمتها النقدية وكذلك مناطق انتشارها ليس خارج الدولة فقط بل ، وداخلها أيضاً ، وأى خطر أكبر على العملة من تهديدها داخل موطنها .

لقد مثل العملات الذهبية الايطالية فى منافستها للدينار المملوكى كل من الفلورين الفلورنسى والدوكات البندقى ^(١) ، ووردت أول إشارة فى المصادر المملوكية عن العملات الايطالية لدى القلقشندى ^(٢) وجاء فيها :

«وغالب ما كان عليه صرف الدينار المصرى فيما أدركناه فى التسعين والسبعمئة ، وما حولها عشرون درهماً ، والافرنتى سبعة عشر درهماً» .

وقد أيد المقرئى ^(٣) ما ذكره القلقشندى ، بل إنه نص صراحة على أن انتشار الافرنتى إنما حدث حوالى سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م ، ثم يخالف ذلك فى موضع آخر ^(٤) ، ويذكر أن رواجه قد حدث سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧ - ١٣٩٨

٠٢

فالفلورين الفرنسى هو ما اعتادت مصادر الفترة على تسميته (افرنتى ،

(١) عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية ، ص ٤٧ . شارل ديل ، البندقية جمهورية
ارستقراطية ، ص ٦٥ :

Bacharch : "Circassian Monetary Policy Silver" p. 247.

(٢) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٣٨ .

(٣) السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٠٥ .

(٤) نفسه ، ص ٧٠٩ .

أو فلورى^(١) ، والذي صدر سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٠ م ، ومن تاريخ الاصدار وأول اشارة دلت على انتشاره فى دولة الماليك فترة طويلة شارفت على قرن ونصف تقريباً ، ومن المؤكد أنه خلالها قد جرى تداوله فى مراكز التجارة الدولية للدولة ، ويرجع أيضاً أنه تم تداوله داخل الدولة ولكن على نطاق محدود شمل من أجزاء الدولة بلاد الشام فقط ، ولكن فى السنوات الأخيرة من العهد البحرى ، وأوائل العهد المجرسى كان انتشاره وتداوله واسعاً شمل الى جانب الدولة المملوكية دولاً أخرى ، وما يؤكد ذلك ما ذكره أحد الباحثين^(٢) عن رحالة من الفرنجة زار القاهرة سنة ٧٨٧ هـ / ١٣٨٥ - ١٣٨٦ م من أن النقود الايطالية قد لقيت رواجاً واسعاً فى الدولة المملوكية فى تلك الفترة .

(١) مصطلح جرت العادة فى العصر ، الملوكى ، على استخدامه فى تعريف الفلورين ، ثم من بعده الدوكات البندقى ، وأفرنتى أو فلورى مشتق من فلورنتيا - لا كما قال ، عدد من الباحثين كصمويل برنارد وعزيز سوريال عطية وغيرهما ، من لفظ الفرنجة ، والمشتقة أصلاً من أفرنسه إحدى الممالك الأوربية ، حيث استعمل هذا اللفظ بدءاً من الحروب الصليبية التى شارك فيها الفرنسيون بصفة أساسية .

وفلورنتيا هو الاسم اللاتينى لفلورنسا لذلك سعى دينار فلورنسا سعى فلورنتى ، وحسب القاعدة فى اللغة العربية كان أجدادنا يحركون الحرفين الساكنين فى أول الكلمة فنطقوها (أفلورنتى) ، ثم لتسهيل نطقها (وهذه ظاهرة شعبية مشهورة) خلفت بالترخيم وأصبحت (أفرنتى) .

وكلمة فلورين صفة لاتينية تعنى الزهرى من أصل كلمة (فلور) فى اللاتينية أى الزهرة وقد شاع خطأ أن فلورين نسبة الى زهرة الزنبق لأنها نقشت على الدينار، والواقع أن النسبة الى الزهرة لا الى الزنبق حيث أن الزنبق باللغة اللاتينية هو ليليوم وواضح أن كلمة فلورين لا صلة لها بليليوم (على الغمراوى . مشافهة) .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٠٩ ، الحسن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ١٢٧ . ص ١٨٠ ، ص ٣٩١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٢٨٣ ، عهد الرحمن فهى ، من فضة الأيوبيين الى نحاس الماليك ، ص ٦٢ .

ويذهب بعض الباحثين ^(١) في انتشار العملات الإيطالية في الدولة الى أبعد من ذلك ، فيذكرون أن بداية انتشارها كانت في أوائل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وبالتحديد سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ - ١٣٠٣ م ، كما يذهب آخرون ^(٢) الى أن ذلك حدث في السنوات الأولى من عهد الماليك الجراكسة ، وللوصول الى رأى نهائى أقول :

لقد أورد ابن فضل الله العمرى ^(٣) المتوفى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م إشارة هامة يفهم منها أن الفلورين (الافرنتى) الفلورنسى كان ذا شهرة كبيرة ، ومعروفاً لدى المتعاملين مما يرجح تداوله في الفترة التي عاش فيها ، أو على الأقل في السنوات الأخيرة من حياته التي أعقبت وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣٤١ هـ / ١٣٤٠ م الذي عرف عنه ، ومن سبقه من سلاطين الماليك البحرية سياستهم المتشددة تجاه التعامل بأى نقود أجنبية داخل الدولة ، ومنها الدينار الافرنتى ^(٤) ، فبدأ بالسلطان الظاهر بيبرس وانتهاء بالسلطان

(١) عادل زيتون ، العلاقات ، ص ٥٢ .

Rabie, op. cit. pp. 109 - 191 .

Darrag, op. cit. p. 93.

(٢)

Gennep, op. cit. p. 376. & p. 504.

(٣) مسالك الأبحار .. ج ٢ ق ٢ ، ورقة ١٧٣ ب ، ورقة ١٨٦ أ ، نسخة دار الكتب المصرية ، ويشهر أيضاً ابن فضل الله الى ان نقد جمهورية الهندية هو الدرهم القضى ، ولم يذكر شيئاً عن الدوكات ، مما يرجح عدم تداوله وانتشاره في الشرق الاسلامى خلال الفترة المذكورة .

(٤) لقد كان حرص سلاطين الماليك البحرية أبعد من هذا ، حيث عملوا على عدم تمكين الجمهوريات الإيطالية ، وهي التي تمثل أوروبا ، أو العالم النصراني في العلاقات التجارية مع الشرق الاسلامى - من الحصول على مقومات القوة الاقتصادية ، ومنها الخامات المعدنية ، ومن ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس من تهديد ووعيد لصاحب تونس الذي عقد =

الناصر محمد لم يكن سلاطين الدولة يسمحون بتداول أى نقود سوى نقود الدولة ، وهذه السياسة المتشددة قد حفظت للنقود المملوكية مركزها النقدي ، وقوتها النقدية ضد تهديد النقود الايطالية التي أخذت فى الانتشار خلال تلك الفترة (١) .

وانتهى الى القول بأن انتشار الفلورين الفلورنسى فى الدولة المملوكية قد حدث بعد سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م ، حيث بدأت الدولة المملوكية أولى خطوات الضعف والتدهور ، وشهدت أوضاع الدولة السياسية والاقتصادية اضطراباً وفساداً آذن بحدوث تطورات سلبية ، يهنا منها تدهور مركز النقود المملوكية ، ومناقسة العملات الأخرى لها داخل الدولة .

كانت بداية مناقسة العملات المملوكية عن طريق الفلورين ، أو الافرنى حتى السنوات الأخيرة من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى عندما أصبح الدوكات البندقى (٢) منافساً ليس فقط للدينار المملوكى بل وللدينار

اتفاقية مع احدى الجمهوريات الايطالية منع بموجبها تجار تلك الجمهورية حق المرور عبر منطقة نفوذه باتجاه الجنوب للوصول الى مصدر الذهب أو منابع الذهب وسارع السلطان الظاهر بيبرس بارسال سفارة عاجلة ينتز فيها صاحب تونس بغزو بلاده ، اذا عقد هذه الاتفاقية أو فكر فى عقدها مما اضطر صاحب تونس الى التراجع .

(صبحى لبيب ، سياسة مصر التجارية فى عصرى الأيوبيين والمماليك ، ص ١٣٤ ، مقالة فى المجلة التاريخية المصرية ، مج ٢٨ ، ٢٩ ، سنة ٨١ - ١٩٨٢ م ص ١١٧ ، ١٤٥) .

(١) سامع عبد الرحمن فهمى ، القيمة النقدية ، ص ٢٥٠ ، Rabie, op. cit., p. 190 .
(٢) الدوكات بالمصادر العربية ، وبالايطالية دوكاتو نسبة الى لفظ الدوق ، وهو اللقب الذى اتخذته حكام الجمهوريات الايطالية ، وقد صدر الدوكاتو البندقى فى عهد الدوق التاسع والأربعين من أدواق جمهورية البندقية ، وهو جيوفانى داندولو (Giovanni Dandolo) .
١٢٨٠ - ١٢٨٩ م) .

(شارل ديل ، البندقية جمهورية أرستقراطية ، ص ٢٤٣ ، Gennepe, op. cit. p. 379

الافرنتى أيضاً^(١) .

لقد دخل كل من الفلورين والدوكات فى مناقسة لاكتساب السوق النقدية داخل الدولة . وهذا ما جعل المؤرخين المعاصرين لا يميزون بين العمليتين عند حديثهم عن الوضع النقدى . وتداول العملات الأجنبية فيها ، ونظراً لانتشار الفلورين قبل الدوكات ، ولمعرفته من قبل المتعاملين وغيرهم . فقد حمل الدوكات بعد انتشاره الاسم نفسه أى الافرنتى ، أو ما استحدث له وللفلورين من مصطلح جديد يجمع بينهما ، وهو مصطلح "المشخصة أو المشخص" . وذلك لوجود رسوم آدمية عليها ، يقول القلقشندى فى ذلك :

«وعلى أحد وجهيها صورة الملك الذى تضرب فى زمنه ، وعلى الوجه الآخر صورتنا بطرس ويولس الحواريين^(٢)» .

كما يورد المقرئى^(٣) تفصيلاً أكثر عن ذلك ، فيقول ضمن حديث عن

(١) تقلت المناقصة النقدية بين الفلورين الفلورنسى والدوكاتو البندقى بعدة إجراءات أقدمت عليها الجمهوريتان منها استخدام جمهورية البندقية للدينار البيزنطى (البيزانت) أداة دفع لمبادلاتها التجارية فى مراكز التجارة الشرقية بدلاً من الفلورين ، ويظهر ذلك فى عدة معاهدات وقعتها مع الدولة المملوكية . وبعد صدور الدوكاتو قامت فلورنسا بجهود مضنية فى الهلاط المملوكى للحصول على امتيازات نقدية للفلورين والدعاية له فى الأسواق والمراكز التجارية (فضلاً أنظر ملحق رقم (٦) .

(٢) صبح الأعشى . ج ٣ . ص ٤٣٧ .

لم يكن بولس من الحواريين كما يورد ذلك القلقشندى جهلاً منه أو خطأ من الناسخ فالمعروف أن الحواريين كانوا اثنا عشر لم يكن بينهم من اسمه بولس . وبولس هذا هو اليهودى شاول الذى كان أعدى أعداء المؤمنين برسالة عيسى عليه السلام وهو الذى حرف الانجيل وجعل الكتبة تنهى أفكاره الزائفة وتضطهد المؤمنين بالانجيل الصحيح حتى قضت عليهم فى النهاية (على الغمراوى . مشافهة) .

(٣) السلوك . ج ٤ . ص ٣٠٤ - ٣٠٥

أنواع الذهب المتداول فى الدولة :

«والصنف الثانى : ذهب يقال له الافرنتى والافلورى والهندي والدوكات ، وهو يجلب من بلاد الفرنج ، وعلى أحد وجهيه صورة انسان فى دائرة مكتوبة بقلمهم ، وعلى الوجه الآخر صورتان فى دائرة مكتوبة .

ومن النصين المذكورين نرى تعدد المسميات التى أطلقت على الفلورين والدوكات ، وكأنهما عملة واحدة مع ما حدث فيما بعد من تقدم مركز الدوكات مقابل الفلورين الذى تراجع كثيراً وفقد تلك الشهرة والمكانة التى كان عليها قبل ظهور الدوكات ، وتخلى عنه المتعاملون الى الدوكات ، الذى يبدو أنه كان أفضل عياراً وأدق وزناً وأحسن سبكاً من الفلورين ، الذى تعرض فى وقت لاحق لاضطراب نقدى ، أدى الى سك إصدارات قليلة الوزن غير مضبوطة العيار ، كما أن إصدار أعداد منه خارج دور السك الرسمية فى فلورنسا أدى الى زيادة ذلك الاضطراب مما أضعف الثقة به ، وتدهور مركزه النقدي ليشق الدوكات طريقه بكل ثقة للوصول الى قمة السيادة النقدية على النقود الذهبية (١) .

لقد أدى الاختلاط فى النقود الإيطالية الى صعوبة فى تحديد نوعية العملة ، هل هى للفلورين أم لغيرهما من النقود الإيطالية أو الأوربية ؟ اذ لم نورد المصادر التاريخية عند ذكرها لتلك العملات ما يوضح نوعيتها ، مما يعنى استخدام مصطلح واحد للدلالة على النقود الذهبية الإيطالية ، حتى أن تلك

(١) عزيز سوريال عطية ، العلاقات ، ص ١٧٧ ، عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية .

ص ٥٠ شارل دبل ، الهنكية ، ص ٦٥ .

Gennep op cit . p 505

Rabie op cit . pp 190 192

المصادر لم تذكر قيمة نقدية متعددة لتلك النقود ، بل إنها أوردت سعراً تبادلياً واحداً مما يعنى أيضاً أن القيمة النقدية التي كان عليها الدينانير الإيطالية واحدة مقابل الدينار المملوكي .

لقد ساعدت عدة عوامل على انتشار تداول العملات الإيطالية والتعامل بها ، وبصفة خاصة الدوكات البندقي ، أول تلك العوامل هو ما عرفت به النقود الإيطالية - عند بداية انتشارها - من دقة أوزانها وضبط عيارها وجودة سبكها ، حيث حازت على ثقة الناس ، ورضاهم في التعامل بها عدداً بشكل مباشر ودائم في الوقت الذي تعرض فيه الدينار المملوكي للاضطراب والفساد ، مما صرف الناس عنه الى عملات تحقق الاستقرار والثبات للمتعاملين ^(١) ، كذلك أدى تدهور مركز العملات البيزنطية أولاً ثم العملات المملوكية ثانياً الى تفوق العملات الإيطالية ، واستحواذها على التعاملات المالية المختلفة ^(٢) ، وتوفرها بكميات كافية ، وأعداد تزيد عن الحاجة لها أدى الى الاطمئنان اليها لتحقيقها السبولة النقدية التي تكفى لإجراء العمليات التجارية ^(٣) .

وكان لأزمات نقص معدن الذهب ، وأعداد الدينانير الذهبية في الدولة أثره في تحول الناس الى ما يحقق لهم الثقة ، ويحميهم من الخسارة النقدية ، ووجدوا ذلك في الدوكات البندقية ^(٤) ، كما أن النشاط التجاري الواسع ،

(١) الفلشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٣٧ - ٤٣٨ - شارل ديل ، نفسه ، ص ٦٥ .

(٢) - Lopez, op. cit., p. 212 & p. 239.

- Rabie. op. cit., p. 190.

(٣) رأفت النبراوي ، مسكوكات الممالك ، ص ٢٤٠ :

- Bacharach., op. cit., p. 78.

- Darrag, op. cit., p. 94.

(٤) عادل زيتون الملاكات الاقتصادية ، ص ٥١ :

- Rapie, op. cit., p. 194

والتبادل التجارى بين جمهورية البندقية ودولة المالك قد أتاح وصول أعداد ضخمة من العملات ، والتعامل بها وتداولها بشكل مكثف واسع ، ولا ننسى أيضاً قوة اقتصاد جمهورية البندقية ، وضخامة مبادلاتها التجارية ، ثم وصولها الى ذهب بلاد السودان الغربى الذى زاد من قوة اقتصادياتها ، وأدى الى انتظام صدور الدوكات البندقى ^(١) .

- وأخيراً فمن أهم العوامل التى ساعدت على تداول الدينار الافرنتى أو البندقى اختلاف قيمته النقدية عن قيمة الدينار المملوكى ، ووجود فارق بينهما لصالح الدينار الايطالى ، فالمعروف أن وزن الدينار المملوكى هو أربعة جرامات وخمسة وعشرون فى المائة من الجرام (٤.٢٥ جم) ، وسعره التهادلى - فرضاً - ثلاثون درهماً فضياً ، فى حين بلغ متوسط وزن الافرنتى أو البندقى ثلاثة جرامات وخمسة وأربعين فى المائة من الجرام (٣.٤٥ جم) ، وسعره التهادلى يقل بدرهم أو درهمين عن سعر الدينار المملوكى ، وفى ضوء هذا الاختلاف فى الوزن ، وسعر الإبدال ، فإن الدينار الافرنتى أو البندقى - الذى يمثل النقود الرديئة - يقدر بأكثر من قيمته مقارنة بقيمة الدينار المملوكى - الذى يمثل النقود الجيدة - وعند تطبيق القاعدة النقدية التى تقول «إن النقود الرديئة تطرد النقود الجيدة من التداول» ^(٢) نلاحظ أن الدينار الايطالى قد طرد الدينار المملوكى من عمليات التداول ، وحل محله فى التعامل النقدى داخل الدولة وخارجها ، ولا بد من خفض وزن الدينار المملوكى ليمائل وزن الدينار

- Rapie, op. cit., pp. 190 - 191.

(١)

(٢) لقد طبق المريزى هذه القاعدة على الدراهم الفضية ، والفلوس النحاسية بعد أن كثر استخدام الفلوس ، وزاد تداولها والتعامل بها ، فطردت الدراهم الفضية ، فضلاً عن أنظر ص

الايطالى ، ويكون سعره التبادلى أعلى ، وعندها يتمكن من طرد الدينار الايطالى ، ويحافظ على مركزه النقدى وقوته النقدية .

لقد بلغ من انتشار الدينار الافرنتى أو الدوكات البندقى أن استخدمت الدولة المملوكية نفسها العملات الايطالية فى مصروفات الدولة ومعاملتها المالية ، وقد أوردت المصادر التاريخية أمثلة عديدة لهذا التصرف السئ من قبل الدولة ، ليس هذا فقط ، بل إن العملات الايطالية اعتمدت من قبل الدولة عملات رسمية شأنها فى ذلك شأن العملات المملوكية ، وحملت الأوامر السلطانية ، والمعاهدات التجارية المعقودة بين الدولة وجمهوريات ايطاليا اعترافاً مملوكياً بتلك العملات (١) .

فمن الأمثلة على استخدام الدولة لتلك العملات فى مدفوعات ما حدث سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ - ١٤١٦ م ، عندما أنفق السلطان المملوكى المؤيد شيخ على ممالكه نفقة السفر ، وأعطى كل مملوك ثلاثين ديناراً افرنتية ، وتسعين نصفاً من الدراهم المؤبدية (٢) ، ويبدو أن نقص احتياطى الدولة من الدنانير الذهب قد اضطر الدولة الى الاستعانة بالدنانير الايطالية لمواجهة هذا النقص .

(١) عفاك صبره ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٥٣ ؛

- Rapie, op. cit., p. 196.

لقد تضمنت وثائق مملوكية عديدة - وثائق وقف أو وثائق بيع أو غيرها - استخدام النقود الايطالية فى مختلف أنواع المعاملات الرسمية وغير الرسمية .

فضلاً أنظر : رأفت النبروى ، مسكوكات الممالك ، ص ٢٤٢ ، وما بعدها ، حجة وقف السلطان الأشرف برسباى ، ص ١٧٩ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٢٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٣٥ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٣٥٢ .

وقد تكرر مثل ذلك فى سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ - ١٤١٩ م ^(١) ، وكذلك سنة ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م ^(٢) الى غير ذلك من الأمثلة التى حدثت خلال العهد المملوكى الجركسى .

٥ - محاولات الدولة وقف تقدم العملات الذهبية الإيطالية

قام عدد من سلاطين الدولة فى عهدها الجركسى بعدة محاولات تهدف الى المحافظة على مركز الدينار المملوكى فى وجه المنافسة الحادة التى واجهتها من قبل العملات الذهبية الإيطالية ، والعمل لوقف تقدمها أمام تراجع الدينار المملوكى .

حدثت أولى تلك المحاولات فى عهد السلطان المملوكى الناصر فرج ، وذلك فى شهر جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ / ديسمبر ١٤٠٠ م ، حيث قامت الدولة بإصدار دنانير ذهبية ^(٣) . عرفت باسم الدنانير السالمية ^(٤) ، وكان الهدف من إصدارها وقف تداول النقود الذهبية الإيطالية ، وصد منافستها للدينار المملوكى ^(٥) ، وقد أصدرت الدولة من هذا الدينار عدة أجزاء ، فمنه ما زنته مثقال ، وما

(١) ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ ، العيني ، عقد ، ص ٣٢٥ .

(٢) العيني ، نفسه ، ص ٣٧ ، ص ٤٩ ، ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ١٤ ، ص ١٨٥ ، الصيرفى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٠٢ .

(٣) يذكر د . رأفت النهراوى (مسكوكات ، ص ٢٤٦) عن أحد المستشرقين أن الدينار السالمى الذى أصدرته الدولة كان على وزن الدينار الفرنسى الذى ترواح وزنه فى تلك الفترة بين (٣٠٥ جم) (٣٠٦ جم) بينما تذكر بعض المصادر المملوكية أن الدنانير السالمية ضربت على وزن المثقال وأجزائه ، والمعروف أن المثقال وزنه الشرعى (٤٠٢ جم) .

(٤) نسبة الى الأمير بلبغا السالمى مذهب الدولة ، فضلاً أنظر ترجمته ص ٢٣٣ هامش رقم (٢) .

(٥) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٣٧ ، المقرئى ، الخطوط ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ .

يزن مثقالين ، وثلاثة مثاقيل ، كما أصدرت نصف مثقال ، وربع مثقال (١) . ويبدو أن هذه الكشافة فى إصدار أجزاء الدينار كانت بهدف الاعتماد عليها فى كافة أثمان المعاملات بمستوياتها المختلفة ، وعدم إتاحة الفرصة لاستخدام الدينانير الإيطالية فى المعاملة ، ومن أجل هذا الهدف أيضاً ، رسمت الدولة باستخدام ما أصدرته من دنانير سالية عن طريق العدد تسهلاً للمتعاملين ، وترغيباً لهم فى التعامل بها وتداولها ، ولم تحقق هذه الخطوة وقف تقدم النقود الإيطالية بسبب تهاون الدولة فى تطبيقها ، ولسرعة ما داخل دنانيرها من فساد وغش ، جعل المتعاملين يستمرون فى تداول الدينانير الإيطالية .

والأهم من ذلك هو أن هذه الخطوة من الدولة لم تغير شيئاً فى العلاقة النقدية التى كانت فى صالح الدينار الإيطالى لكونه نقداً رديئاً يتم تقدير قيمته التجارية بنسبة أعلى من قيمته الحقيقية ، بينما كانت قيمة الدينار المملوكى التجارية أقل كثيراً من قيمته الحقيقية .

كررت الدولة محاولتها بعد عدة سنوات ، وبالتحديد سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م ، عندما أصدرت دنانير ذهبية جديدة أطلق عليها الدينانير الناصرية نسبة الى الناصر فرج ، على غط الدينانير السالية ، وعلى وزن وعيار الدينار الاقرنقى ، أو الدوكات (٢) . ولم تكن نتيجة هذه المحاولة بأفضل من سابقتها ، فعلى الرغم من تداول تلك الدينانير ، ورواجها مدة لا بأس بها ، فإن ذلك لم يستمر بسبب

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١٠٤١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٢ ، ص ٢٥٠ ، ابن اياس ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٦ .

(٢) الفلقشندى ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٣٧ ، ابن حجر ، إنباء الفسر ، ج ٢ ، ص ٤٠٣ ، العينى ، عقد ، ج ٢٥ ، ورقة ٣٢٣ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٢٧٦ .

فساد السياسة النقدية للدولة ، وعدم دعمها وتشدها فى تطبيق ما يحفظ للدينار المملوكى مركزه وقوته ، وتذليل ما يقف أمام هذا الواجب من عقبات .

لقد اكتفت الدولة بضرب دنانيرها الذهبية ، ولم تكلف نفسها العمل على تقوية المركز النقدي لها ، وإبطال التعامل بالدنانير المنافسة لها ، والتشدد مع الزغليين ، وغيرهم ممن يعملون على افساد النقود ، فاستمر التعامل بالدينار الافرنتى والدينار البندقى ، وأصبحت دنانير الدولة بالفساد ، فتناقصت أوزانها ، وفسد عيارها حتى عادت الأمور وكأن شيئاً لم يكن (١) .

وإضافة الى هذا العامل الذى أدى الى فشل محاولتى الدولة ، فإن هناك عاملاً آخر لا يقل أهمية هو نقص معدن الذهب فى الدولة ، وعدم توفره بكميات تساعد على إصدار أعداد كثيرة من الدنانير ، وهذا النقص هو الذى جعل الدولة تصدر ثلاثة آلاف دينار فقط خلال شهرين (٢) .

لقد زاد الغش فى الدنانير الناصرية التى ضربت لمواجهة منافسة الدينار الايطالى ، وكانت أولى خطوات السلطان المؤيد شيخ فى إصلاحه النقدي العمل على إبطال التعامل بها ، بعد أن كان سعر تبادلها منخفضاً عن سعر تبادل الدينار الافرنتى ، أو الدينار البندقى بنسبة كبيرة (٣) ، جعلت النقود الايطالية تستمر فى منافستها ، وتحوز على ثقة المتعاملين ورضاهم ، ورغبتهم الاستمرار فى التعامل بها .

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٢٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١١ ، ص ١٥١

(٢) المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٥٥ ، ج ٤ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٩٧ - ٩٨ .

(٣) المقرئى ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٥٤ ، المعنى ، عقد ، ص ٢٢١ .

وهكذا ساد التعامل بالنقد الأجنبي بدلاً من النقود المملوكية فترة زمنية طويلة امتدت حتى شهر صفر من سنة ٨٢٩ هـ / ديسمبر من سنة ١٤٢٥ م ، عندما أقلق السلطان الأشرف برسبای ذلك ، وقام بالمحاولة الثالثة لإعادة الثقة بالدنانير المملوكية وإبطال التعامل بالدنانير الإيطالية (١) .

كانت أولى خطوات سياسة الأشرف برسبای فى هذا الاتجاه أن عقد اجتماعاً ضم القضاة والأمراء والصيارفة وأصحاب الأموال ، وأخذ تأييدهم فى ذلك ، واتبع هذه الخطوة بخطوة أخرى ، هى جمع أكبر قدر ممكن من الدنانير الأجنبية ، وتحولها الى دنانير مملوكية جديدة أطلق عليها الدنانير الأشرفية بنفس الوزن الذى كان عليه الدينار الأفرنتى أو البندقى ، ثم اتبع ذلك بخطوة جريئة هى منع التعامل بالدنانير الإيطالية ، ومن لديه شئ منها فليذهب الى دار الضرب ، ويأخذ بدلها دنانير أشرفية (٢) .

(١) زاد من قلق الأشرف برسبای عدم توفر الدنانير المملوكية ، وندرتها فى الدولة بشكل خطير ، أصبحت معه النقود الذهبية الإيطالية هى الوحيدة فى التداول ، والمسيطرة على التعامل بالذهب ، ونلاحظ ذلك من أن المصادر التاريخية لم تذكر منذ سنة ٨٢٥ هـ / ١٤٢١ - ١٤٢٢ م أسعار تبادل الدينار المملوكى ، مع ذكرها لأسعار تبادل الدينار الأفرنتى حتى أن بعض هذه المصادر قد صرح فى سنة ٨٢٤ هـ / ١٤٢٠ م أن الدنانير المملوكية كانت قليلة جداً .

(المقريزى ، نفسه ، ص ٥٤٨ ، المعينى ، نفسه ، ص ٨٥ - ٨٦ ، الصيرفى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٢٠) .

(٢) المقريزى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٣٦٢ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

ولأهمية الخطوة الثالثة ، وضرورة تنفيذها بدقة أوكل السلطان الأشرف برسباى نظارة دار الضرب الى أحد رجال الدولة المعروفين بالعرفة والأمانة والنشاط ^(١) ، ليقوم بمراقبة تنفيذاً للسياسة النقدية للدولة بكل دقة خصوصاً إصدار الدينائر الأشرفية على الوزن والعيار المحددين ، ومنع التعامل بالدينائر الإيطالية دعماً لتداول دينائر الدولة ، والتعامل بها بسعر أعلى من سعر الدينار الأفرنتى أو الدينار البندقى ^(٢) ، وبهذا حقق الدينار المملوكى تقدماً وفارقاً نقدياً لصالحه فى الوقت الذى كان وزنه مساوياً لوزن الدينائر الإيطالية ، وفى ضوء القاعده النقدية التى سبقت الإشارة إليها والتى تقول «النقود الرديئة تطرد النقود الجيدة من التداول» ، فقد قدر الدينار الأشرفى بأكثر من قيمته ، وبهذا أتاحت الفرصة للدينار المملوكى (الاسلامى) طرد النقود الأجنبية ، وأن يحل محلها فى التداول ، وعمليات التعامل الذهبى .

لقد كانت الظروف تسير لصالح هذه المحاولة والمجاهة ، فقد لقبت من الناس والمتعاملين ارتياحاً ورضى ، فأقبلوا على التعامل بالدينائر الأشرفية الجديدة ، كما أن استفادة الدولة من الدينائر الأجنبية لدعم هذه المحاولة بتحويلها الى دينائر مملوكية كانت خطوة جيدة ، أوضحت حرصها على دعم نقودها ، والتصدى لما ينافسها من نقود ، والقضاء على هذه المنافسة ، وقد استطاعت الدولة بهذه الخطوة إمداد دار الضرب بكميات من الذهب مكنتها من إصدار أعداد لا بأس بها من الدينائر الأشرفية ، وإضافة الى تلك الدينائر الأجنبية ، فقد توفر للدولة كميات أخرى من الذهب عن طريق الغنائم الحربية التى استولت

(١) المقرئى ، السلوك ، نفسه ، ص ٧١ .

(٢) نفسه ، ص ٨١٩ ، العينى . عقد . ص ١٥٩ .

عليها الحملتان العسكريتان اللتان وجههما السلطان الأشرف برسباى الى قبرص سنة ٨٢٨ هـ / ١٤٢٥ م ، وسنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م ^(١١) ، وكان من بين تلك الغنائم الفدية التى حصلت عليها الدولة مقابل اطلاق ملك قبرص جيمس الأول (James I) من الأسر ، وكان مقدارها - كما ذكرت المصادر المملوكية ^(١٢) - مائتى ألف دوكات بندى ، وقد استلمت الدولة نصفها فى شهر المحرم من سنة ٨٣١ هـ / أكتوبر سنة ١٤٢٧ م ، ونصفها الآخر بعد عودة الملك الى بلاده ، بالإضافة الى جزية سنوية مقدارها عشرون ألف دوكات ذهبى بندى ^(١٣) .

وكان لتشدد السلطان الأشرف فى تحويل أعداد كبيرة من الدنانير الافرنتية ، أو البنديقية الى دنانير مملوكية أثره الواضح فى زيادة أعداد الدنانير الأشرافية ، والإكثار من إصداراتها ، والنتيجة الطبيعية لذلك انخفاض عدد الدنانير الايطالية بشكل ملحوظ ، الأمر الذى جعل وجودها نادراً وشبه معدوم ^(١٤) ، كما استفادت الدنانير المملوكية فى تقوية مركزها النقدى من الفساد والغش الذى أصاب النقود الايطالية من نقص أوزانها وتزييفها ، ثم استخدامها عن

(١١) أرسل الأشرف برسباى حملتين الى قبرص كانت الأولى فى رمضان سنة ٨٢٨ هـ / يوليو - أغسطس سنة ١٤٢٥ م ، والثانية فى رمضان سنة ٨٢٩ هـ / يوليو سنة ١٤٢٦ م ، وكان أسر ملك قبرص فى الحملة الثانية .

لمزيد من التفاصيل عن هاتين الحملتين فضلاً أنظر : ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج ٣ ، ص ٣٤٦ ، وما بعدها ، ص ٣٦٦ ، وما بعدها

(١٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٢٦ ، ص ٧٦٥ ، ابن حجر ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٧٠ ، العيني ، عقد ، ص ١٩٢ .

(١٣) قدر الرحالة الأوربى بيروطافور هذه الفدية بثلاثمائة ألف دوكات ، والجزية السنوية بشمانية آلاف دوكات (بيروطافور ، الرحلة ، ص ٥٧) .

(١٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٦٥ ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٢١٨ ، محمد كامل مراد ، سياسة الأشرف برسباى الداخلية ، ص ١٦٥ .

طريق الوزن نظراً لذلك الفساد ، فكانت النتيجة أن تحول المتعاملون الى الدنانير الأشرقية التي حازت على ثقتهم ورغبتهم لوفرة أعدادها ، وجودة سكها ، وثبات وزنها وعيارها ^(١) ، واجتهد كل من لديه شئ من الدنانير الإيطالية فى التخلص منها ، وتوجهوا بها الى دار الضرب بكميات كبيرة زاد بعد تحويلها من أعداد الدنانير الأشرقية ^(٢) .

ـ وأخيراً ، فقد كان لسياسة السلطان الأشرف الضرائبية - رغم سوءها - أثر كبير فى الإكثار من إصدارات الدنانير الذهبية المملوكية بطريق غير مباشر حيث ألزم التجار القادمين الى المراكز التجارية فى الدولة بدفع الرسوم والضرائب المقررة عليهم ، وأثمان السلع والمتاجر التى يقومون بشرائها بالنقود الذهبية ، وهذه النقود يتم تحويلها فى دار الضرب الى دنانير مملوكية ، وقد أدت جميع تلك العوامل الى تمكن الدنانير المملوكية من مواجهة الدنانير الإيطالية وإيقاف منافستها ، ثم انسحابها من السوق النقدية المملوكية تاركة التعامل النقدى فيها للدينار المملوكى .

وإذا كانت تلك الظروف - التى مكنت الدولة من التصدى لما ينافس الدينار المملوكى من نقود - فى مجملها ظروفاً داخلية ، فإن هناك أيضاً ظروفاً خارجية كان لها أثرها فى إضعاف مركز النقود الإيطالية ، وتراجعها ، وأهم هذه الظروف نتيبئها بالتالى :

(١) نتيجة للنجاح الذى حققته الدنانير الأشرقية أطلق معظم سلاطين المماليك عن حكم بعد الأشرف برسباى اسم الأشرقى على إصداراتهم الذهبية ، حتى إن سلاطين آل عثمان أطلقوا على نقودهم الذهبية التى أصدروها فى مصر اسم أشرقى .
(٢) المقرئى ، المصدر السابق ، ص ١١٩٠ .

فى الوقت لذى تقوم فىه الدولة المملوكية بتطبيق سياستها النقدية للمحافظة على مركز الدينار كانت الجمهوريات الايطالية - وبوجه خاص جمهورية البندقية - تعاني من نقص امداداتها من معدن الذهب الواصل اليها من بلاد السودان الغربى عن طريق الشمال الافريقى ، وقد واجهت الجمهوريات أزمة نقدية فى عدم كفاية إصداراتها الذهبية ، فقلت أعدادها بشكل ملحوظ ، وتلا ذلك ما تعرض له النشاط الاقتصادى ، والتبادل التجارى بين الدولة المملوكية والجمهوريات الايطالية - وهى التى تقوم بدور الوسيط التجارى بين الغرب والشرق - من ركود وفتور كان من أسبابه فساد السياسة الاقتصادية - وخصوصاً التجارية - التى انتهجها السلطان المملوكى الأشرف برسباى ، وما شرعه من تنظيمات تجارية وضرائبية واحتكارية ^(١) كان لها أثرها السيئ على مصالح الدولة وعلاقاتها التجارية ، الأمر الذى انعكس على تدفق العملات الذهبية الى الجمهوريات الايطالية ، ولا ننسى ما للأحداث السياسية المعاصرة لتلك الفترة ^(٢) من تأثيرات سلبية على النشاط التجارى بين الجمهوريات

(١) عن تلك السياسة فضلاً أنظر : المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٢٣ ، ٨٦٩ ، ٩٣٣ ، ٩٣٥ ، ص ١١٢٧ ، ص ١١٨٧ - ١١٨٨ ، الصبرفى ، نزهة ، ج ١ ، ص ٦٩ ، ص ١٤٣ ، محمد أمين صالح ، التنظيمات التجارية ، ص ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص ٣٣٤ ، ٣٣٧ .

(٢) من أمثلة تلك الأحداث النزاع البندقى العثمانى ومن قبله النزاع البندقى الجنوى ، وبدايات التوسع البرتغالى ووصول البرتغاليين الى سواحل غانا ، ومصادر الذهب فى بلاد السودان الغربى ، الى غير ذلك من أحداث .

لمزيد من التفاصيل فضلاً أنظر : صبحى لبيب ، سياسة مصر التجارية ، ص ١٤٤ - ١٤٥ ، شارل ديل ، البندقية ص ٤٩ ، ٥٧ ، ص ١٣٣ ، ١٤١ ، فرنان برودل ، من ذهب السودان الى فضة أمريكا ، ص ٨٤ ، ٨٩ :

- ISKENDER. T. Les Relation Commerciales et politiques de Venise avec L'Egypt au Xlve at Xve Siecles. Paris. 1933 . pp. 94 - 96.

الايطالية ودولة الممالك ، وبينهما وبين غيرهما من الدول ، مما يعنى ركود حركة التبادل التجارى ، وبالتالي عدم توفر النقد الايطالى بكميات كبيرة ، فضعفت منافستها ، وهدمت امكانية التعامل بها وتداولها ، فحتم ذلك على المتعاملين تداول الدينار المملوكى الأشرفى والتعامل به ، فعاد بذلك الى مركزه النقدي وقوته النقدية التى كان عليها من قبل ^(١) .

وهكذا أصبحت السيادة النقدية داخل الدولة للدينار المملوكى على الدينارين الذهبية الأجنبية منذ سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م ، ومع أنه تم التعامل بالدينارين الايطالية فى نطاق محدود ^(٢) ، فإنه لم يرد فى المصادر التاريخية ما يفيد تداولها أو التعامل بها بعد سنة ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ - ١٤٤٦ م مما يعنى تراجعها وانسحابها من حركة التداول النقدي فى الدولة .

(١) يذكر المستشرق Ashtor فى كتابه *Studes sur le Systeme mencaire des mam-* Louks circassian., p. 273. أن النقود الذهبية الايطالية فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى تفوقت فى قيمتها النقدية على الدينار المملوكى ، أما فى نهاية العصر المملوكى فقد تساوت القيمة النقدية لهما ، ولا أدرى ما هى مصادره التى اعتمد عليها فيما ذهب اليه ، ولا شك فى أن ذلك يخالف المسار الذى كانت عليه العلاقة النقدية بينهما ، والذى كان فى صالح الدينار المملوكى مركزاً ، وقيمة ، وأترك الرد عليه لأحد المستشرقين ، وهو Van Gennep فى كتابه *Le Dukat Venitien en Egypte*, p. 497. الذى يذكر فيه نجاح السلطان الأشرف برسباى فى مواجهة منافسة النقود الايطالية الأمر الذى أدى الى تراجعها أمام الدينار المملوكى .

(٢) أشارت بعض المراسلات الاتفاقيات المعقودة فى فترات متأخرة بين الدولة المملوكية والجمهوريات الايطالية الى تداول النقود الايطالية فى أثناء حركة التبادل التجارى بين الجانبين ، ويبدو أن هذا التداول قد انحصر فى المراكز التجارية للدولة ، والتى يصلها التجار الايطاليون - خصوصاً الاسكندرية - لاتمام عملية التبادل (فضلاً أنظر ملحق رقم (٧ ، ٨) .

٦- دراسة مقارنة بين القيم النقدية

للدينار المملوكى والدینار الإيطالى

إن الحديث عن القيم النقدية للدینار الإيطالى يماثل الحديث عن القيم النقدية للدینار المملوكى - التى سبق عرضها ، وعمل مقارنة بين القيمتين فيه تكرار للقيمة النقدية للدینار ، وتجنباً لذلك أوردت هذه المقارنة فى بيان بوضع القيمة النقدية لهما ، وقد أوضحت فى الهامش ما تحتاجه محتويات البیان من توضيح للأرقام ، أو التطورات المصاحبة للقيمة النقدية .

وقد قسمت ذلك البیان الى عدة حقول أولها : يمثل السنة التى وردت خلالها القيمة النقدية ، وثانيها : متوسط وزن الدينار الإيطالى على أساس المئقال (وحدة وزن الذهب) ، والذي يساوى أربعة جرامات وخمسة وعشرين بالمائة من الجرام (٤,٢٥ جم) من الذهب ، وثالثها : لسعر تبادل الدينار الإيطالى على أساس الدرهم المملوكى سواء أكان درهماً فضياً أم درهماً حسابياً (درهم فلوس ، ورابعها : متوسط وزن الدينار المملوكى على أساس وزن المئقال ، وخامسها : لسعر تبادل الدينار المملوكى ، وسادسها : خصصته للمصادر التاريخية التى استقيت منها المعلومات .

هذا وقد جعلت مقارنة القيمة النقدية للدینار الإيطالى مع الدينار المملوكى الذى ضرب لمواجهة منافسة الدينار الإيطالى ، وفى الفترة السابقة لذلك - أى قبل اصدار الدولة دنائير تواجه الدينار الإيطالى - جعلت المقارنة مع الدينار المملوكى الذى كان سائداً ، وأوردت المصادر المملوكية قيمته النقدية مقترنة بالقيمة النقدية للدینار الإيطالى .

فمثلاً مع بدء العلاقة النقدية فى سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م اعتمدت على

القيمة النقدية للدينار المملوكى الذى صدر فى تلك الفترة ، وفى سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م أصدرت الدولة الدينار السالى لمواجهة الدينار الايطالى ، فاعتمدت على قيمته النقدية مقابل قيمة الدينار الايطالى النقدية ، ومثل ذلك فى الدينار الناصرى ، والدينار الأشرفى .

وقد اعتمدت فى تحديد أوزان تلك الدنانير على ما ذكرته بعض المراجع الحديثة ^(١) ، وإذا ورد فى البيان أن وزن الدينار المملوكى هو (٤.٢٥ جم) ، فإنما هو للدينار على وزن المثلقال لا الدينار الذى أصدر لمواجهة الدينار الايطالى ، والذى كان يقل عن (٣.٥٠ جم) وإذا ورد الوزن (٤.٢٥ جم) خلال الفترة من ٨١٥ هـ / ١٤١٢ - ١٤١٣ م الى ٨٢٩ هـ ١٤٢٥ - ١٤٢٦ م ، فإنما هو للدينار الناصرى ، ولكن عن طريق الوزن أى وزن المثلقال ، أما تقدير القيمة النقدية ، فهى على أساس الدرهم الفضى حتى سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ - ١٤٠٤ م ، ويعدّها تم التقدير على أساس الدرهم الفلوس ، وللفادة فقد اتبعت البيان الموضح للقيمة النقدية بخلاصة تحتوى على وزن الدينار اما المملوكى أو الايطالى ، والنسبة المئوية لكل من الوزن ، والقيمة النقدية مقارنة بمثلقال الذهب - وزنه وقيمته - والنتيجة النهائية للعلاقة بين الدينارين .

هذا وقد أوضحت بعض النقاط التى تحتاج الى توضيح فى هوامش جعلتها فى نهاية الفصل ، رغبة فى عدم تقسيم البيان ، وحرصاً على التسلسل الزمني

(١) رأفت النبراوى ، مسكوكات الممالك الجراكسة ، سامع فهمى ، الوحدات النقدية المملوكية .

- Bacharach, "The Dinar Versas the Ducat".
 - Gennep, "Ducat Veniten en Egypt".
 - Balog, "The Coinage of the Memluk Sultans".

للسنوات الواردة فيه ، وأرجو أن يكون فى هذه الهوامش توضيح إضافى
للمعلومات الخاصة بالقيم النقدية لكل من الدينار المملوكى والدينار الايطالى ،
والمقارنة بينهما .

| الصفحة | مترسطة وزن الدينار الاطالي | مستمر التبادل | مترسطة وزن الدينار الملوكي | مستمر التبادل | المصدر |
|---|----------------------------------|--------------------------------------|----------------------------------|---------------------------|--|
| ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م ^(١) أوتائل ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م رمضان ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م شوال ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م | ٣.٥١ | ١٧ درهم فضي ٢٤ ٣٠ ٢٠ - ٣٠.٥ | ٤.٢٥ ^(٢) | ٢٠ ٣٠ ٣٩ ٢٣ - ٣٢ | صبيح ٣٠٣ هـ / ٩٠٣ م ، أنبا ٤٣٨ هـ / ١٠٣٠ م ، ص ٣٥٣ . أنبا ٥١٠ هـ / ١٠٥١ م . عقد ٢٥٠ هـ / ٧٤٠ م ، ورقة ٧٤٠ هـ / ١٠٣٠ م ، ص ٤٩٣ . السلوك ٣٠٣ هـ / ٩٦٤ م ، النجوم ١٢٠ هـ / ١٧٤ م ، أنبا ٥٢٠ هـ / ١١٦٩ م . السلوك ٣٠٣ هـ / ٩٦٩ م . السلوك ٣٠٣ هـ / ٩٧٧ م ، عقد ٢٥٠ هـ / ٧٤٠ م ، ورقة ١١٣ هـ / ٥٥١ م . بائع ١٠٠ هـ / ٢٠٠ م ، ق ١٠٠ هـ / ٢٠٠ م ، ص ٥٩١ . السلوك ٣٠٣ هـ / ٩٠٣ م ، ص ١٠٥٩ . |
| ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م ^(١) أوتائل ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م رمضان ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م شوال ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م | ٣.٥١ | ١٧ درهم فضي ٢٤ ٣٠ ٢٠ - ٣٠.٥ | ٤.٢٥ ^(٢) | ٢٠ ٣٠ ٣٩ ٢٣ - ٣٢ | صبيح ٣٠٣ هـ / ٩٠٣ م ، أنبا ٤٣٨ هـ / ١٠٣٠ م ، ص ٣٥٣ . أنبا ٥١٠ هـ / ١٠٥١ م . عقد ٢٥٠ هـ / ٧٤٠ م ، ورقة ٧٤٠ هـ / ١٠٣٠ م ، ص ٤٩٣ . السلوك ٣٠٣ هـ / ٩٦٤ م ، النجوم ١٢٠ هـ / ١٧٤ م ، أنبا ٥٢٠ هـ / ١١٦٩ م . السلوك ٣٠٣ هـ / ٩٦٩ م . السلوك ٣٠٣ هـ / ٩٧٧ م ، عقد ٢٥٠ هـ / ٧٤٠ م ، ورقة ١١٣ هـ / ٥٥١ م . بائع ١٠٠ هـ / ٢٠٠ م ، ق ١٠٠ هـ / ٢٠٠ م ، ص ٥٩١ . السلوك ٣٠٣ هـ / ٩٠٣ م ، ص ١٠٥٩ . |

| الزمننة | متوسط دفن الديار الايطالي | سفر البيادول | متوسط دفن الديار الملوكي | سفر البيادول | المصدر |
|---|---------------------------------|----------------------------|--------------------------------|---------------------------------|---|
| فواطمية ٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م ٨٠٤ هـ / ١٤١٠ م ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ م جصادي الأولى ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ م جصادي الآخرة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٣ م | | ٣٧ ٣٤ ٤٧ ٦٢ ٦٠ | | ٤٠ ٣٩ ٥٠ ٦٧ ٦٥ - ٧٠ | السلوك، ج ٢، ص ١٠٧٠. السلوك، ج ٢، ص ١٠٧٦، عقد، ج ٢٥، ورقة ١٧٧ السلوك، ج ٢، ص ١٠٩١، ج ٢٥، ورقة ١٩٢. الجهر النمين، ورقة ١٨٨. السلوك، ج ٣، ص ١٠٩٨، عقد، ج ٢٥، ورقة ١٨٥ نزفة، ج ٢، ص ١٥٨، بطلع، ج ١، ن ٢٠١. ص ٦٦٥. الجهر النمين، ورقة ١٩٠، السلوك، ج ٣، ص ١١٠٥، إنباء، ج ٢، ص ٢٣٣. السلوك، ج ٣، ص ١١١١، عقد، ج ٢٥، ورقة ١٩٧ بطلع، ج ١، ن ٢٠١، ص ٦٧٧. السلوك، ج ٣، ص ١١١٥، نزفة، ج ٢، ص ١٧٨. |
| صفر ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م | | ٥٠ | | ٦٤ | |
| شوال ٨٠٥ هـ / ١٤٠٣ م | | ٤٥ | | ٦٠ | |
| ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م | | ٤٥ (٤) | | ٦٠ (٤) | |

| السنينة | متوسط وزن الدينار الإيطالي | مستمر التداول | متوسط وزن الدينار المملوكي | مستمر التداول | المصدر |
|-----------------------------|----------------------------|---------------|----------------------------|---------------|--|
| ربيع الأول ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م | | ١٠ - ٥٥ | | ٧٠ | السلوك، ج ٢، ص ١١٦٩، عقد، ج ٢٥، ورقة ٢٠١، نزقة، ج ٢، ص ١٨٠، ١٨٣، بئانغ، ج ١، ق ٢، ص ٦٨٣. |
| شعبان ٨٠٦ هـ / ١٤٠٤ م | | ٧٠ | | ٩٠ | السلوك، ج ٢، ص ١١٢٢، عقد، ج ٢٥، ورقة ٢٠١، نزقة، ج ٢، ص ١٨٦، بئانغ، ج ١، ق ٢، ص ٦٨٧. |
| شوال ٨٠٦ هـ / ١٤٠٤ م | | ٧٥ | ٣,٩٧ | ١٠٠ | السلوك، ج ٢، ص ١١٢٠، نزقة، ج ٢، ص ١٩٥، بئانغ، ج ١، ق ٢، ص ٦٩٣. |
| ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م | | ٧٠ | | ١١٠ - ١٠٠ | |
| ربيع الآخر ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م | | (٥) ١٠٠ | | (٥) ١٢٠ - | عقد، ج ٢٥، ورقة ٢١، نزقة، ج ٢، ص ١٩٥. |
| جداى الأولى ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م | | ٨٠ | | ١٠٠ | السلوك، ج ٢، ص ١١٣٤، بئانغ، ج ١، ق ٢، ص ٦٩٧. |

| النسبة | متوسط دفن الدينار الابغالي | م التبادل | متوسط دفن الدينار الملوكي | م التبادل | المصدر |
|--|----------------------------------|-------------------------|---------------------------------|-----------------------------|---|
| جمادى الآخرة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م شوال ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م | | ١٢٥ ٨٠ | | ١٣٠ ١٠٠ | أبهر الدين، ورقة ٢٠٧. السلوك، ج ٣، ص ١١٥٥، بئانج، ج ١، ق ٢، ص ٧١٥. |
| ذو الحجة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م صفر ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ربيع الأول ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م | | ٦٠ ١٢٠ ١٣٠ ١٢٠ | | ٨٠ (١) ١٤٠ ١٥٠ ١٤٠ | أبهر الدين، ص ٢١٠، السلوك، ج ٣، ص ١١٦١، بئانج، ج ١، ق ٢، ص ٧٢٠. السلوك، ج ٣، ص ١١٧٠. السلوك، ج ٤، ص ٣، النجوم، ج ١٣، ص ٤٣. السلوك، ج ٤، ص ٣، نزقة، ج ٢، ص ٢٠٩، بئانج، ج ١، ق ٢، ص ٧٣٧. |
| ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م | | (٧) ١٢٥ ١٣٥ | | (٧) ١٣٥ ١٥٠ | السلوك، ج ٤، ص ٧٧، بئانج، ج ١، ق ٢، ص ٧٥٧. السلوك، ج ٤، ص ٣٠. |

| السننة | متوسط وزن الدينار الايطالى | سهم التبادل | متوسط وزن الدينار الملىكى | سهم التبادل | المصدر |
|---------------------------|----------------------------|-------------|---------------------------|-------------|--|
| شعبان ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م | | ١٠٠ | | ١٢٠ | السلوك، ج ٤، ص ٤٠، بتائع، ج ١، ق ٢، ص ٧٦٧. |
| ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م | | ١٤٠ (٨) | | ١٦٠ (٨) | السلوك، ج ٤، ص ٥١، إنباء، ج ٢، ص ٣٩٥. |
| ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م | ٣،٤٥ | ١٠٠ | ٣،٥٠ | ١٢٠ | بتائع، ج ١، ق ٢، ص ٧٧٦. |
| ذو القعدة ٨١١ هـ / ١٤٠٩ م | ٣،٤٥ | ١٠٠ (٩) | أقل من ٣،٥٠ | ١٠٠ (٩) | السلوك، ج ٤، ص ٨٢، نزقة، ج ٢، ص ٢٠١. |
| ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م | | ١٨٥ (١٠) | | ٢٠٠ (١٠) | السلوك، ج ٤، ص ٨٤ - ٨٥. |
| | | | | | عقد، ج ٥، ورقة ٣٠٨، نزقة، ج ٢، ص ٢٦٠ - ٢٦١. |
| ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م | | ١٦٠ | | ١٨٠ | السلوك، ج ٤، ص ١٣١. |
| ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م | ٣،٤٥ | ١٨٠ | بين ٣،٤٢ و ٣،٥٠ | ٢٠٠ | السلوك، ج ٤، ص ١٣٢، نزقة، ج ٢، ص ٣٩٤. |
| ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م | | ٢٠٠ - ١٨٠ | | ١٩٥ - ١٨٠ | السلوك، ج ٤، ص ١٦٥ - ١٦٦، إنباء، ج ٢، ص ٧٦٧. |

| الفترة | متوسط وزن الدينار الايطالي | مستمر التبادل | متوسط وزن الدينار الملوكي | مستمر التبادل | المصدر |
|----------------------------|----------------------------|---------------|---------------------------|---------------|--|
| ٨١٤ هـ / ١٤١١ م | | ١٨٠ | ١٨٠ | ١٨٠ | ٢٦٣، نزقة، ج ٢، ص ٢٧٦. عقد، ج ٢٥، ورقة ٣٣٦ - ٣٣٧، نزقة، ج ٢، ص ٢٧٦. |
| ربيع الأول ٨١٤ هـ / ١٤١١ م | | (١١) ٢٠٠ | (١١) ١٩٠ | ١٩٥ | نزقة، ج ٢، ص ٢٨٤. |
| رجب ٨١٤ هـ / ١٤١١ م | | ٢٠٥ | ١٩٥ | ٢٠٠ | عقد، ج ٢٥، ورقة ٣٣٧، نزقة، ج ٢، ص ٢٨٧. |
| شوال ٨١٤ هـ / ١٤١٢ م | | ٢١٠ | ٢١٠ | ٢٠٠ | السلوك، ج ٤، ص ١٩٣، عقد، ج ٢٥، ورقة ٣٣٧. |
| ذو الحجة ٨١٤ هـ / ١٤١٢ م | | ٢٠٠ - ٢٢٠ | ٢٠٠ - ٢١٠ | ١٩٠ | نزقة، ج ٢، ص ٢٨٩. |
| ذو الحجة ٨١٤ هـ / ١٤١٣ م | | ١٩٠ | ١٩٠ | ٢٢٠ | نزقة، ج ٢، ص ٢٩٤. |
| ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م | | ٢٤٠ | ٢٤٠ | ٢٢٠ | السلوك، ج ٤، ص ١٩٣. |
| صفر ٨١٥ هـ / ١٤١٣ م | | ٢٢٠ | ٢٢٠ | ٢١٠ | السلوك، ج ٤، ص ٢٠٤ - ٢٠٥، نزقة، ج ٢، ص ٣١٩ - ٣٢٠. عقد، ص ١٥٢. |

| السنفة | متوسط وزن الديتار الايطالى | سهم التبادل | متوسط وزن الديتار المملوكى | سهم التبادل | المصدر |
|--|----------------------------|-------------|----------------------------|-------------|--|
| بيع الأول ٨١٥ هـ / ١٤١٣ م ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م | | ٢٠٠ ٢٣٠ | ٢.٢٠ - ٢.٤٢ | ١٨٠ ٢١٠ | عقد ، ص ١٥٢ ، نزفة ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ . السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ ، عقد ، ص ١٨٤ ، السيف الهند ، ص ٣١٥ . |
| ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م | | ٢٣٠ | | ٢١٠ - ٢٢٠ | السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ ، عقد ، ٢١٠ ، نزفة ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ . |
| ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م | | ٢٣٠ | ٣ ، ٠٥٣ | (١٢) ١٨٠ | السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ . |
| صفر ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م | | ٢٣٠ | | ٢٢٠ | عقد ، ص ٢٤٤ . |
| شعبان ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م | | ٢٤٠ | | ٢٠٠ | عقد ، ص ٢٤٥ . |
| رمضان ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م | | ٢٥٠ | | ٢٠٠ | السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٣٥ . |
| ذو القعدة ٨١٨ هـ / ١٤١٦ م | | ٢٦٠ | | ٢١٠ | السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٣٨ ، عقد ، ص ٢٤٦ . |
| ذو الحجة ٨١٨ هـ / ١٤١٦ م | | ٢٣٠ | | ١٨٠ | السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٣٨ . |
| ٨١٩ هـ / ١٤١٦ م | | ٢٥٠ | | ٢٠٠ | السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٤٤ ، عقد ، ص ٢٦٧ . |

| السنفة | متوسط وزن الديتار الايطالي | مستمر التبادول | متوسط وزن الديتار الملوكي | مستمر التبادول | المصدر |
|---|----------------------------|--------------------------------------|---------------------------|--------------------------|--|
| ٨٢٦ هـ / ١٤٢٣ م ذو الحجة ٨٢٦ هـ / ١٤٢٣ م ١٤٢٤ هـ / ٨٢٧ م ١٤٢٤ هـ / ٨٢٨ م | | ٢٢٥ - ٢٣٠ ٢٢٠ ٢٢٥ - ٢٣٥ ٢٢٥ | | ٢٥٠ ٢٥٠ ٢٥٠ ٢٧٠ | ج ١٤ ص ٢٢٦ . السلوك ج ٤ ص ٦٤٨ . السلوك ج ٤ ص ٦٤٨ ، نزقة ج ٣ ص ٥٦ . عقد ص ١٤٥ - ١٤٦ . السلوك ج ٤ ص ٦٧٨ ، عقد ص ١٥٩ ، نزقة ج ٣ ص ٥٦ . السلوك ج ٤ ص ٧٠٥ ، إيتا ج ٣ ص ٣١٤ . عقد ص ١٥٩ . السلوك ج ٤ ص ٨١٩ ، عقد ص ٧٨٠ ، النجوم ج ١٤ ص ٢٥٢ ، نزقة ج ٣ ص ١٧٩ . النجوم ج ١٤ ص ٢٥٢ . النجوم ج ١٤ ص ٢٥٢ . |
| ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ م | ٣.٤٦ | (١٦) ٢٢٥ | ٣.٤٦ | (١٦) ٢٧٠ | |
| ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م | أقل من ٣.٤٥ | ٢٦٠ | ٣.٤١ | ٢٨٥ | |
| ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م صفر ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م ربيع الأول ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م | | ٢٣٠ ٢٣٠ ٢٧٠ | | ٢٣٥ ٢٣٥ ٢٨٠ | |

| المنفذ | مترسطة وزن الدينار الاطالي | مسمّر التبادل | متوسطة وزن الدينار الملوكي | مسمّر التبادل | المصدر |
|---|----------------------------------|-------------------------|----------------------------------|---------------------------------|--|
| شعبان ٨٣٣ هـ / ١٤٢٠ م ٨٣٤ هـ / ١٤٢٠ م | | ٢٦. ٢٣. | ٢.٢٩ - ٢.٤١ | ٢٨٠. ٢٣٥ | الطرك . ج ٤ ، ص ٨٣٢ ، عقد ، ص ٢٨٠ . الطرك . ج ٤ ، ص ٨٥١ ، عقد ، ص ٢٩٩ ، نزقة . ج ٢ ، ص ٢١٨ . |
| ربيع الأول ٨٣٤ هـ / ١٤٢٠ م | | ٢٧. | | ٢٨٠. | الطرك . ج ٤ ، ص ٨٥٢ ، عقد ، ص ٢٩٩ ، نزقة . ج ٢ ، ص ٢١٨ . |
| ربيع الآخر ٨٣٤ هـ / ١٤٢٠ م ٨٣٦ هـ / ١٤٢٣ م ٨٤٧ هـ / ١٤٢٣ (١٧) | | ٢٢٥ ٢٥٠ ٢٨٠ - ٢٧٥ | ٢.٣٥ - ٢.٤٢ | ٢٢٠. ٢٧٠ - ٢٦٠. ٢٨٥ - ٢٩٥ | الطرك . ج ٤ ، ص ٨٥٣ ، عقد ، ص ٢٩٩ . الطرك . ج ٤ ، ص ٨٨٠ ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٤٩٠ . عقد ، ص ٤٨٤ ، حواث ، ج ١ ، ص ١١ ، التبر ، ص ٧٩ . |
| ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م | | ٢٨٠ - ٢٨٥ | | ٢٩٠ - ٢٨٥ | عقد ، ص ٥٠٢ . |

خلاصة للعلاقة النقدية بين الدينار المملوكي والدينار الإيطالي

في أثناء الحاولتين الأولى والثانية وبعد هما^(١)

| نوع الدينار | متوسط الوزن | النسبة المئوية لمتوسط الوزن على أساس وزن المتقال | النسبة المئوية لمتوسط القيمة على أساس قيمة المتقال | العلاقة النقدية |
|------------------|-------------|--|--|-------------------------------|
| الدينار المملوكي | ٤,٢٥ | ٪ ١٠٠ | ٪ ١٠٠ | أقل من قيمة الدينار الإيطالي |
| الدينار الإيطالي | ٣,٥١ | ٪ ٨٢,٥ | ٪ ٩٠ | مساوية لقيمة الدينار المملوكي |
| الدينار الساسي | ٣,٥١ | ٪ ٨٢,٥ | ٪ ٩٠ | مساوية لقيمة الدينار الإيطالي |
| الدينار الناصري | ٣,٥٠ | ٪ ٨٢ | ٪ ٩٠ | أعلى من قيمة الدينار الإيطالي |
| الدينار الناصري | أقل من ٣,٤٥ | ٪ ٨١ | ٪ ٨٨ | أقل من قيمة الدينار الإيطالي |

(١) رأفت النبراوي . مسكوكات ، ص ٢٩٠ ، p. 91٠٠ ، Bacharach, op. cit.,

خلاصة للعلاقة النقدية في أثناء الحاولتين الثانية وبعد هما^(١)

| | | | | |
|------------------|-------------|--------|-------|-------------------------------|
| الدينار الأشرقي | ٣,٤١ | ٪ ٨٠,٥ | ٪ ١٠٠ | أقل من قيمة الدينار الإيطالي |
| الدينار الإيطالي | ٣,٥١ | ٪ ٨٢,٥ | ٪ ٩٠ | أقل من قيمة الدينار المملوكي |
| الدينار الأشرقي | أقل من ٣,٤٠ | ٪ ٨٠ | ٪ ١٠٠ | أعلى من قيمة الدينار الإيطالي |
| الدينار الإيطالي | أقل من ٣,٥٠ | ٪ ٨٢ | ٪ ٩٠ | أقل من قيمة الدينار المملوكي |

(١) رأفت النبراوي . مسكوكات ، ص ٢٩٠ ، p. 91٠٠ ، Bacharach, op. cit.,

الهوامش

(١) وردت أول إشارة للقيمة النقدية للدينار الإيطالي (الافرنتي) فى المصادر التاريخية سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م ، ثم وردت الإشارة الثانية عام ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م ، وإذا كانت المصادر لم تذكر قيمة الدينار الإيطالي النقدية فى الفترة بين الستين ، فإنها ذكرت قيمة الدينار المملوكى النقدية ، ومن خلالها يمكن لنا معرفة القيمة النقدية التى كانت عليها الدنانير الإيطالية .

(٢) الوزن الذى كان عليه الدينار الإيطالي هو (٣.٥١ جرام) بينما كان الدينار المملوكى على وزن المثقال ، وهو (٤.٢٥ جرام) ، ونلاحظ مع هذا الفارق الوزنى تقارب سعر التبادل بين الدينارين ، وهذا ما جعل الدينار الإيطالي يتنافس الدينار المملوكى ، ويتقدم عليه ويحوز على رغبة المتعاملين فيه .

(٣) تزامن وزن الدينارين مع بدء الدولة تطبيق سياستها النقدية الجديدة لمواجهة هجوم النقود الإيطالية ، ومحاولة التصدى لها ، وكان إصدار الدينار السالمى على وزن المثقال (٤.٢٥ جم) بينما تراوح وزن الدينار الإيطالي بين ٣.٥٠ و ٣.٦٥ جم .

(٤) كان سعر التبادل فى تلك السنة مقدراً بالدراهم الفلوس ، علماً بأن الدرهم الفضى الواحد كان بدرهمين من الدراهم الفلوس .

(٥) كان سعر تبادل الدرهم الفضى بثلاثة دراهم ، وثلاثة بالعشرة من الدرهم الفلوس ، ثم زاد فى نفس العام ليصبح أربعة دراهم فلوس لكل درهم فضى واحد .

(٦) كانت القيمة النقدية بالدرهم الفضى تعادل خمسة وعشرين درهماً فضياً للدينار الافرنتى ، وحوالى ثلاثين درهماً للدينار المملوكى .

(٧) تعادل هذه القيمة بالدرهم الفضى خمسة وعشرين درهماً فضياً للدينار الافرنتى ، وسبعة وعشرين للدينار المملوكى .

(٨) القيمة بالدرهم الفضية هى ثمانية وعشرون درهماً فضياً للافرنتى ، واثنان وثلاثون للمملوكى .

(٩) تساوت القيمة النقدية بين الدينارين لأن الدولة قد أصدرت دنانير على وزن الافرنتى فى محاولتها الثانية ضد هجوم النقود الإيطالية .

(١٠) كانت القيمة بالدرهم الفضية تعادل حوالى واحد وثلاثين درهماً فضياً للدينار الايطالى ، وثلاثة وثلاثين وثلاث تقريباً للدينار المملوكى .

(١١) فشلت محاولة الدولة وقف تقدم الدينار الافرنتى ، الأمر الذى أدى الى زيادة تدهور الدينار المملوكى ، فوصل سعره لأول مرة الى مستوى أقل من الدينار الايطالى مما يوضح ما يعيشه من ضعف وتدهور .

(١٢) يلاحظ تدهور القيمة النقدية للدينار الناصرى بسبب ما كان يعانيه من فساد أدى الى قيام الدولة عدة مرات بمحاولات لمنع التعامل به ، وأخيراً قررت التعامل به عن طريق الوزن بسبب كثرة ما خالطه من فساد ، وتلاعب ونقص فى وزنه .

(١٣) كانت قيمة المثلثال من الذهب (الدينار الهرجة) مائتين وثمانين درهماً فلوساً ، عنها من الدراهم الفضية خمسة وثلاثون درهماً فضياً ، أما قيمة الدينار الافرنتى ، فعنها من الدراهم الفضية اثنان وثلاثون درهماً

فضياً ونصف درهم ، والدينار الناصرى ستة وعشرون درهماً فضياً وربع درهم ، وقد نادى الدولة مراراً بمنع التعامل بالدينار الناصرى الذى أصبح غير صالح للتداول ، وقررت أن يكون سعره وزناً كل مثقال بمائتين وأربعين درهماً فلوساً أى ستة وعشرين درهماً فضياً ونصف تقريباً ، كما قررت أن يكون صرف المثقال من الذهب (الدينار الهرجة) بثلاثين درهماً فضياً أى بمائتين وسبعين درهماً من الفلوس ، والدينار الاقزنتى بثمانية وعشرين درهماً فضياً منها مائتان واثنان وخمسون درهماً فلوساً ، ولكن لم يعمل بهذا التحديد ، واستمر التعامل بسعر التبادل المين .

(١٤) لم تذكر المصادر التاريخية خلال سنتى ٨٢١ ، ٨٢٢ هـ / ١٤١٨ - ١٤١٩ م شيئاً عن أسعار تبادل الدينار الناصرى ، وكانت الدولة قد بذلت جهوداً كبيرة لمنع التعامل بعد أن كثير فساد و غشه ، وقد نجحت تلك الجهود عندما قلت كثيراً أعداد الدنانير الناصرية ، وهدمت بعد ذلك ، حيث ثبت فشلها فى مواجهة الدنانير الإيطالية .

(١٥) يلاحظ أن سعر التبادل المذكور هو للمثقال من الذهب الذى اصطلح على تسميته بالدينار الهرجة ، الذى تم استخدامه بعد انعدام الدنانير الناصرية ، وتوقف التعامل بها ، وكان الدينار الهرجة يزن (٤٠٢٥ جرام) ، ومع هذا فإن قيمته النقدية التجارية تقل كثيراً عن قيمته الأصلية مقارنة بالدينار الايطالى الذى يقل وزنه عن (٤٥٠٣ جرام) بسبب ما داخله من الغش والفساد ، ومع ما فيه من نقص ، فإن الفارق فى سعر التبادل بين الدينارين لم يكن كبيراً ، وكانت القيمة بالدرهم الفضية للدينار المملوكى ثلاثة وثلاثين درهماً فضياً ، بينما كانت للدينار الايطالى ثلاثين درهماً فضياً فقط .

(١٦) يمثل هذا التاريخ المحاولة الثالثة لوقف منافسة الدينار الإيطالية . وقد أصدرت الدولة لهذا الغرض الدينار الأشرقية على وزن الدينار الايطالى ، ونلاحظ أن الفارق فى القيمة النقدية بين الدينارين كان لصالح الدينار الأشرقى مع مساواتهما بالوزن .

(١٧) لم يرد فى الفترة بين هذا التاريخ والتاريخ السابق له أى إشارة لقيمة الدينار الايطالى النقدية . كما نلاحظ ذلك بعد سنة ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م . وهذا يعنى تراجع النقود الإيطالية ، وعدم رغبة المتعاملين التعامل بها بعد أن فقدت ثقتهم وحرصهم . ويؤكد هذا الدليل نجاح الدينار الأشرقى فى وقف هجوم الدينار الإيطالية ، بل والسيطرة على حركة التعامل النقدى ، مما اضطر الدينار الإيطالية الى الانسحاب والتراجع . هذا ويعد هذه المقارنة البيانية بين القيم النقدية للدينارين المملوكية ، والدينار الإيطالية يمكننى تلخيص تلك المقارنة بالنقاط التالية :

أولاً : سيطرة الدينار الايطالى (الفلورين الفلورنسى ، الدوكات البندقى) على حركة التداول مع مصطلح القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى . وبالتحديد منذ سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ - ١٤٠٠ م . (ومثلت الدينارين الإيطالية النقود الرديئة التى طردت النقود الجيدة الدينارين المملوكية ، وبصفة خاصة الدينارين السالمية) . وتمثل سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٩ م قمة سيطرة النقود الإيطالية على حركة التداول النقدى فى الدولة .

ثانياً : إستمرت سيطرة الدينارين الإيطالية بعد سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٩ م رغم محاولة الدولة وقف تلك السيطرة بإصدارها للدينارين الناصرية التى نجحت فى البداية نجاحاً نسبياً لم يستمر ، فتكرر فشل المحاولة مرة ثانية .

واضطرت الدولة الى مسايرة الوضع ، وهو سيطرة الدينار الايطالى بعد أن عجزت عن صد هجومه ، أو على الأقل تحجيمه ، فاستمر مسيطراً على الساحة النقدية حتى سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ م .

ثالثاً : بدأت السيطرة النقدية الايطالية فى التراجع أمام الدينار المملوكى (الأشرفى) بدءاً من سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ م ، وتحققت لأول مرة فرصة لنجاح الدينار المملوكى فى طرد الدينار الايطالى من حركة التداول ، وأن يحل محله فى أسواق الدولة كأساس فى حركة التعامل النقدي ، حتى نهاية العصر المملوكى ، وإن إحتاج الأمر الى سياسة بعيدة المدى لتحقيق ذلك النجاح الذى تم بالتدرج البطئ فإنه إنتهى بانحسار الدينار الايطالى ، وتراجع و عدم تداوله فى حركة التعاملات المالية .

رابعاً : نظير النجاح الذى حققه الدينار اللزشرفى فى مواجهة الدينار الايطالى ، والتصدى له أطلق معظم سلاطين العهد المملوكى الجركسى بعد الأشرف برسبای اسم الأشرفى على دنانيرهم ، اعترافاً منهم ، وقناعة بذلك النجاح الذى تحققت للنقود المملوكية عن طريقه ، واستمرت هذه التسمية حتى بعد سقوط الدولة المملوكية ، واستيلاء العثمانيين على أقاليم دولتهم .

الفصل السادس

الفساد النقدي في الدولة

- ١ - مفهوم الفساد النقدي وتعدد مظاهره في الدولة .
- ٢ - المسئولون والأفراد ودورهم في تفشي ظاهرة الفساد النقدي .
- ٣ - سياسة الدولة في مواجهة الفساد النقدي .
- ٤ - تأثيرات الفساد النقدي على أوضاع الدولة وموقف العامة منها .
- ٥ - مواقف العلماء في مواجهة الفساد النقدي وتأثيراته .

١ - مفهوم الفساد النقدي ، وتعدد مظاهره فى الدولة

الفساد مفهوم عام يرتبط بمجالات الحياة ، ، وجوانبها المختلفة ، وعندما يذكر الفساد النقدي ، فهو أيضاً مفهوم عام يشمل جوانب عديدة فى النظام النقدي ، وتظهر صورته واضحة جلية من خلال إصدارات الدولة من العملات ، أو القطع النقدية التى تمثل قاعدة ذلك النظام .

والواقع أن ما يتعرض له النقد من فساد يكون فى العادة منشأ من طريقين فإما أن يحدث نتيجة لسوء سياسة الدولة التى تسير عليها فى نظامها النقدي ، وإما عن طريق قيام عدة جهات بإحداث ذلك الفساد ، سواء كانت تابعة للدولة كدور ضرب النقود ، أو غير تابعة لها كالذى يقوم به الأفراد من تزيف للعملات ، والتلاعب بأوزانها وعباراتها ، ونحو ذلك من أوجه الفساد .

لقد حمل ذلك الفساد الذى تعرضت له النقود فى العصر المملوكى مصطلحاً عرف بـ (الزغل) ^(١) ، وأطلق على من يقومه مصطلح (الزغليين) أو (الزغلية) ، كما أطلق على النقود الفاسدة مصطلح (الزبوف) ^(٢) ، وكذلك

(١) الزغل بمعنى الخلط ، والمقصود هنا التزيف والغش ومنه الخلط . ومن يقوم به يسمى زغلياً وجمعه زغليين أو زغلية .

(ابن منظور ، اللسان ، ج ١٣ ، ص ٣٢٣ - مادة زغل -) .

(٢) الزبوف جمع زيف وزائف ، وزافت الدراهم تزيفاً وزيفاً أى فسدت وبارت ، والمقصود هو القطعة النقدية غير الخالصة ، أو التى خلطت بمعادن رخيصة وكثيراً ما يطلق هذا اللفظ على النقود القديمة (العتق) لكثرة ما بداخلها من الفساد والغش .

(ابن منظور ، اللسان ، ج ١١ ، ص ٤٢ - ٤٣ ، (مادة زيف) ، المقرئى ، النقود ، ص

٦٠ ، الأوزان ، ص ٧ و استئناس الكرملى ، النقود العربية ، ص ٥٠ ، هامش رقم (٤) .

مصطلح (الستوق) ^(١) ، ومصطلح (المبهرج) ، أو (المبهرج) ^(٢) ، أما النقود غير الفاسدة فقد أخذت مصطلح (الخلاص) ^(٣) ، وكذلك مصطلح (الهرجة) ^(٤) الذى خص إطلاقه على النقود الذهبية ، أو لفظ النقود الجياد - جمع جيدة - الذى أطلق على النقود التى لم تفسد ، ولم يداخلها الغش لحداثة إصدارها .

لقد عاشت النقود المملوكية ، أو النظام المملوكى بشكل عام فترات اضطراب عديدة ، فالى جانب سرعة تعدد الإصدارات النقدية ، تبدلها الطبيعى المصاحب لتغيير سلاطين الدولة ، فقد شاع التلاعب بالعملة ، فلم تحافظ على وزن معين ، وعتبار ثابت ، فبمجرد مرور فترة قصيرة على تداول أى إصدار نقدى يكون

(١) فى اللسان (ج ١٢ ، ص ١٨ ، مادة ستوق) ستوق بفتح السين وضمها أى الزائف ، والمبهرج الذى لا خبر فيه ، وستوق أطلق على ما غلب عليه النحاس حتى أصبح رديئاً غير خالص ، قال انستاس الكرملى - النقود العربية ، ١٤٧ - ستوق كلمة فارسية مشتقة من سه أى ثلاثة وتوق أى قوة ، بمعنى ذا ثلاث قوى ، لأن هذا النوع من النقد مركب من ثلاثة معادن ، الفضة والنحاس والحديد ، أو ما يشبه الحديد من المعادن كالرصاص ونحوه .

(٢) البهرج الذى معدنه ردى مردود ، والبهرج الهائل والردى من لثنى ، قيل إنها مشتقة من الكلمة الهندية نيهله ، وتعنى الردى ، ثم نقلت الى الفارسية فقبسل نيهره ، ثم عريت الى بهرج .

(ابن منظور ، اللسان ، ج ٣ ، ص ٣٩ - مادة بهرج - سيدة اسماعيل كاشف ، دراسات فى النقود العربية الإسلامية ، ص ٩٩) .

(٣) خلاص بفتح الخاء وكسرها متا أخلصته النار من الذهب والفضة وغيرهما ، وتم تنقيته من الشوائب العالقة به ، فخلص من الغش والخلط .

(ابن منظور ، اللسان ، ج ٨ ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٥ - مادة خلاص ، انستاس الكرملى ، النقود العربية ، ص ٤٩ ، هامش رقم (١) .

(٤) الهرجة أى الكامل الوزن الخالص العبار تمبيزاً له عن الناقص ، فضلاً أنظر : ص ١٥٢ .

الفساد والغش قد داخل النقود الصادرة ، حتى اذا استحال التعامل بها عن طريق العدد بسبب ذلك تم استخدامها عن طريق الوزن تمهيداً لاصدار نقود جديدة بدلاً عنها وهكذا ، وقد دلت على هذا الوضع المضطرب الذى عاشته النقود المملوكية وثائق البيع ^(١) الصادرة فى العصر المملوكى ، حيث احتوت على ذكر أوزان المبالغ التى تحددها الوثيقة عند استخدام طريقة الوزن فى تداول النقود بدلاً من طريقة العدد ، كى لا تقع أبة خسارة أو نقص فى حالة اختلاف عيار العملة ونقص وزنها ، أو نحو ذلك ^(٢) .

لقد تعرضت جميع أنواع النقود المملوكية للفساد ، ولكن تفاوت درجته من نوع لآخر ، فكانت الفلوس النحاسية أكثر عرضة للفساد من الدراهم الفضية

(١) وثيقتى بيع رقم ١٣٩ ، ٢٧٤ ، ورقم ٦٧٦ ، ص ٣٩١ ، نشرها د. محمد أمين فى كتاب فهرس وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المالك ، منشورات المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ، ١٩٨١ م ، ص ٣٦٥ - ٤٠٦ ، زينب محمد محفوظ هنا ، وثائق البيع فى مصر خلال العصر المملوكى ، ص ٩ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة ، كلية الآداب ، رقم ٢٣٣٦ ، آمال العمري ، دراسة لبعض وثائق تتعلق ببيع وشراء خيول من العصر المملوكى ، ص ٢٣٥ ، ٢٤٩ ، مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد العاشر ، نوفمبر ١٩٦٤ م ، ص ٢٢٣ ، ٢٨٩ .

لقد استدعى اضطراب أوزان النقود وعياداتها ، وقيمتها النقدية بصفة مستمرة تطبيق القواعد الفقهاء على العملة المتداولة فى عقود البيع والشراء وتحولها ، حتى تصبح العملة صالحة من وجهة نظر الشرع لأداء وظيفتها . لذا تم باستمرار ذكر نوعية العملة واسمها نسبة الى مصدرها ، وتاريخ الضرب ومكانه ، ووزن القطعة النقدية ، ونحو ذلك .

ومن العبارات المستخدمة فى الوثائق المملوكية لمثل هذه الظروف :

« ومن مبلغه عن ذلك من الذهب الأشرفى لظاهرى ، الوزان الطيب السالم من عيب مثله التعامل به يومئذ بالديار المصرية الذى زنة كل دينار منه درهم وثمان درهم يصنع الفضة » .

(زينب محمد محفوظ ، وثائق البيع ، ص ١٨٢ - ١٨٣) .

والدنانير الذهبية ، حيث شهدت على مدى العهدين الملوكيين ^(١) فساداً واضطراباً شديدين كان لهما تأثير واضح على النظام النقدي خاصة ، والوضع الاقتصادي بصفة عامة ، فتمرضت تلك الفلوس لأوجه عديدة من التلاعب والفساد ، وكانت هدفاً لمن يعملون على افساد النقود رغبة في الكسب والفائدة ، سواء من قبل مسئولى الدولة ، أو من قبل الأفراد ، وعلى رأسهم الزغلية والصيارفة ، وقد استغلت الفلوس النحاسية أكثر من غيرها فى عمليات الغش والتلاعب لسهولة افسادها ، وتساهل الدولة فى أمرها ، وتلاعب مسئوليتها فى أسعار تبادل الفلوس النحاسية التى حددت بأعلى من قيمتها الحقيقية ، فكثر أعدادها ، وزادت مع كثرتها الفلوس المزيفة ، والمخلوطة ^(٢) بالمعادن الرديئة .

لقد شهدت الفلوس النحاسية أول فساد لها فى العصر المملوكى فى الفترة التى أعقبت حكم السلطان المنصور قلاوون الأمر الذى دعى الدولة سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م الى أن تقرر التعامل بها عن طريق الوزن ، يقول المقرئى ^(٣) عن

(١) يلاحظ أن الفساد الذى تعرضت له الفلوس النحاسية خلال العهد المملوكى الجركسى قد زاد عما كانت عليه فسادها فى العهد المملوكى البحرى ، حيث أصبح فى حكم الظاهرة الطبيعية ، وفى جوانب الرسالة ما يعطى صورة عديدة لذلك الفساد الذى شهدته الفلوس النحاسية فى العهدين .

(٢) توجد قاعدة نقدية تقول «كلما زاد الفرق بين القيمة الاسمية والقيمة الحقيقية للنقود كلما كانت عرضة للتزيف والتلاعب» .

(صمويل برنارد : النقود العربية ، ص ٧٨ - ٧٩) .

وهذا ما كان عليه الوضع بالنسبة للفلوس النحاسية وغيرها من النقود الفضية والذهبية عندما يقوم مسئولو الدولة بالتلاعب بأسعارها وتوجيهها نحو الارتفاع وهى فى الحقيقة ذات قيمة نقدية منخفضة .

(٣) إغائة ، ص ٧٠ .

ذلك الفساد :

«وضريت الفلوس ، وتوقفت الناس فيها لحفتها ، فنودى فى سنة خمس وتسعين وستمائة أن توزن بالميزان ، وأن يكون الفلوس زنة درهم ، ثم نودى على الرطل منها بدرهمين ، وكان هذا أول ما عرف بمصر من وزن الفلوس ، والمعاملة بها وزناً لا عدداً» .

وتوالى بعد ذلك التاريخ فساد الفلوس النحاسية ، وتفاقت بسببها الأزمة النقدية فى الدولة ، حتى اذا جاء العهد المملوكى الجركسى زادت أعداد الفلوس النحاسية ، وزادت مع ذلك سوءاً وفساداً الأمر الذى أعجز سلاطين الدولة علاجه ، أو التخفيف من تأثيراته على نواحى الدولة .

هذا وتورد لنا المصادر التاريخية ^(١) أمثلة عديدة لما حل بالفلوس النحاسية من فساد ، وما تعرضت له من تلاعب وغش ، يتضح منها حجم الفساد والتلاعب ، مما بدعونا الى القول أن الفلوس النحاسية لم تشهد أى فترة استقرار

(١) فضلاً أنظر أمثلة لهذا الفساد فيما يلى :

- وثيقة وقف السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ص ٤٠٦ ، نشرها د . محمد محمد أمين ملحقة فى كتاب تذكرة النبيه ، ج ٢ ، ص ٣٨٦ ، ٤٢٦ .
 - حجة وقف السلطان الأشرف برسباى ، ص ١٧٩ .
 - النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ورقة ٤٧٤ ، ج ٣١ ، ورقة ٢ ، ورقة ١٥ .
 - المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، ص ٢٢٣ ، ص ٢٥٣ ، ص ٤٤٤ ، ص ٤٥٣ ، ج ٢ ، ص ٦٦٩ ، ص ٧١٩ ، ص ٧٧١ ، ج ٣ ، ص ٦٢٩ ، ص ٧٠٥ .
 - السيوطى ، حسن ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ ، ص ٣٠٨ ، ص ٣٣٧ .
 - السخاوى ، الذيل التام ، ص ٣٥٢ ، التبر المسبوك ، ص ٧٧ .
- هذا بالاضافة الى ما تضمنته بعض فصول الرسالة من أمثلة على الفساد النقدى فى العصر المملوكى .

وثبات طوال عصر الماليك ، باستثناء الفترة التى سبقت سنة ٦٩٥ هـ

وفى الحقيقة أن استخدام الفلوس النحاسية عملية رئيسية للدولة بدل الدراهم والدنانير يعد فى حد ذاته فساداً نقدياً ، اذا اختلت بهذا القاعد النقدية للدولة مما يعنى فسادهـا ويحدثنا المقرئى عن هذه الجزئية فيقول (١) :

«إنه حدث من رواجها خراب الاقليم ، وذهاب نعمة أهل مصر ، وأن هذا فى الحقيقة كعكس للحقائق ، فإن الفضة هى نقد شرعى لم تزول فى العالم ، والفلوس إنما هى أشبه شئ بلا شئ» .

أما عن الدراهم الفضية والدنانير الذهبية ، فقد تعرضت لنسبة أقل من الفساد ، إذ لم تكن بنفس النسبة التى كانت عليها الفلوس النحاسية ، والملاحظ على فساد النقود الفضية والذهبية أنه زاد فى العهد المملوكى الجركسى ، فخلال العهد المملوكى البحرى لم تذكر المصادر التاريخية سوى حادثتين أو ثلاث وقع خلالها اضطراب فى عيار النقود الذهبية من موظفى دار الضرب ، وفساد النقود الفضية ، ويمكننا القول أنه خلال ذلك العهد لم تتعرض الدراهم والدنانير لفساد مقصود لأمن الدولة ، أو أحد مسئوليهـا ، ولا من الأفراد الذين امتهنوا إفساد النقود .

وهذا بخلاف العهد المملوكى الجركسى الذى تعرضت فيه النقود الذهبية والفضية لنقص أوزانها وعياراتها وتزييفها ، ويحدثنا المقرئى عن ذلك مقارناً بين المهدين فى هذا الجانب فيقول (٢) :

(١) النقود ، ص ٦٥ .

(٢) المخطوط ، ج ١ ، ص ١١٠ .

«وكان يجتهد فى خلاص الذهب ومحرير عيابه الى أن أفسد الناصر فرج ذلك بعمل الدنانير الناصرية ، فجاءت غير خالصة» .

وإذا كان ما ذكره المقرئى خاص بالدنانير الذهبية ، فإنه فى موضع آخر خص الدراهم الفضية حيث قال ^(١) :

«والدراهم المؤيدية كل مؤيدى بسبعة دراهم ، وهى كثيرة بأيدي الناس ، وقد أتلّف أهل الفساد وزنها ، ونقصوها بهرشا ، حتى خفت وضرهوا على مثالها نحاساً يخالطه يسير من الفضة ، فعن قليل تنكشف ويظهر زيفها» .

هذا ولا أدل على الفساد الذى تعرضت له الدنانير والدراهم من تداولها فى فترات عدة عن طريق الوزن ، لما داخلها من الفساد الذى لا يمكن معه تداولها عن طريق العدد ^(٢) ، ويذكر أحد الباحثين ^(٣) أن الاصدارات الفضية الخاصة بالممالك الجراكسة قد اتسمت بعدم انتظام إصدارها ، وعدم ظهور المآثورات والنقوش عليها الا نادراً ، وأن ذلك عائداً الى ضرب قطع معدنية صغيرة فى

(١) السلوك ، ج ٤ ، ص ٥٤٨ .

(٢) يمكن الاطلاع على أمثلة لهذا الفساد من خلال ما ورد من معلومات فى الفصلين الثالث والرابع ، والى أمثلة فى المصادر التالية :

- وثيقة وقف السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ص ٤٠٦ .

- المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٢٦ .

- ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٦ ، ص ١١٥ .

- الأسدى ، التيسير والاعتبار ، ص ١٢٣ .

- ابن اباس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ ، ج ٣ ، ص ١٢٢ ، ص ٢١١ ، ج ٤ ، ص ١٦٣ .

(٣) محمد أبو الفرج العشى ، مصر القاهرة على النقود العربية الإسلامية ، ص ٩٦٧ -

سكة كبيرة ، أو الى قرض أجزاء منها ، وهذا هو الأقرب بسبب كثرة ما داخل الدراهم الفضية من غش وفساد ، ويكفى أن أشير الى أن الفساد النقدي فى الدراهم الفضية والدنانير الذهبية المملوكية قد انتقل منها الى الدراهم والدنانير غير المملوكية ^(١) التى شملها فى الوقت نفسه نقص الوزن والقطع والقص ، فأدى الى فسادها ، ومن ثم التعامل بها وزناً ^(٢) .

وأخيراً فإنه مما تنبغى الإشارة اليه قبل الحديث عن أوجه الفساد النقدي فى الدولة المملوكية هو استخدام النقود المغشوشة والفاصلة فى عمليات التبادل النقدي ، وفى المعاملات التجارية ، فقد جرت العادة فى العصر المملوكى على قبول تلك النقود فى المعاملة عن طريق واحد فقط هو الوزن مع تقدير نسبة فسادها ، وذلك عن طريق وزنها بنقود جيدة لا غش فيها ، وكذلك مقارنتها بتلك النقود الجيدة فى عيارها ، ودرجة نقاوته وصفائه ^(٣) ، وقد أوردت بعض المصادر التاريخية ^(٤) أمثلة عديدة لذلك ، وما أوامر الدولة الصادرة باتباع

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ ، ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ص ٤٥٥ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٥٤ ، ص ١٧٤ ، ص ٢٢٥ ، العيني ، عقد ، ص ٣٢١ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٤٢٠ ، ٤٢١ .

(٢) لا يعنى هذا أن تلك النقود غير المملوكية قد وصلت الى الدولة جيدة فى أوزانها وعياراتها ، بل تعرضت للغش والفساد فى البلاد التى صدرت فيها ، وتشير الى ذلك رسالة بعث بها السلطان المملوكى الأشرف قايتباى سنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م الى دوق جمهورية البندقية (نيكولو ترون NICOLO TRON) يبلغه فيها أن الفضة الواصلة الى الدولة فاسدة ومغشوشة ، ويغلب عليها النحاس ، وذكر أن مائة درهم قضى من دراهم البندقية تحتوى على ما يعادل ستين درهماً ، والبقية من النحاس ، فضلاً أنظر الفصل الأول ص ١٢٥ .

(٣) ابن الهائم ، نزهة النفوس ، رقة ٢٨ ، السخاوى ، الذيل على رفع الأصغر ، ص ٣٢٠ .

(٤) على سبيل المثال لا الحصر فضلاً أنظر :

المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ ، ص ٤٥٣ ، ج ٤ ، ص ٢٣٢ ، ص ٢٤٥ ، ص ٢٤٦ .

الوزن أسلوباً فى التبادل النقدى الا دلالة على التعامل بالنقود الفاسدة ، وكثيراً ما أشارت المصادر التاريخية الى تلك الأوامر ، خصوصاً فى العهد المملوكى الثانى ، الذى اتسم ببروز ظاهرة الفساد النقدى بشكل دائم .

أما عن مظاهر الفساد النقدى فى العصر المملوكى ، فقد تعددت وتنوعت بدرجة تدل على حجم ما عانته النقود المملوكية من فساد وتلاعب ، فمن نقص أوزان النقود ، وعدم ضبط عيارها ، والتلاعب بقيمتها النقدية ، وأسعار تبادلها ^(١) ، الى تزييفها أو تقليدها بسك عملات مثيلة لها خارج دور سك النقود الرسمية التابعة للدولة ^(٢) - الجهة المسنولة عن إصدار العملات - والى غير ذلك من أوجه غش النقود .

لقد تحدثت فى مناسبة سابقة عن مدى التزام سلاطين الدولة بالأوزان الشرعية للنقود وعياراتها ، وذكرت أن غالبية سلاطين المماليك لم يلتزموا بذلك ، ولم يولوه عنايتهم واهتمامهم ، وعلى هذا تكون النقود التى أصدرها ناقصة الوزن غير مضبوطة العيار أى فاسدة ولا شك أن هذا التجاوز من قبل السلاطين قد أدى الى تجرؤ الأفراد على انقاص أوزان النقود ، وخلط معادنها بمعادن رديئة

^١ ٦٠٣ . ص ٦٣٠ . ص ٨٥١ . ابن تفرى هردى ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٢٢٦ . ج ١٦ .

ص ١٠٤ . ص ١١٥ . ص ١٦ . الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ٤٨٢ . ابن اياس ، بدائع . ج ١ . ق ٢ . ص ٦٦٥ . ص ٧٠٥ . ج ٤ . ص ٢٥١ . ص ٢٩٥ .

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ . ص ٢٩٢ .

(٢) نفسه ، السلوك ، ج ٢ . ص ٢٠٥ - ٢٠٦ . ج ٤ . ص ٨٥١ .

، وتحقيقاً لذلك عملوا على هرش ويرد ^(١) القطع النقدية ، ليؤخذ من معادنها أجزاء يسيرة ، أو يعملون على قطعها ونزع شئ منها ينتفع به القاطع ، عندما تزداد لديه الأجزاء المنتزعة من القطع النقدية ، حيث يقوم بصهرها والاستفادة من معادنها ^(٢) ، وفى بعض الأحيان يقومون بتفريغ القطع النقدية ، وذلك بإحداث حفرة صغيرة فى القطعة المعدنية لأخذ معدنها واستبداله بمعدن آخر غير المعدن الأصلي ثم يمويه مكانها بلون المعدن الأصلي ، وكأنها سليمة لم يعث بها ^(٣) .

وبالإضافة الى النقود ، فقد شغل الفساد أيضاً الصنح المستخدمة فى أوزان النقود ، حيث استعملت صنح ناقصة الوزن ، فجاءت النقود التى حددت أوزانها بتلك الصنح ناقص سواء كانت دنائير ذهبية أو دراهم فضية ^(٤) .

وبالإضافة الى هذه المظاهر أو الأوجه التى كان عليها الفساد النقدي فى دولة الماليك ، فإن هناك مظاهر أخرى عديدة ألقى عليها الضوء من خلال الحديث

(١) الهرش والبرد : أن يبرد من القطعة المعدنية حتى يخف وزنها وتصبح أقل من وزنها الحقيقى ، والاستفادة مما ينتزع من معدن عند عملية الهرش أو البرد .

(المقرئى ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٦٠٣ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٢٢٦) .

(٢) قطع النقود ، نزع شئ منها فى أجزاء صغيرة جداً لا تؤثر كثيراً على وزن القطعة النقدية .

(ناصر النقشبندى ، الدينار الإسلامى ، ص ١٥ ، انستاس الكرملى ، النقود العربية ، ص ١٦ ، هامش (٢)) .

(٣) ناصر النقشبندى ، الدينار الإسلامى ، ص ١٤ - ١٥ ، انستاس الكرملى ، النقود العربية ، ص ١٧ ، هامش (٣) .

(٤) أفلقشندى ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦٣ ، الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ٤٧٧ ، محمد أبو الفرج العشى ، مصر ، القاهرة على النقود العربية والإسلامية ، ص ٩٦٧ .

عما قام به مسئولو الدولة من سلاطين وأمرء وغيرهم ، وما قام به الأفراد من زغليين وصيارفة وغيرهم من نشاط فى افساد النظام النقدى المملوكى بجوانبه المختلفة .

٢ - المسئولون والأفراد ودورهم فى

تفشى ظاهرة الفساد النقدى

لقد عانت النقود الاسلامية فى العصر المملوكى من الاضطراب والفساد ما لم تعانه نقود اسلامية أخرى ، فكان من نتيجة ذلك أن فقدت النقود الاسلامية مركزها النقدى الواسع الذى كانت تتمتاز به ، كما فقدت مكانتها كعملات رئيسية فى التبادل التجارى ، وفى مراكز التجارة العالمية فى تلك الفترة .

ويتحمل سلاطين الممالك باستثناء عدد منهم - المسئولية كاملة عن ذلك الوضع المتردى اذ سعوا وراء مصالح زائلة واهتموا بها ، وجعلوها هدفاً يجتهدون لتحقيقه ، مخلفين وراءهم المصلحة العليا ، فتسببوا فى فساد نقودهم ، وتدهور أحوال دولتهم ومواطنيهم ، فأصابهم ذلك الفساد ، وأضر بهم ذلك التدهور بعد أن اتسع نطاقهما ، وأصبحت امكاناتهم وقدراتهم عاجزة عن معالجة الوضع ، أو حتى حصر دائرته ، مما ساعد على سقوطهم ، وزوال دولتهم .

إن دور سلاطين الممالك فى تفشى ظاهرة الفساد النقدى يرتبط بناحيتين : أولاهما : أن بعض السلاطين عملوا بأنفسهم على إفساد الوضع النقدى فى الدولة - وسرى فيما يلى كيفية ذلك - وإن لم يعملوا بأنفسهم ، فقد قام بذلك كبار أمرائهم ، وكبار مسئولى الدولة على رأى ومسمع منهم ، مما يعنى قبولهم أو موافقتهم .

الناحية الثانية : هى أن وقوع الفساد والتلاعب من رجال الدولة والمستولين قد فتح الباب واسعاً أمام أصحاب القلوب الضعيفة ، وأهل الفساد لزيادة إفساد النقود وتزييفها ، والعمل على تحقيق الربح والكسب من هذا السبيل ، وبين السلاطين ورجال دولتهم ، وبين أهل الفساد فسدت النقود المملوكية ، وساء النظام النقدى ، فكان تأثير ذلك كبيراً على مختلف نواحي الدولة .

لقد تمثل الفساد النقد الذى قام به السلاطين والمستولون فى الدولة بعدة مظاهر : أولها : السياسة النقدية لبعض السلاطين ، ويظهر ذلك بقيام بعضهم بتخفيض أوزان النقود وعياراتها ، عندما نقصت إمدادات الدولة من المعادن ، وعانت خزينة الدولة من عجز فى نفقاتها ومصروفاتها ^(١) ، بدءاً من عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق الذى يذكر عنه المقرئى ^(٢) إفساده لأوزان النقود ، وعدم ضبط عباراتها ، ويذكر أيضاً ^(٣) عن أمراء دولته وكبار مسئوليتها إفسادهم للنقود بشكل لم يسبق له مثيل فى الدولة ، وتلاعبهم بأسعار تبادلها بما يحقق لهم الربح والشراء بأقصر الطرق ، دون النظر لشرعية ذلك ، وما نتج عنه من اضرار باقتصاديات الدولة ومواطنيها .

هذا وقد سلك جميع سلاطين الدولة من جاؤا بعد الناصر فرج سياسة انقاص

(١) القلقشندى ، صبح . ج ٣ . ص ٤٦٣ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ١٣٤ ، ص ٢٢٦ ، ص ٣٩٢ ، ص ٤٣٧ ، ص ٤٣٩ ، ص ٨٥١ - ٨٥٢ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٣ ، ص ٥١ ، ج ١٤ ، ص ٣٥٢ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٢١٨ ، ابن إياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ٣٤ ، ص ٣٣٧ ، ج ٣ ، ص ٢١١ ، ج ٥ ، ص ٨٩ .

(٢) الخطط ، ج ١ ، ص ١١٠ ، فضلاً أنظر أيضاً السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٣) السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٨ - ٢٩ ، فضلاً أنظر أيضاً ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤١٩ .

النقود ، ص ٦٥ .

أوزان النقود وعيارها ، علاجاً لمشكلة نقص المعادن .

ثانى مظاهر الفساد النقدي : التلاعب بأسعار التبادل تحقيقاً لمصالح ذاتية ، ورغبة فى الفائدة المادية ، وكانوا يحصلون على ذلك عن طريقين ، فإما أن يرفعوا قيمة العملة أكثر مما تستحق ، ويفرضوا على الناس التعامل بتلك القيمة ، وإما أن يعيدوا ضرب النقود المتداولة ، ثم إعادة تداولها بعد أن تكون أوزانها وعياراتها قد نقصت فى الوقت الذى تحافظ فيه على قيمتها النقدية قبل حدوث النقص (١) .

ثالث المظاهر : العمل على تقليل أعداد الدراهم الفضية ، حتى وإن دعته الحاجة أو الفائدة وقف إصدارها كى يضطر المتعاملون الى استخدام الفلوس النحاسية بدلاً عنها ، وعندها يكثرون من إصدار الفلوس النحاسية ، ويضمنون بذلك الربح المادى من وراء ذلك (٢) .

هذه هى المصادر التى عمل من خلالها بعض سلاطين الدولة ، وعدد من رجالها على إفساد النقود ، وقد أوردت المصادر التاريخية لتلك المظاهر أمثلة عديدة (٣) ، واختتم حديثى بما ذكره ابن اياس عن السلطان الغورى ، ونشاطه

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، ج ٤ ، ص ٨٣٢ ، الصيرفى و، إنباء الهصر ، ص ١٤٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٣ ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٨ ، المخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٧ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ١ ، ص ٣٥٠ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

فضلاً أنظر الفصل الثالث (القيم النقدية) ، حيث وردت أمثلة عديدة لهذا المظهر من مظاهر الفساد .

(٣) على سبيل المثال لا الحصر فضلاً أنظر إضافة الى المصادر السابقة ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبهصار ، ج ٢٧ ، ق ٢ ، ورقة ٩٤ ، الذهبى ، المعبر ، ج ٤ ، ص ٩٩ ، دول =

فى افساد النظام النقدى المملوكى ، فيقول (١) :

«إن معاملته فى الذهب والفضة والفلوس الجدد أنحس المعاملات جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل صرفها ، ولا يجوز فى ملة من الممل .. فكانوا يصنعون فى الذهب والفضة النحاس والرصاص جهاراً» .

أما عن نشاط الأفراد فى الفساد النقدى ، فهو وإن اختلف فى بعض مظاهره ، فإنه لا يختلف عن الدور الذى قام به بعض سلاطين الدولة ، وبعض رجالاتها فى نشر ظاهرة الفساد النقدى ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء الزغلية (الذين امتهنوا حرفة غش النقود وتزييفها) ، (٢) والصبارفة (الذين امتهنوا

الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ ، ابن حجر ، انباء ، ج ٢ ، ص ٤٥ ، ص ٣٢٦ ، ج ٣ ، ص ٤٦٨ ، الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٤٣ ، ص ٤٧٧ ، ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ق ١ ، ص ٣١٢ ، السخاوى ، التبر المسبوك ، و ص ٧٧ .

(١) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٥٧ ، ج ٥ ، ص ٨٩ .

(٢) الصبارفة جميع صيرفى ، وهو الذى يستبدل الدراهم والدنانير ، ويميز جيدها من رديتها وكان لهم نشاط واسع فى الفترة موضوع الدراسة ، من أنشطتهم مهنة الصاغة (التجارة بالمعادن الثمينة وتصنيعها) ، وكان منهم من يعمل لحسابه الخاص (وهم المقصودون هنا) . كانوا يقومون بالنشاط الذى تقوم به المصارف فى وقتنا الحاضر من إقراض وإيداع ، وغير ذلك من المعاملات المصرفية ، وكان لهم سوق عرف بسوق الصبارف أو سوق الصرف ، (ابن عماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٩ ، اليوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٣٢٨ ، القلقشندى ، صبح ، ج ٤ ، ص ٤٦٦ ، لصقاعى ، تالى كتاب وفيات الأعيان ، ص ٥٩ - ٦٠ ، المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٧٤ ، ج ١ ، ص ٩٧ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٦٤ ، ج ٣ ، ص ٤٥٣ ، ص ٨٥٤ ، ص ١٠٥٣ ، ٤٨ ، ابن شاهين ، كشف المسالك ، ورقة ١٣٤ أ) .

صرف النقود والقيام بعملية مبادلتهما) ، والكيميائيين ^(١) (الذين امتنهنوا حرفة تحويل المعادن وتلوينها) ، وغيرهم من السوق ونحوهم ، فكان لهم نشاط بارز فى مجال إفساد النقود بمختلف أنواعها لهدف الفائدة المادية ، والكسب غير المشروع بأسرع الطرق وأسهلها .

فبالنسبة للزغليين ، فقد قاموا بتخفيف أوزان النقود بقطعها وهرشها ، أو تغريفها ونحو ذلك ، كما قاموا بتخفيف عياراتها ، وذلك بخلطها بمعادن رديئة ، وقاموا أيضاً بإصدار قطع نقدية مزيفة يحاكون بها النقود الرسمية للدولة ، عملوا على نشرها والتداول بها ، كما أنهم زيفوا العلامة السلطانية التى تختم بها نقود الدولة ، وختموا بها على نقودهم المزيفة ^(٢) .

والغريب هو سرعة تأقلم الزغلية مع المتغيرات النقدية التى تقوم بها الدولة ، فيصدرون عملات نقدية جديدة عند إصدار الدولة لمثل تلك العملات ، ويحرصون على أن تكون مشابهة لها من حيث الشكل والطرز أما الوزن والعيار ، فمهمتهم أو نشاطهم يمنعهم من ضبط الوزن والعيار لنقودهم ^(٣) .

(١) الكيميائيين نسبة الى علم الكيمياء شمل نشاطهم عدة مهن كالصيدلة والعطارة والصاغة ، ارتبط بهم الفساد فى تلك الفترة نظراً لتنوع ما يقومون به من أعمال ، واستغلالها فى الغالب فى نواحي الفساد المتصل بالمعادن الثمينة ، ومنها النقود بتحويل معادنها وتغيير ألوانها ونحو ذلك .

(ابن القيم الجوزية : شمس الدين محمد بن أبى بكر ، الطرق الحكيمة فى السياسة الشرعية ، ص ٢١٩ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (ب - ت) ، ابن الحاج ، محمد العبدى القيروانى ، المدخل الى الأعمال بتحسين النيات ، ج ٣ ، ١٤٤٠ ، المطبعة المصرية بالأزهر ، القاهرة ١٣٨٤ هـ / ١٩٢٩ م ، ابن بهادر ، فتوح النصر ، ورقة ٦١) .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، ج ٤ ، ص ٨٣٢ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٢٣ ، ص ٩٤١

إضافة إلى ذلك قاموا بقص القطعة النقدية الواحدة الى عدة قطع ليتم التعامل بها ، وأكثر ما تعرض لهذا النوع من الفساد من العملات المملوكية الفلوس النحاسية ، حيث كانت هدفاً للتلاعب والتزييف من جميع الزغليين وغيرهم ^(١) ، وقاموا أيضاً بعمل دنابير من الفضة ، وطلبيها بالذهب ، أو عمل دراهم من النحاس ، وطلبيها بالفضة إمعاناً في الفساد ، وحرصاً على الكسب والربح ^(٢) .

وقد أتقن عدد منهم بعض العمليات التي يقوم بها الكيميائيون ^(٣) ليزيدوا من نشاطهم ، وينوعوا من مظاهر افسادهم وغشهم وقد قال ابن القيم الجوزية ^(٤) عن هؤلاء :

«إن الزغلية يفسدون مصالح الأمة ، والضرر بهم عام لا يمكن الاحتراز منه ، فعليه - الحاكم - أن لا يهمل أمرهم ، وأن ينكل بهم وأمثالهم ، ولا يرفع عنهم عقوبته ، فإن البلية بهم عظيمة ، والمضرة بهم شاملة ، ولا سيما هؤلاء الكيماويين الذين يغشون النقود والجواهر والعطر والطيب» .

وقد أوردت المصادر التاريخية المملوكية ^(٥) ، أمثلة عديدة لعدد من هؤلاء الزغلية بعد القبض عليهم ، وعندهم آلات تزيف النقود وتصنيع النقود الفاسدة التي يستخدمونها في عملياتهم ونشاطهم الهدام .

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٤٤ ، ج ٤ ، ص ٦٢٩ - ٦٣٠ .

(٢) سيدة كاشف ، دراسات ، ص ٩٩ .

(٣) ابن بهادر ، فتوح النصر ، ورقة ٦١ .

(٤) الطرق الحكمية ، ص ٢١٩ .

(٥) ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ٤٥ ، ج ٣ ، ص ٣٢٦ ، ص ٣٦٨ ، ابن تغرى بردى .

حوادث الدهور ، ج ٢ ، ص ٣١١ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٣ ، ص ١١٦ .

وبالنسبة للصيرفيين ، فقد كثر تلاعبهم عند تداول النقود ، وتطفيئهم لها خصوصاً عند التعامل بها وزناً ، حيث يستعملون صنجا ناقصة الوزن عند دفعهم وبيعهم للعملات النقدية إما عند قبضهم لها فإنهم يستعملون صنجا زائدة الوزن تمكنهم من الاستفادة المادية ، وتحقق أرباحاً كبيرة ^(١) ، أو أن تكون الصنج قد تراكت عليها الأوساخ ، ونحو ذلك مما يزيد من وزنها ^(٢) ، فعند رغبتهم شراء شئ من النقود الموزونة يستخدمون هذه الصنج ، وعندما يرغبون بيع شئ من تلك النقود الموزونة يستخدمون صنجا نظيفة لم يعلق بها ما يزيد من وزنها ^(٣) ، أو أنهم يلصقون شيئاً من الشمع ونحوه أسفل إحدى كفتى الميزان ، والتي يوضع فيها صنج الوزن ، فتزيد من ثقل الصنجة ، فيتحقق له زيادة في الوزن ^(٤) ، أو أن يقوم الصيرفى بنقع الحبوب المستخدمة في الوزن بالماء حتى تتشرب ، فيزداد ثقلها ، فيستخدمها لوزن ما يشتريه من نقود ، وعند رغبتة إعادتها لوزنها الطبيعي ، أو أخف وزناً ، فيثقبها لتتسرب الرطوبة الموجودة داخلها من خلال الثقب ^(٥) .

أما إفسادهم للنقود . فقد تركز على خلط الجيد منها بالردئ ، ومساواتها

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٢٩ - ٦٣٠ ، الأسدى ، التيسير والاعتبار ، ص ١١٨ ، ١٢٢ .

(٢) الشيرزى ، عبد الرحمن بن نصر ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ١٨ تحقيق الدكتور السبا الباز العرينى ، دار الثقافة بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠١ هـ ، ابن الاخوة محمد بن محمد القرشى ، معالم القرية في أحكام الحسبة ، ص ١٤٤ ، تحقيق محمد محمود شعبان ، صديق أحمد عيسى المطيعى ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ، ١٩٧٦ م .

(٣) الشيرزى ، نفسه ، ص ١٩ ، ابن الاخوة ، نفسه ، ص ١٤٤ .

(٤) الشيرزى ، نفسه ، ص ٢٠ ، ابن الاخوة ، نفسه ، ص ١٤٦ .

(٥) اليوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٣٥١ ، ابن القيم ، لطرق الحكمة ، ص ٢١٩ ، ابن الحاج المدخل ، ج ٣ ، ص ١٤٤ ، ابن بهادر ، فتوح النصر ، ورقة ٦١ .

رزناً وقيمة ، بل إنهم كانوا يشترون النقود المغشوشة من الزغليين بأثمان زهيدة ، فيخلطونها بتلك الجيدة ، فيحققون من وراء ذلك أرباحاً كبيرة ^(١) ، هذا الى جانب ما كان يقوم به الصيارفة من معاملات ربوية محرمة لا تجيزها الشريعة الاسلامية .

أما نشاط الكيميائيين فلا يختلف كثيراً عن نشاط الزغليين ، ولكن ينحصر فسادهم فى تلاعبهم بمعادن النقود وخطها والغش فى ألوانها ، هذا ولا تمدنا المصادر المملوكية بصور من هذا النشاط الذى قام به هؤلاء ، وما من شك فى أنه كان له تأثيره على النقود المملوكية ، وما أصابها من تدهور .

هذا ما كان من مسئولى الدولة والأفراد من فساد نقدى أضر بالدولة فى جانب من أهم جوانبها ، وأضر بمواطنيها فى أمثالهم وسبل معاشهم ، وتخلوا عن مسئوليتهم المباشرة فى المحافظة على نقود الدولة ونظامها النقدى ، مما يداخلها من الفساد وصرفوا النظر عن مصالح الدولة والرعية ، وأمعنوه فى مصالحهم ورغباتهم ، حتى آل أمرهم الى الاضمحلال والزوال .

٣ - سياسة الدولة فى مواجهة الفساد النقدى

تباينت السياسة التى انتهجها سلاطين دولة المماليك فى مواجهتهم لمشكلة الفساد النقدى ، فمنهم من سار على سياسة سلبية فى هذا الاتجاه زادت من تلك المشكلة وعلمت على توسيعها وتعقيدها - كما رأينا فى الفقرة السابقة - ومنهم - وهم قلة - من اتبع سياسة متشددة تجاه ذلك الفساد ، والعمل على القضاء عليه ، وعلى من يقفون وراءه ، وبين هؤلاء السلاطين وأولئك سار غالبية سلاطين الدولة على سياسة الأمر الواقع ، فلم يعملوا أو حتى يحاولوا مواجهة أزمة النقود المملوكية ، ومقاومة الفساد الذى تعرضت له وفى الوقت نفسه لم

يكن لهم نشاط فى مجال إفساد النقود ، وإن كان ذلك من الايجابيات التى تحسب لهم ، فإن سلبيتهم فى مواجهة ذلك الفساد تحسب عليهم ، اذ الواجب على ولى الأمر فى مثل هذه الظروف أن يعمل ، ويجتهد لتحقيق صالح الأمة ، والمتمثل هنا بمحاربة الفساد والقضاء على أعوانه لما فى ذلك من الخير والصالح للبلاد والرعية .

. أول امتحان لسياسة السلاطين فى مواجهة الفساد النقدي حدث فى الفترة التى تلت حكم السلطان المنصور قلاوون ، حيث تعرضت الفلوس النحاسية للقص والتزييف والخلط الأمر الذى أفسدها ، وأضر بمصالح المتعاملين ، فكان موقف سلاطين الدولة سلبياً ، فلم يعملوا على مقاومة الفساد ، وإن أمر السلطان العادل كتبغا بالتعامل بها وزناً سنة ٦٩٥ هـ / ١٣٩٥ م ، فإن هذه الخطوة قد زادت من إفساد الفلوس النحاسية ، وأتاحت الفرصة للزغليين كى يزدوا من نشاطهم طالما أن ما يصدر منه من فلوس مزيفة ، أو ما يحدثونه من قص وخلط بفلوس الدولة سيتم لاتعامل به وزناً ، بل إن هذا - فى اعتقادى - أكثر ربحاً وفائدة لهم .

ولم تكن الفلوس فى فترة حكم الناصر محمد بن قلاوون بأحسن حالاً مما كانت عليه فى الفترة السابقة ، فقد شهدت فساداً مستمراً^(١) ، وعلى الرغم من المحاولات المتكررة للسلطان الناصر فى إصلاح فسادها ، وتشدهد وحزمه مع المفسدين الا أنه لم يحقق نجاحاً يقضى على المشكلة نهائياً ، واستمرت الدولة فى عهده ، وعهد خلفائه من السلاطين مكتفية بالمناداة على الفلوس النحاسية عند تعرضها للفساد والغش ، أن يتم التعامل بها وزناً فى كثير من الأحيان

(١) سبق عرض ومناقشة تطورات ذلك الفساد خلال دراسة القيم النقدية للفلوس النحاسية.

وفى قليلها تواجه ذلك بإصدار فلوس نحاسية جديدة فى محاولة منها للقضاء على الفلوس الرديئة ، ولكن سرعان ما يعم الفساد الفلوس لتستمر المشكلة دون حل ..

إن السياسة الخازمة والمتشددة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون فى مواجهة الفساد النقدي ظهرت بوضوح عند معالجته الفساد الذى أصاب الدنانير الذهبية من قبل العاملين بدار الضرب ، فعوقبوا بالمصادرة ، وبغرامات مالية يدفعونها لخزينة الدولة وصل مجموعها الى خمسمائة ألف درهم (١) .

وفى عهد السلطان الناصر حسن لم يحقق الإصلاح الذى أجراه على الفلوس النحاسية أى نجاح فى مواجهة فسادها ، وإن خفت الأزمة لفترة من الزمن ، فإنها عادت الى المواجهة مع اتجاه أوضاع الدولة الى التدهور فى الفترة التى حكم خلالها سلاطين ضعاف ليس لهم من الأمر شئ سوى الاسم فقط ووقعوا تحت تصرف مديريهم الذى أصبح هدفهم المحافظة على مناصبهم ومراكزهم وزاد تحكمهم فى مقدرات الدولة ، ومقدرات شعوبها ، فتركوا مسئولياتهم جانباً ، ومنها مواجهة ما تتعرض له النقود من فساد ، فزادت الحال سوءاً ، والمشكلة تعقيداً .

وجاء العهد المملوكى المجرى ، وازداد فساد النقود المملوكية ليشمل أيضاً دنانير الدولة ودرامها ، وأهم من ذلك أن الفلوس النحاسية قد بدأت بالانتشار والتمركز ، وأخذ المتعاملون فى الأسواق بمسيرة اتجاه الدولة وسياساتها بالاعتماد على الفلوس النحاسية فى مختلف معاملاتهم المالية ، وجعلها النقود الرئيسية بدلاً من الدنانير والدرهم ، وما من شك فى أن هذا الاتجاه ، وتلك السياسة

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ .

للدولة لهر فساد صريح أدى الى اختلال القاعدة النقدية للدولة وفسادها ،
وبالتالى فساد الوضع النقدى الذى تسير عليه الدولة ، وهذا فى حد ذاته ليس
بعده فساد .

على الرغم من قوة شخصية السلطان الظاهر برقوق - أول سلاطين الجراكسة
- وحسن سياسته ، وجهوده فى تدعيم قوة الدولة وتحسين أوضاعها المتدهورة ،
فإنه لا يمكن معه تفسير الاتجاه الذى سارت عليه الدولة فى عهده نحو الاعتماد
على الفلوس النحاسية وزيادة انتشارها ، الا بسوء وفساد السياسة النقدية
التي انتهجتها ^(١) ، حيث أثرت على النقود الأخرى ، وقللت من توفرها لحركة
التعامل النقدى فى الأسواق ، فعدمت الدراهم الفضية لتهددها الى أوروبا ، أو
لتصنيعها أوانى ، أو حلياً يتمنطق بها الأمراء ، ويتباهون بلبسها أو ارسالها
الى أوروبا لشراء معدن النحاس لزوم ضربه فلوساً نحاسية تزيد من سوء
الأوضاع النقدية وفسادها .

ويستمر الفساد النقدى فى ازدياد حتى بلغ قمته فى عهد السلطان الناصر
فرج بن برقوق ، وأصبح إفساد النقود تجارة رائجة له ولأمراء دولته ^(٢) الذين
يقول فيهم المقرئى ^(٣) :

(١) حدث على يد بعض رجال الدولة من أتاحت لهم الفرصة فى الوصول الى مراكز قبادية
فى الدولة ، ولكن هذا لا يعنى السلطان برقوق من المسئولية .
لمزيد من التفصيل فضلاً أنظر ص ٣١٨ وما بعدها .

(٢) عرضت أمثلة لهذا الفساد وبعض نصوص تاريخية له فى الفصل الثالث ص ٢٨٤ وما
بعدها .

(٣) السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ، وقد سبق ايراد هذا النص لضرورته فى المناسبتين
فضلاً أنظر أيضاً ، ج ٤ ، ص ٢٨ - ٢٩ .

«وطرق ديار مصر الغلاء من سنة ست وثمانمائة ، فبذل أمراء دولته ومدبروها جهودهم فى ارتفاع الأسعار بخزنهم الغلال ، وبيعها السعر الكبير ، ثم زيادة أجرة أطيان أراضى مصر حتى عظمت كلفة ما تخرجه الأرض ، وأفسدوا مع ذلك النقود بإبطال السكة الاسلامية من الذهب ، والمعاملة بالدنانير المشخصة التى هى من ضرب النصارى ، ورفعوا سعر الذهب حتى بلغ مائتين وأربعين لكل مثقال بعد ما كان بعشرين درهماً .

ويستمر فى حديثه عن تدهور أوضاع الدولة الى أن قال :

«لا جرم أن خرب اقليم مصر ، وزالت نعم أهله ، وقلت أموالهم ، وصار الغلاء بينهم كأنه طبيعي لا يرجى زواله» .

وبعد أن ولى المؤيد شيخ أمر الدولة ركز اهتمامه وسياسته النقدية على مواجهة ما تعانيه أوضاع الدولة النقدية من فساد وتدهور ، حتى أنه ترك المجال دون تدخل للعملات الذهبية الايطالية لتنافس الدنانير المملوكية ، وتتقدم عليها ، فبدأ أولى خطواته الإصلاحية بتعديل القاعدة النقدية للدولة ^(١) .

وذكر المقرئى ^(٢) أن فى إعادة تطبيق القاعدة النقدية الصحيحة فى الدولة ست فضائل هى :

الأولى : موافقة سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى فريضة الزكاة لأنه قال : إنما فرضها فى الفضة الخالصة لا المغشوشة .

(١) سبق مناقشة ذلك من خلال الحديث عن القبة النقدية . ص ٥٨٧ وما بعدها . فضلاً
أنظر الملحق رقم (٥) .

(٢) النقود . ص ٦٤ .

الثانية : اتباع سبيل المؤمنين ، وذلك أنه اقتدى فى عملها خالصة بالخلفاء الراشدين .

الثالثة : أنه لم يتبع سنة المفسدين الذين نهى الله عن اتباعهم ، وبيان ذلك أن الدراهم لم تغش الا عند تغلب المارقين الذين اتبعوا قوماً ضلوا .

الرابعة أنه نكب عن الشره فى الدنيا ، وذلك أن الدراهم لم تغش للرغبة فى الازدياد منها .

الخامسة : أنه أزال الغش عملاً بقوله - صلى الله عليه وسلم - « من غشنا فليس منا » .

السادسة : أنه فعل ما فيه نصح لله ولرسوله ، وقد علم قوله - صلى الله عليه وسلم - الدين النصيحة » .

كما قام المؤيد شيخ بإلغاء التعامل بالفلوس النحاسية التى فسدت ، وأمر بتحويلها الى دار الضرب لاعادة سكها فلوساً نحاسية خالية من الغش ^(١) ، وتشدد السلطان فى تنفيذ هذه الخطوة ، وخطوته السابقة مع الصيارفة والتجار وأصحاب الأموال ، وعدم مخالفتهم أوامر الدولة بهذا الخصوص ^(٢) .

وإن نجح تطبيق تلك السياسة النقدية الى حد ما فى أثناء فترة حكم المؤيد شيخ ، فإنها لم تنجح بعد وفاته لعدم استمرارها ، فعادت القاعدة النقدية للدولة الى سلبيتها التى تمثلها الفلوس النحاسية ، وتراجعت النقود الذهبية والفضية الى مركز متأخر ، يقول المقرئى ^(٣) عن ذلك :

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٤٩ .

(٢) نفسه ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٦ .

(٣) نفسه ، ص ٦٢٩ - ٦٣٠ .

« ثم لما ضرب الملك المؤيد شيخ الدراهم المؤيدية رسم أن تنسب قيم الأعمال ، وأثمان المبيعات إليها ، فعمل بذلك مدة أيامه حتى مات ، فعادت قيم الأعمال ، وأثمان المبيعات تنسب الى الفلوس كما كانت قبل المؤيدية » .

لم يحاول أى من سلاطين الدولة المملوكية بعد المؤيد شيخ مواجهة ما عانتها الأوضاع النقدية من فسادها وما تعرضت له النقود من غش وتزييف واكتفى عدد من السلاطين بمعاقبة من يعثر عليهم من الزغليين ، ونحوهم ممن يمتهنون إفساد النقود .

فكان للسultan الأشرف برسباي نشاط جيد فى هذا الجانب ، وإن تركزت سياسته النقدية واهتمامه نحو المنافسة النقدية التى واجهتها نقود الدولة من قبل العملات الإيطالية ، فإنه عمل على إصلاح فساد النقود المملوكية بمنع التعامل بالنقود المغشوشة ، ومعاقبة من يقوم بذلك ، وأصدر نقوداً جديدة بمواصفات جيدة لتداولها بدلاً من النقود الفاسدة ^(١) .

وكان أيضاً للأشرف إينال محاولات لإصلاح الفساد النقدى ، فعمل على مواجهة الفساد الذى استشرى فى الدراهم الفضية ، اذ جعل التعامل بها وزناً تمهيداً لمنع التعامل بها ، وإصدر دراهم جديدة ، بمجرد نزولها فى الأسواق منع التعامل بالدراهم المغشوشة ، واتخذ موقفاً أكثر شدة مع الزغليين ، ومن يعملون على غش النقود وتزييفها ، وقبض على عدد منهم ، وعوقب بعضهم بقطع أيديهم ^(٢) .

(١) ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٣٢٦ ، الأسدى ، التيسير والاعتبار ، ص ١٢٨ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٣ ، ص ١١٦ .

(٢) ابن تغرى بردى ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٢٩١ - ٣١٢ ، النجوم ، ج ١٦ ، ص ١٠٢ ، ص ١١٥ ، السخاوى ، الذيل على رفع الأصر ، ص ١٦٦ ، ابن ابماس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ .

كما كان للسلطان الأشرف قايتباى موقفه الحازم مع الزغلية ، ومفسدى نقود الدولة ، فأصدر أوامره بقطع يد من يقبض عليه منهم ، وإن كان الفساد كبيراً فعقوبته القتل ، فوق العجب فى قلوبهم ، ولم يتمكنوا مع تلك السياسة المتشددة من تنفيذ مخططاتهم وأهدافهم ، فخفت بشكل ملحوظ أزمة غش النقود المملوكية وتزييفها ^(١) ، وصلح الوضع النقدى للدولة الى حين .

وأخيراً السلطان الأشرف قانصوه الغورى ، فبرغم سياسته النقدية السيئة جداً ، فإنه انتهج موقفاً متشدداً مع الزغليين ، فقبض على عدد منهم ، ورسم بقطع أيديهم ، كما أمر بشنق عدد منهم كانوا يعملون فى الغش فى النقود ، وقام أيضاً بمعاينة أحدهم حتى الموت بسبب عمله دراهم مغشوش ، وتشدد مع الصيارفة فى أسعار تبادل النقود ، وهددهم بالعقوبة إن هم تلاعبوا بالقيم النقدية ، ولكن ما يفيد فى هذا الموقف ، وذلك التشدد ، والفساد الواقع من الدولة أكثر وأعظم ، فقد عرفت نقود السلطان قانصوه الغورى بأنها من أسوأ النقود المملوكية ، وأن نسبة الفساد والغش فيها لا تسمح بتداولها ^(٢) ، وقد سبق أن بينت بعض معلومات عن مسئولية الغورى فى فساد النظام النقدى المملوكى ، وما عانتته النقود المملوكية فى عهده من نقص فى أوزانها ، وعدم ضبط لعيارها ، والتلاعب بأسعارها .

وإذا كان هؤلاء السلاطين قد اتخذوا مواقف جيدة لمواجهة فساد النقود المملوكية ، فإن معظم سلاطين المماليك ، لم يكن لهم أى جهد ، أو نشاط فى

(١) ابن ايماس ، بدائع ، ج ٣ ، ص ٢١١ ، ص ٣١٨ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، مج ٣

، ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٢) ابن ايماس ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٨٨ ، ص ١٢٣ ، ص ١٦٣ .

وقف ذلك الفساد والعمل على مقاومته والقضاء عليه ، وهذا ما زاد فى المشكلة ، وجعل حلها ومحاولة علاجها تبدو صعبة لكل سلطان يأتى الى حكم الدولة ، فازدادت الأزمة تعقيداً ، والظاهرة انتشاراً واتساعاً بشكل فاق مقدرة حكام المناسبة العصر على علاجها ، أو إيجاد الحلول المناسب لها .

٤ - تأثيرات الفساد النقدي على أوضاع الدولة

ان الحياة الاجتماعية لأى مجتمع كان ما هى الا انعكاس لأوضاعه الاقتصادية والسياسية اذ أنها من أكثر الجهات تأثيراً بحالة الاستقرار السياسى ، والازدهار الاقتصادى وعكسها ، وهكذا كانت حالة المجتمع فى العصر المملوكى الذى تأثر تأثيراً مباشراً وكبيراً بالحالتين الاقتصادية والسياسية للدولة ، وما الفساد النقدي - الذى هو محور حديثنا - الا جانب من جوانب الحالة الاقتصادية لدولة المماليك ، ومن المؤكد أن يكون له تأثيرات على مختلف نواحي الحياة فيها ، وكانت بعض تلك التأثيرات ذات نتائج فورية على المجتمع بفئاته المختلفة ، وبعضها كانت بعيدة المدى أصابت البنية الأساسية للدولة وأثرت فى تماسكها وصلابتها مما عجل فى انهيارها وسقوطها .

لقد سبق إيضاح بعض هذه التأثيرات عند الحديث عن القوة الشرائية للنقود المملوكية ، ولاحظنا كيف كان تأثيرا الاضطراب النقدي ، وعدم ثبات القيم النقدية فى ارتفاع الأسعار ، حتى وصلت فى بعض الأحيان الى مستويات عالية ، ومن جراء ذلك عانت الدولة المملوكية لفترات طويلة خصوصاً فى عهدها الجركسى مما يعرف اليوم بمشكلة التضخم^(١) ، ويعطينا المقرئى^(٢) صورة عن

(١) فضلاً أنظر ص ٣٧٧ ، هامش رقم (١) .

(٢) السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٧ - ٢٨ .

هذه الظاهرة فيقول :

« وارتفعت أسعار جميع المبيعات حتى بلغت أضعاف قيمتها المعتادة بالفضة ، فصار من معلومه مثلاً مائة درهم فى الشهر - وكان قبل هذه الحوادث والمحن يأخذها فضة عنها خمسة مثاقيل ذهباً - فإنه الآن يأخذ عن المائة سبعة عشر رطلاً وثلاثى رطل من الفلوس ، يقال لها مائة درهم ، ولا تبلغ ديناراً واحداً ، فيشتري بهذه المائة ما كان قبل هذا يشتريه بأقل من عشرين بكثير ، فإن كل سلعة كانت تباع بدينار لا تباع الآن الا بدينار وأكثر من دينار » .

وفى موضع آخر ^(١) يوضح المقرئى الصورة أكثر - من خلال حديثه عن فئات المجتمع فى العصر المملوكى - حيث يقول :

« فأما القسم الأول وهم إهل الدولة ، فحالهم فى هذه المحن على ما يبدو لهم ، ولمن لا تأمل عنده ولا معرفة بأحوال الوجود له أن الأموال كثرت بأيديهم بالنسبة لما كانت عليه قبل المحن باعتبار ما يتحصل لهم من خراج الأراضى ، فإن الأرض التى كانت مبلغ خراجها من قبل هذه الحوادث مثلاً عشرين ألف درهم ، صار خراجها مائة ألف درهم ، وهذا الظن ليس بصحيح ، بل قلت أموالهم الى ما كانت عليه أموال أمثالهم من قبل وبيان ذلك :

أن العشرين ألف درهم فيما سلف كان مالكمها ينفق منها كيفما أحب واختار ، ويدخر منها بعد ذلك ما شاء الله ، لأنها كانت دراهم ، وهى قيمة ألف مثقال من الذهب ، أو قريب منها ، والآن إنما يأتية بدل تلك المائة ألف درهم ، فلوس هى قيمة ستمائة وستة وستين مثقالاً من الذهب ، ينفق ذلك فيما يحتاج

اليه فى اليوم من لحم وخضر وتوابل وزيت ونحوه ، وفيما لا بد له من كسوته وكسوة عياله ، وما تدعو اليه الحاجة من خيل وسلاح وغيره مما كان يشتريه قبل هذه المحن بعشرة آلاف من الفضة ونحوها » .

كان ذلك التضخم نتيجة مباشرة لما كانت تعانيه الدولة من فساد فى نظامها النقدى ، وعكسها للقاعدة النقدية الصحيحة فى ذلك النظام ، وما كانت عليه أسعار التبادل من ارتفاع مصطنع ^(١) .

ويوضح الأسدى صورة أخرى لمؤثرات الفساد النقدى فى الدولة فيقول ^(٢) :

« وربما بلغ المسامع الكريمة والشريفة ما وقع من الضجيج فى كثير من الأوقات بسبب الصيارف ، وما يصرف من الجوامك الناقصة الأوزان ، وما فيها من الزيوف والغش والخسران ، ويوجب هذا جميعه كون الفضة على الترتيب المجهول ، فلو ارتفعت العلة ارتفع المعلول ، ولو أنها معلومة العدد والأوزان لزال الضرر وبطل الخسران » .

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٧ ، ٣١ ، ص ٢٢٦ ، المخطط ، ج ٢ ، ص ٤١٩ .

ابن أبياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٥٧ - ٧٥٩ .

بالإضافة الى الفساد النقدى كانت هناك عوامل أخر زادت من مشكلة التضخم التى عانت منها الدولة أهمها :

- ١ - الإسراف غير المحدود من قبل الدولة على مجالات لا فائدة منها سوى الرفاهية والبهلخ .
 - ٢ - افتقار خزينة الدولة لاحتياجاتها النقدية خصوصاً الذهب .
 - ٣ - عدم التوازن بين نسبة واردات الدولة مع صادرات ، وتحول الميزان التجارى لصالح دول أخرى .
 - ٤ - عدم توافر نواح إنتاجية فى الدولة فى المجالات الزراعية والصناعية لتعرض جوانب النقص فى إيراداتها المالية .
- (٢) التيسير والاعتبار ، ص ١٢٣ .

ويستمر الأسدى موضحاً تلك التأثيرات :

«وأن لا يعتمدوا ما نهى الله عنه عن مخالفة الحق ، وأن لا يخسروا الميزان ، بل تزول الخطايا التي من موجباتها تسلط الغلاء والجلاء ، والتشرد عن الأوطان ، وخراب البلدان ، وربما استمر الغلاء وعظم البلاء ، وطمع الأعداء فى كل قطر ومكان ، وربما آل الحال الى سفك الدماء وكثرة الخصام ، وعدم قبول الحق» .

لقد تضررت مصالح الناس كثيراً بسبب ما تعرضت له النقود الملكية من فساد ، وكثيراً ما تظالعنا المصادر الملكية بصور متعددة عن نتائج قريبة المدى لذلك الفساد أهمها توقف الأحوال وتعطيل المصالح ، واغلاق الحوانيت والمتاجر ، وانعدام وصول البضائع الى الأسواق ، فيعم الغلاء وارتفاع الأسعار ، فيشمل جميع الأصناف ، وفى مقدمتها السلع الاستهلاكية أو الضرورية ^(١) ، وتزداد الحال ضرراً وخسارة للمستهلكين اذا كانت السلع الضرورية تباع بسعرين بدلاً من السعر الواحد ^(٢) ، كما خسر الناس أيضاً معظم أموالهم نتيجة عدم استقرار أسعار تبادل النقود ، وعدم ثباتها ^(٣) ، ويزداد الضرر الواقع على

(١) فضلاً أنظر : المقرئى ، السلوك . ج ٢ . صفحات ١٧ ، ٢٠٥ ، ٢٣٣ ، ٢٥٣ .
٦٦٩ ، ٧١٩ ، ٧٧١ ، ج ٣ . صفحات ٤٥٣ ، ١٠٧٦ ، ١١٥٥ ، ج ٤ . ص ٤٣٩ .
٤٤١ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٢١٠ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ .
ص ٦٣٨ ، ٧٠٥ ، ٧١٥ ، ج ٣ ، ص ١٢١ ، ٢٢٢ ، حامد زيان ، الأزمات الاقتصادية ، ص ١٥ ، ص ٣١ .

(٢) ابن اياس . نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٩٥ ، ج ٤ ، ص ٢٠ ، ٢٥١ ، ٣٢٦ ، ٣٣٨ ، ج ٥ ، ص ٢٥٢ .

(٣) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٣٤ ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ ، ج ٣ ، ص ١١٢٥ ، ج ٤ ، ص ٤٣٧ ، ٤٥٥ ، ٦٠٣ ، ٧١٢ ، ٨٥١ ، ٨٥٣ ، إغاثة ، ص ٧١ - ٧٢ ، ابن تفرى بردى ، المصدر السابق ، ج ١٦ ، ص ١٠٤ ، ص ١١٥ ، ابن اياس ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ .

الناس اذا أقدمت الدولة على اتباع سياسة متشددة ، وصولاً لأهدافها ، وتحقيق مصالح رجالاتها. ^(١) ، فيكثر الظلم على الرعية ، ويقع الأذى عليهم من طوائف المالك الذين يتضررون كثيراً من نقص أوزان النقود ، أو التلاعب بأسعار تبادلها عند استلامهم لنفقاتهم ، فيعم الفساد والخراب ، وتنتشر فتنهم فى أرجاء الدولة مخلفين اضطراباً ، وعدم استقرار فى النواحي السياسية والاجتماعية ^(٢) .

ومن السلبات التى خلفها الفساد النقدى فى الدولة خلال العهد المملوكى الجركسى تأثر العلاقات الاقتصادية ، والنشاط التجارى المتبادل بين دولة المالك والقوى التجارية الأخرى ، وفى مقدمتها الجمهوريات الإيطالية ، والدولة العثمانية ، فقد أضعف فساد النقود المملوكية حماس طوائف التجار فى استخدام تلك النقود ، فتراجع مركز النقود المملوكية الإسلامية لأول مرة ، وعدمت الثقة بها ، فانصرف اهتمام سلاطين الدولة الى التجارة ، وسيطروا على ما بقى لهم من نشاط تجارى مع القوى الأخرى ، وزاحموا التجار فى مهنتهم ، واجتهدوا فى سياستهم الاقتصادية ، وتنظيماتهم التجارية بما يحقق لهم الاحتكار التجارى ، وتحديد أسعار المبيعات حسب أهوائهم ، وفرض الضرائب

(١) المقرئى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٩٣ ، ص ٤٤٤ ، ج ٤ ، ص ٣٨٥ ، ٣٩٣ ، ٧٠٥ ،

السخاوى ، الذيل التام ، ص ٣٥٢ ، ابن اياس ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

(٢) لمزيد من التفصيل عن هذه الظروف فضلاً أنظر :

ابن حجر ، إنباء ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، ج ٢ ، ص ١٤٦ - ١٤٧ ، ص ٢٣٤ ، ص ٢٥٨ ،

ج ٣ ، ص ٤١٨ ، ص ٤٨٠ ، ص ٥٣٦ ، ابن تغرى بردى ، حوادث ، ج ١ ، ص ٤ - ٥ ،

٢٨ ، ١١٣ ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ ، ٢٤٧ ، ٢٧١ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٦ ، ٣٣٤ -

٣٣٥ ، ج ٣ ، ص ١٤٧ ، ص ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٧٨ ، ٢٢٩ ، ٤٠١ ، السخاوى ، نفسه

، ص ٧٦ ، ٨١ ، ٨٨ ، ١١٠ ، ١١٦ .

والرسوم التى تقدمهم بمزيد من الأموال فسامت بهذا علاقات الدولة الاقتصادية مع الدول الأخرى ، ووصلت الى البلاد عدة سفارات وعدة رسائل تنكر على الدولة فسادها النقدي ، وسوء سياستها الاقتصادية ، ومع استمرار سلاطين المماليك فى سياستهم الاقتصادية ، ونظهم التجارية ، وفسادهم النقدي ضعفت حركة التبادل النقدي ، والتجارة الخارجية للدولة .

وعن هذه الجزئية يوضح ابن اياس موقف الدول الأخرى من فساد النقود المملوكية ، وتأثيره على النشاط التجارى فى رسالة بعثها السلطان العثمانى سليم الأول الى السلطان المملوكى قانصوه الغورى ، فيقول ^(١) :

«وأما التجار الذين يجلبون المماليك الجراكسة ، فإنى ما منعهم إنما هم تضرروا من معاملتكم فى الذهب والفضة ، فامتنعوا من جلب المماليك اليكم» .

ولا نبالغ فى القول أن تلك الظروف - من فساد نقدي ، وسوء فى السياسة الاقتصادية - مسئولة بصفة مباشرة عن فقدان الدولة ، ومصر بصفة خاصة لمركزها التجارى العظيم الذى كانت تتمتع به فى فترة قريبة سابقة ، قبل تحول طرق التجارة الدولية التى أعقبت ما يسمى بحركة الكشوف الجغرافية ^(٢) .

(١) بدائع . ج ٥ . ص ٤٥

(٢) لمزيد من التفاصيل عن السياسة الاقتصادية للدولة ، وتحول طرق التجارة الدولية ، فضلاً أنظر :

عيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب .
محمد أمين صالح ، التنظيمات الحكومية لتجارة مصر فى عصر المماليك الجراكسة .
فاروق عثمان أباطة ، أثر تحول التجارة العالمية الى رأس الرجا . الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، دار المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٨٦ م .
توفيق اسكندر ، نظام المفايضة فى تجارة مصر الخارجية فى العهد الوسيط .

لقد واجهت الدولة كثيراً من الأزمات النقدية بسبب ما تعرضت له عملاتها من فساد ، فغالباً ما ترتب على ذلك ارتفاع أسعار التبادل ، كما أدى الى نقص أعداد فئة من العملات ^(١) ، فارتفعت قيمتها النقدية ، وازداد فيها الفساد للحصول على عدد أكبر منها ، فازدادت الأزمة تعقيداً ، فعم الضرر ، وتأثر الناس ، واتجه أصحاب الأموال في الدولة الى اخفائها (اكتنازها) ، أو تهريبها خارج الدولة طمعاً ببيع أكثر ^(٢) ، ومن هنا حدث كساد لاقتصاديات الدولة ، وركود في أسواقها ، وحدثت بسبب ذلك تغيرات اجتماعية عميقة أثرت تأثيراً بعيد المدى على المجتمع المملوكي بفئاته المختلفة .

لقد كان ذلك الفساد النقدي الذي تعرضت له العملات المملوكية المستول الأول عن تراجع مركزها النقدي وسيادتها ، وقد أتاح ذلك تقدم مركز نقود أجنبية واعتمادها في عمليات التداول والدفع لمختلف المعاملات التجارية ، ولا شك أن هذا يعنى اهتزاز استقلالية الدولة من الناحيتين الاقتصادية والسياسة ، وتقليص نفوذها الاقتصادي والسياسي ، وهذا بدوره من الأسباب الرئيسية التي عجلت في انهيار الدولة وسقوطها .

وأخيراً كان للفساد النقدي تأثيره على معاملات الدولة ، ونظمها المختلفة ، ففسدت كثير من المعاملات التجارية ، وفي عمليات البيع والشراء ، والعقود

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٨٥٢ . العبنى ، عقد ، ص ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ابن تغرى بردى ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٣١٠ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٢١٨ ، السخاوى ، الذيل التام ، ص ٣٥٢ وما بعدها .

(٢) المقرئى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١١٤٥ ، ج ٤ ، ص ٨٤ ، ابن ايماس ، بدائع ، ج ١ ، ص ٢ ، ص ٧٠٠ .

ونحوها ^(١) ، وكثر التعامل بالربا الذى انتشر فى الدولة ، وكثر المتعاملون فيه بعد أن خسروا جزء من أموالهم بسبب الفساد النقدي ^(٢) ، وختاماً ..

« فلا جرم أن خرب اقليم مصر ، وزالت نعم أهله ، وقلت أموالهم ، وصار الغلاء بينهم كأنه طبيعى لا يرجى زواله ^(٣) » .

تلك كانت أهم مؤثرات الفساد النقدي فى العصر المملوكى ، وهى كما رأينا تمثل جزءاً من التدهور العام الحاصل فى أوضاع الدولة ، وبالذات فى أحوالها الاقتصادية ، وكما هو معروف فإن الدولة المملوكية قد عانت من سلبيات كثيرة ، أوجدت خللاً واضحاً فى تلك الأوضاع ، وإذا كنت قد عرضت لسلبيات الفساد النقدي ، فإنها لا تستكمل أولاً يمكن اتيفاؤها بمعزل عن السلبيات الأخرى فى الدولة ، ولأن الحديث عن جميع ذلك سيخرجنا عن موضوعنا الذى نحن بصدده ، لذا حاولت توضيح تلك التأثيرات بإيجاز دون الدخول فى تفاصيل تتطلب دراسة السلبيات جميعها كوحدة مترابطة .

٥ - موقف العامة من تلك التأثيرات

العامة هم غالبية أى مجتمع ، ويمثلون فيه النسبة الكبيرة من سكانه ، وهم كذلك فى المجتمع المملوكى ، حيث ينتمون الى خمس فئات من فئات المجتمع ، أو طبقاته البالغ مجموعها سبع فئات ، حسب التقسيم الذى أورده المقرئزى ^(٤)

(١) ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ٤١٩ ، ابن الحاج ، المدخل ، ج ٤ ، ص ٦٦ ، ص ٢٠٠

(٢) ابن حجر ، نفسه ، ص ٢٧٢ .

(٣) المقرئزى ، إغائة ، ص ٦٥ .

(٤) إغائة ، ص ٧٢ ، ٧٥ .

والفتتان الأولى تشمل أهل الدولة من سلاطين وأمراء وأصحاب المناصب والثانية وتشكل مياسير التجار وأولو النعمة والترف .

لفئات المجتمع فى الدولة الملوكية ، وتلك الفئات الخمس هى :

١ - الباعة ، ومتوسط الحال من التجار ، ويلحق بهم أصحاب المعاش (الباعة المتجولون) .

٢ - أهل الفلاحة ، وهم سكان القرى والأرياف .

٣ - الفقراء ، وهم أكثر الفقهاء ، وطلاب العلم ، ومن يلحق بهم .

٤ - أرباب الصنائع ، والأجراء ، وأصحاب المهن .

٥ - أهل الخصاصة والمسكنة ، وهم السزّال الذين يسألون الناس ، ويعيشون منهم .

تلك الفئات هى التى وقع عليها عبء التأثيرات التى نجمت عن الفساد النقدى فى الدولة ، أو أى أزمة تتعرض لها البلاد سياسية كانت أم اقتصادية أم طبيعية ، فهم الأكثر تضرراً من غيرهم ، وهم الذين تحملوا وقاسوا وعانوا من الاضطرابات النقدية المتكررة بشتى صورها وأشكالها ، وما نتج عنها من سلبيات أهمها الغلاد وارتفاع الأسعار الذى كان أكثر تأثيرات الفساد النقدى اضراً بالعامّة ، فيقعون فى كثير من الأحيان ضحايا الجوع والمرض والتأجيل عنه .

إن موقف العامة فى مواجهة كثير من مظاهر الفساد النقدية ، وتأثيراته المختلفة اتسم فى كثير من الأحيان بالمعارضة وعدم الرضا ، وهو موقف طبيعى لمثل تلك الظروف ، ولكن غير الطبيعى ، هو الشكل الذى تتم به تلك المعارضة ^(١) ، فقد عبر عامة الناس عن تضررهم وسخطهم بجرأة علنية على

(١) أعنى أن العامة لم يخشوا فى معظم الأحيان تسلط طوائف المالك وشدتهم وقسوتهم =

هيئة مظاهرة ، أو مظاهرات يقومون بها في الأسواق ^(١) ، أو عند سكن السلطان ، أو عند قصور كبار الأمراء أو أصحاب المناصب المسئولين عن الجهات ذات العلاقة بتلك الظروف كالمحتسبين ، ومفتشى الأسواق والولاة والقائمين على مخازن الغلال حتى أنهم في بعض الأحيان كانوا يقومون بالاعتداء على هؤلاء ، إما بالضرب أو الرجم بالحجارة أو الشتم ، ونحو ذلك من مظاهر الغضب ^(٢) .

لقد عبر العامة بذلك الأسلوب عما في نفوسهم بكل جرأة وعلانية دون خوف ، إذ يرون أن هذا الاعلان البسيط مطلباً شعبياً يسعون من خلاله الى إبعاد ما يقع عليهم من ضرر ، أو ما بصيبيهم من خسارة لا يستطيعون تحملها بسبب ما تتعرض له نقود الدولة من نقص في أوزانها وعيارها ، أو تلاعب في أسعار تبادلها ، أو ما يصيبها من غش وتزييف ، كما اتخذت العامة مقاطعة أوامر الدولة ورفضها ، وعدم تنفيذها أسلوباً في مواجهتهم الفساد النقدي ، ومهما تكررت محاولات الدولة لفرض تعليماتها ، فإن العامة يستمرون في موقفهم ، فإما أن ترضخ لمطالبهم ، وإما أن تستعمل الشدة والعنف لتنفيذ تعليماتها ^(٣) .

= التي يسلكونها مع العامة ، وما يقع عليهم من عقوبات واضطهادات من ممالك السلطان أو غيرهم من ممالك كبار الأمراء ، وهو أسلوب عنيف جداً ، واجهت به الدولة معارضة العامة ، واستخدمه بعض السلاطين والأمراء لحماية مصالحهم ومكاسبهم ، دون شفقة أو رحمة ، ودون مراعاة أو اهتمام .

(١) النويري ، نهاية . ج ٣٠ . ورقة ٤٣٤ . ج ٣١ . ورقة ٢ . ورقة ١٥ ، المقرئزي ، السلوك . ج ٢ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، ص ٢٣٣ ، ابن حجر ، إنباء . ج ٧ ، ص ١٥٦ ، ابن اياس ، بذائع . ج ٤ ، ص ٣٢٦ .

(٢) المقرئزي ، نفسه ، ص ٧٥٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم . ج ١٦ ، ص ١٠٢ ، الصيرفي ، نزهة . ج ٢ ، ص ٣٥٦ ، ابن اياس ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ .

(٣) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ١٢٥ ، المقرئزي ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٣٤ ، ابن حجر ، المصدر السابق ، ابن اياس ، نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٩٧ .

وفى أسلوب آخر اتخذ أصحاب الحوانيت والباعة إغلاق حوانيتهم ومتاجرهم ، وكذلك أصحاب المهن والحرف قاموا بإغلاق محلاتهم ، وأماكن مزاولة المهنة ^(١) تعبيراً عن موقفهم الرافض لأى ضرر يقع عليهم من جراء فساد النقود ، وتضامناً مع معارضة العامة لذلك الفساد ، ودفاعاً عن مصالح الجميع .

كذلك نهج هؤلاء أسلوباً يدل على معارضتهم ، وعدم قبولهم لسياسة الدولة النقدية تمثل بعدم تعاملهم بالنقود التى أصابها الفساد ، وكثيراً ما رفض هؤلاء قبول تلك النقود لفسادها ، وحرصاً منهم على تجنب الخسارة التى تقع عليهم عند قبولها ^(٢) .

كان رد فعل الدولة على ذلك الموقف ، أو تلك المواقف الراضية للفساد سلبياً بشكله العام ، حيث لم يجد العام أى قبول أو موافقة من الدولة على موقفهم باستثناء بعض المواقف الإيجابية التى لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، وانحصرت فى فترتى حكم السلطانين الناصر محمد والأشرف إينال ^(٣) ، فالناصر محمد قد أبدى العامة فى معارضتهم للفساد النقدى الذى تعرضت له الفلوس النحاسية ، وأجرى عليها عدة محاولات ترمى الى القضاء على ما

(١) النورى ، نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ورقة ١٥ ، ابن بهادر ، فتوح النصر ، ورقة ٢٤٧ - ٢٤٨ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ٤٦١ ، ٤٨٧ ، ابن تغرى ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٣ .

(٢) النورى ، نفسه ، ورقة ٢ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ ، ص ١٠٩٨ ، ابن تغرى ، نفسه ، ص ٢٩٣ .

(٣) لا يدخل فى ذلك ما قام به بعض السلاطين من إصلاحات نقدية إذ أن ذلك يعود لجهود السلطان ، وحرصه على إصلاح الوضع النقدى ، ولم تكن رد فعل على معارضة العامة .

أصابها من فساد ، كما أنه اتخذ خطوات أخرى فى موافقته للعامة بعزله بعض المسؤولين فى الدولة أو معاقبتهم لسليبتهم فى مواجهة فساد الفلوس ، وما صاحبها من ارتفاع فى الأسعار ^(١) .

أما الأشرف إينال ، فقد وافق العامة فى معارضتهم للأزمة النقدية التى صاحبت فساد الدراهم الفضية سنتى ٨٦١ - ٨٦٢ هـ / ١٤٥٦ - ١٤٥٨ م ، حيث أجرى إصلاحاً عاجلاً واجه به فساد تلك الدراهم بإصداره دراهم فضية جديدة ، وعدم منع التعامل بالدراهم المغشوشة بل سمح بالتعامل بها وزناً ، كى لا تقع أى خسارة على العامة عند منع التعامل بها نهائياً ^(٢) .

أما بقية السلاطين ممن شهدت فترات حكمهم فساداً نقدياً ، فلم يرد ما يفيد موافقتهم ، أو تأييدهم لتوجهات العامة ، ومواقفهم تجاه ظاهرة الفساد النقدي التى تفشت فى الدولة ، وإن كانت تلك المواقف من السلاطين سلبية تكتفى أحياناً بالصمت ^(٣) ، وعدم معالجة الضرر والواقع على العامة ، فإنها فى أحيان أخرى أكثر سلبية إذ تأخذ طابع العنف والتصدى لمظاهرات العامة ، ومعارضاتهم

(١) المؤلف المجهول ، تاريخ سلاطين المالك ، ص ١٣٢ ، اليوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٢٨٨ ، المقرئى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٧ ، ص ٢٠٥ ، ص ٢٣٣ ، ص ٢٥٩ ، ص ٢٧٨ ، ص ٣٢٠ ، ص ٤٤٤ ، ص ٤٩٤ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ ، ابن بهادر ، المصدر السابق ، ورقة ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٢) ابن تغرى بردى ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ ، ص ٣١٢ ، النجوم ، ج ١٦ ، ص ١٠٢ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٥٧ ، ص ١١٠٤ ، ص ١٠٩١ ، ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ، ج ٣ ، ص ٢٥٦ ، الصيرفى ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٢٦١ ، ابن ايماس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٩٨ ، ص ٦٥٩ ، ص ٦٦٧ .

بكل قسوة وشدة ^(١) . وبهذا لم تحقق مواقف العامة المتكررة ضد ظاهرة الفساد النقدي أى نتائج إيجابية ، فإضافة الى كونها ضد الفساد النقدي ، فهي فى الأصل ضد ارتفاع الأسعار الذى يشترك مع الفساد النقدي فى أحداثه عدة عوامل أخرى ، وهنا يكون هدف العامة خفض الأسعار دون النظر الى معالجة الأسباب المؤدية اليه ، كما أن ما قام به العامة من مظاهرات ، واحتجاجات قد اقتدت الى التنظيم الذى يساعد فى تحقيق أهدافها ، فما صاحبها من عشوائية وتخريب ونحو ذلك ، قضى على تلك الأهداف بل قضى على المعارضات وهى فى مهدها ، كذلك لم يكن هناك ممثلون يتولون التعبير عن وجهة نظر العامة ومواقفهم ، وإيصالها الى الدولة ، كذلك لم يكن فى الدولة جهة مختصة مهمتها سماع شكاوى العامة ، وآرائهم ومواقفهم ، وبدورها تعمل على حلها ومعالجتها ، أو على الأقل إيصالها الى الجهات العليا .

جميع تلك الظروف قد أضعفت موقف العامة تجاه ما تعرض له الفساد النقدي - وغيره من جهات الدولة الأخرى - من فساد وتدهور ، وجعلت صوتهم ضعيفاً غير مسموع ، فتحملوا العنت والظلم والمشقة والخسارة بسبب ذلك الفساد ، دون أن يظفروا بنظرة اهتمام أو عناية من قبل الدولة لمطلبهم وظروفهم ، هذا ما أوجد فجوة عميقة بين الجانبين زادت من تدهور الأحوال فى الدولة .

(١) للقرينى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٩٣ ، ج ٤ ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ص ٤٣٩ ، ابن حجر ، نفسه ، ص ١٥٧ ، السخاوى ، النهر المسبوك ، ص ٣٨٢ ، ابن ايماس ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٩٧ .

٦ - مواقف العلماء فى مواجهة الفساد النقدي وتأثيراته

كان للعلماء مركزهم القيادى فى المجتمع ، فكانت اهميتهم لدى الدولة قد رفعت من مكانتهم ، ونشاطهم من خلال مشاركتهم فى المجالات الدينية والسياسية والاجتماعية ، لذا يجب ان تكون نظرتهم الى اوضاع الدولة نظرة اهتمام وعناية بما يخدم الصالح العام ، وضرورة تسخير تلك الأوضاع فيما يحقق النفع والفائدة للدولة ومواطنيها ، ومواجهة ما قد يزدى الى تعطيل ذلك من فساد ونحور .

كان العلماء - على مختلف علومهم وفنونهم - يكونون مجموعة تنتمى الى المجتمع بجميع مستوياته الاجتماعية ، وفى الوقت نفسه كان معظمهم يعملون فى الدولة بمختلف جهاتها ودواوينها المتصلة منها بشئون الناس وغير المتصلة ، فمن خلال هذا الارتباط بالمجتمع الدولة ، يمكن استخلاص مواقفهم فى مواجهة الفساد النقدي فى الدولة كنموذج لجهة من الجهات التى أصابها الفساد والتلاعب ، ولكن لمعرفة ذلك الموقف ينبغى التفريق بين واقع العلماء أو الفقهاء فى العهد المملوكى البحرى ، وواقعهم فى العهد المملوكى الجركسى ، لأن ذلك الواقع اختلف اختلافاً كبيراً فى العهدين من ناحية اتجاهات العلماء وميولهم ، وهل كانت الى المجتمع وعامة الناس أقرب ، أم كانت الى الدولة (سلطينها وأمرأها) ؟ ومن ناحية مدى انتشار ، أو استفحال الفساد النقدي .

فى العهد المملوكى البحرى - سواء عمل العلماء فى نطاق الدولة أو العكس - كان العلماء من فقهاء ومحدثين وقضاة وشيوخ أكثر ميلاً واتجهاً الى ما فيه مصلحة الأمة ، فنجد معظمهم قد اتخذوا مواقف تتسم بالشدة والحزم مع السلاطين والأمراء تجاه أى فساد يقع فى الدولة ، أو ظلم يقع على الرعية ،

وللأسف لم تذكر المصادر التاريخية أمثلة تتعلق بموقفهم تجاه فساد نقدى حدث فى الدولة ، وقد يكون لعدم انتشار ظاهرة الفساد النقدى علاقة فى ذلك ، ولكن تلك المصادر قد أوردت أمثلة تتعلق بنواح مالية نلمس منها موقف أولئك العلماء المتشدد فى مواجهة الفساد ، أو الظلم ، أو غيرها من الأمور التى لا تقرها الشريعة الإسلامية ، وتدعو إلى محاربتها والقضاء عليها .

وإذا كان هؤلاء قد التزموا بما يجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، تطبيقهما فى المجتمع ، فإن هناك آخرين آثروا إرضاء السلاطين أو الأمراء على الرعية ومصالحها ، طمعاً فى منصب أو جاه أو ثروة ، وهؤلاء من الطبيعى أن يكون موقفهم إما الالتزام بالصمت ، وإما التملق ، أو المصانعة حفاظاً على مكاسبهم ، وتحقيقاً لأهدافهم .

إن الأمثلة كثيرة على أولئك العلماء الذين لم يخشوا فى الله لومة لائم ، ولم يخشوا غضبة سلطان أو نقمة أمير أو سطوة صاحب منصب ، ويأتى فى مقدمتهم عالمان فاضلان جليلان كان لهما موقف امتاز بالدفاع عن الحق ، وتقديم النصح لولاة الأمر ، هما شيخ الاسلام العز بن عبد السلام ^(١) ، وشيخ

(١) شيخ الاسلام عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم بن الحسن المذهب السلى الدمشقى الشافعى . ولد سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م كان فقيهاً قاضياً عالماً برع فى الفقه والحديث والتفسير والعربية والأصول والمذاهب ، أخذ عنه الكثير من العلماء والفقهاء والشيوخ ، عرف عنه شدته فى الحق لا ينظر للسلطان ولا أمير ، تصدر للإفتاء فى كثير من الأقاليم له عدة مصنفات ، توفى يوم السبت تاسع جمادى الأولى سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م .

(البونين ، ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٨٠ ، الكتبى ، لوات الوفيات ، مج ٢ ، ص ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٤ م . اليافعى ، أبو محمد عبد الله ابن أسعد . مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ج ٤ ، ص ١٥٣ . مؤسسة الأعللى ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م . ابن حبيب الحسن بن عمر ، درة الأسلاك فى دولة الأتراك ، ورقة ٢٩ - ٣٠ .

الاسلام أحمد بن تيمية (١).

أما العز بن عبد السلام ، فتذكر المصادر التاريخية (٢) ، كمشال على مواجهته الفساد ، وما قد يقع على الرعية من تعدى وظلم ، موقفه الحازم تجاه السلطان المظفر قطز ، عندما أراد فرض ضرائب مالية على الرعية لتجهيز جيش الدولة لصد المغول سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، حيث ذكر له أن عليه أولاً أن لا يبقى فى بيت المال شيئاً ، وأن يبيع أمراء الجيش وجنوده حوائصهم الذهبية ، وآلاتهم الفضية لتنفق فى تجهيز الجيش ، وإن احتاجت الدولة بعد ذلك لمزيد من الأموال ، فلا بأس عندئذ فى أخذه من العامة على هيئة ضرائب أو رسوم مالية

(١) شيخ الاسلام تقى الدين أبو العباس أحمد بن شهاب الدين عبد الحلیم بن مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم الحرانى ، ولد بمران سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م ، ونشأ فى أسرة من العلماء والفقهاء ، ارحل صغيراً الى دمشق بسبب غزو المغول لبلاد الشام ، وعاش بها مبتدئاً أولى خطواته العلمية ، فدرس وتعلم وحفظ القرآن صغيراً ، واستمر ينهل من علوم الفقه والحديث والتفسير والنحو ، فبرع فيها الى الغاية ، وأفتى وهو ابن تسع عشرة سنة ، وشرع فى التأليف والجمع حتى بز أقرانه وفاقهم علماً وتالياً ، بهذا غاية الجهد لطلب العلم بعلومه وفنونيه فتشعبت دراسته حتى شملت علوم عصره .

كان فاضلاً عفيفاً متعبداً ذكياً حافظاً ورعاً ، انتقل الى جوار ربه ليلة الاثنين العشرين من شهر ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م ، بعد عمر قضاه فى الجهاد فى سبيل الله والدفاع عن الاسلام والعقيدة الاسلامية ، مخلفاً وراءه تركة علمية زادت عن خمسمائة مجلد .

(ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٣٦ ، ابن شاکر الكتبى ، فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٤٦ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، ١٧٠ ، ابن العاصد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ٨٠ ، ٨٦) .

(٢) السبكى ، معيد النعم ، ص ٥١ ، ابن بهادر ، فتوح النصر ، ورقة ٩٨ ، ابن الفرات ، تاريخه ، مج ٧ ، ص ٨٥ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٨ ، كامل مراد العز بن عبد السلام سلطان العلماء حياته وعصره ، ص ٣٣ ، ٤٦ ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤ ، دار الجيل ، دمشق .

وأوردت المصادر التاريخية أمثلة عديدة على مواقف شيخ الاسلام العز بن عبد السلام يتضح منه قوة دفاعه عن الحق ، وجهده المتميز فى مواجهة الفساد والظلم بكل جرأ وشجاعة ^(١) .

أما شيخ الاسلام بن تيمية ، فقد كان فى مقدمة من حملوا راية الإصلاح فى الدولة ، وتوجيه ولادة الأمور الى السياسة التى يجب عليهم اتباعها لتحقيق مصالح الرعية ومنع الفساد ، فقام بذلك بكل عزم وجد ، وبكل أمانة وإخلاص ، حيناً بلسانه ويده ، وحيناً بقلمه وقلمه ، فحوت مؤلفاته ومناظراته ورسائله وفتاويه جوانب إصلاحية عديدة شملت نواح عقدية ومذهبية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، ولم تأخذ فى الحق لومة لائم ، ولم يمنعه عن قول الحق ما لقيه من عداوات ومحن ، فجاهد فى الله حق جهاده حتى اذا جاء أجله ، وانتقل الى جوار ربه - رحمة الله عليه - خلف تركة ضخمة ، وعظيمة من المؤلفات بكافة العلوم وأصولها وفروعها ، وكان منها الى جانب ما تضمنته تلك المؤلفات من دعوات إصلاحية كتاباه :

- السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ^(١) .

- الحسبة فى الاسلام ^(٢) .

فكتابه الأول عن رسالة الغرض منها كما قال ابن تيمية فى مقدمة الكتاب :

«فهذه رسالة مختصرة فيها جوامع من السياسة الالهية والإنابة النبوية لا

(١) له عدة طبعات وتحقيقات منها ما حققه على سامى النشار ، وأحمد زكى عطية ، مكتبة الرياض الحديثة ، الطبعة الثانية ، الرياض ، ١٩٥١ م .

(٢) كذلك له عدة طبعات منها ما حققه سيد بن محمد بن أبى سعد ، مكتبة دار الأرقم ، الطبعة الأولى ، الكويت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

يستغنى عنها الراعى والرعية ، اقتضاها من أوجب الله نصحه من ولاية الأمور .

فحدد فى هذه رسالة ما على الراعى والرعية من واجبات وحقوق ، وتضمنت عدة فصول منها ما يتحدث عن ولاية أمور الرعية والشروط الواجب توفرها ، فيمن يلى أمراً من أمور المسلمين ، ومنها ما يتحدث فى بيت مال المسلمين ، وأنواع أمواله ووجوه صرفها ومستحقيها .

وبحق فإنها رسالة جامعة شاملة ، ودعوة صادقة لتحكيم أوامر الله ، وأحكام دينه القويم ، لإقامة الحق ونشر العدل ، والقضاء على الظلم والفساد .

أما كتابه الثانى : الحسبة فى الاسلام ، فقد رأى ابن تيمية أن جماع الدين هو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وكذلك مقصود الولايات الإسلامية (التي هى الوظائف) بمختلف فروعها ، سواء كانت ولاية مال ، أو ولاية حكم أو ولاية شرطة ، وجميع ذلك هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى هى الحسبة فى الاسلام ، والتى تجب على كل مسلم قادر ، والقدرة هى السلطان والولاية فهو وأتباعه من ذوى الولايات أقدر من غيرهم على القيام بهذه المهمة كل حسب قدرته ، واستطاعته ووظيفته ، أما ما ليس من اختصاصهم فهو مسئولية المحتسب الذى يعينه الحاكم للقيام بالمهمة .

لم يترك ابن تيمية فى هذا الكتاب صغيرة ولا كبيرة هى من واجبات المحتسب ، الا وأشار إليها ، وقد ركز حديثه على النواحي المرتبطة بالرعية ، والتى يكون ضررها عاماً شاملاً كالأمانات والبيع والعقود ، وما يرتبط بها من تطفيف وغش وتدليس ، وغير ذلك من الأمور التى يتحتم على المحتسب الانتباه إليها ومراقبتها ، لما بصاحبها من فساد لأموال الناس ، والاضرار بهم ،

وعصالحهم ومعاشهم .

كما تحدث ابن تيمية عن النقود ، وضرورة المحافظة عليها ، وحذر من تزيفها ، وإفسادها ومراقبة من يعملون على ذلك من الكيميائيين .

ولم تقتصر جهود ابن تيمية ، ودعوته الإصلاحية على هذين الكتابين ، فلا شك أنه قد ضمن كثيراً من كتبه ومؤلفاته ورسائله تلك الأهداف والتوجهات التي سعى لتحقيقها في المجتمع ليصبح مثلاً للمجتمع الإسلامي الصحيح ، ولعل فيما ذكرته إشارة إلى جهود ابن تيمية في مواجهة الفساد بمختلف صورته وأشكاله ، وهي جهود لا تحتاج منا إلى إثبات أو تدليل .

والى جانب هذين العالمين عاش في العهد المملوكي البحري مجموعة من العلماء الأجلاء كان لهم نشاط إصلاحي واسع ، ومواقف حازمة في مواجهة نواحي الفساد في الدولة ومحاربتها ، فمن هؤلاء نجم الدين أحمد الأنصارى المعروف بـ (ابن الرقعة المتوفى سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م) أحد ولاة الحسبة في الدولة ، وله عدة تصانيف في هذا الميدان من أهمها (كتاب الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان) ^(١) ، ومنهم الشيخ عز الدين عمر المقدسى المعروف بـ (ابن عوض السناسى المتوفى في الربع الأول من القرن الثامن الهجرى) صاحب كتاب (نصاب الاحتساب) ^(٢) ، ومنهم ابن الحاج محمد العبدري القيروانى ،

(١) نشر مرتين الأولى بتحقيق محمد أحمد اسماعيل الخاروف ، عن مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى ، الكتاب العاشر سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
والثانية بتحقيق عماد عبد السلام رؤوف فى مجلة المورد العددان الثالث والرابع عام ١٩٨١ م ص ٣٠٣ ، ٣١٨ .

(٢) نشر مرتين أيضاً الأولى تحقيق د. د. م. م. يوسف عز الدين ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، عام ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، والثانية بتحقيق وداسة د . مريزن سعيد عسيري ، وهى فى الأصل رسالة دكتوراه . مكتبة الطالب الجامعى ، مكة المكرمة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

(المتوفى سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م) ، وهو من المشهورين بإصلاحهم ودعوتهم إلى الخير ، ونيل الفساد ومحاربتهم له كتاب (المدخل إلى الأعمال بتحصين النيات) (١٥) ، ومنهم تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية شمس الدين محمد بن القيم الجوزية (المتوفى سنة ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م) ، والذي كان من رجال الدعوة والإصلاح في العهد المملوكي البحري ، وكان من بين جهوده وتأليفه كتاب (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) (١٦) ، وقد ضمنه توجيهات ودعوات للإصلاح في جوانب عديدة ، كان من بينها نصيحته لولاة الأمور فيما يجب عليهم اتباعه تجاه النقود والنظام النقدي ، فيذكر أنه (١٧) على السلطان أن يمنع فساد النقود ، وعدم تغييرها باستمرار ، ويمنع من جعل النقود متجراً ، فإن ذلك يدخل على الناس من الفساد ما لا يعلمه إلا الله بل الواجب أن تكون النقود رؤوس أموال يتجر بها ، ولا يتجر فيها ، وإذا حرم السلطان سكة أو نقداً منع من الاختلاط بما أذن في المعاملة به ، وعليه أن يتشدد مع الرغلية ، وأرباب الغش ، ويتبع معهم سياسة متشددة وجازمة ، لما يسببونه من إفساد لمصالح المسلمين ، والاضرار بأوضاعهم وأموالهم .

وأخيراً منهم تاج الدين السبكي (المتوفى سنة ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م) الذي ألف من خلال جهوده في الإصلاح والدعوة إلى محاربة الفساد كتابه (معيد النعم ومبيد النقم) (١٨) ، وهو خاص بالادارة المملوكية والوظائف الديوانية ،

(١) أربعة أجزاء ، المطبعة المصرية بالأزهر ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٩ م .

(٢) له عدة طبعات محققة وغير محققة منها ما حققه حامد الفقى ، القاهرة ، ١٩٥٣ م .

ومنها ما صدر عن دار الكتب اللبنانية بدون تحقيق .

(٣) ص ٢١٩ .

(٤) ظهر بطبعتين قديمة حققها محمد على النجار ، وأبو زيد شلى ، دار الكتاب العربي .

القاهرة ، ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م ، وحديثة عن دار الحداثة للطباعة والنشر ، بيروت .

١٩٨٤ م .

ومن خلالهما تحدث كثيراً عن أوجه الفساد المالى والادارى فى الدولة . فالكتاب عبارة عن نصيحة عامة شاملة لمن يتولى أمراً من أمور المسلمين . بدءاً من السلطان وانتهاءً بأحقق المهن وأرذلها ، وأشار السبكى الى ضرورة قيام السلطان وموظفى مالية الدولة ، ومن لهم علاقة باقتصادياتها المحافظة على أموال الدولة من العبث والفساد ، والعمل على تنميتها وتسخيرها الى ما فيه صلاح الدولة والرعية ^(١) ، كما أن عليهم التخفيف على الناس ، وعدم إرهابهم بفرض المقررات المالية والمكوس ، والتشدد فى تحصيلها منهم ، وأورد نصيحة تتصل بالنظام النقدى ، فدعى الى عدم الاسراف والتبذير فى المعادن المستخدمة لضرب العملات التى هى من ضروريات الناس ، حيث أخذ على الأمراء وأصحاب الأموال فى الدولة إسرافهم فى لبس الذهب والفضة ، وتزيين ملابسهم وآلاتهم الحربية . يقول عن ذلك ^(٢) :

«ومن قبائحهم ما يذهبونه من الذهب فى الأطرزة العريضة ، والمناطق وغيرها من انواع الزراكش التى حرمها الله - عز وجل - ، وزخرفة البيوت سقوفها وحيطانها بالذهب ، وقد لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ضيق سكة المسلمين ، وأنت اذا اعتبرت ما يذهب من الذهب فى هذه الأغراض الفاسدة تجده قناطير مقنطرة لا يحصيها الا الله تعالى ، فإنه لا يد فى كل منطقة ، أو طراز ونحوه من الذهب شئ - وإن قل جداً - تأكله النار ، وهو فى الأبنية أكثر .. ، ولو كان مضروباً سكة بتداولها المسلمون لانتفعوا به ، ورخصت البضائع ، وكثرت الأموال ، ولكنهم احتجزوا وفعلوا هذه القبائح ،

(١) ص ١٨ .

(٢) ص ٤٩ - ٥٠ .

- ابن المبارك : المكيال والميزان والامداد والاقفة والأرطال والأواقى

بناءً على ما سبق فإنه لم يكن للعلماء جهد ملموس وواضح في مواجهة الفساد النقدي في الدولة ، ولم تورد المصادر التاريخية ما يفيد حدوث ذلك باستثناء ما سطره عدد من المؤرخين من خلال مؤلفاتهم - وهم في معظمهم علماء - فقهاء محدثون - من نقد لما تعيشه الدولة من فساد نقدي ، وما أصاب العامة من ضرر وخسارة ، وما وقع عليهم من شدة وكرب ، وبسبب نتائج ذلك الفساد وتأثيراته ^(١) ، وكذلك ما سلكه بعضهم من كتابة مؤلفات أو رسائل يدعون من خلالها ولاة الأمر والمسئولين إلى الإصلاح ، ومجاربة الفساد ويقترحون الحلول لما تعانيه الدولة من مشكلات نقدية ، وقد انحصرت تلك الكتابات بما ألفه تقي الدين المقرئ ، ومحمد بن محمد الأسدي من مؤلفات في هذا المجال .

فالمقرئ بعد عدة مؤرخي العصر المملوكي في الوقت الذي كان فيه أحد فقهاء ومحدثيه وقضائه ومحتسبيه ^(٢) ، بل لا أبالغ إذا قلت أنه أول مؤرخ يفتي إلى أهمية العامل الاقتصادي في الأحداث السياسية ، وما له من تأثير كبير على مختلف نواحي الحياة ، وليس هذا فقط بل إنه يضع يده على العامل المؤثر في النواحي الاقتصادية ، والتغيرات الاجتماعية ، وهو النقود .

لقد تحدث المقرئ كأحسن ما يكون المتحدث العارف ببواطن الأمور ، المتحدث الذي تضرر كثيره من أبناء الدولة بالواقع السيئ وبالأحوال المترددة فيها ، وما حل فيها من أزمت ومجاعات ، وقتن أودت بأهلها وأفقرتهم .

(١) نلص ذلك من خلال كتابات عدة من المؤرخين المعاصرين أمثال ابن حجر العسقلاني .

العيني ، الصيرفي ، السخاوي ، وابن أبياس وغيرهم .

(٢) عن ذلك فضلاً أنظر : دراسات عن المقرئ (مجموعة أبحاث لعدد من الباحثين) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧١ م .

بناءً على ما سبق فإنه لم يكن للعلماء جهد ملموس ، وواضح فى مواجهة الفساد النقدي فى الدولة ، ولم تورد المصادر التاريخية ما يفيد حدوث ذلك ، باستثناء ما سطره عدد من المؤرخين من خلال مؤلفاتهم - وهم فى معظمهم علماء - فقهاء محدثون - من نقد لما تعيشه الدولة من فساد نقدي ، وما أصاب العامة من ضرر وخسارة ، وما وقع عليهم من شدة وكرب ، بسبب نتائج ذلك الفساد وتأثيراته ^(١) ، وكذلك ما سلكه بعضهم من كتابة مؤلفات أو رسائل يدعون من خلالها ولاية الأمر والمسئولين الى الإصلاح ، ومحاربة الفساد ويقترحون الحلول لما تعانيه الدولة من مشكلات نقدية ، وقد انحصرت تلك الكتابات بما ألفه تقي الدين المقرئى ، ومحمد بن محمد الأسدى من مؤلفات فى هذا المجال .

فالمقرئى يعد عمدة مؤرخى العصر المملوكى فى الوقت الذى كان فيه أحد فقهاء ومحدثيه وقضاته ومحتسبيه ^(٢) ، بل لا أبالغ اذا قلت أنه أول مؤرخ يتنبه الى أهمية العامل الاقتصادى فى الأحداث السياسية ، وما له من تأثير كبير على مختلف نواحي الحياة ، وليس هذا فقط بل إنه يضع يده على العامل المؤثر فى النواحي الاقتصادية ، والمتغيرات الاجتماعية ، وهو النقود .

لقد تحدث المقرئى كأحسن ما يكون المتحدث العارف ببواطن الأمور ، المتحدث الذى تضرر كغيره من أبناء الدولة بالواقع السيئ وبالأحوال المتردية فيها ، وما حل فيها من أزمات ومجاعات ، وفتن أودت بأهلها وأفقرتهم ،

(١) نلص ذلك من خلال كتابات عدد من المؤرخين المعاصرين أمثال ابن حجر العسقلانى ،

العينى ، الصيرفى ، السخاوى ، وابن اياس وغيرهم .

(٢) عن ذلك فضلاً أنظر : دراسات عن المقرئى (مجموعة أبحاث لعدد من الباحثين)

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧١ م .

وأخرت العاشر من بنيانيها ، فلم يفت عليه الإشارة فى مؤلفاته عن تاريخ الدولة المملوكية الى كثير من النواحي الاقتصادية سواء كانت مالية أم تجارية ، زراعية أم صناعية أم نقدية ، وما مرت به من تطورات مختلفة ، وما تبعها من تأثيرات .

وفى ثلاثة مؤلفات صغيرة الحجم عظيمة الفائدة يحدثننا المقرئ بشئ من التفصيل عن تلك النواحي ، ويصفه خاصة النقدية منها ، وهذه المؤلفات هى :

- إغاثة الأمة بكشف الغمة ، أو تاريخ المجاعات فى مصر ^(١) .

- النقود الإسلامية ، أو شذور العقود فى أخبار النقود ^(٢) .

- الأكيال والأوزان الشرعية ^(٣) .

ولقد ضمن المقرئ هذه الكتب معلومات وافرة وغزيرة عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التى عاشتها الدولة المملوكية ، ولقد أعطى صورة واضحة وصريحة لما كانت عليه أحوال الدولة من تدهور وفساد ، وعزاها بكل صدق وأمانة الى الحكام والسياسة التى انتهجوها ، وبعدمهم عن مصالح الدولة

(١) نشر وتحقيق محمد مصطفى زيادة ، جمال الدين الشيال ، مطبعة التأليف والنشر ، القاهرة ، ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م . وهناك طبعة أخرى تحقيق عبد النافع طهيمات ، صدرت عن دار ابن الوليد ، دمشق ، ١٩٥٦ م .

(٢) نشر وتحقيق انستاس مارى الكرملى ، ضمن كتاب النقود العربية وعلم النميات ، وقد ألفه المقرئ مع كتابه الأكيال والأوزان الشرعية مستفيداً من خبراته ومعلوماته التى اكتسبها فى أثناء توليه وظيفة الاحتساب لعدة مرات فى الدولة .

(٣) نشره باللغة اللاتينية أولايوس جير هاردوس فى المجلة العلمية المختصة بالوثائق العربية عام ١٨٠٠ م .

والرعية ، واهتمامهم بمصالحهم وأهوائهم ، مسخرين مقدرات الشعب والدولة لتحقيقها ، وبين أن ما أصاب الناس إنما هو من سوء تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد والبلاد ، وليس من المجاعات والغلوات التى أصابتها اذ بإمكان الحكام معالجتها بما يدفع الضرر عن الناس ، لا بما يزيد من ضررها عليهم .

. فعن كتاب إغاثة الأمة ^(١) ، والذي ألفه المقرئى بعد اكتوائه بنار المجاعة التى أصابت الدولة بين سنتى ٧٩٦ - ٨٠٨ هـ / ١٣٩٣ - ١٤٠٥ م ، وتسببت فى وفاة ابنته مع الآلاف من أبناء مصر ، الذين ذهبوا ضحية المجاعة والأزمة التى خلفت أثراً عميقاً فى النواحي الاقتصادية والاجتماعية فى الدولة ، فقد تركز موضوع الكتاب حول الأزمات والمجاعات التى تعرضت لها مصر ، وسياسة الدولة تجاهها ، والإجراءات التى قامت بها للتخفيف من أضرارها ومعالجة آثارها ، وقد أوضح المقرئى وجهة نظره فى تلك الظروف ، والحلول التى يجب الأخذ بها وتطبيقها لمعالجتها .

لقد استعرض المقرئى الأسباب المؤدية لمثل تلك الأزمات والمجاعات ، فيذكر أن المجاعة لا تحدث عادة فى مصر الا بسبب ظروف طبيعية (آفات سماوية) كقصور النيل ، أو عدم نزول الأمطار ، أو آفة تصيب الغلال ونحو ذلك ، وفى العصر المملوكى أضيفت أسباب أخرى لحدوث تلك الأزمات والمجاعات ، نتجت عن الفساد الحاصل فى الدولة فى مختلف مجالاتها وهذه الأسباب هى :

(١) نظراً لتشابه المعلومات التى وردت فى المؤلفات الثلاثة وبالأذات فيما يتصل بالنظام النقدى المملوكى موضوع الدراسة ، ونظراً لاشتغال كتاب إغاثة الأمة على جميع المعلومات التى وردت فى الكتابين الآخرين لسأكتفى بالحدث عن هذا الكتاب مبرزاً النقاط التى احتواها خصوصاً ما تعلق منها بالأوضاع النقدية وفسادها .

الأول : شراء المناصب الحكومية بالمال ، سواء كانت مناصب دينية أم إدارية أم غير ذلك ، فضخامة المال هي المقياس لمتولى المنصب ، أو الوظيفة الحكومية لا الجدارة والقدرة والكفاءة ، فأصبحت الدولة بهذا مرتعاً للمفسدين والظالمين والبغاة ، الذين لا هم لهم سوى الكسب ، وتحصيل الأموال ، والبحث عن مسببات بقائهم فى وظائفهم .

الثانى : غلاء إيجار الأتبان ، وزيادة نفقات الحرث والبذ والحصاد ، على ما تغله الأرض الزراعية ، وبهذا اتسعت الفجوة بين الفلاح ، ومالك الأرض الاقطاعية ، فأصبحت إنتاجيتها محدودة ورديئة ، فتدهورت بذلك الأراضى الزراعية ومحاصيلها ومنتجاتها ، وهجر الفلاحون فلاحتهم ، وقلت الأيدى العاملة منهم ، موتاً وهجرة الى مناطق أخرى طلباً للثروت ، ورغبة فى الحياة .

الثالث : انعكاس القاعدة النقدية للدولة ، أى رواج الفلوس النحاسية ، والاعتماد عليها فى عمليات الدفع والتقويم بدلاً من النقود الذهبية . والفضية التى هى النقود الشرعية الصحيحة ، وقد أدى هذا الوضع الى فساد النقود ونظامها ، وأحدث خللاً لم يكن موجوداً من قبل .

ويورد المقرئ نيزاً من أسعار تلك الفترة ومستوياتها ، وما صاحبها من ظروف اقتصادية ، ويختتم حديثه عن العلاج الأمثل والوحيد لتلك الأسباب وذلك الفساد ، ويتمثل فى الإصلاح النقدى ، وإعادة القاعدة النقدية الى طبيعتها ووضعها الصحيح ، وأن تصبح الدراهم والدنانير أساس التداول ، والفلوس تصير لمحقرات المبيعات والصفقات الصغيرة والعمليات التجارية البسيطة ، فلا تكثر أعدادها ، وتزداد كمياتها ، وتقل مقابل العملات الذهبية

والفضية ، كما يتم الاهتمام والاعتناء بموازين النقود وعبارةها بكل دقة وضبط ، لا غش فيها ولا تلاعب أو تزيف .

وبهذا الإصلاح تعود الأسعار ، وأجور الأعمال ، وقيم الأشياء الى ما كانت عليه قبل هذه المحن ، فتصلح يعودتها الأمور ، وتتسع الأحوال ، وتزداد النعم ، ويعم الرخاء أرجاء الدولة ، ويحافظ الناس على ما بأيديهم من نقود ، فلا يفقدونها أو يخسرونها فى ارتفاع أسعار السلع والمتاجر ، أو تذهب أسعار تبادل العملات .

يقول المقرئى ^(١) عن ذلك :

« اعلم أرشدك الله الى اصلاح نفسك ، وألهمك مرشد أبناء جنسك ، أن النقود المعتبرة شرعاً وعقلاً وعادة إنما هى الذهب والفضة فقط ، وما عداها لا يصلح أن يكون نقوداً ، وكذلك لا يستقيم أمر الناس الا بحملهم على الأمر الطبيعى الشرعى فى ذلك ، وهو تعاملهم فى أثمان مبيعاتهم ، وأعواض قيم أعمالهم بالفضة والذهب لا غير » .

ويذكر المقرئى أنه سترتب على تطبيق ذلك فائدتان جليلتان هما :

الأولى : رجوع أحوال العامة الى مثل ما كانت عليه من قبل فى أمور الأسعار وأحوال المبيعات .

الثانية : بقاء ما بأيدي الناس من الذهب والفضة اللذين هما النقد الجيد من غير زيادة ولا نقص ، مع رد الأموال والرفه ، والرخص الى ما كانت عليه أولاً قبل هذه المحن ^(٢) .

(١) إغائة ، ص ٨٠ .

(٢) نفسه ، ص ٨٢ .

لا شك أن عقلية المقرئ التي توصلت الى الأسباب الرئيسية فى وقوع الأزمات ، وطرحت الحلول المثلى لها ، لهى عقلية مفكرة عميقة التفكير سليمة التوجه ، ولا غرابة فى قيام هذه العقلية بالوصول الى نظريات لم يتوصل اليها العقل الا حديثاً ، حيث صدرت من مؤرخ يحمل عقلية اقتصادية ناضجة ، وعاطفة دينية قوية ، فألهم الصواب وفق قاعدة صحيحة لا غبار عليها .

أما الأسدى محمد بن محمد بن خليل - الذى كان موجوداً سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م - مؤلف كتاب (التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختبار) ، فبرغم عدم شهرته فإنه من شيوخ العهد المملوكى الجركسى ، وأحد دعاة الإصلاح فيه من أوتوا جرأة القول ، ولم يهابوا السلاطين أو الأمراء ، فأرسلوا لهم ينصحونهم وينبهونهم الى سوء سياستهم ، وفساد دولتهم ، وضرورة علاج ذلك الفساد لدرء الخطر والضرر الناتج عن ذلك .

لقد ألف الأسدى عدة رسائل^(١) لعدد من مسئولى الدولة قضاة ومسئولين ونحوهم ، كان أهمها كتابه المذكور الذى عرض فيه الوضع المتردى فى الدولة ، وفساد نظامها النقدي ، وأسباب ذلك الفساد ، والعلاج الأفضل له ، وقد دل عرضه للمعلومات والأسباب والحلول على وعى وفهم وخبرة بأوضاع الدولة ،

(١) هى :

- لوامع الأنوار ومطالع الأسرار فى النصيحة التامة لمصالح العامة والخاصة . وقدمها لثائب السلطان .

- النصيحة الكلية فى كل ما يتعلق بمصالح الراعى والرعية .

- الإشارات العلبة فيما يوجب الخلل والفساد والإصلاح فى أحوال الرعية .

- المستدرك اللطيف فى كل ما يبرز به الأمر الشريف .

وأحوال دواوينها وموظفيها .

فالأسدی من خلال هذا الكتاب تحدث عن الوضع الاقتصادي المتدهور في الدولة ، وما كانت تعانيه الادارة المملوكية من فساد مستحكم في أجهزتها المختلفة ، كما تحدث عن أوضاع العامة ، وما كانوا يعانونه من غلاء فاحش ، وقلة أموالهم ، مع نقص الخدمات والمرافق العامة ، وكثرة الضرائب والمقررات المالية ، وسيطرة كبار رجالات الدولة على مقدرات الدولة والرعية ، واحتكارهم للتجارة وخزنها القوت الضروري لعامة الناس (الغلال) بهدف الربح المادي ، والثراء غير المشروع .

هذا ويتفق الأسدي مع المقریزی في جميع الأسباب التي أدت الى تدهور الدولة ، فيذكر أن من تلك الأسباب :

إهمال الزراعة ، وما يقع على الفلاحين من ظلم ، وبيع الوظائف الحكومية ، وشدد الأسدي على الفساد النقدي كأهم سبب لذلك التدهور والخراب ، ثم يعقب ذلك بذكر الحلول الواجب اتخاذها للإصلاح ، ويذكر علاج كل سبب من وقاع خبرة ومعرفة بشئون الدولة ^(١) ، ودقائق أمورها ، إضافة الى المامه الكامل باقتصاديات الدولة ومجتمعها ، فيرى الأسدي أن فساد الادارة المملوكية لم يحدث الا بسبب الطمع المادي ، والرغبة في تعريض النقص المالي للأفراد ، ومعالجة ذلك بزيادة المرتبات ، والمخصصات التي يقبضها هؤلاء .

(١) يبدو أن الأسدي قد عمل في الدولة ، والمرجح أنه عمل في وظيفة الحسبة نظراً لاطلاعه ومعرفته بكثير من بواطن الأمور ، ومعرفته بوظيفة المحتسب ومهمته التي يقوم بها والشروط الواجب توفرها فيه ، كما يبدو أنه قد عمل كاتباً أو موظفاً في ديوان الاتشاء ، وهو ما ساعده على تأليف كتبه ورسائله .

ويقول الأسدى عن هذا العلاج ^(١) :

«ولو قرر لكل واحد منهم ما يكتفيه من إقطاع وديوان ، ولم يفرض أمره الى من يرى بالتسليط على أهل القرى والبلدان ، لا تجاسر على تعدى الحدود أبداً ، ولا تجنب التسليط خوفاً مما يأتى غداً ، فلما أهملت تلك العوايد ، ينقص سنة العدل ، وتخرب تلك القواعد ، وتجدد بعدها ما حدث من أسباب الفساد ، وقع الناس فيما تجدد من الهلايا والشدائد » .

ويذكر أيضاً أن على السلطان أن يجتهد فى معاقبة المفسدين ، والتشدد معهم للقضاء على أسباب الفساد ، وفى الوقت نفسه يعمل على مكافأة المخلصين والأمناء فى أعمالهم ، ليكون مشجعاً لهم ، وحائثاً لغيرهم على أداء وظائفهم بكل أمانة وإخلاص ^(٢) .

وعن أمر الغلاء ، فيوضح الأسدى أن على الدولة العمل على تأمين المستلزمات الضرورية ، والسلع الاستهلاكية بشكل دائم ، ويتم ذلك بإنتاج الكميات اللازمة للاستهلاك المحلى ، ويخزن الفائض للاستفادة منه عند الحاجة ، فاستمرار وجودها وفرتها أمام الناس بصفة مستمرة تطمئنهم على تواجدها عند الحاجة ، فلا يعملون على تخزينها لأوقات أخرى ، الأمر الذى يؤدى الى تناقص كمياتها ، فيكثر الطلب عليها ، وبالتالي ترتفع أسعارها ، ويستغل الموقف أصحاب النفوس الدنيئة ، والقلوب المريضة ، ليحققوا مطامعهم ومصالحهم المادية ^(٣) .

(١) ج ١٣٦ .

(٢) ص ١٥٣ .

(٣) ص ٨٤ .

كما أن السياسة الاقتصادية للدولة مسئولة بصفة مباشرة فى تخفيف حدة الأزمات التى تواجهها ، فلا تركز الى فرض الضرائب والرسوم بشكل عشوائى طلباً لجمع المال فقط ، ولا تقوم بالاحتكار والمتاجرة على حساب التجار والمتعشين ، ومزاحمتهم فى التجارة التى هى مهنتهم لا مهنة الدولة ، وليس للدولة فرض السلع والبضائع عليهم بأسعار تقررهما ، وتلزمهم بدفعها فوراً (نظام طرح البضائع) .

وعلى الدولة رعاية مصالح العامة بعمارة الأرض ، ونشر كافة الخدمات والمرافق التى يحتاجون إليها ، والنظر فيما يفيد الناس فتعمله ، أو ما يضرهم فتزيله ، ومداومة التفقد لأحوالهم وشئونهم ^(١) .

أما ما يتعلق بالنظام النقدى ، فقد نبه الأسدى الى أهميته القصوى فى تعايش الناس ، وتسيير المنافع والمصالح الضرورية والمحافظة على أموال الناس ، وعدم التسبب فى خسارتهم أو تضررهم ، ويدعو الحكام الى وجوب الاعتناء بالنقد ، وعدم إهمال أمرها ، بحسن إقامتها وتعديلها وتناسبها فى أعدادها وشكلها ، وتصحيح تدويرها وسكها ، وتقرير قيمتها ووزنها ، وعدم التفريط فى إصلاح المكايل والموازين ^(٢) .

وقد أورد نصائح جيدة لضبط الإصدارات النقدية من حيث أوزانها وعيارها وسكها ، والقاعدة التى يجب أن تسير عليها دار الضرب فى هذا الشأن لإصدار كافة أنواع العملات ، وفى سبيل المحافظة عليها من الفساد ركز على وظيفة المحتسب ، ومسئوليته فى مقاومة أى فساد يقع على النقد ، وأن على الدولة

(١) ص ٤٦ ، ص ٨٥ - ٩٠ .

(٢) ص ١١٥ .

مسئولية أكبر مع المفسدين والزغلية والضرب عليهم ، والقضاء على فسادهم بالحزم والشدة والعقوبة ^(١) .

وأخيراً فإن الأسدى قد أجاد كثيراً فى استعراض المشكلة باكمل جوانبها ، وأبرز حلولاً مثالية وجيدة تتناسب ونوعية الفساد الذى تتعرض له النقود ، مدعمة بخبرته ومعلوماته عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدولة ، وأظهر أنه من دعاة الإصلاح الحريصين على أمتهم ، واطهارها بمظهر القوة والمنعة ، وتنقيتها من عوامل الضعف والانحيار ، فخطب المسؤولين ، وكتب لهم كل فى مجاله اهتمامه ، ونبه العلماء بضرورة قيامهم بواجب النصيحة لإصلاح مواطن الزلل ، ودعى الى تضافر الجهود ، وتعاون الجميع لازالة كل فساد تعاني منه الدولة ، أو قد يطرأ على جهة من جهاتها .

لم يكن معظم سلاطين الجراكسة على مستوى المسئولية ، فلم تحرك فيهم تلك النصائح ساكناً ، أو حمية للدولة الإسلامية وللمسلمين الذين يحكمونهم ، وانتهت تلك النداءات التى أطلقها بعض المصلحين الى التلاشى أمام تفاقم الأزمة النقدية ، فلم يعمل السلاطين لمواجهة الوضع وإن حاول بعضهم ، فإن المشكلة أكبر من امكانياتهم ومقدراتهم ، وسرعان ما يظهر عجز الدولة عن استئصال الفساد من جذوره ، وتقف عاجزة تنتظر حدوث معجزة الانقاذ أو مأساة السقوط التى كانت أسرع من سابقاتها لينتهى حكم سلاطين الماليك بسلبياته التى فاقت ايجابياته .

وأخراً فإنه ما من شك فى أن غالبية علماء الدولة فى العهد الجركسى قد تأثروا أو اصطبقوا بطابع العصر ، فكان موقفهم فى مواجهة الفساد الذى تعيشه الدولة ، وخصوصاً الفساد النقدى سلبياً ، فلم يتفاعلوا للمحافظة على مصالح الأمة ، والعمل على محاربة أو مواجهة ما يتهدها من فساد ، وعوامل تدهور وضعف ، وهم بهذا يتخلون عن مسئولياتهم وواجبهم المفروض عليهم ، ويتحملون جزء كبيراً من المسئولية عما أصاب الدولة من فساد ، وما لحق بالرعية من تأثيرات وأضرار .

وهكذا نلاحظ الفارق بين موقف علماء الدولة فى العهدين البحرى والجركسى ، وهو فارق قد ساعد فى مواجهة الفساد ومحاربتة ، وتقليص انتشاره قدر الامكان ، خلال العهد المملوكى البحرى ، وساعد أيضاً على تفشى ظاهرة الفساد وازدياد مظاهره ، وأزماته ، واتساع نطاقه خلال العهد المملوكى الجركسى .

الخاتمة

الخاتمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

فإنه من المفيد جداً أن يكون لأى بحث خاتمة تتضمن أهم النتائج التى استخلصها الباحث من خلال دراسته ، وتلك الخاتمة من الأمور المستحسنة فى أى بحث ، حيث تكون خلاصة لبحثه ، وفى الوقت نفسه مؤشراً لأهمية ذلك البحث من خلال الأهمية التى تكتسبها تلك النتائج .

وبعد أن أنهيت بحمد الله وتوفيقه دراسة هذا الموضوع ، فإننى أرجو وأمل أن أكون قد وفقت فى عرضه ، ودراسته ومناقشة أجزائه ، والكمال لله وحده ، وما علينا الا السعى والاجتهاد ، فإن أصبت فلى ، وإن أخطأت فعلى .

لقد سبق أن عرضت بعد دراسة القيم النقدية ، والقيم الشرائية للنقود لعدد من النتائج التى تم استخلاصها من واقع تلك الدراسة ، وبعد انتهائى من دراسة هذا الموضوع فقد ظهر لى عدة نتائج أوجزها فيما يلى :

* تأثر النظام النقدى المملوكى بطبيعة الحكم الذى سارت عليه الدولة المملوكية ، فالسلطان هو المتصرف بأمورها ، وسياستها ، ومن بينها السياسة النقدية ، لذا كانت التغيرات التى تعرض لها النظام النقدى ما هى الا انعكاساً للوضع السياسى ، وما حدث فيه من اضطرابات وتقلبات سريعة ودائمة ، وقد تمثلت بظاهرتين الأولى كثرة الإصدارات النقدية ، والثانية تنوع تلك الإصدارات بشكل ملفت خلال فترة قصيرة .

* تأثر النظام النقدى أيضاً بمدى قوة أو ضعف اقتصاد الدولة ، ويظهر أثر هذا العامل بوضوح عند مقارنة ما كانت عليه الدولة فى عهدها البحرى ، حيث

مكنتها قوة اقتصادها ، وما امتاز به من ثقل وتنوع على المستويين الداخلى والخارجى ، من مواجهة الأزمات التى مرت بها ، بعكس ما كان عليه الوضع فى العهد الجركسى ، حيث صعب على السلاطين معالجة الأزمات النقدية ، نظراً لضعف إقتصاديات دولتهم ، وما تعانیه من ركود وتدهور .

* تأثير النظام النقدى كذلك بقوة السلاطين ، ومدى نفوذهم وتحكمهم فى الدولة ، ومجريات أمورهما ، نلمس ذلك بجهود عدد من السلاطين الذين إشتهروا بقوتهم ، وقدرتهم على التعامل مع الأحداث الطارئة ، والإسراع فى وضع الحلول الفورية لأزمات الدولة ، والعمل على التخفيف من تأثيراتها السلبية .

* كانت القاعدة النقدية للنظام النقدى المملوكى فى عهده البحرى قد تمثلت بالنقود الذهبية (الدنانير) ، والفضية (الدراهم) ، بينما شكلت الفلوس النحاسية نقوداً هامشية الغرض منها تسهيل العمليات التجارية ، وقد قلل هذا الوضع من فرصة إفساد النقود كما حقق إستقراراً ملحوظاً فى القيمة النقدية ، والقوة الشرائية للنقود ، أما فى العهد الجركسى ، فقد إنعكست تلك القاعدة ، مما أتاح الفرصة لإفساد النقود بكافة أنواعها ، وإحداث خلل كبير فى النظام النقدى للدولة .

* لقد أدى إختلاف القاعدة النقدية فى العهد الجركسى ، وتقدم مركز الفلوس النحاسية الى بروز ظاهرة التضخم ، وإرتفاع تكاليف المعيشة للفرد بإرتفاع الأسعار وإرتفاع الأجور ، وأسعار الخدمات ، فترتب على ذلك ضعف القيمة الشرائية للنقود المملوكية ، وإرتفاع قيمتها النقدية ، وهذا مخالف للقواعد الاقتصادية المتعارف عليها .

* كانت طبقة العامة هي الفئة الأكثر تأثراً بظاهرة التضخم وارتفاع تكاليف المعيشة حيث تزداد معاناتهم ، وتظهر عدم قدرتهم في الحصول على احتياجاتهم من المواد الاستهلاكية الضرورية . في حين كان أهل الدولة وأمرأؤها ، وكذلك ميسير التجار ، وأصحاب الاموال فيها أقل اكتراثاً بالفلاء ، وهذا الوضع يوضح بجلاء الفجوة الواسعة بين الطبقتين ، والتفاوت الاقتصادي والاجتماعي الكبير بينهما ، وهو ما يسبب في العادة قيام العامة بثورات ومظاهرات ضد السلطان والمستولين ، ومطالبتهم بالتدخل لوقف ارتفاع الاسعار ، والقضاء على مسبباته .

* باستثناء ما قام به بعض السلاطين الماليك من اصلاحات وتنظيمات نقدية ، فإن النظام النقدي المملوكي ظل جامداً ، ولم يشهد أى تطور ايجابي خلال تاريخه في كافة جوانبه ، سواء ما ارتبط منها بتصنيع العملات وإصداراتها ، أما ما ارتبط منها باستخدامها ، وتنظيم عملية تداولها ، كما أن الفساد الذي خيم على النقود المملوكية في عهدها الثاني قد صرف السلاطين عن أمور هامة تتصل بنظامهم النقدي ، خصوصاً ما يتصل منها بدار الضرب ، من حيث ادارتها ووظيفتها ، فأهمل أمرها حتى وليها أفراد عرفوا بفسادهم وعدم أهليتهم .

* عاشت الوحدات النقدية في النظام النقدي المملوكي بعض التطورات السلبية . ففي العهد المملوكي البحري كانت الوحدات النقدية المملوكية مؤلفة من وحدات نقدية رئيسية تمثلها الدنانير الذهبية كالتى شكلت غطاء هاماً لميزانية الدولة ، واحتياجاتها النقدية ، ومن وحدات نقدية مساعدة ، تمثلها الدراهم الفضية لتحديد مدفوعات الدولة من رواتب ومصروفات ونحو ذلك .

* أما فى العهد المملوكى الجركسى ، فقد حدث خلل فى هذا التنظيم ، إذ أصبحت النقود النحاسية هى النقود الرئيسية للدولة ، يتم بها تقدير ودفع الأجور ، والمصروفات والاثمان فى الدولة ، وعاشت الدنانير الذهبية والدرهم الفضية تقلبات عنيفة ، لعدم توفرها بشكل منتظم ، أدى الى عدم اعتماد الدولة عليها ، سواء بجعلها احتياطياً نقدياً للدولة ، أو باستخدامها فى عمليات التداول المختلفة .

* من المتغيرات التى حدثت فى النظام النقدى المملوكى استخدام الدرهم الفلوس فى عمليات التقدير والدفع النقدى ، وقد أوضحت أن الدرهم الفلوس ما هو الا عملة حسابية (اعتبارية) ، وهذا يخالف ما ذهب اليه بعض الباحثين المحدثين ، من أنه عملة حسابية وزنها درهم من معدن النحاس ، أو أنه عبارة عن عدة فلوس نحاسية ، وزنها درهم واحد .

كما كان من المتغيرات التى حدثت على أنواع النقود المملوكية الدرهم النصف ، الذى أصدره السلطان المؤيد شيخ ، وهو عبارة عن درهم نصف وزنه من فضة ، ونصفه الآخر من نحاس ، وهذا يخالف ما قال به عدد من الباحثين المحدثين ، من أن الدرهم النصف هو عبارة عن نصف درهم فضى ، وهو نصف الدرهم الكبير الذى أصدره المؤيد شيخ فى نفس الفترة .

* لقد استفادت الدولة بمعهدىها من دور ضرب النقود كجهة من جهات الإيراد المالى لمخزينة الدولة ، سواء على المستوى الداخلى ، بما يدفعه التجار لقاء تحويل ما يملكونه من معادن الى نقود رسمية ، أو على المستوى الخارجى بتأمين جزء من احتياجات دار الضرب من المعادن ، وذلك من خلال ما فرضته على التجار الوافدين اليها من رسوم وضرائب تلزمهم بتقديم نسبة من المعادن

التي يتاجرون بها الى دار الضرب .

* والغريب أن المصادر التاريخية لم تذكر قيام سلاطين الماليك - كمادة بعضهم - باستغلال إيرادات دار الضرب ، أو العمل على تنميتها ، وذلك بهدف زيادة أموالهم ، أو ثرواتهم ، بل أبقوا على التنظيمات المتصلة بهذا الجانب ، كما ورثوه دون أى تغيير .

* عرف عن عدد من سلاطين الدولة حرصهم على الإصلاح ، وميلهم الى التنظيم ، وعملهم على إخراج البلاد من الأزمات النقدية التى مرت بها ، وإذا كانت ظروف الدولة قد هيات لبعضهم النجاح ، فإنها أيضاً قد تسببت فى فشل جهود البعض الآخر .

نلاحظ ذلك فى موقف كل من السلطانين الظاهر بيبرس الذى هيات له أوضاع الدولة ، وما تعيشه من استقرار سياسى واقتصادى المجاح اصلاحاته النقدية ، والسلطان المؤيد شيخ الذى وقفت أوضاع الدولة ، وما تعانیه من اضطراب وتدهور ضد نجاح جهوده التى قام بها فى سبيل إصلاح وتنظيم النظام النقدى .

* تأثرت القيمة النقدية للنقود المملوكية بصفة مباشرة بعوامل نقدية ، كنقص أعداد العملات أو نقص أوزانها ، بمعنى أن الظروف النقدية كان لها تأثير أكبر على أسعار تبادل العملات من ظروف أخرى اقتصادية أو سياسية .

أما القيمة الشرائية ، فقد تأثرت أكثر بالعوامل الطبيعية التى تعرضت لها الدولة ، خصوصاً ما يتصل منها بنهر النيل ، وبالسباسة الاقتصادية السيئة التى سار عليها معظم سلاطين الدولة ، كفرض الضرائب ، أو الاحتكار التجارى ، أو البيع الاجبارى .

كما كان لقطاعى القيمة النقدية والقيمة الشرائية أهميتها القصوى ، وأثرهما المباشر على الأحوال الاجتماعية ، وكان تأثير العامة بهما أكثر ، الأمر الذى أدى الى متغيرات اجتماعية خطيرة .

* أوضحت أسبقية علماء المسلمين ، وأفضليتهم فى التعريف بالنقود ، وبيان وظائفها ، حيث أخذ عنهم علماء الاقتصاد المحدثين عدداً من النظريات الاقتصادية النقدية التى ثبتت أهميتها ، وملامتها للأوضاع الاقتصادية فى أى عصر .

* ارتبطت مواقف العلماء فى دولة المماليك بعهدية بقوة شخصية السلاطين ، ومدى التزامهم بتعاليم الدين الحنيف ، وتطبيقهم لأوامر الشريعة الاسلامية ، فنرى أنه كلما كان السلطان قوياً ومطبقاً لتعاليم الاسلام ، كلما كان ذلك مشجعاً للعلماء فى توجيه النصح والارشاد ، حيث يجدون آذاناً صاغية لتوجيهاتهم ودعواتهم ، فيقبلون على تحمل المسؤولية فى توجيه ولى الأمر عند الضرورة ، ومواجهة ما يطرأ من أوجه فساد الدولة .

أما اذا كانت شخصية السلاطين ضعيفة ، وكان أمر الدولة موكلاً الى المديرين أو كانت شخصياتهم قوية ولكن غير ملتزمين بتعاليم الاسلام ، وغير مطبقين لما تدعو اليه الشريعة الاسلامية ، فإن العلماء لا يجدون المناخ الملائم لتدخلهم فى إصلاح الأوضاع ، فيلتزم بعضهم بالصمت ، أو يكون له جهود ضعيفة غير فاعلة ، وبعضهم يسعى وراء شهواته ورغباته ، فيصيبه ما أصاب الدولة من فساد ، متخليين بذلك عن مسئوليتهم فى التوجيه والإصلاح .

* عندما حرم سلاطين العهد البحرى حتى نهاية فترة الناصر محمد بن قلاوون

تداول النقود الأجنبية داخل الدولة ، إنما حفظوا بذلك ما كانت تمتاز به النقود السلامية من سيادة ومركز وانتشار ، أما بعد سماح من جاء بعدهم من السلاطين بتداول تلك العملات ، وبالتالي منافستها للعملات المملوكية ، فقد تراجع ما كان للنقود الإسلامية من مركز وسيادة ، وفقدت لأول مرة السيادة النقدية التي حافظت عليها أكثر من ستة قرون .

* لم يقيم سلاطين الدولة بتنظيم عملية التداول النقدي في أسواق الدولة ومراكزها التجارية ، ومع كثرة تداول إصدارات النقود المملوكية ، فقد زادت أعداد النقود الأجنبية المتداولة ، وكان لهذا أثره في زيادة اضطراب وفساد النظام النقدي المملوكي ، وأثر بصفة مباشرة على القيم النقدية للنقود .

* شكل معدن الذهب حجر الزاوية في النظام النقدي المملوكي بمهديه ، وكان الوضع الاقتصادي للدولة عموماً والنقدي خصوصاً ، قد تأثر تأثراً كبيراً بدرجة توفره أو نقصه ، ونلاحظ ذلك بما كانت عليه الدولة في عهدها البحري من استقرار اقتصادي ونقدي بعكس ما كانت عليه في عهدها الجركسي من اضطراب وتوالي حدوث الأزمات .

وقد ارتبط الوضعان السابقان بالمصدر الذي اعتمدت عليه الدولة في تأمين احتياجاتها من الذهب ، ففي العهد البحري كانت بلاد السودان الغربية هي المصدر الرئيسي ، أما في العهد الجركسي ، فقد حلت أوروبا (الجمهريات الإيطالية) كمصدر رئيسي للدولة ، ويمكننا استنتاج ما كان لذلك من إيجابيات وسلبيات ، فاعتماد الدولة في عهدها البحري على دولة إسلامية لم يواجه بأي عقبات ، أو فرض شروط ، أو طلب امتيازات ، كما حدث في العهد الجركسي عند اعتماد الدولة - وهي دولة إسلامية - على (العالم

النصراني) فى الحصول على عصب اقتصادها وأداته (النقود) .

* لقد كان لذلك دون شك نتائج سيئة أثرت على انتظام وصول كميات الذهب ، وإن وصل القليل منه بطريق غير مباشر ، فهو مصحوب بشروط وامتيازات فرضتها القوى النصرانية أضرت باستقلالية الدولة وسيادتها ، وأحدثت فيها هزات اقتصادية عنيفة ، وأربكت خططها وتنظيماتها الداخلية .

كان نقص المعادن - وخصوصاً الذهب - من أهم مسببات الأزمة النقدية التى عاشت فيها الدولة طوال عهد الجركسى ، وبشكل فاق قدرة السلاطين على وضع الحلول المناسبة لها ، كما أنها لم تسمح برسم سياسة نقدية ثابتة ، وواضحة المعالم تنتهجها الدولة لتنظيم أوضاعها النقدية ، أو للمحافظة على السيادة النقدية التى كانت لعملاتها .

* إذا كانت معالجة الدولة لأزمة نقص وارداتها من المعادن قد تمت بتنقيص أوزان النقود ، وخططها بمعادن رخيصة ، فإن الجمهوريات الإيطالية - وخصوصاً البندقية - قد انتهجت الأسلوب نفسه لمواجهة نقص امداداتها المعدنية ، وقد ظهر ذلك بوصول معادن ، ونقود مغشوشة الى الدولة المملوكية .

وبدل هذا الوضع على تأثير العامل النقدى فى اقتصاديات الدول ، وفى علاقاتها التجارية ، كما يوضح لنا مستوى الحلول ، أو طبيعة العلاج الذى كانت تستخدمه الدول فى مواجهة أية أزمة اقتصادية تمر بها دولة من دول تلك الفترة .

* لقد أدى بحث السلاطين عن مخرج لأزمتهم النقدية الى تخطيطهم ، وعدم ثباتهم على سياسة نقدية واحدة ، اذ كثيراً ما تعرضت سياساتهم لتبدلات وتقلبات سريعة ، قابلها المتعاملون بعدم الثقة بهم ، وعدم اتباع تعليماتهم .

وأوامرهم الصادرة ، ثم عدم ثقتهم بنقود الدولة ، مما اضطرهم الى البحث عن نقود تحوز على ثقتهم ، وتحفظ لهم أموالهم .

* تضافر هذا الواقع مع مشكلة نقص امدادات الدولة من الذهب ليكونا الموجهين للأزمة النقدية الخائفة التى عمقت من سوء الأوضاع وترديها ، ولإيجاد مخرج للأزمة لجأت الدولة الى التلاعب بأوزان النقود ، وأسعار تبادلها ، والتوسع فى استخدام المعادن الرخيصة فى تصنيع نقودها ، والتشدد فى احتكارها التجارى ، وبيعها الاجبارى داخل الدولة وخارجها ، فى الوقت الذى تفقد فيه أعداد كثيرة من نقودها الذهبية بسبب عجز ميزانها التجارى ، وعدم تمويض ذلك بإيجاد مشاريع إنتاجية سليمة «زراعية وصناعية» تحقق منها فائضاً فى ميزانها التجارى أو على الأقل توازنه مع الميزان التجارى للقوى التجارية الأخرى .

* ثم جاءت أزمة التوابل مع وصول البرتغاليين الى مصدرها ، لتزيد من مأساة الدولة ، ومن حرج موقفها ، وأوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فلم يكن أمامها سوى التهيؤ للسقوط الذى جاء سريعاً على يد العثمانيين .

الملاحق

ملحق رقم (١)

جدول خاص بفترات حكم سلاطين المماليك

أولا: العهد البحري:

| السلطان | مدة حكمه |
|---------------------------------|----------------------------------|
| المعز عز الدين أيبك | ٦٤٨ - ٦٥٤ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٥٧ م |
| المنصور نور الدين على | ٦٥٥ - ٦٥٦ هـ / ١٢٥٧ - ١٢٥٨ م |
| المظفر سيف الدين قطز | ٦٥٧ - ٦٥٨ هـ / ١٢٥٨ - ١٢٥٩ م |
| الظاهر ركن الدين بيبرس | ٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٥٩ - ١٢٧٧ م |
| السعيد ناصر الدين محمد بركة خان | ٦٧٦ - ٦٧٨ هـ / ١٢٧٧ - ١٢٧٩ م |
| العاذل بدر الدين سلامش | ربيع الأول - رجب ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م |
| المنصور سيف الدين قلاوون | ٦٧٨ - ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م |
| الأشرف صلاح الدين خليل | ٦٨٩ - ٦٩٣ هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م |
| الناصر ناصر الدين محمد | ٦٩٣ - ٦٩٤ هـ / ١٢٩٣ - ١٢٩٤ م |
| العاذل زين الدين كتبغا | ٦٩٤ - ٦٩٦ هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٦ م |
| المنصور حسام الدين لاجين | ٦٩٦ - ٦٩٨ هـ / ١٢٩٦ - ١٢٩٨ م |
| الناصر ناصر الدين محمد | ٦٩٨ - ٧٠٨ هـ / ١٢٩٨ - ١٣٠٨ م |
| المظفر ركن الدين بيبرس | ٧٠٨ - ٧٠٩ هـ / ١٣٠٨ - ١٣٠٩ م |
| الناصر ناصر الدين محمد | ٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤٠ م |
| المنصور سيف الدين أبو بكر | ٧٤١ - ٧٤٢ هـ / ١٣٤٠ - ١٣٤١ م |
| الأشرف علاء الدين كجك | صفر - شوال ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م |

| السلطان | مدة حكمه |
|---------------------------|---------------------------------|
| الناصر شهاب الدين أحمد | شوال ٧٤٢ - محرم ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م |
| الصالح عماد الدين اسماعيل | ٧٤٣ - ٧٤٦ هـ / ١٣٤٢ - ١٣٤٦ م |
| الكامل سيف الدين شعبان | ٧٤٦ - ٧٤٧ هـ / ١٣٤٥ - ١٣٤٦ م |
| المظفر سيف الدين حاجي | ٧٤٧ - ٧٤٨ هـ / ١٣٤٦ - ١٣٤٧ م |
| الناصر ناصر الدين حسن | ٧٤٨ - ٧٥٢ هـ / ١٣٤٧ - ١٣٥١ م |
| الصالح صلاح الدين صالح | ٧٥٢ - ٧٥٥ هـ / ١٣٥١ - ١٣٥٤ م |
| الناصر صلاح الدين حسن | ٧٥٥ - ٧٦٢ هـ / ١٣٥٤ - ١٣٦١ م |
| المنصور صلاح الدين محمد | ٧٦٢ - ٧٦٤ هـ / ١٣٦١ - ١٣٦٣ م |
| الأشرف ناصر الدين شعبان | ٧٦٤ - ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦ م |
| المنصور علاء الدين على | ٧٧٨ - ٧٨٣ هـ / ١٣٧٦ - ١٣٨١ م |
| الصالح صلاح الدين حاجي | ٧٨٣ - ٧٨٤ هـ / ١٣٨١ - ١٣٨٢ م |

ثانياً: العهد الجركسي:

| السلطان | مدة حكمه |
|-----------------------------|-------------------------------------|
| الظاهر سيف الدين برقوق | ٧٨٤ - ٧٩١ هـ / ١٣٨٢ - ١٣٨٨ م |
| المنصور صلاح الدين حاجي | ٧٩١ - ٧٩٢ هـ / ١٣٨٨ - ١٣٨٩ م |
| الظاهر سيف الدين برقوق | ٧٩٢ - ٨٠١ هـ / ١٣٨٩ - ١٣٩٨ م |
| الناصر زين الدين فرج | ٨٠١ - ٨٠٨ هـ / ١٣٩٨ - ١٤٠٥ م |
| المنصور عز الدين عبد العزيز | ربيع أول - ربيع آخر ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م |
| الناصر زين الدين فرج | ٨٠٨ - ٨١٥ هـ / ١٤٠٥ - ١٤١٢ م |

| السلطان | مدة حكمه |
|--|---|
| الخليفة العادل أبو العباس المستعين بالله | صفر - شعبان ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م |
| المؤيد شيخ الدين شيخ | ٨١٥ - ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ - ١٤٢١ م |
| المظفر شهاب الدين أحمد | محرم - شعبان ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م |
| الظاهر سيف الدين ططر | شعبان - ذو الحجة ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م |
| النصالح ناصر الدين محمد | ٨٢٤ - ٨٢٥ هـ / ١٤٢١ - ١٤٢٢ م |
| الأشرف سيف الدين برسباي | ٨٢٥ - ٨٤١ هـ / ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م |
| العزیز جمال الدين يوسف | ٨٤١ - ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م |
| الظاهر سيف الدين جقمق | ٨٤٢ - ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣ م |
| المنصور فخر الدين عثمان | صفر - ربيع الأول ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م |
| الأشرف سيف الدين أنبال | ٨٥٧ - ٨٦٥ هـ / ١٤٥٣ - ١٤٦٠ م |
| المؤيد شهاب الدين أحمد | جمادى الأولى - رمضان ٨٦٥ - ١٤٦٠ |
| الظاهر سيف الدين خشقدم | ٨٦٥ - ٨٧٢ هـ / ١٤٦٠ - ١٤٦٧ م |
| الظاهر سيف الدين يلباي | ربيع الأول - جمادى الأولى ٨٧٢/١٤٦٨ م |
| الظاهر سيف الدين قمرغا | جمادى الأولى - رجب ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م |
| الأشرف سيف الدين قايتباي | ٨٧٢ - ٩٠١ هـ / ١٤٦٨ - ١٤٩٥ م |
| الناصر ناصر الدين محمد | ٩٠١ - ٩٠٢ هـ / ١٤٩٥ - ١٤٩٦ م |
| الأشرف سيف الدين قانصوه خسمانه | جمادى الأولى - جمادى الآخرة ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م |
| الناصر ناصر الدين محمد | ٩٠٢ - ٩٠٤ هـ / ١٤٩٧ - ١٤٩٩ م |
| الظاهر سيف الدين قانصوه الأشرفي | ٩٠٤ - ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ - ١٥٠٠ م |
| الأشرف سيف الدين جان بلاط | ٩٠٥ - ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ - ١٥٠١ م |
| العادل طومان باي الأول | جمادى الآخرة - شوال ٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م |

| السلطان | مدة حكمه |
|---|--|
| الأشرف قانصوه الغورى الأشرف طومان باى الثانى | ٩٠٦ - ٩٢٢ هـ / ١٥٠١ - ١٥١٦ م رمضان - ذى الحجة ٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م |

المصادر:

- ١ - البدرى حسن الطولونى : (رسالة) النزهة السنية فى ذكر الخلفاء والملوك المصرية ، ص ١٣٦ ، ١٤٣ ، نشرت فى كتاب التحفة البهية والطرفة الشهية ، ص ١١٥ ، ١٤٣ ، منشورات درا الافاق الجديدة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ٢ - ادوارد فون زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، ص ١٦٢ ، ١٦٤ ، ترجمة زكى محمد حسن بك ، حسن أحمد محمود ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥١ م .
- ٣ - ستانلى بول : طبقات سلاطين الاسلام ، ص ٧٨ ، ٨٢ ، ترجمة مكى طاهر الكعبى ، الدار العالمية للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

ملحق رقم (٢)

توقيع بشد دار الضرب *

رسم ... - لازال إحسانه يجود غمماً ، وفضله الشامل على الأولياء المتقين اماماً ، وسحائب بر كرمه هامية على أوليائه ، هاملة على أصفياه ، فتراهم يخرون للأذقان سجداً وينتصبون قياماً - أن يستقر المشار اليه فى شد دار الضرب : إعانة له على الخدمة الشريفة وارفاداً له بعلومها اذ هى ليست له بوظيفة لأنه أكبر من ذلك قدراً ، وأحق بكل منزلة عليه وأحرى ، ولكن هذه الجهة هى قانون المعاملة ، وسكتها بشعار الملك متصلة ، وبين الحق والباطل فاصلة ، ومنها النقوش التى هى رستاق الأرزاق ، وصدر كل إطلاق وقنطاق ، حكيم ما أرسل فى حاجة الا وأذن لها بالنجاح ، ولا استؤمن عليه امرؤ باذن الامام الا وحق له الإتصاف بالصلاح والفلاح ، هذا وهو فى الأصل مذموم ، وطالبه محروم : لأنه مقسوم ، والأجل محتوم ، ولكن تطهيره من الدنس واجب والحسبة فى عيابه حتى يغدو ويودق صفاته من الغش ناضب .

فليعتمد المشار اليه فى شد هذه الجهة حسن التقوى ، ويلاحظ بعزمه أموراً لتكون على السداد ، ويعتمد على السيد الناظر فإنه نعم لعاد ، ويفوض اليه كشف الروايص ، وحك العيار ، فهو به أدري وأحرى وأدرب بادحاض غش الفساد ، وليتناول معلومه المقرر له عند الوجوب والاستحقاق ، هنياً ميسراً خالصاً من التنازع والشقاق ، ومثله فلا يدل على صواب اذ تقوى الله تعالى كلمة الفصل ، وفصل الخطاب ، والله تعالى يجعلها لنا وله زاداً وحرزاً وذخراً يوم المعاد وركزاً .

ملحق رقم (٣)

توقيع بشهادة دار الضرب بطنابلس *

رسم الأمر - لازال رأي الشريف يقرب الأمور صواباً ، ولا برح أفق سماء
ملكته الشريفة يطلع بملكه بدرأ منيراً وشهاباً - أن يرتب فلان

لأنه العدل الذى اشتهرت عدالته ، والأمين الذى بهرت فظهرت أمانته ،
والرئيس الذى ما برح صدر المحافل ، والفاضل الذى فاق بفضله على الأقران
والأمائل ، وشهدت بتزاهته المشهورة الأواخر والأوائل .

فليباشر هذه الوظيفة مباشرة مطابقة لعدالته المشهورة ، معربة عن أصالته
المخبورة ، موضحة عن ديانتته التى غدت فى العالمين معروفة غير منكورة ،
ليصبح هذا المنصب مشرقاً بنوره سنى الأرجاء بساطع ضياء شهابه ونور بدوره ،
وهو - أعزه الله - غنى عن وصية منه تستفاد ، أو تنبيه على أمر منه يبدأ
واليه يعاد ، وليتناول معلومه الشاهد به الديوان المعمور هنا ميسراً ، ولا يقف
أمله عنده : فإننا لنترجو فوق ذلك مظهراً .

ملحق رقم (٤)

إبطال العمل بدار الضرب

لعدم توفر المعادن اللازمة لضرب النقود *

«وأما ما ذكره من أمر النحاس ، وقلته من عدم وصول شئ منه ، وأنه لم يوجد منه بعد الجهد سوى مبلغ عشرين قنطاراً عند الفرنج ، وأمر الفلوس العتق ويقائها ، وكثرة الفلوس الجدد ، وقلة وجود الدراهم والدينار ، وتوقف المعاش . بسبب ذلك ، وما عرضه على الآراء الشريفة ان اقتضت الآراء الشريفة إبطال دار الضرب نحو شهرين الى أن يحضر نحاس يستعمل ، وتخف الفلوس ويستصرف ما فى أيدي الناس ، فقد علمنا ذلك ، وأجينا سؤاله فيه ، ومرسومنا أن يعمل فيه بما تكون به المصلحة عامة للرعية ، وتبطل دار الضرب مدة يراها المقر الكريم» .

ملحق رقم (٥).

مرسوم أصدره السلطان المؤيد شيخ باعتماد

الدنانير الذهبية والدرهم الفضية بدل الفلوس النحاسية

فى عمليات الدفع النقدى *

« برز المرسوم الشريف لموالينا القضاة أعز الله بهم الدين أن يلزموا شهود
المحوائت بأن لا يكتب سجل أرض ولا إجارة دار ولا صداق امرأة ولا مسطور
بدين الا ويكون المبلغ من الدنانير المؤيدية ، ويبرز أيضاً للدواوين الملكية ،
ودواوين الأمراء والأوقاف أن لا يكتبوا فى دفاتر حساباتهم متحصلاً ، ولا
مصرفاً الا من الدراهم المؤيدية فتصير الدراهم المؤيدية ينسب اليها ما عداها
من النقود كما جعل الله تعالى الملك المؤيد عز نصره يضاف اليه ويتشرف به كل
من انتسب أو انتمى اليه والله تعالى أعلم » .

ملحق رقم (٦)

تعليمات دوق جمهورية فلورنسا سنة ١٤٢٢ م والمعاصر

للسلطان الأشرف برسباى الى قناصله فى مصر للدعاية

للفلورين والعمل على توسيع دائرة انتشاره *

« التمسوا منه - السلطان الأشرف برسباى - أن تكون عملتنا الذهبية والفضية مستخدمة فى مصر ، وتلقى رواجاً وقبولاً مثلها مثل أية عملة أخرى ، إن فلوريننا يقف على قدم المساواة مع الدوكات الفينيسية بل إنه يمتاز ويتفوق عليها فى العيار والوزن ، اظهروا له أن عياره أفضل ، والى أى سبب يعود ذلك ، إننا ننبهكم الى هذه الحقيقة ، أما بالنسبة للوزن فهذا أمر يسهل ملاحظته ، أصروا كلما أمكن ذلك ، وأعرضوا اختبار العملة بالنار وصهرها فى الوقت ذاته مع الدوكات ، اجتهدوا لمعرفة الشخص الذى يهتم بهذه الأشياء ، وأقيموا علاقات معه إن لما تفعلونه أهمية كبرى ، قولوا إنه يجب اختبار الذهب ، ثم قرروا بأن فلوريننا لم يتغير أبداً ، وبأنه فى العديد من البلاد ذو قيمة تعادل قيمة الدوكات ، وفى بعض الأحيان يتفوق عليه .

افعلوا بالمثل بالنسبة للفضة ، ولكن أصروا على الذهب حتى لو اضطررتم كى تصلوا الى الهدف أن تنفقوا بعض الأموال ، تصرفوا مثلما هو مشار اليكم من قناصل البحر ، إنكم لن تنفقوا على شئ إن لم تنفقوا بشأن العملات .

* A.R. Van Gennep,

Le Dukat venitien en Egypte pp 505 506

ملحق رقم (٧)

خطاب من السلطان الأشرف

فايتباى الى دوق البندقية

٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الموقر المحتشم الخطير الباسل المفخم الضرغام السيمدع الهمام مجد الملة
المسيحية جمال الطائفة الصليبية دوق البندقية والمائسين دوق كراك دين بنى
المعمودة صديق الملوك والسلاطين أدام الله تعالى بهجته ، وجدد مسرته على
أبوابنا الشريفة على يد المحتشم قاصده ، وأحطنا علماً بها ، وتقدم مثالنا
الشريف الى حضرة الدوق أعلمناه فيه بوصول القاصد المذكور ، وبما عاملناه به
من الاحسان بأعظم من جميع قصاد ملوك الفرنج الواردين على أبوابنا الشريفة
لما نتحققه من إخلاص حضرة الدوج فى محبتنا ، ودعائه لمقامنا الشريف ، وأن
مراسيمنا الشريفة برزت بقضاء جميع أشغاله وضروراته على حكم ما سأل فيه
صداقتنا الشريفة ، ورسنا بكتابة مراسيم شريفة الى الممالك الاسلامية بالوصية
لجميع تجار البندقية ، وأحوالهم عندنا مشددة ، ورسنا أيضاً بأن فلقل ذخيرتنا
الشريفة الذى يعطى لكم يكون سالماً من التراب والبلل والخلط ، كل ذلك لأجل
خاطر حضرة الدوج .

وغير ذلك مما تعرف به حضرة الدوج أن الذهب والفضة التى صارت تصل فى
القطايح ، وغيرها الى الثغر السكندرى وغيره يوجد فيها الغش ، بحيث أن
المائة درهم من الفضة اذا صفيت لم تقارب ستين درهماً ، وغالبها نحاس . وأما

القماش الذى يصل الى أبوابنا الشريفة من المخمل ، فغالبه مغشوش كالنحاس ، أما الجوخ فجرت العادة أن يكون ذراع كل خرقة خمسة وخمسين ذراعاً ، وقد صار الجوخ الآن كل خرقة منه لا تبلغ ثلاثين ذراعاً ، وفيه ما هو مقطوع من الوسط ، وتضرر تجار المسلمين بواسطة ذلك ، ونعجب كل العجب من هذه الأمور ، كونه يتفق مع تجار حضرة الدوج .

أعلمناكم بذلك ليصر على خاطركم ، وما نعرفه أن المركبين اللتين حضرتا صحبة المحتشم قاصده تعرض فيهما من الفرنج لجماعة المسلمين بالمسير الاسلامية ، وأخذوا منهم وأسروا ...

ألا يحضروا ذهباً وفضة مغشوشة ، ولا يجهزوا جوخاً ولا قماشاً ، الا كاملاً على ما جرت به العادة القديمة ، وأنهم لا يعتمدون قطع شئ من الخرق والجوخ ولا يفره ، ويؤكد عليهم فى ذلك ، ويعرفهم أنهم متى حصل منهم شئ من ذلك من الآن يقابلهم على ذلك ، ويصفى حضرة الدوج لما يطالعه به من المشافهة الصادرة هنا ، ويطلب حضرة الدوج البنادقة الذين كانوا بالمركبين المذكورتين على ما اعتمدوه مع المسلمين ، ويلزمهم بإعادة ما أخذوه بتمامه وكماله ، فإنذ هو الذى تحدى ، وفعل ذلك وأقدم عليه ، ولا يقبل ولا لمن كان معه فى ذلك عذر ولا حجة ، وإن حصل منهم تهاون فى ذلك ، فيجهزهم الى أبوابنا الشريفة لنقابلهم على ذلك بالمعدلة الشريفة ، وقد أعدنا قاصد حضرة الدوج اليه بهذا الجواب الشريف بعد أن أنعمت صداقتنا الشريفة عليه ، وعلى جماعته بخلع شريفة ، ونفقة ، وجهزنا على يده لحضرة الدوج ، وعلى سبيل الهدية وما تضمنته القائمة المجهزة على هذا المقال الشريف ، فحضرة الدوج يتسلم هذا ، ويطبب خاطره وخاطر تجار البنادقة ، ويعلمهم أنهم مشمولون بنظرنا الشريف

وعنايتنا الشاملة ، فنحيطه علماً بذلك والله الموفق بمدرك إن شاء الله تعالى .

فى عاشر شعبان الكرىم سنة سبع وسبعين وثمانمائة حسب المرسوم الشريف

الحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآل صحبه وسلم

ملحق رقم (٨)

بعض نصوص اتفاقية السفير البندقي «ترايفزاني»

والسلطان قانصوه الغورى ٩١٧ هـ / ١٥١١ - ١٥١٢ م

المعروفة بـ (الاتفاقية الشاملة) *

وهذه النصوص عبارة عن أسئلة من قبل السلطان يرد عليها السفير ويعتته ثم تجمع ويتفق على العمل بموجبها .

السؤال السادس

تصل الى الاسكندرية كل عام خمس سفن موسيمة ، هذا عدا السفينتين اللتين تتجهان الى ساحل المغرب ، وبلاده ، والسفينة التى نحبزها لخدمتنا الخاصة ، ويمجرد الانتهاء من البيع والشراء بانتهاء المدة تبقى بالاسكندرية كميات كبيرة من المتاجر من الزيوت والنحاس والرصاص والصوف ، وكلها لا تقل فى قيمتها عن ٣٠٠,٠٠٠ دوكات ، ويصير البيع والشراء والمتاجرة فيها على مدار السنة هى فى الواقع تحدث ما يسمى باسم السوق الدائم فى بلادنا أما الآن ، فبعد انتهاء المدة ، لاحظنا أنه لا يبقى من البضائع الا فى حدود ٢٠٠,٠٠٠ ألف دوكات ، كما أننا نلاحظ أنه لا يصل أكثر من ثلاث سفن موسمية بمفردها ، ومعها قليل من المراكب وقليل من السلع .

الاجابة

فيما يتعلق بعدد السفن القليلة التى وقلة ما تحمله من التوابل ، ومن

* د. نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ، ص ٤١١ - ٤١٢ .

السلع الأخرى ، وهو ما لا يملأ أكثر من سفينتين أو ثلاث ، فرداً على ذلك نفيد أنه إذا كانت هذه السفن قليلة ، فإن حملة الثلاث منها بالتوايل ليس بالقليل فى هذا الوقت ، فخلال القرن الماضى كانت التوايل غير مرتفعة الأسعار ، فمثلاً أوجد أنواع الزنجبيل الذى يساوى ما بين ٨ - ١٠ دوكات للقنطار الواحد فى القرن الماضى أصبح يساوى الآن ٤٥ دوكات ، وأسعار باقى التوايل ارتفعت بهذه النسبة ، بمعنى أن قيمة حمولة الثلاث سفن الآن تساوى ما قيمته ستة أمثال حمولة سفن العصر الفائت ، وهذا تفسير لقلة وصول السفن ، وقلة حمولتها فى القرن الماضى .

السؤال التاسع *

وصلنا كل عام ٤٠٠٠ قنطار من صفائح النحاس ، وأحياناً ٣٠٠٠ قنطار ، دون حساب باقى الأنواع الأخرى من النحاس ، أما فى العام الماضى ، فلم يصلنا أكثر من ٨٠٠ قنطار من الصفائح النحاسية ، وليس أكثر من ذلك .

الإجابة

إجابتنا على هذا أن ما يمنع تصدير نفس الكمية من النحاس كالعهد السابق هو أن الكمية التى كنا نحصل عليها ، ونصدرها لكم كانت تؤخذ بدون رضا ، أو رضا أصحابها ، ودون موافقتهم فى معظم الأحيان ، وفى مقابل ذلك كنا نعطيهم مواد ثمينة كالتوايل أما الآن فإن التجار لا يطمنون فى معاملة طيبة ، أو فى الحصول على ما يطلبون مقابل نحاسهم ولا يطمنون إلا أنهم سيبيعون بالأسعار التى يطلبونها لذا لا يتاجرون فى النحاس بعد ، وعلينا كذلك أن

نضع فى اعتبارنا مسألة السلام والعلاقات الطيبة مع الألمان ، وحرية التجارة معهم .

السؤال الحادى عشر *

كان يصل كل عام على السفن الموسمية ، والمراكب الاحتياطية أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ من النقد متعددة الأنواع ، أما الآن فلا يصل بالأكثر الا ٢٤.٠٠٠ دوكات من النقد فى عامين .

الإجابة

إن ما كان يجذب رؤوس الأموال هنا هو حرية التجارة والبيع والشراء فى التوابل على مدار السنة فى مصر بأسعار ملائمة لكل من المشتري والبائع ، ولكن الآن بعدما أصبح التاجر مرتبطاً بالأسعار فى المدة التالية بالسعر الذى يحدده السلطان قبل انتهاء المدة القائمة ، فإن أى تاجر أصبح لا يحازف بإرسال أمواله وتجارته الى مصر ، اذ ليس بإمكانه بذلك أن ينظم أعماله التجارية وفق ارادته ، وعلى أى حال فإن البهار الذى يكون الموارد الرئيسية فى تجارتنا معكم ، والذى يجذب الكثير من التجار ، ورؤوس الأموال لم يعد بإمكاننا شراء كميات كبيرة منه بسبب المبالغة الشديدة فى الأسعار فى مصر .

السؤال الرابع عشر *

كل الذهب والفضة الذى يصلنا لاسكندرية سبائك أو عملة لا تباع الا لدار الذخيرة الشريفة ويسعر السوق الجارى ، واذا أراد بائع هذه المعادن رفع أثمانها ،

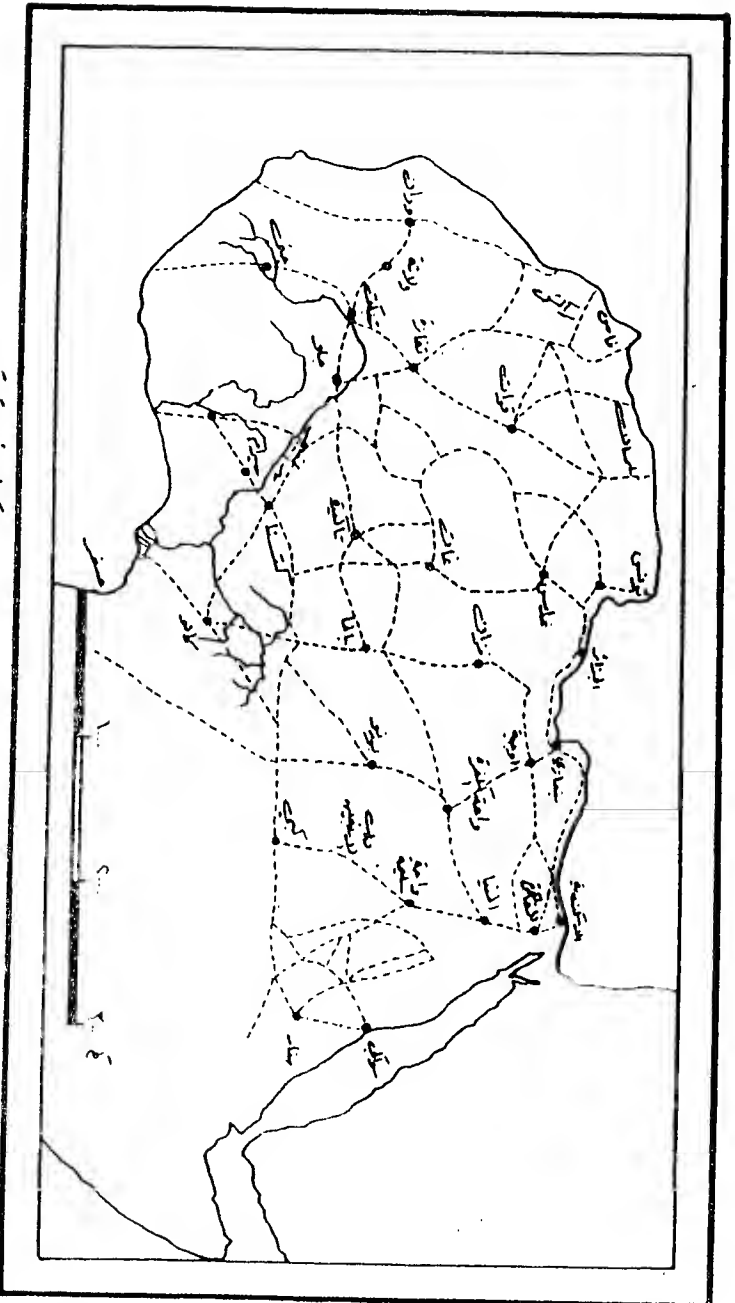
* ص ٤١٤ - ٤١٥ .

* ص ٤١٦ - ٤١٧ .

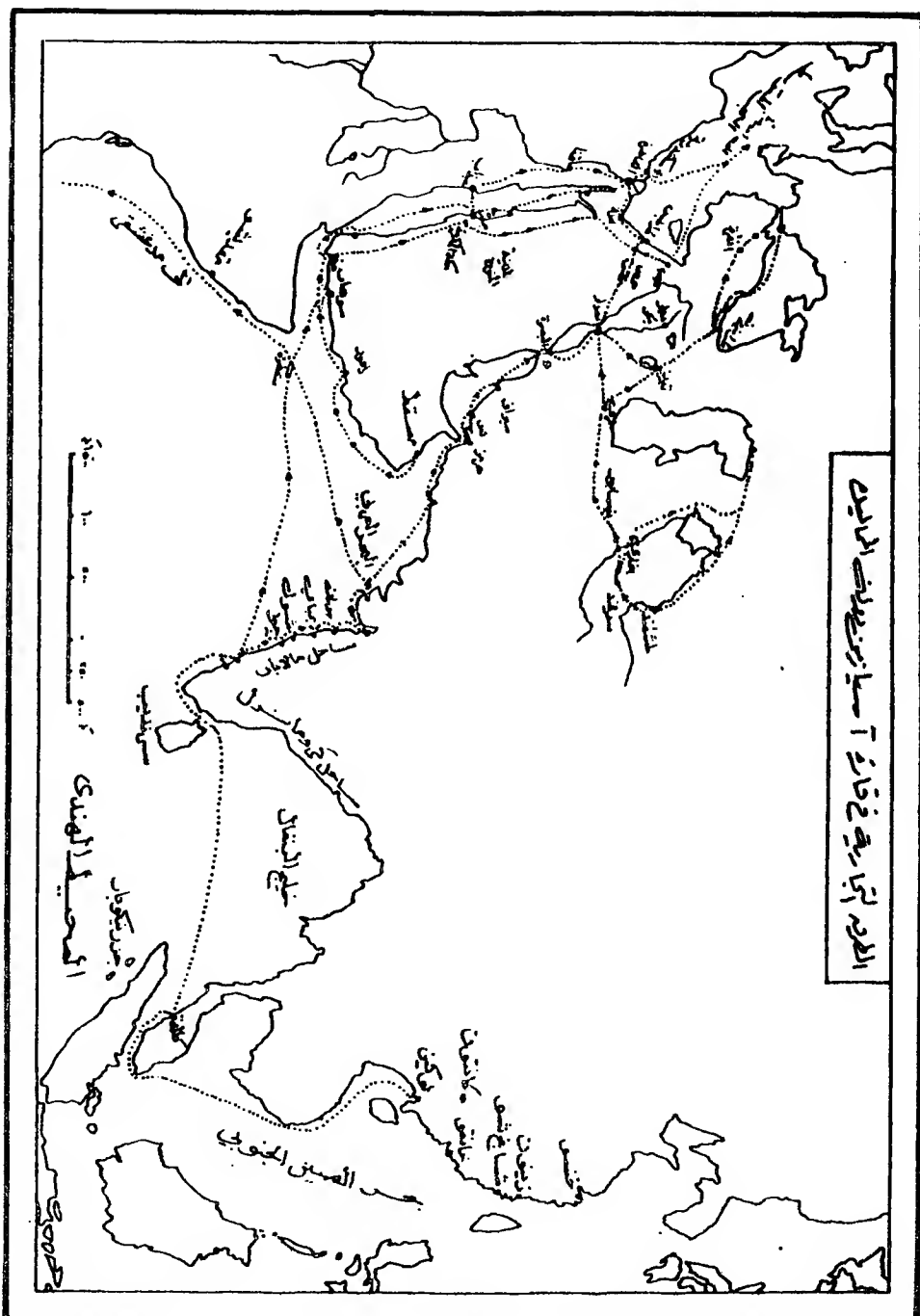
فهو فى ذلك السيد المطلق على الأقل اذا لم يرد استبدالها بتواهل من تجار الاسكندرية ، وفى هذه الحالة يؤذن للتجار بترك مالهم فى دار الذخيرة بدون أى خوف من أن يختلس منه شئ ، حتى يتم لهم الشراء ضمناً لأموالهم ، وضماناً لتجارة وأموال التجار بالاسكندرية ، وليكن معلوماً أنه اذا حدث أن أى بندقى حاول بيع الفضة لغير دار الذخيرة الشريفة الخاصة بها فإن هذه الكمية تصادر لصالح دار الذخيرة الشريفة .

الاجابة

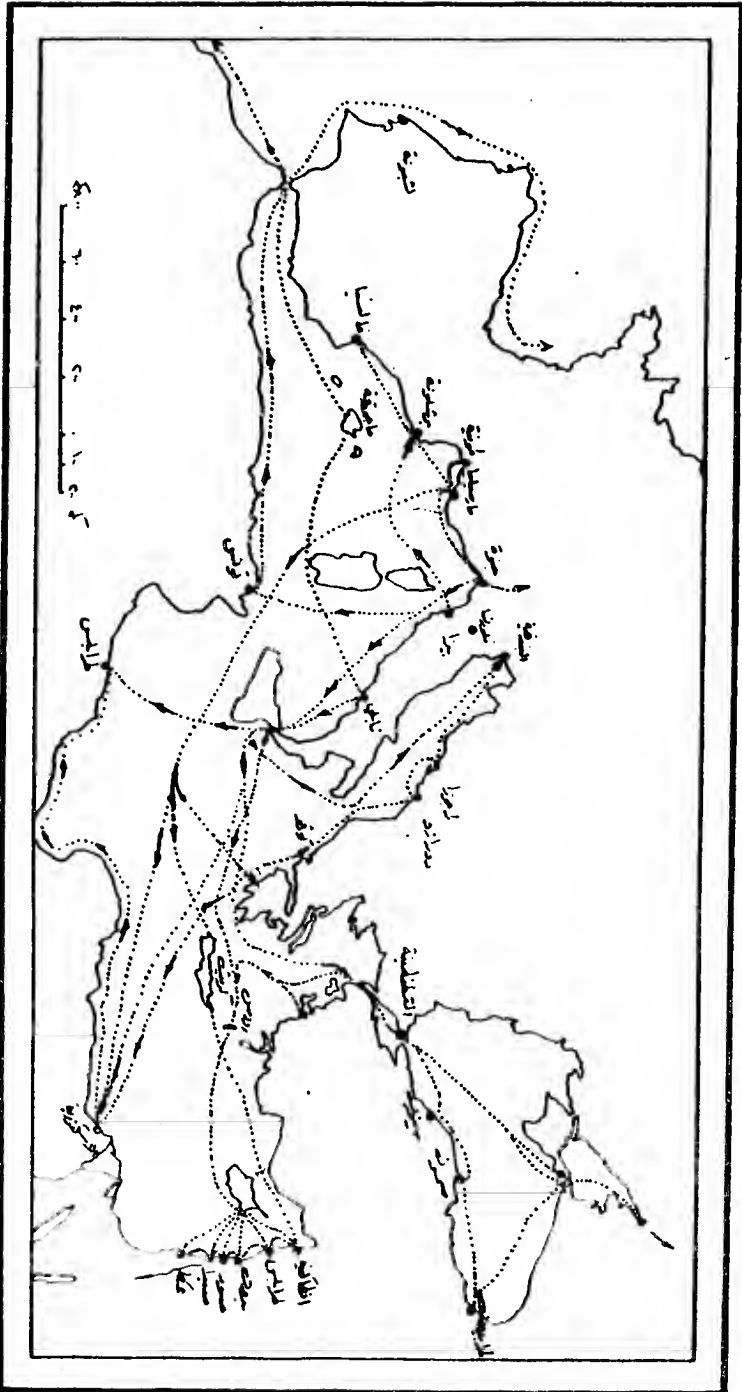
اذا كان هناك شئ يجب أن تترك حرية تجارته ، وأن تسهل عمليات تداوله والتعامل به فهو لا شك الذهب والفضة ، واذا أجبر أولئك الذين يقومون ببيعه على خطة معينة وللفرد دون فرد ، فمعنى هذا أن الحرية منعدمة تماماً ، وهذا يجعل التجار يحجمون عن الحضور ، لذا فإنه من الأفضل أن يتركوا أحراراً فى عرض سلعهم حسب رغبتهم ، وبيع فضتهم حسب السوق التجارية ، وبهنا هنا فى ذلك الاهتمام بالموازن ، كما هو متبع فى البندقية والمدن الايطالية الأخرى ، أما السبب فى نقص الفضة عما كانت عليه من قبل ، فهو لأن الحرب قد وضعت أوزارها بعد أن وضعت عراقيل ازاء اخراجها من المناجم ، ولأن الكمبة الكبيرة منها قد مرت الى لشبونة لاستخدامها فى شراء تواهل الهند ، وبهارها بأسعار رخيصة ، ونأمل ألا يفهم أى فرد من العامة أن السلطان له اعتراض على هذا الأمر .



المصدر : أحمد إبراهيم دياب ، طريق د رب الأنبياء بين سلطنة د انور الإسلامية ومصر العثمانية ، ص ١٢١ ، محمد أنور توفيق ، دولة سنغافى الإسلامية ، ص ٩٣ .



ملحق رقم (٩ / ج)



الطريق التجارية بين موانئ البحر الأحمر والبحر العربي

المصدر : تعميم زكي فهد ، طرق التجارة الكولمبية ، ص ٣٠٩ ، ١٩٤١ - ٤١٣ .

الفهارس

فهرس المصادر والمراجع

- أولا: الوثائق .
- ثانياً: المصادر المخطوطة .
- ثالثاً: المصادر المطبوعة .
- رابعاً: المراجع العربية .
- خامساً: البحوث والرسائل العلمية .
- سادساً: المصادر والمراجع المترجمة .
- سابعاً: المراجع غير العربية .

أولاً: الوثائق

- ١ - مرسوم بتعيين على وظيفة شاد بدار الضرب . (ملحق رقم ٢)
- ٢ - مرسوم بتعيين على وظيفة شاهد بدار الضرب . (ملحق رقم ٣)
- ٣ - مرسوم بوقف العمل بدار الضرب . (ملحق رقم ٤)
- ٤ - مرسوم بالتعامل بالدنانير والدراهم بدل الفلوس . (ملحق رقم ٥)
- ٥ - خطاب من دوق فلورنسا الى قناصله فى مصر للدعاية للفلورين والعمل على نشر التعامل به . (ملحق رقم ٦)
- ٦ - خطاب من السلطان الأشرف برسباى الى دوق البندقية . (ملحق رقم ٧)
- ٧ - الاتفاقية التجارية المعقودة بين السلطان المعز أيبك ودوق البندقية (رينوزينو) عام ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م .
- ٨ - الاتفاقية التجارية المعقودة بين السلطان الناصر محمد بن قلاوون ودوق البندقية بطرس جرادنجو عام ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م .
- ٩ - الاتفاقية التجارية المعقودة بين السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ودوق البندقية جيوفانى جرادنجو عام ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م .
- وقد نشرت الوثائق الثلاث السابقة د. عفاف صبرة مترجمة فى كتاب العلاقات بين الشرق والغرب ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٣ م ، ص ٢٧٧ ، ٢٩٩ .
- ١٠ - نصوص من الاتفاقية الشاملة المعقودة بين مصر والبندقية عام ٩١٧ هـ / ١٥١١ - ١٥١٢ م . (ملحق رقم ٨)

١١ - وثيقة بيع من القرن العاشر الهجرى / أواخر القرن الخامس عشر الميلادي

١٢ - وثيقة من القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادي .

١٣ - وثيقة بيع رقم ١٣٩ .

١٤ - وثيقة بيع رقم ٦٧٦ .

وقد نشر وثائق البيع السابقة د. محمد محمد أمين فى كتاب فهرس وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك من منشورات المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨١ م ، ص ٣٣٣ ، ٤٠٦ .

١٥ - بعض وثائق تتعلق ببيع وشراء خيول من العصر المملوكى .

نشرتها د. آمال العمرى فى مجلة معهد المخطوطات العربية مج ١٠/١٩٦٤ م ، ص ٢٢٣ ، ٢٨٦ .

١٦ - وثيقة وقف السلطان الناصر محمد بن قلاوون نشرها د. محمد أمين ملحقة بكتاب تذكرة النبیه فى أيام المنصور وبنیه ، ج ٢ ، ص ٣٨٦ ، ٤٢٦ .

١٧ - وثيقة وقف السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، نشرها أيضاً د. محمد أمين ملحقة بكتاب تذكرة النبیه ، ج ٣ ، ص ٣٤٩ ، ٤٤٩ .

١٨ - وثيقة وقف الأمير بلبغا ، نشرها د. محمد أمين فى كتاب فهرس وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك ، ص ٤٢٣ ، ٤٣٩ .

١٩ - حجة وقف السلطان الأشرف برسباى ، نشر جزءاً منها محمد كامل مراد

فى سياسة الأشرف برسباى الداخلية وعلاقاته الخارجية ، رسالة دكتوراه
غير منشورة ، كلية أصول الدين ، جامعة الأزهر ، رقم ١٤٦ ، عام
١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .

ونشرها أيضاً د. أحمد دراج ، من منشورات المعهد العلمى الفرنسى
للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

٢٠ - وثيقة وقف السلطان الأشرف قايتباى على المدرسة الأشرفية وقاعة
السلاح بدمياط ، نشرها د. محمد محمد أمين فى المجلة التاريخية
المصرية ، مج ٢٢/ ١٩٧٥ م ، ص ٣٤٣ ، ٣٩٠ .

٢١ - وثيقة وقف السلطان الأشرف قايتباى على المدرسة الأشرفية بالقدس
والجامع بغزة ، نشرها د. عبد اللطيف ابراهيم فى المؤتمر الثالث للآثار فى
البلاد العربية ، نوفمبر ١٩٥٩ م ، ص ٣٨٩ ، ٤٦٠ .

ثانياً: المصار المخطوطة

- ابن بهادر : محمد بن محمد بن محمد (ت ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م) :

٢٢ - فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر .

نسخة مصورة بجامعة القاهرة رقم ٢٦١٦٦ .

- ابن تغرى بردى : جمال الدين يوسف بن تغرى بردى بن عبد الله الظاهرى (ت
٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م) .

٢٣ - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، ج ٢ ، دار الكتب المصرية ، رقم
١١١٣ ، تاريخ .

- ابن حبيب : الحسن بن عمر (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) :

٢٤ - درة الأسلاك فى دولة الأتراك .

جامعة القاهرة رقم ٢٢٩٦١ .

- ابن دقماق : صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيذر العلائى (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) .

٢٥ - الجواهر الثمين فى سير الملوك والسلطين .

نسخة مصورة على ميكروفيلم بمعهد إحياء إحياء المخطوطات العربية
بالقاهرة ، رقم ٢٠٨ .

- ابن شاعر الكتبى : محمد بن أحمد ، (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م)

٢٦ - عيون التواريخ ، ج ٢٢ .

دار الكتب المصرية رقم ١٤٩٧ تاريخ .

- ابن الهائم : أحمد بن محمد بن عماد الدين المصرى (ت ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م)

٢٧ - نزهة النفوس فى بيان حكم التعامل بالفلوس .

دار الكتب المصرية ، رقم ١٠٧٣ فقه شافعى .

- الخالدى ، بهاء الدين محمد بن لطف الله بن عبد الله العمرى (ت ٩٩٧ هـ / ١٥٣٠ م) .

٢٨ - المقصد الرفيع المنشأ الهادى الى صناعة الانشاء .

نسخة مصورة بجامعة القاهرة رقم ٢٤٠٤٥ .

- العمرى : شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) :

٢٩ - مسالك الأبصار فى ممالك الأبصار ، ج ٢٧ ، ق ٤ ، ج ١ ، ج ٢ .

نسخة مصورة بعمادة البحث العلمى بجامعة الامام محمد محمد بن سعود الاسلامية عن نسخة دار الكتب المصرية رقم ٥٦٠ معارف عامة .
عن نسخة بودليان رقم (BPB - 1690) .

- العينى : بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥٢ م) :

٣٠ - عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، ج ٢٣ ، ج ٢٤ ، ج ٢٥ .

دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ .

- الكرمى : مرعى بن يوسف بن أبى بكر (ت ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م) :

٣١ - نزهة الناظرين فيمن ولى مصر من الخلفاء والسلطين .

دار الكتب المصرية رقم ٢٠٧٦ تاريخ .

- المنصورى : ركن الدين بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) :

٣٢ - التحفة المملوكية فى الدولة التركية .

جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٩ .

- مؤلف مجهول :

٣٣ - الزهر السنية فى ذكر فى ذكر الخلفاء والملوك المصرية .

دار الكتب المصرية رقم ١٢٨ تاريخ

- النورى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) :

٣٤ - نهاية الأرب فى فنون الادب ج ٢٨ ، ج ٢٩ ، ج ٣٠ ، ج ٣١ . دار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة .

ثالثاً: المصادر المطبوعة (*) :

- ابن إياس : ابو البركات محمد بن أحمد الحنفى (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) :

٣٥ - بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

- ابن ابيك : أبو بكر عبد الله بن أبيك الدوادار (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) :

٣٦ - كنز الدور وجامع الغرر .

- الجزء الثامن الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية ، تحقيق أولرخ هارمان ، مطبعة عيسى البابى الحلبي ، القاهرة ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

- الجزء التاسع ، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق هانس روبرت روبر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .

* ورد ضمن هوامش الرسالة عدد من المصادر التاريخية وغير التاريخية وكذلك مراجع تاريخية ، وغير تاريخية ، ونظراً لعدم الاعتماد عليها مباشرة ورئيسية سوى مرة أو مرتين فى جميع فصول الرسالة ، فقد رأيت عدم ذكرها ضمن فهرس المصادر والمراجع ، واكتفيت بالترصيف بالمصدر أو المرجع (مؤلفه ومكان الطبع وسنته وغير ذلك) عند أول ذكر له .

- ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) :

٣٧ - الرحلة (تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ، تحقيق د .
على المنتصر الكنانى ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثالثة ، بيروت ،
١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

- ابن بعرة : منصور بن بعرة الذهبى توفى أواخر النصف الثانى من القرن
السابع الهجرى .

٣٨ - كشف الاسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، تحقيق عبد الرحمن فهمى ،
لجنة إحياء التراث الإسلامى ، القاهرة ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م .

- ابن تغرى بردى : ابور المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م)

٣٩ - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، عن طبعة دار الكتب المصرية ،
القاهرة ، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م .

٤٠ - المنهل الصافى والمستوحى بعد الواحى ، ج ١ ، تحقيق أحمد يوسف
مجاتى ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ / ١٩٦٥ م
ج ٣ ، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،
القاهرة ، ١٩٨٦ م

٤١ - حوادث الدهور فى مدى الايام والشهور ، نشر وليام بوير - كاليفورنيا
١٩٣٠ م .

٤٢ - الدليل الشافى على المنهل الصافى ، تحقيق فهمى شلتون ، نشر مركز
البحث العلمى والتراث الإسلامى ، بجامعة أم القرى ، مكة المكرمة ،

١٣٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

- ابن حبيب : الحسن بن عمر (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) :

٤٣ - تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، تحقيق محمد محمد أمين ، مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٧٦ م .

- ابن حجر العسقلانى : الحافظ شهاب الدين أحمد بن على بن حجر (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) .

٤٤ - إنباء الفمر بأبناء العمر ، تحقيق حسن حبشى ، مطابع الاهرام ، القاهرة ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٦ / ١٩٦٩ م .

٤٥ - الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، مطبعة المدنى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م .

- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) :

٤٦ - المقدمة ، دار الشعب ، القاهرة .

- ابن دقماق : صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيذر (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) :

٤٧ - الجواهر الثمين فى سير الملوك والسلطين ، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين ، عالم الكتب ، الطبعة الاولى ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

- ابن الرقعة : ابو العباس نجم الدين أحمد بن محمد (ت ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م)

٤٨ - الايضاح والتبيان فى معرفة المكيال والميزان ، تحقيق محمد أحمد

- إسماعيل الخاروف ، مركز البحث العلمى وإحياء التراث الاسلامى ،
جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
- ابن شاهين : غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى (ت ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م :
٤٩ - زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بولس راويس ، مطبعة
المثنى الطبعة الاولى - بغداد ، ١٨٩٣ م .
- ابن شاکر الکتبى : محمد بن أحمد (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) :
٥٠ - عيون التواريخ ج ٢٠ ، ج ٢١ ، تحقيق فيصل السامر ، ونبيلة عبد
المنعم داود ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨١ م ، ١٩٨٤ م .
- ٥١ - فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ،
١٩٧٣ م .
- ابن طولون : شمس الدين محمد بن على بن محمد الصالحى (ت ٩٥٣ هـ /
١٥٤٦ م) :
- ٥٢ - مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، ج ١٨ ، تحقيق محمد مصطفى ،
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ،
١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م .
- ابن عبد الظاهر : محبى الدين أبو الفضل عبد الله (ت ٦٩٢ هـ /
١٢٩٢ م) :
- ٥٣ - الروض الزاهر ، فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر د . عبد العزيز
الخويطر ، الطبعة الاولى ، الرياض ، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

- ابن العماد الحنبلي : ابو الفلاح عبد الحى بن أحمد (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٩ م)

٥٤ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت (ب - ت) .

- ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م) :

٥٥ - تاريخ الدول والملوك (تاريخ ابن الفرات) .

تحقيق قسطنطين زريق ، مجلاء عز الدين ، المطبعة الأمريكية ، بيروت

- ابن قاضى شهاب : تقى الدين أبو بكر أحمد (ت ٨٥١ هـ / ١٤٤٨ م) :

٥٦ - تاريخ ابن قاضى شهاب ، مج ١ ، ج ٣ ، تحقيق عدنان درويش ، المعهد العلمى الفرنسى للدراسات العربية ، دمشق ، ١٩٧٧ م .

- ابن القيم الجوزية : شمس الدين محمد ابن أبى بكر (ت ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م) .

٥٧ - الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ، دار الكتب العلمية ، بيروت (ب - ت)

- ابن كثير عماد الدين أبو العز اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) .

٥٨ - البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ج ١٤ ، دار الفكر العربى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

- ابن نماتى : الاسعد شرف الدين أبو المكارم (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) :

٥٩ - قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، مطبعة مصر ، الطبعة الأولى ، ١٩٤٣ .

- ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم الانصارى (ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م) .

٦٠ - لسان العرب ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف ، القاهرة ١٣٠٨ هـ .

- ابن الوردي : ابو حفص عمر بن مظفر بن عمر (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) :

٦١ - جريدة العجائب وفريدة الغرائب ، مطبعة محمد شاهين ، القاهرة ، ١٢٨٠ هـ .

- أبو شامة : شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) :

٦٢ - تراجم رجال القرنين السادس والسابع (الذيل على الروضتين) ، دار الجيل ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٧٤ م .

- أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل بن علي ، الملك المؤيد (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) :

٦٣ - المختصر في أخبار البشر ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، (ب-ت) .

- الأسدى : محمد بن محمد (ت ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م) :

٦٤ - التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار فيما يجب من حق التدبير

والتصرف والاختيار ، تحقيق عبد القادر طلبيات ، دار الفكر العربى ،
القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

- الحكيم : ابو الحسن على بن يوسف (توفى بعد سنة ٧٥٩ هـ / ١٣٧٥ م) :
٦٥ - الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة ، تحقيق حسين مؤنس ،
مطبعة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، الطبعة الأولى ،
١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .

- الحميرى : محمد عبد المنعم (توفى أواخر النصف الاول من القرن الثامن
الهجرى) .

٦٦ - الروض المطار فى خبر الاقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ،
الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٨٤ م .

- الذهبى : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) :

٦٧ - دول الاسلام : تحقيق فهم شلتوت ، محمد مصطفى ابراهيم ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .

٦٨ - العبر فى خبر من غير ، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد زغلول ، دار
الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ .

- الرازى : محمد بن أبى بكر بن عبد القادر (ت ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م) .

٦٩ - مختار الصحاح ، دار الكتاب العربى ، الطبعة الاولى ، بيروت ،
١٩٦٧ م .

- السخاوى : محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عثمان (ت ٩٠٢ هـ /

: (م ١٤٩٦)

٧٠ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ،
(ب - ت)

٧١ - التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة
(ب - ت) .

٧٢ - الذيل على رفع الأصغر (بغية العلماء والرواة) تحقيق جودة هلال ومحمد
محمود صبح ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، (ب - ت) .

٧٣ - الذيل التام على دول الإسلام ، تحقيق أحمد عبد الله الحسو ،
رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب جامعة عين شمس ،
رقم ١٣٤١٦ .

- السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد (ت ٩١١ هـ /
١٥٠٥ م) :

٧٤ - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل
إبراهيم ، مطبعة عيسى البابى الحلبي ، الطبعة الاولى ، القاهرة
١٩٦٧ م .

٧٥ - تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ، المكتبة
التجارية الكبرى ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م .

٧٦ - نظم العقيان فى أعيان الأعيان ، نشر فيليب حتى ، نيويورك ،
١٩٢٧ م .

- الشجاعى : شمس الدين الشجاعى (ت ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م) :

٧٧ - تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده ، تحقيق بهارة شيفر ، مطبعة عيسى البابى الحلبي ، القاهرة ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

- الشوكاني : محمد بن على (ت ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م) :

٧٨ - البدر الطالع بحاسن من بعد القرن السابع ، مطبعة السعادة ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ .

- الصيرفى : ابن الخطيب الجوهري على بن داود (ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م) :

٧٩ - نزهة النفوس والابدان فى تواريخ الزمان ، تحقيق حسن حبشى ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .

٨٠ - إنباء الهصر بأبناء العصر ، تحقيق حسن حبشى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .

- العمرى : شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) :

٨١ - مسالك الابصار فى ممالك الأمصار .

(ممالك مصر والشام واليمن والحجاز) تحقيق أين فؤاد سيد ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٨٥ م .

(دولة المماليك الأولى) تحقيقى دوروتا كرافولكى ، المركز الاسلامى للبحوث ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .

- العينى : بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥٢ م) :

٨٢ - عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان .

(حوادث سنة ٨١٥ هـ / ٨٢٣ هـ) تحقيق عبد الرازق القرموط ، مطبعة
علاء ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م .

(حوادث سنة ٨٢٤ / ٨٥٠ هـ) تحقيق عبد الرازق القرموط ، رسالة
دكتوراه غير منشورة - كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، رقم ٢٢١٢
سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

- الفيروز آبادى : مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م) :
٨٣ - القاموس المحيط ، دار الجيل عن طبعة مصطفى البابى الحلبي
١٣٧١ هـ .

- القزوينى : رضى الدين محمد الحسن القزوينى (ت ١٠٩٦ هـ / ١٦٨٥ م) :
٨٤ - ميزان المقادير فى تبيان التقادير ، نشرها محمود شكرى الالوسى فى
مجلة المقتبس ، مج ٥ ، ج ١٢ ، ص ٦٨٦ ، ٦٩٨ / ص ٧٥٠ ،
٧٦٥ .

- القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على بن أحمد (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) :
٨٥ - صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية
سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م . القاهرة .

٨٦ - مآثر الإنافة فى معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، نشر
وزارة الإرشاد والأثباء فى الكويت ، ١٩٦٤ م .

- المغربى : أبو الحسن على بن موسى بن سعيد (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) :
٨٧ - كتاب الجغرافيا ، تحقيق إسماعيل العربى ، المكتب التجارى للطباعة

والنشر الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٧٠ م .

- المقرئى : تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) :

٨٨ - السلوك لمعرفة دول الملوك ، حقق الجزئين الأول والثانى د . محمد مصطفى زيادة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، عام ١٩٣٤ م ، ١٩٤٢ م .

وحقق الجزئين الثالث والرابع سعيد عاشور ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٢ م .

٨٩ - إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، جمال الدين الشيال ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م .

٩٠ - النقود القديمة الإسلامية (النقود) تحقيق ونشر انستاس مارى الكرملى ، فى كتاب النقود العربية وعلم النميات . الناشر محمد أمين دمج ، بيروت ١٩٣٩ م .

٩١ - الأوزان والأكيال الشرعية ، نشر أولايوس جيرهاردوس تاخيسن ، فى المجلة العلمية المختصة بالوثائق العربية ، ١٨٠٠ م .

٩٢ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقرئية) ، دار صادر ، بيروت ، عن طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ / ١٩٢٢ م .

- المناوى : محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن على (ت ١٠٣١ هـ / ١٦٢١ م) :

٩٣ - النقود والمكايل والموازن ، تحقيق رجاء محمود السامرائي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨١ م .

- المنصوري : ركن الدين بيبرس (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) :

٩٤ - زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ، تحقيق زبيدة عطا .، ضمن رسالة ماجستير ، كلية الاداب ، جامعة القاهرة ، رقم ١٠٢٤ ، عام ١٩٧٢ م .

- مؤلف مجهول :

٩٥ - تاريخ سلاطين المالك ، نشر زترشتين ، ليدن ١٩١٩ م .

- مؤلف مجهول :

٩٦ - حوليات مشقية ، تحقيق حسن حبشى ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .

- النويرى : شهاب الدين أحمد بن عيد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) :

٩٧ - نهاية الأرب فى فنون الأدب ، الأجزاء ١ ، ٣ ، ٨ ، مطبعة دار الكتب المصرية (ب - ت) .

- النويرى : محمد بن قاسم بن محمد الاسكندراني (ت بعد ٧٧٥ هـ / ١٣٧٢ م) :

٩٨ - الإلام بالإعلام بما جرت به الأحكام والأمور المقضية بوقعة الإسكندرية تحقيق إتيين كومب وعزيز سوريال عطية ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد ، الهند ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

- الوزان : الحسن بن محمد الزناتى (ت حوالى ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م) :
- ٩٩ - وصف افريقيا ، ترجمة عن الإنجليزية عبد الرحمن حميدة ، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٣٩٩ هـ .
- الرطواط : محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبى (ت ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م) :
- ١٠٠ - مباحج الفكر ومناهج العبر ، تحقيق ودراسة عبد العال عبد المنعم الشامى ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون ، الطبعة الأولى ، الكويت ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ .
- ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) :
- ١٠١ - معجم البلدان ، دار صادر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م .
- اليوسفى : موسى بن محمد بن يحيى (ت ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م) :
- ١٠٢ - نزهة الناظر فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق أحمد خطبى ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .
- اليونينى : قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد بن أحمد (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م) :
- ١٠٣ - ذيل مرآة الزمان ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، الطبعة الزولى ، حيدر آباد ، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م .

الوسطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٣٩٣ هـ /
١٩٧٣ م .

خامساً: البحوث والرسائل العلمية:

- أحمد إلياس حسين :

١٢٢ - الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس
عشر كما عرفها الجغرافيون العرب ، رسالة ماجستير غير منشورة ،
كلية الاداب ، جامعة القاهرة ، رقم ١٥٧٧ ، عام ١٩٧٦ م .

- أحمد عطية الله :

١٢٣ - القاموس السياسى ، دار النهضة العربية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ،
١٩٨٥ م .

- أمين توفيق الطيبى :

١٢٤ - النقود العربية إنتشارها وأثرها فى أوروبا فى العصور الوسطى ،
ضمن كتاب دراسات وبحوث فى تاريخ المغرب والاندلس ، الدار العربية
للكتاب ، تونس ، ١٩٨٤ م .

- أنستاس مارى الكرملى :

١٢٥ - النقود العربية وعلم النميات ، نشر محمد أمين دمج ، بيروت ،
١٩٣٩ م .

- توفيق اسكندر :

١٢٦ - نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية مصر الخارجية فى العصر

العباسية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٦ م .

- عوف محمود الكفراوي :

١١٦ - النقود والمصارف فى النظام الرسمى ، دار الجامعات المصرية ، الاسكندرية (ب - ت) .

- قاسم عبده قاسم :

١١٧ - دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ م

- محمد ضياء الدين الرئيس :

١١٨ - الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، دار الانتصار ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٧٧ م .

- مصطفى الهمشرى :

١١٩ - النظام الاقتصادى فى الاسلام ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى الرياض ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

- ناصر النقشبندى :

١٢٠ - الدينار الإسلامى فى المتحف العراقى ، ج ١ ، المجمع العلمى العراقى ، بغداد ، ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م .

- نعيم زكى فهمى :

١٢١ - طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور

- عادل الالوسى :

١١٠ - تجارة العراق البحرية مع اندونيسيا حتى أواخر القرن السابع الهجرى /
أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، دار الحرية ، الطبعة الأولى ، بغداد ،
١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

- عادل زيتون :

١١١ - العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ،
دار دمشق للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، دمشق ، ١٤٠٠ هـ /
١٩٨٠ م .

- عباس العزاوى :

١١٢ - تاريخ النقود العراقية ، شركة التجارة والطباعة ، الطبعة الأولى ،
بغداد ، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م .

- عبد الرحمن فهمى محمد :

١١٣ - النقود العربية ماضيها وحاضرها ، المؤسسة المصرية للتأليف ، القاهرة
، ١٩٦٤ م .

- عبد العزيز الخويطر :

١١٤ - الملك الظاهر بيبرس ، دار الأصفهاني وشركاه ، الطبعة الأولى ، جدة ،
١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

- عطية القوصى :

١١٥ - تجارة مصر فى البحر الاحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة

رابعاً: المراجع العربية:

- إبراهيم طرخان :

١٠٤ - النظم القطاعية فى الشرق الاوسط فى العصور الوسطى ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

١٠٥ - إمبراطورية غانة الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

- أبو بكر الصديق عمر متولى ، وشوقى إسماعيل شحاته :

١٠٦ - اقتصاديات النقود فى إطار الفكر الإسلامى ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

- أنطوان خليل ضومط :

١٠٧ - الدولة المملوكية ، التاريخ السياسى والاقتصادى والعسكرى ، دار الحداثة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨٠ م .

- حسن الباشا :

١٠٨ - الفنون الإسلامية والوظائف على الاثار العربية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٥ م .

- سامح عبد الرحمن فهمى :

١٠٩ - الوحدات النقدية المملوكية ، تهامة للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، جدة .

الوسيط ، المجلة التاريخية ، المصرية ، مج ٦ ، / ١٩٥٧ م .

- رأفت النبراوى :

١٢٧ - مسكوكات الماليك الجراكسة وقيمتها النقدية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، رقم ٣٥٧٤ .

- سيدة اسماعيل كاشف :

١٢٨ - دراسات فى النقود الاسلامية ، المجلة التاريخية المصرية ، مج ١٢ / ١٩٦٤ م .

- طاهر راغب حسين :

١٢٩ - دار السكة الأيوبية والمرينية نموذجان لدور السكة المصرية والمغربية ، ندوة التاريخ الإسلامى ، مج ٣ ، القاهرة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

- عبد الرحمن فهمى محمد :

١٣٠ - من فضة الأيوبيين الى نحاس الماليك ، مجلة مرآة العلوم ، مج ٧ ، العدد الثالث ١٩٦٤ م .

١٣١ - مقدمة كتاب كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية لمنصور بن بكرة الذهبى .

- محمد أبو الفرج العش :

١٣٢ - مصر ، القاهرة على النقود العربية الإسلامية ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ج ٢ ، مطبعة مطبعة دار الكتب ، ١٩٧١ م .

- محمد أحمد إسماعيل الخاروف :

١٣٣ - هوامش كتاب كتاب الايضاح والتبيان فى معرفة المكيال والميزان لابن
الرفعة الانصارى .

- محمد أمين صالح :

١٣٤ - التنظيمات الحكومية لتجارة مصر فى عصر المماليك الجراكسة ، رسالة
دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، رقم ١٧١٢٢

- محمد أنور توفيق على :

١٣٥ - دولة سنغاي الإسلامية وتطورها الاقتصادى ، رسالة ماجستير غير
منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، رقم ٢٣٠٣ عام ١٩٧٧ م .

- محمد باقر الحسينى :

١٣٦ - الكنى والالقباب على نقود المماليك البحرية والبرجية فى مصر والشام ،
مجلة المورد ، المجلد الرابع العدد الأول ، ١٩٧٥ م .

- محمد الصغير عهد اللطيف :

١٣٧ - العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا الجنوبية ، رسالة دكتوراه غير
منشورة ، كلية أصول الدين ، جامعة الأزهر ، رقم ١٤٢ .

- محمد محمد أمين :

١٣٨ - علاقات دولة سنغاي بمصر فى عصر سلاطين المماليك ، مجلة الدراسات
الافريقية ، العدد الرابع ، ١٩٧٥ م .

١٣٩ - تطور العلاقات العربية الافريقية فى العصور الوسطى ، ضمن كتاب العلاقات العربية الافريقية دراسة تحليلية فى أبعادها المختلفة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨ م .

- مجموعة من الاساتذة :

١٤٠ - معجم العلوم الاجتماعية ، إعداد نخبة من المختصين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥ م .

- مجموعة من الاساتذة :

١٤١ - الموسوعة العربية الميسرة ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .

سادساً: المصادر والمراجع المترجمة:

- بيروطافور :

١٤٢ - رحلته ، ترجمة حسن حبشى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .

- ماركوپولو :

١٤٣ - رحلاته ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .

- إدوارد بروى :

١٤٤ - تاريخ الحضارات العام (القرن الوسطى) ، ترجمة فريد داغر ، يوسف أسعد داغر ، منشورات عويدات ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٨٢ م .

- ارشبالد ، ر ، لويس :

١٤٥ - القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الابيض المتوسط ، ترجمة محمد أحمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

- الياهو آشور :

١٤٦ - التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الاوسط فى العصور الوسطى .
ترجمة عبد الهادى علبة ، دار قتيبة ، دمشق ، ١٩٨٥ م .

- شارل ديل :

١٤٧ - الهندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم .
توفيق اسكندر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٨ م .

- صامويل برنارد :

١٤٨ - النقود العربية ، ضمن المجلد السادس من موسوعة وصف مصر ،
ترجمة زهير الشايب ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الاولى ، القاهرة ،
١٩٧٩ م .

- عزيز سوربال عطية :

١٤٩ - العلاقات بين الشرق والغرب ، ترجمة فليب صابر سيف ، دار الثقافة ،
الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

- فرنان برودل :

١٥٠ - من ذهب السودان الى فضة أمريكا ، ترجمة توفيق اسكندر فى كتاب
دراسات وبحوث فى التاريخ الإقتصادى ، دار النشر للجامعات المصرية ،
القاهرة ، ١٩٦١ م .

- مارك بلوك :

١٥١ - مشكلة الذهب فى العصر الوسيط ، ترجمة توفيق اسكندر فى الكتاب
السابق ، بحوث ودراسات فى التاريخ الإقتصادى .

ABBARVITATIONS

- 1 - **A. N. S.** (American Numistic Society).
- 2 - **I. J. M. E. S.** (International of Journal of Middil East Studies).
- 3 - **J. E. S. H. O.** (Journal of the Economic and Social History of the Oriant).
- 4 - **N. C.** (Numismatic Chronicle).
- 5 - **R. E. I.** (Revue des Etudes Islamiques).
- 6 - **R. N.** (Revue Numismatique, : Paris).

سابعاً - المراجع غير العربية

- 152 - ASHTOR, E. Les Metaux Precieux et La Balance Des
Payements Du Proche Orient ala Basse Epoque, Paris,
1971.
- 153 - BACHARACH, J. "Circassian Monetary Policy Silver" N.
C. V. II. 1971.
- 154 - BACHARACH, J. "The Dinar Versus the Ducat".
I. J. M. S., 4. 1973.
- 155 - BALOG, P. "The Coinage Of the Mamluk Sultans of Egypt
And Syria". A. N. S., 16. 1970.
- 156 - DARRAG, A. "L'EGYPTE Le Regne De sous Barsbay
(825 - 841/1422 - 1438)" 1916.
- 157 - GENNEP, A R "Le Ducat Venition en Egypte". R. N.
1897.
- 158 - HEYD, W. Histoire Du Commerce Du Levant Au Moyen
Age. vols. 2 Leipzig : 1923.
- 159 - LABIDUS, I. S. "The Grien Economy Of Mamluk Egypt".
J. E. S. H. O., 12. 1969
- 160 - LOPEZ, R. S. "The Dollar of the Middle Ages". J. E.-S.H.
O. vol, XI, 1951.

فهرس الموضوعات

| الصفحة | الموضوع |
|--------|--|
| ٥ | المقدمة . |
| ٧ | التمهيد . |
| | الفصل الأول |
| ٤٧ | دور سك العملة في دولة المماليك |
| ٤٧ | ١ - أهميتها ، مراكزها ، وفازها بحاجة الدولة من العملات . |
| ٤٩ | أهمية دار سك النقود . |
| ٥٢ | مراكزها . |
| ٦٠ | وفازها بحاجة الدولة من العملات . |
| ٧٠ | ٢ - الإشراف والادارة على دور الضرب . |
| ٧٠ | أولاً : الإشراف |
| ٧٤ | ثانياً : الإدارة |
| ٧٩ | ثالثاً : العمال والفنيون بدار الضرب |
| ٨٢ | ٣ - المعادن المستخدمة لسك العملات ومصادرها . |
| ٨٥ | مصادر الذهب |
| ١٠٣ | مصادر الفضة |
| ١١٣ | مصادر النحاس |
| ١٢٧ | المصادر الداخلية للمعادن . |
| ١٤٣ | ٤ - مراحل سك العملة . |
| ١٤٦ | أولاً : تصفية المعادن وتنقيتها . |
| ١٥٠ | ثانياً : اختبار المعادن وضبط عيارها . |

١٥٤ ثالثاً : إعداد السبائك للختم .

١٥٦ رابعاً : قوالب السك (الأختام) .

الفصل الثانى

النقود المملوكية

١٦١ أنواعها، أوزانها، عياراتها، إصداراتها

١٦٤ ١ - أنواع النقود المملوكية .

١٦٥ النقود الذهبية

١٧١ النقود الفضية

١٧٦ النقود النحاسية

١٨٠ النقود الحسابية

١٨٨ ٢ - أوزان النقود المملوكية وعياراتها .

١٨٨ أوزان النقود المملوكية

١٩٤ عيارات النقود المملوكية

١٩٩ ٣ - إصدارات النقود المملوكية .

٢٠٠ عوامل ضرب النقود فى الدولة .

٢٠٦ النقود المتداولة عند قيام الدولة .

٢١١ مسح تاريخى لإصدارات النقود المملوكية .

٢٥٨ المجالات التى استخدمت فيها العملات المملوكية .

الفصل الثالث

القيم النقدية للنقود المملوكية

٢٦٣

٢٦٥ ١ - المقصود بالقيمة النقدية ومؤثراتها المختلفة .

٢٦٧ ٢ - متوسط القيمة النقدية .

٢٧. ٣ - القيمة النقدية للدينار .
 ٢٧. أولاً : فى العهد المملوكى البحرى
 ٢٨٣ ثانياً : فى العهد المملوكى الجركسى
 ٣٢٥ ٤ - القيمة النقدية للدرهم .
 ٣٤٧ ٥ - القيمة النقدية للفلوس النحاسية .
 ٣٦٩ ٦ - نتائج دراسة القيمة النقدية .

الفصل الرابع

- ٣٧٣ القيمة الشرائية للنقود المملوكية
 ٣٧٥ ١ - المقصود بالقيمة الشرائية .
 ٣٧٨ ٢ - العوامل المؤثرة فى القيمة الشرائية .
 ٣٨٥ ٣ - متوسط القيمة الشرائية .
 ٣٨٨ ٤ - تطورات القيمة الشرائية (الأسعار) .
 ٣٩. أولاً : فى العهد المملوكى البحرى
 ٤٠٨ ثانياً : العهد المملوكى الجركسى
 ٤٥٦ ٥ - نتائج دراسة القيمة الشرائية .

الفصل الخامس

العلاقة النقدية بين العملات المملوكية

- ٤٦٣ والعملات المعاصرة لها
 ٤٦٥ ١ - العوامل المؤثرة فى العلاقة ضعفاً وقوة .
 ٤٦٦ أولاً : القوة السياسية للدولة ومدى نفوذها .
 ٤٦٨ ثانياً : القوة الاقتصادية للدولة .
 ٤٧٢ ثالثاً : السياسة النقدية لسلطين المالك .

- ٤٧٥ رابعاً : حاجة الدولة الى المعادن ومدى توفرها لاصدار العملات
 ٤٧٦ خامساً : الفساد النقدي .
 ٤٧٧ ٢ - العملات ذات العلاقة بالعملة المملوكية
 ٤٨١ النقود البيزنطية
 ٤٨٣ النقود الصليبية
 ٤٨٦ الدراهم اللنكية
 ٤٨٩ الدراهم القرمانية
 ٣ - التنافس النقدي بين الدرهم المملوكي والدرهم البندقي وموقف
 ٤٩٢ الدولة من ذلك .
 ٤ - التنافس النقدي بين العملة الذهبية المملوكية والعملات الذهبية
 ٤٩٧ الايطالية .
 ٥ - محاولات الدولة وقف تقدم العملات الذهبية الايطالية . ٥٠٩
 ٦ - دراسة مقارنة بين القيم النقدية للدينار المملوكي والدينار
 ٥١٨ الايطالي .

الفصل السادس

- ٥٣٧ الفساد النقدي في الدولة
 ٥٣٩ ١ - مفهوم الفساد النقدي وتعدد مظاهره في الدولة .
 ٥٤٩ ٢ - المسئولون والافراد ودورهم في تفشي ظاهرة الفساد النقدي .
 ٥٥٦ ٣ - سياسة الدولة في مواجهة الفساد النقدي .
 ٥٦٤ ٤ - تأثيرات الفساد النقدي على أوضاع الدولة .
 ٥٧١ ٥ - موقف العامة من تلك التأثيرات .
 ٥٧٧ ٦ - مواقف العلماء في مواجهة الفساد النقدي وتأثيراته .

- الخاتمة ٥٩٩
- الملاحق ٦١١
- ١ - جدول خاص بفترات حكم سلاطين الماليك . ٦١٣
- ٢ - توقيع بشد دار الضرب . ٦١٧
- ٣ - توقيع بشهادة دار الضرب . ٦١٨
- ٤ - إبطال العمل بدار الضرب لعدم توفر المعادن اللازمة لضرب النقود . ٦١٩
- ٥ - مرسوم أصدره المفيد شيخ باعتماد الدنانير الذهبية والدرهم الفضية بدل الفلوس النحاسية في عمليات الدفع . ٦٢٠
- ٦ - تعليمات دوق جمهورية فلورنسا سنة ١٤٢٢ م والمعاصر للسلطان الاشرف برسباى الى قناصله فى مصر للدعاية للفلورين والعمل على توسيع دائرة انتشاره . ٦٢١
- ٧ - خطاب من السلطان الاشرف قايتباى الى دوق جمهورية البندقية ٨٣٣ / ١٤٧٢ م . ٦٢٢
- ٨ - بعض نصوص اتفاقية السفير البندقى تريفزانى والسلطان قانصوة الفورى ٩١٧ هـ / ١٥١١ - ١٥١٢ م المعروفة (بالاتفاقية الشاملة) . ٦٢٥
- ٩ - ثلاث خارطات عن طرق التجارة الدولية فى الفترة موضوع الدراسة . ٦٢٩
- فهرس المصادر . ٦٣٥
- فهرس الموضوعات . ٦٦٥

مطبعة الانتصار

لطباعة الأوهفست

١٠ شارع الوردى كوم الدكة

تليفون : ٤٩١٦٥٩٧

محمد صبرى